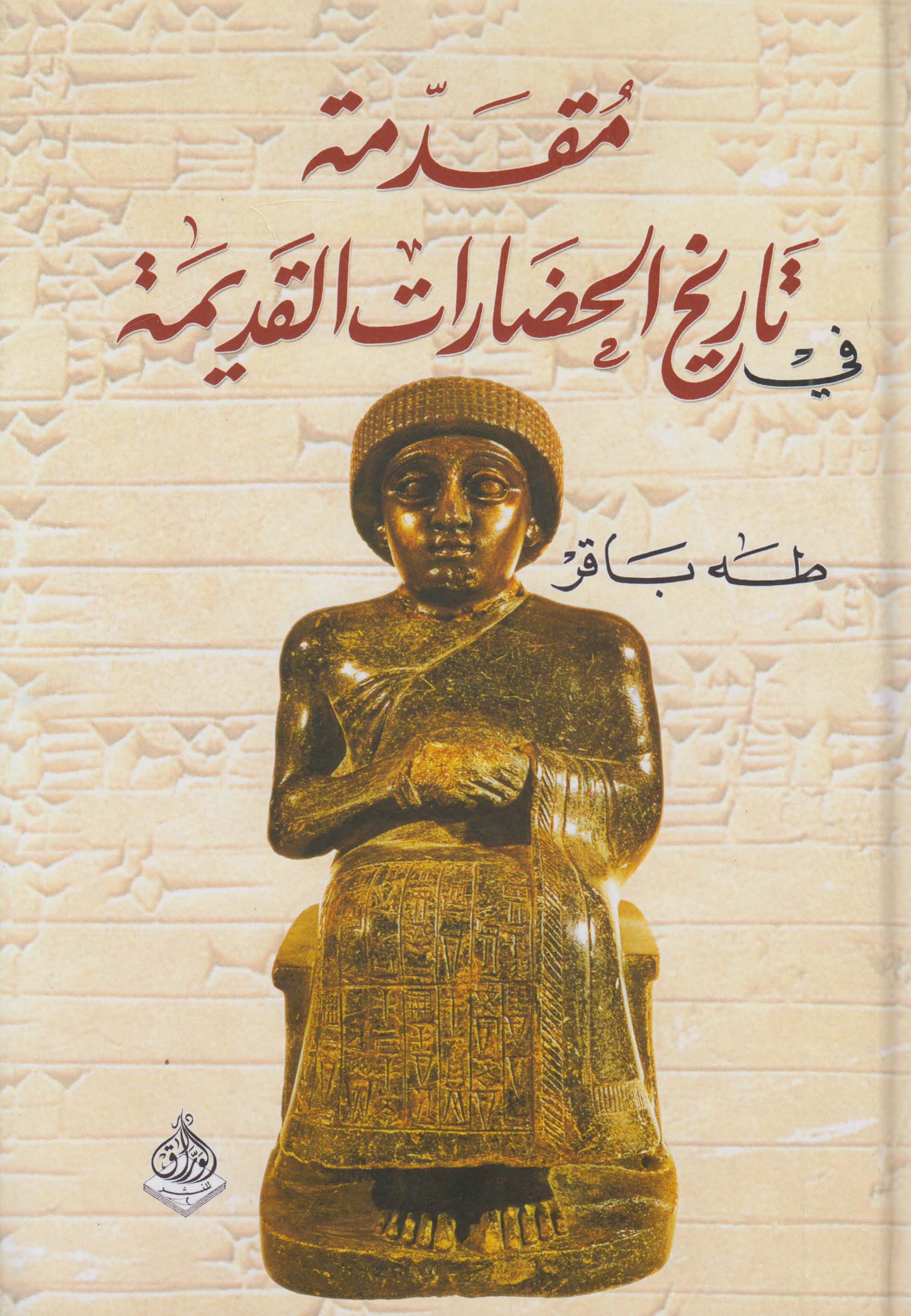
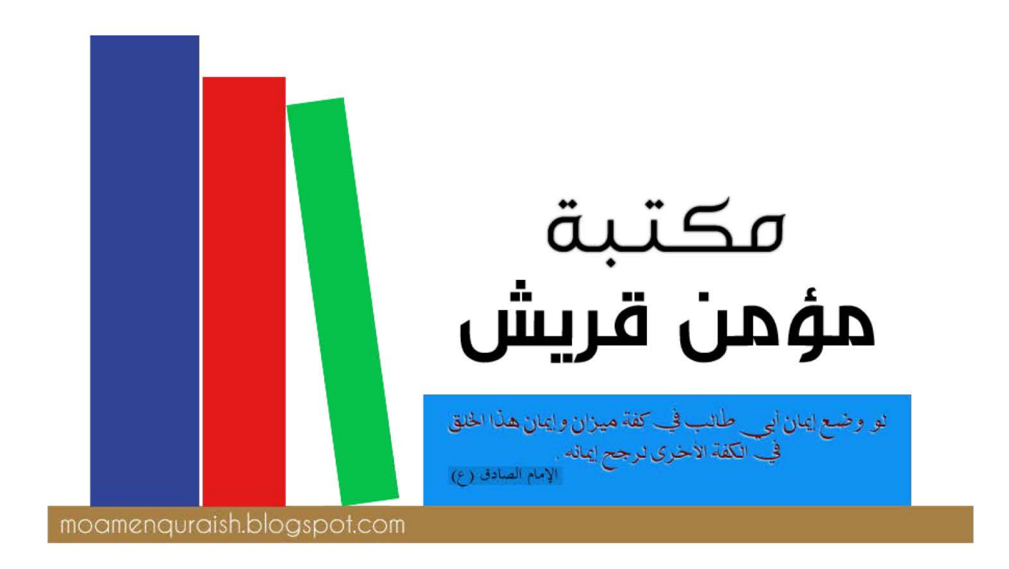

مقدمة
في تاريخ الحضارات القديمة
طه باقر



مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

* الكتاب : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة .
* تأليف : طه باقر .
* الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة: 2009.
* الطبعة الثانية لشركة الوراق للنشر المحدودة 2012
* جميع حقوق مؤلفات طه باقر محفوظة لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة
* تصميم الغلاف : جبران مصطفى .
* صورة الغلاف : أثر سومري .
* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

First edition by Alwarrak Publishing Ltd. 2009

www.alwarrakbooks.com

ISBN: 978-1-900700-45-0

التوزيع

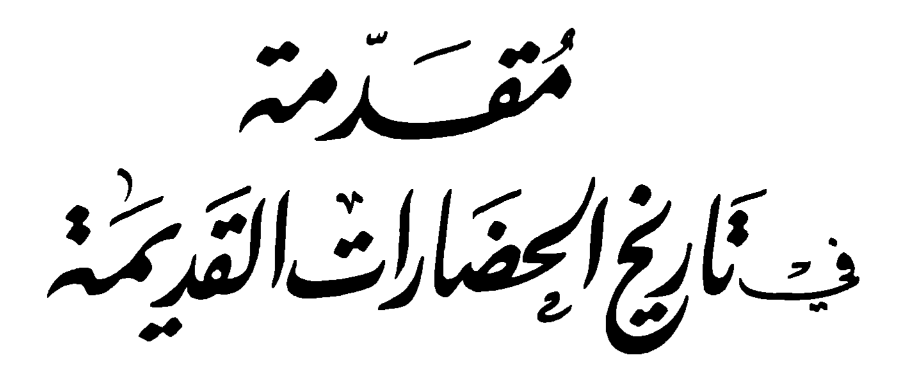
Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي
تلفون، 0096447702749792
009647801347076

شركة دار الورّاق للنشر
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني
طابق سفلي
تلفون، 009611341927
فاكس، 009611750053

طه باقر



الجزء الأول

الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين



الفهرس

الفصل الأول: مقدمة في صفة الأرض والسكان

الفصل الثاني: تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية

الفصل الثالث: عصور ما قبل التأريخ

الفصل الرابع: عصور ما قبل التأريخ

الفصل الخامس: دول المدن السومرية أو عصر السلالات

الفصل السادس: الأمبراطورية الآكدية ودولة (أور) الثالثة

الفصل السابع: العصر البابلي القديم والسلالات البابلية الأخرى

الفصل الثامن: موجز تاريخ الآشوريين

الفصل التاسع: العهود الأخيرة من تأريخ العراق القديم

طه باقر
(١٩١٢ ـ ١٩٨٤)

هو طه باقر ناصر: ولد في الحلّة، وفيها أكمل الابتدائية والمتوسطة. وانتقل إلى بغداد فتخرّج في الثانوية المركزية عام 1932، ثم انتقل إلى أمريكا فتخرّج في جامعة شيكاغو ـ المعهد الشرقي بشهادة البكالوريوس والماجستير في الآثار عام 1938. عيّن في عدة وظائف ومنها: خبير فني في مديرية الآثار العامة (1938 ـ 1948) وأمين المتحف العراقي (1941 ـ 1953) ومدير الآثار العام (1958 ـ 1963) وعضو المجلس التأسيسي لجامعة بغداد (1957 ـ 1958) ونائب رئيس جامعة بغداد (1960 ـ 1963) ومستشار الشؤون الثقافية الأثرية في ليبيا (1965 ـ 1971) من مؤلفاته:

1 ـ دليل المتحف العراقي (بالعربية والإنكليزية) (1942).

2 ـ تقارير بالإنكليزية عن التنقيبات في عقرقوف لندن (1944 ـ 1946).

3 ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مجلدان (1955).

4 ـ ترجمة كتاب توينبي (بحث في التاريخ) (1955).

5 ـ كتاب من ألواح سومر (1958).

6 ـ ملحمة جلجامش.

7 ـ وله أيضاً رحلات أثرية جغرافية (1961 ـ 1962).

8 ـ أدب العراق القديم (1971).

9 ـ من تراثنا اللغوي القديم (2001).

10 ـ الصلات التاريخية بين أقطار الشرق الأدنى القديم (دمشق 1947).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

مضى على كتابي الموسوم: «مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة» نحو ثماني عشرة سنة[1]، وهي فترة تعدُّ طويلة بالنسبة إلى ما استجدَّ من اكتشافات آثارية وما استتبع ذلك من بحوث ودراسات جديدة في حضارة وادي الرافدين أضافت الكثير من الآراء والاستنتاجات الأساسية عن تأريخ هذه الحضارة الذي ما زال يكتنفه الكثير من القضايا والمسائل التي يستلزم حلها متابعة التنقيبات والتحريات الآثارية والدرس والبحث. وإن ما أسفرت عنه الدراسات والبحوث في غضون هذه الفترة استوجب إعادة النظر في كثير من المواضيع والأوجه عن تأريخ هذه الحضارة. وكنت أواكب ما يستجد من استنتاجات وتغييرات في الموضوع، فتجمعت لدي مادة جديدة وغزيرة حتمت عليَّ أن أعيد كتابة مؤلَّفي السالف الذكر في كتاب جديد ضمنته كل ما استجد من دراسات وبحوث، وبدلت في أسلوب عرض مادته. فأولاً إن سعة المادة الجديدة التي تجمعت لدي عن حضارة وادي الرافدين استلزمت توزيع هذه المادة في جزأين، خصصت الجزء الأول منهما، وهو الذي أقدمه للقُرَّاء الآن، لتأريخ العراق القديم منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى نهاية العصر

(1) الطبعة الأولى 1951، والطبعة الثانية المنقَّحة 1955.

الساساني أي بداية الفتح العربي الإسلامي، موجزاً فيه عهود هذا التأريخ المتطاول في القدم، وخلاصة الأحداث السياسية والحضارية والسلالات والدول التي حكمت فيها وما صاحب ذلك من تغييرات اقتصادية واجتماعية وفنية، بإيجاز الخصائص الحضارية والثقافية لكل دور من أدواره التأريخية. أما القسم الثاني، الذي هو الآن في طريق الإعداد والتقديم إلى الطبع، فقد خصصته للأوجه والمقومات الحضارية المختلفة من ديانة ومعتقدات، وشرائع وآداب، ومعارف وعلوم، ونظم ومؤسسات اجتماعية وسياسية واقتصادية. وثانياً استتبع عن هذا التقسيم أني غيّرت طريقة عرض المادة التي اتبعتها في كتابي القديم، الذي كنت قسمت المجلد الأول منه الخاص بحضارة وادي الرافدين[1] إلى قسمين، تناول القسم الأول منهما إيجاز الأدوار التأريخية من الناحية السياسية، وخصص القسم الثاني للأوجه الحضارية المختلفة. ومع أن هذا التقسيم لا يزال متَّبعاً في كتابي الجديد، بيد أن ما ذكرته من ازدياد مادة الكتاب وحجمه من جهة، ومتطلبات المنهج التأريخي الجديد الذي اتبعته في طريقة العرض، كل ذلك جعلني أوجز في الجزء الأول من كتابي الجديد المخصص للأدوار السياسية الخصائص والميزات الحضارية العامة في نهاية كل عصر من العصور التأريخية، مرجئاً التفصيل والإسهاب إلى الجزء الثاني الذي سيتناول المواضيع الحضارية كلاً على انفراد، ويتتبع كل موضوع حضاري منها وتطوره عبر الأدوار التأريخية المختلفة في تأريخ حضارة وادي الرافدين. ولعله لا يخفى على القارئ ما لهذا الأسلوب الجديد في العرض من فوائد وميزات، في جعله يلمّ بمقومات حضارة وادي الرافدين في كل عصر من عصورها المعروفة، ويتابع تبدلاتها وتطورها عبر تلك العصور، بحيث يستطيع قارئ الجزء الأول ممن لا يريد التبسط والتوسع أن يؤجل إلى حين قراءة القسم الثاني المخصص لتلك المقومات والأوجه الحضارية كما ذكرنا.

وإذا كان كتابي هذا قد وضع بالدرجة الأولى ليفي بحاجة طلاب التأريخ

---

(1) أما المجلد الثاني فقد تناول حضارات الشرق القديم.

القديم وفرع الآثار والحضارات القديمة في كليات الجامعات العراقية، وبحاجة غير المختصين في الموضوع أيضاً، فإنني لعلى يقين من أنه سيحقق إلى ذلك حاجة المختصين وعامة المثقفين ويغنيهم عن مراجعة المئات من البحوث والنشرات المختلفة المتفرقة في عشرات المجلات الآثارية في اللغات الأوروبية.

ورغم ما قد يُحمل مني محمل التبجُّح لا معدى لي من القول إنني وفيت الكثير من تلك الدراسات والبحوث حقها من الدرس والمتابعة، آخذاً منها أهم المطالب والآراء الجديدة، كما تشير إلى ذلك المراجع والمظان الكثيرة التي استشهدت بها في كل صفحة تقريباً، وإن كتابي هذا ثمرة اشتغالي في حقل الآثار والتأريخ، تنقيباً وبحثاً وتدريساً ونشراً طوال أكثر من ربع قرن من الزمان. وإلى المادة الجديدة التي نوَّهت بها أضفت إلى الجزء الأول أثباتاً تأريخية مفصلة بالأدوار التأريخية والسلالات الحاكمة وأسماء ملوكها مما يحتاج إلى الرجوع إليها المختصون وغير المختصين.

وفي الختام لا بدَّ من أن أنوِّه بالفرصة التي أتاحها لي صديقي الأستاذ الفاضل علي الخاقاني، صاحب مكتبة دار البيان في بغداد لإخراج كتابي هذا، فهو الذي تولى أمر طبعه ونشره، فله مني أجزل الشكر.

بغداد في صيف 1973

طه باقر

الفصل الأول

مقدمة في

صفة الأرض والسكان

جرت عادة المؤرخين على أن يمهدوا لتأريخ القطر الذي يبحثون في حضارته بمقدمة جغرافية يبينون فيها صفة الأرض التي وقعت فيها حوادث تأريخية ليكون الدارس لهذا التأريخ واقفاً على طبيعة مسرح تلك الحوادث ومدركاً لسير تأريخه، مفترضين أن عوامل البيئة الجغرافية أثرت في حوادث ذلك التأريخ وأكسبت حضارة ذلك القطر الطابع المميّز لها.

ومع أنه ليس من الصواب التطرف بجعل البيئة الجغرافية العامل الأول والأساس في تسيير الحضارة والتأريخ، إلا أنه ينبغي للباحث أن يدخل في حسابه أثر العوامل الجغرافية في حياة الإنسان وسير حضارته. وإذا كان الإنسان في رأيي هو العامل الحاسم في سير الحضارة والتأريخ، بيد أنه ينبغي أن ننظر إلى أثر الإنسان على هيئة تفاعل بينه وبين بيئته، في الطرق والوسائل التقنية (التكنولوجية) التي يبتدعها لترويض الطبيعة وتسخيرها له، واستغلال إمكانياتها التي تقدمها له أو التي يكتشفها هو فيها. وعلى هذا الضوء نقدم لهذا الوجيز في تأريخ العراق القديم بذكر أبرز خصائص بيئته الجغرافية، متحاشين التبسط في سرد جغرافيته الطبيعية وهو ما يمكن الرجوع إليه في الكتب الجغرافية المتيسرة، وإنما سنتناول تلك الميزات والظواهر البارزة التي نعتقد أنها أثرت بوجه خاص في سير حوادث تأريخه وتطور حضارته واتّسامها بالطابع العام المميّز لها. وبعبارة أخرى سيكون موضوع هذه المقدمة الجغرافية بالدرجة الأولى ما يصطلح عليه «الجغرافية التأريخية»، كالتغييرات المهمة في جغرافيته الطبيعية، مثل تبدل مجاري أنهاره، وموقعه الطبيعي، وما كان له من

آثار في مناخه وتركيب سكانه، إلى غير ذلك من العوامل الجغرافية الحاسمة التي سنصفها بالإيجاز في الصفحات التالية.

وقبل أن نبدأ بتعداد الميّزات الجغرافية المهمة يستحسن أن نورد بعض الملاحظات المفيدة عن اسم «العراق»، والأسماء التأريخية الأخرى التي عرف بها القطر في عصوره التأريخية المختلفة.

أما عن الاسم «عراق» فقد اختلفت آراء الباحثين في أصله ومعناه. ومن الممكن حصر هذه الآراء في ثلاثة احتمالات: (1) إن الاسم «عراق» عربي الأصل، (2) إنه معرب من أصل فارسي، (3) إنه يرجع في أصله إلى تراث لغوي من العراق القديم. فإذا أخذنا بالأصل العربي وجدنا عدة آراء في معنى «عراق» منها أنه «الشاطئ»، أي شاطئ البحر أو سيف البحر أو مطلق الشاطئ، وأن أهل الحجاز يسمون البلاد القريبة من البحر عراقاً، لدنوّه من البحر ولأنه على شاطئ دجلة والفرات أيضاً، أو أن معناه حرف الجبل أو سفوح الجبال المتاخمة لأطرافه الشمالية والشرقية[1]. أما الذين يرون الأصل الفارسي فقد اختلفوا أيضاً في معناه، فمنهم من ذهب إلى أنه مأخوذ من أصل يعني الساحل في الفارسية (ايراه الذي عرب إلى إيراق ثم عراق). وفي مفاتيح العلوم للخوارزمي وتأريخ حمزة الأصبهاني أن التسميتين «إيران» و«عراق» غلط والصواب فيهما «إيراك» (بالكاف الفارسية) وأنها أصل لفظ «إيران» و«عراق». وشبيه بهذا ما ذهب إليه الباحث الآثاري «هرتسفلد» من أن «عراق» معرب من «إيراك» الفارسية التي تعني البلاد السفلى[2]. أما الاحتمال الثالث أي إرجاع لفظ «عراق» إلى تراث لغوي من العراق القديم فهو، مع أنه لا يمكن الجزم به أو ترجيحه على أحد الرأيين السابقين، حري بالاعتبار، وخلاصته أن لفظ «عراق» يرجع في أصله إلى تراث لغوي إما من السومريين أو من قوم آخرين من غير السومريين ولا الساميين استوطنوا السهل الرسوبي منذ أبعد عصور

---

(1) راجع على سبيل المثال «تاج العروس» و«معجم البلدان»، لياقوت الحموي.

(2) مجلة «لغة العرب»، المجلد الرابع، ص 441.

ما قبل التأريخ فيه[1]، وأنه مشتق من كلمة تعني المستوطن ولفظها «أوروك» أو «أونوك» (Uruk. Unug)، وهي الكلمة التي سميت بها المدينة السومرية الشهيرة «الوركاء»، كما أن الكلمة نفسها تدخل في تركيب أسماء جملة مدن قديمة شهيرة مثل مدينة «أور» ومدينة «لارسة» وغيرهما. على أن نقطة الضعف في هذا الرأي أن هذا المصطلح لم يطلقه سكان العراق القدماء على القطر كله. ويرى المؤرخ المعروف «أومستد» أن أول استعمال لكلمة عراق ورد في العهد «الكشّي» (منتصف الألف الثاني ق.م) في وثيقة تأريخية ترقى في تأريخها إلى حدود القرن الثاني عشر ق.م، وجاء فيها اسم إقليم على هيئة «أريقا» الذي صار، على ما يرى الباحث المذكور، الأصل العربي لبلاد بابل[2]. وأوضح استعمال شاع لمصطلح «عراق» بدأ في الأدوار الأخيرة من العهد الساساني ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين، حيث بدأ استعماله يظهر في الشعر الجاهلي.

وإذا كان العراقيون القدماء، كما ذكرنا، لم يطلقوا مصطلح «أوروك» أو نحوه على القطر أو على جزء منه على الأقل فماذا كانوا يسمون هذا القطر يا ترى قبل أن يشيع استعمال اسم «عراق» في أواخر العهد الساساني؟ وللإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز نقول إن أقدم أشكال للحكم في العراق في مطلع الألف الثالث ق.م، كما سيأتي شرح ذلك في الفصل الرابع، كان على هيئة ما يسمى بدولة المدينة (City State) على غرار ما كانت عليه التنظيمات السياسية في بلاد اليونان القديمة. فكان الحكام السومريون وغيرهم ممن حكم في دول المدن يلقب كل منهم نفسه بلقب حاكم المدينة التي كانت مركز دويلته مثل حاكم لجش (Ensi Lagash) وحاكم «أور» (Ensi Urima)... إلخ، وفي حدود أواخر ذلك العصر الذي يسمى أيضاً عصر فجر السلالات (2800 ـ

---

(1) حول هؤلاء القوم راجع القسم الخاص بالأقوام القديمة في هذا الفصل.

(2) Olmstead, *History Of Assyria*, P. 60.

(النهرين)، صارت ضمن الولاية الأخمينية السابقة المسماة «عبر النهر».

2400ق.م) ابتدع آخر حاكم من حكام هذا العصر وهو المسمى «لوكال زاكيزى» لقباً سياسياً جديداً بأن سمى نفسه «ملك الإقليم» (Lugal Kalam-ma) وكلمة «كلام» (Kalam)، المضاهية لكلمة الإقليم العربية لفظاً ومعنى، تعني بوجه خاص إقليم الشخص المتكلم أي وطنه[1]. وفي حدود ذلك الزمن أو بعده بقليل ظهر في الاستعمال مصطلحان جغرافيان مهمان أحدهما «بلاد سومر» (Ki-En-Gi) للقسم الجنوبي من السهل الرسوبي والآخر بلاد «آكد» (Ki-Uri) للقسم الأوسط من ذلك السهل.

وتسمية «بلاد سومر» أو على الأصح «شومر»، جاءت في الكتابات الآكدية السامية على هيئة «مات شومريم» (بلاد السومريين)، وتكتب بمجموعة العلامات المسمارية (Ki-en-gi) التي ذكرناها، ولا يعلم معناها بوجه التأكيد، وقيل في معناها الحرفي إنها تعني «أرض سيد القصب». وتلفظ العلامتان المعبّر بهما عن «بلاد آكد» أي (Ki-uri) في اللغة الآكدية «مات آكديم» (بلاد الآكديين). هذا ولا توجد حدود طبيعية واضحة بين ما كان يسمى «بلاد آكد» و«بلاد سومر». بيد أنه يمكن القول بوجه عام إن القسم الأوسط من السهل الرسوبي أي من حدود بغداد أو فوق بغداد إلى جنوب مدينة الحلة كان «بلاد آكد»، وإلى الجنوب من ذلك «بلاد سومر» وفي وسعنا تحديد مركز الحضارة السومرية بالمواقع الشهيرة من بلاد سومر (الواقعة في محافظتي الناصرية والديوانية الآن). وفي مقدمتها مدينة «نفر» (التي يرجح أنها كانت تقع في الحد الشمالي من بلاد سومر) والوركاء (أوروك أو أرك) و «لارسة» (السنكرة) و«ايسن» (إيشان بحريات) و«أدب» (بسمي) و«شروباك» (فاره) و«لجش» (تلول الهباء) و«لوما» (جوخة) و«زبلام» (بزيخ) و«أور» و«أريدو»، وغيرها. أما أشهر مدن بلاد آكد فكانت (اعتباراً من الشمال) آكد (في مكان ما بين بلدة المحمودية والحلة) و«سبار» (أبو حبة) و«كوثى» (تل إبراهيم أو حبل

---

(1) وللتمييز بين القطر الذي هو وطن المتكلم وبين الأقطار الأخرى الأجنبية أطلق السومريون على القطر الأجنبي كلمة «كر».

إبراهيم) و«بابل» و«كيش» (الأحمير) وبورسبا (برس نمرود) ودلبات (تل الديلهم) ومرد (ونة والصدوم) وغيرها.

واستعمل سرجون مؤسس السلالة الآكدية (2371 ـ 2316ق.م) أو على الأرجح حفيده «نرام ـ سين» (2291 ـ 2255ق.م) لقباً سياسياً جديداً هو «ملك الجهات الأربع»، وبالسومرية (Lugal An-Ub-Da-Limmu-Ba) وفي الآكدية (Shar Kibrat Arbaim) أي «ملك العالم أو الكون»، وهو بالأصل لقب ديني خصص لكبار الآلهة. وظهر في أوائل زمن سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004 ق.م) لقب مهم جديد هو: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد» وبالسومرية (Lugal Ki-en-gi Ki-Uri) وكان أول من استعمله على ما نعرف لحد الآن ملك الوركاء المسمى «أوتو ـ حيگال» الذي اشتهر بأنه طرد الكوتيين وحرر البلاد منهم، وأعقبه ملوك سلالة أور الثالثة الذين استمروا في استعمال هذا اللقب بالإضافة إلى لقبهم الخاص «ملك مدينة أور»، وظل هذا المصطلح في الاستعمال إلى آخر العهود التأريخية تقريباً. ولكن استحدثت إلى جانبه تسميات جغرافية سياسية أخرى منها «بلاد بابل» و«بلاد آشور»، ومنها التسميتان الأوروبيتان «بابيلونيا» (Babylonia) و«أسّريا» (Assyria). وأوجد الملوك الكشيون الذين حكموا البلاد من بعد سلالة بابل الأولى في منتصف الألف الثاني ق.م، مصطلح «كار دُنياش» أي بلاد «دُنياش» و«دُنياش» اسم أحد الآلهة الكشية، وقد أطلقت هذه التسمية على بلاد سومر وآكد. واستعمل عدد من الكتاب اليونان والرومان وأولهم المؤرخ «هيرودوتس» مصطلح «بلاد بابل» (بابيلونيا) و«بلاد آشور» (أسريا) لإطلاقه على القطر كله أو الأجزاء الوسطى والجنوبية منه، كما استعملوا تسمية «كالدية» أو «كلدية» (أي بلاد الكلدانيين نسبة إلى الكلدانيين الآراميين الذين أسسوا الدولة الكلدية ما بين القرنين السابع والسادس ق.م) وورد مصطلح إقليم بابل أو أرض بابل في استعمال المؤرخين والبلدانيين العرب.

١ ــ بلاد «ما بين النهرين» (ميزوبوتامية):

في زمن ما بين القرن الرابع والثاني ق.م ظهر في استعمال الكتاب اليونان والرومان المصطلح الجغرافي المعروف «بلاد ما بين النهرين» أي التسمية الإغريقية «ميزوبوتامية» (Mesopotamia) وهو المصطلح الذي شاع استعماله عند الكُتّاب الأوروبيين لإطلاقه على هذه البلاد كلها أو بعضها، ولا يزال يستعمل حتى بعد ذيوع استعمال تسمية العراق. ولعل أقدم وأوضح استعمال لتسمية «ميزوبوتامية» ما ورد في كتاب المؤرخ الشهير «بوليبيوس» (Polybius) (202 ـ 120ق.م)، على الرغم من احتمال ظهور استعمال المصطلح في عهد الاسكندر الكبير[1]. وتبع «بوليبيوس» الجغرافي الشهير «سترابو» أو «سترابون» (64ق.م ـ19م) في استعمال هذا المصطلح لإطلاقه على ذلك الجزء من العراق المحصور ما بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريباً أي إنه كان يرادف تقريباً مصطلح «الجزيرة» الذي أطلقه البلدانيون العرب على القسم الشمالي من وادي الرافدين. أما انتشار استعمال هذا المصطلح الجغرافي من بعد ذلك في اللغات الأوروبية فكان بوجه خاص من بعد ترجمة التوراة إلى اليونانية واللغات الأوروبية، إذ جاء في التوراة ذكر الإقليم المسمى «أرام نهرايم»[2] (سفر التكوين 24: 10) الذي يعني «آرام

---

(1) يروي المؤرخ «أريان» (65ـ175م)، الذي اشتهر بتأريخه عن الإسكندر الكبير أن الإسكندر أحدث ولاية إدارية باسم «ميزوبونامية». ومع أن «أريان» متأخر في زمنه بزهاء أربعة قرون عن عهد الإسكندر بيد أن مادة كتابه مأخوذة من مصادر معاصرة بعهد الإسكندر أو قريبة منه. انظر كتاب أريان المعنون (حملة الإسكندر):

Arrian, *Anaoases of Alexander.*

وانظر كذلك: Finkelstein in JNES, xxi (1962), 73h.

(2) «أرام ـ نهرايم» كلمة آرامية (أرض النهرين). وقد وردت تسمية بابلية أقدم منها هي «مات بريتم» (Mat biritim) أي (أرض المابين) للجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين. كما ورد مصطلح «بيرت نارم» (ما بين النهرين) (Birit narim) و«نهارينا» (Naharina)، الذي أطلق على المملكة المسماة «ميتاني» في رسائل «العمارنة» الشهيرة (القرن الرابع عشر ق.م). انظر:

Finkelstein, Ibid, JCS. Ix (1955).

النهرين» (أي بلاد ما بين النهرين)، على أن المقصود بهذا الإقليم في أصل ما وضع له في التوراة ليس بوجه التأكيد الأرض الكائنة ما بين نهري دجلة والفرات وإنما يرجح أن يكون النهران المذكوران في التوراة نهري الفرات والخابور أو نهري الخابور والباليخ أو كلا هذين النهرين مع الفرات. ومهما كان الحال فإنه عندما ترجمت التوراة إلى اليونانية ترجم المصطلح الآنف الذكر «آرام نهرايم» بكلمة «ميزوپوتامية» اليونانية، ثم دخل هذا المصطلح إلى اللغات الأوروبية من بعد ترجمة التوراة اليونانية إلى اللغات الأوروبية واتسع مدلوله من القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين إلى إطلاقه على القطر العراقي كله.

ولنعد إلى كلمة «العراق» من بعد ظهور استعمالها في أواخر العهد الساساني أي في العصر الجاهلي، فنقول إنها بدورها قد تطورت في الاستعمال واتسع مدلولها عند الجغرافيين العرب. فقد كثر ورود اسم العراق في الشعر الجاهلي واقترن لدى شعراء البادية بالرخاء والخيرات. وكان العرب يطلقون أيضاً على بلاد ما بين النهرين الشمالية أو العليا اسم «الجزيرة» الذي قلنا إنه يكاد يطابق مصطلح «ميزوپوتامية» اليوناني، وأطلقوا اسم العراق على الأقسام الوسطى والجنوبية مما يسمى العراق الآن، وكانوا يميزونه في بعض الأحايين بنعته بالعراق العربي تمييزاً له عن «عراق العجم» (الجزء الجنوبي من إيران) كما سموا السهل الرسوبي بالسواد لخضرته، وكان مصطلح «السواد» يرادف تسمية العراق في كثير من الاستعمالات، كما سموه «بلاد بابل» أو «أرض بابل»، وهو المصطلح الذي ظل متوارثاً في الاستعمال منذ العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م). أما الحد الفاصل ما بين الجزيرة وبين العراق في استعمال البلدانيين العرب فلم يكن ثابتاً واضحاً بل تغيّر في العصور المختلفة. فكان عند أوائلهم الخط المار تقريباً من الأنبار (الفلوجة) على الفرات إلى تكريت على دجلة، على أن تكريت والأنبار كانتا داخلتين في سواد العراق، ثم توسع الجغرافيون المتأخرون فمدُّوا ذلك الحد أكثر إلى ما فوق الفلوجة بحيث شمل مدناً أخرى على الفرات إلى حدود عانة تقريباً، وصار

مدلول العراق يتسع في استعمال البلدانيين العرب بحيث صار يشمل الجزيرة والقسم الجنوبي، ودخلت ضمنه البلاد الواقعة ما بين الموصل وعبادان طولاً إلى عذيب القادسية غرباً وإلى حلوان شرقاً، أي العراق الحالي تقريباً. وفي العهد السلجوقي (القرنان الخامس والسادس للهجرة) امتد إقليم العراق أكثر فشمل ما يجاور العراق من الأقسام الجبلية من إيران إلى مدينة همدان، وتبلورت حدود العراق الحالية بوجه خاص في العهد العثماني (القرن التاسع عشر) وفي فترة الاحتلال البريطاني (1917).

٢ ـ لمحة عن تأريخ العراق الجيولوجي وتكوين أرضه:

يتباين تكوين أرض العراق في أقسامها المختلفة من حيث تأريخها الجيولوجي، منذ أقدم الدهور الجيولوجية إلى أحدثها، فقد أظهرت التحريات الجيولوجية أنه توجد في بعض الأجزاء تحت السطح صخور قديمة جداً مما يسمى بالصخور النارية (Igneous Rocks) في الأجزاء المتاخمة للحدود الإيرانية والتركية، يعتقد فيها أنها كانت جزءاً من القارة «الأركائية» (العتيقة)، كما توجد على السطح من الناحية الثانية ترسبات حديثة العهد ترجع في زمنها إلى العصر الجيولوجي الحديث (Recent) أو (Holocene) وخلاصة القول يمكن للباحث الجيولوجي أن يجد في أرض العراق صخوراً تمثل الدهور الجيولوجية الأربعة الرئيسة[1] بالإضافة إلى الصخور النارية التي نوَّهنا بها. وكان البحر الجيولوجي المسمى «تيش» (Tethys) لا يزال يغطي أرض العراق في أواخر الدهر الجيولوجي الأول (Primary) في دوره الأخير المسمى «برمي» Permian ولكنه أخذ بالانحسار منذ قبل 60 مليون عام، حيث كانت شبه الجزيرة العربية وبلاد الأناضول ظاهرتين فوق سطح ذلك البحر، واستمرت عملية انحسار هذا

(1) الدهور الجيولوجية الأربعة الرئيسة: (1) الدهر الأول (Primary)، (2) الدهر الثاني (Secondary)، (3) الدهر الثالث (Tertiary)، (4) الدهر الرابع (Quaternary). ويقسم كل من هذه الدهور الطويلة إلى عصور وأدوار ثانوية.

البحر وظهور الأجزاء الشمالية من العراق في أواخر الدهر الجيولوجي الثاني وأوائل الدهر الثالث. وإن جبال العراق، على ما هو معروف، جزء من سلاسل جبال «زاجروس ـ طوروس»، ومن النظام الجبلي العام المسمى بالنظام «الألبي». وتكاملت عملية تكوين الجبال والمرتفعات في أواخر الدهر الجيولوجي الرابع في دوره الأخير المسمى «بلايستوسين» (Pleistocene) وهو الدور الذي تقع فيه العصور الجليدية المعروفة والعصور الحجرية القديمة. وتمّ في هذه الفترة أيضاً تكوين دلتا النهرين أي السهل الرسوبي بفعل ترسبات الطمى والغرين المحمول بالنهرين. وكان هذا السهل على هيئة حوض أو انخفاض جيولوجي في الدهور الجيولوجية السابقة.

٣ ـ مناخ العراق وأحواله الطبيعية في عصور ما قبل التأريخ:

كثيراً ما يتساءل الناس هل كانت أحوال العراق الطبيعية من حيث المناخ والطقس والأمطار كما هي عليه الآن؟ وللإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز نقول إن الأدلة الجغرافية والآثارية تشير إلى أنه لم تطرأ تبدلات أساسية في أحوال القطر المناخية منذ أن استوطن الإنسان السهل الرسوبي في الجنوب ما بين الألفين السادس والخامس ق.م، أي إن الأحوال المناخية استقرت بوجه أساسي منذ ذلك التأريخ. أما ما قبل ذلك، وعلى وجه التخصيص في العصور الحجرية القديمة (ما قبل نصف مليون عام أو يزيد) فكانت أحوال المناخ وطبيعة الأرض تختلف اختلافاً أساسياً عما هي عليه الآن. إذ إن تلك العصور الحجرية تقع كما بيّنا في العصر الجيولوجي المسمى «بلايستوسين» (قبل نحو مليون عام)، الذي حدثت فيه العصور الجليدية والفترات الجليدية[1] التي اقتصر حدوثها على الأجزاء الشمالية من أوروبا وأمريكا، أما في الأجزاء الجنوبية من الكرة الأرضية، ومنها العراق وأقطار الشرق الأدنى، فكان يحدث إبان العصور الجليدية الأوروبية عصور من

---

(1) راجع الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ.

الأمطار الغزيرة (Pluvial). والفترات الجليدية يقابلها في أنحاء الشرق الأدنى فترات يسودها الجفاف. ونحن نعيش الآن في عصر جفاف أي في الفترة الجليدية الأخيرة التي أعقبت العصر الجليدي الرابع. وكانت كميات الأمطار في العصور الممطرة تبلغ من الغزارة درجة كبيرة بحيث إنها جعلت حتى مناطق الصحارى في الجزيرة العربية وإفريقيا آهلة بالنبات والحيوان، كما استطاع إنسان العصر الحجري القديم أن يعيش فيها وترك فيها أدواته وآلاته الحجرية.

وكان لظاهرة العصور الممطرة والفترات الجافة أثر مهم في نشوء الحضارة الأولى في السهل الرسوبي من العراق ودفع الهجرات البشرية إليه وبداية الاستيطان فيه، كما خلفت ظواهر جغرافية مما يمكن مشاهدته الآن في العراق ولا سيما في وديان أنهاره. أما بالنسبة إلى النتائج الحضارية فإن حلول فترة الجفاف العامة الأخيرة في ربوع الشرق الأدنى جعلت من المتعذر اعتماد الإنسان في قوته على صيد الحيوان أي جمع القوات مما كان سائداً في العصر الحجري القديم، فاهتدى الإنسان في بقعة ما من الشرق الأدنى، ولا سيما في شمالي العراق، إلى إنتاج قوته بيده بالزراعة وتدجين الحيوان في العصر المسمى بالعصر الحجري الحديث مما ستتكلم عنه في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ. وكانت زراعة الإنسان في ذلك العصر تعتمد كلياً على الأمطار التي كانت كافية للزراعة المحدودة حتى من بعد حلول فترة الجفاف التي أشرنا إليها، ذلك لأن الجفاف لم يحل فجأة بل كان يعم تدريجياً إلى أن اشتد وتزايد فتعذرت زراعة الأمطار في كثير من المناطق التي تعتمد الزراعة المطرية، الأمر الذي دفع الكثير من الجماعات الفلاحية إلى ترك مواطنها بالتدريج والبحث عن مناطق أخرى تصلح لحياتها الزراعية، فركنت إلى الهجرة إلى وديان الأنهار مثل وادي الرافدين ووادي النيل، ودخل المستوطنون من الرواد الأوائل في السهل الرسوبي من العراق في امتحان وتجربة شديدين فرضتهما عليهم البيئة النهرية الجديدة، حيث تطلب ترويض هذه البيئة وجعلها صالحة لزراعة الري جهوداً كبيرة في إنشاء جهاز للري لأول مرة في تأريخ الحضارات، وسنتناول تأريخ الري وأحواله القديمة في الجزء الثاني من كتابنا.

أما الظواهر الجغرافية التي سبَّبتها العصور الممطرة والعصور الجافة مما يمكن مشاهدة آثارها الآن، فهي التي يطلق عليها مصطلح الشواطئ أو الضفاف (Terraces)، أي ضفاف الأنهار الجيولوجية القديمة. فمن بين النتائج الواضحة التي استتبعت حدوث العصور الممطرة التي ذكرناها كثرة مصادر المياه المغذية للأنهار واتساع مجاري هذه الأنهار وتكوينها ضفافاً عالية في كل عصر ممطر، ويحدث العكس إبان فترة الجفاف حيث تصغر فيها سعة هذه المجاري فتكون ضفافاً واطئة آخرها وأحدثها ضفة عقيق النهر الحالي. وترجع أزمان ضفاف الأنهار القديمة إلى عصر «البلايستوسين» بالدرجة الأولى، على أنه يحتمل أن يرجع بعضها إلى العصر الجيولوجي المسمى «بليوسين» (Pliocene) السابق لعصر «البلايستوسين». وقد أبانت التحريات الجيولوجية والتحريات الخاصة بتركيب التربة في حوض نهر دجلة في منطقة «بلد ـ سامراء» وفي بعض الأودية في شمالي العراق مثل وادي «سنگه سر» وجود ما لا يقل عن ثلاثة شواطئ جيولوجية، واحتمال وجود شاطئ رابع. أما ضفاف نهر الفرات القديمة فلم يشملها التحري الكامل في المناطق العراقية[1]. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أن أحد شواطئ دجلة القديمة في منطقة «بلد ـ سامراء» قد حسب سابقاً أنه بقايا ساحل الخليج في عصور ما قبل التأريخ، وسنتطرق إلى قضية الساحل بعد قليل. وننوّه للمقارنة بما تم من تحريات جيولوجية وأثرية في وادي النيل، في تسجيل ضفافه القديمة وتحري بقايا إنسان العصر الحجري القديم فوقها وربط زمنها بزمن الضفة القديمة، واتخاذ ذلك وسيلة لتحديد أزمان العصور الحجرية القديمة. وسيمر بحث ذلك في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ.

---

(1) راجع تقرير خبير التربة الهولندي «بورنغ» (Buringh) المنشور في مجلة «سومر»، المجلد 13 (1957)، القسم الإنجليزي وفيه تجد الإشارات إلى الدراسات الأخرى المنشورة في المجلات المختصة. وسجلت في حوض الفرات الأعلى في الأراضي السورية، أربع ضفاف قديمة ارتفاعاتها 15، 30، 60، 100 على التوالي. حول ذلك انظر:

De Meyer, Tell Ed-Der (1971), p. 11.

٤ ـ قضية ساحل الخليج العربي:

في أواخر القرن الماضي وضع الآثاري المعروف «دي مورغن» (De Morgan)، الذي اشتهر بتحرياته الآثارية في سوسة (عاصمة بلاد عيلام) نظريته المشهورة عن الساحل القديم للخليج العربي[1]، وفحواها أن ساحل هذا الخليج كان يمتد في عصور ما قبل التأريخ البعيدة مسافة إلى الشمال أبعد من حده الحالي، وأن معظم القسم الجنوبي والأوسط من العراق كان مغموراً بمياه البحر. وحدد خط الساحل إبان العصر الحجري القديم (قبل نحو نصف مليون عام) بالخط المار ما بين هيت و«سامراء ـ بلد»، وعين المرتفعات التي ذكرناها سابقاً في منطقة، «بلد ـ سامراء» على أنها بقايا ساحل الخليج القديم كما يبدو ذلك في الخارطة التي رسمها لذلك الغرض.

وتابع «دي ـ مورغن» في رأيه ذاك معظم المؤرخين والآثاريين، بحيث إن معظم الكتب التي وضعت عن تأريخ العراق القديم عينت في خرائطها خط الساحل القديم بموجب نظريته، ورُسم لحد الساحل خط آخر ارتآه القائلون بهذه النظرية عندما تراجع الخليج بمرور الأزمان في الخط المار بين مدينة «أور» والعمارة أو الكوت.

وكان جلّ ما استند إليه «دي مورغن» ومن شايعه في نظريته يدور على تحديد مواضع بعض المدن القديمة والافتراض بأنها كانت تقع على الساحل القديم أو أنها كانت تبعد عن الساحل بمسافات استنتجوها من النصوص القديمة، ومن ذلك بعض الأماكن القديمة الواردة في حملة الملك الآشوري سنحاريب على بلاد عيلام (عام 696ق.م) وأخبار البعثة البحرية التي قام بها «نيرخس» (Nearchus) قائد أسطول الإسكندر في عام 325ق.م وما جاء فيها

---

(1) انظر:

De Morgan, MDP, I, (1900), 4ff.

والواقع أن نظرية، أن حد الساحل كان يقع إلى الشمال أبعد من وضعه في العصور التأريخية المتأخرة، قد أشار إليها قبل «دي ـ مورغن»، الكاتب الروماني الشهير «بليني»:

Pliny, *Natural History*, vi, 31, 13.

من أسماء بعض المواضع افترض فيها أنها كانت على الساحل ومنها المدينة القديمة «كراكس» (الكرخ) والافتراض بأن موقعها عند مدينة المحمرة الحالية التي تقع الآن في اليابسة على بعد نحو 47 كيلومتراً شمال خط الساحل الحالي، فحسب البعض معدل تكوين اليابسة من جراء تراجع الخليج صوب الجنوب بفعل ترسبات الطمى والغرين بمعدل (115) قدماً في السنة أو زهاء الميل ونصف الميل في القرن الواحد، واستندوا أيضاً إلى النصوص المسمارية التي استنتجوا منها أن مدينة «أور» كان لها ميناء على البحر وكذلك مدينة «أريدو» (أبو شهرين)، مضافاً إلى كل ذلك الظاهرة الطبيعية المعروفة من أن كميات جسيمة من الطمى والغرين يحملها النهران ومعهما نهر «كارون» ويرسبانها في الخليج مكوّنة بذلك السهل الرسوبي.

ظلت هذه النظرية وكأنها من الحقائق المسلم بها إلى السنوات القليلة الماضية حيث بدأت التحريات الجيولوجية الحديثة تبعث الشكوك في صحتها بل أبانت عدم صحتها، نخص بالذكر منها النتائج التي حصل عليها جماعة من الجيولوجيين منذ عام 1950 وعلى رأسهم «ليز» و«فلكون» و«رايت»، والتي هي على طرفي نقيض مع النظرية الآثارية السالفة الذكر، إذ يرون أن حدود الساحل لم تكن في الماضي أبعد إلى الشمال من وضعها الحاضر، وأن حد الساحل الموهوم الذي افترضه الآثاريون لم يكن له وجود على الإطلاق. أما المرتفعات الكائنة في منطقة «سامراء ـ بلد» التي قلنا إن الآثاريين حسبوها جرف الساحل القديم فإنها كما نوَّهنا ليست سوى بقايا أحد ضفاف دجلة من عصر «البلايستوسين». وذهب أولئك الجيولوجيون إلى أبعد من هذا بأن ساحل الخليج كان على عكس ما ارتآه الآثاريون يمتد إلى الجنوب أكثر مما هو عليه الآن، وأنه تقدم إلى الشمال بحيث إنه غمر بعض معالم الاستيطان القديمة. وأظهرت نتائج التحريات الجيولوجية الحديثة أيضاً أن هذه المنطقة من العراق معرضة لعملية البناء الجيولوجي (Tectonic) التي تسبب الارتفاع والانخفاض في مستوى الساحل والمنطقة المتاخمة له، وأن درجة الانخفاض أو الانخساف (Subsidence) تعادل عملية الملء أو الردم الناتجة من ترسبات

الطمى والغرين[1]، ولهذا السبب ظلّت الأهوار في منطقة العراق الجنوبية منذ تكوينها ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين. فلو تركت عملية الترسبات وحدها لكانت كافية لردم هذه الأهوار وتحويلها سهولاً غرينية في هذا المدى الطويل من الزمن. ولكن هذه الترسبات ما زالت تحدث في حوض دائم الانخساف. أما مسألة أنه كان لبعض المدن القديمة مثل «أور» و«أريدو» موانئ على البحر فإنه من قبيل المجاز في تفسير النصوص القديمة، وأن هاتين المدينتين لم تكونا في يوم من الأيام على الساحل. ومع أن الواقع أنه كان لاور واريدو ميناء، إلا أنه كان على نهر الفرات الذي كان يربطهما بالخليج وكان الفرات يمر بمحاذاة «أور» ولكنه بدَّل مجراه في العصور اللاحقة حيث يمر الآن من مدينة الناصرية، على بعد نحو 20 كلم شرق «أور».

هذا هو الرأي الحديث الذي استنتجه الجيولوجيون عن قضية ساحل الخليج التأريخي مفندين به النظرية الآثارية التي أجملناها سابقاً. فأي الرأيين هو الصحيح؟ لعل خير إجابة على هذا التساؤل يمكن إجماله بأن النظرية الجديدة فيها من الوجاهة ما يستوجب إعادة النظر في النظرية الآثارية القديمة، وأن قضية ساحل الخليج القديم ما زالت أبعد ما تكون عن الحل النهائي، وأن هذا الحل النهائي في رأينا يقتضي تضافر دراسات باحثين من مختلف الاختصاصات وإعادة النظر في درس النصوص القديمة المتعلقة بالموضوع، ونذكر على سبيل المثال تحديد مواقع بعض المدن القديمة التي ذكرت مسافاتها عن ساحل الخليج، مثل الموقع المذكور في حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696 ق.م) باسم «باب سالميتي» وأنه يبعد ساعتين مضاعفتين (نحو 10ـ12ميلاً) عن «البحر المخيف»، فلو استطعنا تعيين موقع بقايا هذه المدينة لحصلنا على نقطة ثابتة كانت معروفة المسافة عن ساحل الخليج.

أما مسألة تأريخ شط العرب وهل كان النهران يلتقيان في موضع ما فسنتناولها من بعد كلامنا على أنهار العراق.

---

(1) حول تحريات «ليز» و«فلكون»، ونظريتهما عن حد الساحل انظر:

Lees and Falcon, in *Geographical Journal*, March, 1952.

أبرز الخصائص الجغرافية المميزة وأثرها في سير حضارة وادي الرافدين

١ ــ الموقع:

(1) أثره في المناخ:

كان لموقع العراق الجغرافي أثر مهم في سير تأريخه سواء كان ذلك من ناحية الطقس والمناخ والزراعة والحياة الاقتصادية بوجه عام أم من ناحية تركيب سكانه التأريخي واتصالاته بالأقطار الأخرى والأقوام المجاورة إلى غير ذلك مما للموقع الطبيعي من نتائج مؤثرة في سير التأريخ والحضارة.

فالعراق، على ما هو معروف، يقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، ويربط القارات التأريخية الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا (بصورة غير مباشرة)، ولهذا الموضع أهمية استراتيجية وتجارية، ولا سيما في العصور القديمة واستمر كذلك إلى العصور الحديثة تقريباً، حيث كان ملتقى طرق القوافل التجارية للاتصال بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والشرق الأقصى والهند بالطرق البرية ثم عن طريق الخليج العربي إلى القارة الهندية، ولكن فقد هذه الأهمية التأريخية بعد تحول الطرق التجارية البحرية العالمية على أثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (القرن السادس عشر) وفتح قناة السويس (القرن التاسع عشر) حيث صار الاتصال التجاري مباشرة بالهند وجنوبي شرقي آسيا بدون الخليج العربي.

ومن ناحية المناخ يقع العراق في القسم الجنوبي من المنطقة المعتدلة، حيث يحدد موقعه خطا العرض 30° (وبالضبط 29,6 عند الفاو) جنوباً و37° (37,5°) شمالاً، وبين خطي الطول 58° و48° شرقاً. والمعروف في الجغرافية الطبيعية الإقليمية أن الأقاليم الواقعة غربي القارات، مثل العراق الذي يقع غربي آسيا، وبين خطي العرض السالفي الذكر يكون مناخها من نوع مناخ مناطق الانتقال ما بين المناخ الصحراوي الحار وبين مناخ حوض البحر المتوسط المعتدل، ولذلك تكون درجات الحرارة في المنطقة الجنوبية أعلى منها في المناطق المشابهة لها. ويتنوع مناخ العراق بالنسبة إلى أجزائه الطبيعية المختلفة، ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من المناخ بالنسبة إلى أقسام سطحه الثلاثة، وهي القسم الجبلي والقسم الصحراوي والقسم الرسوبي. فمناخ الأجزاء الجبلية من نوع مناخ البحر المتوسط المتميّز بالبرودة المعتدلة شتاء وبالحرارة المعتدلة صيفاً. ويتراوح سقوط الأمطار في هذه المنطقة ما بين 40 و100 سم سنوياً. أما السهل الرسوبي والهضبة الغربية (البادية) فيسودها المناخ الصحراوي، فيكون المناخ الصحراوي هو العام في العراق بالنظر إلى أن الهضبة الغربية تشغل زهاء نصف مساحة العراق، والسهل الرسوبي زهاء ربع المساحة، ويبلغ معدل الأمطار في السهل الرسوبي نحو 20 إلى 5 سم. أما نوع المناخ الثالث فهو من نوع مناخ السهوب (Steppes) الذي هو مناخ انتقالي ما بين مناخ البحر المتوسط في الشمال وبين المناخ الصحراوي الحار في الجنوب. ويعم هذا النوع من المناخ منطقة السهوب في العراق، ويبلغ معدل أمطارها السنوية ما بين 20 و40 سم. ولموقع العراق هذا أثر في سقوط أمطاره من حيث قلتها وتغيُّر كمياتها واقتصار سقوطها على الشتاء تقريباً وأوائل الربيع وبكميات قليلة في منتصف الخريف. وبوجه عام لا تكفي أمطار العراق للزراعة، وفي بعض الأجزاء، ولا سيما السهل الرسوبي، لا يمكن الاعتماد على الأمطار، وإنما المعول على الري منذ أقدم الأزمان. ويمكن حصر معدل سقوط المطر السنوي في العراق في حدود 25سم، وهو معدل نحو 75% من سطح العراق، وتزداد هذه الكمية فتصل إلى نحو 100سم في مناطق الجبال العالية، وقد تتضاءل

كمية الأمطار في الأجزاء الجنوبية إلى نحو 5سم سنوياً، كما يمكن اعتبار الخط المطري الذي معدله 30سم الحد الأدنى للزراعة المطرية[1].

وتعم في العراق الرياح الشمالية والشمالية الغربية التي تهب في الغالب في معظم أيام السنة ويأخذ اتجاهها الانحدار العام لأرض العراق، وتعم أكثر ما بين شهر أيار (مايو) وتشرين الأول، وهي في الغالب باردة، وهناك الرياح الجنوبية الشرقية (التي تسمى محلياً الشرقي)، وهي قوية الهبوب ودافئة رطبة لهبوبها من ناحية الخليج ومنطقة الأهوار وتصحبها الغيوم والأمطار حيث تلتقي بالرياح الشمالية الغربية الباردة فتسقط أمطارها.

(2) أثره في تركيب السكان التأريخي:

بالإضافة إلى ما سبق أن أوجزناه من أثر موقع العراق في مناخه كان لهذا الموقع أيضاً أثر مهم في سير تأريخه وتركيب سكانه التأريخي، من ناحية كونه يقع بين منطقتين هما، رغم تباينهما من حيث العوارض الطبيعية، متشابهتان من ناحية فقرهما وقلّة مواردهما الطبيعية، فتحده من أطرافه الشمالية والشمالية الشرقية مناطق جبلية ومن الغرب والجنوب الغربي مناطق صحراوية وبوادٍ مقفرة فقيرة في مواردها الزراعية والمائية، تلك هي الجزيرة العربية وجزؤها الشمالي والشمالي الغربي، أي بادية الشام التي تشترك معها بادية العراق الشمالية الغربية وفي الجنوب بادية السماوة. ولا يفصل العراق في الواقع عن الجزيرة العربية سوى خط مائي ضيق، هو نهر الفرات. ويكون الحد بين أرض السواد المزروعة وبين البادية في بعض أجزاء العراق الغربية بوناً صارخاً (كما في منطقة الكوفة وكربلاء والناصرية والسماوة وغيرها). ومما لا شك فيه أن هذه الظاهرة هي التي جعلت البدو العرب يسمون سهل العراق الجنوبي بالسواد (لخضرته). ويمكن تشبيه أرض ما بين النهرين

---

(1) عن موجز جغرافية العراق راجع:

W. Fisher, *The Middle East*, (1952).

والدكتور محمد جاسم الخلف «جغرافية العراق» وترجمة كتاب «هستيد».

الرسوبية بحوض خصب بين تينيك المنطقتين الفقيرتين نسبياً مما جعلها محط أنظار أقوامها وهجراتهم إليه منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ، وعلى ضوء ذلك ينبغي للمؤرخ أن ينظر إلى تركيب سكان ما بين النهرين. فمن الجزيرة العربية والبوادي الشمالية الغربية (مهد الأقوام السامية) نزحت إلى بلاد ما بين النهرين في مختلف عصور التأريخ الأقوام السامية المختلفة ومنها القبائل العربية التي يرجع إلى أصولها القسم الأعظم من سكان العراق الآن. ومن المنطقة الثانية، أي الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية، نزحت إلى العراق أقوام عديدة من بينها جماعات من أصول الأقوام الهندية ـ الأوروبية. والعراق من هذه الناحية إقليم مفتوح لهجرات الأقوام والغزوات بالمقارنة مع وادي النيل الذي يعد إقليماً مقفلاً بوجه نسبي. وبما أننا سنفرد موضوعاً خاصاً عن أقوام وادي الرافدين القدماء فنختتم هذه الملاحظات عن أثر موقع العراق في تركيب سكانه التأريخي بتأكيد ظاهرة مهمة، تلك هي عملية الانصهار الحضاري التي ميّزت تأريخ هذا البلد في صهر الأقوام المختلفة في بودقة حضارة وادي الرافدين وجعلت له كياناً تأريخياً وحضارياً متميّزاً منذ أقدم العهود.

٢ ـ أجزاء العراق الطبيعية:

يمكن أن نميّز عدة أجزاء في أراض العراق الطبيعية تختلف بعضها عن بعض بفروق واضحة، من سهول رسوبية إلى هضاب وبوادٍ ونجاد إلى منطقة جبلية وشبه جبلية أو متموجة.

أ ـ السهل الرسوبي:

عندما يصل النهران العظيمان، الفرات ودجلة إلى منطقة «هيت ـ سامراء» تبتدئ دلتاهما الكبيرة، حيث يلتقي وادياهما مكونين سهلاً رسوبياً واسعاً طوله زهاء (650) كم من الشمال إلى الجنوب ويختلف عرضه ما بين 45 و140كم. فيجري النهران في أراضٍ منخفضة ذات انحدار واطئ بحيث لا يزيد ارتفاعها أكثر من 32متراً عن سطح البحر في منطقة بغداد، ويجريان على هيئة متعرجة (meandering)، وتعم ظاهرة الفيضانات وتبدل المجاري وهي الظاهرة

المميزة للأنهار المتعرجة التي تجري في السهول الرسوبية. وتبدأ في هذا السهل مشاريع الري القديمة والحديثة بالإفادة من ظاهرة طبيعية يمتاز بها نهر الفرات في بداية هذا السهل الرسوبي، إذ يرتفع وادي هذا النهر قليلاً بالنسبة إلى وادي دجلة، حيث يبلغ معدل الانحدار من (7) إلى (10) أمتار أو نحو 15 إلى 16سم في الكيلومتر الواحد. وقد فطن العراقيون القدماء إلى هذه الظاهرة فشقُّوا من الفرات أنهاراً كثيرة للري باتجاه دجلة وجعلوا من السهل الرسوبي ابتداءً من فوق بغداد، بالقرب من الفلوجة، شبكة واسعة من مشاريع الري الكبيرة والصغيرة. ويتبدل الوضع في الجزء الجنوبي من السهل، في منطقة الكوت ـ الناصرية، حيث يبدأ وادي دجلة بالارتفاع بحيث يمكن إقامة مشاريع ري من دجلة إلى الفرات وقد تم ذلك في العصور القديمة وكما في مشروع سد الكوت في العصور الحديثة (1937).

وكان لهذه الظاهرة مضافاً إليها حقيقة أن نهر الفرات أقل عنفاً في فيضانه من دجلة أثر مهم في تأريخ الاستيطان البشري في السهل الرسوبي ونشوء الحضارة فيه، في تركيز ذلك الاستيطان في وادي الفرات دون دجلة. وسنتابع في الفصول الآتية مراحل ذلك الاستيطان ونشوء حضارة وادي الرافدين في هذا السهل، كما سنتطرق بعد قليل إلى ظاهرة تغيير النهرين مجرييهما في هذا الجزء من العراق، وأثر ذلك في هجر المدن التأريخية.

وتقع في الجزء الجنوبي من دلتا النهرين مناطق الأهوار[1]، التي تكون جزءاً متميزاً من سطح العراق، وتتميز بأحراشها من البردى والقصب وحيوانها الخاص «الجاموس» والخنزير البري والأسماك والأطيار البرية المائية، ويعيش سكانها حياة خاصة بدائية مكيفة بصورة عجيبة إلى هذه البيئة الطبيعية الغريبة. والمرجح أن منطقة الأهوار ازدادت اتساعاً منذ القرن السادس الميلادي

---

(1) حول الأهوار وأحوال سكانها انظر:

Wi Thesiger in Geographical Journal, (1954).

Westphal-Hlbusch in *Sumer*, (1956).

Philby in *Ibid.*, (1959).

(أواخر العهد الساساني) حينما تخربت السدود بعد فقدان السيطرة على الأنهار. وتقدر المساحة التي تشغلها الأهوار الآن زهاء (15) ألف كيلومتر مربع، وبالإمكان تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: (1) الأهوار الشرقية في منطقة دجلة (وأكبرها هور الحويزة وهوالحويزة شويجه)، (2) الأهوار الوسطى في منطقة الفرات الأوسط من بعد المسيب مثل الحبانية وأبودبس، وهما منخفضان طبيعيان اتخذا حديثاً خزانين كبيرين لخزن مياه الفرات، (3) الأهوار الجنوبية وأكبرها هور الحمار ما بين الناصرية والبصرة، الذي تنصب فيه مياه الفرات جنوب سوق الشيوخ بنحو (20) كم، ثم يخرج منه الفرات عن طريق «كرمة علي»، وكان الفرات ودجلة يلتقيان عند القرنة قبل نحو 100 عام.

ب ـ البادية والهضبة الغربية:

تحادد منطقة البادية التي تشغل زهاء نصف مساحة العراق امتداد مجرى نهر الفرات من الغرب وتمتد مئات من الأميال إلى قلب الجزيرة العربية، ومن الحدود الأردنية والسعودية والكويتية إلى الحدود السورية، وتشترك مع بادية الشام، وهي أيضاً امتداد لهضبة نجد من وسط الجزيرة. وأراضي هذه البادية بالدرجة الأولى من الصخور الكلسية والرملية وتكثر فيها الرمال، كما تقطعها مجموعة من الأودية الطويلة مثل وادي حوران الذي يصب في الفرات أسفل مدينة عانة بقليل (قرب خان البغدادي). ولم تكن هذه البادية من الناحية الحضارية جزءاً مهماً من بلاد وادي الرافدين، بل كانت هي وسكانها غريبة عن سكان السهل الرسوبي المتحضرين ومصدر خطر يهدد مزارعهم ومدنهم وقوافلهم التجارية. ولكن هذه البوادي كانت، كما ذكرنا، مصدراً لهجرات الأقوام السامية البدوية إلى وادي الرافدين منذ أبعد عصور التأريخ.

جـ ـ منطقة الجزيرة:

سبق أن ذكرنا أن مصطلح الجزيرة هو الذي أطلقه المؤرخون والجغرافيون العرب على أرض ما بين النهرين العليا. ويرادف تقريباً التسمية اليونانية «ميزوپوتامية» في استعمالاتها القديمة. والغالب في استعمال البلدانيين

العرب أن الجزيرة تبتدئ إلى الشمال من الخط المار ما بين «الأنبار» (الفلوجة) أو هيت على الفرات إلى «سامراء ـ تكريت» على دجلة. ومنطقة الجزيرة هذه سهل واسع ما بين الفرات ودجلة يبلغ أوسع عرض له نحو (250) ميلاً وتمتد في هذا السهل المجاري والسيول والوديان الكثيرة التي تنتشر فيه كأنها المروحة، وتغذي نهري الباليخ والخابور وروافدهما، وكلها مصادر مائية مهمة لنهر الفرات. وبالإضافة إلى هذه الموارد المائية تتمتع المنطقة بسقوط الأمطار الكافية تقريباً للزراعة والرعي، كما توجد فيها مياه جوفية وفيرة، مما كان سبباً في ازدهارها منذ عصور ما قبل التأريخ، كما تدل على ذلك كثرة التلول الأثرية المنتشرة فيها والتي تتفاوت في أزمانها منذ عصور ما قبل التأريخ والعصور التأريخية المختلفة[1]. وهذا بالإضافة إلى إمكان إنشاء مشاريع للري فيها كما أقيمت في العصور الماضية[2]. وقامت في الجزء الشمالي من المنطقة المملكة الصغيرة التي عرفت باسم دولة «ميتاني» وباسم «خانيگلبات» في المصادر الآشورية، وبالمصطلح الآرامي «نهارينا»، وسيمرّ بنا الكلام عليها في عرضنا للتأريخ الآشوري في عهده الوسيط. وازدهرت الجزيرة في العصور العربية الإسلامية، كما اشتهرت منذ أقدم الأزمان بأنها كانت من مناطق الاتصال المهمة ما بين وادي الرافدين وبين بلاد الشام وموانئ البحر المتوسط وبلاد الأناضول، وكانت من المصادر المهمة للهجرات السامية إلى وادي الرافدين وبلاد الشام.

د ـ المنطقة الجبلية وشبه الجبلية:

تقع المنطقة الجبلية في الجهات الشمالية والشمالية الشرقية، وتشغل

---

(1) عن المواقع الأثرية والتحريات التي تمت فيها انظر المراجع الأساسية التالية:

Mallowan, *The Excavations at Tal Shagar Bazar* (Iraq. II. 1936).

Twenty five years of Mesopotamian Discovery.

Parrot, AM, I. 11.

(2) حول مشاريع الري القديمة في منطقة الباليخ راجع:

«فيضانات بغداد في التأريخ»، للدكتور أحمد سوسة، الجزء الثاني، ص 508ـ509.

زهاء خمس مساحة العراق، وتمتد في حدود العراق المشتركة مع إيران وتركية وسورية، وتتلاشى على هيئة تلال ومرتفعات عند حدود السهل الرسوبي بالقرب من الفتحة وبيجي. أما المنطقة شبه الجبلية أو المتموجة (Undulating) فتبتدئ من سفوح الجبال إلى الغرب والجنوب من المنطقة الجبلية وتستمر في اتجاهها عبر دجلة حتى حدود سورية غرباً وحافة الهضبة الغربية في الجهة الجنوبية الغربية وهي صالحة للزراعة ولا سيما في أقسامها الشمالية حيث يبلغ فيها معدل سقوط المطر سنوياً نحو 50سم وفي أجزائها الجنوبية نحو 20سم، الأمر الذي يجعل هذه الأجزاء صالحة للمراعي وتربية الماشية.

وتتدرج جبال العراق بالارتفاع على هيئة سلاسل متوازية تقريباً إلى أن تبلغ أقصى ارتفاع لها في حدود 8000 متر أو 11,500 قدم. ويلاحظ في الاتجاه العام لهذه السلاسل أنها على هيئة قوس من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، يستثنى من ذلك بعض السلاسل الصغيرة غربي دجلة على الأخص حيث تمتد من الشرق إلى الغرب مثل جبل سنجار. وتتخلل هذه السلاسل الجبلية المتوازية سهول ووديان خصبة (وتقدر مساحة هذه الوديان زهاء ربع مساحة الجبال). وتتميز المنطقة الجبلية بوفرة مواردها المائية، وتنساب روافد دجلة في هذه المرتفعات ويكون اتجاه مجاريها على هيئة قطرية إذ تقطع سلاسل الجبال بهيئة عامودية تقريباً. ولهذه الظاهرة إمكانيات مهمة في إنشاء خزانات للمياه والسدود وتوليد الطاقة الكهربائية، وقد تمت فعلاً الإفادة من ذلك في العصر الحديث (مثل مشروع دوكان على الزاب الأسفل ومشروع دربندى خان على ديالى). وتوجد بقايا مشاريع سدود قديمة أوضحها السد المقام على العظيم ويسمى البند في الموضع المسمى «دمير قبو» في أول الأراضي المسماة «الغرفة» الآن والعيث قديماً.

وفي هذه المنطقة الجبلية عاش إنسان العصور الحجرية القديمة والحديثة في سفوح المرتفعات كما ظهرت أولى القرى الفلاحية، مما سنفصله في كلامنا على عصور ما قبل التأريخ.

٣ ـ افتقار بيئة حضارة وادي الرافدين إلى المواد الأولية واشتهارها بالتجارة:

من الأمور البارزة التي تسترعي نظر الباحث في حضارة وادي الرافدين أن البيئة التي نشأت فيها هذه الحضارة، وهي السهل الرسوبي الجنوبي الذي مرت بنا صفته، مع اشتهارها بثرواتها المائية الكبرى وغنى حاصلاتها الزراعية منذ أبعد عصور التأريخ، إلا أنها فقيرة فقراً بارزاً في المواد الأولية اللازمة لبناء الحضارة كالمعادن والأخشاب والأحجار الصالحة للبناء والنحت والأحجار الكريمة وشبه الكريمة. والواقع من الأمر أن الجماعات الأولى التي أنشأت أولى الحضارات في السهل الرسوبي لم تجد ما تقدمه لها البيئة الطبيعية من المواد الضرورية لتلك الحضارة سوى الماء والتراب والقصب والأحراش. ولعل أبلغ مثل على هذه الحقيقة ما يشاهده الزائر للمتاحف العالمية من مجاميع الآثار النفيسة التي خلفتها حضارة وادي الرافدين وهي مصنوعة من مواد لا تتوفر في بيئة هذه الحضارة. ولكن هذا لم يفت في عضد روّاد تلك الحضارة إذ عملوا للحصول على تلك المواد من الأقطار الخارجية القريبة والبعيدة، فاتسمت حضارة وادي الرافدين بصفة ملازمة لها منذ أبعد العصور، هي أنها أصبحت حضارة تجارية، بالإضافة إلى كونها حضارة زراعة وري. وكان لتنظيم شؤون التجارة الخارجية وما يستلزم ذلك من تسيير القوافل والمحافظة على الطرق التجارية من العوامل المؤثرة في سير حضارة وادي الرافدين وتطورها، سواء أكان ذلك في التنظيم السياسي والاجتماعي أم في نشوء الأساليب والطرق الخاصة بالمعاملات التجارية. فعلى الصعيد السياسي استلزم ضمان ازدهار التجارة الخارجية ظهور الدولة القوية المركزية، دولة القطر الموحدة، بتوحيد دول المدن القديمة المتضاربة في مصالحها التجارية. وقد قوى هذا العامل وازدوج معه عامل مهم آخر عمل على ظهور أولى أنظمة الحكم وتطويرها إلى الوحدة السياسية الشاملة، ذلك هو تنظيم شؤون الري والسيطرة على الأنهار وفيضاناتها وإقامة مشاريع الري.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا أرجعنا الدوافع الأساسية التي كانت تدفع

ملوك العراق القديم وحكامه منذ أقدم الأزمان على القيام بالحملات الحربية والفتوح الخارجية، إلى ضمان الحصول على المواد الأولية الضرورية من الخارج، ومن أجل سلامة الطرق التجارية بإخضاع الأقوام المارة من أراضيها تلك الطرق، وإقامة الحاميات والحصون العسكرية في النقاط الاستراتيجية المهمة، نذكر منها على سبيل المثال الحصن الذي شيّده الفاتح الآكدي الشهير «نرام ـ سين» (2254 ـ 2218ق.م) في الموضع المسمى «تل براك» في منطقة الخابور في سورية، أي عند الطريق المهم الواصل ما بين بلاد ما بين النهرين وبين بلاد الشام والأناضول. وليس أدل على الاهتمام بالتجارة والاتصالات التجارية من أنه كان لكل مدينة مهمة في العراق القديم ميناء كبير على النهر، وكان الميناء من أهم أجزاء المدينة، واحتلال الشؤون التجارية مكاناً بارزاً في أخبار حضارة وادي الرافدين، ومنها الشرائع المدونة، وفي مقدمتها شريعة حمورابي الشهيرة واشتهار هذه الحضارة بالتنظيمات والمعاملات التجارية.

أشهر طرق الاتصالات الخارجية:

كان العراق يرتبط بالأقاليم الخارجية بعدة طرق تأريخية كانت القوافل التجارية تسلكها منذ أبعد عصور التأريخ. ولعل أبلغ دليل على اهتمام القوم بطرق المواصلات الخارجية أنهم وضعوا أدلة أو أثباتاً جغرافية بالطرق والمسالك المشهورة وتحديد المراحل والمدن التي تمر منها أو تقع عليها أي ما يصح أن نسميه بدليل الطرق والمسالك (Itinerary)، وقد جاءنا نماذج طريفة منها أشهرها وأقدمها يرجع في تأريخه إلى العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م)[1]. ويمكننا حصر الطرق المشهورة بثلاث مجموعات بالنسبة إلى اتجاهاتها والأقطار التي تؤدي إليها:

---

(1) حول الأثبات الخاصة بالطرق والمراحل المارة فيها انظر:

A. Goetze, «An Old Babylonian Itineray» in *JCS*, VII, (1953), 5ff.

J. Lewy, «Studies In Ancient Historical Geography Of The Ancient Near East», *Orientalia* xxII (1952). 26ff.; *Ibid.*, 393ff.

Le Breton, P. Garelli, Th. Jacobsen in *RA*, LII (1958), 110ff.

1 ـ الطرق المؤدية إلى الأقاليم الغربية:

يؤخذ من الأخبار التأريخية المختلفة العهود أنه كان يوجد طريقان مهمان كانا يربطان العراق باتجاه غربي ببلاد الشام وسواحل البحر المتوسط وبلاد الأناضول. فالطريق الأول يبدأ من بلاد آكد (من بابل أو سبار) ويسير بمحاذاة الفرات ماراً بالمدن التأريخية القديمة مثل المدن التي تقع الآن في منطقة الرمادي (مثل رابيقم) وهيت وعانة حتى يصل إلى مدينة «ماري» المهمة (تل الحريري الآن بالقرب من البوكمال) ويستمر من بعد ذلك قاطعاً بادية الشام غربي الفرات ويمر بتدمر وحمص وهنا يتشعب إلى جملة فروع تؤدي كلها إلى موانئ البحر المتوسط. وكان أصعب جزء من هذا الطريق المسافة التي يخترق فيها البادية التي تبلغ زهاء (300) ميل، ولذلك كان يفضل الطريق الثاني الذي يمر من نينوى أو يبتدئ منها ويجتاز منطقة الجزيرة (ما بين النهرين) من الشرق إلى الغرب ماراً بجملة مستوطنات ومدن مهمة مثل المدينة المسماة «شوبات أنليل» (المرجح تعيينها في التل المسمى جغار بازار) و«كوزانا» (تل حلف الآن) وحران، ويعبر الفرات عند «كركميش» (جرابلس الآن) ومدينة «مسكنة» (إيمار القديمة) ثم في حلب أو بالقرب منها وينتهي بنهر العاصي (أورنتس) حيث يتشعب إلى عدة طرق تؤدي إلى الأجزاء الوسطى من سورية وإلى سواحل البحر المتوسط. ومن فروعه المهمة ما كان يتجه إلى الشمال الغربي ويؤدي إلى كليكية والأجزاء الأخرى من المملكة الحثية (الأناضول). وبالإضافة إلى ذلك كان يمكن السفر من نينوى إلى أرمينية ثم الأناضول بأتباع دجلة إلى دياربكر (آمد القديمة) ثم عبر جبال طوروس في مجازات جبلية.

2 ـ الطرق المؤدية إلى الأقاليم الشرقية:

كان اتصال حضارة وادي الرافدين بالأقاليم الشرقية أصعب مما كان عليه الحال مع الأقاليم الغربية، من جراء طبيعة الأراضي الجبلية الوعرة، أي سلاسل جبال «زاجروس» وسفوحها المتاخمة لوادي الرافدين على طوال

حدوده الشرقية والشمالية الشرقية، وقلّة مجازات العبور فيها وشدة مراس القبائل الجبلية القاطنة فيها. فمن الممرات المعروفة المجاز الكائن بالقرب من «راوندوز» عند «رايات»، والممر الكائن في منطقة حلبجة، شرقي السليمانية وممر خانقين. وكان الممران الأولان، أي رايات وحلبجة، يؤديان أيضاً إلى منطقة بحيرة «أورمية» وآذربيجان. ويحتمل وجود ممر تأريخي آخر عند قلعة «ديزه»، وهو الطريق الذي يرجح أن الملك الآشوري سرجون الثاني (721ـ705ق.م) قد سلكه في حملته الحربية الشهيرة على بلاد أرمينية وآذربيجان (المسماة حملة سرجون الثامنة). أما طريق خانقين فكان يؤدي إلى كرمنشاه وهمذان (اكبتانا القديمة عاصمة الماذيين). وبالإضافة إلى هذه الطرق التي عددناها كان يوجد طريق آخر مشهور يربط العراق بالنواحي الشرقية عن طريق بلاد عيلام (منطقة عبادان أو الأهواز أو عربستان)، ويمر من المدينة المسماة «دير» (أو «دور ـ ايلو» وهي تلول العقر بالقرب من بدرة). وكان يسير محاذياً لسفوح جبال زاجروس حتى يصل إلى «سوسة» (عاصمة عيلام). ومع أن هذا الطريق لم تكن تعترضه جبال وعرة كوعورة الطرق الجبلية الأخرى بيد أن العلاقات العدائية ما بين دول وادي الرافدين وبين بلاد عيلام جعلت من هذا الطريق طريقاً حربياً بالدرجة الأولى، وكثيراً ما عبرته الجيوش الغازية من الجانبين. وكانت توجد بالإضافة إلى ما ذكرناه مسالك إلى بلاد عيلام لا يمكن تحديدها بوجه التأكيد كالاتصالات التي كانت تتم من منطقة شرقي دجلة في واديه الأسفل أي جهات العمارة والكوت والبصرة.

3 ـ الطريق البحري:

ومن الطرق الحيوية التي كانت تربط العراق بالعالم الخارجي ولا سيما الجهات الشرقية والهند والأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية، الطريق البحري من الخليج (الذي كان يسمى في النصوص المسمارية بالبحر الأسفل والنهر المر)، حيث كان الطريق البحري الوحيد، فكان بمثابة الرئة للجسد. وتدل النصوص التأريخية الكثيرة التي جاءتنا منذ منتصف الألف الثالث ق.م على اتصالات ما بين العراق وبين الأقطار المتاخمة للخليج وسواحل الجزيرة.

ومن أشهرها الأقاليم التي وردت باسم «مگان» (Magan، عُمان) و«دلمون» أو «تلمون» (البحرين)، وإقليم «ملوخا» الذي يرجح تعيينه بالأجزاء الشرقية من الهند ولا سيما وادي السند، كما يرجح أنه صار يطلق في العصور المتأخرة على بلاد الحبشة. والجدير بالذكر في هذا الصدد أن حضارة ازدهرت في وادي السند في منتصف الألف الثالث ق.م، وفيها جملة عناصر مضاهية لحضارة وادي الرافدين، كما أبانت التحريات الأثرية الحديثة وجود آثار من أدوار عصور ما قبل التأريخ من حضارة وادي الرافدين في سواحل الجزيرة العربية (انظر الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ).

وقد سبق أن ذكرنا اشتهار معظم المدن المهمة في حضارة وادي الرافدين بموانيها النهرية. وبالنظر إلى المكانة الحيوية للخليج في حضارة وادي الرافدين صار من مستلزمات سياسة الدول التي قامت في وادي الرافدين جعل الأقاليم المتاخمة له ضمن فلك النفوذ السياسي لتلك الدول منذ قيام أمبراطورية سرجون الآكدي الشهير (2370 ـ 2315ق.م) وظلت أهمية الخليج في العصور العربية الإسلامية، إذ كان يتم الاتصال عن طريقه بالهند والشرق الأقصى. وخلاصة القول كان الخليج واسطة مهمة بين الأقاليم الغربية وبين موانئ البحر المتوسط وبين الهند والشرق إلى أن فقد أهميته من بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وفتح قناة السويس فتحولت الطرق التجارية العالمية تحولاً أساسياً وفقد العراق والخليج العربي أهميته التجارية العالمية السابقة.

الأنهار ونظام الري والمشاكل الناجمة عنها:

مرّ بنا في كلامنا على أقسام العراق الطبيعية كيف أن السهل الرسوبي الذي نشأت فيه حضارة وادي الرافدين يعتمد في حياته على ري الأنهار، ولذلك أجمع الباحثون على أن نظام الري وحل المشاكل الناجمة عنه كان على رأس العوامل المؤثرة في نشوء تلك الحضارة وتطورها وإكسابها الصفات الخاصة المميزة لها. فالمعروف أن وادي الرافدين إقليم نهري كبير، فيه نهران يعدان من الأنهار الكبرى في العالم ويتبعهما عدد من الروافد الكبيرة

والصغيرة، مما جعل العراق من الأقطار القليلة في العالم التي تحوز على ثروة مائية كبرى بالنسبة إلى مساحته الصغيرة. فكان الري والسيطرة على الأنهار العامل الحاسم الذي تفاعل مع جهود الإنسان فنتج عن ذلك أولى الحضارات البشرية في التأريخ؛ولعله من البديهي القول إن وجود هذه الثروة المائية الكبرى لم يسبب نشوء الحضارة تلقائياً، بل كان للجهود البشرية الشاقة في ترويض هذه البيئة النهرية للإفادة من إمكانياتها الأثر الحاسم في الموضوع، ويمكن القول أيضاً إن نتيجة جهود أولئك الرواد الذين استوطنوا السهل الرسوبي في الألف الخامس ق.م ظهرت بتحويل بيئة وحشية من الأهوار والأحراش أو البادية الجرداء إلى بيئة معطاء درت الخير والبركة ورددت شهرتها الأقوام والأمم القديمة، بحيث جعلت الكتب المقدسة جنة عدن فيها، وجعلت النهرين من بين الأنهار الأربعة التي تنبع من الجنة.

ولما كنا سنخصص بحثاً خاصاً عن تأريخ الري في الجزء الثاني من كتابنا فنكتفي بهذه الملاحظات مضيفين إليها ما سبق أن ذكرناه من إدراك العراقيين القدماء لخصائص نظام النهرين ووضعية واديهما الطبيعية، وفي مقدمتها ارتفاع وادي الفرات بالنسبة إلى وادي دجلة في السهل الرسوبي ابتداءً من منطقة «الفلوجة ـ بغداد»، فشقوا أنهاراً كثيرة من الفرات إلى دجلة كانت تروي أراضٍ شاسعة، ويمكن تتبع آثار شبكة أنهار الري وقيعانها المندرسة وعلى ضفافها الأطلال الكثيرة المندرسة التي كانت فيما مضى مدناً وقرى عامرة، وسنشير إلى التحريات الأثرية الحديثة في تتبع مجاري الأنهار القديمة.

وتشغل أخبار شق الجداول والأنهار مكاناً بارزاً في كتابات الملوك والحُكام منذ نشوء نظام الحكم في العراق وبداية التدوين في مطلع الألف الثالث ق.م. وكثيراً ما اتخذ حفر نهر جديد أو كريه وتطهيره حادثة يؤرخ منها في نظام التأريخ بالحوادث المشهورة المتتبع في حضارة وادي الرافدين. والواقع أن عدد الأنهار والجداول التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية يؤلف معجماً ليس بالصغير؟ وخصصت شريعة حمورابي (1750ق.م) أحكاماً كثيرة لتنظيم شؤون

الري والزراعة[1]. وبالإضافة إلى إقامة مشاريع الري تدلنا النصوص المسمارية أيضاً على إنجاز مشاريع أخرى ملازمة لنظام الري مثل إقامة السدود والأسكار وخزانات المياه لخزن الماء إبان الفيضانات والإفادة منها مرة أخرى في أوقات قلّة المياه. والمرجح كثيراً أنهم أفادوا من بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من ضفاف الفرات الغربية في منطقة الرمادي لخزن المياه فيها مثل منخفض الحبانية وهور أبو دبس ومنخفض عقرقوف[2]، كما أقيمت خزانات في منطقة لجش في العصر المسمى فجر السلالات (الألف الثالث ق. م).

المشاكل الناجمة عن الري والأنهار:

أ ـ عنف البيئة الطبيعية:

إذا أضفنا إلى ما ذكرناه عن أثر موقع العراق الجغرافي في مناخه وطقسه من حيث تبدل المواسم والتفاوت الشديد في درجات الحرارة صيفاً وشتاء ونهاراً وليلاً ما هو معروف عن نظام أنهاره من حيث عدم انتظام فيضاناتها وعنف هذا الفيضان وعدم ملاءمة أوقاته لمواسم الدورة الزراعية، اتضح لنا أن البيئة الطبيعية التي قامت فيها حضارة وادي الرافدين تتصف، بخلاف ما قد يظن، بالعنف والشدة. ولعل أحسن ما يوضح لنا هذه الحقيقة ونتائجها أن نقارن نظام الأنهار في العراق بنظام الأنهار في حضارة وادي النيل التي تضاهي حضارة وادي الرافدين من حيث القدم والاعتماد على ري الأنهار. فعلى ما هو معروف يتصف نهر النيل باطراد فيضانه وانتظامه ولا يكون في الغالب مصحوباً بالعنف والتدمير كما هو الحال في نهري العراق، دجلة والفرات، ولا سيما دجلة. ثم إن موسم فيضان النيل (من حزيران إلى تشرين الأول) يلائم الدورة الزراعية، وبالمقابلة معه يكون موسم فيضان الرافدين

---

(1) راجع أحكام الأراضي والحقول والبساتين في شريعة حمورابي (المواد 26 ـ 60 فما بعد، وكذلك المواد 241 ـ 273).

(2) راجع تقرير المهندس «ويلكوكس» عن ري العراق (1911)، وبحث الدكتور أحمد سوسة: «وادي الفرات ومشروع بحيرة الحبانية» (1944) ص 81 فما بعد.

عكس الدورة الزراعية إذ إنه يحدث على ما هو معروف في وقت متأخر بالنسبة إلى الزراعة الشتوية فلا يستفاد من فيضانهما، بل إن هذا الفيضان كثيراً ما سبب تدمير الغلات الزراعية، وتشحّ مياههما في موسم الزراعة الصيفية. وخلاصة القول مع أن كلتا الحضارتين حضارتا ري، بيد أن نظام الري في حضارة وادي الرافدين أصعب تنظيماً وضبطاً وأكثر مشاكل، بحيث لا يسع المتتبِّع لتأريخ هذه الحضارة إلا أن يقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهرين من أشد أنهار الدنيا عنفاً.

وفي وسع المتتبِّع لسير الحضارة في كل من وادي النيل ووادي الرافدين أن يجد صورة هذا الجانب من بيئتهما الطبيعية ولا سيما نظام الأنهار والري في الكثير من مقوماتهما الفنية والأدبية والسياسية. وإذا جاز أن ينسب إلى الحضارات مزاج أو طابع مميّز أمكننا القول إن مزاج حضارة وادي النيل يتسم بطابع الاعتداد بالإنجازات وشعور الطمأنينة بالسيطرة على البيئة، بحيث جعلت رأس المجتمع إلهاً، أي إنها ألهت ملوكها وجعلتهم آلهة في الحقيقة وليس من باب التقديس أو المجاز. وبالمقابلة مع ذلك كان الطابع العام لمزاج حضارة وادي الرافدين العنف والتشاؤم والتوتر والتأزم وتوقع المفاجآت، وتطغى عليها الناحية العملية في الحياة. ومع أن بعض الملوك في حضارة وادي الرافدين قد قدسوا وألِّهوا، بيد أن الملك ظل متصفاً ببشريته إلى آخر أدوار تلك الحضارة، فلم يكن يميزه عن البشر الآخرين سوى أن الآلهة التي بيدها حكم الكون المطلق قد انتدبته أو فوضته ليحكم الناس بالنيابة عنها. وكان البون شاسعاً في نظرة كل من الحضارتين إلى نظام الحكم. فالملوكية ونظام الحكم في حضارة وادي النيل قد وجد منذ بدء الخليقة، أي منذ ظهور الآلهة. وكان أول إله خالق ملكاً في الوقت نفسه، والفرعون إله من الآلهة. أما نظام الملوكية في حضارة وادي الرافدين فكان شيئاً طارئاً ليس من أساس نظام الخليقة، بل نشأ على أثر أزمة وقعت بين الآلهة في تنازعها على سيادة الكون، واضطرار مجموعة الآلهة الحديثة إلى انتخاب أحد الآلهة ليكون ملكاً عليها، وتنازلت له عن سلطاتها، وعمد كبير الآلهة بعدئذٍ إلى خلق

الإنسان ليتولى خدمة الآلهة (يعبدها)، وكان هو الذي يختار الملك أو الحاكم لينوب عنه في حكم البشر كما ذكرنا.

نجد كل هذا وغيره جلياً في أساطير كلتا الحضارتين الخاصة بالخليقة مثل أسطورة الخليقة البابلية الشهيرة (انظر الفصل الخاص بالأدب في الجزء الثاني). ويجد الفاحص لهذه الأساطير نفسية كل من هاتين الحضارتين ممثلة أحسن تمثيل، وهي انعكاس لأثر البيئة الطبيعية. فمثلاً تمت عملية الخلق في أساطير حضارة وادي النيل بهدوء، بمجرد إرادة الآلهة، ولكن الخليقة في أساطير وادي الرافدين حدثت بالصراع والاحتراب ما بين الآلهة كما نوَّهنا بذلك. والصفة الغالبة لآلهة حضارة وادي الرافدين القوة والبطش والتقلب. وليس من باب الصدفة أن تخلو آداب حضارة وادي النيل من أخبار للطوفان في حين أن الطوفان يكون موضوعاً رئيسياً شائعاً في آداب حضارة وادي الرافدين ونذكر على سبيل المثال ملحمة جلجامش التي يكون حدث الطوفان جزءاً مهماً منها.

وفي العقائد الدينية ولا سيما العقائد المتعلقة بعالم ما بعد الموت يمكن للمتتبع أن يقف على مزاج كل من الحضارتين. فالفرد في حضارة وادي الرافدين قد شغلته مشاكل هذه الحياة الدنيا وما تتطلبه من صراع وكفاح للسيطرة على البيئة عن التفكير كثيراً في الحياة الأخرى واعتقاد الخلود فيها، فلم تنشأ عند القوم فكرة واضحة عن وجود دار للعقاب ودار للثواب فيما بعد الموت. بل كان عقاب الآلهة وثوابها يتمان في هذه الحياة. وبالمقابلة مع ذلك شغل الفرد في حضارة وادي النيل بأمر الحياة الأخرى ونيل الخلود فيها. وظهر هذا جلياً في الآثار التي خلفتها هذه الحضارة، من الأهرام الضخمة إلى التحنيط إلى إيداع أنفس الأثاث في القبر، بحيث يمكن القول إن الغالبية العظمى من آثار هذه الحضارة قد وجدت في القبور، سواء كان ذلك في قبور الفراعنة والأمراء والحُكام أم في قبور عامة الناس.

ولعله يمكن إيجاز الفروق بين سير كل من هاتين الحضارتين بأن حضارة وادي النيل قد تم نضجها واستقرارها منذ زمن مبكر في تأريخها في حين أن

الصفة البارزة في سير حضارة وادي الرافدين أنها ظلت في جميع أدوارها المختلفة حضارة «ديناميكية» متحركة[1]. ونضيف إلى ما سبق أن ما ذكرناه عاملاً بشرياً نشأ من إحدى الميزات الجغرافية التي ذكرناها، ونعني بذلك أن وادي الرافدين يعد إقليماً مفتوحاً إلى الخارج بالنسبة إلى موقعه الطبيعي وبالمقارنة مع وادي النيل الذي يعد مقفلاً تقريباً من هذه الناحية، فتعرَّض وادي الرافدين إلى هجرات الأقوام الكثيرة والغزوات العنيفة واختلاط السكان واتصال الثقافات وما كان يستتبع ذلك من عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين السياسي والاجتماعي وظهور ذلك في سير حضارته.

ب ـ مشكلة الترسبات وظاهرة تبدل مجاري الأنهار:

تحمل أنهار العراق، ولا سيما الرافدان العظيمان دجلة والفرات، كميات جسيمة من الطمى والغرين[2]، ترسبها في قيعانها كل عام، فتسبب هذه الترسبات مشاكل خطيرة منها ارتفاع قاعي النهرين عن مستوى السهل الرسوبي وأثر ذلك في التصريف الداخلي في المزارع وازدياد خطر الفيضان وتكوين الجزر الرملية في مجاري النهرين وتقليل سعة جداول الري، وإهمال هذه الجداول بمرور الزمن لتعذر تطهيرها وكريها المستمرين بحيث يصبح فتح جدول جديد أسهل وأقل كلفة من تطهير الجدول القديم.

ومن النتائج الخطيرة للترسبات تبديل الأنهار لمجاريها في فترات زمنية مختلفة الأمر الذي سبب هجران المدن بانتقال الاستيطان منها إلى مستوطنات جديدة تنشأ على ضفاف الأنهار الجديدة. وبالنسبة إلى هذه الظاهرة يمكن تقسيم الوادي الذي يجري فيه النهران في الأراضي العراقية إلى قسمين طبيعيين متميزين: (1) القسم الواقع إلى الشمال من الخط المار من «هيت ـ سامراء»

---

(1) انظر: Wilson, *Before Philosophy*.

(2) قدرت كميات الطمي والغرين في النهرين بزهاء (10) بلايين طن سنوياً وأنها تعادل من ثلاثة إلى خمسة أصناف ما يحمله النيل سنوياً. انظر: «الطمي العالقة بمياه دجلة» لفؤاد الخولي، (بغداد 1955).

حيث يكون واديا النهرين منفصلين ومتميزين، كل منهما شق مجراه في هضبة كلسية (Limestone)، وتحد ضفاف كل منهما مرتفعات صخرية (Cliffs) فلم تتغيّر مجاري النهرين في هذه المنطقة إلا قليلاً. (2) ولكن إلى الجنوب من ذلك الخط يختلط واديا النهرين، مكونين سهلاً غرينياً واسعاً هو الدلتا الطبيعية للنهرين، ويجري النهران ابتداء من ذلك الحد باتجاه الجنوب في انحدار واطئ (Low Gradient)، ويجريان بهيئة متعرجة أو منعطفة (Meandering) وكما هو الحال في الأنهار «المتندرة»، وبفعل ترسبات الطمي والغرين يعمل النهران على رفع مستوى قاعيهما فتفيض مياههما، مكونة أهواراً وبحيرات، فتبدأ ظاهرة تبديل المجرى الأصلي للنهر. وبالنظر إلى تعدد فروع الفرات ودجلة في السهل الرسوبي وتعرض المجاري الرئيسية إلى الاندثار بسبب الترسبات الكثيرة، فإن المجرى الأصلي كثيراً ما انتقل إلى أحد فروعه ووسع مجراه بحيث يصبح هذا الفرع عمود النهر، كما فعل نهر الفرات في العصور الحديثة (عام 1820) عندما تحول عموده الأصلي إلى أحد فرعيه، وهو الفرع الغربي (المسمى فرع الهندية) فجف المجرى الأصلي وهو شط الحلة الأمر الذي دعا إلى إنشاء سدة الهندية (1911-1913). وبدل الفرات مجراه أكثر من مرة في أزمان قديمة لا يمكن تحديدها. وفي الوسع تتبع أحد المجاري القديمة الرئيسة للفرات من مواقع المدن القديمة وامتدادها، وقد كانت فيما مضى تقع على ذلك المجرى ولكن تقع الآن في بادية جرداء إلى الشرق من المجرى الحالي للنهر، مثل مدينة «نفر» والوركاء ولارسة وايسن وغيرها. والملاحظ في تغيير مجرى النهرين أنهما يتجهان بوجه عام إلى الغرب من المجرى الأصلي، ولكن هذا ليس عاماً وفي جميع أنحاء العراق. وتعرض دجلة أيضاً إلى تغييرات متعددة في مجراه في العصور التأريخية المختلفة[1].

وإذا كان ليس في الوسع إحصاء التغييرات التي حدثت في مجاري

---

(1) للأمثلة على تبدل مجرى دجلة راجع كتاب لسترنج: «بلدان الخلافة الشرقية»، ترجمة السيدين بشير فرنسيس وكوركيس عواد (1954) ص 42 ـ 43 وص 59 فما بعد.

الأنهار وحصرها في العصور المختلفة، بيد أنه يمكن رسم خرائط للمجاري القديمة في العصور التأريخية المختلفة بمسح التلول الأثرية المنتشرة في سهول العراق الرسوبية وتعيين أزمان ملتقطاتها السطحية والتي كانت تقع على مجارٍ رئيسية أو فرعية. وقد اتبع جماعة من الباحثين الآثاريين هذه الطريقة في تحديد مجاري الأنهار القديمة ولا سيما دجلة والفرات في المنطقة الوسطى والجنوبية. فبالنسبة إلى الفرات أمكن تتبع مجراه القديم من سبار (أبو حبة) إلى نفر ودلبات (دليهم) وكسورا القديمة (تل أبو حطب الآن) وشروباك (فارة) ثم الوركاء ومن الوركاء إلى منطقة «أور» بالقرب من الناصرية، وقد اتبعت هذه الطريقة الأثرية في عام 1953ـ1954 لمسح بلاد سومر الوسطى، وفي عام 1956ـ1957 لمسح بلاد آكد، ومسح منطقة ديالى في عام 1957ـ1958.

جـ ـ مشكلة الملوحة:

ملوحة التربة ولا سيما في السهل الرسوبي من المشاكل الجسيمة التي جابهت العراقيين القدماء، وهي الآن تهدد تربة العراق في منطقة الري. ومع أن مشكلة الملوحة ملازمة لنظام الري نفسه بسبب الأملاح المحمولة بمياه الأنهار إلا أنه بالنسبة إلى العراق ذات أوجه خاصة بسبب طبيعة التربة من حيث كثرة التبخر وانعدام أو ضآلة جهاز التصريف (البزل) الذي ينبغي أن يكون ملازماً لنظام الري. هذا ولا يمكن البت هل عرف العراقيون القدماء نظام التصريف؛ وكل ما يمكن قوله بهذا الصدد إن مشكلة الملوحة وأخطارها كانت وما تزال تزداد في جسامتها بمرور الأزمان. وذهب بعض الباحثين إلى أن ملوحة التربة بدأت بالظهور منذ أواخر ما يسمى بعصر فجر السلالات أي من بعد عام 2400ق.م، وكانت من بين العوامل الحاسمة في تدهور السلطة السياسية ثم زوالها من السومريين وانتقال الازدهار العمراني من الجنوب إلى الوسط والشمال من أرض ما بين النهرين.

ومع أن التحريات التأريخية عن مشكلة الملوحة في تأريخ وادي الرافدين

لم تبدأ إلا منذ سنين قليلة مضت[1]، إلا أن النتائج الأولية زودتنا بأشياء مهمة عن هذا الموضوع، ومنها أن الوثائق الإدارية الخاصة بالزراعة في منطقة لجش السومرية (منطقة الناصرية) من أواخر عصر فجر السلالات تشير إلى ظهور الملوحة وتناقص الغلات الزراعية، وأن أخطارها ازدادت بمرور الزمن وانتشرت إلى المنطقة الوسطى (بلاد آكد) ما بين 1200 أو 600ق.م. وكانت الملوحة لدى العراقيين القدماء من الآفات والعقوبات التي تحلّ بالبشر جزاء شرورهم وآثامهم، فكان تسليط الملوحة من جانب الآلهة على البشر من الطرق التي اتبعت في إفنائهم بالإضافة إلى إحلال الطوفان، كما جاء في ملحمة «اتراحاسس»، وهي إحدى الملاحم الطريفة الخاصة بالطوفان بالإضافة إلى خبر الطوفان الوارد في ملحمة جلجامش.

وميز كتبة العراق القديم بين نوعين من الملوحة مما يشاهد في تربة العراق الآن، فالنوع الأول ورد اسمه بالسومرية بصيغة «مُن» (Mun) وبالبابلية «طبتم»، وهو ذو لون أبيض مما يعرف باسم الشورة الآن، ويدخل في تركيبه ملح الطعام، والنوع الثاني ما نسميه الآن «السبخ»، وهو ذو لون أسمر داكن، وقد عبر عنه السومريون بالكلمة «نيمُر» (Nimur) وبالبابلية «إدرانُم».

الأنهار:

نختتم هذه المقدمة الجغرافية بوصف موجز لأنهار العراق وأثرها في سير تأريخه. فنكرر ما سبق أن ذكرناه من أن نشوء حضارة وادي الرافدين وازدهارها كان مرتبطاً بوجود الرافدين العظيمين وروافدهما. وإذا صح قول

---

(1) ومن ذلك الدراسات التي عهد بها مجلس الإعمار السابق في العراق إلى جماعة من الباحثين من جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) برئاسة الأستاذ ياكبسون، بالتعاون مع مديرية الآثار، وشملت تلك الدراسات تحريات أثرية في منطقة ديالى ودراسة النصوص المسمارية القديمة الخاصة بالسجلات الزراعية. راجع التقارير المنشورة في مجلة «سومر» المجلد 13 (1957) والمجلد 14 (1958) وأيضاً:

Jacobsen and Adams, «Salt And Silt In Ancient Mesopotamian Agriculture», *Science*, xxVIII 125ff.

هيرودوتس المأثور بأن مصر «هبة النيل»، فإن بلاد الرافدين كذلك هبة النهرين. فبالإضافة إلى نظام الري الذي هو عماد حضارة وادي الرافدين فإن للنهرين أهمية كبرى في المواصلات وازدهار التجارة التي قلنا إنها الميزة الثانية التي ميّزت هذه الحضارة بالإضافة إلى الري.

ويمكن للباحث أن يجمع مادة تأريخية مهمة عن أنهار العراق ومشاريع الري القديمة بالرجوع إلى النصوص المسمارية التي جاءت إلينا من مختلف أدوار التأريخ والأخبار الواردة في كتب البلدانيين والمؤرخين العرب والمصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)، بالإضافة إلى ما يمكن القيام به من مسح أثري لبقايا مشاريع الري المندرسة ومجاري الأنهار القديمة مما سبق أن نوَّهنا به. وإلى جانب الناحية التأريخية والحضارية هناك الفوائد العملية التي تستخلص من مثل هذه الدراسات في إقامة مشاريع الري الحديثة على هدي طبيعة المشاكل «الجغرافية ـ التأريخية» التي عاناها سكان وادي الرافدين القدماء والخبرات الكثيرة التي حصلوا عليها، كما فعل في الأزمان الحديثة مهندس الري المشهور «ويلكوكس»، مصمم سدة الهندية، حيث درس أعمال الري القديمة واسترشد بها في إقامة مشاريع الري الحديثة[1].

خص العراقيون القدماء الرافدين بالتقديس والتعظيم، وعدوهما من جملة الآلهة المشتقة من القوى الطبيعية[2]، وأفردوا الفرات بتقديس أكثر لأنه كان

---

(1) سبق أن استشهدنا ببعض مؤلفات المهندس ويلكوكس ومنها الكتاب المترجم عن الأصل الإنجليزي:

W. Willcoks, *The Irrigation Of Mesopotamia* (1911).

W. Willcoks, «Nesopotamia, Past, Present Future» in *Geographical Journal,* (1911).

وانظر أيضاً: «تطور الري في العراق» (1946) للدكتور أحمد سوسة وكذلك «وادي الفرات» (1944ـ1945) و«الري والحضارة» (1968).

(2) حول تأليه النهرين انظر: Ebeling, *Tod Und Leben*, p. 125.

Dossin in *Syria*, x.x (1939), 126ff.

Jacobsen in JNES, v, 139FF.

النهر الذي تركزت على ضفافه المستوطنات القديمة، وسنتطرق إلى أسباب ذلك بعد قليل. ونعت النهران أيضاً في بعض التراتيل الدينية بالنهرين الأخوين أي الرافدين[1]. وفي أساطير الخليقة ذكر الفرات ودجلة بأنهما ينبعان من عين «تيامة»، وهي الآلهة التي كانت تمثل عنصر الماء الملح أي البحر، ومن قبيل ذلك عد الفرات ودجلة من الأنهار الأربعة التي تنبع من الجنة (سفر التكوين 2: 10ـ14)، وفي ترتيلة دينية طريفة يخاطب الفرات بأنه خلق الأشياء، وأن الآلهة لما حفرته عممت الخيرات على ضفافه وشيّد في أعماقه الإله «أيا» معبده، وأن مياهه تبرئ المرضى وتطهر الأدران، وهو القاضي الحكم بين الناس[2]. وهذا يذكرنا بالعرف القانوني الغريب الوارد في شريعة حمورابي في رمي المتهم بالسحر بالنهر لإظهار جرمه أو براءته (المادة الثانية).

أصل تسمية الفرات ودجلة:

كان الرأي السائد بين الباحثين أن تسمية النهرين من أصل سومري، ولكن أخذ الاتجاه حديثاً يميل إلى أنها ليست من أصل سومري ولا من أصل سامي، بل هي تراث لغوي من قوم مجهولين لعلهم سبقوا السومريين والساميين في استيطان السهل الرسوبي، ولا يعلم عنهم شيء سوى ما تركوه من آثار لغوية قليلة في أسماء المدن وبعض المهن والحرف ومنها أسماء دجلة والفرات (انظر القسم الخاص بأقوام وادي الرافدين القدماء). وقد ورد اسم الفرات في النصوص المسمارية بمجموعة من العلامات المسمارية تلفظ على هيئة «بورانُن» (Buranun) أو «بوروننا» (Burununa) ويرادف ذلك في اللغة الآكدية ـ البابلية (السامية) لفظ «بوراتي» أو «پوراتم» (Purati. Puratum) ومنه الصيغة العربية «فرات». وقيل في معنى هذا الاسم إنه يعني «الفرع» أو «الرافد» أو «الماء العذب»، وهو المعنى الذي أورده اللغويون العرب لاسم الفرات أيضاً. وأشهر

---

(1) انظر: .Reisener, *Hymnen*, 136, 29

(2) راجع ترجمة الأسطورة في مجلة «سومر» (1949)، ص 201.

كتابة لاسم الفرات مجموعة العلامات المسمارية: أود ـ كب ـ نُن ـ كي (Ud-kib-nun-ki) مسبوقة بالعلامة المسمارية الدالة على النهر «اد» (Id)[1]. وورد اسم الفرات أيضاً بمجموعة من العلامات المسمارية أقل استعمالاً من المجموعة الأولى.

أما اسم دجلة فقد ورد بهيئة «ادكنا» (Idigna) ومنها التسمية العبرانية «حداقل» أو «هداقل» والعربية دجلة[2].

حوض النهرين:

من الحقائق الجغرافية الخاصة بأنهار العراق أن مصادر مياهها، باستثناء نهر العظيم، تقع خارج العراق، فالمعروف أن جزءاً كبيراً من حوضي الفرات ودجلة وروافدهما، أي ما يصطلح عليه في الجغرافية (River Basin) (وهي المنطقة التي يأخذ النهر منها مصادر مياهه)، يشمل رقعة جغرافية واسعة ما بين بلاد الشام وسلاسل جبال طوروس (الأجزاء الخاصة بتركية منها) ومنطقة جبال

---

(1) جاء اسم دجلة في اللغة الحورية (انظر الأقوام القديمة) على هيئة «ارنزح» أو «ارزنخ» (Aranzakh). والمرجح كثيراً أن اسم دجلة الشائع في اللغات الأوروبية أي Tigris مأخوذ من الفارسية البهلوية «تيركاه» (Tir-gah) التي قِيل في معناها إنها السهم، ولعل هذا إشارة إلى سرعة جريان النهر، أو أنه تحريف أو ترجمة لمعنى اسمه العراقي القديم الذي فسّر في المعاجم المسمارية القديمة بأنه النهر الجاري أو السريع. والجدير بالملاحظة عن كتابة اسم الفرات أن اسم مدينة «سبار» (أبو حبة الآن) يكتب بالعلامات المسمارية نفسها بدون أن تصدر بالعلامة الدالة على النهر.

(2) جاء اسم دجلة في اللغة الحورية (انظر الأقوام القديمة) على هيئة «ارنزح» أو «ارزنخ» (Aranzakh). والمرجح كثيراً أن اسم دجلة الشائع في اللغات الأوروبية أي Tigris مأخوذ من الفارسية البهلوية «تيركاه» (Tir-gah) التي قِيل في معناها إنها السهم، ولعل هذا إشارة إلى سرعة جريان النهر، أو أنه تحريف أو ترجمة لمعنى اسمه العراقي القديم الذي فسّر في المعاجم المسمارية القديمة بأنه النهر الجاري أو السريع. والجدير بالملاحظة عن كتابة اسم الفرات أن اسم مدينة «سبار» (أبو حبة الآن) يكتب بالعلامات المسمارية نفسها بدون أن تصدر بالعلامة الدالة على النهر.

«ارارارط»، وإلى الشرق سلسلة جبال زاجروس. وقد قدر أن نحواً من 45,8 بالمائة من مجموع مساحة حوضي النهرين يقع داخل القطر، والباقي خارج حدوده[1]. ومع أن القسم الأعظم من طولي النهرين يقع داخل الأراضي العراقية إلا أن قسماً غير قليل يتوزع ما بين تركية وسورية. فيمر من طول الفرات، البالغ من التقاء فرعيه في تركية حتى «كرمة علي» (2320) كم، زهاء (455) كم من تركية و675كم في سورية والباقي وقدره 200كم في الأراضي العراقية. أما دجلة فيقع من أصل طوله البالغ نحو (1718) كم، (1418) كم داخل الحدود العراقية والباقي في الأراضي التركية. وهكذا يبدو أن حصة العراق من دجلة والفرات حصة كبرى بيد أن اشتراك أقطار أخرى في أنهاره وحقيقة كون منابعهما في أراضٍ أجنبية لا يخلو من آثار في أحداث تأريخه بالنظر إلى ما قد ينجم عن ذلك من ملابسات دولية ينبغي تسويتها وتنظيمها وفق العرف الدولي. وقد بدأت بوادر هذه المشاكل حديثاً على أثر ما شرع به من إقامة خزانات وسدود في تركية وسورية بالنسبة إلى الفرات.

الفرات وتركيز الاستيطان القديم على ضفافه:

تحكمت خصائص النهرين الطبيعية بتأريخ توزيع المستوطنات البشرية وتركيزها بالدرجة الأولى على الفرات دون دجلة ولا سيما في مراحل الاستيطان الأولى في السهل الرسوبي ما بين الألفين الخامس والثالث ق.م. وأبرز عامل في ذلك ما سبق أن نوَّهنا به من أن الفرات أقل عنفاً وتقلباً في فيضانه بالنسبة إلى دجلة، كما أن كميات مياه الفيضان (في موسم الفيضان تقريباً من شهر آذار إلى نهاية أيار) في دجلة أكثر منها في الفرات، وقد قدرت الزيادة في فيضان دجلة بزهاء 31% أكثر من فيضان الفرات[2]. والمرجح كثيراً أن يكون للمنخفضات الطبيعية المحاذية لضفاف الفرات الغربية في منطقة

---

(1) راجع «فيضانات بغداد في التأريخ»، للدكتور أحمد سوسة (1963) الجزء الأول، ص 115.

(2) المصدر نفسه، ص 46.

الرمادي مثل منخفض الحبانية وهور أبو دبس أثر في تقليل شدة فيضان الفرات، ولعل العراقيين القدماء أفادوا من هذه المنخفضات الطبيعية لخزن المياه الفائضة فيها واستعمالها إبان شح الماء في النهر. وإلى هذه العوامل توجد خاصية أُخرى يتميّز بها وادي الفرات في السهل الرسوبي، تلك هي ما أشرنا إليه سابقاً من ارتفاع هذا الوادي ابتداءً من منطقة الفلوجة تقريباً وانحداره التدريجي شرقاً صوب دجلة، وقد فطن العراقيون القدماء إلى هذه الظاهرة الطبيعية فأفادوا منها بشق مشاريع ري كبرى من الفرات باتجاه دجلة، وقد سارت مشاريع الري الحديثة باتجاه المشاريع القديمة.

وينبع الفرات من الأجزاء الشرقية من الأناضول حيث تكثر السلاسل الجبلية الممتدة من الشرق إلى الغرب، الأمر الذي جعل أغلب روافد الفرات العليا تأتي من الشرق إلى الغرب. ويتألف النهر في منابعه العليا من فرعين كبيرين هما «فرات صو» الذي يجري في سهل «أرضروم» والفرع المسمى «مراد صو»، وهو الفرع الشرقي الذي يجري في هضبة أرمينية ويلتقيان عند بلدة «كيبان معدني»، مكونين مجرى الفرات الرئيس. ويكون طول الفرات قبل التقاء هذين الفرعين زهاء (2848) كم ونحو (2320) من بعد التقائهما. والمرجح كثيراً أن فرع «فرات صو» هو النهر الوارد في النصوص المسمارية بصيغة «أرزانيا» أو «أرصانيا»[1]، وشبيه بهذا اللفظ الاسم الوارد في كتابات «بليني» (القرن الأول الميلادي) على هيئة «أرسيناس» (أرسيناس فلومن)، وذكره البلدانيون العرب باسم «أرسيناس» وأنه نهر «شمشاط». وبعد اتحاد الفرعين الرئيسين السالفي الذكر يأخذ الفرات بالاتساع حيث تصب فيه جملة روافد وأودية ويسير بالاتجاه الجنوبي الغربي حتى يدخل سهل «ميليطية». وبالقرب من مدينة «ميليطية» يلتقي بالفرات رافد مهم يسمى «توخمة صو» (طوخماصو) على بعد نحو (120) كم جنوب «كيبان» التي قلنا إن عندها يلتقي

(1) «أرصانيا» أو ar-za-nia. انظر:

Meissner, *Babylonien und Assyrien*, I, p. 2.

فرعا الفرات الرئيسان. وقد ورد ذكر هذا النهر في المصادر العربية باسم «قباقب»، ولعله النهر المذكور في المصادر الكلاسيكية باسم «ميلاس».
ويستمر عمود الفرات الرئيسي آخذاً بالاتجاه الجنوب الشرقي ويكون كثير التعرجات والالتواءات، ثم يقطع الحدود التركية ـ السورية عنه مدينة «جرابلس» (كركميش القديمة). وبعد جرابلس بنحو (20) كم يلتقي بالفرات في الجهة الغربية رافد آخر يسمى الساجور (أو الصاجور). ويأخذ الفرات ابتداءً من جرابلس بالاتجاه غرباً وكأنه يبحث عن منفذ له في البحر المتوسط حيث تصل المسافة عن هذا البحر نقطة حرجة لا تزيد عن المائة ميل. ولكنه لحسن الحظ يغير اتجاه مجراه من بعد هذه النقطة آخذاً بالاتجاه شرقاً في مسراه الجنوبي ويستمر بهذا الاتجاه حتى يدخل سهول سورية وإقليم ما بين النهرين (الجزيرة). وتقع في هذه المنطقة المدينة التأريخية «سميساط» أو سمساط (سموساته في المصادر الكلاسيكية)، وقد ذكرتها المصادر العربية وذكرت حصنها المسمى «قلعة الطين». ويجدر التنبيه أن هذه المدينة غير المدينة التي ذكرناها باسم «شمشاط».

وإلى الجنوب من نقطة التقاء الساجور بالفرات بنحو (83) كم يحاول الفرات مرة أخرى الاقتراب من البحر المتوسط في منطقة مدينة «مسكنة» («إيمار» القديمة) حيث تبلغ المسافة عن هذا البحر نحو (200) كم، ولكن النهر يغير اتجاهه مرة أخرى بالاتجاه الشرقي. وعند مدينة «مسكنة» أقيم مشروع إرواء لأخذ الماء إلى مدينة حلب بالأنابيب.

الباليخ والخابور:

يتصل بالفرات في مجراه الأعلى في سهول سورية رافدان مهمان هما الباليخ أو البليخ والخابور اللذان يصبان فيه في الجانب الأيسر أي الجانب الشرقي. وقد احتفظ هذان الرافدان بتسميتيهما القديمتين الواردتين في النصوص المسمارية. فقد ذكر الرافد الأول على هيئة «بليخو» أو «باليخ» ويكتب عادة بمجموعة من العلامات المسمارية تؤدي أصواتها لفظ باليخ. ويروي الباليخ إقليم

«أديسا» القديمة أي الرها وحران، وتوجد في هذه المنطقة بقايا مشاريع ري قديمة[1]. ويمر الباليخ أيضاً بمدينة الرقة المشهورة الواقعة على الجانب الأيسر (الشرقي)، وقد قامت عند المدينة القديمة المذكورة في المصادر الكلاسيكية باسم «نقيفوريُم» (Necephorium) وإلى الجنوب من هذه المدينة بنحو (8) كم يلتقي الباليخ بالفرات[2]. ويمر الفرات من بعد التقاء الباليخ به بمدينة دير الزور. وإلى الجنوب منها بنحو 54كم يصب فيه رافده الثاني الخابور بالقرب من المدينة السورية الحديثة المسماة «بسيسيرة»، وعندها بقايا المدينة التأريخية «قرقيسية» (Cercesium) وورد اسم الخابور في المصادر المسمارية بلفظه العربي «خبورو» أو «خابورو»، كما ذكر في المصادر الكلاسيكية بهيئة «خابوراس» أو «آبوراس». والخابور أطول روافد الفرات حيث يبلغ طوله زهاء (245) كم من ينابيعه في جبال ماردين وطور عابدين وتغذيه عدة روافد وأودية وشعاب أشهرها نهر «الهرماس» (الجغجغ)، وهو الفرع الشرقي من الخابور الذي يمر بمدينة «نصيبين» وتل براك وبلدة «سكير العباس» حيث يلتقي أسفل منها بقليل بالخابور. وجاء في أخبار البلدانيين العرب أن الثرثار يأخذ ماءه من «الهرماس» بالقرب من «سكير العباس» حيث توجد عند منابع الهرماس بقايا سدود قديمة، منها سكير العباس المذكور. وبعد أن يجتاز الثرثار جبال سنجار حيث تغذيه فيه جملة عيون وبعد أن يمر بضواحي مدينة الحضر الشهيرة يستمر في مجراه حتى يصب في دجلة في موضع ما بالقرب من تكريت، كما يصب قبل هذا في منخفض الثرثار المعروف.

---

(1) «فيضانات بغداد في التأريخ»، للدكتور أحمد سوسة، الجزء الأول (508ـ509).

(2) كانت الرقة من المراكز المهمة في العصر العباسي في منطقة الجزيرة، وقد شيّد بالقرب منها في عهد المنصور (عام 155هـ ـ 772م) معسكر للجند تطوّر فيما بعد إلى مدينة مهمة وسعها الرشيد وعرفت باسم «الرافقة»، حيث شيّدت فيها القصور الفخمة واتخذت مصيفاً وطغت شهرتها على مدينة «الرقة». واشتهرت منطقة الرقة بصناعة الصابون لكثرة أشجار الزيتون فيها، وهذا يذكرنا باسم الصابون الرقي المشهور في العراق وباسم الرقي في العراق (البطيخ في البلاد العربية الأخرى).

وقد سبق أن ذكرنا بأن المنطقة التي يجري فيها الفرات ورافداه الباليخ والخابور تكون جزءاً مهماً من الإقليم الجغرافي الذي سمّاه البلدانيون العرب «الجزيرة» وهي منطقة خصبة ترويها بالإضافة إلى هذه الأنهار سيول وأودية كثيرة كما أنها تتمتع بسقوط الأمطار الكافية، الأمر الذي جعلها تزدهر في جميع عصور التأريخ وما قبل التأريخ كما تدل على ذلك المجموعات الكثيرة من التلول الأثرية المنتشرة فيها (15)، كما ذكرنا ذلك من قبل، وكان يمر منها جملة طرق تأريخية تربط وادي الرافدين بسورية وموانئ البحر المتوسط والأناضول.

ويمر الفرات قبيل دخوله الأراضي العراقية بجملة مدن من بينها مدن تأريخية مشهورة مثل «دورايوروبس» (Dura-europus) (عند مدينة الصالحية الآن)[1]، ثم بمدينة البوكمال، وبالقرب منها مدينة «ماري» الشهيرة (تل الحريري) التي سيرد ذكرها مراراً في كلامنا على عصور العراق التأريخية. وبعد البوكمال بمسافة قليلة يدخل الفرات الأراضي العراقية عند قرية الحصيبة (مركز ناحية القائم وشمالها بنحو كيلومترين). وتوجد ما بين الحصيبة والقائم بقايا أثرية واسعة على الضفة الغربية تسمى «تل الجابرية» (أو الشيخ جابر لوجود ضريح بهذا الاسم)، كما يسمى المرتفع العالي «التامة»، والمحتمل أن هذه التلول بقايا المدينة القديمة الواردة في أخبار الملوك الآشوريين باسم «خندانو» أو «خندانا».

وبعد أن يجتاز الفرات الرفضة والناحية يمر من مدينة عانة على الضفة اليمنى وراوة (على الضفة الشرقية). ويكون مجرى الفرات من عانة إلى هيت تقريباً في حوض تكثر فيه الجنادل والصخور، كما تكثر فيه الجزر الصغيرة منها «تلبيس» و«كورو» والوس وجبة ونلووسة وغيرها. واشتهرت منطقة عانة في التأريخ بأنها كانت من المراكز المهمة للساميين الآموريين (انظر الفصل الخاص بالعهد البابلي القديم). ويصب في الفرات في الضفة الغربية وادي

---

(1) راجع الفصل الخاص بالعصور الأخيرة من تأريخ العراق القديم.

حوران جنوب بلدة الحديثة بحوالي 6كم بعد أن يأتي من بادية الشام ويمر بمنطقة الرطبة.

الفرات في السهل الرسوبي:

يدخل الفرات من بعد اجتيازه مدينة «هيت» (ايس أو «ايتو» أو «دلدولو» القديمة) السهل الرسوبي ودلتا النهرين الطبيعية. وقد سبق أن أشرنا إلى المنخفضات الطبيعية في منطقة الرمادي مثل الحبانية و«أبو دبس» التي يرجح أنها استعملت في العصور القديمة لخزن مياه الفيضان. وقد تم حديثاً إنشاء خزانات كبيرة (1956)، بإنشاء سدة شمالي الرمادي بنحو (20) كم لحجز مياه الفيضان وتحويلها بواسطة قناة أو جدول (جدول الورار بنحو 3كم شمال الرمادي) إلى بحيرة الحبانية التي تنخفض عن مستوى الفرات بنحو 11 متراً. واستعمل منخفض «أبو دبس» لأخذ الماء الفائض من الحبانية بواسطة جدول «المجرة» إلى «أبو دبس»، وتتم إعادة المياه إلى الفرات وقت شح الماء بواسطة قناة تسمى «الذبان» بالقرب من الفلوجة. وقد أبانت التحريات الجيولوجية أن نهر الفرات كان يتصل في عصور ما قبل التأريخ البعيدة بمنخفض الحبانية و«أبو دبس» وبحر النجف وأن هذه المنخفضات كانت متصلة بعضها ببعض مكونة وادياً طويلاً متصلاً من الشمال إلى الجنوب ولكن حركات «تكتونية» (Testonic) جزأت ذلك الوادي المتصل إلى أجزاء منفصلة هي المنخفضات التي ذكرناها[1].

ويقترب الفرات من دجلة أسفل الفلوجة بقليل حتى تبلغ المسافة ما بين النهرين في منطقة بغداد نحو (20) ميلاً، ويأخذ وادي الفرات في هذه المنطقة بالارتفاع قليلاً عن وادي دجلة (نحو 7 إلى 10 أمتار أعلى من دجلة) وهي الظاهرة التي نوَّهنا بها في الإفادة منها بشق مشاريع ري كبرى من الفرات إلى دجلة في العصور القديمة والحديثة. كما نوَّهنا بأن المشاريع الحديثة قد سارت

---

(1) راجع عن هذا الموضوع مجلة «سومر»، المجلد 13 (1957)، القسم الإنجليزي ص 135 فما بعد.

بالقرب من المشاريع القديمة مثل جدول الصقلاوية وأبو غريب واليوسفية واللطيفية والإسكندرية والمسيب الكبير التي تجري ما بين الفرات ودجلة بهيئة متوازية وهي موازية كما قلنا إلى المشاريع القديمة مثل نهر عيسى (المرجح أنه النهر البابلي القديم المسمى «پاتي ـ انليل») ونهر صرصر ونهر «ملكا» (نار شاري القديم)، ونهر «كوثي» ونهر الصراة الكبير.

وفي السهل الرسوبي أيضاً عانى النهران وبوجه خاص الفرات تبدلات كثيرة في مجاريهما كما نوَّهنا بذلك فيما سبق. وبعد أن يجتاز الفرات مدينة الفلوجة يمر ببلدة المسيب، وإلى الجنوب منها بنحو 8كم مشروع سدة الهندية الذي أنجز في أواخر العهد العثماني (1911ـ1913). وإن السبب في إقامة هذا المشروع مثال على ظاهرة تغيير النهرين لمجاريهما في هذه المنطقة فقد كان الفرات من بعد اجتيازه المسيب بقليل يتفرع إلى فرعين، فرع شرقي هو نهر الحلة الذي كان المجرى الأصلي للفرات، وفرع غربي هو نهر الهندية (الذي كان بالأصل جدولاً شق في القرن التاسع عشر لأخذ الماء إلى الكوفة والنجف)، ثم تحول فرع الحلة كله إلى فروع الهندية (1820). أما بعد إنشاء سدة الهندية فإن مياه الفرات صارت تنظم وتوزع في جداول فرعية، منها نهر الحلة والكفل والإسكندرية في الجانب الأيسر من السد وجدول الحسينية وجدول بني حسن في الجانب الأيمن.

هذا ولا يعلم بوجه التأكيد اتجاه مجرى الفرات عبر العصور القديمة المختلفة، بيد أنه يمكن تحديد أشهر هذه المجاري بالاستناد إلى النصوص القديمة وطريقة التحريات الأثرية الحديثة في تعيين مجاري الأنهار المندرسة بتتبع معالم الاستيطان الواقعة على ضفافها وربطها بعضها ببعض مما سبق أن نوَّهنا به. فيبدو أن الفرات كان ما بين الألفين الثالث والثاني ق.م يجري في اتجاه إلى الشرق من مجراه الحالي. وبعبارة أخرى كان يجري ما بين نهر الحلة الحالي ونهر دجلة إلى الشرق، وكان هذا المجرى يبتدئ بالقرب من صدر جدول اليوسفية الحديث ثم يمر بمدن كبيرة وصغيرة، وتروي فروعه الكثيرة القرى والمزارع المتعددة في السهل الرسوبي. فمن بين تلك المدن

الشهيرة مدينة «سپار» (أبو حبة الآن في منطقة المحمودية، وشرقي مجرى الفرات الحالي بنحو 12كم) ثم في مدينة «كوثي» الشهيرة (وتسمى بقايا المجرى القديم حبل إبراهيم وكذلك أطلال المدينة). وفي نقطة ما في منتصف المسافة ما بين سپار وكوثي كان يتفرع من الفرات القديم (من الجانب الأيمن) النهر الذي كان يروي منطقة بابل ويمر بمدينة بابل نفسها، وقد ورد ذكره في النصوص المسمارية باسم «اراختو»، ويتجه من بعد بابل إلى مدينة «كيش» (تل الأحمير الآن) ثم يمر مجرى الفرات الأصلي من بعد ذلك بمدينة «كيش» (بالقرب من عفك) ومدينة «شروباك» (تل فارة الآن) ثم بمدينة الوركاء، وينتهي أخيراً بمدينة «أور» (ولكن مجرى الفرات الحالي يمر بمدينة الناصرية على بعد نحو 20كم شرقي أور). وقد وجد المنقبون في أور في الموضع المسمى دقدقة (بنحو ميل ونصف شمال شرقي زقورة المدينة) بقايا مشروع سد قديم ومعالم رصيف مياه. وقد أقيم هذا السد لتوزيع مجرى الفرات إلى فرعين، فرع لإرواء منطقة أور (وقد ذكر هذا الفرع في المصادر المسمارية باسم ادنُن Idnun). والفرع الثاني لإرواء منطقة «اريدو». ويرجح بعض الباحثين أن هوراً كبيراً (مثل هور الحمار) كان يقع في العصور القديمة بالقرب من «أور» و«اريدو»، وأنه كان الواسطة لربط ميناء أور السالف الذكر بالخليج والبحر. وهذا هو تفسير الأخبار الواردة عن اتصال هاتين المدينتين بالبحر وليس لأن حد ساحل الخليج كان يصل إلى هذه المنطقة.

ونختتم هذه الملاحظات عن نهر الفرات بتتبع مجاريه السفلى الحديثة حيث الأنهار ومشاريع الري الكثيرة. فيتفرع من شط الحلة مثلاً نهر الدغارة الذي يغذي هور عفك وتقع على هذا الفرع جملة مدن وقرى مثل الديوانية والحمزة والرميثة، ويقترب من فرع الفرات الرئيسي (وهو فرع الهندية) شمال بلدة السماوة بقليل. كما أن فرع الهندية بدوره يتفرع بالقرب من بلدة الكفل إلى فرعين، فرع شرقي هو شط الشامية وفرع غربي هو شط الكوفة الذي يمر بمدينة الكوفة وأبو صخير وغيرهما ويلتقي بفرع الشامية بالقرب من قرية الشنافية. وتتوحد مجاري الفرات السفلى بالقرب من السماوة ثم يمر من بعدها بجملة مدن وقرى مثل الخضر

والدراجي والبطيحة والنصارية وسوق الشيوخ. وتنصب مياه الفرات كلها من بعد سوق الشيوخ في هور الحمار[1]، ويجري داخل هذا الهور بالاتجاه الجنوبي الشرقي مسافة نحو (100) كم، ثم تخرج مياه الفرات من الهور وتصب في دجلة عند «كرمة علي» على بعد نحو (10) كم شمال البصرة وجنوب القرنة بنحو (50) كم[2]، وكان النهران على ما هو معروف، يلتقيان عند القرنة قبل نحو مائة عام، ولكن مياه الأهوار الكثيرة ملأت المجرى الأصلي الذي كان الفرات يسير فيه بمحاذاة ضفة هور الحمار الشمالية، فشق الفرات له مجرى جديداً في الهور نفسه، ومن بعد خروجه من الهور يلتقي بدجلة عند الكرمة كما قلنا. وبتعبير آخر صار قسم الفرات الذي يمتد الآن ما بين «الگرمة» والقرنة جزءاً من مجرى دجلة في حين أنه كان جزءاً من شط العرب، فيصح القول عندئذٍ إن الفرات أصبح منذ مائة عام رافداً لدجلة.

شط العرب:

لا يعلم على وجه التأكيد متى حدث التقاء النهرين وتكوين شط العرب. وإن النصوص التأريخية وأقدمها الأخبار الآشورية من العهد الآشوري الحديث مثل حملة سنحاريب البحرية على بلاد عيلام (696ق.م)[3]، وكذلك أخبار المؤرخين والبلدانيين اليونان والرومان والعرب كلها تشير إلى أن النهرين كانا

---

(1) المعروف أن الأهوار (البطائح) تكونت ما بين القرن السادس والسابع الميلاديين من جراء انبثاق مياه النهرين ولا سيما الانبثاق الأخير الذي حدث في عام 628 و629م (العام السادس أو السابع الهجري). راجع كتاب «الري والحضارة»، للدكتور أحمد سوسة، الجزء الأول (1968) وفيه المراجع الأصيلة.

(2) أقدم ذكر للقرنة، على ما أعلم، جاء في أخبار الرحالة الأوروبيين في منتصف القرن السادس عشر، وذكرت كذلك في «جهان كما» (مطلع القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي)، ولم يرد ذكرها في كتب الجغرافيين العرب. انظر:

W. Budge, *By the Nile and Tigris*, I, 169ff.

(3) حول أخبار حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696ق.م) انظر: ARAB, II, 319

وعن شط العرب: «شط العرب وشط البصرة في التأريخ»، للدكتور محمد طارق الكاتب (1971).

يصبان منفصلين في الخليج. فهيرودتس في تأريخه مثلاً (القرن الخامس ق.م) لا يشير في جميع المواطن التي ورد فيها ذكر دجلة والفرات إلى التقائهما بل إن كلاً منهما كان يصب على انفراد في الخليج (البحر الارثيري عند هيرودوتس لأن الخليج كان يعده جزءاً من البحر الأحمر)، وهكذا نص الكاتب الشهير سترابو (64ق.م ـ 19م)، والمؤرخ الطبيعي «بلني» الأكبر (23/ 24 ـ 79م) الذي يحدد المسافة ما بين مصبي النهرين عند الخليج بنحو 25ميلاً و7 أميال في مكان آخر.

ومهما كان الحال فإن شط العرب يتكون الآن من التقاء النهرين. ويبلغ طوله من القرنة زهاء 204كم. ويصب في الشط نهر السويب والكارون الذي يصب فيه عند مدينة المحمرة. أما عرضه فيختلف باختلاف المواضع ما بين 400متر عند مدينة العشار إلى حوالي (1500) م عند مصبه في الخليج. وتستطيع البواخر الكبيرة أن تسير فيه إلى المعقل بغاطس قدره (9) أمتار وإلى عبادان بغاطس مقداره (9,75) م وإلى الفاو نحو (10,75) م[1]. ويبلغ ارتفاع مناسيب مياهه إبان المد نحو (1,7) م صيفاً وزهاء (2,59) م في موسم الفيضان. وتفيد ظاهرة المد في تسهيل الملاحة وإرواء بساتين النخيل الكثيفة على جانبي شط العرب (ويبلغ عددها نحو 14 مليوناً) حيث تدخل مياه المد إلى الترع والجداول الكثيرة ثم تنسحب في أثناء الجزر جارفة معها الأملاح والأوساخ، فهي على ذلك تحقق عمليتين مزدوجتين في آنٍ واحد، الري والتصريف (البزل)[2].

---

(1) حول أخبار حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696ق.م) انظر: ARAB, II, 319
وعن شط العرب: «شط العرب وشط البصرة في التأريخ»، للدكتور محمد طارق الكاتب (1971).

(2) حول أخبار حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696ق.م) انظر: ARAB, II, 319
وعن شط العرب: «شط العرب وشط البصرة في التأريخ»، للدكتور محمد طارق الكاتب (1971).

دجلة:

سبق أن ذكرنا أسماء دجلة التأريخية فنختتم هذه الملاحظات على أنهار العراق بوصف موجز لرافد العراق الثاني، وأول ما نذكر أن منابعه كائنة في المرتفعات الواقعة جنوبي شرقي تركية، وتتكون مجاريه العليا من جملة روافد يمكن حصرها في مجموعتين، تأتي المجموعة الأولى من منطقة بحيرة «وان»، والثانية من الجبال القريبة من بحيرة «كولجك»، وباجتماع هذه الفروع يتكون المجرى الرئيسي الذي يأخذ بالانحدار بالاتجاه الجنوبي الشرقي ويدخل الأراضي العراقية قرب بلدة «فيشخابور» بعد أن يقطع زهاء (25) كم في تركية ونحو خمسين كيلومتراً ما بين تركية وسورية. ويبلغ زهاء (1718) كم يقع منها (1418) داخل العراق (أي نحو 82% من طوله) وتغذيه خمسة روافد كبرى سيأتي الكلام عليها حيث تمده بنحو 65% من مياهه. وعند بلدة فيشخابور يصب في دجلة أول روافده المسمى الخابور الذي ينبع من الأراضي التركية، ويمر بمدينة «زاخو» ويلتقي في غربيها برافده المسمى «الهيزل».

وبعد أن يدخل دجلة الأراضي العراقية يجتاز أراضي متموجة إلى قرب تكريت حيث يبدأ السهل الرسوبي ودلتا النهرين كما مرّ بنا في كلامنا على الفرات. وقبل تكريت يمر من الموصل ونينوى، وأسفل من ذلك بنحو (64) كم يلتقي به رافده الكبير الزاب الكبير أو الزاب الأعلى في الموضع المسمى «المخلط»، جنوب أطلال «نمرود» (كالح القديمة) بمسافة قليلة، وقرب التل المسمى «تل كشاف»، وهو موضع، «حديثة» دجلة[1]. وأسفل من هذا الموضع بنحو (128) كم يلتقي بدجلة رافده الثاني، الزاب الصغير أو الزاب الأسفل في موضع يبعد بنحو 36كم جنوب الشرقاط (موضع مدينة آشور

---

(1) هناك أدلة أثرية تشير إلى أن دجلة غيَّر مجراه قليلاً إلى جهة الغرب في منطقة نينوى ونمرود، ويبدو ذلك واضحاً عند نمرود التي كانت تقع على النهر، ولكن تحول مجرى النهر الآن غرباً مسافة نحو (5) كم ويمر من القرية الحديثة المسماة «السلامية». وقد وجد المنقبون في نمرود حديثاً بقايا رصيف ميناء من الحجارة الضخمة المهندمة كان يقع على النهر.

القديمة). وبعد ذلك بمسافة زهاء (30) كم إلى الجنوب يقطع دجلة سلسلة جبال حمرين عند الموضع المسمى «الفتحة»، المقابلة لبلدة «بيجي»، ثم يستمر في طريقه إلى السهل الرسوبي فيمر من تكريت الواقعة على جانبه الغربي، ثم من سامراء التي أقيم عندها مشروع سد الثرثار (تمّ إنشاؤه في عام 1956). كما توجد في هذه المنطقة مشاريع ري قديمة مثل النهروان ونهر الدجيل الكبير. وعند منتصف الطريق ما بين مدينة «بلد» وبغداد يلتقي به رافده نهر العظيم (جنوب بلد بنحو 30كم)، ويصل عند بغداد إلى أقرب مسافة له عن الفرات حيث المسافة ما بين النهرين لا تتجاوز العشرين ميلاً كما ذكرنا، ولكنه ينحرف ما بين بغداد والكوت باتجاه الجنوب الشرقي، ويكون في هذه المنطقة كثير الالتواءات والتعرجات (meandering) ويلتقي بدجلة آخر روافده الكبرى وهو ديالى أسفل مدينة «سلمان باك» بقليل. وأقيم عند الكوت مشروع ري مهم هو شط الغراف (الحي)، حيث شيّد سد كبير (1936ـ1937). ويجدر أن نذكر أن دجلة قد غيّر مجراه في منطقة الكوت، فإن فرعه الشرقي وهو المار الآن من مدينة الكوت والعمارة كان المجرى الأصلي للنهر في العصور القديمة ولكنه غير هذا المجرى في أواخر العهد الساساني إلى مجرى غربي هو مجرى الدجيلة الذي يرجح كثيراً أنه كان أحد مشاريع الري الكبيرة التي شقت من دجلة عند الكوت منذ عصر فجر السلالات (منتصف الألف الثالث ق.م)، ولعل «انتمينا»، حاكم دولة لجش هو الذي قام بهذا المشروع، وظل دجلة في هذا المجرى الغربي، وكان يمر بموضع واسط وكسكر، وظلّت واسط مزدهرة على هذا المجرى إلى حدود القرن السادس عشر الميلادي، حينما بدأ الماء يقل فيه وبطل صلاحه للملاحة وعاد النهر إلى مجراه الشرقي القديم أي مجرى الكوت ـ العمارة الحالي فاندثرت واسط[1].

---

(1) راجع أخبار الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين في كتاب «لسترنج»: «بلدان الخلافة الشرقية»، الترجمة العربية للسيدين كوركيس عواد وبشير فرنسيس (1954)، ص 46 فما بعد.

ويمر دجلة من بعد الكوت ببلدة الشيخ سعد ثم بعلي الغربي وعلي الشرقي والكميت والعمارة وقلعة صالح وقرية العزير ثم القرنة.

روافد دجلة:

يمتاز دجلة عن الفرات بكثرة روافده، إذ يتبعه خمسة روافد كبرى تغذيه كما قلنا بنحو 65 إلى 67% من مياهه، وكلها باستثناء العظيم تنبع من المناطق الجبلية خارج الحدود العراقية، وتصب كلها بدجلة في القطاع الشمالي والأوسط من حوض دجلة، أي في المنطقة المحصورة ما بين مصب الخابور عند فيشخابور شمالاً وبين مصب ديالى أسفل سلمان باك بقليل. وتجري هذه الروافد كلها في الجانب الشرقي من دجلة. وقد سبق أن نوَّهنا بأن هذه الروافد تتميز بأنها تجري على هيئة قطرية وتقطع سلاسل الجبال بصورة عامودية، وما لهذه الخاصية الطبيعية من إمكانيات في إقامة السدود والخزانات للمياه عند الممرات أو الفتحات الجبلية التي تقطع فيها تلك السلاسل الجبلية، ومثَّلنا على ذلك بمشروعي سد دوكان (على الزاب الأسفل) ودربندي خان (على ديالى). ونذكر في الأسطر التالية بعض الملاحظات الموجزة عن هذه الروافد.

1 ـ الخابور:

ينبع الخابور من المنطقة الجبلية في تركية، وهو أقصر روافد دجلة، لا يتجاوز في طوله (245) كم، ويجتاز الحدود العراقية التركية باتجاه جنوبي غربي وتصب فيه جملة مجارٍ أهمها نهر «الهيزل» الذي يلتقي به بالقرب من بلدة «زاخو»، التي يرجح أنها قامت في مكان مدينة «الحسنية» المذكورة في كتب البلدانيين العرب، ويلتقي الخابور بدجلة في الحدود العراقية التركية عند بلدة «فيشخابور» كما نوَّهنا بذلك.

2 ـ الزاب الأعلى:

الزاب الأعلى ويسمى كذلك الزاب الكبير. وتسمية الزاب الأعلى اسم هذا النهر الوارد في المصادر المسمارية أي «زابو ايلو»، والزاب الأعلى أطول

روافد دجلة، إذ يبلغ طوله زهاء (650) كم، وتقع منابعه في منطقة جبال حيكاري في تركية. وبعد أن يجتاز الحدود «التركية ـ العراقية» يقطع منطقة «الزيبار» حيث جبال «بارزان» تكتنفه من ضفافه الشمالية وجبال «زيبار» من ضفافه الجنوبية، وهذه منطقة تمتاز بمناظرها الطبيعية الجميلة، وللزاب الأعلى جملة روافد أشهرها نهر «راوندوز» و«رايات» و«خليفان» و«ديانا». وتجتاز المضيق الجميل المناظر المسمى «كلي علي بك» ثلاثة من روافد الزاب وهي خليفان وراوندوز وديانا حيث تلتقي عند المضيق مكونة فرع «خالان» الذي يصب في مجرى الزاب الرئيسي. ومن فروع الزاب الكبيرة نهر «الخازر» الذي يغذيه بدوره نهر الگومل. ويلتقي الخازر بالزاب الكبير عند بلدة «أسكي كلك». هذا وقد سبق أن ذكرنا أن الزاب الكبير يلتقي بدجلة عند المخلط، جنوب الموصل بنحو (40) كم وأسفل أطلال «نمرود» بقليل.

3 ـ الزاب الأسفل:

ويسمى أيضاً بالزاب الصغير، واسمه في المصادر المسمارية مثل الصيغة العربية الزاب الأسفل أي «زابو شپالو». وتقع منابعه في جبال كردستان في القسم الإيراني منها، ويبلغ طوله زهاء (520) كم. وبعد أن يترك منابعه في إيران يسير باتجاه جنوبي محاذياً الحدود الإيرانية العراقية تقريباً حتى يجتاز قرية «زردشت» حيث يأخذ بالانعطاف بالاتجاه الشمالي الغربي ويعبر الحدود في الموضع الذي يتصل به رافده المسمى «دبانة»، وتتصل به من بعد ذلك جملة روافد من كلا جانبيه. وينعطف النهر نحو الجنوب عندما يخرج من المنطقة الجبلية إلى سهول تكتنفها الجبال، منها «دشت سنگه سر» من بعد «قلعة دبزة»، ثم يدخل إلى منطقة جبلية مرة أخرى بعد أن يجتاز مضيق «رمكان»، عابراً سلسلة جبال «آسوس ـ كولارا» حيث يدخل سهل رانية أو سهل «بتوين» بين جبال «هيبت سلطان» المطلة على سهل «كويسنجق» وبين سلسلة «كوارهيش»، ويقطع سلسلة الجبال بصورة عامودية تقريباً في المضيق المسمى «دوكان»، وقد سبق أن نوَّهنا بالإفادة من هذه الخاصية في إنشاء سد

ضخم عند مضيق دوكان (1958). ويستمر الزاب الأسفل من بعد ذلك في أراضٍ متموجة ولا سيما عند طقطق ويمر من بعد ذلك في بلدة «التون كوبرى»، ويستمر باتجاه جنوبي غربي إلى أن يلتقي بدجلة ويصب فيه شمال الفتحة بقليل، على بعد نحو 36كم جنوب قرية الشرقاط (موضع آشور القديمة).

4 ـ العظيم:

سبق أن ذكرنا أن نهر العظيم هو الرافد الوحيد من روافد دجلة الذي تقع مصادر مياهه داخل العراق، فهو يتجمع من السيول الكثيرة في موسم الأمطار في منطقة جبال «قرة داغ»، ولذلك فإن العظيم قليل الأهمية لأن مصادر مياهه كما قلنا من الأمطار الشتوية بالدرجة الأولى، وتغذيه جملة وديان أو فروع تأخذ مياهها أيضاً من جبال «قرة داغ»، منها نهر «خاصة صو» الذي يمر بمدينة كركوك، وفرع داقوق (أو طاووق) المار من مدينة «داقوق» (دقوقا القديمة)، وفرع «طوز خورماتو». وقد أفاد القدماء من عبور العظيم سلسلة جبال حمرين في المضيق المسمى «دمير قبو» فأقاموا سداً هنا تسمى بقاياه الآن «البند»، لخزن المياه الكثيرة إبان فصل الأمطار وإرواء مساحات كبيرة من الأراضي التي تدعى الآن أراضي الغرفة والعيث بين الخالص والموضع المسمى «انجانة». ويلتقي العظيم بدجلة في موضع جنوب «بلد» وبنحو 30كم. وذكر العظيم في المصادر المسمارية باسم «ردانو» وفي المصادر الكلاسيكية باسم «فسكوس».

5 ـ ديالى:

نهر ديالى من أهم وأطول روافد دجلة، ويبلغ طوله زهاء (450) كم، وتقع منابعه في الجبال والمرتفعات الإيرانية، وتغذيه فروع وروافد كثيرة، أشهرها رافدان كبيران هما نهر «سيروان» والثاني «تانجرو»، كما تصب فيه فروع أخرى منها «قوراتو» و«الوند» الذي تقع عليه بلدة خانقين وفرع «نارين» الذي يصب في ديالى عند قرية السعدية.

ويقطع ديالى سلسلة جبال «برناند» (زوالي) في مضيق «دربندي خان» حيث أقيم حديثاً (1963) مشروع سد ضخم لخزن المياه. ويجتاز ديالى تلال حمرين بالقرب من منصورية الجبل، وهنا أقيم مشروع ري مهم حيث شقت من ديالى عدة جداول للري، ففي جانبه الشرقي جدول «خريسان» الذي يمر ببلدة بعقوبة وجدول «مهروت» وجدول «الروز»، ومن جانبه الغربي جدول الخالص. ويصب ديالى بدجلة أسفل سلمان پاك إلى جنوب بغداد بنحو (20) كم، ويكون ديالى مع دجلة مثلثاً كبيراً من الأراضي الواسعة الخصبة، وقامت هنا جملة مستوطنات قديمة مهمة، أشهرها دولة «اشنونا» وعاصمتها في التلول المسماة تل أسمر، وسيأتي الكلام على هذه الدولة في الفصول الآتية. وذكر نهر ديالى في المصادر المسمارية باسم «ترناة» وباسم «دورول» أيضاً.

الأقوام القديمة

مرّ بنا في القسم الأول من هذه المقدمة الجغرافية ما كان لموقع العراق الجغرافي من أثر في تركيب سكانه التأريخي، وكنا قد شبهنا وادي الرافدين بالحوض الواقع ما بين منطقتين جغرافيتين هما، رغم اختلافهما في خصائصهما الجغرافية، متشابهتان من حيث فقرهما إلى الخيرات والموارد الطبيعية بالمقارنة مع أرض ما بين النهرين. ونقصد بهاتين المنطقتين البوادي والسهوب المحاددة لحافة الوادي الغربية. والأقاليم الجبلية المتاخمة من الجهات الشمالية والشمالية الشرقية. فكانت أبرز ظاهرة في تأريخ وادي الرافدين استمرار الهجرات البشرية من تينيك المنطقتين في مختلف عصور التأريخ القديم والحديث، ولذلك فيستحسن أن نكمل هذه المقدمة عن صفة المسرح الجغرافي بالتعرف على أولئك الممثلين الذين قاموا بالأدوار الرئيسة في تمثيل تلك «الدراما» الكبرى التي كانت الأولى من نوعها.

ويجدر أن ننبه في أول الأمر إلى أن ما سنذكره عن أشهر الأقوام التي استوطنت وادي الرافدين وأسهمت بالأدوار الرئيسة في بناء حضارته سيقتصر بالدرجة الأولى على الجوانب اللغوية وليس ما يطلق عليه «الجنس» أو «الرس» (Race) في علم «الأنثروبولوجي»، فهذا موضوع لا تساعد ما بين أيدينا من مادة تأريخية على معالجته. فإذا ما تكلمنا مثلاً عن الأقوام السامية أو الأقوام الهندية ـ الأوروبية فسيكون مفهومنا عنها تلك الأقوام التي تكلمت بإحدى تلك اللغات التي أطلق عليها مصطلح «عائلة اللغات السامية» أو عائلة اللغات الهندية ـ الأوروبية.

١ ـ السومريون:

سيمر بنا في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية كيف أن أوائل الباحثين في حضارة وادي الرافدين، من بعد حلهم رموز الخط المسماري قبل أكثر من مائة عام ومعرفتهم باللغة البابلية، وجدوا أن مآثر تلك الحضارة المدونة لم تقتصر على اللغة البابلية السامية بل اكتشفوا إلى جانبها لغة ثانية سموها اللغة السومرية. ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا والتساؤل لا يزال يثار عن هذه اللغة وعن القوم الذين تكلموا بها. فمن كان أولئك السومريون؟ هل كانوا أحد الأقوام الذين تحدروا من أصول قديمة واستوطنوا وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ؟ أو أنهم جاؤوا بهجرة من خارج القطر في فترة ما في أواخر تلك العصور؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاؤوا، أي أين كان مهدهم ومتى جاؤوا إلى العراق؟

إن هذا النوع من التساؤل يعرف لدى الباحثين في حضارة وادي الرافدين بالقضية السومرية، وهي قضية كثر البحث والنقاش حولها وما زالت أبعد ما تكون عن الحل، لا سيما في الوضع الذي تعرض فيه أي مهد السومريين وأصلهم، فهي على هذا الوجه قضية نعتقد فيها أنها لا يمكن أن تحل في المدى القريب. أما إذا وضعت بمفهومها الحضاري وجعلنا تساؤلنا: «أين نشأت الحضارة السومرية»؟ وبعبارة أصح أين ظهرت حضارة وادي الرافدين التي أسهم في بنائها السومريون بنصيب كبير بحيث أطلق الباحثون على أطوارها الأولى «الحضارة السومرية»؟ والإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز أنها نشأت وتطورت في هذا القطر منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ، وهو ما سنتتبعه في الفصول التالية ولا سيما في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ.

اسم السومريين:

لما اكتشف أوائل الباحثين الذين حلوا رموز الخط المسماري اللغة السومرية من بعد معرفتهم باللغة البابلية كما نوَّهنا وكما سيمر بنا في كلامنا

على تأريخ التحريات حاروا أول الأمر في الاسم الذي يطلقونه عليها فسمّاها بعضهم اللغة الـ «أشكوزية»[1] كما سمّاها البعض الآخر «اللغة الآكدية» (وهذا اسم اللغة السامية التي كانت أصل اللغتين البابلية والآشورية). وإن أولى النصوص الواضحة التي ورد فيها اسم السومريين كان في ألقاب ملوك حضارة وادي الرافدين، وهو لقب: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد»، وبالنص السومري (Lugal Ki-en-gl Ki-uri)، وباللغة البابلية (Shar mat shumerim u Akkadim). وقد ظهرت هذه التسمية المزدوجة كما ذكرنا في كلامنا على أسماء العراق التأريخية من بعد العهد الكوتي، حيث اتخذ هذا اللقب الملك السومري «أوتو ـ حيگال» الذي طرد الكوتيين وحرر البلاد منهم، ولا يعرف معنى مجموعة العلامات المسمارية التي يكتب بها اسم «سومر» أي Ki-en-gi وقد سبق أن نوَّهنا باحتمال أنها تعني في معناها الحرفي «أرض سيد القصب أو الأحراش» ولعل المقصود بسيد الأحراش هنا الإله السومري المشهود «أنكي» أو «أيا»، كما قيل في معنى «سومر» إنه مشتق من أحد أسماء مدينة «نفر»[2] القديمة التي كانت أولى مدينة في الحد الشمالي من «بلاد سومر»، وإلى الشمال من نفر تبدأ بلاد آكد.

اللغة السومرية:

كانت حضارة وادي الرافدين منذ ظهورها في مطلع الألف الثالث ق.م مزدوجة اللغة. فباستثناء آثار قليلة بقيت من تراث قوم مجهولين سنتطرق إلى ذكرهم فيما بعد، كانت اللغتان الرئيستان في التدوين والكلام اللغة السومرية واللغة الآكدية التي تفرعت إلى الفرعين الرئيسين، البابلية والآشورية. وبما أنه

---

(1) أشكوزي هي الصيغة التي وردت في النصوص الآشورية عن اسم أولئك الأقوام الطورانية التي كان مهدها في المناطق الشمالية من البحر الأسود، ودعا الإغريق بلادهم «سكوثية» (skuthia) ومنها كلمة «سكيثي» (Scythian) في اللغات الأوروبية، وسيرد ذكر هؤلاء الأقوام في الفصل الخاص بتأريخ الآشوريين.

(2) حول معاني كلمة «سومر» راجع:
Sollberger in *RA*, (1951), 114ff.

ليس من موضوعنا الكلام على اللغة السومرية التي يدرسها طلابنا الآن في قسم الآثار من جامعة بغداد فنكتفي بإيراد بعض الملاحظات الموجزة عنها مما له صلة بموضوع بحثنا الراهن. وأول ما يُقال عن اللغة السومرية إنها تكاد تكون لغة منفردة بنفسها من ناحية كونها لا يمكن تصنيفها وإرجاعها إلى إحدى العوائل اللغوية المعروفة الآن[1]، فهي ليست من عائلة اللغات السامية ولا من عائلة اللغات الهندية ـ الأوروبية. على أنها إذا لم يمكن إرجاعها إلى عائلة لغوية من حيث الأصل التأريخي فيمكن وصفها بأنها من نوع اللغات المعروفة باللغات الملصقة (Agglutinative)، فمن مظاهر الإلصاق في اللغة السومرية أنها تجمع أو تركب الجمل الفعلية بطريقة إلصاق الضمائر والأدوات الدالة على الزمن إلى جذر الفعل في أول هذه الجمل وفي وسطها وآخرها، بحيث تصبح الجملة الفعلية وكأنها كلمة مركبة واحدة، كما أنها تلصق الأدوات النحوية مثل الأدوات المعبرة عن الإضافة والجر والجمع والفاعلية إلى آخر الاسم مع إجراء التغييرات الصوتية من دمج أو إسقاط لبعض الحروف. والغالبية الكبرى من مفرداتها قوامها مقطع واحد مثل «لو» (Lu) رجل. و«كال» (Gal) عظيم، جليل، و«كا» (Ka) فم و«شو» (Shu) يد، و«كي» (Ki) أرض، موضع و«آن» (An) سماء و«أي» (é) بيت و«دو» (Dú) شيد، وبنى و«تُم» (Tum) رفع، حمل، إلخ وتؤلف بطريق الإلصاق مفردات أخرى مركبة كثيرة مثل «لوكال» (Lugal) أي «الملك» (الرجل العظيم)، و«آن ـ كي» (An-ki) الكون (أي السماء والأرض) و«أي ـ كال» (é-gal) القصر (البيت العظيم، ومنها كلمة هيكل في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى)، و«دب ـ سار» (Dub-Sar)

---

(1) يقصد بالعائلة اللغوية (Family of languages) مجموعة من اللغات متحدرة من أصل واحد ولذلك فهي تتشابه في مفرداتها الأساسية معنى ولفظاً (ولكن ليس إلى حد التطابق) وفي نحوها أي تراكيبها وأساليبها اللغوية، مثل عائلة اللغة السامية (التي سيأتي الكلام عليها في هذا القسم من بحثنا) وعائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية» أو «الهندية ـ الجرمانية» وعائلة لغات «الأورال ـ الطاي» التي تضم اللغات المغولية باختلاف أسمائها مثل لغات الشرق الأقصى واللغات التترية والتركمانية.

الكاتب (كاتب لوح الطين: «دب»)، إلى غير ذلك من الكلمات الكثيرة. وتوجد خاصية يعرفها الدارسون المبتدئون هي أن الحرف الصحيح في أواخر الكلمات لا يلفظ في الغالب، ولكن إذا ولي هذا الحرف الصحيح أدوات نحوية مبتدئة بحرف علة فيلفظ عندئذٍ الحرف الصحيح بدمجه بحرف العلة، والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي بإيراد أسهلها، ففي عبارة: «ملك أور» يعبّر عنها في المفردات السومرية Lugal-urim-ak و(ak) في آخر العبارة أداة الإضافة، فيكون لفظ هذه العبارة وكتابتها على الوجه الآتي: Lugal-uri-ma وفي عبارة: «قصر ملك أور» يكون ترتيبها وشكلها قبل الدمج: é-gal-lugal-urim-ak-ak وبتطبيق القاعدة التي ذكرناها تلفظ وتكتب: é-gal-lugal-uri-ma-ka إلى غير ذلك من الأمثلة المعروفة لدى الملمين باللغة السومرية. وتفيدنا هاتان العبارتان في الوقوف على طريقة الكتابة بالخط المسماري من بعد تطوره من المراحل الصورية والرمزية، وكيف صار كتابة خليطة من كتابة رمزية (Ideogram) أو (Logogram) للتعبير عن كلمة، وكتابة صوتية مقطعية (Syllabic)، أي إن العلامة تؤدي مجرد صوت على هيئة مقطع من حرف صحيح وحرف علة أو بالعكس فيستعمل بدمجه مع مقاطع أخرى لكتابة الكلمات والجمل المختلفة. ومع أن أسلوب الإلصاق مستعمل في جملة لغات بشرية ملصقة قديمة وحديثة مثل اللغة العيلامية ولغات عائلة «الأورال ـ الطاي»، كالمغولية والتركية والمجرية ولغات أخرى مثل البولينيزية والباسكية وبعض اللغات القوقازية مثل الجورجية، بيد أنه يمكن القول إن اللغة السومرية لا تمت بصلة قربى إلى أي من هذه اللغات الملصقة. ولعل أقرب فرضية لتعليل تفرد اللغة السومرية أنها من عائلة لغوية قديمة انقرضت في أزمان بعيدة من عصور ما قبل التأريخ ولم يبقَ إفرادها سوى اللغة السومرية التي تكلم بها السومريون في حضارة وادي الرافدين، وكانت أقدم اللغات المدونة في هذه الحضارة.

زمن ظهور اللغة السومرية في التدوين:

اللغة السومرية كما قلنا أقدم لغة في حضارة وادي الرافدين دوّنت بالخط المسماري، في المراحل الأولى التي تلت ظهور هذا الخط في الدور

الأخير من عصر الوركاء (الطبقة الرابعة من طبقات أدوار هذه المدينة) أي في حدود 3500ق.م. وسواء كان السومريون هم الذين أوجدوا هذا الخط وهو الرأي المرجح، أم قوم آخرون غيرهم سبقوهم في استيطان السهل الرسوبي، فإن السومريين اتخذوا ذلك الخط لتدوين لغتهم، واتضح ذلك أكثر في الطور الحضاري التالي المسمى «جمدة نصر». وازداد وضوح تدوين اللغة السومرية في ألواح الطين المكتشفة في جملة مواضع قديمة من العصر المسمى عصر فجر السلالات الثاني (في حدود 2800 ـ 2700ق.م) مما وجد في مدينة «أور» (الألواح الآركائية)، ثم من أوائل عصر فجر السلالات الثالث في الألواح المكتشفة في تل «فارة» (مدينة شروباك القديمة) حيث بدأت النصوص السومرية وفي مقدمتها كتابات الحكام والملوك[1]، وفيها يظهر تكامل تطور الكتابة المسمارية وسيادة اللغة السومرية في مآثر حضارة وادي الرافدين المدونة، وسنتطرق إلى زمن ظهور اللغة السامية في التدوين.

السومريون من الناحية العرقية:

بعد تلك الملاحظات الموجزة عن اسم السومريين ولغتهم نعالج ما قد يثار من تساؤل عن دلالة الهياكل العظيمة التي وجدت في أثناء التنقيبات في المدن السومرية مثل أور واريدو وكيش وغيرها من الناحية العرقية، وبعبارة أخرى هل يمكن أن نستدل من دراسة هذه البقايا العظيمة عن العرق أو «الرس» (Race) الذي ينتمي إليه السومريون؟ وخلاصة الإجابة على هذه المسألة بالنفي، فإن الهياكل العظيمة المكتشفة في القسم الجنوبي من العراق

---

(1) حول هذه الألواح القديمة والأطوار الأولى في تطور الخط المسماري راجع المصادر الأساسية الآتية:

(1) Falkenstein, *Arkaische Keilschrifttexte aus Uruk* (1936).

(2) Burrows, *Archaic Texts. Ur Excavations*, vol. II.

(3) Langdon, *The Herbert Weld Collection... Pictographic Inscriptions from Jrmdet Nasr.*

منذ أقدم أطوار الاستيطان البشري في عصر العبيد (الألف الخامس ق.م) إلى عصور فجر السلالات المتميز بسيادة اللغة السومرية والثقافة السومرية - نقول إن تلك البقايا العظيمة لم تزود الباحثين المختصين بالموضوع (الأنثروبولوجيين) إلا بمفاهيم عامة غامضة لا تفيد في حل القضية التي بين أيدينا. فهي تشير إلى اختلاط عرقي منذ أقدم العصور. ومن الناحية الأنثروبولوجية وجد نوعان من البشر جنباً إلى جنب، النوع المتميز بالرأس الطويل (Dolichocephalic) وهو نوع الرأس الذي يغلب على أقوام حوض البحر المتوسط بوجه عام، ونوع الرأس المدور أو العريض (Brachycephalic) السائد في أقوام أوروبا الوسطى وفي أرمينيا. وما وجد من الهياكل التي ينبغي أن تكون سومرية خليط من هذين النوعين[1] على الرغم مما ذهب إليه بعض الباحثين من أن السومريين كانوا من ذوي الجماجم المدورة في حين أن الساميين من ذوي الرؤوس الطويلة[2]. أما الملامح الطبيعية التي يمكن درسها من المنحوتات فهي كذلك لا تفيدنا بأشياء مهمة في حل القضية. وكان الباحثون من الجيل القديم يعوّلون كثيراً على تمثيل الأشخاص في المنحوتات في تعداد صفات السومريين والساميين الجسمية كشعر الرأس وإطلاق اللحى وحلق الشوارب وشكل الأنف إلى غير ذلك من الصفات الجسدية. ولكن الواقع من الأمر أن ما يبدو من ملامح على التماثيل الآدمية كانت تتحكم في تمثيلها الطرز الفنية المتَّبعة في النحت بالدرجة الأولى، وأن ما يظهر من

---

(1) عن دراسة الهياكل العظيمة المكتشفة في المواضع الأثرية، انظر المراجع التالية:

1. Frankfort, *The Birth of Civilization in Ancient East* (1950).

2. Langdon, *Excavations At Kish* (1924).

3. L. Woolley, *Ur Excavations*, I, (1927), I. (1934).

4. *Sumer*, v, (1949), iv, (1948).

5. A. Parrot, *AM*, II, 316ff.

(2) راجع التقارير التي نشرت في أبحاث المؤتمر التاسع لعلماء الآشوريات المنعقد في جنيف عام 1960.

هيئات وسحن على تلك التماثيل لا يمثل في الواقع فروقاً أو ميزات قومية خاصة بالسومريين أو الساميين، وإنما هي أزياء خاصة بمقام الشخص الممثل كطبقته الاجتماعية أو الدينية، كالملوك والحُكام والأمراء والكهنة. فنجد الملامح والسمات التي درج الباحثون القدماء على عزوها إلى تماثيل السومريين ظاهرة أيضاً في تماثيل أشخاص ساميين في منطقة سامية صرفة من عصر فجر السلالات السومري ونعني بذلك منطقة مدينة «ماري» (تل الحريري قرب الحدود السورية ـ العراقية). وإلى ذلك إذا قارنا تماثيل السومريين من عصر فجر السلالات (منتصف الألف الثالث ق.م) بتماثيل الأمير السومري الشهير «كودية» أو «جودية» (2200ق.م) وجدنا فروقاً واضحة، وكذلك يُقال بالنسبة إلى تماثيل الآلهة من كلا العصرين.

أما عن قضية مجيء السومريين إلى وادي الرافدين وزمن هجرتهم فهناك احتمالات عديدة لا توجد مبررات حضارية وتأريخية لتفضيل أحدها على الآخر والأخذ به. فمن هذه الاحتمالات أن السومريين لم يأتوا من جهات بعيدة خارج القطر، وإنما كانوا أحد الأقوام الذين عاشوا في جهة ما من وادي الرافدين في عصور ما قبل التأريخ ثم استقروا في السهل الرسوبي منه في حدود الألف الخامس ق.م أو بعد ذلك الزمن عندما أصبح هذا السهل صالحاً للسكنى، وأنهم لم يكونوا المستوطنين الوحيدين ولا أقدم المستوطنين وإنما تعايشوا مع جماعات من أقوام أخرى وفي مقدمتهم الأقوام السامية التي سنتطرق إلى هجراتها إلى وادي الرافدين منذ أبعد العصور التأريخية. ولعل مما يرجح هذا الرأي ويعززه أن ما يسمى بالحضارة السومرية التي ظهرت بمقوماتها في أواخر العصر «الحجري ـ المدني» (chalcolithic) (النصف الثاني من دور الوركاء ودور جمدة نصر) يمكن تقصي أصولها وجذورها الأولى إلى أطوار ما قبل التأريخ في وادي الرافدين نفسه. وبعبارة أخرى أينما كان مهد السومريين فإنهم لم يجلبوا معهم إلى وادي الرافدين عناصر الحضارة ومقوماتها الأساسية معهم على نحو ما فعل المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا. على أن هناك جماعة من الباحثين تحدد مجيء السومريين إلى السهل الرسوبي في

أواخر العصر «الحجري ـ المعدني» الذي نوَّهنا به[1]. ومن هؤلاء الجماعة من يعين الموطن الذي نزح منه السومريون بأنه أرض جبلية، ولذلك نراهم، على حد زعم هذه الجماعة، يقيمون معابدهم فوق مرتفعات اصطناعية (هي الأبراج المدرجة أو الزقورات)، وخصص البعض ذلك الموطن في الجهات الشرقية مثل بلاد إيران بانين افتراضهم هذا على تشابه فخار دور «العبيد»، وكان أقدم نوع من الفخار عثر عليه في السهل الرسوبي، مع فخار دور «سوسة»، ولكن الاكتشافات الآثارية الحديثة أسفرت عن وجود فخار أقدم من فخار دور العبيد، ونعني بذلك فخار طور «اريدو»، كما سنفصل هذا في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ. وارتأت جماعة أخرى من الباحثين أن السومريين نزحوا من وادي السند أو جنوبي بلوجستان، مستندين في ذلك إلى التشابه الحضاري ما بين حضارة هذا الوادي (حضارة هرابا وموهنجو دارو) وبين الحضارة السومرية، وأنهم جاؤوا في موجتين أو هجرتين، إحداهما عن طريق البحر وعبر الخليج العربي والثانية براً عن طريق إيران[2].

وذهب بعض الباحثين إلى أن السومريين عندما جاؤوا إلى وادي الرافدين كانوا في مبدأ أمرهم يجاورون أصحاب حضارة أرقى ومنها اقتبسوا عناصر ثقافتهم، بدليل ما نشأ عندهم من أدب بطولي أو ملاحمي (Heroic Age) وهو نوع من الأدب يظهر عادة عند الأقوام الغير المتحضرة بتأثير جوارها إلى حضارات أرقى، مثل عصر البطولة اليوناني (الممثل بالإلياذة والأوديسة) حينما اتصل اليونان بحضارة الأقوام الإيجية (ومركزها في جزيرة كريت) ومثل عصر البطولة الذي نشأ عند برابرة أوروبا إبان جوارهم للحضارة الرومانية[3].

---

(1) راجع رأي الأستاذ «سبايزر» (Speiser) المنشور في مجلة وكذلك: JSOR, (1939), 29ff.
H. Frankfort, *Archaeology and the Sumerian Problem* (1932).

(2) راجع رأي الأستاذ «سبايزر» (Speiser) المنشور في مجلة وكذلك: JSOR, (1939), 29ff.
H. Frankfort, *Archaeology and the Sumerian Problem* (1932).

(3) انظر بحث الأستاذ «كرامر» (Kramer) المنشور في مجلة:
American Journal of Archaeology (1948), 150ff.

وهكذا يبدو مما عرضناه من آراء عن أصل السومريين ومهدهم أن ذلك من القضايا التي لم تستطع حلها الدراسات اللغوية والآثارية، وأن كل ما قيل ويُقال بشأنها مجرد تخمين وافتراضات لا يمكن البرهنة عليها ولا رفضها بوجه قاطع. وقد سبق لمؤلف هذا الكتاب[1] أن اقترح ما سبق التنويه به من أن السومريين إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية في وادي الرافدين في عصور ما قبل التأريخ البعيدة، وأنهم عرفوا باسمهم الخاص، أي السومريين، نسبة إلى اسم الإقليم الذي استوطنوا فيه أخيراً في القسم الجنوبي من العراق، أي إن التسمية لاحقة للاستيطان ومشتقة من اسم موضع جغرافي ولا تحمل مدلولاً قومياً، يؤيد هذا أن كثيراً من الأقوام التأريخية التي اشتهرت في وادي الرافدين وأسهمت في تكوين حضارته وأحداث تأريخه سميت باسم المواضع التي حلّت فيها مثل الآكديين نسبة إلى مدينة «آكد» أو «أكادة»، العاصمة التي أسسها سرجون الآكدي، والبابليين نسبة إلى مدينة بابل والآشوريين نسبة إلى مدينة آشور على ما يرجح. كما يمكن تتبع أصول الحضارة السومرية إلى جذورها الأولى في عصور ما قبل التأريخ مما نوَّهنا به مراراً. وسنرى من كلامنا على الساميين أن السومريين لم يكونوا أقدم المستوطنين في السهل الرسوبي بل جاوروا أقواماً أخرى وفي مقدمتهم الساميون. وبخلاف ما ذهب إليه البعض من نسبة الأصل الجبلي الخارجي إلى المهد الذي نزح منه السومريون، لا نجد في المآثر السومرية، وعلى رأس ذلك آدابهم وأساطيرهم وشعائرهم الدينية، ما يشير إلى أصل غريب عن بيئة وادي الرافدين الطبيعية، ولا سيما القسم الرسوبي منه، بل إن طابع حضارتهم المميز مشتق من بيئة نهرية ذات أحراش وقصب ونخيل وأثل وطمى وغرين وفيضانات وسهول إلى غير ما هناك مما سبق أن نوَّهنا به من أثر البيئة الطبيعية في حضارة وادي الرافدين.

ونختتم هذه الملاحظات عن السومريين بالتنويه بما كان يفترضه الباحثون

---

(1) طه باقر: «مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة»، الطبعة الثانية، جـ1، ص 91.

القدماء من الصراع والاحتراب بين السومريين والساميين وتفسير أحداث مهمة من تأريخ العراق القديم على أساس هذه الفرضية التي فندتها البحوث الحديثة مما سنتطرق إليه مرة أخرى في أحد الأقسام الآتية من هذا الموضوع.

٢ ـ الساميون:

سبق أن ذكرنا في القسم الأول من هذه المقدمة أثر موقع العراق بالنسبة إلى الجزيرة العربية في تركيب سكانه التأريخي منذ أقدم العهود، فقد نزحت من الجزيرة وأطراف بواديها أقوام كثيرة وفي أزمان مختلفة لا يعلم تحديدها بالضبط إلا حين تخلف تلك الهجرات أثراً وذكراً لها في تأريخ حضارة وادي الرافدين كتأسيس دولة أو سلالة حاكمة مثل الدولة الآكدية والسلالات الحاكمة الأمورية في العصر البابلي القديم.

التسمية:

أطلق على الأقوام العربية التي هاجرت من مهدها الأصلي في جزيرة العرب اسم الأقوام السامية وكان المستشرق الألماني «شلوتزر» (Sshloezer) أول باحث أوجد مصطلح سامي وساميين (في عام 1781) لإطلاقه على المتكلمين بإحدى لغات العائلة السامية كالعربية والعبرانية والآكدية (البابلية والآشورية) والآرامية والكنعانية، بناء على تشابه هذه اللغات الواضح[1]، وظناً منه أن المتكلمين بها متحدرون من نسل «سام» بن نوح كما جاء في جدول الأنساب في التوراة (سفر التكوين، الإصحاح العاشر: 21 ـ 31، والإصحاح الحادي عشر: 10ـ26)، فاتخذت تلك التسمية منذ آنذاك لإطلاقها على اللغات السامية وعلى الأقوام المتكلمين بها. على أن الرأي الحديث اتجه إلى

---

(1) الواقع أن التشابه ما بين اللغتين العبرية والعربية قد فطن إليه بعض أحبار اليهود من أهل القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وأخذ البعض منهم، مثل الرباي أبو زكريا يهوذا (القرن الحادي عشر) يطبق النحو العربي على اللغة العبرية:

Geiger, *Ursprung der Sprache* (1889), p. 22.

البحث في هؤلاء الأقوام من الناحية اللغوية وليس من الناحية العرقية أو الرسية (Racial)، وكذلك ستكون معالجتنا لهذا الموضوع.

وقبل أن نعدد أشهر الأقوام السامية التي استوطنت وادي الرافدين يجدر أن نبيِّن أن هذه التسمية الشائعة، أي الساميين واللغات السامية، غير موفقة ولا صحيحة في رأيي رغم شيوعها في الاستعمال. ولو أننا سمينا هذه اللغات بلغات الجزيرة أو اللغات العربية والأقوام السامية بالأقوام العربية أو أقوام الجزيرة لكان ذلك أقرب إلى الصواب، ولكن اختصاص أولئك الأقوام السامية كل منهم باسم خاص مثل الآكديين والبابليين والعرب والعبرانيين وغيرهم يجعل إطلاق تسمية عرب على كل منهم لا يعبّر عن المدلول التأريخي الدقيق.

مهد الساميين:

عاش الساميون منذ أقدم عهود التأريخ المعروفة في مواطنهم التي عرفت في التأريخ، وهي الجزيرة العربية وأطرافها أي ما يسمى بالهلال الخصيب[1]، وفي بوادي الشام وبوادي العراق. والنظرية الشائعة التي ترجع مهد الأقوام السامية إلى الجزيرة العربية لا تزال النظرية المعول عليها من جانب جمهور الباحثين. وانتشر من الجزيرة منذ أزمان مختلفة أقوام على هيئة هجرات استوطنت في أطراف الجزيرة ومنها بوادي الشام والعراق الغربية وبوادي ما بين النهرين العليا مثل منطقة الخابور والباليخ والفرات الأعلى، ومنها كانت تتغلغل إلى المناطق الأخصب مثل وادي الرافدين وسورية وفلسطين ولبنان وحتى وادي النيل حيث دخلت جماعات من الساميين منذ عصور ما قبل التأريخ في تركيب سكانه التأريخي.

ومع أن نظرية كون الجزيرة مهد الساميين كما ذكرنا أصبحت في عداد

---

(1) أول من استعمل مصطلح الهلال الخصيب (Fertile Crescent) المؤرخ الشهير «هنري بريستد» في كتابه «العصور القديمة».

الحقائق تقريباً إلا أنه ينبغي التحوير في بعض تفاصيلها: فمثلاً مع صحة الفرضية القائلة إن صحارى الجزيرة كانت عامرة بالحياة، من حيوان ونبات وإنسان، في العصور الحجرية القديمة في الدهر الجيولوجي المسمى «بلايستوسين» (Pleistocene) حيث تمتعت بأمطار غزيرة[1]، بيد أنه يشك في أنها ظلت صالحة للاستيطان في العصور التأريخية التالية، لتعذر العيش فيها بحلول الجفاف العام وانعدام وسائل التجول فيها قبل إدخال الجمل إلى منطقة الشرق الأدنى، ولا سيما منذ أواخر الألف الثاني ق.م[2]. وقبل استعمال الجمل كان البدو الساميون على ما يرجح يستعملون في تنقلهم الحمير ويربون الماشية، فكانت تنقلاتهم محدودة بدرجة أكثر من بدو الجزيرة الآن، من بعد استعمال الجمل. ولذلك فإن الصورة القديمة التي كان يصور بها الساميون بكونهم بدواً يتجولون في الجزيرة صورة غير صحيحة على علاتها، بل إن الكثير منهم سبق أن هاجر من الجزيرة في أزمان بعيدة واستوطن في البوادي الخصبة المجاورة لمراكز العمران والحضارة في الهلال الخصيب وصاروا زراعاً أو رعاة شبه مستقرين، كما أن جماعات كثيرة منهم كانت تتغلغل بالتدريج إلى تلك المراكز العمرانية في أزمان مختلفة. وهذه أحداث لم يسجلها التأريخ بل اقتصر الأمر من هجرات تلك القبائل على تلك الهجرات الكبرى التي أحدثت اضطرابات وتبدلات أساسية في مراكز الحضارات المجاورة كالقضاء على الدول القائمة فيها وإقامة كيانات سياسية لها سجلها التأريخ، والأمثلة على ذلك كثيرة سيرد ذكر أشهرها في الفصول الآتية. ومن هنا منشأ ما تعارف عليه المؤرخون في تعداد ما يسمى بالموجات السامية إلى أقطار الهلال الخصيب. وبالنسبة إلى وادي الرافدين لم ينقطع تسرب الأقوام

(1) انظر الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ حول أحوال المناخ في منطقة الشرق الأدنى في العصور الحجرية القديمة.

(2) حول إدخال الجمل واستعماله لأول مرة في أقاليم الشرق الأدنى راجع:
Forbes, *Studies in Ancient Technology*, II, (1955), 187ff.

البدوية المتاخمة له من جهاته الغربية عبر الفرات بل استمر إلى العصور الحديثة. وكان للفتوح العربية الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي لأقطار الهلال الخصيب وشمالي أفريقيا الأثر الحاسم النهائي في تركيب سكان هذه الرقعة الجغرافية الشاسعة بجعل غالبية سكانها من الأقوام السامية أي العربية.

ملاحظات على خصائص عائلة اللغات السامية:

تؤلف اللغات السامية كما ذكرنا ما يصطلح عليه اسم العائلة اللغوية التي سبق أن عرفناها. وقد انتشرت لغات هذه العائلة التي سنعددها منذ أقدم العصور التأريخية القديمة في المناطق التالية من آسية الغربية، وهي ابتداءً من الشرق إلى الغرب: ما بين النهرين وسورية وفلسطين (أي بلاد الشام جميعها) وشبه الجزيرة العربية وفي السواحل المقابلة للأجزاء الجنوبية من الجزيرة ولا سيما بلاد الحبشة. وانتشرت من هذه المناطق الأصلية أما بالهجرة والاستيطان أو الفتوح إلى وادي النيل وشمالي إفريقيا وغيرها.

وتمتاز اللغات السامية بصفتها عائلة لغوية بخصائص مشتركة تميزها عن غيرها من أفراد عائلات اللغات البشرية الأخرى أبرزها الأمور التالية:

1 ـ تعنى اللغات السامية في كتابتها بالحروف الصحيحة أكثر من اعتمادها على حروف العلة، مع أنها تتميز على اللغات الأخرى بثروتها الكبرى من الاشتقاق والتصريف المستندين إلى تغيير حركات الكلمات بدرجة كبيرة.

2 ـ ترجع الغالبية الكبرى من المفردات في اللغات السامية إلى أصل أو جذر ذي ثلاثة حروف، وتشتق من هذا الأصل صيغ وأبنية مختلفة كثيرة فيها معنى الأصل وزيادة، بتحوير حركات ذلك الأصل الثلاثي أو بإضافة زوائد إلى أوله أو وسطه أو آخره. وبهذه الوسيلة من الاشتقاق صارت في اللغات السامية ثروة كبيرة من المفردات لا تكاد تضاهى في اللغات الأخرى، وكان هذا مصدر نمو وحيوية فيها. وإلى الأصول الثلاثية الغالبة في اللغات السامية

لا يندر وجود الأصول الثنائية، ومن الباحثين من يرى الأصل الثنائي. وتتشابه اللغات السامية في عدد أصواتها أي حروفها وبوجود أصوات خاصة بها كحروف الحلق والضاد والظاء.

3 ـ الفعل في اللغات السامية بوجه عام محدود الزمن في أصل ما وضع له، فالأصل في أزمانه الماضي والحاضر، ولكن الكثير من اللغات السامية ومنها الآكدية والعربية يستعمل أدوات خاصة أو يحدث تحويرات في صيغ الفعل لمد هذين الزمنين إلى المستقبل وإلى الماضي البعيد أو القريب، وللدلالة على تمام الحدث (Perfect) كما في اللغة الآكدية بوجه خاص.

4 ـ ليس في اللغات السامية سوى جنسين هما المذكر والمؤنث.

5 ـ وتتميز اللغات السامية بظاهرة غريبة في العلاقة العكسية بين العدد والمعدود من حيث التذكير والتأنيث من الثلاثة إلى العشرة، وشمول ذلك الأعداد المركبة بشيء من التحوير على نحو ما هو معرف في اللغة العربية، وتسمى هذه الظاهرة بالاستقطاب الجنسي (Polarity).

6 ـ وتندر في اللغات السامية ظاهرة التركيب في الكلمات أي دمج كلمة مع أخرى لتصبح كلمة واحدة على غرار الإلصاق الذي نوَّهنا به في اللغة السومرية. ويستثنى من ذلك التركيب الخاص بأسماء الأعلام في كثير من اللغات السامية حيث الغالب فيها، كما في البابلية والآشورية، أنها تتألف من عبارة أو جملة مفيدة من مسند ومسند إليه.

ولعل أقرب شبه بعائلة اللغات السامية عائلة اللغات الحامية التي سنتطرق إلى صلتها بها بحيث عدت العائلتان عائلة واحدة كبرى على رأي جمهور من الباحثين[1].

---

(1) أحدث مرجع عن اللغات السامية وخصائصها ونحوها المقارن وفيه الإشارات الكثيرة إلى الدراسات والبحوث الخاصة بالموضوع المصدر الآتي:

Moscati, Spitaler, Ullendorf, Von Soden, *An Introduction to the Comparative Grammar of Semitic Languages* (1964). Mosati, *The Semites in Ancient History* (1959).

وتصنف عائلة اللغات السامية إلى مجموعات أو كتل لغوية على أساس التوزيع الجغرافي والتشابه اللغوي إلى المجموعات اللغوية التالية:

١ ــ كتلة اللغات السامية الشرقية:

أو الشمالية الشرقية وتتألف بالدرجة الأولى من اللغات أو اللهجات الآكدية في العراق القديم، وقد بدأ تدوينها بالخط المسماري منذ 2500ق.م.

وتفرعت الآكدية منذ مطلع الألف الثاني إلى اللهجات الرئيسة التالية:

أ ـ البابلية:

(في حدود 2000ق.م إلى القرن الأول الميلادي):

1 ـ البابلية القديمة (2000 ـ 1500ق.م).

2 ـ البابلية الوسيطة (1500 ـ 1000ق.م).

3 ـ البابلية الحديثة (1000 ـ 600ق.م).

4 ـ البابلية المتأخرة (600ق.م إلى القرن الأول الميلادي).

ب ـ الآشورية:

(في حدود 2000 ـ 600ق.م):

1 ـ الآشورية القديمة (2000 ـ 1500ق.م).

2 ـ الآشورية الوسيطة (1500 ـ 1000ق.م).

3 ـ الآشورية الحديثة (1000 ـ 600ق.م).

٢ ــ كتلة اللغات السامية الغربية:

وموطن هذه الكتلة من اللغات السامية بالدرجة الأولى في بلاد الشام بمفهومها الجغرافي التأريخي العام، أي سورية وفلسطين ولبنان وشرقي الأردن وتنقسم كتلة اللغات السامية الغربية بدورها إلى مجموعتين كبيرتين هما:

أ ـ اللغات الكنعانية:

ومن أفرادها الأمورية والكنعانية ـ الفينيقية، والعبرانية والأوغاريتية(1) والموأبية (نسبة إلى موأب في شرقي الأردن) والفينيقية الحديثة في قرطاجنة وشمالي إفريقيا.

ب ـ الآرامية:

الآرامية القديمة ما بين القرنين العاشر والثامن ق.م وتفرعت الآرامية القديمة ما بين القرن الأول ق.م والقرن الثاني الميلادي إلى فرعين رئيسين احتوى كل منها على عدة لهجات:

1 ـ الآرامية الشرقية:

منها اللهجة الحضرية (مدينة الحضر المشهورة) والآرامية البابلية والرهوية (سريانية الرها) واللهجة الصابئية (المندائية) والآثورية في العراق.

2 ـ الآرامية الغربية:

ومنها الآرامية النبطية والتدمرية والآرامية الفلسطينية والسورية وغيرها من اللهجات المحلية.

3 ـ كتلة اللغات السامية الجنوبية (الجنوبية الغربية):

وهي لغات الجزيرة العربية واللغة الحبشية، واللغة العربية الشمالية (الحجازية) التي تسود فروعها ولهجاتها المختلفة الآن جميع الأقطار العربية. ومنها اللغات العربية الجنوبية التأريخية مثل المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية واللهجات الحبشية.

---

(1) الأوغاريتية نسبة إلى مدينة «أوغاريت» (رأس الشمرا الآن قرب اللاذقية في سورية) وكانت مركز مستوطن كنعاني ازدهرت حضارته في الألف الثاني ق.م، ووجدت في أوغاريت أدوار حضارية تمتد إلى عصور ما قبل التأريخ.

وهناك اختلاف في الرأي حول موقع بعض اللغات السامية من هذه الكتل التي عددناها مثل مكانة الأوغاريتية والأمورية ما بين الكتلتين الغربية والشرقية، ومكانة النبطية والتدمرية ضمن الآرامية، ومكانة اللغات العربية الجنوبية ما بين الحبشية واللغات العربية الأخرى.

ملاحظات على الهجرة السامية إلى مناطق الشرق الأدنى:

إن ما سنعدده من هجرات أو موجات للقبائل السامية إلى أنحاء الشرق الأدنى المختلفة تقتصر كما ذكرنا على تلك الهجرات التأريخية المأثورة التي دون التأريخ أحداثها ونتج عنها في الغالب قيام دول وسلالات حاكمة مشهورة، مؤكدين ملاحظاتنا السابقة من أن تغلغل القبائل السامية من أطراف الجزيرة إلى مراكز الحضارات والعمران في الشرق الأدنى كان عملية مستمرة تقريباً منذ عصور ما قبل التأريخ ولا تزال مستمرة في بعض الأجزاء إلى يومنا هذا ما دامت البداوة في الوجود[1].

1 ـ الساميون الشرقيون:

في وادي الرافدين ما بين الألفين الخامس والرابع ق.م، قامت من هؤلاء الساميين في العراق في منتصف الألف الثالث ق.م الدولة الآكدية المشهورة، نسبة إلى العاصمة آكد[2]، فأطلق اسم الآكديين واللغة الآكدية على السامين الشرقيين، وهذه تسمية متأخرة لاحقة لوجود الساميين في العراق[3].

2 ـ الساميون الغربيون:

اشتهر من هؤلاء الساميين الغربيين القبائل الأمورية، وهم الكنعانيون

---

(1) حول القبائل السامية البدوية بوجه عام ولا سيما قبائل بوادي الشام والعراق وما بين النهرين في الألف الثاني ق.م انظر:

J.R. Kupper, *Les nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari* (1957).

(2) راجع الفصل الخاص بالآكديين.

(3) راجع الفصل الخاص بالآكديين.

الشرقيون في وادي الرافدين وبلاد الشام والكنعانيون الغربيون ومنهم الفينيقيون في سورية وفلسطين كذلك، ما بين الألفين الثالث والثاني ق.م وسيمر بنا في كلامنا على تأريخ العراق في العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) كيف أسس الأموريون في العراق دولاً وسلالات كثيرة في فترتين من هجراتهم[1]، كانت أولاهما في أواخر الألف الثالث ونتج عنها تحطيم أمبراطورية «أور» وإقامة عدة دويلات على أنقاضها مما سنفصل فيه القول في الفصول التالية، وأعقبتها من بعد نحو مائة عام هجرة أمورية ثانية قامت منها أيضاً عدة دويلات ومشيخات أشهرها سلالة بابل الأولى (1894ـ1595ق.م) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي (1792ـ1750ق.م).

3 ـ الآراميون:

انتشرت القبائل الآرامية في كثير من مناطق الهلال الخصيب ما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر ق.م، في بلاد الشام وبواديها وفي جزيرة ما بين النهرين (أرض ما بين النهرين العليا)، وقامت منها عدة دويلات، ولكنها دخلت في صراع مميت مع الآشوريين. وكان الضغط الآشوري في مقدمة الأسباب التي حالت دون قيام دولة كبرى من الآراميين، وسيمر بنا تفصيل العلاقات ما بين الآشوريين وبين الآراميين في القسم المخصص لتأريخ الآشوريين. وتدفقت القبائل الآرامية أيضاً إلى وادي الفرات الأعلى والأسفل وقامت منهم عدة مشيخات ودويلات، آخرها وأشهرها الدولة الكلدانية التي اشتهرت بملكها نبوخذ نصر الثاني (605ـ562ق.م).

4 ـ القبائل العربية:

انتشرت القبائل العربية منذ الألف الأول ق.م إلى جهات ما بين النهرين، وقد أخذ اسم «عرب» يظهر في أخبار الملوك الآشوريين في

---

(1) أحسن مرجع عن موضوع هجرات الأموريين إلى العراق والسلالات التي أقاموها فيه المرجع المرموز له بـ ZZB.

حروبهم مع بعض تلك القبائل في بوادي الشام والعراق ولعله في شمالي الحجاز[1].

ونذكر أيضاً القبائل النبطية في تدمر وطور سيناء وشمالي الحجاز وهي على الأكثر قبائل عربية تكلمت أو كتبت باللغة الآرامية. وهناك القبائل العربية مما قبل الإسلام ما بين القرن الثاني ق.م والقرن السادس الميلادي. وتعد الفتوح العربية منذ القرن السابع الميلادي من جملة الموجات العربية الكبرى التي نتج عنها التركيب الحالي لغالبية سكان البلاد العربية.

اللغة السامية «الأم» واللغات السامية والحامية:

تستلزم حقيقة كون اللغات السامية تؤلف عائلة لغوية واحدة أنها انحدرت من أصل واحد، أي ما يصطلح عليه باللغة «الأم» (Ursprache) التي كانت لغة أجداد الأقوام المتكلمين بها، كما يفترض أن هذه اللغة «الأم» كانت في بقعة جغرافية معيّنة في العصور البعيدة، وهي المهد الذي نزحت منه الأقوام المتكلمون بفروعها المختلفة، حيث تبدأ لهجاتهم من بعد هجراتهم إلى مواطن أخرى بالتنوع والتغيير والاختلاف بفعل ناموس التطور اللغوي والتباعد الجغرافي، وتزداد هذه الاختلافات بمرور الزمن، ولكنها مع ذلك تظل متشابهة في مفرداتها الأساسية الموروثة وفي تراكيبها النحوية الأساسية.

لقد استعملنا تعبير «يفترض» لأن في الواقع البديهي يتعذر العثور على «الأم» الأصلية لعائلة أي لغات بشرية ولا سيما القديمة منها، ولا سبيل لنا في ذلك إلا افتراض وجود تلك اللغة الأصلية المشتركة، بيد أنه افتراض يقوم على أساس تأريخي هو وجود العائلة اللغوية نفسها؛ وإلى هذا فإن التأريخ سجل لنا أمثلة على ظاهرة نشوء أفراد العائلة اللغوية، ومنها صيرورة إحدى اللغات من عائلة لغوية كبيرة عائلة لغوية ثانوية بتفرعها إلى لهجات من جراء

---

(1) أول ذكر لاسم «عرب» في التأريخ كان في أخبار الملك الآشوري «شليمنصر الثالث» (858ـ824ق.م) انظر: ARAB, I, (1924).

هجرات جماعات يتكلمون بها فيعمل التطور اللغوي والتباعد الزمني والجغرافي ما بين المتكلمين بها على ظهور لهجات أو لغات متعددة منها؛ ونكتفي للأمثلة على هذه العملية اللغوية التأريخية بمثال صيرورة العربية الشمالية من عائلة اللغات السامية «أمًّا» للهجات عربية كثيرة، هي اللهجات العربية المنتشرة الآن في أقطار الشرق العربي وشمالي إفريقيا ومالطة وغيرها، ومثل صيرورة اللغة اللاتينية «أمًّا» للهجات أو لغات عديدة، هي اللغات التي تسمى باللغات «الرومانسية» ومنها الفرنسية والإيطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية.

على أنه رغم اندثار السامية «الأم» وزوالها من الوجود في زمن موغل في القدم فقد يثار التساؤل التالي: ترى كيف كانت تلك السامية «الأم»؟ وهل بمكننا أن نكون عنها صورة ولو تقريبية؟ وأي من بنات هذه الأم التي عددناها أشبه بها؟ وللإجابة على مثل هذه التساؤلات يمكن القول إننا نستطيع تأليف صورة ولكنها صورة عامة الملامح عن تلك السامية الأم بطريقة تجريد العناصر اللغوية القديمة المشتركة المستخلصة من أفراد هذه العائلة اللغوية، ولا سيما الأفراد الواضح تطورها اللغوي. على أن إعادة تركيب هذه الصورة لا تعني أننا نقف منها على شخصية تلك «الأم» يوم كانت لغة حية محكية، بل إن ذلك مجرد إعادة تركيب هيكلها العظمي. ويمكن القول بهذا الصدد إن تصور الملامح العامة للسامية الأم أمر أسهل بالمقارنة مع بعض العوائل اللغوية التأريخية المشهورة، مثل عائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية» التي انتشرت أفرادها إلى بقاع جغرافية شاسعة البعد بعضها عن بعض، في حين أن انتشار أفراد العائلة السامية انحصر بالمقارنة في بقاع جغرافية غير متباعدة، الأمر الذي قلل من مدى التباعد اللغوي ما بين هذه الأفراد، وإلى هذا تضاف وفرة التراث التأريخي المدون لمعظم أفراد هذه العائلة وكون التشابه فيما بينها أكثر منه في أفراد العوائل اللغوية الأخرى.

أما تساؤلنا عن أي من أفراد عائلة اللغات السامية أشبه «بالأم» الأصلية

فقد اختلف في الإجابة عليه الباحثون في علم الساميات المقارن. وكانت العربية إلى زمن قريب اللغة المفضلة عند جمهور الباحثين في كونها أقرب اللغات السامية شبهاً بالأم بالنظر إلى احتفاظها بعناصر لغوية عتيقة. ولكن أخذ يزاحم العربية حديثاً بعض اللغات السامية الأخرى مثل «الأوغاريتية» واللغات العربية الجنوبية والآكدية.

اللغات السامية والحامية:

يرى جماعة من الباحثين أن عائلة اللغات السامية ليست ظاهرة لغوية منعزلة بل إنها تؤلف مع ما يسمى باللغات السامية (ومن أفرادها اللغة المصرية القديمة واللغات البربرية والكوشية) عائلة لغوية كبرى أطلق عليها اسم عائلة اللغات «السامية ـ الحامية»، بالاستناد إلى التشابه الملحوظ ما بين أفراد هاتين العائلتين. وقد أكد بعض الباحثين في دراستهم اللغات البربرية الصلة الوثيقة بين اللغة الآكدية (السامية الشرقية) وبين هذه اللغات[1]. وهناك من الباحثين من يرى وجود نقاط من الشبه والصلة بين عائلة اللغات «السامية ـ الحامية» وبين عائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية»، مفترضين وجود عائلة لغوية أكبر تضم هاتين العائلتين أطلقوا عليها اسم «الآرية ـ السامية»، بيد أن هذه فرضية لا يقرها جمهور الباحثين.

٣ ـ قوم مجهولون وأقوام أخرى في وادي الرافدين:

أ ـ الفراتيون الأوائل:

بدأ الباحثون في أصول حضارة وادي الرافدين منذ الأربعينات من هذا

---

(1) حول تشابه اللغات السامية والحامية انظر المرجع المستشهد به في الهامش رقم 47. وعن التشابه الخاص ما بين الآكدية وبين اللغات، البربرية بوجه خاص والفرعونية القديمة بوجه عام انظر:

O. Rossler in ZA, 50, (1952), 121ff.; *Orientalia*, 20, (1951), 101ff.

القرن يشكون في إرجاع أصول معظم المدن التأريخية في السهل الرسوبي ومنها اسما دجلة والفرات وأصول أسماء حرف كثيرة إلى اللغة السومرية أو اللغة الآكدية (السامية). وازدادت تلك الشكوك وتجمعت الأدلة اللغوية على أن هذه الأسماء التي سنعددها بعد قليل تراث لغوي وحضاري من قوم مجهولين ليسوا من السومريين ولا من الساميين، ويرجح أنهم سبقوا هذين القومين في الاستيطان في السهل الرسوبي. وكان الأستاذ «لاندزبيركر» (Landsberger) أول باحث أثار هذا الموضوع وسمى أولئك القوم المجهولين «بالفراتيين» الأوائل (Proto-Euphrateans) وأعاد درس الموضوع جملة باحثين آخرين منهم الأستاذ «كلب» (Gelb) الذي أضاف أدلة أخرى تأريخية ولغوية، وفسّر عصر البطولة (Heroic Age) الذي نشأ عند السومريين مما أشرنا إليه سابقاً بسبب جوارهم لأولئك القوم المجهولين الأرقى منهم حضارة[1].

ولعله من المفيد أن نذكر أشهر المفردات الدالة على طائفة من الحرف والصناعات والتي يراها الباحثون أنها من تراث أولئك القوم وليست سومرية أو آكدية: (1) «إنگار» (Engar)، فلاح، (2) «آپن» (Apin) محراث،

(1) نشر بحث الأستاذ «لاندزبيركر» (Landsberger) في المجلة التأريخية لجامعة أنقرة (1943-1945). بالإضافة إلى هذا البحث انظر: Kramer, *The Sumerians* (1963), p. 40.
وبحث الأستاذ «كلب» في المؤتمر التاسع لعلماء الآشوريات (Assyriology) المنعقد في جنيف عام 1960.
وحول عصر البطولة عند السومريين انظر:
Kramer in the *Proceedings of the American Philosophical Society* (1946), 120ff.
وأضاف الأستاذ «كلب» (Gelb) في بحثه المشار إليه أدلة مأخوذة من أثبات العلامات المسمارية حيث وجد أن البعض منها يذكر القيم الصوتية المقطعية دون ما يرادفها من قِيم رمزية أي الكلمات التي تعبر عنها تلك المقاطع الصوتية، ففسرها بأنها كانت بالأصل لمفردات غير سومرية ورثها السومريون في نظام كتابتهم المسمارية. كما ذهب هذا الباحث إلى ترجيح أن السومريين أخذوا الخط المسماري من أولئك القوم المجهولين.
حول هذه العلامات المسمارية الغريبة انظر:
David, «Le terme Ka.ka-siga in *Oriens Antiquus*, nos. 5-12 (1945).

(3) «نـمـبـار» (Nimbar) نـخـل، (4) «سـولـومـب» (Sulumb) تـمـر، (5) «تبيرا» (Tibira) نحاس، تعدين، (6) سمگ (Simug) حداد أو نحاس (7) نگار (Nagar)، نجار (أصل العربية نجار) (8) «ملاح» (Malakh)، ملاح (العربية ملاح) (9) «پخار» (Pakhar) فخار (صانع الأواني الفخارية) (10) «دمگار» (Damgar)، تاجر (11) «إشبار» (Ishbar)، حائك (12) «أشگاب» (Ashgab) اسكافي، جلاد (صانع الجلود).

وبالنسبة إلى أسماء المدن والمواضع فيرى الباحثون بموجب هذه الآراء الحديثة أن أسماء معظم المدن المهمة في بلاد سومر وبلاد آكد ولا سيما القديمة منها ترجع إلى التراث اللغوي الذي تركه أولئك القوم ومنها تسمية نهري دجلة والفرات كما قلنا، ونعدد أسماء هذه المدن ابتداء من الجنوب:

(1) «أريدو» (Eridu) (أبو شهرين) (2) أور (Urim) (3) «أوروك» أو «أونوك» (Uruk. Unug) (الوركاء) (4) كلابا، كلاب (Kullaba) (5) «لارسام» (Larsam)، لارسة (السنكرة) (6) لگاشو (Lagashu) (الهباء) (7) «كرسو» (Girsu) (تلو) (8) نينا (Nina) (سرغل) (9) «سرارا» (Sirara) (10) «باد - تبيرا» (Bad-tibira) (تلول المدينة في منطقة لجش) (11) «أوما» (Umma) (تل جوخة) (12) شروباك (Shuruppak) (تل فارة) (13) أدب أو «أودب» (Adab. Udab) (بسمي) (14) «نپر» أو «نبروآ» (Nippur. Nibrua) (نفر) (15) كيش (Kesh) (لا يعلم موقعها وهي غير مدينة كيش التي سيأتي ذكرها) (16) مرد (Marad) (ونة والصدوم) (17) «لراك» (Larak) (تل الولاية) (18) ايسن (Isin) (ايشان بحريات) (19) كيش (Kish) تلول الأحيمر (20) سپار أو «زمبر» (Sippar. zimbir) (أبو حبة) (21) اكشك أو «أوپي» (Akshak. Upi) (22) اكد أو «اگاده» .Akkad) (Agade (23) كوثي أو «كودوآ» (Gudua) (كوني، تل إبراهيم) (24) بابلم (Babilim) (بابل) (25) بارسبا، أو بورسبا (Barsipa) (برس نمرود) (26) «إشنونا» (Eshnunna) (تل أسمر) (27) توتب (Tutub) (خفاجي).

ب ـ السوباريون والحوريون:

اتصل سكان وادي الرافدين منذ أقدم عهود التأريخ بعدة أقوام خارج القطر، أما عن طريق الاتصالات التجارية أو الفتوح أو الغزو أو الأسفار، فأثرت فيهم حضارة وادي الرافدين كما أثروا فيها، وتغلغل البعض منهم إلى موطن هذه الحضارة نفسها فدخلوا في تركيب سكان العراق القديم، واستوطنت جماعات أخرى في مناطق العراق الشمالية وفي الأقسام الجبلية منها مثل الگوتيين واللولبيين، وجماعات من الماذيين أو الميديين في أواخر الألف الثاني، والمرجح أن يكون منهم الأكراد الآن. وسيمر بنا الكلام على بعض الأقوام الأخرى ممن أسسوا سلالات حاكمة مثل الكشيين. ونخصص الملاحظات التالية على بعض الأقوام التي كان لها أثر وكيان مهمان في تأريخ سكان وادي الرافدين، وهم السوباريون والحوريون.

١ ـ السوباريون:

منذ ظهور أخبار الحكام والملوك الأوائل في عصر فجر السلالات الثالث (منتصف الألف الثالث ق.م) بدأ فيها ذكر أقوام غريبة وبعيدة عن بلاد سومر، ومنهم السوباريون[1] الذين ورد ذكرهم لأول مرة على ما يرجح في أخبار حاكم مدينة لجش المسمى «اياناتم»، وفي أخبار فتوح سرجون الآكدي، وكثر ذكرهم من بعد ذلك في النصوص التأريخية[2]، وكثيراً ما يرد اسم قوم آخرين معهم، هم «الحوريون» أو «الخوريون».

---

(1) سيرد الكلام على السوباريين في القسم الخاص بتأريخ الآشوريين، فنكتفي الآن بذكر المرجعين الأساسيين عنهم:

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians* (1944).

(2) Finkelstein in *JCS*, (1955), 1ff.

(2) سيرد الكلام على السوباريين في القسم الخاص بتأريخ الآشوريين، فنكتفي الآن بذكر المرجعين الأساسيين عنهم:

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians* (1944).

(2) Finkelstein in *JCS*, (1955), 1ff.

أما أصل السوباريين ولغتهم فغير معروفين، وكل ما قيل في لغتهم إنها ليست من عائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية»، وإنهم كانوا من الأقوام الجبلية في الجهات الشرقية مثل الكوتيين واللولبيين، وكانوا يقطنون في شمالي ما بين النهرين في منطقة الجزيرة العليا وشرقي دجلة، وكان يقع ضمن موطنهم المنطقة الشمالية من العراق التي عرفت كذلك باسم بلاد آشور، وذلك قبل هجرة الآشوريين الساميين في الألف الثالث ق.م، حيث أزاحو القسم الأكبر من السوباريين إلى المناطق الجبلية شرقي دجلة. ولكن مما لا شك فيه دخلت عناصر كثيرة منهم في التركيب القومي للآشوريين، كما دخلت منهم عدة تأثيرات لغوية وحضارية في الثقافة الآشورية، من بينها آلهة وطائفة من الشعائر الدينية وأسماء بعض المدن والمواضع.

واستعمل مصطلح «سوبارتو» وبلاد «سوبارتو» في كثير من النصوص البابلية مرادفاً لبلاد آشور والآشوريين إلى العهود التأريخية المتأخرة. فمثلاً نجد الثائر البابلي المشهور «مردوخ ـ بلدان» (721 ـ 710ق.م) يذكر خصمه الملك الآشوري سرجون بأنه ملك «بلاد سوبارتو» وليس بلاد آشور، ومثل هذا الاستعمال ورد في كتابات ملوك الدولة البابلية الأخيرة (626 ـ 539ق.م). أما الآشوريون فقد تحاشوا استعمال كلمة «سوبارتو» لإطلاقها على بلادهم باستثناء بعض النصوص الخاصة بالفأل والتنبؤ، نستشهد منها بتلك النبوءة الطريفة التي قدمها منجم آشوري إلى أحد الملوك الآشوريين بأن السوباريين سيقضون على الاخلامو (إحدى القبائل الأمورية)، ويضيف ذلك المنجم موضحاً للملك: «نحن السوباريين»[1] أما السبب في تحاشي الآشوريين إطلاق اسم «بلاد سوبارتو» على بلادهم فناشئ من استهجانهم لهذا التعبير الذي كان يطلق أيضاً على العبد، بالنظر إلى شهرة العبيد الذين كان البابليون يجلبونهم من بلاد السوباريين بحيث أصبحت كلمة «سوبارم» (Subarum) و«سبرم» (Subrum) مرادفة في اللغة الآشورية القديمة لكلمة عبد مثل أصل كلمة (Slave) في بعض اللغات الأوروبية من أقوام الصقلب (الصقالبة) أي السلافيين.

---

(1) انظر: CAH, 1, part, 2, (1971), p. 733.

٢ ـ الحوريون:

يرجح أن يكون مهد الحوريين الأصلي في المنطقة الجبلية التي تكون نصف دائرة تمتد من جبال طوروس بالقرب من كركميش (جرابلس الآن) إلى بحيرة وان تقريباً، ويحتمل أنهم امتدوا جنوباً حتى الزاب الأعلى حيث كان يجاورهم «اللولوبيون» من الشرق (منطقة شهرزور)، وقد ظهروا في التأريخ منذ منتصف الألف الثالث ق.م واتصل بهم ملوك الدولة الآكدية، حيث كانت لهم دويلة في أعالي وادي دجلة والفرات، ولكن لم يبرز لهم شأن سياسي مهم إلا في القرن الخامس عشر ق.م.

وقبل أن يقف الباحثون على ذكرهم في إحدى رسائل «العمارنة» الشهيرة (القرن الرابع عشر ق.م) اقتصر ذكرهم على ما جاء في التوراة (سفر التكوين، الإصحاح 36: 20 ـ 30) ثم كثرت عنهم الإشارات التأريخية في نصوص حضارة وادي الرافدين منذ العهد الآكدي (2370 ـ 2160ق.م) ومن ذلك أسماء أعلام حورية وردت في الألواح الإدارية والاقتصادية من زمن سلالة «أور» الثالثة (2112 ـ 2004ق.م)[1].

ويبدو من لغتهم التي دونت نصوص منها بالخط المسماري أنهم لم يكونوا من الناحية اللغوية من الساميين ولا من الأقوام «الهندية ـ الأوروبية»، فلم يستطع الباحثون أن يرجعوهم إلى أحد الأقوام التأريخية المعروفة سوى إطلاق المصطلح الغامض «آسويين» (Asianic) عليهم، على أن اللغة الأوراراطية (أي لغة إقليم أرمينيا القديمة) أقرب اللغات المعروفة إلى لغتهم. وعبدوا إلهاً قومياً اسمه «تشوب» (Teshup)، وهو من آلهة الجو والصاعقة

(١) عن الحوريين وكذلك السوباريين انظر المصادر الآتية:

(1) Gelb, *Op. Cit.*

(2) Speiser. «Ethnic Movements in the Near East in the Second mill. B.C.» In the *Annual of the Amer. schools of Oriental Research* (1933), 13ff.

(3) Speiser. «The Hurrian Participation in the Civilization of Mesopotamia, Syria and Palestine» in *Journal of World History* (1953), 31ff.

والرعود مثل الإلهين «أنليل» و«أدد» في حضارة وادي الرافدين، كما عبدوا الآلهة «خيفا» أو «حيفا» (Khepa) وجعلوها زوج الإله «تشوب» السالف الذكر، وطوبق إلههم هذا بإله مملكة «اشنونا» المسمى «تشباك» (Tishpak).

وقد انتشر الحوريون في الربع الأول من الألف الثاني ق.م إلى عدة جهات من الهلال الخصيب، ففي سورية الشمالية كونوا في حدود 1800ق.م أكثرية السكان في منطقة المدينة القديمة المسماة «ألالاخ» (تل العطشانة ما بين حلب وإنطاكية)[1]. وبعد فترة تقدر بنحو قرن واحد نجد الحوريين في شمالي العراق، ومركزهم في المدينة القديمة «نوزى» (يورغان تبه بالقرب من كركوك) وقد بدلوا اسم المدينة القديم «كاسر» (Gasur) إلى نوزى أو «نوزو»، ووجدت آثارهم أيضاً في مواضع أخرى مثل «تبه كورا» و«تل بلا» (بالقرب من الموصل). وظهر في القرن السادس عشر ق.م نوع جديد من الفخار يمتاز بجماله ودقة صنعه أطلق عليه اسم الفخار الحوري.

وفي حدود القرن الخامس عشر ق.م ظهرت في شمالي ما بين النهرين مملكة كان أغلب سكانها من الحوريين ولكن الطبقات الحاكمة فيها كانت من الأرستقراطيين الآريين، وكان مركزها في وادي الخابور والباليخ. وقد سمّاها الآشوريون «خانيگلبات» (Khanigalbat) وأطلق عليها اسم «نهارين» أو «نهارينا»[2] كما عرفت أيضاً في النصوص المعاصرة باسم مملكة «ميتاني»، وسيرد ذكر هذه الدويلة في القسم الخاص بتأريخ الآشوريين.

ومع أن أثر هؤلاء الحوريين في حضارة وادي الرافدين لم يكن على مقياس كبير ولكن أثرهم في بلاد الشام كان أكبر، وسيمر بنا في كلامنا على تأريخ العصر الآشوري الوسيط اصطدام دولتهم بالآشوريين حتى أن أحد

---

(1) انظر عن «الالاخ» (تل العطشانة):

Wiseman, *The Alalakh Tablets* (1953).

Woolley, *A Forgotten Kingdom* (Pelican, 1953).

(2) O, Callaghan, *Aram Nahraim* (1948).

ملوكهم المسمى «سوشتار» غزا بلاد آشور نفسها في القرن الخامس عشر ق.م. ولكن الملك الآشوري «آشور أوبالط» (1362ـ1337) قضى على دولتهم.

عرض لغوي موجز لحضارة وادي الرافدين:

لعله من المفيد أن نختتم كلامنا على أقوام العراق القدماء بعرض لغوي موجز[1] لأدوار حضارة وادي الرافدين من حيث اللغة أو اللغات السائدة في كل من هذه الأدوار مبتدئين بأقدم عهود الاستيطان في السهل الرسوبي في حدود الألف الخامس ق.م.

1 ـ دور العبيد:

على الرغم من تعذر معرفتنا باللغة أو اللغات التي سادت في دور العبيد لأنه من عصور ما قبل التأريخ التي لم يظهر فيها التدوين بالكتابة، فإن بعض الباحثين ينسب أولئك القوم المجهولين الذين تكلمنا عنهم إلى دور العبيد في حدود الألف الخامس ق.م. ولعلهم سبقوا الساميين والسومريين في استيطان السهل الرسوبي أو عايشوهم، ولكن لغتهم بادت ولم يبق منها سوى تراث قليل في المفردات اللغوية التي عددناها، أي أسماء معظم المدن المشهورة في بلاد سومر وبلاد آكد وطائفة من أسماء الحرف والصناعات، كما رجح بعض الباحثين أنهم هم الذين أوجدوا الخط المسماري.

2 ـ دورا الوركاء وجمدة نصر:

سنرى من كلامنا على عصور ما قبل التأريخ أن الأطوار الأخيرة منها، وعلى وجه التحديد الطبقة الخامسة من مدينة الوركاء ودور جمدة نصر التالي قد جعلت دوراً حضارياً متميزاً أطلق عليه مصطلح «الدور الشبيه بالتأريخي» أو «الشبيه بالكتابي» (Proto-historic) أو (Protoliterate) وقد ظهرت الكتابة لأول

---

(1) يستند هذا العرض اللغوي إلى إيجاز بحث الأستاذ «كلب» Gelb في مؤتمر علماء الآشوريات المنعقد في جنيف عام 1960، حيث خصصت أبحاث ذلك المؤتمر للعلاقات بين السومريين والآكديين (الساميين).

مرة في الطبقة الرابعة (أ) من الوركاء، ولكنها كانت في طورها الصوري Pictographic ولم يدون بها في مبدأ الأمر سوى أشياء مادية أي صور الأشياء المراد تدوينها فلا نعرف اللغة التي دونت بها، ولكن في دور «جمدة نصر» التالي اتضح أن اللغة المدونة بالخط المسماري كانت اللغة السومرية، وهذه أولى بوادر سيادة اللغة السومرية والثقافة السومرية في حضارة وادي الرافدين وازدادت وضوحاً في الأدوار التالية.

3 ـ عصر فجر السلالات:

يقسم العصر المسمى عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن (2800 ـ 2370) إلى ثلاثة أدوار حضارية متميزة كما سنشرح ذلك في الفصل المخصص لهذا العصر. ومن ناحية الموضوع الذي بين أيدينا لم تأتنا من الطور الأول من هذا العصر أشياء مدونة يعتد بها، ولكن كثرت الكتابات السومرية في الدور الثاني وازدادت أكثر في الدور الثالث الذي سادت فيه اللغة السومرية ولا سيما في بلاد سومر، وتوجد أدلة تأريخية تشير إلى ظهور كيان بارز للساميين الآكديين في القسم الأوسط من السهل الرسوبي، أي في بلاد أكد التي كان مركزها في مدينة «كيش» المشهورة. وخصصت للدور الثاني من عصر فجر السلالات السالف الذكر سلالتان حكمتا البلاد هما سلالة كيش الأولى، وكانت أول سلالة حكمت من بعد الطوفان كما جاء في أثبات الملوك السومرية التي سيأتي الكلام عليها، أما السلالة الثانية فقد كان مركزها في مدينة الوركاء. ويستدل من أسماء ملوك كيش على أن نصف عددهم البالغ اثنين وعشرين ملكاً أسماء سامية، مثل الملك المسمى «كلبم» (Kalbum) (أي الكلب) و«قلومو» (Qalumu) (أي الحمل) و«أوريئم» (Arwium) (أي الغزال أو الأروى) و«باليخ» (Balikh) وغيرهم. وفي المناطق السومرية في الجنوب التي سادت فيها اللغة السومرية ظهرت كذلك أسماء أعلام سامية في ألواح الطين[1]، وظهرت في اللغة السومرية نفسها مفردات

---

(1) انظر الأمثلة على هذه الأسماء السامية في:

R.D.Biggs, «Semitic Names in the Fara Period», in *Orientalia*, (1967), 55f.

ثبت أنها مستعارة من اللغة الآكدية السامية مثل كلمة «شام» (Sham) (اشترى، باع مثل العربية سام، يسوم) وكلمة «دمكار» (Damkar) (تاجر، وقد سبق أن ذكرنا هذه الكلمة من جملة التراث اللغوي لأولئك القوم المجهولين ولكن السومريين أخذوها عن طريق الآكديين) و«تمخار» (Tamkhar) (قتال، حرب) كما ظهرت قيم صوتية جديدة لبعض العلامات المسمارية مأخوذة من كلمات أكدية مثل المقطع (Id) المأخوذ من كلمة «يد» الآكدية، و(Iz) المأخوذ من كلمة (Isum) الآكدية (تضاهي كلمة عصا العربية) وPu من الكلمة «فم» (Pum) أي الفم وغيرها.

أما الدور الثالث من عصر فجر السلالات فإنه يمتاز من ناحية موضوعنا بكثرة المصادر الكتابية بالمقارنة مع الأدوار السابقة. وقد تنوعت النصوص المدونة فشملت أصنافاً مهمة مثل الكتابات الملكية الرسمية أي النصوص الخاصة بأعمال الحكام والملوك، والنصوص الخاصة بالنذور والقرابين (Votive inscriptions) والنصوص الاقتصادية (Economic texts) وأحجار تثبيت الملكية (Kudurru). كما تكاثرت في هذا الدور أسماء الأعلام السامية الآكدية حتى في المناطق التي سادت فيها اللغة السومرية مثل منطقة لجش ونفر وأدب (بسمي). ومع أن اللغة السائدة في التدوين كانت اللغة السومرية كما قلنا إلا أنه ظهرت بعض النصوص المدونة باللغة الآكدية لأول مرة في تأريخ حضارة وادي الرافدين.

4 ـ العهد الآكدي:

سيطر الآكديون الساميون على جميع القطر في نهاية عصر فجر السلالات كما سنفصل ذلك في الفصل الخاص بهذا العهد. وبرزت اللغة الأكدية (السامية الشرقية) بصفتها لغة النصوص الرسمية، كما بدأت تدون فيها المعاملات الخاصة بشؤون الحياة الاعتيادية. ولكن مع ذلك ظلّت اللغة السومرية لغة للتدوين والكلام ولا سيما في بلاد سومر، كما بقيت أيضاً لغة رسمية إلى جانب اللغة الآكدية حتى في المناطق الآكدية من البلاد. ويمكننا تلخيص الوضع اللغوي في حضارة وادي الرافدين ابتداء من هذا العصر بالازدواج اللغوي، أي استعمال اللغتين الآكدية والسومرية جنباً إلى جنب في

معظم النصوص المهمة، ومن علائم التفوق السياسي والسكاني للآكديين الساميين منذ هذا العهد ظهور أسماء أمكنة آكدية كثيرة في جميع أرجاء الأمبراطورية الآكدية، يرجح أنها نشأت في هذا العهد، ويغلب على أسمائها دخول الكلمات الآكدية الدالة في تركيبها مثل «دور» Dûr أي الحصن و«مشكن» (Mashkan) أي المسكن أو المستوطن.

أما مسألة النزاع والاحتراب ما بين الآكديين وبين السومريين، وهي الفكرة التي ذهب إليها الباحثون القدماء، فلا يوجد ما يؤيدها، سواء أكان هذا الصراع المزعوم على الصعيد الرسمي أم الصعيد القومي والشعبي. وإذا ما تميّز بعض الجوانب من سياسة سرجون الآكدي وغيره من ملوك السلالة الآكدية بالعنف إزاء بعض المدن السومرية في الجنوب فإنما كان ذلك بصفتها دويلات مدن قاومت ملوك تلك السلالة أو ثارت عليهم وليس لأن سكانها كانوا سومريين، على أنه لا ينكر أن يبدر من سكان هذه المدن شعور قومي عدائي إزاء سيطرة الملوك الآكديين. ولكننا إذا رجعنا إلى أخبار سرجون وأخبار الملوك الآكديين الآخرين وجدنا أن الشدة والقسوة اللتين تنسبان إليهم إزاء بعض المدن السومرية وجهتا أيضاً على المدن الآكدية حين كانت تظهر العصيان والانفصال، وسترد على هذا أمثلة كثيرة في كلامنا على أخبار الدولة الآكدية. وخلاصة ما يقال عن هذه القضية إن ما كان يظنه الباحثون القدماء من وجود صراع بين الآكديين وبين السومريين ليس إلا من قبيل المبالغة من حوادث قليلة، وإن المدن السومرية نفسها كانت في صراع مستمر فيما بينها في أثناء ازدهارها في عصر فجر السلالات[1].

5 ـ عهد سلالة أور الثالثة:

قامت سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004ق.م) من بعد فترة الكوتيين

(1) أول من تصدى لتفنيد هذا الرأي الأستاذ ياكبسون. انظر:

Th. Jacobsen, «The Assumed Conflict Between Sumerians and Semites in Early Mesopotamian History» in *Journal of the Amer. Oriental Society,* (1939), 485ff.

الذين قضوا على الدولة الآكدية، وقد أسس هذه السلالة السومريون، وكانت مملكة قوية شمل حكمها القطر جميعه وامتدت بالفتوح الخارجية إلى الأقطار المجاورة، ويعد عهدها من ناحية موضوعنا بعثاً أو إحياء (Renaissance) في اللغة السومرية ونهضة أدبية وثقافية بدأت من زمن الحاكم السومري في لجش «جودية» أو «كودية» المشهور قبيل قيام تلك السلالة. وجاءتنا من هذا العهد، أي زمن سلالة أور الثالثة، عشرات الألوف من ألواح الطين المدونة باللغة السومرية، ولكن أغلبها وثائق وعقود اقتصادية وتجارية، إلى جانب النصوص الملكية الرسمية القليلة، ومنها رسائل رسمية جاءتنا بنسخ من العهد البابلي القديم الذي أعقب سلالة أور الثالثة. أما النصوص المدونة باللغة الآكدية فقد تقلص عددها، ولكن اللغة الآكدية استمرت لغة محكية بارزة، واستمر القطر في التحول اللغوي إلى اللغة الآكدية السامية، كما يشير إلى ذلك ازدياد عدد الكلمات الآكدية المستعارة في اللغة السومرية نفسها. وليس أدل على ذلك من حقيقة أن أسماء ثلاثة من ملوك تلك السلالة البالغ عددهم خمسة ملوك كانت أسماء سامية[1]، كما أن اتخاذ ملوكها لقب «ملك بلاد سومر وبلاد آكد» له دلالته في هذا التحول والانصهار الثقافي والقومي بين السومريين والآكديين.

6 ـ العهد البابلي ـ القديم:

انهارت أمبراطورية «أور» بسبب عوامل الضعف الداخلي وما تلا ذلك من تدفق القبائل السامية الأمورية من البوادي المتاخمة لجهات الفرات الأعلى إلى وادي الرافدين وتأسيس جملة سلالات حاكمة في العهد الذي يسمى بالعصر البابلي القديم (2000 ـ 1500ق.م) ويمكن القول فيما يتعلق بموضوعنا إن الصورة العامة لحضارة وادي الرافدين قد تبدلت تبدلاً أساسياً من جراء هجرات أولئك الأقوام السامية من الأموريين إلى وادي الرافدين بإضافتها إلى الساميين الآكديين الأصليين. ومع كثرة هذه القبائل السامية

---

(1) بعد «أور ـ نمو» مؤسس السلالة وابنه «شولكي» حكم من هذه السلالة ثلاثة ملوك ذوي أسماء سامية هم: «أمار ـ سين» و«شو ـ سين» و«ابي ـ سين».

الجديدة من الأموريين فإن اللهجة الأمورية (وهي إحدى لغات الكتلة السامية الغربية كما بيّنا سابقاً) لم تصبح لغة تدوين في حضارة وادي الرافدين بل ظلت اللغة الآكدية (وهي السامية الشرقية) لغة التدوين السائدة، على أن المرجح أن اللهجة الأمورية صارت لغة الكلام والتخاطب بين الساميين الجدد، كما كثرت أسماء الأعلام الأمورية في أسماء الأشخاص وأسماء ملوك السلالات التي قامت في العصر البابلي القديم.

أما اللغة السومرية فقد استمر استعمالها في التدوين إلى جانب اللغة الآكدية ولا سيما في الكتابات الرسمية الملكية وفي النصوص القانونية والاقتصادية والأدبية. فمثلاً دوّن «لبت عشتار» خامس ملوك سلالة «ايسن» الأمورية شريعته باللغة السومرية. أما لغة الرسائل والمخاطبات الرسمية والنصوص الرياضية وغيرها فقد سادت فيها اللغة الآكدية. ومن النتائج المهمة في هذا العهد الحضاري الجديد زوال الفروق ما بين القوميات ولا سيما ما بين السومريين والساميين من جراء الاختلاط والانصهار الحضاري والسياسي، ولعل أحسن ما يعبّر عن هذا الاتجاه شريعة حمورابي الشهيرة التي لم تفرق ما بين السومريين وبين البابليين والقوميات الأخرى بل إنها وضعت لجميع السكان، وفوق ذلك نجد فيها اتجاهاً عاماً يتعدى حدود مملكة مشرعها، حمورابي، ليشمل جميع الناس أو البشر في عرف ذلك الزمان، أو كما جاء في العبارة المشهورة في تلك الشريعة (ذوو الرؤوس السود).

رموز المراجع الأساسية التي تتكرر الإشارة إليها:

AAO: H. Frankfort, *The Art And Architecture of the Ancient Orient* (1954).
AJ: Antiquiries Journal (London).
AFO: Archiv für Orientforschung (Berlin).
AJSL: American Journal of Semitic Languages and Literature (Chicago).
AM: A. Parrot, *Archeologie Mesopotamienns* (Paris, 1946).
ANET: Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old *Testament.* ED. Pritchard (Princeton, 1950, 1955).
ARAB: Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia* (Chicago, 1926-27).
ARM: *Archives royales de Mari.* ED. Parrot and Dossin (Paris, 1950ff.).

BHT: S. Smith, *Babylonian Historical Texts* (London, 1924).
CAH: Cambridge Ancient History. new ED. 1963-1971.
IRAQ: Iraq. British School of Archaeology in Iraq.
JCS: Journal of Cuneiform Studies (New Haven, 1947ff.).
JAOS: Journal of the American Oriental Society.
JNES: Journal of Near Eastern Studies (Chicago).
JSOR: Journal of the Society of Oriental Research.
MDP: Memoires de la delagation en perse.
OIP: Oriental Institute Publications (Chicago).
RA: Revue d'Assyriologie... (Paris).
RB: Revue Bibllique.
RISA: Barton, *The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad* (1929).
RLA: E. Ebeling. Meisner (ED.), Reallexikon der Assyriologie (1932ff).
SAK: Thureau-Dangin, *Die Sumepischen und Akkadischen Königinschriften* (1907).
SKL: Th. Jacobsen, *The Sumerian King-list* (1939).
SAHG: Falkenstein. von Soden, *Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete* (1952).
UVB: Uruk vorläufiger Berichte..... (Berlin. 1930ff.).
ZA: Zeitschrift für Assyriologie.
ZZB: D. O. Edzard, *Dir Zweite Zwischenzeit Babyloniens* (1957).
WVDOG: Wissenschaftliche veröftenlichungen der Deutsche Orientgesellschaft.

الفصل الثاني

تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية

أولاً: مقدمة في التاريخ والتاريخ القديم

1 ـ التاريخ ومنهجه:

يحسن بنا ونحن نبحث في تأريخ حضارة وادي الرافدين أن نعرف إلى أي صنف من أصناف المعرفة يرجع موضوع التاريخ. وقد كان هذا الأمر فيما سبق قضية خلاف بين العلماء. ولكن الذي عليه ثقات الباحثين الآن، أن التاريخ، استناداً إلى مفهوم العلم[1]، علم من العلوم. بيد أنه ليس من صنف العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة كالفلك أو على التجربة والمختبر مثل أكثر العلوم الطبيعية، وإنما هو علم بحث ونقد ونظر. فهو أقرب ما يكون إلى «الجيولوجيا». فكما أن الجيولوجي يبحث في أحوال الأرض فيعرف

---

(1) من التعاريف المتفق عليها للعلم أنه «معرفة منظمة أو مجموعة من الحقائق أمكن الوصول إليها بالبحث والتحري والنقد والتحقيق» والواقع من الأمر أن كلمة التأريخ في اللغات الإفرنجية (History) تعني في أصل ما وضعت له باليونانية كما استعملها هيرودوتس لأول مرة (القرن الخامس ق.م) «بحث وتحقيق أو معرفة ما يحصل عليها بالبحث والتحري» ولكن استعملت هذه الكلمة كذلك في معانٍ أخرى منها سير الحوادث الماضية وتستعمل أحياناً بمعنى طريقة تدوين تلك الحوادث. وتستعمل كلمة تأريخ كذلك بمعنى زمن وقوع الحوادث. ومن الجدير ذكره بهذا الصدد أن ابن خلدون أول باحث أشار إلى أن التأريخ بحث ونظر ونقد (انظر المقدمة لمقدمته).

إن هذا القسم من الفصل مأخوذ بالدرجة الأولى من كتاب المؤلف:
«مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة»، الجزء الأول (1955) ص 3 فما بعد.

تاريخها وكيف وصلت إلى ما هي عليه الآن، كذلك يبحث المؤرخ في بقايا الماضي وآثاره ليستعين بها على معرفة الحاضر. والتاريخ مثل العلوم الأخرى له غرض وموضوع. وموضوعه البحث في أعمال البشر التي وقعت في الماضي. أو هو درس المجتمعات البشرية في المكان والزمان.

وإذا كان التأريخ علماً فينبغي أن يكون له مثل العلوم الأخرى منهج أو طريقة للبحث (Method)[1] يستطيع بها الوصول إلى مادته وحقائقه. ولكي نعرف شيئاً عن منهج التأريخ بصفته علماً نؤكد ما أشرنا إليه من اختلافه عن بعض العلوم الأخرى ولا سيما العلوم الطبيعية أو العلوم المضبوطة من حيث أنه لا يعتمد على التجربة لأنها مستحيلة في التأريخ، ولا يستفيد من الملاحظة المباشرة ولا من الدليل العقلي المجرد كما في الرياضيات بل إنه يبحث فيما خلَّفه الإنسان لمعرفة حاضر الإنسان. وإن مصادره ومادته الأولى بوجه العموم جميع ما خلَّفه البشر مما يمكن الاستفادة منها كالوثائق والسجلات والآثار المادية مما يعيننا على فهم حضارات الأمم وتقاليدها وأديانها ولغاتها وتفكيرها وغير ذلك من مقومات تلك الحضارات، وبعبارة موجزة معرفة البشرية والنفس البشرية، ولكن ليس النفس الفردية أو الشخصية التي هي موضوع علم النفس بل الطبيعة البشرية وإمكانياتها وحدودها، وماذا استطاع الإنسان أن يفعل وبالنتيجة ما هو الإنسان.

وإذا كان منهج البحث العلمي الذي أوجده الباحثون في العصور الحديثة قد أكسب التأريخ أهلية ليكون علماً إلا أنه لا يزال أمام المعترضين على كون التأريخ علماً، مجال للاعتراض بأن التأريخ لا يستطيع أن يجاري العلوم المضبوطة (Exact Sciences) في قدرتها على استنباط القوانين والنواميس من درس العلاقات بين الأشياء ومقارنتها، بحيث تستطيع أن تتنبأ بها عن المستقبل تحت شروط وأحوال معيّنة. أما مسألة التنبؤ (Prediction) فلا تقتصر على كونها غير ممكنة في

---

(1) ويسمى منهج التاريخ بالمانية (Die Historik) والإنجليزية (Historical Method) أو (Methodology).

التأريخ بل إنها خارج اختصاص بحثه، لأن دائرة البحث الخاصة بالمؤرخ كما قلنا حوادث البشر وتجاربهم في الماضي. وقد يحاول المؤرخ استناداً إلى خبرته التأريخية أن يقيس عليها فيحدس ما يقع في المستقبل ولكنه حتى لو صدق في حدسه فإن محاولته هذه ينبغي أن لا تكون بصفته مؤرخاً بحسب مفهوم موضوع التأريخ. أما عن وجود القوانين في التأريخ فيجيب عنه الباحثون المحدثون بأن التأريخ بصفته علماً من العلوم الاجتماعية يحاول جاهداً أن يكتشف القوانين والقواعد الكلية لتفسير حوادث التأريخ، ولكن لما تبلغ هذه القواعد مرتبة قوانين العلوم الطبيعية من الدقة والإطراد، ذلك لأن قانون العلية أو السببية (Law of Causality) في حوادث التأريخ متناهٍ في التعقيد. فإن الحادثة الاجتماعية مهما بلغت من البساطة إنما تقع بفعل سلسلة متشابكة من العلل بخلاف الوقائع الطبيعية التي يبحث فيها علماء الطبيعة حيث يكون واجبهم في درسها والعلاقات فيما بينها أمراً يسيراً لو قِيس بواجب المؤرخ الذي يكون موضوعه ليس أشياء جامدة بل أفعالاً صادرة من فاعلين يتصفون بالفكر والقصد والحوافز المعقدة. ولكن مع ذلك فمعظم حوادث التأريخ وأسبابها ليست فوضى أو حوادث فردية لا ضابط لها، وإنما تنشأ من معيشة الإنسان في مجتمعات أو أنظمة اجتماعية تسيطر على أفعالها قواعد الضرورة الاجتماعية والنواميس الاجتماعية العامة، وإلا لما أمكن وجود ما نسميه بعلم الاجتماع أو العمران الذي يدرس المؤسسات والأنظمة الاجتماعية دراسة مقارنة، ويستخرج لها القواعد الكلية التي يستفيد منها المؤرخ.

ثم إننا لعلى أمل وطيد في أن هذا النوع البشري الذي يسمى «بالإنسان العاقل» سيبرر أهليته لهذا اللقب فيجد في البحث عن نفسه والكشف عن أسرار المجتمعات البشرية بالدرس العلمي المقارن. وعندئذٍ فستتوطد قوانين التأريخ والعمران البشري على وجه ليس كما يتطرف البعض في تفسير حوادث التأريخ وليس كما يرتئي البعض الآخر من إنكار لإمكان استخراج القوانين فيه.

وبحسب المصادر التي يعتمد عليها التأريخ في جمع مادته تكون أولى خطوة منطقية في منهج البحث التأريخي جمع المصادر والأصول المتعلقة

ببحثه. ويصح أن نطلق على هذه الخطوة اسم «جمع الأصول»[1]. ومع أن هذه خطوة من خطوات المؤرخ غير أنها المرحلة الأساسية إذ، كما قيل، «لا تأريخ بلا وثائق». فإذا جمع المؤرخ ما يستطيع جمعه من مصادر بحثه وأصول مادته وكان على معرفة تامة بمادته وخبيراً بمصادره كخطوط الوثائق واللغات المكتوبة بها أو أطرزتها وأوصافها إن كانت من الآثار الفنية وبالاستعانة بالعلوم الموصلة[2]، فإنه يبدأ بخطوة ثانية من بحثه وهي مرحلة النقد (Die Kritik أو Criticim) أي نقد ما جمعه في الخطوة الأولى وتمحيص المصادر والوثائق التي جمعها وتحقيقها لمعرفة أصالتها وصحتها من خطئها وتزويرها ومعرفة مؤلفها وزمان كتابتها ومكانها، ثم تحري ما جاء فيها من معلومات ومدى مطابقتها إلى الحقيقة والواقع، فإن كانت من الوثائق المدونة، كالكتب، فيلزم معرفة تأريخها ومؤلفها ومبلغ أمانته وأوهامه. وقد يلزم تصحيح متن الوثائق التأريخية بإصلاح خطئها اللغوي وتكميل ما نقص منها، وذلك بمضاهاة الأصول المختلفة لهذه الوثائق. ويلي ذلك تمحيص مادة الوثائق

---

(1) وتدعى بالألمانية (Die Heuristik).

(2) العلوم الموصلة أو المساعدة وتسمى (Auxiliary Sciences) مجموعة من الطرق العلمية الفنية (Techniques) يستعين بها الباحث التأريخي في فهم مصادره وتقدير قيمتها تمهيداً لنقدها، وأشهر هذه الطرق علم الخطوط القديمة على الورق وما شابهه (Palaeography) كأشكال الخطوط المختلفة قبل اختراع الطباعة وأنواع الورق والحبر. والكتابة على الحجر والطين وما شاكل ذلك (Epigraphy) ومعرفة اللغات والتقويم (Chronology). ومن العلوم الموصلة علم النقود أو النميات (Numismatics) وعلم الأختام والطمغات (Sphragistics). وهناك علوم عامة تعتبر مساعدة للباحث التأريخي من حيث ثقافته العامة وسعة اطلاعه، نذكر من ذلك علم الآثار (Archaeology) وعلم الإنسان (Anthropology) وعلم الاقتصاد والجغرافية والاجتماع، والواقع من الأمر يصح أن نقول إن معظم العلوم والمعارف يمكن أن تكون علوماً مساعدة للتأريخ وسيمر بنا في القسم الثالث من هذا الفصل كيف أفاد الآثاريون والمؤرخون من معطيات بعض العلوم الطبيعية في ضبط أزمان الأدوار التأريخية.

Langlois and Seignbos, *Introduction to the Study of History*, (English Trans. 1912).

Vincent, *Historical Research* (1929).

بتحليل الحقائق الواردة فيها وترتيب موضوعاتها وتصنيف حوادثها. وبالإجمال لا تعدو المصادر المكتوبة أن تكون مثل شهادة الغير. ولذلك وجب على المؤرخ الباحث تمحيص هذه الشهادة وعدم قبولها على علّاتها. وبما أن الحوادث التأريخية وقائع حقيقية والحقيقة واحدة لا تتعدد فلا بدَّ أن يصل الباحث، هو بنفسه أو مَنْ يستدرك عليه، إلى تلك الحقيقة أو ما يقاربها على الأقل. وجلّ اعتماده في ذلك سبيل التحليل وتقصي الحوادث وموازنتها ومضاهاتها، وبوجه الإجمال يمكننا تحليل عملية النقد، التي هي عماد البحث التأريخي، إلى مرحلتين كثيراً ما تكونان متداخلتين، وهما مرحلة النقد الخارجي (External criticism) وتدور على البحث في المصادر للتأكد من أصالتها وصحتها ومعرفة مؤلفها وزمانه ومكانه، فليس كل الوثائق التأريخية صحيحة بل كثيراً ما يتطرق الشك إلى صحتها وأصالتها ومنشأ ذلك قد يكون التزوير المتعمد أو الأخطاء والأوهام الناشئة من النقلة والنساخ وكذلك من انعدام الخبرة والممارسة التأريخية ومن التسرع والسطحية، كما أن كثيراً من الوثائق تكون مخرومة غير معلوم مؤلفها أو زمان تأليفها فنستعين بطرق النقد الخارجي لتعيين المؤلف وزمانه ومكانه[1].

أما المرحلة الثانية من النقد فتسمى النقد الباطني أو الداخلي (Internal criticism) ومدار هذا النقد على وزن علاقة الوثيقة أو الدلالة التأريخية التي جمعناها بالحقيقة وواقع الحال، وقد تقسم هذه المرحلة أيضاً إلى شطرين يسمى أحدهما وأولهما بالنقد الباطني الإيجابي والثاني النقد الباطني السالب، الأول يتعلق بفهم نصوص الوثائق أي فهم لغتها وأساليبها

---

(١) ونذكر من طرق تعيين زمن الوثيقة على سبيل المثال طريقة تعيين الحدين الأدنى والأعلى في زمن الوثيقة بالنظر في الحوادث المذكورة فيها. فالحد الأعلى هو الزمن الذي لا يمكن أن تكون الوثيقة قد كتبت قبله (Terminus post Quem) والحد الثاني (Terminus ante quem) أي الزمن الذي لا يمكن أن تكون الوثيقة قد كتبت بعده. ومن ذلك نحصل بين هذين الحدين على تأريخ تقريبي للوثيقة المجهول زمن تأليفها.

وإدراك أغراض المؤلف وآرائه ثم ننتقل إلى الشطر الثاني من النقد وهو إثبات صحة المعلومات الواردة في تلك الوثائق أي تجريح المؤلف أو تعديله (الجرح والتعديل) من حيث صدقه وكذبه أو انخداعه وأوهامه وتحليل الظروف والأحوال التي كتبت فيها الوثيقة. والنقد الباطني بكلا نوعيه يسمى بالمصطلح اليوناني (Herneneutic) ومعناه النقد التفسيري أي التفسير والتحليل.

فإذا ما تم تحقيق الوثائق ونقدها إيجاباً وسلباً (الجرح والتعديل) فإن الباحث يخطو الخطوة الثالثة من خطوات البحث التأريخي ومدار هذه المرحلة على التأليف بين الحقائق وتركيبها (Historical Construction)، وتكون طرق التركيب والتأليف شطراً مهماً من منهج البحث التأريخي، فإن عمليات النقد التي أوجزناها لا تنتج لنا إلا حقائق منعزلة منفصلة بعضها عن بعض، فلكي نؤلف من هذه الحقائق المنفصلة المنعزلة مجموعة كاملة مفهومة من العلم والمعرفة فيلزم على المؤرخ أن يقوم بجهود أخرى لتركيب هذه الحقائق المنفصلة والتأليف فيما بينها بتصنيف الحقائق والمعلومات الواردة في الوثائق إلى أصناف وموضوعات متجانسة.

والذي يمكن قوله بوجه عام بصدد قواعد التأليف التأريخي إنه لا يمكن وضع خطة مثلى (ideal) على غرار مناهج العلوم المضبوطة التي نأمل أن يكون التأريخ مثلها، بل إن خطة عملنا تتوقف إلى حد كبير على المادة التأريخية التي تتوفر لدينا بعد جمع المصادر ونقدها. ولكي نفهم حدود خطة التأليف التأريخي يلزم علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار طبيعة الحقائق التأريخية المستخرجة من الوثائق، وطريقة استخراجها. فبحسب منهج البحث الذي أوجزناه تستخرج الحقائق التأريخية بتحليل الوثائق تحليلاً نقدياً (Critical analysis of documents) فتخرج لنا هذه الحقائق بعد عملية النقد وهي مغربلة منتقاة ولكنها بهيئة معلومات مجزأة فردية لا يجمعها نظام أو تأليف ما. فقد تؤدينا طرق النقد التأريخي إلى تجزئة الجملة الواحدة من الوثيقة إلى أجزاء نرفض بعضها ونقبل البعض الآخر. كما أن الوثيقة الواحدة، ولو كانت صغيرة، أو أن نصاً تاريخياً واحداً، قد يزودنا

بمعلومات متنوعة مختلفة. فتكون الحقائق التأريخية المستخرجة من الوثائق خليطة مزيجة، وهذا أحد الأمور الذي يميّز التأريخ من العلوم الأخرى، فمثلاً إن العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة (direct observation) تنتخب الحقائق التي تدرسها وتحصر همها في البحث المنظم في حقائق متجانسة. أما العلوم المعتمدة على النصوص والوثائق (documentary sciences) والتأريخ واحد منها، فإنها تأخذ حقائقها وقد سبقت مشاهدتها وملاحظتها عن طريق آخر غير طريقها، أي عن طريق مؤلفي الوثائق. فمن الضروري تصفية هذه الحقائق وتصنيفها تحت أصناف وأنواع مختلفة بحسب المواضيع التي يعالجها المؤرخ وبحسب القضايا والمسائل التي يبحث عن حلولها.

ولعل أقرب العلوم التي يمكن للتأريخ أن يسير على منهجها من ناحية جمع الحقائق وتصنيفها علم الحيوان الوصفي (Descriptive Zoology) الذي يبدأ بحثه بملاحظة الحيوان بكامله بالمشاهدة المباشرة ثم يشرُح هذا الحيوان إلى أجزائه المختلفة. والتشريح هنا يقابل التحليل في طريقة التأريخ (أي (Analysis)) ثم يعمد إلى جمع الأجزاء المشرَّحة وتركيبها بحيث تكوّن الكل الأصلي وهذا هو التركيب الحقيقي (Synthesis)، وبوسع علم الحيوان أيضاً في مرحلة ثالثة أن يقارن هذا الشكل الذي كونه بعد التشريح مع أفراد أخرى من نوعه فيدرس أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها ويصنفها. فتكون خطوات علم الحيوان في استخراجه للحقائق: (1) الملاحظة والتحليل. (2) التركيب. (3) المقارنة والتصنيف. وبوسع التأريخ أن يسير على هذا المنهج إلى حدٍ ما على الوجه الآتي:

يمكننا أن نوجز تصميم التأليف أو التركيب التأريخي بجملة مراحل تركيبية (Synthetic):

أ ـ تخيّل الحقائق وتصورها في العقل: ـ يجهزنا تحليل الوثائق النقدي بالمادة اللازمة للبناء التأريخي. وهذه المادة عبارة عن حقائق تأريخية مضت وهي منفرقة ومنعزلة بعضها عن بعض. وبما أن المؤرخ، بخلاف عالم الحيوان، لا يرى شيئاً ملموساً سوى «الورق المكتوب»، وفي بعض الأحايين الآثار القائمة ونتاج

الفنون والصناعة، فيعمد المؤرخ لإدراك هذه الحوادث التي مضى إلى تخيّلها مفترضاً أنها تشبه حقائق الحاضر بوجه عام، محاولاً تكوين صورة عقلية تشبه بقدر الإمكان الحوادث الماضية التي استخرجها من الوثائق.

ب ـ جمع الحقائق وتنظيمها: وبعد أن نتخيل الحقائق ونكوّن عنها في أذهاننا صوراً عقلية نجمع فيما بينها ونضعها بموجب خطة نضعها بحسب موضوع بحثنا. ونعمد أيضاً في هذه المرحلة من التأليف التأريخي إلى تقسيم الحقائق إلى مجاميع وأجزاء متشابهة بحسب مواضيعها.

جـ ـ الاجتهاد (Reasoning): أو الاستنتاج التأريخي بطريق الاجتهاد، فإن الباحث كثيراً ما يجد أنه بالرغم ممّا جمعه من الحقائق فإنه لا يزال يجد أمامه فجوات عن وقائع الماضي لم تستطع الحقائق التي جمعها أن تزوده بها بصورة مباشرة، فعليه في مثل هذه الحال أن يحاول ملء بعض هذه الفجوات عن طريق الاجتهاد العقلي أو المنطقي بالاستناد إلى الحقائق التأريخية المعروفة لديه.

د ـ مرحلة الاستنتاج واستخراج القواعد العامة:

تساعدنا المراحل الثلاث السابقة على استخراج مجموعة من الحقائق أو المعرفة المصنفة بموجب خطة منظمة من التصنيف. فيبقى على الباحث أن يركز هذه الحقائق المصنفة ويعبّر عنها بقواعد أو دساتير (formulae) لاستنتاج خصائصها وميزاتها العامة وعلاقاتها بعضها ببعض، وخلاصة هذه المرحلة أنها تؤدينا إلى الاستنتاجات النهائية، وتجعل من بحثنا التأريخي بحثاً علمياً. وتدخل في هذه المرحلة من مراحل التركيب التأريخي أو يأتي بعدها تفسير الحوادث التأريخية أي تعليلها والبحث عن أسباب وقوعها. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن منشأ الاختلاف بين المؤرخين ونشوء المذاهب المختلفة في تفسير التأريخ مرده إلى اختلاف وجهات النظر بين الباحثين في هذه المرحلة من منهج البحث التأريخي.

وبعد أن يتم الباحث جميع المراحل التي لخصناها فيما سبق يبدأ في المرحلة النهائية من مراحل بحثه وهي مرحلة التأليف والتدوين أي تبويب مادته

وعرضها عرضاً فنياً صحيحاً مستساغاً[1]. ولأن هذه المرحلة الأخيرة تعتمد الأدب والفن كثيراً عدّ الناس التأريخ فناً أو فرعاً من فروع الأدب ولسنا بحاجة إلى التأكيد على خطل هذا الرأي لأن الأدب في الواقع إنما اتخذ وسيلة للعرض والتدوين التأريخي وأنه حتى في هذه المرحلة التي يدخل فيها الأدب يجب على مؤلف التأريخ أن يستعين بالأسلوب المنطقي في طريقة عرض مادته. ولعل خير ما يُقال بهذا الصدد «إن أحسن تأريخ يكتب للناس هو ذلك التأريخ الذي اعتمد على الطرق العلمية من البحث التأريخي في جمع مادته وعلى الأدب والفن في عرض تلك المادة».

ومن الملاحظات المهمة التي يجدر أن نعرفها عن التأريخ ومنهجه، وقد

---

(1) يسمى فن التدوين التأريخي بـ (Historiography). وطرق التدوين الشائعة عند المؤرخين محصورة في ثلاثة أساليب: ـ أولها نظام الحوليات (annals) وهي أشبه ما تكون عند البابليين والمصريين القدماء. واستعملها مؤرخو العصور الوسطى في أوروبا وهي ذكر الحوادث المعاصرة عاماً بعد عام وكانت في أول أمرها تافهة لا تعدو مجرد مذكرات لتقييد الحوادث المعاصرة تدون بهيئة تعليقات على التقاويم الدينية الخاصة بالأعياد. وأغلب هذه الحوادث لا تعدو الحوادث الدينية كالخوارق، وحدوث الزلازل إلى غير ذلك، ولكن ترقّت الحوليات في أواخر العصور الوسطى وأصبحت سجلات سنوية مهمة. ومما لا شك فيه أن التحسن الذي طرأ على هذه الطريقة من التدوين كان بتأثير مؤرخي العرب. والطريقة الثانية هي التأريخ التي يصطلح عليها اسم (Chronicles) وهي أرقى من سابقتها إذ إنها تدور على عرض الحوادث عرضاً أتم وأوفى مما في الحوليات بيد أنها احتفظت بالترتيب المتبع في الحوليات أي ترتيب الحوادث وعرضها على السنين ويبدأ بها عادة منذ الخليقة حتى وقت الكتابة وقد تأثرت أوروبا بمؤرخي العرب المسلمين فترقى عندها هذا الفن من التأليف التأريخي. ويظن أن أول من بدأ هذا النمط في عرض مادة التأريخ الهيثم بن عدي المتوفى عام 207 للهجرة ثم جرى عليها الطبري وابن مسكويه وابن الأثير. أما الطريقة الثالثة وهي التي عليها معظم المؤرخين الآن فهي عرض الحوادث وسوقها مساق القصة المرتبة على العهود التأريخية دون السنين. وقد جرى على هذه الطريقة من مؤرخي العرب اليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن خلدون وغيرهم وانتهى أمر التأريخ عند العرب بأن أوصله المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون إلى مرتبة العلم وإلى مفهومه في الوقت الحاضر فهو بذلك كما لقبه بعض العلماء «يعد واضع علم التأريخ» انظر:

R. Flint, *History of the Philosophy of History* (1893) pp. 157-171.

سبق التنويه بها، أن التأريخ يشارك العلوم الأخرى بوجه عام. فالعلوم كلها تقريباً لا تقتصر في بحثها على جمع المعلومات التي تصل إليها بالبحث والتحري وجمعها وتنظيمها بموجب طراز أو شكل خاص وإنما تتعدى ذلك إلى الكشف عن الشيء المجهول، أي الأشياء التي نجهلها. وإذا كان التأريخ يشارك العلوم الأخرى في هذا الأمر فإنه يفترق عنها ولا سيما عن العلوم الطبيعية في مسألة مهمة. فوظيفة العالم الطبيعي درس حوادث الطبيعة ومظاهرها، وهذه ليست أعمالاً صادرة من فاعلين كالحوادث التأريخية، يحاول العالم الطبيعي فهم قصدهم وفكرهم على نحو ما يفعل المؤرخ الذي يجهد في الكشف عن الفكر والقصد من وراء أعمال البشر التي حدثت فيما مضى. وهذا فرق جوهري بين المؤرخ وبين العالم الطبيعي، بين التأريخ وبين العلم الطبيعي. وثمة فرق آخر هو أن العالم الطبيعي مع عدم محاولته لفهم القصد والفكر وراء الظواهر الطبيعية التي يدرسها إلا أنه يدرس علاقات هذه الظواهر بعضها ببعض ويستطيع من بحثه المقارن أن يضع الأشياء التي يبحث فيها في قانون أو دستور هو القانون العلمي، أي وجود القوانين والدساتير في العلم ولكن التأريخ لم يستطع بعد أن يضع لأعمال البشر قوانين ودساتير مضبوطة مطردة عامة تسير بموجبها. وكل ما استطاع أن يفعل هو محاولات لوضع قواعد عامة لما تبلغ درجة الضبط والدقة والاطراد مما تمتاز به دساتير العلوم المضبوطة كما ذكرنا ذلك من قبل.

ما جدوى درس التأريخ القديم:

والتأريخ القديم بوجه عام (ما قبل التأريخ والعهد التأريخي منه) قصة تطور الإنسان منذ أقدم عهوده. فهو يحدثنا كيف كانت حياة الإنسان الأولى عندما كان في عهد الفطرة والتوحش، ثم كيف استطاع بعد ألوف كثيرة من السنين أن ينتقل من ذلك الحال فينشئ أولى الحضارات الناضجة ولا سيما في وادي الرافدين ووادي النيل، ويحدثنا كذلك عن الحضارات الأخرى المتأثرة بهاتين الحضارتين، ويدلنا على تراث هذه الحضارات في حضارة الإنسان الراهنة.

وخلاصة القول يعيننا التأريخ القديم على فهم حاضر الإنسان وكيف وصل إلى ما هو عليه ويكشف لنا عن الأصول الأساسية لتراث البشرية منذ أقدم العصور وبذلك تكون دراسة التأريخ القديم ضرورة لازمة لفهم التأريخ الحديث وفهم حاضر الإنسان.

وبوسعنا أن نقرب إلى مداركنا الفوائد التي تجنيها البشرية من معرفة ماضيها (أي تأريخها) بقولنا إن التأريخ بمثابة الذاكرة للجنس البشري. أو كما قال «درويسن» «التأريخ (اعرف نفسك) مضافاً إلى البشرية وهو ذاكرتها وشعورها»[1] فكما أن ماضي الفرد منا تؤثر تجاربه وخبراته الماضية في سيره في حاضره، كذلك يؤثر ماضي البشرية في حاضرها. وإذا لم يكن للبشرية ذاكرة كما للفرد فإن التأريخ هو «ذاكرتها وضميرها».

وعندما كثرت معلومات الباحثين ومعرفتهم بحضارات البشر الغابرة بعد أن كشفت التنقيبات الأثرية عن عدد كبير منها، تمكن الباحثون في العمران البشري بفضل هذه المادة المتكاثرة من البحث في سنن نشوء الحضارات وعلل نموها وأسباب توقفها عن النمو وركودها ثم عوامل انحلالها وزوالها. فنشأ فرع من فروع المعرفة على قدر عظيم من الأهمية، هو فلسفة التأريخ، وعلم الحضارات والعمران بدرس الحضارات درساً مقارناً. وقد تكونت من الباحثين مدارس فكرية مختلفة اختصت كل منها بفلسفة خاصة أو بنظرية وآراء لتعليل نشوء الحضارات والعمران البشري. ومن البديهي أن يكون التأريخ القديم المصدر الأساسي، الذي تستمد منه هذه البحوث والدراسات مادتها الأولية. وبوسعنا أن نؤكد القول إن المادة المتكاثرة عن الحضارات البشرية المندرسة قد مكّنت فلاسفة التأريخ والباحثين في العمران من أن يصلوا إلى نتائج خطيرة، بما أمدتهم هذه المادة الجديدة من كثرة الأمثلة للموازنة والمقارنة، مما جعل هذا الفرع من المعرفة يقوم على أساس جديد من الدقة والشمول ومقاربة الصواب في الاستنتاج. ومما لا شك فيه أن الفارق بين الأوائل من

---

(1) An Outline of Modern Knowledge (1932); p. 807.

فلاسفة التأريخ وأولهم المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون، والمتأخرين منهم ينحصر، بغض النظر عن التفاوت في القابليات والمدارك، في كثرة المادة التي صارت في متناول أيدي المتأخرين منهم وقلتها عند الأوائل منهم. فعندما بحث المؤرخ العربي ابن خلدون في سنن العمران لم يكن في متناول يده غير مادة قليلة، لأن الحضارات التي استعملها مادة لبحثه كانت مقتصرة على الحضارة العربية الإسلامية وحضارات أمم أخرى قليلة لم يكن على معرفة تامة بها. ولكن عندما بحث المتأخرون من أمثال «شبنكلر» و«توينبي» في الموضوع نفسه كان لديهم قدر كبير من المادة التأريخية لا يصح مقارنتها مع ما كان متوفراً لابن خلدون. فقد استعمل «توينبي» مثلاً في مادة بحثه تواريخ أمم وشعوب كثيرة صنفها إلى حضارات أو مجتمعات عدد منها ستاً وعشرين حضارة من حضارات البشر وكان الفضل في معرفة القسم الأعظم من هذه الحضارات يرجع إلى التنقيبات الآثارية التي بدأها العلماء منذ القرن الماضي أي يرجع الفضل بتعبير آخر إلى التأريخ القديم.

مصادر التأريخ القديم:

مادة التأريخ بوجه عام، والتأريخ القديم بوجه خاص، مستمدة من كل ما خلفه الإنسان. وهذا كثير متنوع إذ يشمل جميع آثار الماضي وبقاياه مما يساعدنا على فهم ذلك الماضي لتوضيح الحاضر وفهمه. وقبل أن يهتدي الإنسان في العراق ومصر إلى اختراع الكتابة، تقتصر مصادرنا على آثار الإنسان المادية، وهي التي خلفها لنا في المواضع التي حلّ وسكن فيها كأدواته المصنوعة من الحجارة والخشب، وبيوته وحلاه والنقوش والتصاوير التي نقشها في سقوف الكهوف التي عاش فيها في العصور الحجرية القديمة وكذلك عظامه وعظام الحيوانات التي اصطادها، وبقايا النبات والمعلومات الجيولوجية مما يتعلق بأحوال المناخ والبيئة التي عاش فيها. وعندما اهتدى الإنسان إلى استنباط الكتابة أضيف مصدر جديد إلى الآثار المادية ونعني بذلك السجلات والوثائق المدونة كسجلات الملوك والأمراء التي خلفها لنا العراقيون

والمصريون الأقدمون وكذلك المعاملات وشؤون الحياة المختلفة التي دونها الناس على ألواح الطين والحجر وورق البردى وعلى الجلود والمعادن. وقد جاءتنا من هذه الوثائق نماذج كثيرة من مختلف العهود. وكثرت المصادر المادية في العصور التأريخية وتنوعت فشملت فن العمارة كالمباني العامة من قصور ومعابد وبيوت وكذلك الآثار الفنية كالمنحوتات والصور إلى غير ما هنالك من آثار الفن التي يجدها المنقبون في مدن العراق القديمة الدارسة وغيره من أقطار الشرق الأدنى.

ولكن لم يستطع الباحثون أن يقفوا على هذه الآثار والبقايا بيسر وسهولة، كما قد يتبادر إلى الذهن، لأن جميعها تقريباً كان مطموراً تحت التراب في باطن التلول والأطلال الكثيرة التي نشاهدها الآن منبثَّة في جميع أنحاء العراق والتي كانت مدناً ازدهرت في الأزمان الخوالي، وفي باطن الكهوف وشطآن الأنهار في حالة العصور الحجرية القديمة. وقد تطلب استخراج هذه الآثار جهوداً مادية وعلمية كبيرة، وتطلب فهمها ودرسها جهوداً علمية أخرى. وصارت كيفية استخراج الآثار بالطرق العلمية علماً خاصاً هو التنقيب توفر على الاختصاص به جماعة مخصوصة من العلماء، وسنوجز الكلام على تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية في القسم التالي من هذا الفصل.

ثانياً: «تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية»:

1 ـ مصادرنا عن تأريخ العراق القديم مما قبل القرن التاسع عشر:

نوَّهنا في القسم الأول من هذا الموضوع كيف أن التنقيبات والتحريات الآثارية هي الوسائل العلمية التي ينبغي للمؤرخ والباحث في حضارة وادي الرافدين أن يعتمد عليها لأنها، كما ذكرنا، هي التي تمد الباحث بمصادر بحثه الأصلية، سواء كانت وثائق كتابية أم البقايا الأثرية المادية على اختلاف أنواعها. على أن التنقيب والكشف عن مخلفات حضارة وادي الرافدين لم يبدأ في العصر الحديث إلا منذ منتصف القرن الماضي. أما ما قبل هذا الزمن

فلم يكن ليعرف عن مدنيات الشرق والعراق القديمة سوى أخبار ونتف متفرقة ورد بعضها في الكتب المقدسة ولا سيما أخبار التوراة، وروايات المؤرخين الكلاسيكيين (اليونان والرومان) من أمثال هيرودوتس وزنيفون وغيرهما ممن سنذكرهم بعد قليل.

وتأتي التوراة في مقدمة مصادرنا عن العراق القديم قبل الكشف عن آثاره عن طريق التنقيبات، فقد حوت أسفارها طائفة من الأخبار عن بلاد ما بين النهرين وتأريخها، بنتيجة التأثيرات الحضارية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين في العبرانيين الذين اقتبسوا منها أشياء كثيرة في حقل الأساطير والقصص والمعارف فضمنوها في توراتهم منذ بدء الخليقة. وإلى هذه التأثيرات الحضارية نشأت بين العبرانيين وسكان وادي الرافدين القدماء صلات مباشرة، اتسم معظمها بالعداء والبغض من جراء الضربات الشديدة التي وجهها الملوك الآشوريون على العبرانيين، ولا سيما في عهد الأمبراطورية الآشورية الأخيرة، مما جعل مدوني أسفار التوراة يفردون فصولاً مطولة عن تلك العلاقات (راجع بوجه خاص سفر الملوك الأول والثاني وأسفار الأنبياء)، وكذلك يقال في علاقات اليهود بالأمبراطورية البابلية الكلدانية، ولا سيما الملك «نبوخذ نصر» الثاني المشهور (605 ـ 562ق.م) الذي أزال الدولة اليهودية من الوجود ودمر أورشليم، وكان صاحب السبي المشهور (596 و586ق.م)، وما استتبع ذلك السبي من بقاء اليهود في بلاد بابل ردحاً من الزمن فازدادت تأثيرات حضارة وادي الرافدين فيهم، بحيث إن أسفار التوراة التي جاءت إلينا في شكلها الأخير إنما تمّ تدوينها في بلاد بابل (ما بين القرنين السادس والخامس ق.م) ودون التلمود اليهودي المعروف بالتلمود البابلي في بلاد بابل (القرن السادس الميلادي).

ومع أننا الآن في وضع يمتاز بوفرة المصادر عن حضارة وادي الرافدين بيد أن أخبار التوراة لا تزال من المصادر التي يمكن الرجوع إليها بشرط تطبيق أصول النقد التأريخي عليها، والنظر بعين الاعتبار إلى تعصب مدوني التوراة وتحيزهم والتشهير بأعدائهم من ملوك بابل وآشور.

المصادر الكلاسيكية:

أما الأخبار الواردة في المصادر الكلاسيكية فتأتي في مقدمتها أخبار «هيرودوتس» (في حدود 480ـ425ق.م) الملقب بأبي التأريخ. وكان أول من استعمل مصطلح «هستوريا» (Historia) للتأريخ وأصل كلمة تأريخ في معظم اللغات الأوروبية. ومن ناحية موضوعنا كان تأريخ هيرودوتس أقدم الكتب التأريخية، على أن الإفادة من أخباره عن أحوال العراق القديم لا تتم إلا من بعد نقدها، ويدخل في ذلك التعرف على شخصيته وطريقة روايته للأخبار والحوادث، فهو مولع بسرد القصص والحكايات والأساطير خالطاً إياها في كثير من الأحايين بالأخبار التأريخية بدون أن ينبه على الحد الفاصل ما بين الاثنين. كما توجد شكوك في أن هيرودوتس قد زار في الواقع بلاد بابل، بل إن الأخبار التي ذكرها عنها استقاها بالدرجة الأولى من مشاهدين آخرين، فقد ورد فيها اضطراب في الوصف مثل تسميته لبلاد بابل آشور، مع أن المصطلحين كانا معروفين لدى اليونان. كما وردت مبالغات في وصف مدينة «بابل» في قياس أسوارها وبعض أبنيتها. ومع كل هذه الهنات يجد القارئ لأخبار هيرودوتس عن العراق القديم[1] طرائف ممتعة، في وصف بعض مدنه وأنهاره، ولا سيما مدينة «بابل» في العهد الفارسي الأخميني (539ـ331ق.م) حيث كانت معابدها وبرجها الشهير وقصورها لا تزال قائمة.

---

(1) سمى هيرودوتس الأجزاء المتضمنة مؤلفه في التأريخ، وعددها تسعة أجزاء، بأسماء الآلهات أو الحوريات الخاصة بالموسيقى والغناء والشعر والتأريخ، وعددهن تسع آلهات (Muses) بحسب الأساطير اليونانية. ويجد القارئ الأخبار الخاصة ببلاد ما بين النهرين في الجزء الأول المسمى باسم آلهة التأريخ «كيلو» (Clio). وقد ترجم تأريخ هيرودوتس عدة ترجمات إلى اللغات الأوروبية المختلفة، ومنها ترجمة «جورج رولنصن»:

G. Rawlinson, *The Hidtory of Herodotus* (Every Man's Library, 1910).

وعن هيرودوتس وتأريخه بوجه عام نختار من الدراسات الكثيرة:

J. L. Myres, *Herodotus, Father of History* (1953).

وعن وصفه لبلاد بابل:

W. Baumgartner. «Herodotus Babylonische und Assyrische Nachrichten», in *Archiv Orientalni,* (1950). 69ff.

وعاصر «هيرودوتس» في أواخر حياته المؤرخ المسمى «زينفون» (430ـ355ق. م) الذي دوَّن طائفة مهمة عن أخبار العراق والأمبراطورية الفارسية الأخمينية بوجه عام. وكان قد التحق في آسية الصغرى بحملة «كورش» الأصغر، حاكم ولاية «ليدية»، وأخو الملك الفارسي «ارتحششتا» الثاني (Artaxerexes) (404ـ359ق. م)، وقد ثار «كورش» عليه وجرد حملة عسكرية معظمها من مرتزقة الإغريق، عرفت «بحملة العشرة آلاف إغريقي» (401ق. م)، وبعد فشل الحملة قاد «زينفون» فلول الإغريق في تقهقرهم وعودتهم من العراق إلى الأناضول، وخلف لنا أخبار هذه الأحداث وضمنها وصفاً للعراق والمدن والأماكن التي مرّ بها، وتعد أخباره أوثق من أخبار هيرودوتس[1].

ومن المؤرخين اليونان المشهورين نذكر «پوليبيوس» (Polybius) (202 ـ 120ق. م) الذي ألّف في تأريخ الرومان وذكر أحوال عالم البحر المتوسط وأحداثه التأريخية. والمرجح أنه كان أول من استعمل مصطلح «ميزوپوتامية» (ما بين النهرين) لإطلاقه على الجزء الأوسط والشمالي من أرض الرافدين.

ومن الكتّاب الكلاسيكيين الذين يجدر ذكرهم الجغرافي الشهير «سترابو» أو «سترابون» (Strabo. Strabon) (في حدود 64ق. م ـ 19م) الذي اشتهر بمؤلفه عن جغرافية العالم الموسوم (Geographica)، وقد جاء بسبعة عشر جزءاً، وصف فيها الأقاليم المعروفة آنذاك، ومنها بلاد بابل وآشور[2]. وقد اقتبس من جملة مؤلفين سبقوه كما يخبرنا، منهم الكاتب اليوناني الشهير «اراتوسثينس» (Eratosthenes) الذي كان من مواليد المدينة الشهيرة «قورينا» (Cyrene) (منتصف القرن الثالث ق. م)، وتعرف بقاياها الآن باسم «شحات»

---

(1) يسمى كتاب «ينيفون» بحملة «ينيفون» (Anabasis):

Xenophon Anabasis: The Expedition of Cyrus the Younger.

(2) ترجم كتاب «سترابو» في الجغرافية عدة ترجمات منها:

H. L. Jones, *Strabo, Geyraphy.*

في إقليم برقة بليبيا، واشتغل في مكتبة الاسكندرية الشهيرة، وألّف في موضوعات مختلفة منها الجغرافية ولكن لم تأتنا مؤلفاته الأصلية إلا بطريق الاقتباسات منها. واستقى أيضاً من الجغرافي المسمى «بوزيدونيوس» (Poseidones) من مواليد مدينة «أفامية» (في بلاد الشام) (135ق.م).

وجاء في جغرافية «سترابو» أشياء مفيدة عن بلاد العرب ومصر وبلاد بابل ولا سيما مدينة بابل التي ذكر عنها أنها كانت مدينة مهجورة تقريباً (الجزء السادس عشر من جغرافيته، الفقرة الخامسة)[1]، ولكن مع ذلك يصف أحوالها الماضية، وأسوارها المشهورة وجنائنها المعلقة التي يذكرها بالمصطلح الإغريقي (Kremastos Kepos).

ونذكر أيضاً المؤرخ الشهير «ديودورس» الصقلي (Diodorus Sicouly) (40ق.م ـ ؟) الذي ألّف كتابه في تأريخ العالم وعنونه باليونانية (Bibliotheke Historike)، وقد جاء في الجزء الثاني منه وصف بلاد بابل ومعبد الإله «مردوخ» (بيل)، ووصف الجنائن المعلقة وأن الملكة «سميراميس» هي التي شيَّدتها.

ودوّن المؤرخ الروماني المسمى «كورتيوس روفس» (Curtius Rufus) (القرن الأول الميلادي) تأريخ الإسكندر، تطرق فيه إلى وصف بلاد بابل ومنها مدينة بابل ووصف جنائنها المعلقة وسمّاها بالمصطلح اللاتيني (Pensiles Horti).

واشتهر الكاتب الروماني «بليني الأكبر» (Pliny) (23 أو 24 ـ 79م) بمؤلفاته التأريخية والجغرافية، أشهرها كتابه المعنون «التأريخ الطبيعي» وباللاتينية (Naturalis Historia)، الذي وصف فيه جغرافية القارات المعروفة في زمنه وعادات أهلها ومواردها، وذكر أشياء مهمة عن العراق ولا سيما أنهاره وعيَّن منابع النهرين بصورة مضبوطة كما ذكر أحوال الري والملاحة، وأن دجلة والفرات كانا يصبان كلاً على انفراد في البحر وأن المسافة ما بين مصببيهما

---

(1) ترجم كتاب «سترابو» في الجغرافية عدة ترجمات منها:

H. L. Jones, *Strabo, Gegraphy*.

نحو (25) ميلاً. ووصف كذلك بعض المدن القديمة التي بقيت في زمنه مثل «سلوقية» (تل عمر الآن مقابل طاق كسرى على دجلة) ومدينة «أرتميتا» والوركاء (أورخوى (Orchoi))، وطيسفون وغيرها.

وجاءت في كتاب المؤرخ اليهودي «جوزيفس» (Flavius Josephus) (37 ـ 100م) عن تأريخ اليهود والحرب الرومانية ـ اليهودية نتف عن أخبار بلاد بابل ولا سيما وصف جنائنها المعلقة التي سمّاها (Pensile Paradise).

ووردت اقتباسات كثيرة في مؤلفات الكتّاب الكلاسيكيين من كتاب الكاهن البابلي الشهير «بيروسس» (Berosus) الذي ألف باليونانية عن تأريخ بلاد بابل في عهد الملك السلوقي «سلوقس» الأول (مطلع القرن الثالث ق.م)، ولكن كتابه فقد ولم يبق من محتوياته سوى الاقتباسات التي نوَّهنا بها[1].

ومن الكتاب الرومان الذين يجدر التنويه بهم الكاتب المسمى «أريان» (Arrian) (95ـ175م) الذي اشتهر بمؤلفه عن حروب الإسكندر الكبير في كتابه المعنون «حملة الإسكندر» (Anabasis of Alexander) وجاءت فيه طائفة من الأخبار عن بلاد بابل وبلاد الهند والاستكشافات البحرية التي قام بها قائد الإسكندر «نيرخش» (Nearchus) في الخليج العربي والبحر الهندي؛ وقد سبق أن نوَّهنا في أول المقدمة الجغرافية عن أسماء القطر التأريخية باحتمال ظهور استعمال المصطلح الجغرافي «ميزوپوتامية» (ما بين النهرين) في عهد الإسكندر. ونذكر كذلك الجغرافي والفلكي اليوناني الشهير «بطليموس» (Claudius Ptolemaeus) الذي عاش في الإسكندرية في حدود منتصف القرن الثاني الميلادي، وألف باليونانية في الفلك والرياضيات والجغرافية، واشتهر من مؤلفاته كتاباه الموسوم أحدهما «نظام الرياضيات» (Mathematike Syntaxis)

---

(1) عن المؤرخ «بيروسس» راجع:

Schnabel, *Berosos und die Babylonische Hellenistische Literatur* (1923).

وتحت مادة (Berosos) في المرجع المرموز له بـ *RLA*, I.

وقد ضمنه خلاصة المعارف والنظريات الفلكية في عصره، وهو الذي ترجم إلى العربية بعنوان «المجسطي» (الكتاب العظيم)، وكتابه الثاني في الجغرافية (Geographike Huphegesis) والحق به جداول مهمة بأسماء الأمكنة ومواضعها بخطوط الطول والعرض وخرائط مطولة عن العالم القديم المعروف آنذاك، وبضمن ذلك بلاد ما بين النهرين ومدنها[1].

وننوّه أيضاً بالكاتب الروماني «كلوديوس اليانوس» (Claudius Aelianus) من أهل القرن الثاني الميلادي الذي روى في جملة ما روى قصة طريفة عن البطل الشهير «جلجامش» وسمّاه «كل كاموس»[2]. وعن أحوال العراق في العهد الساساني نذكر المؤرخ البيزنطي «أميانوس مركلينيوس» (Ammianus Marcellinus) من أهل القرن الرابع الميلادي، وقد دوّن في تأريخه الشهير أخبار حملات الأباطرة الرومان «جوليان» (360 ـ 363م) وجوفيان (363ـ 364م) وفلنتيان الأول (364 ـ 375م) على العراق والأجزاء الأخرى من الأمبراطورية الساسانية[3].

ونذكر من المؤرخين الكلاسيكيين «يوسيبيوس» (Eusebius) (265 ـ 340م) الذي كان بطرك قيصرية في فلسطين ومؤلف كتاب «الأخبار» باليونانية، وقد ترجمه القديس «جيروم» إلى اللاتينية، وجاء فيه جملة اقتباسات مهمة من المؤرخ البابلي «بيروسس» الذي سبق أن ذكرناه. ومنهم أيضاً الكاتب البيزنطي الملقب بالدمشقي الذي عاش في زمن الأمبراطور البيزنطي «جستنيان» (527 ـ 565م) وقد روى جانباً مهماً من أسطورة الخليقة البابلية.

---

(1) عن جغرافية بطليموس ومؤلفاته الأخرى انظر:

Stevenson, Claudius Ptolemy, Geography.

وراجع المتن تحت ثبت «بطليموس»، وهو ما يسمى «قانون بطليموس» المتضمن أسماء ملوك بابل وآشور منذ القرن الثامن ق.م إلى منتصف القرن الثاني الميلادي.

(2) انظر ملخصها في ملحمة «جلجامش»، ترجمة طه باقر، (الطبعة الثانية 1971).

(3) عن «أميانوس مركيلينيوس» أو «مرشيلينيوس» راجع:

Yonge, *Ammianus Marcellinus* (1911).

ونختتم هذا العرض الموجز بالتنويه بالمؤرخين الآراميين (السريان) من أمثال «ثيودور برخوني» (893م) الذي ذكر ثبتاً بأسماء ملوك بابل، وكذلك الأخبار الطريفة التي وردت في كتب المؤرخين والبلدانيين العرب، ولا سيما أحوال العراق في عهوده الأخيرة وبالأخص العصر الساساني (7/ 226 ـ 637م) حيث تكون الأخبار التأريخية مما يعتمد عليها لقرب العهد.

أخبار الرحالة والسياح:

قبل أن تبدأ التحريات والتنقيبات الفعلية عن بقايا حضارة وادي الرافدين منذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ الغرب يتعرف على أحوال العراق وبلدان الشرق الأدنى بوجه عام وعلى البقايا الأثرية فيها عن طريق أخبار الرحالة الأوروبيين الذين شرعوا يؤمون الشرق منذ القرن الثاني عشر الميلادي؛ ويمكن تحديد بداية هذه الرحلات في زيارة السائح اليهودي «بنيامين التطيلي» (1160م)، كما يمكن إنهاء طور الرحلات ببداية أولى تحريات آثارية على أيدي الهواة وقناصل الدول الأجنبية من أمثال «بوتا» و«ليرد» و«رولنصن» منذ عام 3/ 1842 وبالنسبة إلى الموضوع الذي بين أيدينا لا يخفى ما لأثر مثل أولئك الرحالة والسياح في جعل العالم المتمدن يطلع على بقايا حضارات الشرق القديم وآثاره، وإثارة الرغبة في القوم لمعرفة ماضي هذا الشرق، لا سيما وأن كثيراً من مدنه القديمة ذات صلة وثيقة بأخبار التوراة وبتأريخ الديانتين العبرانية والمسيحية، بالإضافة إلى الأطماع السياسية والاقتصادية. وسنرى مما سنوجزه عن أخبار أولئك السياح كيف أن بعضهم نقل إلى أوروبا نماذج من آثار العراق، من بينها تلك الكتابة الغريبة التي سميت بعدئذٍ بالكتابة المسمارية؛ كل هذا وغيره مهد السبيل للشروع بالتنقيبات الفعلية وحل رموز الخط المسماري في منتصف القرن الماضي. ولذلك فيحسن أن نورد نبذاً عن مشاهير أولئك الرحالة والسياح والتنويه بإسهام المشهورين منهم في تعريف مدن العراق وآثاره إلى العالم الحديث.

بنيامين التطيلي:

يرجح أن يكون «بنيامين» التطيلي[1] الذي سبق ذكره أول سائح أَمَّ العراق من الغرب (اسبانية) في العام 1160م، وكانت زيارته في زمن الخليفة العباسي المقتفي باللّه (530 ـ 555هـ/ 1160 ـ 1170م) وخلافة المستنجد باللّه (555 ـ 566هـ). وسلك في رحلته طريق إيطاليا واليونان وقبرص ثم فلسطين وانتهى به المطاف إلى العراق وبلاد فارس، وقد خصص مذكراته بالدرجة الأولى لوصف أحوال الجاليات اليهودية في الأقطار التي زارها ولا سيما يهود العراق. وإلى هذا وصف ما شاهده من أطلال بعض المدن القديمة مثل نينوى وبابل، وعين موقع المدينة الأولى بالنسبة إلى الموصل، وزار بقايا بابل التي قال عنها إنها تمتد مسافة ثلاثة أميال، ووصف الخرائب التي سمّاها قصر «نبوخذ نصر»، وأكد أنه شاهد «برج» بابل المشهور، وارتقى السلالم الملتوية التي يرقى بها إلى القمة، وفسّر ما شاهده من بقايا الآجر المنصهر (صخريج) بأنها من أثر صاعقة ضربت البرج. إن هذا الوصف ينطبق على بقايا البرج المسمى «برس نمرود» (بورسبا القديمة جنوب بابل بنحو 20كم) وليس على برج بابل. وعندما ترجمت رحلته إلى الفرنسية والإنجليزية أثارت الاهتمام بين المؤرخين في أوروبا، ووضعت في متناول أيديهم وصفاً لشاهد عيان عن بقايا مدن يعرفون أسماءها وطرفاً من أخبارها مما ورد عنها في التوراة وأخبار المؤرخين اليونان والرومان.

بترو ديلا فاله:

وتعاقب من بعد «بنيامين» التطيلي في زيارة العراق جملة رحالة وسياح كتبوا عنه، نذكر من مشاهيرهم العالم الطبيعي والطبيب الألماني «راوولف» (Rauwolf) من أهل القرن السادس عشر.

---

(1) «بنيامين» بن يوحنا «رابي» تطيلة (Tudela) في مملكة «نافار» (Navarre) ولم تنشر أخبار رحلته إلا في القرن السادس عشر حيث ترجمت من بعد ذلك إلى اللغات الأوروبية المختلفة، وترجمها إلى العربية الأستاذ «عزرا حداد».

وزار العراق في مطلع القرن السابع عشر نبيل إيطالي اسمه «بترو ديلا فاله» (Pietro Della Valle)؛ وقد استغرقت رحلته في بلدان الشرق والعراق من عام 1616 إلى عام 1625، فزار بقايا بابل (1616) وبقايا «أور» (1625) وهو في طريق عودته إلى بلاده عن طريق البصرة. وكان على ما يرجح أول رحالة أوروبي زار بقايا «الأخيضر» الشهيرة ووصفها، كما زار المدينة الفارسية القديمة «برسيبوليس» (اصطخر) وجلب منها أولى نماذج من الخط المسماري الغريب، كما أخذ معه آجراً مختوماً بهذا الخط من بابل و«أور».

وتلا «ديلا فاله» سياح آخرون في القرن السابع عشر نذكر من مشاهيرهم السائح الفرنسي «ثفينو» (Thevenot) الذي زار العراق وبغداد في ولاية «قرة مصطفى» (1664)، ووصف بغداد وذكر نتفاً عن بعض البقايا الأثرية، والرحالة الفرنسي «تافرنيه» في القرن نفسه[1].

رحالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:

صادف حب التطلع والاهتمام اللذين أثارتهما أخبار أمثال أولئك السياح والرحالة ظهور ما يعرف في تأريخ أوروبا بالحركة «الرومانطيقية» التي اتصفت من جملة ما اتصفت به بالرغبة في الوقوف على أخبار الماضي واستكشافات المجهول من الأقاليم، فنشطت الأكاديميات والمؤسسات العلمية الأوروبية في إرسال البعثات إلى أنحاء الشرق، وكانت أول بعثة من هذا النوع البعثة الاستطلاعية المنتظمة التي أرسلها ملك الدنيمرك في عامي 1761 و1767 برئاسة العالم الرياضي الدنيمركي «كارستن نيبور» (Karsten Niebuhr) لجمع المعلومات العلمية في مختلف المواضيع ومنها بقايا الماضي وآثاره. وقد امتاز رئيس تلك البعثة بالدقة العلمية في وصفه لبقايا نينوى وبابل ورسم لها مخططات، واستنسخ نماذج عديدة من الكتابات المسمارية ولا سيما من مدينة

---

(1) ترجم السيدان بشير فرنسيس وكوركيس عواد القسم الخاص بالعراق من رحلة «تافرنيه» (بغداد 1944).

«برسيبوليس»، فوضع بذلك في متناول أيدي الباحثين واللغويين مادة أصلية مهمة. وسنرى كيف أن تلك الجهود المحمودة قد أسفرت في القرن التالي (منتصف القرن التاسع عشر) عن حل رموز الخط المسماري، مفتاح معرفتنا بحضارة وادي الرافدين. ونشر «نيبور» نتائج تحرياته في عام 1778.

وتقدمت مراحل الكشف عن ماضي العراق خطوات أخرى حينما صار المهتمون بهذا الموضوع يقيمون في العراق فترات أطول، مدفوعين في ذلك بالشؤون السياسية والتجارية مثل وكلاء الشركات الأجنبية والمقيمين الممثلين لدولهم. وعمت هذه الرغبة حتى بين السياح لمدد قصيرة ممن زار البقايا الأثرية الشهيرة واستنسخ الكتابات وجمع الآثار، نذكر منهم عالم النبات الفرنسي «ميشو» (Michaux) الذي عثر في منطقة طيسفون (سلمان باك) على حجرة حدود منقوشة بالخط المسماري وقد باعها إلى المكتبة الوطنية في باريس وحاول البعض ترجمتها، فكانت ترجمة خيالية عجيبة.

ونذكر من مشاهير المقيمين في بغداد مدداً طويلة المبعوث البابوي «بوشام» (Abbè Joseph Beauchamp) الذي مكث في بغداد من عام 1785 إلى 1790. وكان فلكياً وزار من بين ما زار من المدن القديمة بقايا بابل مراراً كثيرة، وأجرى التنقيبات فيها وأزاح الأنقاض عن أسد بابل الشهير، كما كشف عن بعض الأجزاء من باب «عشتار» وكان يراسل أكاديمية العلوم الفرنسية ونشر نتائج تحرياته في مجلة العلماء الفرنسيين (Journal Des Savants) في عامي 1785 و1790 فكان ذلك من العوامل المهمة في إثارة الرغبة بين الباحثين والمؤسسات العلمية الأوروبية للاستزادة من المعلومات بمتابعة الدراسات ومواصلة البحوث. وشملت هذه الرغبة الرأي العام الأوروبي وبوجه خاص في إنكلترا، حتى أن شركة الهند الشرقية المعروفة في لندن طلبت من ممثليها في البصرة أن يرسلوا إلى إنكلترا المزيد من الآجر المختوم بالكتابة المسمارية. ونشط العمل أكثر بإرسال الشركة مقيماً لها في بغداد هو «كلوديوس رج» (Cludius Rich) الذي شغل بالإضافة إلى ذلك وظيفة القنصل البريطاني العام في بغداد (807)، بيد أنه توفي

بمرض الكوليرا وهو في سن مبكرة (1821)؛ وقد امتاز «رج» بموهبة في تعلم اللغات الشرقية، فكان يجيد العربية والتركية، وزار بقايا بابل (1811) ورسم مخططات لها كما أجرى بعض التنقيبات فيها وزار نينوى وجمع منها بعض الألواح المسمارية. وكان مسكنه في بغداد[1] مركزاً وملتقى للرحالة والباحثين من أمثال «بكنگهام» (James Buckingham) و«بلينو» و«كير بورتر» (Ker Parter) ومن مشاهير رحالة هذه الفترة «روبرت مينان» (Robert Mignan) (1827 ـ 1828) الذي حفر في بابل ووجد اسطوانة من الطين منقوشة بالخط المسماري. و«وليم أنزورث» (William Ainsworth) و«بيلي فريزر» (Baillie Frazer) في الثلاثينات من القرن الثامن عشر، ونذكر كذلك بعثة «جسني» البريطانية لمسح النهرين ودراسة صلاحيتهما للملاحة (1835ـ1836).

تنقيبات الهواة (1842ـ1899):

إن ما نوّهنا به من تحريات الرحالة السابقين في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لم تكن في الواقع سوى نبش أو حفر مشوش، ولم يبدأ الحفر الواسع أو التنقيبات إلا حين قارب التاسع عشر من الانتصاف، ولكن هذه التنقيبات كانت بعيدة عن الأساليب العلمية المتبعة في علم الآثار في مراحل تطوره التالية، فكانت أقرب ما تكون إلى النبش لاستخراج الآثار الكبيرة كالمنحوتات. ولم تكن لتعنى بتسجيل ما يعرف في علم الآثار بالطبقات الأثرية والأدوار التأريخية العائدة إليها، كما أهملت الآثار الصغيرة القابلة للتلف مثل ألواح الطين المسمارية، وأهملت تسجيل مخططات المباني. وكان الحفارون في هذه الفترة، التي يمكن تحديد بدايتها من تنقيبات «بوتا» في

---

(1) اشتهر «رج» أيضاً في رحلته الشهيرة إلى كردستان، ونشر عن ذلك كتاباً قيماً، ونشر كذلك نتائج تحرياته في بابل في كتاب خاص بعنوان:

C. Rich, *Memoir on the Ruins of Babylon* (1812-18).

وعن حياة «رج» وسيرته راجع:

C. Alexander, *Baghdad in the Bygone Days* (1928).

S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).

خرسباد (1843) ونهايتها بشروع التنقيبات الألمانية في بابل (1899)، لا يستطيعون أن يميزوا دائماً الجدران المبنية باللبن عن أنقاض التراب والطين فأزالوا معالم الأبنية القديمة المشيدة بهذه المادة، وتلفت مجاميع مهمة من الآثار بسبب إهمال تغليفها ووسائل النقل. وخلاصة القول كان هم أولئك المنقبين الهواة محصوراً بالدرجة الأولى في استخراج التماثيل والألواح الحجرية الكبيرة المنحوتة إلى المتاحف الشهيرة في أوروبا.

بدأ هذا الطور من التنقيبات، كما ذكرنا، في عام 1842ـ1843 في العواصم الآشورية في منطقة الموصل، وكان معظم المنقبين من قناصل الدول الأجنبية، واشتد التنافس ما بين الفرنسيين والإنجليز. ففي أواخر عام 1842 شرع القنصل الفرنسي «بول أميل بوتا» (Paul Emile Botta) بفحص خرائب نينوى من فوق تل «قوينجق» وبينا كان ينقب فيه أخبره رجل من أهل «خرسباد» بأنه يستطيع أن يجد آثاراً أكثر وأحسن في «خرسباد»، فنقل عمله إلى هناك في مطلع عام 1843، وسرعان ما تحققت أخبار ذلك الرجل، إذ بدأ «بوتا» يستظهر المنحوتات الآشورية الشهيرة من قصر الملك الآشوري «سرجون»، وواصل عمله في خرسباد إلى عام 1844[1]، وشحن أولى غنائمه إلى فرنسا.

وظهر في المسرح في هذه الفترة رجل إنجليزي اسمه «هنري ليرد» (Henry Layard)، ونال نصيباً من الشهرة في هذا الطور من التنقيبات وقد شجعه نجاح «بوتا» في خرسباد على أن ينقب في نمرود (مدينة كالح القديمة) في عام 1845 وفي نينوى ففاز بكنوز أثرية شحنها إلى لندن في عام 1847

---

(1) حول التنقيبات في العراق راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *RLA*, I, (Ausgrabungen).

(2) W. Budge, *Rise and Progress of Assyriology* (1925).

(3) S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).

(4) S. Lloyd, *Mounds of the Near East* (1962).

(5) A. Parrot, *AM*, I, II.

(6) G. Contenau, *Manuel D'Archeologie Orientale*. 4 vols. (1927-47).

وكانت أولى الآثار الآشورية التي حاز عليها المتحف البريطاني. وأثار نجاح «ليرد» اهتماماً وحماساً في إنكلترا مكّناه من متابعة نشاطه الأثري بالحفر في نينوى ولا سيما القسم المعروف منها بتل قوينجق، كما واصل العمل في «نمرود» من عام 1849 إلى 1851، وتحرى أيضاً عدة تلول أثرية في المنطقة. وبعد أن اعتزل العمل خلفه في النشاط الأثري الإنجليزي «هنري رولنصن» (1810ـ1895) (Henry Rawlinson) الذي أسهم في حل رموز الخط المسماري، كما سيأتي إيجاز ذلك. وخلف «بوتا» الباحث الفرنسي «فكتور بلاس» (Victor Place). وقام في هذه الفترة من تأريخ التنقيبات تنافس مشين بين المنقبين الفرنسيين والإنجليز. أما «بلاس» فقد واصل التحريات في «خرسباد» فكشف عن قصر الملك «سرجون»، وامتازت أعماله بالدقة العلمية بالمقارنة مع معاصريه الآخرين، ولا سيما من ناحية التسجيل ورسم المخططات، فقد استطاع مساعده المهندس المعماري «توماس» تسجيل مباني تلك العاصمة الآشورية في كتاب ضخم من الرسوم والمخططات.

وتابع «رولنصن» ومساعده «هرمز رسام» (من أهل الموصل) التنقيبات في نينوى وظفرا بمجاميع نفيسة من المنحوتات الآشورية في قصر الملك «آشور بانيبال» (668ـ627ق.م)، وعثر أيضاً على كنوز مكتبة القصر الشهيرة.

ولم يقتصر التنافس الإنجليزي الفرنسي في نهب الآثار على عواصم الدولة الآشورية في شمالي العراق بل امتد إلى جنوبي العراق، ولا سيما في التلول الأثرية المشهورة باسم «تلو» (مركز دولة لجش السومرية)، حيث سمع القنصل الفرنسي في البصرة «إميل دي سارزك» (Emile De Sarzec) بما يحتوي عليه ذلك الموضع من كنوز أثرية، وسرعان ما شرع في نهبه (1877ـ1878) بدون إذن رسمي من الدولة العثمانية، وغنم كميات كبيرة من الآثار السومرية القيّمة، من بينها المنحوتات والكتابات، وقد باعها إلى متحف «اللوفر» في باريس بمبلغ (13000) فرنك، وكان هذا مبلغاً ضخماً بالنسبة إلى ذلك العهد. وفي أثناء غياب «دي سارزك» أسرع «هرمز رسام» في نهب المنطقة الأثرية بالنيابة عن المتحف البريطاني. ونشطت في الوقت نفسه حفائر الأهليين

ورجال القبائل المجاورة، ولنا أن نتصور مبلغ التخريب والتدمير الذي أصاب التلول في هذه المنطقة الأثرية المهمة. وعلى الرغم من هذه الأضرار والمساوئ حفز وصول تلك الآثار النفيسة إلى أوروبا الباحثين ومؤرخي الفن على درس هذه الآثار. وتمتاز الحفائر التي أجريت في منطقة «تلو» بأنها وضعت في متناول أيدي الباحثين أولى نماذج من الكتابات والفنون السومرية؛ وصادف ذلك التوصل إلى حل رموز الخط المسماري في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر. وظلت «تلو» موضع اهتمام المنقبين الفرنسيين من متحف اللوفر إلى عام 1931.

ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى ميدان التحريات الآثارية في عام 1877، يوم أرسلت جامعة بنسلفانية بعثة أثرية برئاسة «بيترز» (Peters) أستاذ اللغة العبرية في تلك الجامعة، ومساعده «هلبرشت» (Hilprecht) للتنقيب في مدينة «نفر» الشهيرة (بالقرب من عفك) واستخرجت منها عشرات الألوف من ألواح الطين المسمارية المهمة، من بينها مجموعات ثمينة مدونة بالأدب السومري. ومع أن باكورة أعمال هذه البعثة شابتها الاضطرابات والقلاقل مع عشائر منطقة عفك المجاورة، إلا أنها استأنفت عملها بعد أعوام قليلة (1889ـ1900).

ولما أوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء بدأ ما يصح أن نسميه بطور التنقيبات الأثرية العلمية، وفي وسعنا جعل التنقيبات الألمانية في بابل (1899ـ1917) وفي آشور (قلة الشرقاط) (1904ـ1914) فاتحة هذا الطور الجديد في تأريخ التنقيبات في العراق. وقبل أن نوجز نتائج تحريات هذا الطور يحسن أن نتوقف قليلاً لنروي بالإيجاز قصة حلّ رموز الخط المسماري التي بدأت قبيل ذلك الطور، ذلك لأن معرفة الباحثين بقراءة الكتابات المسمارية كانت من أبرز الأمور المميزة له ومن مستلزمات البحث الأثري.

حل رموز الخط المسماري:

ظل الخط المسماري، خط حضارة وادي الرافدين، في الاستعمال منذ أول ظهوره في حدود (3500) ق.م إلى بداية العهد الميلادي (50 ـ 75م)،

حيث انحصر تداوله بين كهنة المعابد، وحلّ محله الخط الآرامي المؤلف من حروف هجائية قليلة وحلت محل اللغة البابلية اللغة الآرامية المدونة بذلك الخط. فدخل ذلك الخط المسماري، الذي بقي أداة للتدوين في حضارة وادي الرافدين وحضارات الشعوب المجاورة زهاء أربعة آلاف عام، في ظلام النسيان وظل كذلك دهراً طويلاً إلى أن بدأت المحاولات الأولى لحل رموزه منذ أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. وتعد تلك المحاولات والجهود من أروع قصص الاكتشافات العلمية في العصور الحديثة، إذ أسفر نجاحها عن معرفة حضارة عريقة في القدم والوقوف على منجزاتها ومآثرها الأدبية والفكرية.

وتشبه قصة حل رموز الخط المسماري قصة حلّ رموز الخط الهيروغليفي (خط حضارة وادي النيل)، حيث وجد مفتاح الحل في كلتا الحالتين باكتشاف نصوص قديمة مدونة بثلاث لغات إحداها ترجمة للأخرى؛ وكانت إحدى تلك اللغات الثلاث معروفة: اليونانية في حالة حجر «رشيد»، مفتاح حل رموز اليهروغليفية، والفارسية القديمة في حالة حل رموز الخط المسماري.

لقد مر بنا فيما أوجزناه عن تأريخ التنقيبات كيف نقل الرحالة والسياح وأوائل المنقبين من العراق نماذج من الكتابات المسمارية إلى أوروبا، وقد حار القوم في أمرها وتسميتها، وظنها البعض ضرباً من الزخرفة، بيد أن حقيقة كونها كتابة لم تفت على فطنة جمهرة الباحثين. وبما أن النماذج الأولى التي نقلت من هذه الكتابة إلى أوروبا تنتهي علاماتها، وهي في أطوارها الأخيرة، بما يشبه المسامير أو الأسافين، فقد أطلق عليها المصطلح اللاتيني (Cuneiform) وكان البعض من تلك النماذج مدوناً بثلاث لغات (Trilingual) ويرجع الفضل في المراحل الأولى من حل رموز هذه الكتابة إلى النسخ المضبوطة التي استنسخها الباحث الدنيمركي «كارستن نيبور» (عام 1765) لمجموعة من النصوص المسمارية عثر عليها في «برسيبوليس»، كما نوَّهنا بذلك في كلامنا على رحالة القرن الثامن عشر. ونشرت تلك الاستنساخات ما

بين عامي 1774 و1778، وكان أول من فطن إلى أنها من كتابات ملوك الفرس الأخمينيين، وأن اللغة الفارسية القديمة كانت إحدى اللغات الثلاث المدونة بها، أما اللغتان الأخريان فقد عينتا من بعد معرفة تلك اللغة بأنهما اللغة البابلية واللغة العيلامية، حيث درج ملوك السلالة الفارسية الأخمينية (640ـ331ق. م) على تدوين مآثرهم بتلك اللغات الثلاث، والمثال على ذلك كتابات «بهستون» الشهيرة التي سيأتي الكلام عليها. ومما سهل حلّ رموز الخط المسماري أن اللغويين الأوروبيين وقفوا على أسرار الفارسية القديمة في حدود ذلك الزمن، وفي مقدمتهم الباحث «دوبيرو» (Duperon) الذي تعلمها في الهند على أيدي المجوس «البارسيين» (Parsees)، وكان يشتغل على نشر ترجمته للافستا (الابستاق)، فسهل ذلك الجهود التي كان يبذلها أحد أساتذة جامعة «كوتنكن» المسمى «فردريك كروتفند» (Grotefend) في حل رموز خط اللغة الفارسية القديمة التي قلنا إنها كانت إحدى اللغات الثلاث المدونة بالخط المسماري في كتابات «برسيبوليس» السالفة الذكر، إذ اشتق الفرس الأخمينيون خطهم المسماري من الخط المسماري البابلي مثلما فعل العيلاميون قبلهم. وبالاستعانة بأسماء الأعلام الفارسية القديمة ولا سيما أسماء الملوك المذكورة في التوراة وفي الكتابات الكلاسيكية نجح ذلك الباحث في حل قسم كبير من النص الفارسي المدون بالخط المسماري كما ذكرنا، وقدم في عام 1802 دراسة عن نجاحه في قراءة ثلاثة عشر حرفاً أو مقطعاً من ذلك الخط. وكانت أولى الخطوات التي اتبعها تخمينه أن مجموعة من العلامات المسمارية المتكررة في نفس النقش تدون كلمة «ملك» و«ملك الملوك» ثم عرف لقب الملك بأنه «الملك العظيم»، وأن اسم الملك ينبغي أن يسبق هذا اللقب، وفسر الكلمة التي تعقب اسم الملك ولقبه بأنها تعني «ابن» مضافة إلى اسم ملك آخر هو «أبو الملك العظيم». وبمواصلة التحليل على هذا الوجه حزر أن في النص أسماء ثلاثة ملوك أولهم الجد والثاني ابنه والثالث حفيده (ابن ابنه). وبما أن اسم الجد ذكر مجرداً من لقب «ملك» فينبغي أن يكون مؤسس سلالة حاكمة. وبالاستعانة بصيغ أسماء ملوك السلالة الأخمينية المذكورة في التوراة

وفي المصادر الكلاسيكية خمن أن يكون ذلك المؤسس أما «كورش» أو «هستاسبس»، وأبعد احتمال أن يكون كورش هو المقصود، إذ لو كان الأمر كذلك لبدأ اسم ابنه أي «قمبيز» (أو الأصح «كمبيز») بنفس الحرف الأول من اسم كورش، وبما أنه ليس كذلك فينبغي أن يكون الاسم المقصود «هستاسبس»، وينبغي أن يكون ترتيب هذه الأسماء كما وردت في النص على الوجه الآتي: هستاسبس ـ دارا ـ احشويرش. وبالاستناد إلى تهجئة اسم «دارا» (داريوش) الواردة في التوراة، استطاع «كرتفند» السالف الذكر أن يعرف أصوات عدد من العلامات المسمارية، وهي الحروف المدون بها اسم «دارا»، كما عرف أصوات العلامات المدون بها اسما الملكين الآخرين. واستطاع الباحث الفرنسي «برنوف» والباحث الألماني «لارسن» أن ينشرا النصين اللذين عالجهما «كرتفند»، فكانت ترجمة أحد النصين: «دارا، الملك العظيم، ملك الملوك، ملك الأقطار، ابن هستاسبس، الملك الأخميني، هو الذي شيّد هذا القصر». وترجمة النص الثاني: «احشويرش، الملك العظيم، ملك الملوك، ابن دارا، الملك الأخميني».

كتابة «بهستون»:

تكللت تلك الخطوات التي أوجزناها في حل رموز الخط المسماري بخطوة كبرى، بالشروع في دراسة تلك الكتابات التأريخية الشهيرة المنقوشة في وجه الجبل الشاهق المسمى «بهستون»، بالقرب من كرمنشاه، وهي أيضاً من كتابات أحد الملوك الأخمينيين المسمى «دارا» الأول (522 ـ 486ق.م)[1] وهي مدونة بالخط المسماري بنص واحد ولكن في ثلاث لغات: هي الفارسية

---

(1) جبل «بهستون» يطل على الطريق إلى كرمنشاه وبالقرب منها. وقد نقش «دارا» الأول في وجه هذا الجبل الشاهق كتابات ومنحوتات تخلد أعماله وأخبار قضائه على الثائرين والمتمردين في ولايات الأمبراطورية. حول هذه النقوش انظر المراجع الآتية:

(1) G. Cameron, «Darius Carved History on Ageless Rock», in *National Geographical Magazine,* (1950), 825ff.

(2) W. Budge, *Rise Progress of Assyriology* (1925).

القديمة والعيلامية والبابلية. وهنا برز اسم لامع في تأريخ حل رموز الخط المسماري، ذلك هو «رولنصن» الذي مرّ ذكره في تأريخ التنقيبات. وكان ضابط استخبارات في الجيش البريطاني، ونقل من الهند إلى إيران، وقد سبق له أن أتقن الفارسية، وكان أول من استنسخ أجزاء كثيرة من نقوش بهستون (1835ـ1844) رغم المخاطر التي عرض إليها حياته في تسلقه ذلك الجبل الشاهق، وأكمل في عام 1844 استنساخ النصين العيلامي والفارسي. أما النص البابلي فقد تأخر استنساخه إلى عام 1847 بسبب ارتفاعه الشاهق من وجه الجبل، ونشر في عام 1846 النص الفارسي بخطه المسماري وتأدية أصواته وترجمته ، وتولى درس النص العيلامي الباحث الإنجليزي «نورس» (Norris) (عام 1853ـ1855). أما خط النص الثالث، أي النص البابلي، فلم تحل رموزه بالسهولة التي حل بها النصان الأولان. وكان الباحثون في أوروبا قد بدؤوا قبل حل رموز الخطين العيلامي والفارسي يحزرون على الوجه الصحيح أن الخط الثالث في كتابات بهستون هو الخط نفسه المنقوش على ألواح الطين وعلى الآجر مما نقله الرحالة إلى أوروبا من مدن العراق القديمة وعثر عليه أيضاً في أثناء التنقيبات في العواصم الآشورية كما مرَّ بنا. وسار الباحثون وفي مقدمتهم «رولنصن» و«هنكس» (Hinckes) في خطوات منطقية أولاها التخمين الصحيح أن الخط المسماري البابلي لم يكن هجائياً بل إنه مكوَّن من مقاطع (Syllables) أي إن العلامة المسمارية الواحدة تقوم مقام حرف صحيح مع حرف علة أو حرفين صحيحين بينهما حرف علة، وثانيها معرفة عدد لا بأس به من أصوات تلك العلامات، وهي العلامات التي دونت بها أسماء الملوك الفرس ولا سيما «دارا» و«احشويرش» في النصوص الثلاثية اللغة، وسرعان ما ظهرت حقيقة سهلت تقدم حلّ الرموز المسمارية تلك هي أن اللغة البابلية إحدى اللغات السامية المشابهة في لفظ مفرداتها ومعانيها لأختيها اللغة العبرانية واللغة العربية. واستطاع «رولنصن» في عام 1851 أن ينشر النص البابلي من نقوش «بهستون» بخطه المسماري وبأصواته الأصلية وترجمته. وتتابعت دراسات الباحثين الآخرين وزدادت معرفتهم باللغة البابلية بخطها

المسماري. ومع ذلك فلم تزل الشكوك تساور الرأي العام الأوروبي في صحة حلّ رموز ذلك الخط، مما حدا بالجمعية الآسيوية الملكية في لندن أن تجري امتحاناً للباحثين فقدمت في عام 1857 إلى أربعة باحثين أوروبيين نصاً مسمارياً لأحد الملوك الآشوريين صادف اكتشافه في تلك الفترة. أما أولئك الباحثون فكانوا «رولنصن» و«هنكس»، و«فوكس تالبوت» (Talbot) و«أوبرت» (J. Oppert) وطلبت من كل منهم أن يترجم ذلك النص على انفراد، ولما قورنت الترجمات الأربع بعضها ببعض في جلسة رسمية لتلك الجمعية وجد أن أولئك الباحثين الأربعة كانوا متفقين في ترجماتهم بوجه أساسي، فاطمأنت المحافل العلمية إلى صحة الطريقة التي اتبعت في حل رموز الخط المسماري. ومنذ آنذاك ولد عام جديد في تأريخ المعارف البشرية، ونعني بذلك العلم الذي يطلق عليه «علم الآشوريات» (Assyriology)، الذي صار يدرس في معاهد الغرب وجامعاته مثلما تدرس اللغات الشرقية.

اكتشاف اللغة السومرية:

أما معرفة الباحثين باللغة السومرية، وهي اللغة التي قلنا عنها في كلامنا على الأقوام القديمة إنها كانت إحدى اللغتين اللتين دونت بهما مآثر حضارة وادي الرافدين (واللغة الأخرى «الآكدية ـ البابلية») فقد تأخرت بعض الوقت من بعد حل رموز اللغة البابلية. وكان الباحثون يجدون في أثناء قراءتهم للنصوص المسمارية مفردات لغة غريبة بالإضافة إلى اللغة البابلية السامية، فوجهوا جهودهم للكشف عن أسرارها، فكانت قصة مضاهية لقصة حل رموز اللغة البابلية. ومما سهل أمر حلها أنها كانت مدونة أيضاً بالخط المسماري نفسه، وهو الخط الذي حلت رموزه على النحو الذي بيّناه سابقاً. كما أن طائفة من الكتابات المسمارية التي عثر عليها في مدن العراق القديمة كانت بمثابة معاجم لشرح مفردات اللغة السومرية وتأدية أصواتها باللغة البابلية التي أصبح الباحثون على معرفة بها. وقد سبق لبعضهم من أمثال «هنكس» (في عام 1850) أن شك في أن يكون البابليون والآشوريون (وهم من الساميين) هم الذين أوجدوا الخط المسماري، لأن من خصائص اللغات السامية أنها لا

تعنى بتأدية أصوات العلة بعلامات خاصة بل العنصر الأساسي في كتابة مفرداتها الحروف الصحيحة، وعلى هذا فمن المستبعد أن يخترع أولئك الساميون خطاً قوامه المقاطع التي تكون حروف العلة فيها العناصر الأساسية مع الحروف الصحيحة. وإلى هذا لو كان الساميون (البابليون أو الآكديون) هم الذين ابتدعوا الخط المسماري لظهرت المفردات السامية في قِيم المقاطع المسمارية الصوتية التي ترجع أصواتها إلى مفردات ليست سامية على وجه الإطلاق. وفي عام 1855 نشر الباحث «رولنصن» في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية في لندن[1] نصوصاً مسمارية غير بابلية ولا سيما النصوص المنقوشة على الآجر المختوم، الأمر الذي حفز بعض الباحثين ومنهم «هنكس» السالف الذكر على العودة إلى بحث القضية، وسار خطوات أخرى أبعد، منها اكتشافه أن تلك اللغة الثانية، غير البابلية، تتصف بكونها من نوع اللغات «الملصقة» (Agglutinative) وأورد أولى أمثلة عليها من النصوص المزدوجة اللغة (أي المدونة باللغتين البابلية والسومرية جنباً إلى جنب) مما دخل إلى حوزة المتحف البريطاني من التنقيبات البريطانية في نينوى آنذاك. وحار الباحثون كما ذكرنا في كلامنا على السومريين في الفصل الأول في تسمية تلك اللغة الغريبة، فأطلق البعض عليها اسم اللغة الـ «أشكوزية» (أو السكيثية)، وسمّاها البعض الآخر لغة آكدية، أي التسمية نفسها التي أطلقها الباحثون فيما بعد على اللغة السامية الشرقية في العراق (أي البابلية والآشورية)؛ ولكن الباحث «أوبرت» (Oppert) سمّاها بالاسم التأريخي الصحيح (عام 1869) أي اللغة السومرية، فقد وجد أن من بين ألقاب الملوك الواردة في الآجر المختوم وفي النصوص الأخرى اللقب الشهير: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد» (راجع البحث الخاص بالأقوام القديمة في العراق)، فاستنتج أن اللغة الثانية المجهولة ينبغي أن تسمى «اللغة السومرية» والمتكلمين بها «السومريون». ولكن الذي يؤسف له أن كثيراً من الباحثين آنذاك لم يأخذوا بتسميته الصحيحة، بل ظلوا يطلقون عليها

(1) Journal of the Royal Asiatic Society.

المصطلح الخاطئ «اللغة الآكدية» سنوات أخرى تلت. ومما زاد في الطين بلة أن المستشرق المعروف «هلفي» (Halevy) أنكر بالمرة وجود اللغة السومرية والسومريين، وفسر ما وجده الباحثون عنها أنها ليست سوى رموز سرية ابتدعها كهنة بلاد بابل لتدوين أسرار شعائرهم الدينية[1]، فشغل الباحثين في جدل عقيم دام فترة من الزمن إلى أن اتضحت شخصية اللغة السومرية في نهاية الأمر.

وكان معظم النصوص المكتشفة عن اللغة السومرية في تلك الفترة مقتصراً تقريباً على النصوص المزدوجة، أي المدونة باللغتين البابلية والسومرية، ولا سيما النصوص المكتشفة في مكتبة الملك الآشوري «أشور بانيبال» في نينوى، ومجموعات من الآجر المختوم وألواح قليلة مما دخل في حوزة المتحف البريطاني. ولكن تنقيبات القنصل الفرنسي «دي سارزك» في تلو (1877)، التي نوَّهنا بها في كلامنا على تأريخ التنقيبات، وضعت في متناول أيدي الباحثين ألوفاً كثيرة من النصوص السومرية الصرفة التي يرجع عهدها إلى ما يسمى في تأريخ حضارة وادي الرافدين بعصر فجر السلالات (الألف الثالث ق.م)، ويرجع بعضها إلى عصر سلالة «أور» الثالثة، في حدود 2200ق.م. كما كشفت التنقيبات التي أجرتها البعثة الأثرية الأمريكية في «نفر» عن مجاميع مهمة من النصوص السومرية أيضاً، وكذلك ما وجده المنقبون الألمان في موضع «فارة» (مدينة شروباك القديمة) (1902ـ1903). كل هذه النصوص وغيرها مما استخرج من المواضع الأخرى أقامت معرفة الباحثين باللغة السومرية على أسس سليمة وطيدة.

طور التنقيبات العلمية (القرن العشرون):

نستأنف مواصلتنا لقصة التنقيبات عن حضارة وادي الرافدين بعد أن توقفنا لنوجز كيفية حل رموز الخط المسماري. وكنا قد وقفنا في تتبعنا لسير

---

(1) عن حل اللغة السومرية انظر المرجع رقم (2) من الهامش رقم (10)، وراجع أيضاً:
Kramer. *Sumerian Mythology* (1946).

التنقيبات عند بدء التنقيبات الألمانية في مدينة «بابل»، تلك التنقيبات المنتظمة التي جعلناها فاتحة طور التنقيبات العلمية عن آثار حضارة وادي الرافدين. ويتميز هذا الطور أن التنقيبات فيه، بالإضافة إلى تفادي الأخطاء السابقة التي نجم عنها الكثير من الأضرار بالآثار وضياع الكثير من الدلالة الأثرية، لم تقتصر كما في الأطوار السابقة على مجرد استخراج الآثار المتحفية والمنحوتات الكبيرة لعرضها في المتاحف، بل أخذ المنقبون يولون عنايتهم في التزام منهج علمي في التنقيبات، وفي مقدمة ذلك تسجيل ما يسمى بالطبقات الأثرية أي الأدوار البنائية، ورسم مخططاتها وأخذ تصاويرها الفتوغرافية وتسجيل كل ما يصاحب الآثار من دلالة أثرية وربطها بالطبقة البنائية التي يعثر عليها فيها، والعناية الدقيقة باستخراج الآثار الدقيقة، ومعالجتها وتقويتها إبان العثور عليها في موضع التنقيبات، ونشر التقارير العلمية عن نتائج تنقيبات كل موسم، بالإضافة إلى النشرة النهائية من بعد انتهاء التنقيبات في الموضوع الأثري. واقتضى اتباع هذه الطرق العلمية أن بعثات التنقيب لم تعد مؤلفة من الهواة بل ظهرت أنواع الاختصاص الأثري المختلفة وتنوعت في مواضيعها، فصارت بعثات التنقيب الموفدة من جانب الجامعات والمؤسسات العلمية تتألف من عدة أعضاء من ذوي الاختصاصات المختلفة منهم رئيس البعثة والمهندس المعماري والرسام والمصور والمسجل (لتسجيل الآثار) والمختص بقراءة الخطوط المسمارية وغيرهم. وازداد تنوع اختصاص أفراد البعثة الأثرية في السنوات القليلة الماضية، فصار يشمل الجيولوجي والأنثروبولوجي (لدرس الهياكل العظمية) والمختص بعظام الحيوانات والعالم النباتي. وصرنا بفضل اتباع الأساليب العلمية الحديثة في التنقيبات نعرف ما يمتاز به كل دور من أدوار حضارة وادي الرافدين، من بين ذلك معلومات ثمينة عن فن العمارة وخطط المعابد والقصور ودور السكنى وخطط المدن، بالإضافة إلى ما يتميّز به كل دور من الآثار المادية والفنية المختلفة، إلى غير ذلك من الأمور التي أغفلها المنقبون الأوائل.

بدأ دور التنقيبات العلمية كما قلنا منذ التنقيبات الألمانية في بابل

(1889ـ1917) واستمر في تحسن وتقدم مطردين، منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا. وبالإمكان تقسيمه إلى أطوار ثانوية يتميّز كل منها، بالإضافة إلى تقدم أساليب التنقيبات، بنوع البحث الذي وجه إليه الباحثون اهتمامهم للوقوف على أدوار معينة من تأريخ حضارة وادي الرافدين والبحث فيه. فالدور الأول الذي يمكن تحديد نهايته في الحرب العالمية الأولى اقتصرت فيه تحريات المنقبين على التنقيب في المدن الكبيرة المشهورة كالعواصم وعلى الأدوار التأريخية المشهورة التي أعقبت عصور ما قبل التأريخ. أما الدور الثاني، الذي يمكن وضع بدايته من بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فيتميز باتساع أعمال التنقيبات وتقدم أساليبها أكثر فأكثر، وشملت بالإضافة إلى المدن القديمة المشهورة مواضع أخرى ترجع آثارها إلى عصور أقدم من عصر نضج الحضارة في وادي الرافدين، فتناولت عصور ما قبل التأريخ والمراحل الأولى التي سبقت ظهور الحضارة الناضجة في مطلع الألف الثالث ق.م. ولعله يمكن جعل الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية بداية دور ثالث من طور التنقيبات العلمية، ازداد فيه الاهتمام بتتبع الأطوار القديمة في تأريخ حضارة وادي الرافدين، ولا سيما أصولها وأسسها في عصور ما قبل التأريخ، كما اتسعت دراسات الباحثين في تفسير أصول تلك الحضارة وتحديد أزمان أدوارها وعهودها (Chronology)، واستعان الباحثون في السنوات الحديثة بمعطيات العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء الذرية لتحديد أزمان الأدوار الحضارية المختلفة مما سنتطرق إليه في القسم الثالث من هذا الفصل. ونظمت العلاقات ما بين بعثات التنقيب الأجنبية وبين مديرية الآثار العراقية، ولا سيما من بعد تشريع قانون خاص بالآثار (1936)، بالإضافة إلى إشراف موظفي الآثار العراقيين على هيئات التنقيب الأجنبية، وتوفر ذوو الاختصاص في الآثار من العراقيين ممن درس علم الآثار في الجامعات الغربية (منذ 1938). وازداد عددهم في السنوات الأخيرة. ودخل العراق الحديث منذ عام 1936 وبوجه خاص منذ 1938 ميدان التحريات الأثرية على أيدي الاختصاصيين من مديرية الآثار. وقد سبق أن شرع في تأسيس المتحف العراقي منذ عام 1924، وصار

ينمو ويتسع بما كان يدخل إليه من آثار عن طريق تنقيبات البعثات الأثرية الأجنبية، وأكمل بناء المتحف الجديد (في الصالحية) في الستينات وتم افتتاحه رسمياً في عام 1966.

ولما كان يتعذر تفصيل القول في نتائج بعثات التنقيب المختلفة التي صارت تؤم العراق منذ نهاية القرن التاسع عشر، فنكتفي بمجرد تعداد أسمائها، وسترد الإشارات الكثيرة إلى نتائج أعمالها مع المراجع الأساسية عن الموضوع:

1 ـ تحريات «المتحف البريطاني» على يد «هرمز رسام» في مدينة «سبار» (أبو حبة الآن، على بعد نحو 20 ميلاً جنوب غربي بغداد) (1880ـ1882) ثم تحريات الأب شايل (Scheil) في 1894 وأندريه ويوردان الألمانيين في 1927.

2 ـ البعثة الألمانية في بابل برئاسة الأستاذ «روبرت كولدواي» (Robert Koldewey) من جانب «الجمعية الشرقية الألمانية» (Deutsche Orient-Gessellschaft) (1899ـ1917).

التقارير المفصلة في المرجع المرموز له: WVDOG, 55, 54, 48, 47, 23.

وكذلك خلاصة النتائج في: Koldewey, *The Excavations of Babylon*, Unger, *Babylon;* RLA, I.

3 ـ البعثة الأثرية الأمريكية «جامعة بنسلفانية» في نفر (1888ـ1900) واستئناف التحريات من جانب جامعة شيكاغو وجامعة بنسلفانية (1948ـ1966) برئاسة «مكون» ثم هاينس (Heines) وغيرهما.

4 ـ التحريات الألمانية في تل «فارة» (شروباك القديمة) نحو 40 ميلاً جنوب شرقي الديوانية (1902ـ1903)[1]، وتحريات جامعة بنسلفانية الأمريكية (1930)[2].

---

(1) انظر: Heinrich, Andrea, *Fara*. (1931).

(2) Schmidt, in *Museum Journal*, (1931).

5 ـ البعثة الألمانية في آشور (قلعة الشرقاط) (1903ـ1914) برئاسة «ولتر أندريه» (Walter Andrae).

انظر الخلاصة في: W. Andrae, *Das Wiederestandene Assur* (1938).

6 ـ البعثة الألمانية برئاسة «فون أوبنهايم» (Von Oppenheim) في تل حلف (مدينة كوزانا القديمة بالقرب من منابع الخابور) (1911ـ1913، 1928). Von Oppenheim, *Der Tell Halaf* (1931 & 1943).

7 ـ التحريات الأمريكية (جامعة شيكاغو في تل «بسمي» (أدب القديمة) على نحو (16) ميلاً شمال تل فارة) (1903ـ1904) برئاسة «بانكس» Banks, *Bismya, or the Lost City of Adab* (1912).

8 ـ التحريات الأثرية الفرنسية في كيش (تلول الأحيمر بالقرب من بابل) في عام 1911 برئاسة «دي جنواك» (De Genouillac) واستئناف التنقيبات من جانب بعثة بريطانية ـ أمريكية (1923ـ1930) برئاسة «لنگدون» (langdon)، وتحرت البعثة كذلك الموضع المسمى «جمدة نصر» (1925) الذي سمي به الطور الحضاري الذي سيأتي الكلام عليه في الفصل الثالث.

انظر:

De Genouillac, *Fouilles Françaises d'el-Akhymer* (1924-25).
Watelin and Langdon, *Excavations at Kish.* 4vols, (1924-1934).
Mackay, *Report on Excavations at Jemdet Nasr* (1931).

9 ـ التحريات الألمانية في سامراء الإسلامية (1911ـ1914) برئاسة الأستاذ «هرتسفيلد» Hertzfeld, *Die Ausgrabungen von Samarra.*

10 ـ البعثة الأثرية «البريطانية ـ الأمريكية» المشتركة في مدينة «أور» برئاسة الأستاذ «وولي» طوال اثني عشر موسماً (1919، ثم من عام 1922 إلى 1934) Woolley, *Excavations At Ur* (1954).

والنشرات المفصلة، وخلاصة ذلك في المراجع المرموز له بـ AM، والمراجع المذكورة في الهامش رقم (9) من هذا الفصل.

11 ـ التحريات الفرنسية في مدينة «لارسة» (السنكرة، على بعد نحو 40كم شمال غربي الناصرية) برئاسة الأستاذ «بارو» (1931ـ1934) واستئناف التنقيب (1967ـ1970)[1].

واستئناف متحف اللوفر التنقيبات في منطقة تلو برئاسة «بارو» (1929ـ1930) (Parrot, *Tello*, 1948).

12 ـ التحريات الأثرية في نوزى (يورغان تبة بالقرب من كركوك، نحو ٨ أميال إلى الجنوب الغربي) من جانب مدرسة الدراسات الشرقية الأمريكية (1925ـ1931).

R. F. Starr, *Report on the Excavations at Yorgan Tepe,* (1937-9).
C. H. Gordon, *Adventures in the Near East* (1957), pp. 105ff.

13 ـ البعثات الأثرية لجامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) في منطقة ديالى: تل أسمر وخفاجى واشجالى وتل أجرب (1930ـ1937) برئاسة الأستاذ «هنري فرنكفورت» (H.Frankfort)[2]. وفي خرسباد موضع عاصمة الملك الآشوري سرجون المسماة «دور ـ شروكين» برئاسة الأستاذ «لود» (1930ـ1935) (Loud, *Khorsabad* (1936-8).

14 ـ التنقيبات الألمانية في الوركاء من جانب «الجمعية الشرقية الألمانية» برئاسة «يوليوس يوردان» (J. Jordan) (1928ـ1931) ثم برئاسة

---

(1) حول التنقيبات في العراق راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *RLA*, I, (Ausgrabungen).

(2) W. Budge, *Rise and Progress of Saayriology* (1925).

(3) S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).

(4) S. Lloyd, *Mounds of the Near East* (1962).

(5) A. Parrot, *AM*, I, II.

(6) G. Contenau, *Manuel D'Archeologie Orientale.* 4 vols. (1927-47).

(2) انظر المراجع المرموز لها:

AM. OIP, Xliv; LIII; LVIII; Lx; LxxII.

«نولدكه» (Nöldeke) (1931ـ1939) ثم «لنزن» (1953ـ1964) ثم «شمدت» (Schmidt) إلى الوقت الحاضر (1973). واستئناف التحريات في بابل (منذ 1960) في قاعدة البرج، والتحري عن معبد رأس السنة «بيت آكيتو» (1971ـ1972) (حول نتائج التنقيبات في الوركاء انظر التقارير المفصلة في المرجع المرموز له بـ UVB من 1928 إلى 1939 ثم من عام 1953 حتى الآن).

15 ـ التنقيبات الأمريكية (جامعة بنسلفانية) برئاسة الأستاذ «سبايزر» في «تبه كورا» (قرب الموصل) (1931ـ1938).

A. J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra* (1950).

16 ـ التنقيبات الفرنسية في «ماري» (تل الحريري بالقرب من البوكمال) برئاسة الأستاذ «بارو» (1933ـ1939) ثم استئناف التنقيب منذ 1950 انظر: AM, I. II وكذلك:

Parrot, Massion Archeologique de Mari.

17 ـ التنقيبات البريطانية (المدرسة الآثارية البريطانية في العراق) في نينوى (1931ـ1932).

(انظر المراجع المذكورة في الهامش رقم 9 ومجلة:

Annals of Archaeology and Anthropology, (1934).

وفي الأربجية قرب الموصل في 1935 (Iraq, 1936) وفي تل «جغار بازار» (Iraq, III) وفي نمرود (كالح القديمة) (1949ـ1961) (مجلة Iraq). وفي تل الرماح (بالقرب من تل أعفر) (1964ـ1971).

18 ـ التنقيبات اليابانية في تلول «الثلاثات» (بالقرب من سنجار) برئاسة الأستاذ «ايگامى» (Namio Egami) من جامعة طوكيو (1956ـ1957 و1964).

19 ـ البعثة الأثرية الأمريكية (جامعة شيكاغو) في تل «الهباء» (موضع المدينة القديمة لجش، بالقرب من الشطرة) (1968 ثم من 1970 حتى الآن) وفي تل «أبو صلابيخ» (منذ 1963) .Biggs in *JCS* (1965).

20 ـ البعثة الأثرية السوفيتية برئاسة الأستاذ «منجايف» (Rauf Munchaev) في التل المسمى «يارم تبة» (جنوب غربي تل أعفر بنحو 5كم) (منذ عام 1968 حتى الوقت الحاضر) (انظر مجلة سومر المجلد 25 و26).

21 ـ البعثة الإيطالية برئاسة الأستاذ «گولينو» (Gullino) من جامعة «تورنتو» في سلوقية (كان موسمها الرابع في 1966ـ1967 والثامن 1971 إلى 1972).

22 ـ تنقيبات البعثة الألمانية من جامعة ميونخ في «أيسن» (إيشان بحريات) في عام 1973 (الموسم الأول).

23 ـ تحريات خاصة بعصور ما قبل التأريخ[1]:

أ ـ تحريات الباحثة الأمريكية «گارود» (Garrod) في كهفي «زرزي وهزار مرد» في منطقة السليمانية (1928)[2].

ب ـ تنقيبات جامعة شيكاغو في تل «جرمو»، برئاسة الأستاذ «بريدوود» (Braidwood) (1948ـ1955)، وفي تل مطارة (بالقرب من كركوك 1948)، وتحريات الباحث المذكور مع «هاو» (Howe) في المنطقة الشمالية (1951ـ1955).

ج ـ تنقيبات جامعة «مشيغن» الأمريكية ثم المعهد «السمشوني» في كهف «شانيدر» و«زاوى جمى» برئاسة الأستاذ «سوليكي» (1951 ـ 1961).

د ـ تحريات البعثة «الدنيمركية» في تل «شمشارة» (1957) برئاسة

---

(1) حول التنقيبات في العراق راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *RLA*, I, (Ausgrabungen).

(2) W. Budge, *Rise and Progress of Saayriology* (1925).

(3) S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).

(4) S. Lloyd, *Mounds of the Near East* (1962).

(5) A. Parrot, *AM*, I, II.

(6) G. Contenau, *Manuel D'Archeologie Orientale*. 4 vols. (1927-47).

(2) حول خلاصة التحريات الخاصة بعصور ما قبل التأريخ، انظر الفصل الثالث.

الأستاذ «انگهولت» (Ingholt) ثم مواصلة العمل من جانب مديرية الآثار العراقية (1958 ـ 1959) (انظر الفقرة 24).

24 ـ تنقيبات مديرية الآثار العراقية:

أ ـ تحريات واسط (1936 ـ 1940) (مجلة سومر، ونشرة واسط بالإنجليزية).

ب ـ تل الدير (1940 ـ 1941) (مجلة سومر 1945) استئناف التنقيبات من جانب البعثة البلجيكية جامعة غنت من 1968 إلى الوقت الحاضر.

جـ ـ تل العقير (1940 ـ 1941) .*JNES*, II, (1943).

د ـ تل حسونة (1943 ـ 1944) .*JNES*, IV, (1945).

هـ ـ عقرقوف (دور ـ كوريگالزو) (1943ـ1945) (Iraq, 1944-64) ثم من عام 1960 حتى الوقت الحاضر (تحريات وصيانة).

و ـ الحضر تحريات وصيانة منذ 1950 (انظر مجلة سومر).

ز ـ اريدو (أبو شهرين) (مجلة سومر 1950، القسم الإنجليزي).

ح ـ تل حرمل (1945 ـ 1961) وتل الضباعي (1960 ـ 1961).

ط ـ تل الصوان (بالقرب من سامراء) (من 1964 إلى الوقت الحاضر).

ي ـ تل قالينج آغا (نحو كيلومتر واحد جنوب قلعة أربيل) (من 1968 إلى الآن، انظر مجلة سومر).

ك ـ عدة تحريات في سهل «بتوين ـ رانية» لإنقاذ الآثار من مشروع «دوكان» في جملة مواضع مثل تل الديم وباسموسيان، وكمريان، وقوره شينا وشمشارة (1954 ـ 1961) وكذلك التحريات في سهل شهرزور من جراء مشروع دربندی خان مثل بكر آوه وغيره (1960 ـ 1961) (انظر مجلة سومر).

ل ـ التحريات في تل أسود الواقع على بعد نحو 29كم شمال غربي الرمادي على الجهة اليسرى من الفرات، وقد أظهر موسم تنقيبات عام 1971ـ1972 بقايا من عصر فجر السلالات وعهد سلالة أور الثالثة.

ثالثاً: تسلسل الأدوار التأريخية وتحديد أزمانها:

إن التنقيبات التي تتبعنا نشوءها وتطورها منذ بدايتها في منتصف القرن الماضي إلى حال التأريخ قد وضعت في أيدي الباحثين والمؤرخين المادة الأولية والمصادر الأصلية لمعرفة حضارة وادي الرافدين بجميع أوجهها ومقوماتها منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى آخر عهودها التأريخية. ولكن كثيراً ما يتساءل الناس: ترى كيف استطاع الباحثون أن يضبطوا أدوار هذه الحضارة، من ناحية تسلسل هذه الأدوار وتحديد أزمانها بالنسبة إلى عهد ثابت متخذ في تأريخ الحوادث مثل العهد الميلادي؟ إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تكون ما يصح أن نطلق عليه «التقويم» أي ضبط تسلسل الأدوار التأريخية وتحديد أزمانها (Chronology). وسنحاول إيجاز هذا الموضوع بوجه ميسر يسهل فهمه بالنسبة لغير المختصين، وهو مقدمة ضرورية لفهم ما سنتكلم عنه من أدوار حضارة وادي الرافدين في الفصول الآتية.

1 ـ التسلسل النسبي للطبقات الأثرية. كيف تنشأ الأطلال الأثرية:

المواقع الأثرية أو الأطلال الأثرية كانت في أصلها قرى أو مدن قديمة. فالمعروف أن الناس كانوا وما زالوا يعيشون في البقعة الواحدة عدة أجيال متعاقبة. وسواء كانت دور سكناهم مبنية من الطين أم من «اللبن» أم من الآجر فإنها لا بدَّ وأن تتداعى بمرور الأزمان. وبعد استنفاد ترميمها عدة مرات تشيد بيوت جديدة فوق بقايا جدران البيوت القديمة بعد تسويتها للإفادة منها كأسس للبيوت الجديدة. وهكذا ترتفع أماكن السكنى بمرور الأزمان وتكون تلاً أو مرتفعاً اصطناعياً يمثل أدواراً كثيرة من السكنى المتعاقبة. وبالإضافة إلى الألوف الكثيرة من التلول الأثرية المنبثة في جميع أرجاء العراق، فإن خير ما يشاهده المرء الآن قلعة كركوك القديمة التي هي في واقع الأمر تل اصطناعي تكوَّن من تراكم طبقات السكنى المتعاقبة لعله منذ منتصف الألف الثالث ق.م إلى الزمن الحاضر، حيث دور السكنى الحديثة فوق قمة التل وتحتها أسس جدران لبيوت من العهد العثماني وتحت هذه أنقاض سكنى من أدوار أقدم،

وهكذا إلى قعر التل حيث بقايا أول استيطان في الموضع وهي تقوم فوق ما يسمى في علم الآثار بالأرض البكر (Virgin Soil)، والمثال الثاني رابية قلعة أربيل التي نشأت أيضاً من تراكم أدوار متعاقبة من السكنى. إن مثل هذه التلول بمثابة سفر متكامل تبدأ فصوله الأولى منذ أول دور من أدوار الاستيطان فيه إلى الفصل الأخير فوق سطح التل بعد أن يهجر الموضع.

وهناك عوامل كثيرة لترك مواضع السكنى القديمة والانتقال إلى أماكن جديدة، وهي تختلف باختلاف المواضع. فمن بين هذه العوامل أن موضع السكنى إذا ارتفع ارتفاعاً كبيراً بسبب تراكم بقايا السكنى بعضها فوق بعض تركه السكان وسكنوا في موضع جديد. ومنها انقطاع موارد المياه مثل جفاف الآبار والعيون وأهم من ذلك تغيير مجاري الأنهار التي شيّدت فوق ضفافها تلك المستوطنات. وقد سبق أن نوَّهنا بهذه الظاهرة في كلامنا على جغرافية العراق، ومثَّلنا على ذلك بالتلول الكثيرة التي كانت تقع يوماً ما على مجاري الأنهار القديمة. ونذكر أيضاً انتقال الطرق التجارية التي كان مرورها من بعض المواضع السبب في نشوء بعض المستوطنات، ومنها تدهور الأراضي الزراعية وحاصلاتها من جراء انتشار الملوحة في التربة أو شح المياه والآفات الطبيعية الأخرى مثل التدمير والحريق الناجمين عن الحروب.

2 ـ معنى الطبقة الأثرية والدور الحضاري:

كثيراً ما نكرر ورود مصطلح «الطبقة الأثرية» و«الدور الحضاري»، وسنستعملهما مراراً في كلامنا على أدوار حضارة وادي الرافدين ولا سيما في الفصل المخصص لعصور ما قبل التأريخ. ولأن فهم هذين المصطلحين جزء من الموضوع الذي بين أيدينا، أي ضبط تسلسل الأدوار التأريخية، فينبغي شرح مفهومهما في عرف المنقبين والباحثين. يمكن تعريف الطبقة الأثرية (Level) أو (Stratum) بأنها دور بنائي أو دور سكني (Building Level) سواء كان البناء من جدران وتباليط (Pavement) تابعة لها، أم من أرضيات ترابية أو طينية مدكوكة مما يبقى من سكنى الإنسان في الخيام أو الأكواخ أو الملاجئ الجبلية

أو الكهوف، ولا سيما في عصور ما قبل التأريخ البعيدة. وإلى ذلك يوجد ما يصطلح عليه بالطبقة الأثرية الثانوية، وهي دور بنائي ينشأ من التغييرات أو التجديدات في البناء مثل إزالة بعض جدرانه وتجديد البعض الآخر منها أو تجديد تبليطه أو إضافة بعض الأجزاء والمرافق الجديدة. أما الدور الحضاري (Cultural Period) فإنه حقبة زمنية قد تدوم بضعة قرون وتتألف في الموضع الأثري من عدة طبقات أثرية، وتتميز بآثارها الخاصة وطرزها المعمارية المميزة وأوانيها الفخارية، أي إنها تمثل جملة خصائص حضارية في تأريخ القطر المبحوث في حضارته، وتتضمن تبدلات ثقافية مثل الاختراعات الجديدة. وقد يكون الدور الحضاري مصحوباً بتغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية. وسيمر بنا في كلامنا على عصور ما قبل التأريخ في العراق كيف يمثل الدور الحضاري في المدن القديمة بعدة أدوار بنائية. فمثلاً كشف في الوركاء عن ثمانية عشر دوراً بنائياً تتوزع على أربعة أدوار أو عصور حضارية رئيسية منذ أقدم عهود الاستيطان في دور العبيد ثم دور الوركاء وجمدة نصر وعصر فجر السلالات. والباحثون الآن في وضع يستطيعون معرفة الدور الحضاري بمجرد فحص آثار قليلة منه، وأكثر من هذا يستطيع الفاحص للملتقطات السطحية فوق التلول الأثرية ولا سيما كسر الفخار أن يعين أبرز أدوار الموضع الأثري قبل التنقيب فيه.

3 ـ تسلسل الطبقات الأثرية وتحديد أزمانها بوجه تقريبي:

من البديهي أن تكون الطبقة الأثرية السفلى وما يعثر عليه فيها من آثار وأبنية أقدم زمناً من الطبقة التي تليها إلى الأعلى. وقد سبق أن شبهنا التلول الأثرية المؤلفة من عدة طبقات بنائية متسلسلة في أزمانها بأنها مثل الكتاب المنضد الصفحات. وقبل أن نعدد أشهر الطرق التي يستعان بها في تحديد أزمان هذه الطبقات والدور الحضاري المؤلف منها ننوّه بأن الباحث الأثري يستطيع أن يخمن عدد السنين التي تستغرقها هذه الطبقات بوجه تقريبي، إذ يتعذر وضع قواعد ثابتة لأن الفترات الزمنية التي تدوم فيها الطبقات الأثرية تختلف باختلاف الأقطار وباختلاف مادة البناء وجودة البناء. فالبناء المشيد

بالحجر مثلاً أطول عمراً من بناء الآجر ولا سيما الآجر الرديء النوع؛ وجدران الآجر بدورها تدوم زمناً أطول من عمر بناء اللبن (الآجر غير المفخور أو غير المشوى)، وبناء اللبن يعمر أكثر من بناء الطين، كما في أكواخ الطين من عصور ما قبل التأريخ. وتؤثر عوامل المناخ من رطوبة وجفاف في عمر الطبقة البنائية المشيّدة باللبن. وجرى العرف الأثري على تخصيص زمن جيل واحد (أي في حدود 20 ـ 30 سنة) لعمر بناء اللبن والطين، أما أبنية الحجارة والآجر فتعمر أزماناً أطول قد تصل في بعض الحالات إلى قرن من الزمان وبضمن ذلك أدوار التجديد الثانوية.

وفي حالة عصور ما قبل التأريخ، ولا سيما تلك التي لم يعرف فيها الإنسان بناء البيوت بل كان يعيش كما قلنا في المغاور والكهوف والأكواخ، تكون أعمار الطبقات الأثرية فيها مقتصرة على تقدير ثخن الأنقاض التي تتجمع وتتراكم من سكنى الإنسان في مثل تلك المواضع، ويختلف تقدير أعمار هذه الطبقات من قطر إلى آخر. ففي التحريات الأثرية التي أجريت في الهند والباكستان مثلاً قدر عمر طبقة ثخنها خمسة أقدام بأنه استغرق من عام 50ق.م إلى 200 ميلادي، أي زهاء (250) عاماً، وفي موضع آخر قدر عمر طبقة أثرية ثخنها (6ـ9) أقدام بحوالي القرنين من الزمان.

ونختار من الأمثلة على تقدير أزمان الطبقات الأثرية الطريقة الطريفة التي قدرت بها أدوار معبد الإله «سين» في الموضع المسمى «خفاجى»[1] (منطقة ديالى)، فقد سجلت لهذا المعبد عشرة أدوار بنائية أساسية تبدأ من دور «جمدة نصر» في حدود 3100 أو 3000ق.م وتنتهي قبيل العصر الآكدي في حدود 2400ق.م. وقدر عمر المعبد السابع بأسلوب بارع في حساب مقدار ارتفاع الأنقاض وربطها بعدد «التماليط» (Plastering) التي ملطت بها جدران ذلك المعبد وقدرها (16) مرة أي (16) قشرة أو طبقة من الملاط. وعلى فرض أن

---

(1) من المواضع المهمة التي تحرتها بعثات التنقيب الأمريكية (المعهد الشرقي، جامعة شيكاغو) في منطقة ديالى. وسيرد الكلام عليه في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات. انظر: *OIP*, (1942), 6ff.

الملط كما هو متعارف عليه في العراق كان يتم في كل عام، فيكون زمن هذه التماليط (16) عاماً، ويقابل ذلك ارتفاع أرضية المعبد عند مدخله بمقدار (12) سم، ولكن تبليط المعبد في داخله ارتفع (75) سم. فإذا كان ارتفاع (12) سم قد حدث في خلال (16) عاماً فإن ارتفاع 75سم يكون قد استغرق زهاء المائة عام. وبموجب هذا الحساب التقريبي أمكن تقدير أدوار المعبد السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر، وهي المعابد التي شغلت أطوار عصر فجر السلالات الأول والثاني والثالث التي قدرت مدتها الكلية ما بين (600) و(500) عام. وبما أن المعبد العاشر، وهو المعبد الأخير، قد هجر وترك استعماله قبيل بداية السلالة الآكدية في حدود 2370ق.م، فتقدر بداية عصر فجر السلالات السالف الذكر في حدود 2900 أو 2800ق.م.

وبالاستعانة بمضاهاة الأختام الإسطوانية من دور جمدة نصر للأختام التي استعملت في مصر في الدور المسمى «نقادة» الثاني الذي حدد زمنه قبيل 3100ق.م، أمكن أيضاً تحديد بداية دور جمدة نصر في العراق في حدود هذا التأريخ، وتقدير دور الوركاء الأخير (الطبقة الخامسة في الوركاء) في حدود 3500 ق.م.

4 ـ الاستعانة بمعطيات بعض العلوم الطبيعية:

كنا قد نوَّهنا في أثناء عرضنا لتأريخ التنقيبات بأن ما يميّز التنقيبات العلمية الحديثة استعانتها بطائفة من الاختراعات التي توصلت إليها العلوم الطبيعية مثل الكيمياء والفيزياء الذرية والجيولوجيا وغيرها، في تحديد أزمان أدوار التأريخ وما قبل التأريخ بالنسبة إلى عهد ثابت مثل العهد الميلادي. ونعدد فيما يلي أشهر هذه الطرق التي طبقت بنجاح لا بأس به في هذا المجال[1].

---

(1) ندرج المرجعين الأساسيين عن الموضوع:

(1) Zeuner, *Dating the Past*, (1958).

(2) *Science on Archaeology*, (Second ed., 1969), section I.

1 ـ البقايا الجيولوجية:

يستعان بالمواد الجيولوجية مثل عظام الحيوانات القديمة وبقايا النباتات المتحجرة وغير المتحجرة والطبقات الصخرية الجيولوجية في تحديد تأريخ الآلات والأدوات الحجرية من عصور ما قبل التأريخ مما يعثر عليه في الطبقة الأثرية الجيولوجية، ولا سيما أدوات العصر الحجري القديم الذي يقع زمنه في دهر البلايستوسين، وهو آخر الدهور الجيولوجية قبل نحو مليون عام، ومع قصر هذا الدهر الجيولوجي بالمقارنة مع الدهور الجيولوجية السابقة المتناهية الطول، بيد أن أنواعاً وفصائل حيوانية ونباتية عاشت فيه ولكن انقرض بعضها. وقد عاش البعض منها في النصف الأول منه والبعض الآخر في النصف الثاني بحيث صارت عظام مثل تلك الحيوانات المنقرضة وكذلك بقايا النباتات مما يعثر عليها مع الأدوات الحجرية من العصر الحجري القديم تستخدم لتحديد أزمان هذه الأدوات. وبعبارة أخرى يستفيد الباحث الأثري من بقايا الحيوانات والنباتات القديمة أي ما يسمى (Palaeontology) في تحديد أدوار ما قبل التأريخ البعيدة. ويدخل في هذا الموضوع ما يستنتج عن أحوال المناخ في تلك العصور من دلالة الأنواع النباتية والحيوانية، وتشخيص عظام الحيوانات التي يعثر عليها المنقبون أيضاً هل كانت حيوانات وحشية أو مدجنة. وسنتطرق في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ إلى الإفادة من ظاهرة العصور الجليدية والفترات الفاصلة ما بينها، وبما يقابلها من عصور ممطرة وجافة في الشرق الأدنى في تحديد أزمان الأدوات الحجرية وبوجه خاص أدوات العصر الحجري القديم.

2 ـ النظائر أو العناصر المشعة:

ومن الطرق العلمية الحديثة التي طبقت حديثاً في تحديد أزمان المواد الأثرية الظاهرة التي تعرف بمصطلح النظائر (Isotopes) أو العناصر المشعة (Radio-Active)، أي وجود عدة أشكال للعنصر الواحد ذات أوزان ذرية

مختلفة[1]، والعادة في هذه النظائر أنها غير ثابتة، لأن ذراتها مشعة فتتحول إلى عناصر أخرى.

ومن العناصر المشعة التي استخدمت في تحديد أزمان العصور التأريخية شكل من أشكال «الكاربون» يختلف عن الكاربون الاعتيادي في أن وزنه الذري 14 في حين أن الوزن الذري للكاربون الاعتيادي 12، ولذلك عرف باسم «كاربون ـ 14». وكان أول من طبق استخدام «الكاربون ـ 14» (C14) في تحديد أزمان الآثار العالم الطبيعي «لبي» (Libby) من جامعة شيكاغو منذ عام 1948، وتبعه باحثون آخرون، وما زال البحث فيها وتحسينها جاريين حتى الآن. وبالنظر إلى أهمية هذه الطريقة والآمال التي يعلقها عليها الآثاريون فإنه من المفيد أن نوجزها، فنقول إن الأشعة الكونية (Cosmic Rays) الآتية من خارج الجو الأرضي تولد بتفاعلها مع نايتروجين (آزوت) الأرض نوعاً من الكاربون المشع، هو الذي ذكرناه باسم «كاربون ـ 14» الذي قلنا إنه نظير الكاربون الاعتيادي. وإن هذين النوعين من الكاربون موجودان في ثاني أوكسيد الكاربون في الأجواء الأرضية بنسبة ثابتة تقدر بنحو واحد من البليون من «كاربون ـ 14» لكل غرام واحد من «كاربون ـ 12» الاعتيادي. وتمتص ثاني أوكسيد الكربون المحتوي على هذين النوعين من الكاربون الأجسام الحية (الأجسام العضوية) وخاصة النباتات، ولكنه يدخل أيضاً في بناء أجسام الحيوانات عن طريق غذائها بالنباتات. وتبقى نسبة الكميتين لهذين الشكلين من الكاربون ثابتة في الأجسام الحية ما دامت على قيد الحياة، ولكن متى ما مات العضو الحي توقفت عملية امتصاص الكاربون. وبما أن «الكاربون ـ 14» عنصر مشع كما ذكرنا فيبدأ بالإشعاع من جسم العضو الميت وتتناقص نسبة وجوده بمرور الأزمان إلى أن يتلاشى حيث يتحول إلى عنصر النايتروجين، في حين أن الكاربون الاعتيادي ذا الوزن الذري 12 يظل ثابتاً. وقد وجد أن

---

(1) النظير (Isotope) شكل من أشكال العنصر الواحد التي لها أعداد متساوية عن البروتونات والإلكترونات في نوى ذراتها، ولكنها تحتوي على أعداد مختلفة من النيوترونات، ولذلك فهي متساوية في أعدادها الذرية ولكنها مختلفة في أوزانها الذرية (Atomic Weight).

تناقص وزن النوع الأول من الكاربون (C14) يسير على نسب منتظمة، فإنه يفقد نصف وزنه في مدى كل (5600) عام أو 5750 عام، أي ما يسمى بدورة «نصف العمر» (Half life cycle) في ظاهرة العناصر المشعة، وبعد مضي هذه الدورة يفقد نصف الوزن المتبقي إلى أن يتحول إلى عنصر النايتروجين كما ذكرنا. ويمكن قياس ما يتبقى منه في المادة العضوية الميتة بواسطة جهاز كهربائي حساس (جهاز (Geiger)).

ولهذا فلو أننا جمعنا كمية من المواد العضوية مما نجده في طبقة أثرية معينة، مثل بقايا العظام أو الفحم أو الخشب أو المحار أو البواري والحصر، وأجريت عليها في المختبر عمليات كيميائية خاصة مثل حرقها وتطهيرها من شوائب المواد الغريبة ثم قيس ما بقي فيها من الكاربون ـ 14 لأمكن تحديد الزمن الذي ماتت فيه تلك المواد العضوية، أي الزمن الذي استعملها الإنسان في ذلك الدور الأثري، وتحديد زمن هذا الدور أو الطبقة الأثرية. وبالنظر إلى قلة نسبة الكاربون ـ 14 في المواد العضوية وضرورة إجراء العمليات الكيماوية التي نوَّهنا بها فيلزم تزويد المختبرات الخاصة بهذه الطريقة بكميات مناسبة من المواد العضوية الأثرية تتراوح ما بين 65 و700غرام: 65غراماً إذا كانت فحماً و200 غرام في حالة البقايا النباتية الأخرى كالخشب والحبوب والحصر ونحو 700 غرام في حالة العظام والمحار(1).

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن هذه الطريقة بذكر بعض نقائصها وعيوبها ومجالات تطبيقاتها. فأولاً إنها حديثة الاستعمال ولكنها في تطور وتحسن، ثم إن صغر نسبة الكاربون ـ 14 الموجود في المواد العضوية وكذلك دورة «نصف العمر» القصيرة يجعلان المدى الذي تستعمل فيه هذه الطريقة لا يتعدى أبعد من 50,000 أو 60,000 عام، ولذلك فهي لا تصلح لتحديد أزمان الأدوار الأولى

---

(1) عن طريقة «الكاربون ـ 14» راجع المصادر التالية:

(1) Libby *Radio-Carbon Dating* (1955).

(2) R. Braidwood in *Sumer*, 23, (1967), 39ff.

(3) *Science in Archaeology* (1969).

من العصر الحجري القديم التي قد يبلغ بعضها إلى حدود نصف مليون عام. وإلى ذلك يوجد هامش في الزيادة والنقصان في أرقام التقديرات الناتجة ما بين 200 و300 عام، ولذلك فلا يصلح فحص الكاربون ـ 14 لتقدير الأدوار التأريخية التي لا تحتمل مثل هذه الزيادة أو النقصان. كما أن التلوث في المواد العضوية المراد فحصها يكون مصدر خطأ في التقدير. والغالب أن الفاحص المختص يجب أن يزود مسبقاً بتقدير عمر المواد الأثرية التي يفحصها، أي تقدير عمرها الأثري بالطرق الأثرية المتبعة عن الآثاريين.

ولكن رغم كل هذه النقائص وغيرها في هذه الطريقة فإنها طبقت واستفيد منها في تقدير أدوار حضارية مهمة في العراق ومصر وأقطار الشرق الأدنى الأخرى وغيرها، وتكون الفائدة منها أضبط وأجدى إذا قورنت نتائجها مع التقديرات الأخرى التي يحصل عليها من طرق التأريخ الأخرى.

وهناك طرق حديثة أخرى مستندة إلى معطيات العلوم الطبيعية لا مجال لشرحها[1]، فنكتفي بالتنويه بإحداها، وهي طريقة فحص «البوتاسيوم ـ أرغون» المرموز لها بـ K-A (Potassium-Argon) المستندة إلى ظاهرة البوتاسيوم المشع ذي الوزن الذري (40) (K-40) وتحوله بالإشعاع بمرور الزمن إلى «أرغون» وقياس ما يتبقى من ذلك العنصر المشع مع البقايا العظيمة في الكهوف وطبقات الصخور. وتصلح هذه الطريقة للاستعمال في مدى أبعد قد يبلغ عدة ملايين من السنين بالنظر إلى طول دورة «نصف العمر» الخاصة بهذا العنصر.

أثبات الملوك والسلالات الحاكمة:

ومن المصادر المهمة التي اعتمدها الباحثون في حضارة وادي الرافدين لتحديد تسلسل الحكام والملوك والسلالات الحاكمة التي حكمت في العراق

---

(1) عن طريقة «الكاربون ـ 14» راجع المصادر التالية:

(1) Libby *Radio-Carbon Dating* (1955).

(2) R. Braidwood in *Sumer*, 23, (1967), 39ff.

(3) *Science in Archaeology* (1969).

القديم منذ أبعد عصور التأريخ إلى العهود الأخيرة ما خلفه الكتبة القدماء من أثبات أو جداول مطولة بأسماء السلالات الحاكمة وترتيب تسلسلها الزمني، وجداول مهمة بالحوادث التأريخية التي كانوا يؤرخون منها، وأثبات بأسماء بعض السلالات المتعاصرة، إلى غير ذلك من النصوص التأريخية التي استعين بها في ضبط تسلسل الأدوار التأريخية وتحديد سني الملوك. وقبل أن نذكر هذه الأثبات نمهد لذلك بذكر الطرق المختلفة التي سار عليها سكان العراق القدماء في تأريخ الحوادث.

طرق تأريخ الحوادث في حضارة وادي الرافدين:

لم يتخذ سكان وادي الرافدين القدماء عهداً ثابتاً يؤرخون منه على غرار العهود الثابتة المشهورة مثل التأريخ الميلادي أو الهجري قبل اتخاذ العهد السلوقي (تشرين الأول عام 311ق.م) عهداً ثابتاً لتأريخ الحوادث منه، فكانوا قبل هذا يؤرخون الأحداث أما من حادثة مهمة تقع في أول السنة أو في السنة السابقة فتعتمد رسمياً للتأريخ، أو يؤرخون بسني حكم الملوك أو بطريقة «اللمو» الآشورية في تسمية كل سنة من حكم الملك باسم أحد كبار موظفي الدولة بهيئة دورية[1].

---

(1) نعدد فيما يلي العهود التأريخية (Eras) المشهورة التي اتخذتها الأمم والشعوب القديمة لتأريخ الحوادث منها:

1 ـ العبرانيون: منذ الخليقة التي قدروا بدايتها في 4004ق.م.

2 ـ اليونان: منذ دورة الألعاب الأولمبية الأولى (Olympiad) في عام 776ق.م.

3 ـ الرومان: منذ تأسيس مدينة روما في عام 753ق.م.

4 ـ العهد السلوقي في العراق وسورية في عام 311ق.م.

5 ـ العهد الروماني في سورية 63ق.م (الفتح البومبي نسبة إلى القائد الروماني).

6 ـ العهد الميلادي (ميلاد المسيح في حدود 4 ـ 2 ق.م).

7 ـ العهد القبطي في مصر في 284م (فترة اضطهاد الأمبراطور الروماني ديوقليشان للمسيحين).

8 ـ العهد الهجري (الهجرة النبوية عام 622م).

1 ـ طريقة التأريخ بالحوادث المشهورة:

باستثناء فترة قصيرة استعملت فيها طريقة التأريخ بسني حكم الحكام في سلالة مدينة «لجش» الأولى (منتصف الألف الثالث ق.م)، كانت طريقة التأريخ من الحوادث المهمة الأسلوب المتبع في تقويم الأحداث في العراق القديم من أقدم الأزمان إلى العصر الكشي (منذ القرن السادس عشر ق.م) الذي شاع فيه أسلوب التأريخ بسني الملوك وبقي مستعملاً إلى العهد السلوقي حيث اتخذ العام 311ق.م عهداً ثابتاً يؤرخ منه كما ذكرنا. وبموجب طريقة التأريخ من الحوادث تستعمل السنة الأولى من حكم الملك الجديد فيؤرخ منها وتسمى: «السنة التي توج فيها الملك الفلاني». والغالب في صيغ الحوادث المؤرخ منها استعمال اللغة السومرية. فلو فرضنا أن الملك المؤرخ بحوادث سني حكمه الملك حمورابي فتسمى السنة الأولى بالصيغة السومرية (Mu Hammurabi Lugal-e) وجرت العادة أن السنة تسمى بحادثة وقعت في السنة السابقة، ولا تخلو السنون السابقة من أحداث مهمة تتخذ وتعلن رسمياً لتؤرخ منها السنون التالية، مثل حفر نهر جديد أو تشييد معبد وتجديد بنائه أو غلبة الملك في حرب من حروبه أو نحت تمثال لإله معين إلى غير ما هنالك من الأحداث المهمة. وإذا كانت السنة السابقة لم يحدث فيها حادث ذو شأن بحيث يؤرخ منه فتسمى السنة المراد تأريخ أحداثها بعبارة: «السنة التالية» للسنة المسماة بحادثة معينة، وبالمصطلح السومري (mu-us-sa)، وقد تتكرر هذه الصيغة لأكثر من سنة واحدة، مما كان مصدر إرباك وعناء للباحثين المحدثين. وقد جمع الكتبة القدماء أثباتاً مطولة بأسماء الحوادث المؤرخ منها، مما يصطلح عليه (Date form ulae) خصص بعضها لعهد ملك واحد وبعضها لمجموع الحوادث المؤرخ بها لحكم السلالات المختلفة. ومما لا شك فيه أن جامعي سلالات الملوك استندوا في ترتيب أسماء ملوك هذه السلالات وأطوال سني حكمها وعهود ملوكها إلى تلك الأثبات المهمة، وبالنسبة إلى الباحثين في العصر الحديث

تعد هذه الأثبات من أثمن المصادر التأريخية لمعرفة أحداث التأريخ المهمة الخاصة بالملوك والسلالات[1].

2 ـ طريقة «اللمو» الآشورية:

ظلت طريقة التأريخ من الحوادث المشهورة مستعملة في بلاد بابل كما قلنا منذ أقدم العهود التأريخية حتى ظهر استعمال التأريخ بسني حكم الملوك في العهد الكشي (القرن السادس عشر ق.م)، وكانت طريقة سهلة، وبقيت في الاستعمال إلى العهد السلوقي في العراق الذي أدخل فيه أسلوب التأريخ من عهد ثابت (311ق.م). ويجدر أن ننوّه بهذا الصدد أن العرب قبل اتخاذهم العهد الهجري (622م) استعملوا كلتا الطريقتين في التأريخ، فكانوا يؤرخون من الحوادث المشهورة مثل عام الفيل ومن سني حكم الملوك الساسانيين.

أما الآشوريون فقد استعملوا طريقة التأريخ التي ذكرناها باسم «لمو»[2] أي الدورة الخاصة بحكم كل ملك، حيث كانوا يخصصون السنة الأولى أو الثانية من حكم الملك الجديد إلى هذا الملك فيؤرخون منها ثم السنين التالية إلى كبار موظفي الدولة إلى أن ينتهي حكم الملك فيبدؤون بدورة جديدة تخصص لعهد الملك الذي يخلفه وهكذا. وعلى هذا تكون الفترة الزمنية بين تولي ملك ما وظيفة «اللمو» وتولي خليفته لهذه الوظيفة المدة التي استغرقها حكم الملك الأول. وخلف لنا الكتبة الآشوريون أثباتاً مطولة باللمو وهي أثبات متممة لأثبات الملوك والسلالات الحاكمة وكانت مصدراً أساسياً لأولئك الكتبة في تنظيم أثبات الملوك. ولم يقتصر جامعو أثبات «اللمو» على مجرد تعداد سني حكم الملوك بل كانوا يذكرون في كثير من الأحايين بعض

---

(1) حول ترجمة أثبات الحوادث المؤرخ بها راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *ANET*.

(2) *RLA*, II, (Daten Listen).

(2) «لمو» (Limmu) مصطلح آشوري (وكذلك (Limum) في العصر الآشوري القديم) مشتق من جذر الفعل (Lamû) أو (Lawû) الذي يعني «دار، يدور» أو أحاط بالشيء.

الحوادث المهمة التي تقع في أثناء سنة «اللمو»، مثل ذكر حادثة كسوف الشمس في «لمو» الموظف الآشوري المسمى «بور ـ شگاله» في شهر «أيار ـ حزيران» من حكم الملك الآشوري «آشور ـ دان» الثالث، وقد حسبت هذه الحادثة الفلكية فأمكن تحديد وقوعها في 15 حزيران عام 763 ق.م. وبالاستعانة بهذه النقطة الثابتة بالنسبة إلى العهد الميلادي أمكن تعيين أزمان الملوك الذين سبقوا هذا الملك والذين أعقبوه بطريقة الجمع والطرح وبالاستناد إلى معرفتنا بسني حكم كل ملك من الملوك الآشوريين إلى حدود 1700ق.م، أي بداية حكم سلالة الملك الآشوري المسمى «أداسي». أما الفترات السابقة لحكم هذا الملك فلا يمكن تقديرها بوجه دقيق من جراء انخرام أثبات الملوك ونقصانها.

وقد جرى العرف في بلاد آشور أنهم كانوا يقيمون مسلة خاصة بالموظف الذي تسمى باسمه سنة «اللمو»، وتوضع صفوف المسلات المنقوشة بأسماء المشاهير من موظفي الدولة وهي مرتبة بحسب أزمانها في الميدان الكبير من مدينة آشور، أو أنهم كانوا يدونون أسماء كبار الموظفين الذين تسمى بأسمائهم سنين «اللمو» في ألواح من الطين. وكما هو الحال في إثبات الحوادث المؤرخ منها عند البابليين جمع الكتبة الآشوريون قوائم «باللمو» أمكن إرجاع أزمانها من أحدث العهود الآشورية إلى حدود القرن الحادي عشر ق.م[1]، ولكن طريقة التأريخ باللمو تمتد إلى أبعد من هذا التأريخ.

أثبات الملوك السومرية والبابلية:

أ ـ الأثبات السومرية:

سبق أن نوَّهنا كيف أن الكتبة في حضارة وادي الرافدين جمعوا جداول أو أثباتاً بأسماء الملوك والسلالات الحاكمة في البلاد، وخلفوا لنا من ذلك

---

(1) عن أثبات «اللمو» راجع:

RLA, II, (Eponymn Listen). *ARAB*, II.

نماذج متنوعة ومهمة، بعضها يقتصر على أسماء ملوك سلالة معينة واحدة، وتضمن بعضها جملة سلالات. فمن هذا النوع الثاني ما يعرف في تأريخ العراق القديم بأثبات الملوك السومرية (Sumerian King-List)، وهي أثبات مطولة ومفصلة شملت الملوك الذين حكموا البلاد في عهد ما قبل الطوفان ثم السلالات التي حكمت من بعد ذلك الحدث إلى الزمن الذي جمعت فيه تلك الأثبات. وقد وجدت منها جملة نسخ آخرها النسخة التي دونت في عهد السلالة البابلية المسماة سلالة «أيسن» (2017 ـ 1794ق.م) حيث تنتهي تلك الأثبات في نهاية حكم هذه السلالة. أما زمن أول جمع لها فيرجح أنه قد تمّ في عهد سلالة أور الثالثة[1](2112 ـ 2004ق.م). ولما كنا سنورد ترجمة خاصة لهذه الأثبات في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات فنكتفي الآن بذكر بعض الملاحظات الموجزة، منها أن تلك الأثبات ذكرت السلالات الحاكمة مع عواصمها أو المدن التي حكمت فيها على أنها متعاقبة في حين أن الكثير منها كان متعاصراً بصورة كلية أو جزئية، كما بالغت في الأرقام المخصصة لسني حكم الملوك وبوجه خاص ملوك السلالات القديمة مما قبل الطوفان وبعده بقليل، كما أن جامعي تلك الأثبات أغفلوا ذكر سلالات حكمت في العصور القديمة مثل سلالة مدينة «لجش» في عصر فجر السلالات الثالث، ولعل سبب ذلك ناشئ من اعتبارات سياسية، إلى غير ذلك من العيوب والشوائب التي تجعل الإفادة منها كمصدر تأريخي لا تتم إلا بعد النقد والتمحيص والاستعانة بالمصادر الأخرى. ومن ناحية التنظيم رتبت تلك الأثبات بقسمين رئيسين: (1) سلالات حكمت قبل الطوفان في خمس مدن مجموع ملوكها ثمانية ملوك ومجموع سني حكمهم (241000) عام، (2) ثم

---

(1) حول أثبات الملوك السومرية انظر:

(1) Th. Jacobsen, *The Sumerian King-List* (1939).

(2) M.B. Rowton, «The Date of the Sumerian King-List» in *JNES*, (1960), 156ff.

(3) *ANET*, 211ff.

يأتي الطوفان، وبعد الطوفان هبطت الملوكية من السماء وحلّت في مدينة «كيش»، فتعدد أسماء ملوكها وسني حكم كل منهم ثم يعقب ذلك عشرون سلالة، عدد ملوكها نحو (140) ملكاً إلى آخر ملوك سلالة «ايسن» التي دونت في عهدها آخر النسخ من هذه الأثبات كما ذكرنا.

ب ـ أثبات الملوك البابلية:

ونظم الكتبة البابليون في العهود القديمة والوسيطة من تأريخ بلاد بابل جملة أثبات بأسماء السلالات البابلية الحاكمة، وجدت منها عدة نماذج، بعضها بهيئة أجزاء غير كاملة، نذكر منها ما يعرف لدى الباحثين باسم ثبت الملوك البابلي «أ» (The Babylonian King-List «A»)، وجاءتنا آخر نسخة منه من العهد البابلي الأخير (القرن السادس ق.م)، ويتضمن أسماء السلالات البابلية الحاكمة من سلالة بابل الأولى (1894ـ1595ق.م) إلى عهد الحاكم الآشوري في بابل المسمى «قندلانو» (627ق.م). ومما يؤسف له أن هذا الثبت مشوه، كثير الخروم، ولكن يكمل معظم النواقص الموجودة فيه ثبت ملوك آخر يدعى «ب» (King-List «B»)، ويتضمن أسماء ملوك سلالة بابل الأولى وملوك السلالة المسماة «سلالة القطر البحري»، ولكنه غفل من أرقام السنين الخاصة بحكم الملوك. وهناك ثبت ثالث يعرف بثبت «ج» (King-List «C») لم يبق منه سوى أسماء سبعة ملوك من ملوك سلالة بابل الرابعة التي تلت العهد الكشي (سلالة بابل الثالثة).

وإلى هذه الأثبات توجد ثلاثة أثبات أخرى تعدد بعض السلالات البابلية الحاكمة في الفترة الزمنية ما بين نهاية سلالة أور الثالثة وبين عهد حمورابي. فبالإضافة إلى أثبات الملوك السومرية السالفة الذكر يوجد ثبت خاص بملوك سلالة أور الثالثة وآخر بأسماء ملوك سلالة «اسين»، وثبت ثالث بأسماء ملوك سلالة لارسة المعاصرة لسلالة «ايسن».

جـ ـ ثبت بطليموس:

نظم الفلكي والجغرافي الشهير «بطليموس» (القرن الثاني الميلادي)

جدولاً بأسماء الملوك البابليين والفرس وسني حكمهم من عهد الملك البابلي «نبوناصر» (746ـ734ق.م)، وشمل كذلك أسماء الأباطرة الرومان إلى زمن الأمبراطور «انطونينوس بايوس» (138ـ161م). وذكر أيضاً في ثبته هذا جملة من الظواهر الفلكية المهمة. ويعرف هذا الجدول عند الباحثين باسم قانون بطليموس (Ptolemy Canon) وهو يتداخل مع جداول «اللمو» الآشورية ما بين عام 747 و631ق.م. وعلى هذا تتضح أهمية هذا الثبت في تحديد عهود الملوك البابليين والآشوريين بالنسبة إلى عهد ثابت هو العهد الميلادي.

د ـ أثبات الملوك الآشورية:

وكما كان الحال عند كتبة بلاد بابل خلف لنا زملاؤهم الكتبة والنساخ الآشوريون جملة جداول أو أثبات بأسماء ملوك بلاد آشور منذ أقدم أزمان تأريخهم، وعلى وجه التحديد منذ استقلال بلاد آشور من بعد سلالة أور الثالثة، وقد سبق أن نوَّهنا بما جاءنا من أثبات اللمو التي تعد متممة لأثبات الملوك. ونعدد أشهر هذه الأثبات[1]:

ثبت خرسباد:

عثرت بعثة التنقيبات التي أوفدتها جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) إلى خرسباد (دور ـ شروكين) في عام 1932 ـ 1933 على وثيقة تأريخية مهمة بالنسبة إلى التأريخ الآشوري بوجه خاص وتأريخ العراق القديم بوجه عام، إذ وجدت ثبتاً مطولاً وكاملاً تقريباً يتضمن ملوك بلاد آشور من حكم الملك «شمسي أدد» الأول (1813 ـ 1781ق.م) المعاصر للملك البابلي حمورابي

---

(1) عن أثبات الملوك الآشوريين انظر:

(1) Poebel, «The Assyrian King-List from Khorsabad» In *JNES*, (1942), 247ff. *IBID.* (1943), 56ff.

(2) Gelb, «Two Assyrian King-Lists», In *JNES*, (1954), 209ff.

(3) J. Lewy, «A Propos of A Recent Study in Old Assyrian Chornology», in *Orientalia*, (1957), 12ff.

(4) B. Landsberger, «Assyrische Königliste...» in *JCS*, (1954), 31ff.

(1792 ـ 1750ق.م) وينتهي بحكم الملك الآشوري «آشور نيراري» الخامس (753 ـ 746ق.م) أي إنه يتضمن حكم 69 ملكاً. ويذكر التذييل الذي ينتهي به هذا الثبت اسم الكاتب الذي جمعه على هيئة «قندلانو»، أحد كتبة معبد «عشتار» في أربيل اربائيلو مؤرخ بحسب الطريقة الآشورية التي ذكرناها «باللمو» الخاص بحاكم مدينة «آشور» المسمى «أدد ـ بيلا ـ أوكن». ووجد ثبت ثانٍ بأسماء ملوك بلاد آشور جمع أحد كهنة الإله «آشور» في مدينة آشور، ينتهي بالعام 722ق.م. ونشر ثبت ثالث في لوح هُرب إلى أمريكة واقتناه «معهد الجمعية السبتية» هناك وهو ذو صلة بثبت خرسباد.

هـ ـ أثبات الملوك المتعاصرين:

بالإضافة إلى الأنواع التي عددناها من أثبات الملوك خلف لنا الكتبة الآشوريون نوعاً طريفاً ومهماً من الأثبات أطلق عليه اسم «ثبت الملوك المتعاصرين» (Synchronistic King-Lists). وقد رتب في لوح الطين بعمودين من الكتابة أحدهما بجانب الآخر، يذكر العمود الأول (82) ملكاً آشورياً ابتداء من الملك الآشوري «ايريشم» ابن الملك «ايلو شوما» (مطلع الألف الثاني ق.م)، وينتهي بالملك «آشور بانيبال» (668ـ627ق.م)، ويذكر في العمود الثاني 98 ملكاً من ملوك البابليين المعاصرين للملوك الآشوريين ابتداء من الملك الثاني من ملوك سلالة بابل الأولى «سومولئيل» وينتهي بحكم الملك «قندلانو». وبهذا تتضح أهمية هذا الثبت في تحديد تواريخ السلالات الحاكمة ليس في بلاد آشور حسب، بل في تأريخ وادي الرافدين، بالاستناد إلى ما ذكرناه من تمكن الباحثين من تحديد أدوار التأريخ الآشوري بالنسبة إلى عهد ثابت من حادثة كسوف الشمس التي ذكرت في أثبات الملوك الآشوريين في عهد الملك «آشور دان» (عام 763ق.م)، حيث استعان الباحثون بهذا التعاصر ما بين الملوك الآشوريين والملوك البابليين، وما ثبت الآن من تعاصر الملك البابلي الشهير حمورابي مع الملك الآشوري «شمسي أدد» الأول وملك مملكة «اشنونا» المسمى «أبالبيل» الثاني و«زمري ليم»، ملك مدينة «ماري»

(تل الحريري عند الحدود العراقية السورية)، وتعاصر الملك الكشي «بورنابورياش» مع الفرعون المصري «امنوفس» الثالث وابنه «امنوفس» الرابع (أخناتون)، وتعاصر الملك البابلي «نبوخذ نصر» الأول مع ثلاثة من الملوك الآشوريين هم: «ننورتا - توكلتي - آشور» و«متكل - نسكو» و«آشور - ريش - ايشي».

ونختتم هذه الملاحظات عن الطرق التي اتبعت في تحديد الأدوار التأريخية في حضارة وادي الرافدين بالتنويه بأن الباحثين استفادوا أيضاً من الأرصاد الفلكية التي جمعت عن كوكب الزهرة في عهد الملك البابلي المسمى «عمي - صادوقا»، حفيد حمورابي، وكانت هذه أرصاداً خليطة من الملاحظات الفلكية والملاحظات التنجيمية أي التنبؤات التي كانوا يستنتجونها من الحالات التي كان يظهر فيها كوكب الزهرة. وبما أن هذا الكوكب يتكرر ظهوره في الحالات التي وصفت في تلك الأرصاد في فترات زمنية منتظمة[1]، فقد أمكن حساب هذه الفترات وبالتالي تحديد عهود ملوك سلالة بابل الأولى بوجه تقريبي، وهي تقديرات لا تخلو من فائدة إذا قورنت بالنتائج التي يحصل عليها من اتباع الطرق الأخرى التي نوّهنا بأشهرها.

وندرج فيما يلي أسماء الأدوار الحضارية وتسلسلها وتحديد أزمانها، من خلاصة النتائج التي توصل إليها الباحثون في اتباعهم طرق البحث التي أوجزناها.

---

(1) حول أرصاد كوكب الزهرة انظر:

(1) Langdon and Fortheringham, *The Venus Tablets of Ammizaduga* (1928).

(2) O. Neugebauer in *Journal of the American Oriental Society*, (1941), 59ff.

الأدوار الحضارية

عصور ما قبل التأريخ:

أولاً: العصر الحجري الإيوليثي (Eolithic):

1 ـ طور حجري قديم غير واضح. يقع زمنه في أواخر دهر البليوسين وبداية البلاستوسين (Pleistocene).

2 ـ تعود إليه على ما يرجح طائفة من الأدوات البدائية الساذجة تسمى الأدوات الحصوية (Pebble Tools)، مما وجد في إفريقيا وأجزاء أخرى من الأرض.

3 ـ لم يعثر على بقايا له في العراق.

4 ـ يرجح أن ترجع إليه أنواع من الجنس الإنساني تسمى «بالإنسان الجنوبي» (Australopethecinae) مثل النوع المسمى (Ziajanthropos) الذي وجدت بقاياه العظيمة في الأجزاء الجنوبية من إفريقيا.

ثانياً: العصر الحجري القديم (Palaeolithic):

زمنه منتصف دهر البلايستوسين إلى نهاية العصور الجليدية في أوروبا أي من حدود 600,000 أو 500,000 إلى 10,000ق.م.

ويقسم إلى الأدوار التالية:

أ ـ العصر الحجري القديم الأدنى (Lower Palaeolithic):

1 ـ الدور الـ «أبيفيلي» (Abbevillian):

وكان يدعى سابقاً الدور الشيلي (Chellean). زمنه في الفترة الجليدية الأولى (Günz-Mindel). لم يعثر على أدواته في العراق لحد الآن. ينسب إليه الإنسان البائد المسمى «هايدل برك» (Heidelberg) ونوع الإنسان الأطلسي (إنسان الأطلس في شمالي إفريقيا).

2 ـ الدور الكلاكتوني (Clactonian):

زمنه الفترة الجليدية الثانية (Mindel-Riss). لم يعثر على أدواته في العراق لحد الآن.

3 ـ الدور الآشولي (Acheulian):

أطول أدوار العصر الحجري القديم. ابتداؤه في أوروبا من الفترة الجليدية الثانية في الفترة الثالثة (Riss-Würm)، ويقسم إلى عدة أطوار مثل الآشولي الأول والثاني والثالث (ولا سيما في إفريقيا). ويحتمل أن أدوات حجرية من هذا الدور وجدت في شمالي العراق (في الموضع المسمى برده بلكا قرب جمجمال).

4 ـ الدور اللفالوازي (Levalloisian):

زمنه الفترة الجليدية الثالثة، وله صلة بالدور «اللفالوازي ـ المستيري» الآتي.

ب ـ العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

1 ـ الفالوازي ـ مستيري.

2 ـ مستيري (Mousterian).

زمنه في الفترة الجليدية الثالثة واستمر إلى العصر الجليدي الرابع (Würm) وعاش فيه نوع الإنسان البائد المسمى «نياندرتال» (Neanderthal) الذي وجدت منه نماذج كثيرة في أجزاء العالم المختلفة ومنها العراق في كهف

«شانيدر»، الطبقة «D» التي وجدت فيها بقايا هذا الدور. ويسمى في شمالي إفريقيا «المستيري ـ العتيري».

جـ ـ العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic):

1 ـ شغل في أوروبا الجزء الأخير من دهر البلايستوسين، في العصر الجليدي الرابع قبل نحو 40,000 إلى 50,000.

2 ـ ساد فيه نوع الإنسان الحديث المسمى «الإنسان العاقل» (Homo Sapiens).

3 ـ أطلق على الأدوات الحجرية الممثلة لهذا الدور في شمال العراق اسم الدور البرادوستي (نسبة إلى جبال برادوست)، وتعود إليه الطبقة «C» في كهف شانيدر، كما وجدت أدواته في كهفي «زرزي» و«هزار ميرد» (قرب السليمانية).

4 ـ يسمى في شمالي إفريقيا بالدور «القفصي» (في الأجزاء الداخلية) و«الوهراني» (في الأجزاء الساحلية).

5 ـ تسمى أدواره في أوروبا:

أ ـ بريگودي ـ شاتل بيروني (Perigodian Chatel Peronian) قبل نحو 32,000 إلى 28,000ق.م.

ب ـ أورغنيشي (Aurignacian) 28,00 ـ 22,000ق.م.

جـ ـ كرافيتي (Gravettian) 22,000 ـ 18,000ق.م.

د ـ سلوتري (Solutrean) 18,000 ـ 15,000ق.م.

هـ ـ مگدليني (Magdalnian) 15,000ـ8000ق.م.

ثالثاً: العصر الحجري الوسيط (Mesolithic):

1 ـ يقع زمنه في أواخر دهر البلايستوسين ونهاية العصر الحجري القديم

والعصور الجليدية في حدود الألف العاشر ق.م. يطلق عليه أيضاً اسم دور الأدوات الدقيقة (Microlithic).

2 ـ في العراق، أطلق عليه اسم الدور الزرزي (نسبة إلى كهف زرزي بالقرب من السليمانية). ووجدت أدواته في كهف شانيدر في الطبقة «B» وفي كهف هزار ميرد وأماكن أخرى في شمالي العراق أشهرها: زاوي جمي وبالى كورا وملفعات وكريم شهر.

3 ـ في بلاد الشام: يسمى الدور النطوفي. وفي شمالي إفريقيا الأطوار الأخيرة من الدور القفصي ـ الوهراني.

4 ـ في العراق وبعض أجزاء الشرق الأدنى ظهرت طلائع تدجين الحيوان والزراعة (Incipient Food Production).

رابعاً: العصر الحجري الحديث (Neolithic):

في حدود الألف التاسع أو الثامن إلى 5600ق.م.

في العراق بوجه خاص والشرق الأدنى بوجه عام يقسم إلى الأطوار التالية:

1 ـ بداية العصر الحجري الحديث أو أواخر الحجري الوسيط (Proto Neolithic):

أ ـ كهف شانيدر الطبقات B-2 وA.

ب ـ قرية زاوي جمي.

جـ ـ كريم شهر.

د ـ ملفعات.

هـ ـ كرد ـ جاي.

و ـ الطبقات السفلى من جرمو وشمشارة.

بداية تدجين الحيوان والزراعة وظهور القرى الفلاحية.

2 ـ دور ما قبل الفخار (Prepottery Neolithic):

ما بين الألف الثامن والسابع ق.م.

أطوار حجرية حديثة في شمالي العراق وبلاد الشام وتركية وغيرها لم يظهر فيها الفخار: الطبقات السفلى من «جرمو» (الطبقات 16ـ6، حيث الفخار مقتصر على الطبقات الخمس العليا)، والطبقة «A» من كهف «شانيدر»، والطبقة العليا من قرية «زاوي جمي». والطبقات (14ـ6) من تل «شمشارة».

3 ـ دور الفخار (Pottery Neolithic):

أ ـ جرمو من الطبقات الخمس العليا (5ـ1).

ب ـ حسونة، الطبقة السفلى (1أ Ia).

جـ ـ الطبقات السفلى من تل الصوان.

د ـ أماكن عديدة في الشرق الأدنى مثل جبيل ورأس الشمرا والعمق (الطبقة «A») وغيرها.

ازدهرت في هذا الطور من العصر الحجري الحديث القرى الفلاحية وزاد اعتماد الانسان على الزراعة وتدجين الحيوان.

خامساً: العصر «الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic):

من الألف السادس (في حدود 5600ق.م إلى 3500ق.م). ويقسم إلى الأطوار التالية:

1 ـ حجري ـ معدني قديم (Early Chalcolithic):

أ ـ دور حسونة في حسونة وتل الصوان وشمشمارة وغيرها.

ب ـ طور سامراء في المواضع المذكورة في (أ).

جـ ـ أطوار مماثلة في بلاد الشام وتركية وإيران.

2 ـ حجري ـ معدني وسيط (Middle) الألف الخامس:

أ ـ دور حلف المنتشر في شمالي العراق وبلاد الشام والأناضول.

ب ـ في الأجزاء الجنوبية والوسطى من العراق:

1 ـ فخار «اريدو» أو طور «اريدو» = طور العبيد الأول (الطبقات 19 ـ 15 من أريدو).

2 ـ فخار حاج محمد ورأس العمية = العبيد الثاني.

3 ـ حجري ـ معدني متأخر (Late)**(4000 ـ 3500ق.م):**

1 ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً).

ب ـ العبيد الرابع (العبيد المتأخر سابقاً).

ج ـ الوركاء: (1) الوركاء القديم (الوركاء، الطبقات 12 ـ 7).

(2) الوركاء الوسيط (الوركاء، الطبقات 6ـ5).

ملاحظات:

يقسم دور حلف في الأربجية بوجه خاص إلى الأطوار التالية:

1 ـ حلف قديم (Early) (ما قبل الطبقة العاشرة في الأربجية).

2 ـ حلف وسيط (Middle) (الطبقات 10 ـ 7).

3 ـ حلف متأخر (Late) (الطبقة السادسة).

سادساً: العصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي
(Proto Literate. Proto Historic)؛ **(3500 ـ 2800ق.م):**

1 ـ دور الوركاء الأخير:

(الوركاء الطبقة الخامسة والرابعة أ، ب، جـ).

2 ـ دور جمدة نصر 3000 ـ 2900ق.م:

(الوركاء الطبقة الثانية والثالثة).

3 ـ عصر فجر السلالات الأول:

2900 ـ 2800ق.م.

العصور التأريخية:

1 ـ عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن:

2800 ـ 2370ق.م.

أ ـ عصر فجر السلالات الثاني:

2800 ـ 2600ق.م.

ب ـ عصر فجر السلالات الثالث:

2600 ـ 2370ق.م.

2 ـ السلالة الأكدية:

2370 ـ 2160 أو 2334 ـ 2154ق.م.

3 ـ الدور الكوتي وسلالة لجش الثانية:

1230 ـ 2120ق.م.

4 ـ سلالة أور الثالثة:

2112 ـ 2004ق.م.

5 ـ العصر البابلي القديم:

2000 ـ 1500ق.م:

أ ـ سلالة لارسة:

2025 ـ 1763ق.م.

ب ـ سلالة ايسن:

2017 ـ 1794ق.م.

جـ ـ سلالة اشنونا:

2000؟ ـ 1761ق.م.

د ـ بلاد آشور:

2000 ? ـ 1760ق.م.

هـ ـ سلالة بابل الأولى:

1894 ـ 1595ق.م.

(حمورابي 1792 ـ 1750ق.م).

و ـ سلالة ماري:

1850? ـ 1760ق.م.

6 ـ العصر الكشي:

(1700? ـ 1157ق.م).

الكشيون في بلاد بابل (سلالة بابل الثالثة) 1595 ـ 1157ق.م.

7 ـ سلالة «القطر البحري»:

(سلالة بابل الثانية) 1743 ـ ?.

8 ـ العصر البابلي الوسيط:

(1500 ـ 7/ 626ق.م).

أ ـ سلالة بابل الرابعة 1156 ـ 1025ق.م.

(= سلالة ايسن الثانية).

ب ـ سلالة بابل الخامسة (سلالة القطر البحري الثانية) 1024ـ1004ق.م.

جـ ـ سلالة بابل السادسة (سلالة بازي) 1003 ـ 984ق.م.

د ـ سلالة بابل السابعة 983 ـ 978ق.م (ملك واحد).

هـ ـ سلالة بابل الثامنة 977 ـ 732ق.م.

و ـ سلالة بابل التاسعة 746 ـ 734ق.م.

ز ـ سلالة بابل العاشرة 731 ـ 627ق.م.

9 ـ العصر البابلي الحديث أو الأخير 627 ـ 539ق.م.

(سلالة بابل الحادية عشرة).

10 ـ الدور الفارسي الأخميني (في العراق) 539 ـ 331ق.م.

11 ـ الإسكندر الكبير والدور السلوقي 331 ـ 138/ 126ق.م.

أ ـ فتح الإسكندر للعراق 331ق.م. وفاته في بابل 323ق.م.

ب ـ العهد السلوقي في العراق: 3 نيسان 311ق.م.

12 ـ الدور البارثي (الفرثي أو الإرشاقي): في العراق 138/ 126ق.م ـ227م وفي إيران 250ق.م ـ 6/ 227م.

13 ـ الدور الساساني 7/ 226 ـ 637م.

مجمل الأدوار التأريخية في بلاد آشور:

1 ـ عصور ما قبل التأريخ، كما مرّ سابقاً.

2 ـ دور سيطرة دول بلاد بابل إلى نهاية سلالة أور الثالثة 2500؟ ـ 2000ق.م.

3 ـ العصر الآشوري القديم 2000 ـ 1500ق.م.

4 ـ العصر الآشوري الوسيط 1500 ـ 911ق.م.

5 ـ العصر الآشوري الحديث 911 ـ 612ق.م.

أ ـ الأمبراطورية الآشورية الأولى 911 ـ 745ق.م.

ب ـ الأمبراطورية الآشورية الثانية 745 ـ 612ق.م.

جـ ـ السلالة السرجونية 721 ـ 612ق.م.

الفصل الثالث

عصور ما قبل التأريخ

١ ـ العصور الحجرية:

تعريف عصور ما قبل التأريخ وأدوارها:

تعارف المؤرخون على تقسيم تأريخ الإنسان إلى عصور وأدوار مختلفة، إذ على الرغم من أن سير التأريخ البشري سلسلة من حوادث مستمرة متواصلة الحلقات، حيث الحاضر وليد الماضي واستمرار له، والمستقبل جنين الحاضر متصل به، فإنه يسوغ للمؤرخ، من أجل تسهيل عرض حوادث التأريخ عرضاً تطورياً منطقياً، أن يختار بعض الأحداث الحاسمة في تأريخ تطور الإنسان فيتخذها فاصلاً مميزاً بين عهد وعهد. وقد يكون لبعض تلك الأحداث أثر حاسم في التطور البشري أو في سير تأريخ قطر ما بحيث يصح أن تتخذ علماً واضحاً يفصل ما بين دور ودور، وبين قديم وجديد كالانقلابات والتطورات الحاسمة في حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. على أن هناك حالات اختير فيها بعض الحوادث بوجه كيفي ولغرض تسهيل العرض التأريخي للفصل بين العهود التأريخية. ومن هذا القبيل ما تواضع عليه مؤرخو التأريخ العام في إطلاق مصطلح التأريخ القديم على تلك العهود التأريخية الطويلة منذ أقدم الأزمان إلى سقوط روما (476م)، أو كما يصح أن نعد ظهور الإسلام نهاية العصور القديمة في الشرق الأدنى.

والعصور القديمة هذه أزمان طويلة موغلة في القدم، حيث تبدأ منذ أن وجد الإنسان على الكرة الأرضية قبل أكثر من مليون عام؛ ولذلك جرى

المؤرخون على أن يقسموا هذه الحقب الطويلة التي استغرقها تأريخ الإنسان القديم إلى عدة أدوار وأطوار: أولاً تقسيمها إلى عصور ما قبل التأريخ والعصور التأريخية، وثانياً تقسيم كل من هذين العصرين إلى أدوار أخرى سنذكر أسماءها بعد قليل. ويقصد بعصور ما قبل التأريخ (Pre-History) المعنى اللغوي لهذا المصطلح، أي العصور التي سبقت التأريخ أي التدوين بظهور الكتابة. ويقصد بها كمصطلح حضاري تلك العصور الطويلة التي مرّت في تأريخ الإنسان قبل أن يهتدي إلى اختراع وسيلة للتدوين، ويرادف أو يطابق مصطلح بداية التأريخ بداية نشوء الحضارة والعمران في مراكز الحضارات القديمة الأولى في الشرق الأدنى، وأقدمها حضارة وادي الرافدين ووادي النيل حيث تنتهي عصور ما قبل التأريخ في هذين القطرين في مطلع الألف الثالث ق.م. ويتضح من هذا التحديد المصطلح عليه بين الباحثين في تأريخ الحضارات أن نهاية عصور ما قبل التأريخ وبداية العصور التأريخية تختلف باختلاف الأقطار والمواضع المختلفة من الأرض. وإذا كان وادي الرافدين ووادي النيل كما قلنا أولى البقاع التي ظهرت فيه العصور التأريخية والحضارة فإن بداية هذه العصور قد تأخرت أزماناً طويلة في بقاع العالم الأخرى. فمثلاً لا تتعدى بداية العصور التأريخية في اليونان أبعد من القرن التاسع أو الثامن ق.م، وتأخرت في أوروبا الشمالية إلى القرن الأول ق.م. وفي شمالي إفريقيا إلى مطلع الألف الأول ق.م، في حين أنه ظلّت جملة شعوب أخرى تعيش في همجية عصور ما قبل التأريخ حتى العصور الحديثة.

بداية عصور ما قبل التأريخ وأطوارها:

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن البحوث التي اضطلع بها العلم الحديث في تحريه عصور ما قبل التأريخ تعد من أروع ما أسهم به علم الآثار (الأركيولوجيا) في إغناء المعرفة البشرية بتتبعه قصة تطور الإنسان العجيبة منذ ظهور تلك الفصائل البشرية التي كانت أصل النوع الإنساني قبل أكثر من مليون عام أو مليوني عام بحسب أحدث الدراسات والاكتشافات. ففي بداية تلك العصور الموغلة في

القدم تمت تلك الأعجوبة في تطور الحياة على الكرة الأرضية بتطور بعض مراتب الحيوانات العليا إلى ظهور «الإنسان الناطق الصانع للآلة». واللغة وصنع الآلة هما السمتان اللتان ميزتا النوع الإنساني عن سائر أنواع المملكة الحيوانية. وما كاد ينتهي أقدم عصور ما قبل التأريخ، وهو العصر الحجري القديم الذي سنتكلم عنه، حتى حدث تطور بيولوجي خطير آخر، هو انتقال الأنواع البشرية القديمة البائدة (Palaeoanthropic) إلى نوع الإنسان الحديث (Neoanthropic)، أي ما يسمى بالإنسان العاقل (Homo Sapiens) قبل نحو 50,000 عام، وعلى وجه التحديد في النصف الثاني من العصر الحجري القديم، المسمى بالعصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic).

واستغرقت عصور ما قبل التأريخ القسم الأعظم من حياة الإنسان، وقد سبق أن حددنا بداية أولى الحضارات البشرية (في وادي الرافدين ووادي النيل) بمطلع الألف الثالث ق.م، أي إن عمر أقدم الحضارات البشرية زهاء خمسة آلاف عام، وتكون هذه الحقبة فترة جد قصيرة بالنسبة إلى عمر الإنسان الكلي لا تتجاوز نسبة الواحد بالمائة إذا قدرنا عمر الإنسان بمليون عام. أما إذا قدرناه بمليوني عام أو مليون ونصف (وهو التقدير الجديد لظهور بعض الفصائل البشرية) فتكون تلك النسبة زهاء 1/ 2 بالمائة، وبتعبير آخر شغلت عصور ما قبل التأريخ أكثر من 99 بالمائة من عمر الإنسان[1]. وإن نسبة

---

(1) لعله من الطريف أن نذكر بعض التقديرات الأخرى التي تقدم لنا صورة عجيبة لتطور الإنسان الحضاري. فمن هذه التقديرات أننا إذا حسبنا 1200 مليون عام لعمر الحياة على الكرة الأرضية وزهاء المليون عام لعمر الإنسان وعمر أولى الحضارات البشرية (5000) عام، ثم خفضنا المقياس وحسبنا (100) عام لعمر الحياة فيكون عمر الإنسان زهاء شهر واحد وعمر حضارته بجميع عهودها نحو ساعتين. ونترك للقارئ حساب عمر الحضارة البشرية إذا أخذنا بالتقدير الثاني لعمر الإنسان أي مليوني عام.

ونورد تقديراً طريفاً آخر هو أننا إذا قدرنا لعمر الأرض 24 ساعة أي يوماً واحداً فيكون عمر أقدم إنسان في الدقيقة الأخيرة من اليوم، وظهور الإنسان الحديث (الإنسان العاقل) في الثواني القليلة الأخيرة. ويوجد تقدير ثالث محسوباً بالأجيال (معدل الجيل الواحد 20 إلى 30 عاماً). فيخصص نحو 5000 جيل لعصور ما قبل التأريخ و50 جيلاً فقط للعصور التأريخية جميعها.

الواحد أو النصف بالمائة المتبقية من عمر الإنسان تتضمن عمر جميع الحضارات قديمها ووسيطها وحديثها. وشغل ما يسمى بالعصور الحجرية القديمة من عصور ما قبل التأريخ أكثر من 98 بالمائة من عمر الإنسان، على أن ما يمكن تدوينه من الأحداث عن عصور ما قبل التأريخ برمتها لا يؤلف سوى جزء ضئيل بالنسبة إلى ما دون ولا يزال يدون عن فترة أو دور واحد من العصور التأريخية، والسبب في هذا لا يعسر إدراكه إذا علمنا أن ما جاء إلينا من عصور ما قبل التأريخ يقتصر على الأدوات والآلات المادية البدائية وبقايا الهياكل العظيمة والبقايا المادية الأخرى القليلة حيث لم يهتدِ الإنسان إلى ابتداع وسيلة لتدوين شؤون حياته.

ولكي نفهم ما سنذكره عن أدوار عصور ما قبل التأريخ في العراق بوجه عام والعصور الحجرية في أقسامه الشمالية بوجه خاص يحسن أن نمهد لذلك بذكر موجز عن التسميات والمصطلحات الخاصة بالعصور الحجرية الأوروبية، لأن هذه التسميات صارت أساساً لجميع التحريات التي تمت في أجزاء الأرض الأخرى ومنها العراق، على الرغم من أن بعض التسميات وتسلسل الأدوار وأطوالها لا يصح إطلاقها على الأدوار المضاهية لها في شمالي العراق، ولكننا مضطرون إلى التعرف عليها لأنها كما قلنا أساس أو خلفية (Background) للأدوار العراقية التي سنذكرها.

العصور الحجرية:

1 ـ أدوار العصور الحجرية وتسمياتها:

يطلق على أقدم أزمان ما قبل التأريخ مصطلح العصور الحجرية، وهي الأزمان التي قلنا إنها تؤلف القسم الأعظم من حياة الإنسان. أما إطلاق تسمية «الحجرية» عليها فإنها تشير إلى الجانب التكنولوجي منها، لأن الإنسان اقتصر فيها في صنع أدواته وآلاته الساذجة على الحجارة واستعمل كذلك العظام والخشب. وبعبارة أخرى لم يعرف الإنسان المعادن والتعدين.

وتعارف الباحثون في الموضوع على تقسيم هذه العصور الحجرية إلى أدوار كثيرة متميّزة بعضها عن بعض. فأولاً تقسيمها إلى طورين أو عصرين كبيرين يمتاز كل منهما بأساليب خاصة من العيش والحياة الاقتصادية وبأشكال الأدوات الحجرية التي صنعها الإنسان في كل منهما. ويدعى أقدم هذين العصرين باسم العصر الحجري القديم أو بالأحرى العصور الحجرية القديمة (Palaeolithic)، ويسمى الطور الثاني بالعصر الحجري الحديث (Neolithic). وأهم ما يميّز كلاً من هذين العصرين الرئيسين أنه بالإضافة إلى طراز الأدوات الحجرية المميزة لكل منهما أن الإنسان في العصر الحجري القديم اعتمد في عيشه على جمع القوت ولم يتتجه بيده بالزراعة أو تدجين الحيوان أو بكليهما، بل كان اصطياد الحيوان وجمع مصادر القوت الأخرى أساس حياته الاقتصادية، ولذلك صح إطلاق مصطلح «جمع القوت» أو «التقاط القوت» على العصر الحجري القديم (Food Gathering) أما في العصر الحجري الحديث فقد تبدلت حياة الإنسان تبدلاً جوهرياً حيث اهتدى إلى إنتاج قوته بيده وضمان عيشه بالزراعة وتدجين الحيوان، ولذلك يسمى هذا العصر بطور إنتاج القوت (Food Producing) وسنرى كيف أن هذا الانقلاب الاقتصادي قد تحقق لأول مرة في حياة الإنسان في بقعة ما من الشرق الأدنى، ولا سيما في شمالي العراق ما بين الألف الثامن والسابع ق.م.

والملاحظ في كثير من الأقطار التي تم فيها التحري عن العصور الحجرية أن العصر الحجري الحديث لم يعقب العصر الحجري القديم بوجه مباشر بل توجد ما بينهما فترة تختلف في قصرها وطولها من قطر إلى آخر سميت بالعصر الحجري الوسيط (Mesoilithic)، كما توجد فترة حضارية مهمة تفصل ما بين نهاية العصر الحجري الحديث وبين بداية الحضارة الناضجة أو بين العصر التأريخي في معظم أقطار الشرق الأدنى أطلق عليها مصطلح «العصر الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic)، الذي تمت فيه جملة اختراعات ومنجزات حضارية مهمة كانت بمثابة فجر الحضارة الذي مهد لظهور الحضارة الناضجة في مطلع الألف الثالث ق.م، مما سنعالجه بشيء من التفصيل.

وعلى ضوء هذه التسميات والتعاريف نوجز الكلام على الدورين الرئيسين للعصور الحجرية من حيث ميزاتهما وخصائصهما العامة التي تنطبق على أغلب الأقطار التي ظهرت فيها، ونتبع ذلك بما نعرفه عنهما في حضارة وادي الرافدين. ونبدأ بأقدم هذين الدورين، أي العصر الحجري القديم.

العصر الحجري القديم:

لا يعرف على وجه التأكيد متى بدأ الإنسان في صنع الأدوات والآلات من الحجارة، كما لا يعلم أي من تلك الأجناس أو الفصائل البشرية القديمة البائدة التي ظهرت منذ قبل مليوني عام من بدأ بصنع أولى أدوات ساذجة، على أنه مما لا شك فيه أن أولى أدوات صنعها الإنسان كانت بدائية ساذجة، وأن الدور الذي تعلم فيه الإنسان صنع الآلة قد سبقته أطوار طويلة كان يستعمل فيها الأحجار الطبيعية والعصي والأغصان وعظام الحيوانات أدوات للدفاع عن نفسه في تلك الحقب المظلمة حيث البيئة الطبيعية القاسية الشاقة، وإزاء مخلوقات ضارية أقوى منه كانت تتهدد وجوده في الحياة على أن ذلك الإنسان الذي كان يبدو ضعيفاً أعزل كان قد اكتسب في أثناء تطوره البيولوجي الطويل ملكات وقابليات جسمية وعقلية جعلت منه بمرور الزمن سيد المملكة الحيوانية وسيد الكرة الأرضية. فمن بين هذه الملكات والصفات البارزة: دماغه العجيب وقدرته على الكلام ويداه الماهرتان ولا سيما قابلية انضمام إبهام يده إلى الأصابع الأخرى، تلك الخاصية التي مكنته من استعمال يديه بمهارة وصنع الأدوات والآلات، ونذكر أيضاً انتصاب قامته في المشي وخصائص رؤيته المجسمة وعجز أعضائه وجوارحه عن الدفاع بخلاف الحيوانات الأخرى، والعناية الطويلة التي تحتاج إليه تربية صغاره. إن هذه الملكات هي التي مكنت الإنسان من صنع الآلة والنطق، وهما الخاصيتان اللتان قلنا إنهما ميزتا الإنسان عن سائر المملكة الحيوانية، إذ تمكن هذا المخلوق «صانع الآلة والكلمة» من أن يتغلب بآلاته وعدته المادية والعقلية

(حضارته) على بيئته الطبيعية في مسيرة تطوره الطويلة ويسخرها له، في حين أنه لا توجد وسيلة أو واسطة بين الحيوان وبين البيئة سوى أعضاء جسمه، ولذلك أطلق بعض الأنثروبولوجيين على الأدوات «أعضاء الإنسان الإضافية».

ويرى جمهور الباحثين الأنثروبولوجيين أن صنع الآلة ونشوء اللغة عند الإنسان كانا متلازمين، والمرجح أنهما ظهرا في آنٍ واحد[1]، في فترة ما من العصر الحجري القديم، كما عرف الإنسان استعمال النار ثم توليدها والإفادة منها في ذلك العصر. وأظهرت التحريات الحديثة عن بقايا الإنسان البائد نماذج من البقايا والهياكل العظيمة تعود إلى أنواع (Species) وأجناس (Genus) من الفصيلة البشرية قبل نحو مليوني عام. وإذا علمنا أن زمن العصر الحجري القديم يقع في الدهر الجيولوجي المسمى «بريستوسين» (Pleistocene) الذي يخصص لطوله زهاء المليون عام، فيكون ظهور أوائل النماذج الإنسانية قبل هذا الدهر الجيولوجي، ولعله في أواخر الدهر السابق للبلايستوسين أي الدهر المسمى «بليوسين» (Pliocene). على أننا لا نعلم بوجه التأكيد هل أن تلك الأشكال البشرية التي ظهرت قبل العصر الحجري القديم أي قبل دهر البلايستوسين بدأت بصنع الأدوات الحجرية. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن بعض المختصين في عصور ما قبل التأريخ يخصصون طوراً حجرياً سبق العصر الحجري القديم بفترة زمنية لا يعلم مدى طولها، أطلقوا عليه اسم العصر

---

(1) قضية ظهور اللغة عند الإنسان وأصلها والنظريات التي وضعت عنها وهل كانت اللغات البشرية لغة واحدة ثم تفرقت وتنوعت أو أنها ظهرت منذ البدء مختلفة متنوعة ـ كل هذه الأمور وغيرها لا تدخل في موضوع بحثنا بل إنها تكون بحثاً مهماً خاصاً من مواضيع علم اللغة (Linguistics) الداخل في علم الأنثروبولوجيا (Anthropology)، فنحيل القارئ المهتم بالموضوع إلى بعض المراجع الأساسية:

(1) Alan Gardner, *Speech And Language*, (1951).

(2) C. Songer in *A History of Technology*, I, (1955), chap. IV.

(3) Anderson Hoebel, *Man in the Primitive World*, (1958).

(4) A. L. Kroeber, *Anthropology Today*.

الحجري الإيوليثي (Eolithic)، بيد أن باحثين آخرين يبدون شكوكاً حول هذا العصر ويعزون الأدوات الحجرية الساذجة التي تنسب إليه إلى أنها أحجار طبيعية أي غير مصنوعة، وأن ما يظهر عليها من أثر الصنعة والتشظية من فعل العوامل الطبيعية أو أنها بقايا أو فضلات من عملية صنع الأدوات الحجرية وتشظيتها. على أن الاتجاه الحديث يميل إلى إقرار صناعة مثل هذه الأدوات وأنها تمثل دوراً حجرياً مستقلاً أطلق عليه المصطلح الذي سبق أن ذكرناه. كما نسبت إلى هذا الدور الحجري طائفة من الأدوات الحجرية تسمى «الأدوات الحصوية» (Pebble Tools) وقد وجدت هذه الأدوات في أكثر من موضع واحد من الأرض، من بينها شمالي إفريقيا، في ليبيا والجزائر والمغرب[1]. ولكن لم يستقر الرأي بعد على أي من الأنواع البشرية القديمة يمكن أن تعزى إليه هذه الأدوات.

وبعد فترة زمنية لا يمكن تحديد مقدارها على وجه التأكيد تبدأ أولى أطوار العصر الحجري القديم. وقبل أن نتكلم عن هذا العصر نواصل ذكر بعض الملاحظات العامة الأخرى تمهيداً لما سنذكره عن عصور ما قبل التأريخ في العراق. وأول ما نذكر من هذه الملاحظات أن دهر «البلايستوسين» الذي قلنا إن أدوار العصر الحجري القديم تقع ضمنه، كان يتصف بالمناخ المتناهي في البرودة، حيث كانت ظاهرة العصور الجليدية (Ice Ages). فقد ثبت من تأريخ الأرض الجيولوجي حدوث عصور جليدية في فترات زمنية متباعدة من عمر الأرض، وقد حدث بعضها قبل أن يظهر الإنسان عليها بملايين كثيرة من السنين. ولكن الذي يعنينا منها تلك العصور الجليدية التي حدثت في دهر البلايستوسين، أي في أثناء العصر الحجري القديم. ويخمن تأريخ أول عصر جليدي في حدود (600,000)، وانتهى آخر عصر جليدي في حدود

---

(1) عن عصور ما قبل التأريخ في شمالي إفريقيا انظر:

Mcburney, *Stone Age of Northern Africa* (1961).

Lionel Balout, *Prehistoire de L'Afrique du Nord*, (1955).

(15,000) أو (10,000) ق.م[1]. والمعروف أن ما لا يقل عن أربعة عصور جليدية كبرى حدثت في الأجزاء الشمالية من الكرة الأرضية، في أوروبا وأمريكا الشمالية (وقدر للقارة الأخيرة خمسة عصور جليدية). وبعبارة أخرى اقتصر حدوث هذه الظاهرة على تلك الأجزاء الشمالية من الكرة الأرضية. وسميت تلك العصور، ولا سيما الأوروبية منها، بأسماء مناطق الثلاجات الألبية (نسبة إلى جبال الألب). وهي، ابتداء من أقدمها: (1) كينز (Günz)، (2) مندل (Mindel)، (3) رس (Riss)، (4) ورم (Würm). ومن البديهي أن مناخ الكرة الأرضية في المناطق الجليدية كان يتصف بالبرودة المتناهية الشدة. وكان يستتبع ذلك تغيّرات في الحياة النباتية والحيوانية، وحياة الأنواع البشرية التي عاشت في العصر الحجري القديم. أما في الأجزاء الجنوبية التي لم يصل إليها زحف الثلاجات الجليدية، ومنها منطقة الشرق الأدنى، فكان يحدث إبان كل عصر جليدي عصر غزير الأمطار (Pluvial Period)[2] بحيث إنه حتى الصحارى القاحلة الآن، مثل الصحراء العربية والصحراء الإفريقية، كانت تتمتع بالمياه الوفيرة، مما جعل الحياة النباتية والحيوانية تزدهر فيها.

---

(1) نذكر فيما يأتي تقديرات تخمينية لأطوال العصور الجليدية الفاصلة فيما بينها في أوروبا:
1 ـ كنز 600,000 ـ 540,000.
فترة الـ «كنز ـ مندل» 540,000 ـ 480,000.
2 ـ مندل 480,000 ـ 430,000.
فترة الـ «مندل ـ رس» 430,000 ـ 240,000.
3 ـ رس 240,000 ـ 180,000.
فترة الـ «رس ـ ورم» 180,000 ـ 120,000.
4 ـ ورم 120,000 ـ 15,00 أو 10,000ق.م.

(2) العصور الممطرة (Pluvial Period). لم يثبت لحد الآن حدوث عصور جليدية في مناطق الشرق الأدنى، وإنما هناك احتمالات على وجود آثار ترسبات جليدية في القاعدة الجنوبية لجبل «بيره مكزون» في الموضع المسمى «قره جتان»، وكذلك في بعض المواضع في جبال الأطلس في الجزائر:

Braidwood, *Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan* (1960), p. 89.

وإذا كان الضغط العالي الناتج من وجود الجبال الثلجية قد كان يحول دون سقوط معظم الأمطار المحمولة بالأعاصير الأطلسية في المناطق الشمالية من أوروبا حيث كانت تلك الأعاصير تنحرف إلى الأصقاع الجنوبية من الكرة الأرضية، فإنه كان يحدث العكس إبان الفترات الجليدية، فكان يقابلها في الأجزاء الجنوبية، ومنها منطقة الشرق الأدنى، عصور جفاف، على نحو ما نشاهده الآن، حيث الفترة الجليدية الراهنة وظاهرة الجفاف العامة في المناطق البعيدة عن مدى خطوط الأمطار.

وقبل أن ننهي هذه الملاحظات على ظاهرة العصور الجليدية والفترات الجليدية ننوِّه باستخدام ترسبات العصور الجليدية لتحديد أزمان أدوار العصور الحجرية الأوروبية قبل الاستعانة بالطرق العلمية الحديثة، وأشهرها ما سبق أن ذكرناه في الفصل الثاني عن ظاهرة العناصر المشعة (Radio-Active) أو النظائر (Isotopes) مثل «الكاربون ـ 14» والبوتاسيوم ـ أرغون /K) (Potassium-Argon) (A و«الأورانيوم ـ ثوريوم» (Uranium-Thorium).

أما كيفية الاستعانة بظاهرة العصور الجليدية والفترات الجليدية في تحديد أدوار العصر الحجري القديم في أوروبا فإنها تستند إلى التعاصر أو الترابط الزمني ما بين هذه الأدوار وبين العصور الجليدية وفتراتها التي قدرت أزمانها بطرق جيولوجية خاصة، وما نتج عن هذه العصور الجليدية من تبدلات وتغييرات في الحياة الحيوانية والنباتية مما يعثر على بقاياها مع الأدوات الحجرية الخاصة بأدوار العصر الحجري القديم على نحو ما نوَّهنا به في الفصل الثاني. أما بالنسبة إلى العصور الحجرية الخاصة بالمناطق الخارجة عن نطاق العصور الجليدية، ومنها العراق ومنطقة الشرق الأدنى، فقد توصل الباحثون حديثاً إلى استنباط طرق خاصة لتحديد أدوار العصور الحجرية فيها بالاستناد إلى الظاهرة المصاحبة للعصور الجليدية الأوروبية، أي العصور الممطرة التي قلنا إنها تقابل العصور الجليدية الأوروبية، والعصور الجافة المقابلة للفترات الجليدية في أوروبا. فمن نتائج العصور الجليدية في الشرق الأدنى ظاهرة شطآن الأنهار (Terraces) العالية والواطئة، حيث الشطآن العالية تقابل العصر الجليدي الأوروبي أي العصر الممطر في الجهات الجنوبية من

الأرض، والشطآن الواطئة كانت تتكون إبان الفترة الجليدية الأوروبية أي عصر الجفاف في منطقة الشرق الأدنى وغيرها من المناطق الخارجة عن مدى ظاهرة العصور الجليدية. وقد سجلت مثل هذه الشطآن أو الضفاف الجيولوجية من وادي النيل، واستفيد منها بربط زمن ما يعثر فيها على أدوات حجرية بأحد العصور الجليدية أو الفترات الجليدية الأوروبية[1]، كما سجل عدد من هذه الضفاف في دجلة والفرات وبعض الوديان الأخرى في العراق.[2].

وننوّه أيضاً بالاستعانة بظاهرة سواحل البحار العالية والواطئة، حيث الساحل الواطئ يمثل عصراً جليدياً لانحباس مصادر المياه في الكرة الأرضية في الجبال الثلجية في حين أن الشاطئ العالي يمثل فترة جليدية. وقد سجلت مستويات مختلفة من هذه السواحل، بعضها في شمالي إفريقيا وبعضها في سورية، واستعين بها في تحديد زمن الأدوات الحجرية التي يعثر عليها في مثل هذه السواحل بزمن العصر الجليدي أو الفترة الجليدية التي تقابلها[3].

---

(1) تحرى جماعة من الباحثين من المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو) ضفاف نهر النيل الجيولوجية (1929ـ1930) ودرست الأدوات الحجرية التي وجدت فوقها. انظر المرجعين التاليين:

(1) Sandford in *AJSL,* (1932), 170ff.

(2) Sandford, *Palaeolithic Man and The Nile Valley in Lower and Middle Egypt.*

(2) التحريات الخاصة بهذا الموضوع في العراق قليلة، نذكر منها ما اكتشف حديثاً من أدوات حجرية من العصر الحجري القديم الأدنى والأوسط في شطآن الوادي المسمى «وادي القصير» في البادية الجنوبية من العراق في ربيع عام 1966 من جانب جماعة من الباحثين من المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو). انظر:

Wright in *SUMER,* (1966).

وسجلت في حوض الفرات الأعلى في الأراضي السورية أربع ضفاف ارتفاعاتها: 15، 30، 100م على التوالي كما ذكرنا في المقدمة الجغرافية انظر:

De Meyer, *Tell Ed-Der,* (1971), p. 11.

(3) حول ظاهرة الشطآن البحرية وربطها بالعصور الجليدية والفترات الجليدية راجع البحوث التالية:

((1) Zeuner, *Dating The Past,* (1958).

(2) Daly, *The Changing World of the Ice Age,* (1934).

(3) Wulsin, *Prehistoric Archaeology of Nothwestern Africa* (1941).

(4) Mcburney and Hey, *Prehistoric and Pleistocene Geology in Cyrenaican Libya* (1955).

أدوار العصر الحجري القديم:

بعد تلك الملاحظات التمهيدية التي أوردناها نوجز خصائص العصر الحجري القديم والتسميات الخاصة بأدواره المختلفة في أوروبا لتكون كما ذكرنا أساساً لما يضاهيها من العصر الحجري القديم في العراق. وأول ما نذكر طول الفترة الزمنية التي استغرقها العصر الحجري القديم، فقد شغل النصف الثاني من دهر البلايستوسين، قبل نحو (500,000) عام، كما استغرق العصور الجليدية كلها. وحدثت في هذه الفترة الطويلة تطورات بيولوجية وثقافية عديدة في حياة الإنسان، منها تطور الأساليب في صنع الأدوات الحجرية، بحيث أمكن تقسيم تلك الفترة الطويلة إلى أطوار كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة أدوار أو عصور رئيسة، هي ابتداء من الأقدم:

1 ـ العصر الحجري القديم الأول أو الأدنى (Lower Palaeolithic):

أ ـ الدور الـ «ابيفلي» (Abbevellian) (وكان يسمى سابقاً شيلي) (Chellean).

ب ـ كلاكتوني (Clactonian).

جـ ـ آشولي (Acheulean).

د ـ لفالوازي (Levalloisian).

2 ـ العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

أ ـ لفالوازي ـ مستيري.

ب ـ مستيري (Mousterian).

3 ـ العصر الحجري القديم الأعلى أو الثاني (Upper Palaeolithic):

ويتضمن الأدوار التالية في أوروبا:

أ ـ بريگودي ـ شاتل بيروني (Perigodian Chatel-Peronian).

ب ـ أورغنيشي (Aurignacian).

جـ ـ سلوتري (Soluteran).

د ـ مگدليني (Magdalenian).

4 ـ العصر الحجري الوسيط (Mesolithic):

ونورد الآن بعض الملاحظات الموجزة عن هذه الأدوار:

الدور الابيفيلي:

لقد ذكرنا أنه كان يسمى سابقاً الدور الشيلي. وهو أقدم أدوار العصر الحجري القديم، ويقع زمنه ما بين العصر الجليدي الأول وبين الفترة الجليدية الأولى، أي فترة الـ «كنز ـ مندل»؛ وعاش فيه نوع من الإنسان القديم البائد في أوروبا سمي بإنسان «هايدل برك» (Heidelberg). وكانت الأدوات الحجرية في هذا الدور تصنع بطريقة تشظية الحجارة واستعمال لب الحجرة من بعد تشظيتها وهندمتها أداة على هيئة الفأس اليدوية (Hand Axe) أو كما تسمى بالفرنسية (Coup de point)، وهي ذات أشكال كمثرية. ولأن لب الحجر هو الذي كان يستعمل أداة عرف هذا الأسلوب بصناعة «اللب» (Care industry). وانتشرت هذه الصناعة الحجرية في أوروبا وفي شمالي افريقيا وأماكن أخرى من العالم، ولكن لم يعثر حتى الآن عليها أو على ما يضاهيها في العراق.

الدور الكلاكتوني:

ويقع زمن هذا الدور في أوروبا في أواخر الفترة الجليدية الثانية (مندل ـ رس)، وأهم ما يميز أدوات هذا الدور الحجرية أن معظمها مصنوع بطريقة التشظية، حيث الشظايا هي الأدوات المستعملة (Flake Industry).

الدور الآشولي:

استغرق زمن هذا الدور في أوروبا فترة طويلة من دهر البلايستوسين، فقد بدأ في الفترة الجليدية الثانية (مندل ـ رس) التي يقدر طولها ما بين

200,000 و190,000عام، وانتهى قبيل الفترة الثالثة (رس ـ ورم)، ولذلك قسم في بعض أجزاء العالم، ولا سيما إفريقيا، إلى ثلاثة أطوار كبرى سميت الطور الآشولي الأول والثاني والثالث. ويعد الدور الآشولي من ناحية الأسلوب المتبع في صناعة الأدوات الحجرية وأشكالها متطوراً من الدور الابيفيلي السابق الذي قلنا إنه أول أدوار العصر الحجري القديم. وإن كلتا الصناعتين الأبيفيلية والآشولية من نوع الصناعة التي سميناها «صناعة اللب» وتتألف غالبية الأدوات الحجرية الآشولية من الفؤوس اليدوية، ولكنها صارت أدق صنعاً في أشكالها وتشظيتها وهندمتها من سابقاتها الفؤوس الأبيفيلية.

ولم يعثر لحد الآن على أدوات حجرية واضحة من هذا الدور في العراق، على الرغم من أن الفؤوس اليدوية التي وجدت في «برده بلكا» (بالقرب من جمجمال) قد اعتبرت حين اكتشافها من الدور الآشولي، وسنتطرق إلى هذا الموضوع فيما بعد.

الدور اللفالوازي:

يقع زمن هذا الدور في الفترة الجليدية الثالثة (رس ـ ورم)، وتتميز أدواته الحجرية بأن الكثير منها صنع من شظايا الحجارة. وله صلة تطورية بالدور التالي أي الدور «اللفالوازي ـ المستيري».

العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

ارتأى الباحثون حديثاً فرز دورين من أدوار العصر الحجري القديم وجعلهما عصراً حجرياً خاصاً أطلق عليه العصر الحجري القديم الأوسط، وقد خصص له الدوران المسميان «لفالوازي ـ مستيري» والدور المستيري. وأهم ما يميّز صناعة هذا العصر بكلا دوريه نوع من الفؤوس اليدوية أشكالها على هيئة القلب (cardiform) وهي مصنوعة من لب الحجر (Core). على أن أدوات أخرى من هذا العصر صنعت من الشظايا أيضاً. ويقع زمن هذا العصر في الفترة الجليدية الثالثة (رس ـ ورم).

وبالنسبة إلى العراق وجدت أدوات هذا العصر ولا سيما من النوع «المستيري» بكثرة في شمالي العراق، مثل كهف شانيدر الذي سيأتي الكلام عليه. ويقرن بهذا العصر نوع الإنسان القديم البائد المعروف باسم النياندرتال الذي وجدت نماذج كثيرة من هياكله العظيمة في أرجاء العالم، ومنها البقايا العظمية التي وجدت في كهف شانيدر، كما سنذكر فيما بعد. والجدير بالتنويه في ختام هذه الملاحظات العامة أنه اشتقت من الصناعة المستيرية صناعة حجرية خاصة بشمالي إفريقيا أطلق عليها اسم الصناعة «العتيرية»[1].

العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic):

شغل العصر الحجري القديم الأعلى جزءاً صغيراً من دهر البلايستوسين، فيرجع زمنه إلى الأطوار الأخيرة من العصر الجليدي الرابع، وهو العصر الأخير المسمى «ورم»، الذي استغرق من حدود 120,000 إلى 15,000 أو 10,000ق.م، في حين أن هذا العصر الحجري لا يتعدى 40,000. وأهم ما يميز صناعة هذا العصر الحجري تطور أساليب التشظية واتقانها وصنع الأدوات التي تسمى النصال أو الأدوات النصلية (Blades). ويميّز المختصون من هذه الأدوات التي هي عبارة عن شظايا طويلة مستدقة عدة أصناف وأنواع أبرزها نوع من المقاشط (End-of-blade scrapers) والمزارف (Burins) والنصال ذات الحافات المثلومة أو ذات الحد الواحد (Backed blades). ووجدت في أوروبا أدوات كثيرة مصنوعة من العظام والخشب بالإضافة إلى الأدوات المصنوعة من الحجر. وظهر في هذا العصر ولا سيما في أوروبا فن الرسم والصور في جدران الكهوف. وأطلق مصطلح الدور «البرادوستي» (نسبة إلى جبال برادوست في شمالي العراق) على هذا العصر في العراق وسيأتي الكلام على ذلك. كما يضاهي العصر الحجري القديم الأعلى الدوران المسميان الدور «القفصي» والدور «الوهراني» في

(1) نسبة إلى بئر العتير الواقعة على بعد نحو 80كم جنوب مدينة تونس.

شمالي إفريقيا حيث الأول منها يعم الأجزاء الداخلية والثاني الأجزاء الساحلية. وقد سبق أن عددنا أدوار هذا العصر في أوروبا فلا حاجة للكلام عليها لأنها خارج موضوعنا.

وحدث في العصر الحجري القديم الأعلى تطور بيولوجي خطير في حياة الإنسان حيث ظهر نوع الإنسان الحديث الذي سبق أن أشرنا إليه باسم الإنسان العاقل (Homo sapiens)، واختفى نوع إنسان «النياندرتال» الذي كان سائداً في العصر الحجري القديم الأوسط. ويختلف الباحثون في علاقة هذا الإنسان الحديث بالأنواع البشرية السابقة، فهل تطور منها أو أنه ظهر بطريقة التغيير البيولوجي الفجائي، وأنه قضى على تلك الأنواع وأبادها، أو أنه نشأ بطريقة التزاوج أو التهجين ما بين بعض تلك الأنواع البائدة.

العصور الحجرية في العراق:

ملاحظة على تأريخ التحريات عن هذه العصور:

إلى ما قبل 25 عاماً كانت التحريات الآثارية عن عصور ما قبل التأريخ في العراق مقتصرة على مناطق السهول الجنوبية والوسطى بعيداً عن المنطقة الجبلية في كردستان العراق، فلم تكن الأدوار التي أظهرتها تلك التحريات سوى الأطوار الأخيرة من عصور ما قبل التأريخ، من بعد العصر الحجري الحديث بالدرجة الأولى، وعلى وجه التحديد الأطوار الأخيرة من العصر الذي يسمى «العصر الحجري ـ المعدني». فباستثناء بعض الملتقطات السطحية والتحريات القصيرة القديمة التي أجرتها الباحثة الأثرية «كارود» (Garrod) في عام 1928 في كهفي «زرزي» و«هزار ميرد» في منطقة السليمانية، لم تتناول التحريات الأثرية كردستان العراق إلا منذ عام 1948، عندما بدأ الأستاذ «بريدوود» (Braidwood) من المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو في تحرياته المهمة في الموضع الأثري المسمى «جرمو»، تلك التحريات التي أثارت اهتمام الأوساط الأثرية في العالم، فاتسع نطاق التحريات وفي مقدمتها

تحريات المعهد الشرقي السالف الذكر بإشراف الأستاذ «بريدوود» نفسه والأستاذ «هاو» (Howe) في سفوح الجبال والمناطق المجاورة مما سنفصل القول فيه بعد قليل. وبدأت التنقيبات المهمة في كهف «شانيدر» (في عام 1951 واستمرت في عام 1961). على أن الذي يؤسف له أن هذه التحريات لم تكن في واقع الأمر سوى البداية، ولكنها كانت بداية تبشر بنتائج مهمة، لولا أنها أخذت بالتقلص ثم الانقطاع التام، حيث تحولت جهود الباحثين الآثاريين إلى الجانب الإيراني من جبال «زاجروس»، في سهول كرمنشاه وشمالي لورستان وأماكن أخرى في سفوح تلك الجبال الشرقية.

وعلى ضوء المقدمة العامة التي أوردناها في القسم الأول من هذا الفصل نحاول إيجاز نتائج التحريات الأثرية في شمال العراق بحسب الأدوار المختلفة التي عددناها للعصور الحجرية، وسنتناول في هذا الفصل أيضاً العصر الحجري الحديث. أما عصور ما قبل التأريخ الأخرى التي تلت هذا العصر فقد خصص لها الفصل الرابع التالي.

العصر الحجري القديم:

سبق أن رأينا كيف أن العصر الحجري القديم في أوروبا كان زمنه يقع ضمن العصور الجليدية والفترات الجليدية التي كان يقابلها في العراق وفي مناطق الشرق الأدنى عصور ممطرة وعصور جافة. ومع أن هناك بعض الامارات المحتملة على حدوث ما يضاهي العصور الجليدية الأوروبية في جبال طوروس وزاجروس[1]، بيد أنه يمكن الجزم بأن العراق كان من الأقاليم الخارجة عن مناطق الجبال الثلجية، وأنه من الناحية المناخية كان يقع إبان دهر البلايسوسين (الذي حدثت فيه العصور الجليدية) بين منطقتين مناخيتين متميزتين: منطقة شبه ثلجية ومنطقة شبه ممطرة (Sub pluvial). ومع ذلك فإن ظاهرة العصور الجليدية والعصور الممطرة التي تقابلها قد أثرت في عوارض

---

(1) راجع ما ذكرناه سابقاً عن احتمال وجود آثار ثلاجة محلية في سفوح جبل «بيره مكرون»، الهامش رقم 3.

العراق الجغرافية، مثل شطآن أنهاره وسعة أودية هذه الأنهار، حيث الكميات الجسيمة من المياه التي كانت تملؤها. كما أن الأمطار الغزيرة التي كانت تعم في العصور الجليدية قد نجم عنها تكوين الوديان الواسعة في سفوح كردستان. وأن مناطق البوادي القاحلة الآن كانت عامرة بالحياة النباتية والحيوانية، فكانت مناطق سهوب (Steppes)، إلى غير ذلك من الأحوال المناخية المواتية لازدهار إنسان ما قبل التأريخ، ولا سيما في أثناء العصور الحجرية، الأمر الذي يجعل من المتوقع أن يجد الباحثون أدوار تلك العصور ممثلة أحسن تمثيل في المناطق الشمالية من العراق، ولكن قلة التحريات الأثرية وانقطاعها المؤسف جعلنا لا نعرف سوى أشياء قليلة عن أدوار تلك العصور.

العصر الحجري القديم الأدنى (Lower Palaeolithic):

لم يعثر لحد الآن على آثار واضحة لما سميناه بالعصر الحجري القديم الأدنى باستثناء ملتقطات سطحية هنا وهناك مشكوك في نسبتها إلى دور واضح من أدوار هذا العصر التي عددناها في القسم الأول من بحثنا. ومن قبيل ذلك الأدوات الحجرية التي التقطتها مديرية الآثار العامة (عام 1949) في الموضع المسمى «برده بلكا»[1] الواقع على بعد نحو ميل ونصف شمال شرقي بلدة جمجمال، على الطريق المؤدي إلى السليمانية، والمرجح أن اسم هذا الموضع أي «برده بلكا» مشتق من النصب أو الحجر القائم الذي يحتمل أنه يعود في زمنه إلى العصر الحجري الحديث قبل نحو 8000عام.

وأعقب جمع مثل تلك الملتقطات السطحية تحريات أثرية قصيرة أجراها في هذا الموضع الباحثان الأمريكيان «رايت» و«هاو»[2]، حيث تأكد بنتيجة السبر الأثري أن أصل تلك الأدوات الحجرية الملتقطة يعود إلى مستوطن

---

(1) انظر مجلة «سومر»، المجلد الخامس (1949).

(2) انظر المراجع:

Wright and Howe, «Preliminary Report on the Sounding at Barda Balka» in *SUMER*,(1951).

Wright in the *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 128, (1952), 11ff.

مكشوف (في العراء) يرجع في تأريخه إلى العصر الحجري القديم، وقد انطمر تحت طبقة من الطمى (Silt) والحصى يبلغ ثخنها نحو (5) أقدام، الأمر الذي يشير إلى عصر ممطر لعله كان آخر العصور الممطرة المقابل لآخر عصر جليدي في أوروبا. وإن الأدوات الحجرية التي اكتشفت في الموضع مصنوعة بطريقة التشظية أي إنها أدوات من الشظايا، من بينها الأدوات ذات الحدين وبضع فؤوس حجرية يدوية على هيئة القلب (Cardiform) وبعضها لوزية الشكل. كما وجدت عدة أدوات من النوع الذي سميناه بالأدوات الحصوية (Pebble tools) كانت تستعمل للقشط. والرأي السائد عن هذه الأدوات أنها تشبه الأدوات الآشولية وبعضها يشبه الأدوات الكلاكتونية والأدوات المستيرية المحلية. وقد خصص لزمن هذه الأدوات العصر الجليدي الأخير، لعله ما بين 100,000 إلى 60,000 عام، على أن الدور المستيري أقرب الأدوار التي يرجح نسبتها إليه.

وعدا عن هذا الموضع لم يعثر بطريق التحريات المنتظمة على أدوات من أطوار العصر الحجري القديم الأدنى في أنحاء العراق المختلفة باستثناء ملتقطات سطحية قليلة وجدت في عدة مواضع من العراق، من بينها أماكن في البادية الغربية، أغلب الظن أنها من العصر المستيري أي العصر الحجري القديم الأوسط، واحتمال نسبة البعض الآخر منها إلى العصر الحجري القديم الأدنى[1].

(1) من هذه الأماكن ما وجد في منطقة منخفض «أبو دبس» و«الرزازة»، غرب مدينة كربلاء ومنطقة بحر النجف، حيث استخرج الباحث الجيولوجي «فوت» (Caesar voûte) في عام 1955 بطريقة الحفر (Boring) بعض الأدوات الحجرية من نوع المقاشط (على عمق نحو 4,80 متراً تحت السطح)، وهي ترجع في أغلب الظن إلى الدور المستيري. كما يجدر التنويه أيضاً بالتحريات التي أجراها الأستاذ «رايت» (Wright) في منطقة وادي القصير، على بعد نحو كيلومترين جنوب ـ غربي قلعة القصير في بادية السماوة الجنوبية، حيث عثر على بقايا مستوطن من العصر الحجري القديم (انظر مجلة سومر، المجلد 22 (1966)، القسم الإنجليزي ص 101).

العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

سبق أن ذكرنا أن هذا العصر يطلق عليه تسمية «الفالوازي ـ مستيري» ويقع زمنه في أواخر الفترة الجليدية الثالثة وفي العصر الجليدي الرابع وكان أقدم اكتشاف للأدوات الحجرية التي ترجع إلى هذا العصر في العراق ما أظهرته تحريات الباحثة الأمريكية «دوروثي كارود» في الكهف المسمى «هزار ميرد» (الواقع على بعد نحو 12 ميلاً جنوب السليمانية) في عام 1928 حيث وجدت الأدوات الحجرية من هذا العصر في أسفل طبقات هذا الكهف[1] كما تحرت الباحثة السالفة الذكر في الكهف المسمى «زرزي» (في منطقة السليمانية أيضاً). ووجدت آثار هذا العصر كذلك في كهوف أخرى في شمالي العراق أشهرها كهف «شانيدر» الذي سنتكلم عنه، وكهف «بايخال»، في حافة سهل «ديانا».

كهف شانيدر:

وبما أن الأدوات الخاصة بالدور «المستيري»، موضوع كلامنا الآن، قد وجدت في كهف «شانيدر» مع هياكل عظمية من إنسان النياندرتال الذي عاش في هذا الدور، فيحسن أن نلخص نتائج التنقيبات المنتظمة التي أجريت فيه.

كهف «شانيدر» من كهوف كردستان العراق المشهورة، ولعله أكبر الكهوف المكتشفة لحد الآن، ولا يزال يستعمله الرعاة للسكنى وإيواء قطعان الماشية فيه. وهو يقع في الجناح الجنوبي من جبال «برادوست»، ويطل على وادي الزاب الأعلى، بالقرب من مركز ناحية شانيدر. وقد اكتشفته مديرية الآثار العامة، ثم رخصت للأستاذ «رالف سوليكي» (Solecki) أن ينقب فيه بالنيابة عن جامعة «مشيغان» الأمريكية، ثم نيابة عن المعهد «السمشوني» الأمريكي، فشرع بتحرياته في عام 1951 واستمر إلى عام 1961 وما زال التحري فيه ناقصاً حيث بقيت أعماق من الكهف لم يحفر فيها قبل بلوغ قاع

---

(1) حول تحريات كهفي «هزار ميرد» و«زرزي» انظر:

Garrod in the *Bulletin of the American School of Prehistoric Research*, (1930).

الكهف الأصلي، أي ما يسمى «الأرض البكر». وبلغت التنقيبات في الموسم الأخير زهاء 45 قدماً (14 متراً) من عمق الكهف، تتضمن بقايا أربعة أدوار أو طبقات أثرية رئيسية[1]، رقمت بالأحرف اللاتينية ابتداء من الأعلى: الطبقة «A» و«B» (B-2, B-1) و«C» و«D». وتتميز الطبقة «D» بأنها أكثر الطبقات ثخناً، إذ إنها تتألف من نحو (28) قدماً من الأنقاض؛ وترجع آثارها إلى العصر الحجري القديم الأوسط، من الدور «المستيري» (Mousterian)، حيث سكن نوع إنسان النياندرتال هذا الكهف طوال عدة مئات من القرون. وقد أمكن تحديد زمن هذا الدور من الكهف بطريق فحص «الكاربون ـ 14» ما بين 60,000 و45,000 عام وهو رقم يلائم التأريخ المقدر للدور «اللفالوازي ـ المستيري» في الأجزاء الأخرى من الشرق الأدنى.

أما الأدوات الحجرية التي وجدت في الكهف من الدور «المستيري» فأكثرها من نوع المثاقب أو المزارف الحجرية (Points) وهي ذات أشكال شبه مثلثة وكذلك الأدوات المستعملة للقشط أي المقاشط (Scrapers) ووجدت في الطبقة «D» من الكهف أيضاً بقايا عظام حيوانية متنوعة ولكنها غير مدجنة كالثيران والغنم والماعز وأصداف السلاحف. وسنشير إلى أهمية وجود الأصول الوحشية للحيوانات التي دجنها إنسان العصر الحجري الحديث في شمالي العراق. وتكللت المكتشفات الأثرية في كهف «شانيدر» بالعثور على هياكل عظمية بشرية من الطبقة «D» التي قلنا إنها تعود إلى الدور المستيري،

---

(1) نشرت نتائج التنقيبات في جملة تقارير ظهرت بالدرجة الأولى في المجلدات الآتية من مجلة «سومر»: المجلد 8 (1952)، و9 (1953) و11 (1955) و13 (1957) و14 (1958) و17 (1961). أما أدوار طبقات الكهف فهي:

الطبقة «A»: أوائل العصر الحجري الحديث (Proto Neolithic).

الطبقة «B»: الدور الحجري الوسيط.

ويسمى هذا الدور باسم خاص هو الدور «الزرزي» (نسبة إلى كهف زرزي).

الطبقة «C»: العصر الحجري القديم الأعلى (ويطلق عليه في شمالي العراقي «برادوستي»).

الطبقة «D»: الدور المستيري (أي العصر الحجري القديم الأوسط).

وهي من نوع إنسان النياندرتال المشهور[1]، الذي يعد آخر الأنواع البشرية العتيقة البائدة حيث ظهر من بعده نوع الإنسان العاقل، أي نوع الإنسان الحديث، أما هياكل شانيدر العظمية فيعود أحدها إلى طفل قدر عمره بستة شهور، وتعود الهياكل الثلاثة الأخرى إلى أفراد بالغين (وجدت في مواسم عام 1956ـ1957). ومما يؤسف له أن عظام الطفل وعظام اثنين من الأفراد البالغين في حالة غير سليمة وغير محفوظة ولكن جمجمة الهيكل الرابع الذي قدر عمره بخمسة وثلاثين عاماً أحسن حفظاً، وأمكن بعد معالجتها وتقويتها ودرسها معرفة أمور مهمة عن تشريح هذا الإنسان القديم وبنيته الجسمية. فمن الأشياء الطريفة التي عرفت عن هذا الإنسان أن ذراع أحد أولئك الأفراد كانت مشلولة عاطلة منذ ولادته ثم قطعت بعدئذٍ بسكين من حجر الصوان. والمرجح أن أولئك الرجال لاقوا حتفهم بسبب سقوط صخور سقف الكهف لعله على أثر زلزال وقع في المنطقة. وقد قدر تأريخ ثلاثة هياكل في حدود 45,000 عام، في حين أن الهيكل الرابع يرجح أن يرجع زمنه إلى حدود 60,000 بدلالة عمق الطبقة التي وجد فيها في الكهف.

إن الهياكل العظمية المكتشفة في كهف شانيدر على قدر عظيم من الأهمية لأنها أولى بقايا عظمية تكتشف في العراق من إنسان العصر الحجري القديم الذي عاش في كردستان العراق قبل نحو 60,000 عام أو يزيد.

ومع أن هذا الإنسان ليس أقدم نوع من الأنواع البشرية التي عاشت في

---

(1) (Neanderthal man) أو بالمصطلح العلمي (Homo Neanderthalenis) نسبة إلى موضع في ألمانية اسمه «نياندرتال» بالقرب من «دسلدورف». حيث اكتشفت هناك هياكله العظمية لأول مرة، ثم عثر على نماذج أخرى كثيرة من هذا النوع الإنساني في معظم أجزاء العالم تقريباً، ومنها الشرق الأدنى مثل شمالي إفريقيا وفلسطين وإيران.

وقد درس هذه الهياكل العظمية من شانيدر المتخصص بالأنثروبولوجيا الجسمية الأستاذ «ستيوارت» (Stewart) ونشر نتيجة دراسته في مجلة «سومر»، المجلد الرابع عشر (1958)، القسم الإنجليزي ص 90 فما بعد راجع كذلك دراسته المنشورة في مجلة «الأخبار المصورة اللندنية» (Illustrated London News), nos, 5-7, (1960).

العصر الحجري القديم بيد أن اكتشاف بقايا له في شمالي العراق يشير إلى الإمكانات المحتملة في العثور في المستقبل على أنواع أقدم. وقد سبق أن نوَّهنا بتوقف التحريات الأثرية في شمالي العراق وهي لا تزال في بدايتها المثمرة، ولنا وطيد الأمل بأن استئناف التحري سيكشف لنا عن نتائج على قدر عظيم من الأهمية، حيث إن كهف شانيدر نفسه لم تبلغ التحريات فيه قاع الكهف أي ما يعرف بمصطلح «الأرض البكر» في علم الآثار؛ وهناك العشرات بل المئات من الكهوف والملاجئ الجبلية والمواضع المكشوفة في كردستان العراق، سجل الكثير منها، ولكن لم تجر فيها التحريات الأثرية.

وننهي هذه الملاحظات عن نتائج التحريات في كهف شانيدر بذكر رأي بعض الباحثين في وجود شبه كبير بين إنسان النياندرتال «الشانيداري» وإنسان النياندرتال المكشف في جبل الكرمل في فلسطين، والمرجح أن لأحدهما أو لكليهما علاقة تطورية بيولوجية بظهور نوع الإنسان الحديث أي «الإنسان العاقل».

العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic):

سبق أن ذكرنا أن هذا العصر هو الطور الأخير من العصر الحجري القديم، وأن زمنه يرجع إلى آخر العصور الجليدية، أي العصر الجليدي الرابع، وبانتهائه حلت الفترة الجليدية الراهنة، ونوَّهنا أيضاً بأن أبرز ما يميز هذا العصر الحجري، بالإضافة إلى نوع أدواته الحجرية المتميّزة بصناعتها وأشكالها، ظهور نوع الإنسان العاقل أو الإنسان الحديث، كما عددنا أطواره في أوروبا. أما في العراق فقد ارتأى منقب كهف شانيدر الأستاذ «سوليكي» تسمية هذا العصر بجميع أطواره باسم الدور «البرادوستي»، نسبة إلى جبال برادوست المعروفة التي يقع فيها كهف شانيدر نفسه.

وجدت الأدوات الممثلة لهذا العصر في عدة أماكن في شمالي العراق، من بينها جملة كهوف استوطنها إنسان ذلك العصر. وكان أقدم اكتشاف لأدواته الحجرية في العراق ما وجدته الباحثة «كارود» في كهف «زرزي» الواقع

في منطقة السليمانية[1] وهي الباحثة التي قلنا إنها تحرت كهف «هزار ميرد» أيضاً. ووجدت آثار هذا العصر أيضاً في كهف «بالي كورا» الواقع على بعد نحو (20) ميلاً شرق جمجمال، وقد تحرى فيه الأستاذ «هاو» (Howe)[2]، كما عثر عليها في جملة كهوف أخرى تحرى فيها الأستاذ «بريدوود» وجماعته في عام 1954 و1955 مثل كهف «كيوانيان» في منطقة راوندوز[3].

وظهرت أدوات هذا العصر كذلك في الطبقة «C» من كهف شانيدر، وقد أمكن تقدير زمن هذه الطبقة أي زمن العصر الحجري القديم الأعلى المسمى في العراق بالدور «البرادوستي» كما قلنا بطريقة فحص «الكاربون ـ 14» ما بين (34,000) و(25,000) :ق.م[4]، ويمثل الرقم الأول النهاية العظمى والرقم الثاني النهاية الصغرى.

الغالب على الأدوات الحجرية الخاصة بهذا العصر أنها من نوع الأدوات النصلية أو النصال (Blades)، وهي الصناعة التي قلنا إنها تميز هذا العصر، على أن هنا أدوات خاصة بشمالي العراق تسمى الأزاميل (Gravers) وكانت هذه الأدوات من بين الأسباب التي حملت الأستاذ «سوليكي» على إطلاق تسمية الدور «البرادوستي» على هذا العصر في العراق. وظهر هذا النوع من الأدوات في الأجزاء العليا من الطبقة «C» في كهف شانيدر السالف الذكر

---

(1) حول تحريات كهفي «هزار ميرد» و«زرزي» انظر:

Garrod in the *Bulletin of the American School of Prehistoric Research*, (1930).

(2) انظر:

Braidwood and Howe, *Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan*, (1960).

(3) ذات المصدر في الهامش 12، وكذلك مجلة «سومر»، المجلد العاشر (1954) القسم الإنجليزي.

(4) الواقع أن فحص «الكاربون ـ 14» أسفر عن نتيجتين: (1) فحص واشنطن وأرقامه 34,000 للنهاية العظمى ورقم 29,000 زائد أو ناقص 1500 للنهاية الصغرى، (2) فحص (Lamout) وأرقامه 32,000 زائد أو ناقص 3000 ورقم 26,000 زائد أو ناقص 1500.
وتعد كلتا النتيجتين معقولة في تقدير زمن هذا العصر الذي قلنا إنه يقع في أواخر العصر الجليدي الرابع.

وفي معظم الطبقة «B» (التي تلي الطبقة «C» إلى الأعلى)، ويغلب على هذه الأدوات الأشكال الدقيقة الصغيرة (Microlithic) كما وجدت أنواع من المقاشط (Ssrapers) الصغيرة المستديرة والنصال الدقيقة في الكهوف الأخرى مثل كهف «زرزي». وتدل بعض الأدوات المصنوعة من الحجر البركاني الأسود المعروف بحجر الأوبزيدي (Obzidian) على اتصالات مع المناطق المشهورة بكونها مصدر هذا الحجر ولا سيما منطقة «وان» في أرمينية.

وهناك وجهات نظر مختلفة عن مضاهاة أدوات هذا العصر البرادوستي في العراق مع أدوات العصر الحجري القديم الأعلى من الجهات الأخرى في الشرق الأدنى وأوروبا. فيرى بعض الباحثين أن لها شبهاً بالصناعة الأورغنيشية الأوروبية في حين يرى باحثون آخرون أن الأدوات العراقية فريدة من نوعها فلا تشبه أي صناعة حجرية أخرى.

العصر الحجري الوسيط (Mesolithic):

يأتي هذا العصر الحجري من بعد نهاية العصر الحجري القديم، وهو في الأغلب طور انتقال ما بين الحجري القديم والحجري الحديث. وأهم ما يتميّز به من ناحية أدواته الحجرية دقة هذه الأدوات وصغر حجومها، ولذلك يسمى أيضاً عصر الأدوات الدقيقة «مايكروليثي» (Microlithic). وقد سبق أن ذكرنا التسمية الخاصة التي أطلقت على هذا العصر في العراق، هي الدور «الزرزي» نسبة إلى كهف «زرزي» (في منطقة السليمانية)[1]، ووجدت أدواته الحجرية الخاصة في عدة أماكن في شمالي العراق، بعضها كهوف وملاجئ

---

(1) يطلق على العصر الحجري الوسيط في سورية ولبنان وفلسطين اسم الدور «النطوفي» نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين. وقد عاش النطوفيون، كما كان عليه الحال في شمالي العراق، في الكهوف وفي قرى ومستوطنات مكشوفة، واعتمدوا الصيد وجمع القوت في تأمين قوتهم. كما جمعوا الحبوب البرية. وعثر في بعض هذه المواضع على طائفة من الأدوات منها نوع من المناجل الصوانية، ولكن لم يثبت أنها استعملت للحصد في الزراعة المدجنة، كما لم تظهر إمارات أكيدة على تدجين الحيوان. ولعل معرفة التدجين والزراعة قد انتقلت من شمالي العراق إلى تلك المناطق (انظر CAH, I, (1965), chap. 3).

جبلية، وبعضها على هيئة قرى ومستوطنات في الأرض المكشوفة. وكان أول موضع وجدت فيه كهف «زرزي» السالف الذكر، الذي أطلق اسمه على هذا الدور من أدوار العصور الحجرية في شمالي العراق. وعثر عليها أيضاً في كهف آخر اسمه «پاولي - كورا»، وقد سبقت الإشارة إليه؛ وفي كهف «شانيدر» وجدت أدوات هذا الدور في الطبقة المرقمة «B»، وقد أظهر فحص «الكاربون - 14» رقم 10,000ق.م على أنه حد أدنى لزمن تلك الأدوات.

ومع أن الإنسان اعتمد صيد الحيوان وجمع البذور الوحشية مصدراً أساسياً لحياته الاقتصادية، بيد أنه ظهرت إمارات مهمة على انتقال الإنسان في شمالي العراق إلى حياة صار يعتمد فيها بالتدريج على جمع الحبوب البرية واختيار بعض أصنافها وظهور البوادر الأولى للزراعة التجريبية المحدودة وتدجين بعض الحيوانات كما سنتطرق إلى ذلك بعد قليل في كلامنا على بعض القرى القديمة مثل «زاوي جمي» وكريم شهر وملفعات وكردي جاي، وكلها يرجع إلى أطوار انتقالية ما بين آخر العصر الحجري الوسيط الممثل بقرية «زاوي جمي» وبين طور قرية «جرمو» الذي يعد بداية العصر الحجري الحديث حيث اتضح ظهور الزراعة وتدجين الحيوان على ما سنبيِّن ذلك. أما الأطوار السابقة لطور «جرمو» وهي الأطوار التي أطلقنا عليها اسم العصر الحجري الوسيط، فكانت مراحل انتقالية تمهيدية كما قلنا لبداية تدجين الحيوان وجمع بعض الحبوب التي دجنت وزرعت في الطور الزراعي الواضح الذي تمثله قرية «جرمو». ونحاول فيما يلي إيجاز هذه الأطوار الانتقالية كما كشف عنها في المواضع الأثرية التي أجريت التحريات فيها.

1 - «زاوي - جمي»، أقدم قرية من نوعها:

ولنأخذ أولى القرى التي يرجع عهدها إلى العصر الحجري الوسيط وظهرت فيها بداية الانتقال إلى طور إنتاج القوت بالزراعة وتدجين الحيوان،

وتعرف بقاياها الآن باسم «زاوي جمي»، وقد اعتبرت أقدم مستوطن قروي في شمالي العراق وأول قرية من نوعها في العالم[1].

تقع «زاوي ـ جمي» على ضفة الزاب الأعلى (ولذلك سميت بهذا الاسم)، حيث تبعد عن ضفة النهر بنحو 95 متراً، وعلى بعد زهاء 4كم إلى الغرب من كهف «شانيدر»، وعلى ارتفاع نحو 425 متراً عن سطح البحر، وترتفع جبال «برادوست» المجاورة زهاء 1800متر. وتبلغ مساحة التل نحو 275×215 متراً. وقد نقب في هذا الموضع الأستاذ «سوليكي» في أثناء مواسم عمله الأخيرة في كهف «شانيدر». وظهر من هذه التحريات أن أقدم بقايا هذا المستوطن تقع على عمق ما بين المتر الواحد والمترين. وتتألف بقايا السكنى فيه من جدران من الطين غير منتظمة شيدت على أسس من حجارة الحصى الكبيرة، ووجدت كذلك معالم أكواخ مستديرة. وقد سجل دوران من البناء أي أدوار السكنى. ومع سذاجة هذه البيوت السكنية إلا أنها أقدم بيوت شيدها إنسان العصر الحجري الوسيط. وعثر على عدد من المواد المنزلية البدائية، من بينها الأحجار التي كانت تستعمل للدق والسحق وكذلك الهاون (Mortar) وأحجار الرحى.

استمر الاستيطان في هذه القرية مدة طويلة نوعاً ما؛ وكان صيد الحيوان المهنة الأساسية لسكانها، كما تدل على ذلك بقايا العظام الكثيرة. ويغلب على حيوانات الصيد في الطبقة السفلى من الموضع نوع من الغزال الأحمر أو الأيل. كما وجدت عظام الغنم (Sheep) وكانت عظامها في الطبقة السفلى القديمة من النوع الوحشي المصطاد، ولكن سرعان ما دجن الكثير منها في الطبقة العليا. أما الماعز فقد ظل وحشياً غير مدجن في جميع أدوار الموضع. وتشير الأدوات المنزلية التي ذكرناها كالرحى والمدقات والمساحق إلى أن

---

(1) راجع أحدث ما كتب عن الموضوع في:

(1) Garrod, «Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe», in *CAH.*, (1965), I, chap. 3.

(2) Mellaart, «The Earliest Settlements in Western Asia», in *CAH*, (1967), I, chap. 2, 1ff.

استعمالها كان لتهيئة الغذاء من الحبوب؛ كما وجدت مناجل من العظام، الأمر الذي يشير إلى معرفة بدائية بالزراعة، ولكن عدم العثور على بقايا من الحبوب «المكربنة» (Carbonized) يجعل من المتعذر الجزم بأن الإنسان في شمالي العراق قد شرع في هذا الطور بزراعة الحبوب البرية وتدجينها. وإذا انتفى هذا الجزم فيمكن تفسير تلك الأدوات المنزلية بأنها استعملت لتهيئة القوت من الحبوب البرية التي كان السكان يحصلون عليها بالجمع، مضافاً إلى ذلك أثمار البلوط التي يكثر وجودها في هذه المناطق من العراق منذ أقدم الأزمان، كما أن القواقع (Snails) كانت تؤلف جزءاً مهماً من غذاء السكان. ومهما كان الأمر من عدم العثور على بقايا حبوب مدجنة فإن تلك الأدوات المنزلية الخاصة بتهيئة الطعام من النباتات والحبوب وتدجين الغنم، كل ذلك يسوغ لنا الاستنتاج بدون أدنى شك أن قرية «زاوي ـ جمي» كانت كما قلنا أقدم قرية عثر عليها لحد الآن وفيها ظهرت البوادي الأولى لذلك الانقلاب الاقتصادي الخطير في حياة الإنسان، ونعني بذلك تدجين الحيوان والزراعة، وسنشاهد كيف أن معالمه اتضحت أكثر في العصر الحجري الحديث التالي، ممثلاً بأقدم قرى هذا العصر، ألا وهي قرية «جرمو» التي سنتكلم عنها بعد قليل.

أما تقدير زمن قرية «زاوي ـ جمي» فقد أظهرت فحوص «الكاربون ـ 14» رقم 9217 زائد أو ناقص 300ق. م لبقايا الطبقة السفلى ورقم 8935 زائد أو ناقص 300 للطبقة (B-1) من كهف شانيدر المعاصرة في زمنها لقرية «زاوي ـ جمي»، وبذلك يمكن تقدير زمن هذا الطور المهم من عصور ما قبل التأريخ في شمالي العراق في حدود الألف العاشر ق. م وبداية الألف التاسع. ويضاهي هذا التأريخ الزمن المقدر للطور «النطوفي» في فلسطين الذي سبق أن نوَّهنا به.

وبالنسبة إلى علاقة كهف شانيدر بقرية «زاوي جمي» القريبة منه يرجح أن الكهف في زمن الطبقة (B-1) كان مستوطناً شتوياً لأهل قرية «زاوي ـ جمي» التي كانت مقرهم الصيفي. ووجدت في الطبقة (B-1) من الكهف المعاصرة للقرية جملة قبور يرجح أنها تعود لأهل القرية. وعثر في بعض هذه القبور على

أدوات وتجهيزات جنائزية ذات دلالة مهمة. ففي أحد القبور العائد إلى فتاة وجدت مغرة حمراء وقلادة من خرز صغيرة ووجد في قبر آخر سكين من الصوان مثبت بالقبر في قبضة طويلة من العظم، كما وجدت معالم دكاك صغيرة من الأحجار، وضع البعض منها على هيئة قوس يشبه جدار السور المقوس الذي عثر عليه في قرية زاوي جمي. كل هذا يشير إلى نوع من الشعائر الخاصة بالدفن وبمعتقدات أقدم سكان القرى. ومن الآثار التي عثر عليها في الكهف وفي القرية ما يشير إلى اتصالات تجارية مع أقطار بعيدة، نذكر منها الحجر البركاني الأوبزيدي، الذي سبق أن ذكرنا أن أحد مصادره المشهورة في منطقة بحيرة وان. وكذلك القير في منطقة كركوك، كما وجدت بقايا قليلة من النحاس الخام الذي لا يعلم مصدره على وجه التأكيد، ولعله من المنطقة الواقعة شمال ديار بكر.

وتدل الأساليب التي صنعت بها الأدوات الحجرية المكتشفة في قرية زاوي جمي وفي الطبقة (B-1) من كهف شانيدر المعاصرة لزمن القرية على جمع بين الطرق القديمة المتوارثة من الأطوار السابقة وبين أساليب جديدة مشتقة من الصناعة الزرزية (العصر الحجري الوسيط). فمن بين الأدوات المصنوعة وفق الأساليب الجديدة الأدوات الحجرية المصنوعة بطريقة الضغط والصقل، مثل الرحى والمساحق (Muller) والهواوين والمدقات والمطارق. والجدير بالملاحظة في ختام كلامنا على قرية «زاوي ـ جمي» أنه لم يعثر فيها على أدوات مصنوعة من الطين مثل (الفخار والدمى الطينية)، كذلك لم يعثر على أقراص مغازل أو أدوات متشابهة تدل على معرفة بالحياكة، بيد أنه وجدت قطع من السلال والحصر. ووجدت عدة أدوات مصنوعة من العظام مثل المخارز (Awl) وآلات القشط والأزاميل الصغيرة والسكاكين ومقابض المناجل التي كانت تثبت نصالها المصنوعة من العظام بالقير. وصنع الكثير من الأدوات العظمية على هيئة أشكال هندسية استعمل البعض منها زينة. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أنه وجدت جملة مواد للزينة مثل خرز القلائد المصنوعة من العظام ومن أسنان بعض الحيوانات، وبعضها من الحجر الأخضر

المعروف باسم «ستياتايت» (Steatite)، ومن خام النحاس، ومن أدوات الزينة الدلايات أو القلائد المتخذة من حجر الاردواز (Slate) المزين بالحزوز[1].

الفترة ما بين طور «زاوي ـ جمي» وبين طور «جرمو»:

توجد فترة حضارية ما بين نهاية طور قرية «زاوي ـ جمي» التي تكلمنا عنها وبين دور العصر الحجري الحديث الذي تمثله قرية «جرمو» ويرجع في زمنه إلى حدود 6700ق.م، وبعبارة أخرى الفترة الفاصلة ما بين العصر الحجري الوسيط وبين العصر الحجري الحديث. ولم يعثر لحد الآن على مواضع أثرية استمرت فيها أدوار السكنى بحيث تكون تسلسلاً أثرياً طبقياً من نهاية طور «زاوي جمي» إلى بداية العصر الحجري الحديث، حيث انقطعت معالم السكنى في هذه القرية قبل بداية طور «جرمو» بعدة قرون، بخلاف بعض المواقع الأثرية في فلسطين التي تبدأ من الطور النطوفي (العصر الحجري الوسيط الذي تمثله قرية زاوي جمي) وتستمر فيها أطوار السكنى في الأطوار التالية إلى العصر الحجري الحديث والأطوار الأخرى كما في قرية «أريحا». أما في شمالي العراق فإن التسلسل الطبقي الأثري منقطع حسب معرفتنا الراهنة، على أنه وجدت جملة مواضع أثرية يعتقد أن أطوارها تملأ تلك الفترة الحضارية والزمنية، بيد أن الباحثين لم يستندوا في رأيهم هذا إلى طريقة التسلسل الطبقي الأثري وإنما اعتمدوا على تطور أشكال الأدوات والآلات الحجرية التي وجدت فيها، أي ما يصطلح عليه في علم الآثار (Typology).

أما هذه المواضع فهي على الترتيب التالي بحسب ما يظن في قدمها:

(1) كريم ـ شهر:

ويقع زمنه ما بعد طور «زاوي ـ جمي» وأقرب إلى بداية طور «كرمو».

ويرجح أن يكون طوره ما بين كريم شهر وبين جرمو.

---

(1) انظر التقرير الخاص بتحريات «زاوي جمي» في:

E. Solecki, «Zawi Chemi Shanidar. A Post Pleistocene Village Site in Northern Iraq», *Report of the VI. International Congress on Quaternary* (Warsaw, 1961),. vol. IV, (1964).

(2) **ملفعات.**

(3) **كردي جاي** يشبه الموقع السابق أي ملفعات.

ونذكر موجز نتائج التحريات الآثارية في هذه المواضع:

كريم - شهر:

يقع هذا التل بنحو (6) أميال شرق جمجمال[1]، وهو موضع أثري مكشوف (أي إنه ليس في كهف أو مغارة)، ويشغل مساحة قدرها نحو «ايكرين» (زهاء 8000متر مربع)، ولم تكشف التحريات فيه سوى دور واحد من الاستيطان يقع تحت سطح التل مباشرة، وقد أرجع زمنه إلى فترة ما من الدور الحجري الوسيط (Mesolithic) من بعد طور «زاوي - جمي» السالف الذكر. والغالب على الأدوات الحجرية التي وجدت فيها أنها من النوع الدقيق الصغير (مايكروليثي)، وهو نوع الأدوات المميزة للعصر الحجري الوسيط بوجه عام، ووجدت في الموضع أيضاً أدوات زراعية مثل المناجل المصنوعة من نصال الصوان والمعازق أو الفؤوس الحجرية للحراثة (Hoe) وأحجار الرحى. ولكن، كما قلنا عن قرية «زاوي - جمي»، لا يمكن الجزم بأن سكان «كريم شهر» عرفوا الزراعة المنظمة، بل يحتمل أن مثل هذه الأدوات الزراعية كانت تستعمل للحبوب التي ما زالت برية غير مدجنة. على أن المستوطنين في هذا الموضع كانوا شبه مستقرين، فإن عدم العثور على بقايا بيوت مشيدة باستثناء تباليط من الحصى في أرض الموقع يشير إلى أنه كان أقرب ما يكون إلى المخيم الموسمي. ومع أنه لم تكتشف بقايا حيوانات مدجنة إلا أنه وجدت كميات كثيرة من عظام الحيوانات التي دجنها الإنسان فيما بعد بزمن غير بعيد، فكانت بوادر التدجين عن طريق الانتخاب والاختيار للأنواع التي دجنت فيما بعد.

---

(1) انظر:

Braidwood and Howe, *Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan*, (1960).

ملفعات وكردي ـ جاي:

تحرى الأستاذ «بريدوود»[1] في الموضع المسمى «ملفعات» الواقع على ضفة نهر الخازر في الطريق ما بين أربيل والموصل. وقد وجدت فيه بيوت محفورة في الأرض ذات جدران مدورة مشيّدة بالحجارة غير المهندمة وذات «تباليط» من الحصى والحجارة. أما الأدوات فقوامها الفؤوس الحجرية (Celt) والهواوين، كما وجدت عظام حيوانات شبيهة بما وجد في موضع «كريم شهر». ويرجع الموضع في تأريخه مثل «كريم ـ شهر» إلى فترة تلي زمن قرية «زاوي ـ جمي».

ووجد موضع ثالث أرجع دوره أيضاً إلى الفترة الحضارية ما بين «زاوي ـ جمي» وبين طور «جرمو» يسمى «كردي جاي» في منطقة الزاب الأعلى، وتشبه صناعته الحجرية وأشكال الأدوات أيضاً ما وجد في «كريم ـ شهر» وملفعات.

إن ما ذكرناه من المواضع القليلة لا تقدم في الواقع إلا صورة جزئية ناقصة عن تلك الأطوار الحضارية المهمة التي تمثل المراحل الأولى للانتقال من طور جمع القوت في العصر الحجري الوسيط إلى طور الزراعة وتدجين الحيوانات التي ظهرت بوادرها الأولى في هذا العصر كما أبانت التحريات فيها. ومما لا شك فيه أن هناك مواضع أخرى قد نجد في بعضها سلسلة التطور المفقودة إلى ظهور الزراعة وتدجين الحيوان بوجه واضح في العصر الحجري الحديث الذي ظهرت بدايته في قرية «جرمو» مما سنتطرق إليه بعد قليل. ويجدر أن نعيد في هذا الصدد ما سبق أن نوَّهنا به من أن ما تم من تحريات في شمالي العراق لحد الآن لم يكن في الواقع سوى البداية، حيث انقطعت منذ أوائل الستينات وبقيت قضايا آثارية مهمة معلقة لا يزال حلها ينتظر استئناف البحث والتحري.

---

(1) انظر: Braidwood in *SUMER*, x, (1954), 120ff.

العصر الحجري الحديث:

انقلاب العصر الحجري الحديث وأين حدث:

سبق أن بيّنا كيف أن الإنسان ظل طوال العصور الحجرية القديمة (التي قلنا إنها شغلت زهاء 98% من حياة الإنسان) يعيش حياة همجية يعتمد في عيشه على جمع القوت بالصيد والالتقاط، ثم بدأ ينتقل في أواخر تلك العصور إلى طور جديد من الحياة تبدلت فيه أساليب عيشه تبدلاً أساسياً، بتعلمه إنتاج قوته بيده بالزراعة وتدجين الحيوان، وهو الانقلاب الاقتصادي الذي اتضحت معالمه في العصر الحجري الحديث وظهرت بوادره الأولى في شمالي العراق في العصر الذي سميناه «العصر الحجري الوسيط» مما سبق أن تكلمنا على بعض المواضع الأثرية الممثلة له في كردستان العراق.

إن انقلاب العصر الحجري الحديث بلغ من عظم الأثر في حياة الإنسان وفي مسيرته الطويلة إلى الحضارة والمدنية بحيث قرن الباحثون أهميته الاقتصادية بأهمية الانقلاب الاقتصادي الذي ظهر في الحضارة الغربية الحديثة منذ ظهور ما يسمى بالثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر وطبعها بطابعها المميّز لها.

أصل الزراعة وتدجين الحيوان:

وقبل أن نتكلم عن هذا العصر الجديد، أي العصر الحجري الحديث، والمواضع الأثرية التي ظهرت فيها أدواره وآثاره في أنحاء العراق ولا سيما الأقسام الشمالية منه، نتناول أولاً قضية حضارية على قدر عظيم من الأهمية في تطور الإنسان الحضاري، تلك هي مسألة أصل الزراعة وتدجين الحيوان، وأين وقع ذلك الانقلاب الاقتصادي الخطير على ضوء أحدث التحريات والدراسات الآثارية.

من البديهي أن يكون المنطلق الواضح لحل هذه القضية في البحث عن المواطن الطبيعية للنباتات والحيوانات التي دجنها الإنسان بعد أن كان يحصل عليها في العصور السابقة للعصر الحجري الحديث بطريقة الجمع والجني والصيد. فيكون الموطن الطبيعي (Natural habitat) لهذه النباتات والحيوانات

الموضع الذي ينبغي أن نبحث فيه عن أصل الزراعة وتدجين الحيوان. ويضاف إلى هذا الشرط الأساسي شرط مهم آخر لإثبات أصل الزراعة وتدجين الحيوان، ذلك أن نجد بطريق التحريات الآثارية في ذلك الموطن الطبيعي آثاراً وبقايا لتلك النباتات والحيوانات تثبت أن الناس الذين عاشوا في ذلك الموطن الطبيعي اهتدوا إلى إنتاج قوتهم بالتدجين بعد أن كانوا يحصلون عليه بالجمع والصيد. إن تحقق هذا الشرط الثاني أمر أساسي في حل القضية لأن مجرد وجود الأنواع النباتية والحيوانية الوحشية لم ينتج عنه تلقائياً تدجين تلك الأنواع من جانب الإنسان. وسنحاول إثبات تحقق هذين الشرطين في شمالي العراق. فإذا تحرينا عن الشرط الأول الخاص بالموطن الطبيعي لأصول تلك الأنواع الحيوانية والنباتية التي دجنها الإنسان، وفي مقدمتها الغنم (Sheep) والماعز والبقر والخنزير والقمح والشعير والعدس (Lentils) وغيرها، وجدنا أن ذلك الموطن محصور في منطقة جغرافية معيّنة منها الشرق الأدنى، على أننا إذا ضيقنا حدود تحرينا فيجب إخراج بعض الأقطار مثل وادي النيل الذي لا توجد فيه الأصول الوحشية لتلك الحيوانات والنباتات التي عددناها، ويصح هذا الحكم كذلك على بوادي بلاد الشام ومناطق الجزيرة العربية وسهل وادي الرافدين الجنوبي وسواحل البحر المتوسط وشمالي أفريقيا وأوروبا التي لا يوجد فيها من أصول تلك الأنواع سوى البقر والخنزير. ولذلك يضع الباحثون هذه المناطق خارج المركز الذي حدث فيه انقلاب العصر الحجري الحديث[1]. وبالإمكان حصر حدود الرقعة الخاصة بالموطن الطبيعي للنباتات

---

(1) مما لا شك فيه أن هذا هو السبب الذي جعل ظهور انقلاب العصر الحجري الحديث في وادي النيل يتأخر في بدايته عن وادي الرافدين فترة طويلة من الزمن، وليس من المستبعد أن تكون معرفة الزراعة وتدجين الحيوان قد انتقلت إلى مصر من العراق.

وعلى ضوء هذا السبب نفسه يمكن تفسير اقتصار انقلاب العصر الحجري الحديث في شمالي أفريقيا على تدجين الحيوان ولا سيما البقر دون الزراعة، وأن ظهور الزراعة فيها قد تأخر إلى زمن أولى الهجرات التأريخية للأقوام الأخرى وفي مقدمتهم الفينيقيون في مطلع الألف الأول ق.م والإغريق إلى برقة (في ليبيا) في القرن الثامن ق.م.

والحيوانات التي دجنها إنسان العصر الحجري الحديث في المنطقة الممتدة من هضبة الأناضول وأواسط آسية والقوقاز ومرتفعات فلسطين وشمالي العراق، في سفوح جبال «زاجروس» وبرادوست، ولعله أيضاً جهات البرز الشرقية والمنحدرات الشمالية لجبال هندوكوش[1].

وعلى هذا فإن سفوح جبال «زاجروس» الغربية (شمالي العراق) والشرقية (إيران) تحقق الشرط الأول من وجود الأصول الوحشية للحيوانات والنباتات التي دجنها الإنسان. وفي شمالي العراق يتحقق الشرط الثاني الملازم للشرط الأول، أي العثور على مستوطنات قديمة ظهرت فيها البوادر الأولى لذلك الانقلاب. وقد سبق أن تكلمنا على بعض هذه المستوطنات مما تم التحري فيها مثل «زاوي ـ جمي» و«كريم ـ شهر» وملفعات، وسنتكلم الآن عن المستوطنات التي ظهرت فيها الآثار الواضحة للزراعة وتدجين الحيوان في العصر الحجري الحديث في شمالي العراق، حيث الأحوال الطبيعية من مناخ ملائم وديمومة مياه الأمطار ووجود حيوانات ونباتات وحشية صالحة للتدجين هيأت المسرح منذ العصر الحجري الوسيط (الألف العاشر ق.م) لظهور ذلك الانقلاب الاقتصادي الخطير في حدود الألف الثامن أو السابع ق.م، أي في العصر الحجري الحديث التالي للحجري الوسيط، حيث ظهرت القرى الفلاحية التي وجد منها عدة نماذج في سفوح الجبال الشمالية، نذكر أشهرها بحسب قدمها: (1) جرمو. (2) الطبقات السفلى من «شمشارة»، (3) تل حسونة، (الطبقة الأولى أ ـ IA). (4) كهف شانيدر (الطبقة A)، وغيرها من المستوطنات القديمة الأخرى التي سنذكرها في كلامنا على أطوار العصر «الحجري ـ المعدني» التالي للعصر الحجري الحديث، حيث ترجع الطبقات السفلى في الكثير منها إلى العصر الحجري الحديث.

---

(1) انظر: Mellaart in *CAH*, vol. I, II, (1967), shap. VII.
وكذلك المرجع المذكور في الهامش رقم 12، الص (120) منه.

جرمو: أولى قرى العصر الحجري الحديث:

ونبدأ من قرى العصر الحجري الحديث في شمالي العراق بوصف الموضع الأثري المسمى «جرمو»، أقدم مستوطن زراعي من مستوطنات ذلك العصر.

تقع جرمو قرب جمجمال بنحو 11كم شرقاً، و35 شرق كركوك على الوادي المسمى «جم كورا» أحد روافد العظيم وطوق جاي، وترتفع عن سطح الأرض بنحو (2500) قدم، وتشغل مساحة تتراوح ما بين (3) و(4) ايكرات (أي زهاء 12,000 إلى 16,000متر مربع)، وترتفع بقايا السكنى في التل نحو 23قدماً. وقد اكتشفته مديرية الآثار العراقية في الأربعينات من هذا القرن ثم شرعت بعثة أثرية من جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) تنقب فيه منذ عام 1948 برئاسة الأستاذ «بريدوود» واستمرت التحريات فيه إلى عام 1955. وقد أسفرت تلك التحريات[1] عن إظهار ست عشرة طبقة أثرية أو دور سكني في التل الذي قلنا إن أنقاضه الأثرية تبلغ زهاء 23 قدماً في ثخنها. وكانت الإحدى عشرة طبقة الأولى منه (ابتداء من الأسفل) خالية من الآثار الفخارية، فترجع هذه الطبقات الأثرية من جرمو إلى الطور القديم من العصر الحجري الحديث الذي لم يبدأ فيه صنع الفخار، ولذلك سمي طور «ما قبل الفخار» (Pre-Pottery Neolithic). وقد وجد مثل هذا الطور في جملة مستوطنات قديمة في الشرق الأدنى مثل «أريحا» (في فلسطين) و«جتل هيوك» (في تركية). وينحصر الطور الذي ظهر فيه الفخار في «جرمو» في الطبقات الخمس العليا. وقد خمن منقب «جرمو» الأستاذ «بريدوود» لطبقاتها الست عشرة أنها استغرقت زهاء أربعمائة عام. أما تحديد تأريخ الموقع بطريقة فحص «الكاربون ـ 14»

---

(1) راجع التقارير التي نشرها الأستاذ «بريدوود» في المجلات الآتية:

American Journal of Archaeology, (1949), 49ff.; *Antiquity*, (1950), 189ff.; *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 124, (1951), 12ff.

والمرجع المذكور في الهامش رقم 12، الص (38) منه.

فقد ظهرت له عدة أرقام كان آخرها الرقم الناتج من خلاصة عدة فحوص (6750ق.م). وقدرت بيوت القرية ما بين 25 و30 بيتاً وعدد سكانها نحو (150) نفساً.

كشف في قرية جرمو عن أمور مهمة عن العصر الحجري الحديث في شمالي العراق بوجه خاص ومنطقة الشرق الأدنى بوجه عام. ففي هذه القرية التي تعد أولى القرى الفلاحية نجد خلاصة تجارب الأطوار السابقة في اختيار نوع الحبوب البرية الصالحة للتدجين، وكان بعض أنواعها لا يزال غير بعيد عن أصوله البرية، منها القمح المسمى (Emmer Wheat) الذي ظل من ناحية تركيبه قريباً من أصله الوحشي، ولكن ظهر إلى جانب هذا النوع المسمى (Einkorn Wheat)، وكذلك نوع الشعير المسمى (Hulled two-row Barley)، والعدس والحمص. ووجدت كميات من هذه الأنواع من الحبوب «مكربنة» أي على هيئة فحم (Carbonized) واستمر استعمال أثمار بعض الأشجار التي كانت تجمع في أطوار ما قبل الزراعة لغناها بالمواد الدهنية المغذية مثل البلوط والفستق.

أما الحيوانات التي دجنها الإنسان في شمالي العراق ووجدت بقايا من عظامها في قرية «جرمو» فكان في مقدمتها الماعز ولعله الغنم والخنزير. أما الغنم فقد سبق أن نوَّهنا بتدجينه في الدور السابق، أي العصر الحجري الوسيط في قرية «زاوي - جمي». ووجدت في جرمو نسبة غير قليلة من عظام الغنم المدجنة، ولكن البقر لم يزل تدجينه غير مؤكد، بل إنه كان يصطاد مع الغزال والخنزير الوحشي. وكانت القواقع (Snails) تؤلف جزءاً مهماً من قوت السكان.

وتقدم فلاحو جرمو أشواطاً أبعد من سكنى الأكواخ البدائية المستديرة التي شاعت في الأطوار السابقة، إذ تعلموا بناء بيوت مستطيلة من الطين (الطوف)، وشيّدت بيوت الطبقات العليا فوق أسس من الأحجار الطبيعية، وكانت جدران البيوت «تملط» بالطين. وبلطت أرضيات الدور بالطين فوق

القصب، كما استعمل القصب والخشب لتسقيف البيوت، وبلغ معدل طول الحجرات في البيت ما بين 5 إلى 6 أقدام. ويحتوي البيت الواحد على أكثر من حجرة واحدة. وخلاصة ما يُقال في بيوت جرمو إنها تعد تطوراً ملحوظاً في فن تشييد دور السكنى. كما تشير الأدوات البيتية التي وجدت في جرمو إلى تقدم في سلم التطور المادي عن الأطوار السابقة، فوجدت مثلاً الملاعق المصنوعة من العظام والإبر العظمية للخياطة، وتدل أقراص المغازل الصوانية (Spindle whorls) على معرفة بالغزل والحياكة، مثل غزل الصوف والقنب. وهناك طائفة متنوعة من الأدوات الحجرية الدقيقة (مايكروليثية) صنعت من حجر الصوان والحجر الأوبزيدي، من بينها نصال ثبتت بالخشب بواسطة القير وهي على هيئة مناجل. أما الأدوات الكبيرة فإنها صنعت من حجر الكلس (Limestone) مثل الفؤوس (Celt) وأحجار الرحى والمساحق والمدقات والهواوين وطائفة من الأواني البيتية. ومن الكماليات التي استعملها سكان قرية «جرمو» القلائد ذوات الخرز المصنوعة من الحجارة أو من الطين والأساور المصنوعة من حجر المرمر والقلائد أو الدلايات من الصدف والمحار، كما صنعت الأواني والأوعية المنزلية من الحجر.

وكانت العادة الغالبة في طرق الدفن أن يلحد الميت في قبر يحفر تحت أرضيات بيوت السكنى. وفي وسعنا أن نلمح طرفاً من الحياة الدينية في قرية «جرمو» من دلالة دمى الطين التي تمثل الحيوانات المختلفة، وكذلك الدمى التي تمثل نسوة بدينات حبالى من النوع الذي فسر بأنه أقدم نموذج لما أطلق عليه اسم «الآلهة ـ الأم» (Mother Goddess) التي ترمز لقوى الخصب والإنجاب وقوى الطبيعة المولدة الغامضة.

وخلاصة القول تمثل لنا قرية «جرمو» أقدم القرى الفلاحية يوم صارت الزراعة وتدجين الحيوان عماد حياة الإنسان منذ انقلاب العصر الحجري الحديث. بيد أن ذلك النظام الاقتصادي الجديد كان في ذلك العصر يتصف بالاكتفاء الذاتي، بمعنى أن كل عائلة فلاحية كانت تنتج قوتها بنفسها وتصنع

أدواتها البدائية المحدودة، فلم يظهر بعد التخصص في حياة الإنسان. ولكن رغم محدودية الإنتاج فإن العصر الحجري الحديث كان يحمل جنين التطورات التي سنشاهدها تظهر في العصور التالية لذلك العصر، مما سنفرد له بحثاً خاصاً.

ولعله من المستحسن أن نضيف إلى هذه الملاحظات عن قرية «جرمو» ظاهرة أثرية مهمة تجعل هذه القرية من القرى الفلاحية الأولى في العالم. فإن خلو معظم الطبقات الأثرية التي تمثل أدوار السكنى المتعاقبة في جرمو من الأواني الفخارية (من الطبقة الأولى إلى الطبقة الحادية عشرة إلى الأعلى) يضفي ميزة على هذه القرية بكونها كما قلنا من قرى العصر الحجري الحديث القليلة في أنحاء الشرق الأدنى مما لم يعثر فيها على الفخار من أطواره الأولى. وقديماً كان الفخار من الإمارات التي يعددها الآثاريون لتمييز العصر الحجري الحديث عن العصور الحجرية السابقة. ونذكر من بين هذه القرى القليلة المضاهية لقرية «جرمو» مما تم الكشف عنها الموضع المسمى «جتل هيوك»، في تركية، وأريحا في فلسطين. وقد أسفرت التحريات التي أجرتها في «أريحا» الباحثة الأمريكية «كثلين كنيون»[1] عن العثور على أطوار ما قبل الفخار فيها، وكانت بيوت هذه القرية من تلك الأطوار تشيد من اللبن وليس من الطين كما في قرية «جرمو». وكانت قرية «أريحا» مسورة بجدران من الحجارة، وأظهرت فحوص «الكاربون ـ 14» بالنسبة إلى «أريحا» أرقاماً أعلى من الأرقام التي خصصت لأطوار «جرمو».

ظهر فخار العصر الحجري الحديث في جرمو كما ذكرنا في الطبقات الخمس العليا من التل. وكان فخار الطبقتين الخامسة والرابعة أحسن نوع من الفخار ظهر في الموضع، فهو من الفخار المصبوغ باللون الأحمر على أرضية صفراء فاقعة (Orange buff) ومنه نوع ضارب إلى الحمرة، وقد زين بخطوط متقطعة، وسمي فخار جرمو المصبوغ. ووجد ما يضاهي هذا النوع من الفخار

---

(1) راجع: K. M. Kenyon, *Digging Up Jericho* (1957), 151ff.

في «تبه كوران»، في إيران، ويعتقد أن أحدهما أصل للآخر، وبطل استعماله في حدود 6000ق.م.

أما فخار الطبقات التالية لذلك النوع المصبوغ، فإنه يغلب عليه النوع الخشن المصنوع باليد وهو غفل من الزخرفة والألوان، وفخره غير جيد، وهذه صفة فخار العصر الحجري الحديث بوجه عام. وتلته في نهاية هذا العصر أنواع من الفخار أحسن وأتقن صنعاً مثل فخار حسونة وغيرها مما سيأتي الكلام عليها.

ونذكر في ختام ملاحظاتنا عن جرمو العثور في ربيع عام 1966 على موضع أثري اسمه «ثامر خان» إلى الشمال من بلدة مندلي ثبت أن آثاره تضاهي آثار جرمو، حيث الأدوات الصوانية والأوبزيدية والأواني الحجرية والفخارية. ويرتفع هذا الموضع زهاء (6) أمتار ومساحته نحو 100×150متراً[1].

خلاصة ميزات العصر الحجري الحديث:

بالنظر إلى أهمية العصر الحجري الحديث ليس في تأريخ حضارة وادي الرافدين حسب بل في تطور الحضارات جميعها، فيحسن أن نلخص خصائصه قبل الانتقال إلى الكلام عن الأطوار الحضارية المهمة التي تلت هذا العصر.

مع عظم الانقلاب الذي حدث في حياة الإنسان في العصر الحجري الحديث باهتداء بعض الجماعات في الشرق الأدنى وفي مقدمتها المستوطنات في شمالي العراق إلى إنتاج القوت بالزراعة وتدجين الحيوان، نقول مع أهمية هذا التطور ظلت عدة الإنسان وحياته الاقتصادية بدائية ضيقة، فقد اقتضى الأمر مراحل أخرى من التطور التكنولوجي قبل أن يتمكن الإنسان من إنتاج الأدوات المتنوعة الضرورية لحياته المادية. فمن بين الأدوات البدائية التي يجدها المنقبون في مستوطنات العصر الحجري الحديث رحى الطحن المؤلفة

---

(1) كشفت عن هذا الموضع الأثري السيدة «جوان أوتس»، انظر:
Joan Oates in *SUMER*, 22, (1966), 15ff.

من حجرين يدور أحدهما فوق الآخر أو يضرب أحدهما بالآخر؛ وكذلك الأطباق الفخارية البسيطة لفرك الحبوب وتقشيرها (Husking trays)، وقد وجدت نماذج من هذه الأطباق في تل حسونة الذي سنتكلم عنه في الفصل التالي. ونذكر أيضاً المعازق والمحاريث البدائية (Hoe) والمناجل التي قوامها نصال صغيرة من حجر الصوان، ورؤوس النبال والسهام الحجرية. والمرجح كثيراً أن الإنسان عرف الغزل والحياكة بدلالة ما وجد من أقراص المغازل. أما الأواني الفخارية فقد سبق أن رأينا كيف أن الإنسان لم يعرف صنعها في الشطر الأقدم من هذا العصر، وهو الشطر الذي اصطلح على تسميته لهذا السبب بطور ما قبل الفخار (Pre-Pottery Neolithic). ولما تعلم الإنسان صنع الفخار في الشطر الثاني منه كانت الأواني الفخارية كما ذكرنا من النوع الساذج البدائي الغفل من الزخرفة والألوان باستثناء فخار الطبقات السفلى من قرية «جرمو». كما أنها صنعت باليد حيث لم يظهر دولاب الخزاف إلا من بعد قرون كثيرة، في أواخر ما يسمى بالعصر الحجري المعدني الذي سنتكلم عنه في الفصل التالي.

وإذا كانت لم تتضح بعد معالم التخصص بالصناعات البدائية فإن نوعاً من تقسيم العمل مارسته المجتمعات الزراعية الأولى في الشرق الأدنى إبان هذا العصر. ولعل المرأة هي التي اهتدت إلى تدجين الحبوب البرية بالزراعة، أي إنها هي التي أوجدت الزراعة[1]. وكانت أعمال المرأة بالإضافة إلى تربية الأطفال تتعلق بطحن الحبوب وتهيئة الخبز والطعام وكذلك الغزل لصنع الملابس وتهيئة جلود الحيوانات، والعناية بتلك الحيوانات المدجنة في حظائرها. أما أبرز أعمال الرجل وواجباته فكانت على ما يرجح تتعلق بصنع الأدوات الحجرية والأسلحة البسيطة، وحماية قطعة الأرض الصغيرة المزروعة وصيد الحيوانات، حيث استمر إنسان العصر الحجري الحديث على توفير قوته

---

(1) انظر:

G. Childe, *New Light on the Most Ancient East*, (1952), p. 61.

بالصيد، وتهيئة الحقل للزراعة. وقد سبق أن نوَّهنا بأن زراعة الإنسان في هذا العصر كانت زراعة محدودة تتصف بالاكتفاء الذاتي. أي زرع مساحة صغيرة من الأرض تكفي لإعالة الأسرة الفلاحية الواحدة، كما أنها كانت زراعة حقلية إذ لم تظهر بعد زراعة البساتين بالأشجار المثمرة (Horticulture) إلا في العصور التالية وعلى وجه التحديد في أواخر العصر الحجري المعدني التالي. وكانت زراعة العصر الحجري الحديث إلى ذلك أشبه ما تكون بالزراعة المتنقلة، حيث الأرض سرعان ما كان يستنفد خصبها فيهجرها الفلاحون إلى أرض أخرى بكر، لأن الإنسان على ما يبدو لم يعرف الطريقة المتبعة بين فلاحي العراق الآن من زرع قسم من الأرض وترك القسم الآخر بوراً إلى الموسم الآتي، أي زراعة (النير والنير).

واستتبع انقلاب العصر الحجري الحديث الاقتصادي تطورات اجتماعية مهمة، منها نشوء فكرة الملكية الفردية، أي ملكية الحقل وأدوات الإنتاج البدائية والحيوانات المدجنة، كما يرجح نشوء بذور نظام الحرب بأبسط أنواعها، حيث التنقل الزراعي واحتكاك الجماعات المنتجة للقوت بعضها ببعض والاصطدام بالجماعات البشرية الأخرى التي لم تتعلم الزراعة بل ظلت على حياة جمع القوت بالصيد.

ولعل أهم تطور أحدثته الزراعة في حياة الإنسان تحرير القسم الأعظم من نشاطه وطاقته بضمان إنتاج القوت بالزراعة. وكانت زراعة مطرية حيث انحصرت زراعة هذا العصر في الأقسام الشمالية من العراق وفي المناطق التي يمكن الاعتماد فيها على سقوط الأمطار الكافية، فكانت محدودة الجهد لم تكن تتطلب من فلاح العصر الحجري الحديث سوى الحرث اليسير حيث الحقل الذي يزرع كان صغيراً ثم البذر والانتظار إلى موسم الحصاد والجني، إذ لم تكن زراعة ري كما قلنا. وتبدو هذه الأعمال جد طفيفة إذا قورنت مع الجهود الجسيمة المضنية التي كان يتطلبها الحصول على القوت بالصيد والجمع والالتقاط في عصر جمع القوت السابق (العصر الحجري القديم).

ولعل فكرة قياس الزمن والتقويم، ولا سيما التقويم الشمسي، أوحتها للإنسان الدورة الزراعية، إذ يمكن قياس طول السنة الشمسية من وقت بذر إلى وقت بذر آخر أو من حصاد إلى حصاد آخر. ولعل إنسان ذلك العصر استعان في ضبط مثل هذه الدورات والمواسم وتعاقبها ومواعيدها باقترانها بطلوع بعض النجوم والكواكب، على نحو ما يمارسه الفلاحون الآن في العراق وغير العراق. ويجدر أن ننوّه بهذا الصدد أن ضبط التقويم المصري القديم كان يستند إلى اقتران بدء فيضان النيل بظهور كوكب الشعرى (Serius). أما حساب الأشهر فقد ظل على النظام القمري في جميع العصور القديمة تقريباً، ويرجح أن يكون من تراث ما قبل العهد الزراعي.

وإذا كان يشك في ظهور ديانة ما عند إنسان العصر الحجري القديم فإن نشوء بذور الديانة والعبادة عند إنسان العصر الحجري الحديث يكاد يكون من الأمور المؤكدة. ولعل أول معبود تصورته المجتمعات الفلاحية كان ذا صلة بقوى الأرض المنتجة المولدة وخصبها، كما يرجح أن يكون أول معبود تصوره الإنسان كان على هيئة إلهة تمثل الأرض وخصبها، وهي الإلهة التي يطلق عليها اسم «الإلهة ـ الأم» (Mother-goddess) وأن دمى الطين المصنوعة بهيئة نسوة بدينات مبالغ في كبر أثدائهن، مما وجد في عدة مستوطنات من قرى العصر الحجري الحديث ومنها قرية «جرمو»، تمثل تلك الإلهة. كما يرجح أن الإنسان قرن خصب الأرض ونتاجها الزراعي بإخصاب الأنثى بعضو الذكر، الأمر الذي يفسر لنا تلك الأشكال الغريبة المصنوعة من الطين والفخار على هيئة ذلك العضو (Phallus) وقد وجدت منها نماذج عديدة في العراق والشرق الأدنى.

وظهرت معالم المجتمع والحياة الاجتماعية في هذا العصر. أما في العصر الحجري القديم السابق له فلم يكن مجتمع بالمعنى الدقيق لمفهوم المجتمع وإنما كان نوعاً من التجمع. ومثل هذا يُقال بالنسبة إلى نشوء العائلة بمفهومها الاجتماعي وليس الجنسي، حيث المشاعية الجنسية كانت هي السائدة في العصر الحجري القديم. كما يرجح ظهور البداوة (Nomadism)

والرعي (Pasturalism) في العصر الحجري الحديث. وقد نشأت على ما يحتمل بطريقتين. أما من المجتمعات التي اهتدت إلى تدجين الحيوان فقط دون الزراعة كما في مجتمعات شمالي إفريقيا في العصر الحجري الحديث، أو من مجتمعات زراعية حل في مواطنها الزراعية الجفاف فلم تستطع زرع الأرض زراعة مطرية، حيث لم يتعلم الإنسان زراعة الري إلا عندما انتقل إلى سهول الأنهار الرسوبية في العصور التالية كما سنشرح ذلك في الفصل التالي، فاقتصر في مثل تلك الأحوال على تدجين الحيوانات ورعيها.

ويجدر أن نلاحظ في ختام كلامنا على انقلاب العصر الحجري الحديث أنه إلى جانب مناطق الشرق الأدنى وفي مقدمتها شمالي العراق التي ظهرت فيها أولى وأقدم زراعة، ظهر ذلك الانقلاب أيضاً بوجه مستقل في مركزين آخرين من العالم ولكن في أزمان متأخرة عن ظهوره في الشرق الأدنى، وهما الشرق الأقصى (الصين) حيث زراعة الرز وتدجين الخنزير في حدود 3000ق.م، وفي أمريكا الوسطى حيث زراعة الذرة في حدود 1000ق.م. أما في سائر أنحاء العالم فقد انتقلت إليها منجزات العصر الحجري الحديث في أزمان متفاوتة من الشرق الأدنى بالدرجة الأولى، فمثلاً انتقلت إلى أوروبا عن طريق تركية واليونان وإلى جنوبي روسية ووادي الدانوب. ومع ذلك الانتشار فإن مجتمعات بشرية عديدة ظلّت تعيش في طور جمع القوت بعد مرور ألوف كثيرة من السنين على ظهور الزراعة في الشرق الأدنى. ومع نقائص الحياة الاقتصادية وأساليب الإنتاج في العصر الحجري الحديث مما ألمحنا إليه من بدائية الإنتاج واتصافه بالاكتفاء الذاتي وعدم ظهور معالم التخصص وانتفاء ضمان الإنتاج للطوارئ بسبب قلة هذا الإنتاج - نقول على الرغم من كل هذه العيوب والنقائص كان العصر الحجري الحديث يحمل في طياته جنين إمكانات المستقبل في توسع الإنتاج وتقسيم العمل والتخصص في الفلاحة وإنتاج الأدوات إلى غير ذلك من المقومات الحضارية الأخرى في التقدم التكنولوجي، مما سنشاهد بوادره ومعالمه في الأطوار الحضارية التالية التي سنتكلم عنها في الفصل التالي.

الفصل الرابع

عصور ما قبل التأريخ

٢ ـ العصر الحجري ـ المعدني:

تعريف العصر وخصائصه العامة:

انتهى العصر الحجري الحديث في العراق وفي بعض أقطار الشرق الأدنى في حدود 5600 أو 5000ق.م، وابتدأت طلائع الحضارة والعصر التاريخي في حدود 3500ق.م. أما الفترة الزمنية المحصورة ما بين هذين التأريخين ومقدارها ما بين 1500 و2000 عام فإنها تحتل مكاناً مهماً في تأريخ تطور الحضارة في وادي الرافدين بوجه خاص وأقطار الشرق الأدنى بوجه عام، إذ حدثت فيها تطورات حضارية مهمة كانت مراحل تمهيدية لظهور الحضارة في مطلع الألف الرابع، فهي على ذلك تعد فجر الحضارة والتأريخ. وأطلق عليها جملة تسميات منها مصطلح العصر «الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic) وهي تسمية تشير إلى حقيقة أن سكان وادي الرافدين بدؤوا يكتشفون استعمال المعادن، ولكن لم يبدأ استعمالهم لها منذ بداية هذا العصر بل في منتصفه تقريباً، إذ ظل الإنسان في النصف الأول منه يعتمد الحجارة وغيرها من صنع أدواته وآلاته. وسميت هذه الفترة أيضاً بعصر ما قبل السلالات (Pre-Dynastic) وهي تسمية تدل على الجانب السياسي، حيث لم تظهر فيه السلالات الحاكمة. وإذا كان قد ظهر بعض التنظيمات السياسية فلا سبيل لنا لمعرفتها لأن العراقيين القدامى لم يبتدعوا بعد وسيلة للتدوين، أي لم تظهر المصادر المدونة.

وحدثت في هذا العصر سلسلة من التطورات الحضارية أمكن حصرها

في أدوار أو مراحل متميزة بطرز أوانيها الفخارية وأشكال هذه الأواني، وفي العناصر الحضارية الأخرى مما سنتطرق إليه. ويمكن إيجاز الخصائص والمقومات الأساسية لهذه الفترة الحضارية بالأمور التالية:

1 ـ ازدياد القرى الفلاحية واتساعها وتطور الكثير منها إلى المدن التأريخية التي اشتهرت في العصور التأريخية التالية.

2 ـ اتساع زراعة العصر الحجري الحديث السابق الذي قلنا إنه كان يتصف بالاكتفاء الذاتي من ناحية الإنتاج الزراعي. أما في هذا العصر الجديد فإن الفلاحين صاروا يبادلون فائض الإنتاج الزراعي بالسلع والحاجات التي تخصصت في صنعها وإنتاجها طبقات جديدة من الصناع والحرفيين، مثل الفخار والنجار وغيرهما. وبعبارة أخرى ظهر في هذا العصر تقسيم العمل وطلائع، التخصص.

3 ـ بداية استيطان السهول الزراعية ثم السهول الرسوبية في الأقسام الوسطى والجنوبية في وادي الرافدين، وظهرت منذ منتصف هذا العصر زراعة الري بالأنهار والجداول، فنجم عن ذلك آثار كثيرة في تطور النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، مما سنتطرق إليه في موضع آخر من هذا الفصل.

4 ـ امتاز فخار هذا العصر في وادي الرافدين ومناطق الشرق الأدنى الأخرى بأنه كان من النوع الملون والمزخرف، ويعد بعض أنواعه من أجمل ما أنتجته الحضارات القديمة، وقد أطلق بعض الباحثين على هذا العصر اسم «عصر الفخار الملون»، وسنرى كيف أن فخار الأطوار المختلفة من هذا العصر يختلف بعضه عن بعض ويتميز فخار كل طور بالطرز والألوان وأشكال الأواني المميزة فاتخذ ذلك من بين الأسس التي استند إليها الباحثون في تقسيم هذا العصر إلى الأطوار المختلفة التي سنعددها واشتقت أسماؤها من أسماء المواضع الآثارية التي وجدت فيها آثارها المميزة لأول مرة، وهي بحسب تسلسلها الزمني:

1 ـ دور حسونة.

2 ـ دور سامراء أو دور «حسونة ـ سامراء».

3 ـ دور حلف.

4 ـ دور العبيد:

أ ـ العبيد الأول (= طور أريدو).

ب ـ العبيد الثاني (= طور حاج محمد ورأس العمية).

جـ ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً).

د ـ العبيد الرابع (العبيد المتأخر سابقاً).

5 ـ دور الوركاء: طور الوركاء القديم والوسيط والمتأخر.

وقد ارتُئي حديثاً أن يجعل طور الوركاء الأخير ودور جمدة نصر والدور الأول من عصر فجر السلالات التالي لجمدة نصر دوراً حضارياً متميزاً أطلق عليه مصطلح العصر «الشبيه بالكتابي» (Proto-literate) أو «الشبيه بالتأريخي» (Proto-historic).

ويمكن تنظيم هذه الأدوار وجمعها تحت ثلاثة أدوار رئيسة:

1 ـ حجري ـ معدني قديم (Early chalcolithic) (في حدود 5600ق.م):

أ ـ دور حسونة.

ب ـ دور سامراء.

2 ـ حجري ـ معدني وسيط (Middle chalcolithic) (الألف الخامس ق.م).

أ ـ دور حلف: 1ـ حلف قديم، 2 ـ حلف وسيط، 3 ـ حلف متأخر.

ب ـ العبيد الأول:

(= طور أريدو، الطبقات 19 ـ 15 في أريدو).

جـ ـ العبيد الثاني (حاج محمد ورأس العمية).

3 ـ حجري معدني متأخر (Late chalcolithic) (4000 ـ 3500ق.م):

أ ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً).

ب ـ العبيد الرابع (العبيد المتأخر سابقاً).

ج ـ دور الوركاء:

1 ـ وركاء قديم (الطبقات 12ـ8 في الوركاء).

2 ـ وركاء وسيط (الطبقات 8ـ6 في الوركاء).

4 ـ الدور الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي (3500 ـ 2800ق.م):

أ ـ وركاء متأخر (الوركاء، الطبقات 5 و4أ، ب، جـ).

ب ـ جمدة نصر (الوركاء، الطبقات 3 ـ 2).

جـ ـ عصر فجر السلالات الأول.

ونوجز الآن خصائص هذه الأدوار الحضارية وميزاتها.

1 ـ دور حسونة:

تل حسونة:

سمي الدور الأول من أدوار العصر الحجري المعدني باسم طور «حسونة» نسبة إلى التل المسمى «حسونة»، إذ وجدت فيه لأول مرة الأواني الفخارية والأدوات الأخرى المميزة لهذا الدور. ويقع تل حسونة في ناحية الشورة من محافظة نينوى (الموصل)، على بعد نحو 22 ميلاً جنوب الموصل و5 أميال شمال شرقي قرية الشورة. وقد نقبت فيه مديرية الآثار العراقية (1943ـ1944)[1]. وهو تل صغير يشغل مساحة تقدر بنحو 200×150متراً، وترتفع أعلى نقطة فيه زهاء (7) أمتار عن السهل المجاور. وأظهرت التنقيبات المشار إليها بقايا ست عشرة طبقة من أدوار السكنى، تنتظم في خمسة أدوار حضارية، هي، ابتداء من أقدمها (1) طور حجري حديث متأخر (الطبقة IA) (2) دور حسونة (الطبقات IB-VI):

أ ـ فخار حسونة القديم (الأركائي) المصبوغ والمحزز (الطبقات: IB-III).

ب ـ فخار حسونة الخاص (Standard Hassuna ware) (الطبقات III-V).

(3) دور «حسونة ـ سامراء» (الطبقات V-VI).

(4) دور حلف (الطبقات VI-X).

(5) دور العبيد الشمالي (الطبقات XI-XII).

---

(1) أشرف على تنقيبات مديرية الآثار في تل «حسونة» الأستاذان فؤاد سفر وسيتون لويد. انظر التقرير المنشور في *JNES*, IV, (1945), 255ff.

(6) فخار من الأدوار المتأخرة (الطبقات XIII-XVI).

ففي أسفل طبقات التل وعلى ما يسمى في علم الآثار بالأرض البكر(Virgin soil) وجدت آثار مستوطن زراعي من أواخر العصر الحجري الحديث، ويبدو أن المستوطنين كانوا يسكنون الخيام، إذ لم يعثر على بقايا بيوت مشيدة. وهذه هي الطبقة الأولى (أ) (IA) من تل حسونة التي وجد فيها فخار العصر الحجري الحديث من أطواره الأخيرة كما قلنا، حيث بدأ استيطان السهول الشمالية من بعد ظهور المراحل الأولى من الزراعة وتدجين الحيوان في سفوح الجبال الشمالية كما مرّ بنا في كلامنا على القرية الفلاحية «جرمو» في الفصل السابق، فقد ذكرنا أن العصر الحجري الحديث ينقسم إلى دورين: دور ما قبل الفخار، ثم الدور الذي تعلم فيه فلاحو ذلك العصر صنع الأواني الفخارية، وكانت من نوع الفخار الغفل أي غير مصبوغ وخالٍ من الزخرفة والزينة وقد صنع باليد، والغالب عليه أنه خشن سمج الصنع، مثل الفخار الذي عثر عليه في حسونة (الطبقة IA) وفخار الطبقات الأولى من تل «الصوان».

وأعقب أولئك الفلاحين الذين عاشوا في مضارب الخيام أحفادهم الذين وجدت بقاياهم في الطبقات التالية من تل حسونة التي تمثل أطوار العصر الحجري المعدني، أي الطور الذي سميناه طور حسونة (الطبقات IB-VI من تل حسونة). وقد تقدم أولئك الفلاحون مراحل أبعد من أسلافهم الذين عاشوا في العصر الحجري الحديث، إذ صاروا يشيدون مساكنهم من الطين (على غرار بيوت الطين الفلاحية الآن). ولكنهم سرعان ما عرفوا صنع «اللبن» من الطين. ووجدت في حسونة مخازن للحبوب على هيئة أحواض أو جرار كبيرة من الفخار غير المفخور، كانت تدفن في أرض الدار حتى حافاتها. كما عرفوا كيف يخبزون الخبز بتنور من الطين. ولما كانوا لا يعرفون استعمال المعادن فإنهم صنعوا أدواتهم المنزلية البدائية من الحجارة ومن الطين ومنها «الهاون» (Mortar) ومناجل الصوان (نصال من حجر الصوان) وبالمحاريث أو الفؤوس الحجرية (Hoe) وأقراص المغازل للغزل، ودمى الطين السمجة الصنع (Terra cotta figurines) التي تشير إلى نوع من العبادة.

أما الفخار الخاص بدور حسونة فهو على نوعين قسم بموجبهما دور حسونة إلى طورين، أطلق على فخار الطور الأقدم منهما اسم فخار حسونة القديم (Archaic ware) (تل حسونة الطبقات IB-III)، وهو فخار مزين بحزوز وألوان؛ وقد وجد هذا النوع من الفخار في مواضع أخرى منها تل الصوان (الذي سنتكلم عنه) وتل مطارة[1]. ويتميز فخار حسونة من الطور الثاني والمسمى «فخار حسونة الأنموذجي» (Standard ware)، بتقدم في صنع الفخار وزخرفته. وقوام هذه الزخرفة خطوط مستقيمة وخطوط متصالبة ومتقاطعة ومثلثات، ولون الأواني أسمر كاب (Matt). والغالب على الأواني الفخارية أنها من نوع الجرار الكروية ذات الرقاب المستطيلة القائمة، والكؤوس أو الطاسات (Bowl). ويمثل طور حسونة الثاني في تل حسونة الطبقات (III-V) وفي تل الصوان (الطبقات III-V). وتقدمت طرق تشييد بيوت السكنى، وازدادت مرافقها وعدد حجراتها.

ويبدو بحسب معرفتنا الراهنة، أن دور حسونة كان محصوراً في الأجزاء الشمالية والوسطى من العراق، حيث تل الصوان القريب من سامراء أبعد موضع جنوبي وجد فيه دور حسونة وكذلك طور سامراء الذي أعقبه.

وفي ختام كلامنا على دور حسونة يجدر التنويه ببعض البقايا العظمية التي وجدت في الطبقة الثانية من تل حسونة، حيث وجد هيكلان عظميان لطفلين توأمين وضعا في جرة من الفخار، وقد قدر عمرهما في حدود الستة أشهر، ووجدت معهما طاسة صغيرة من الفخار والجمجمتان من النوع المسمى «الرأس الطويل» (Dolichocephalic)[2]. ووجد ما يضاهي فخار حسونة، بالإضافة إلى المواضع التي ذكرناها، في الطبقات السفلى من نينوى (الطبقة 1-

---

(1) يقع تل «مطّارة» على بعد نحو 35كم جنوب كركوك. وقد تحرت فيه بعثة التنقيبات الأمريكية في جرمو برئاسة الأستاذ «بريدوود» في عام 1948، ووجد في التل فخار حسونة وسامراء وحلف: Braidwood in *JNES,* XI (1952), 1ff.

(2) راجع الدراسة التشريحية التي قام بها بعض الاختصاصيين من كلية الطب العراقية المنشورة في مجلة «سومر»، المجلد 22 (1966)، القسم الإنجليزي، ص 45 فما بعد.

IIB)[1]، كما وجد في تل «شمشارة» الذي سنصفه. ووجدت أطوار حسونة وسامراء في التل المسمى «يارم تبه» (جنوب غربي تلعفر بنحو 5كم)، في التل الثاني منه كما أبانت ذلك تنقيبات البعثة الأثرية الروسية برئاسة الأستاذ «مونجايف»، واقتصر التل الثاني من هذا الموضع على دور حلف فقط. أما أطوار سامراء وحلف والعبيد في تل حسونة فسيأتي الكلام عليها في الأقسام المخصصة لها من هذا الفصل.

تل «شمشارة» والتلول الأخرى في سهل «بتوين ـ رانية»:

من المواقع الأثرية التي يجدر أن نفرد لها بحثاً خاصاً بالنظر إلى ما أسفرت التحريات الأثرية فيها عن نتائج مهمة حول أطوار «العصر الحجري المعدني»، جملة مواضع في سهل «بتوين ـ رانية» ومنها التل المسمى «شمشارة» الواقع على الضفة اليمنى من نهر الزاب الصغير، وعلى بعد نحو 8كم جنوب شرقي رانية و(5) كم غرب المضيق الجبلي المسمى «رَمْكان» (أو مضيق سنگسر) الذي يمر منه الزاب من بعد اجتيازه وادي «نودشت» الكائن في الجهة الثانية من الجبال المحيطة بسهل «بتوين ـ رانية»[2].

وقد حمل مشروع خزان «دوكان» الذي شرع به في عام 1956 مديرية الآثار العامة على القيام بتحريات أثرية في المنطقة التي كانت ستغمرها مياه هذا الخزان، فبدأت بمسح التلول الأثرية في عامي 1954 و1955، لاختيار المهم منها لإجراء تحريات أثرية إنقاذية فيها (Salvage Archaeology). وقد سجل نحو أربعين موقعاً أثرياً في منطقة الفيضان، فاختارت أهمها وشرعت منذ عام 1956

---

(1) حول التحريات الأثرية في نينوى راجع:

Mallowan, «The Prehistoric Sondage at Nineveh (1931-32)» in *The Annals of Archaeology and Anthropology*, XX, (1933).

(2) يفصل الزاب الصغير أحد السهول الكبيرة الذي تكتنفه سلاسل جبال «كوراهش ـ آزوس ـ كلار» إلى شطرين، يسمى السهل الغربي منهما، وهو الأكبر، سهل «بتوين» وسهل «رانية» أيضاً حيث تقع مدينة رانية في طرفه الشمالي. ويسمى السهل الشرقي «بنكرت» (نسبة إلى ناحية بنكرت) وكذلك سهل «مركة»، (نسبة إلى قرية مركة الواقعة في حدوده الشمالية).

بالتنقيبات فيها، وأوفدت لذلك الغرض عدة هيئات كانت تعمل في آنٍ واحد، واستمر العمل إلى عام 1960، وكان بناء السد قد تمّ في عام 1958.

وأظهرت نتائج هذه التحريات أن هذا السهل الخصب استوطنه الإنسان منذ العصر الحجري الحديث، واستمر الاستيطان فيه في جميع أدوار عصور ما قبل التأريخ، وأدوار العصور التأريخية التالية. ولما كان يتعذر الكلام على التلول التي شملتها التحريات فنكتفي بمجرد تعدادها محيلين القارئ إلى التقارير الأولية التي نشرت عنها[1]، ونقتصر على إيجاز النتائج المهمة التي أسفرت عنها التنقيبات في تل «شمشارة».

تل «شمشارة»:

سبق أن نوَّهنا بتل «شمشارة» من حيث أهمية النتائج التي أسفرت عنها التنقيبات التي أجريت فيه فيجدر أن نفرد له وصفاً خاصاً ليكون متمماً لكلامنا على العصر الحجري الحديث والعصر الحجري ـ المعدني الممثلين في طبقات

---

(1) شملت التنقيبات المنتظمة المستمرة سبعة تلول مهمة هي: (1) كمريان، (2) تل الديم (وكلاهما في الضفة الشرقية من الزاب الأسفل)، (3) قورة شينا، (4) باسموسيان، (5) كامم، (6) شمشارة، (7) دوگردان (وكلها في الجانب الغربي من الزاب)، ونذكر فيما يلي أمثلة على نتائج التحريات:

(1) تل باسموسيان: ست عشرة طبقة أثرية، أقدمها دور سامراء وحلف ثم العبيد والوركاء ثم الأطوار التأريخية التالية. فقد وجدت بقايا معبدين في الطبقتين الثالثة والرابعة، من العهد الآشوري القديم (الألف الثاني ق.م).

(2) تل گمريان: دور العبيد والوركاء، ثم الدور الآكدي والآشوري القديم والحوري.

(3) تل الديم: دور العبيد والوركاء. ثم الدور الآكدي والآشوري القديم والحوري والميدي، وعثر أيضاً على معبد من العهد الآشوري القديم.

(4) قوره شينا: دور العبيد وقد عثر على بقايا معبدين من هذا الدور ثم بقايا دور الوركاء والأدوار التالية.

(5) دور گردان: دور العبيد ثم الوركاء والعهد الآشوري القديم حول خلاصة هذه التحريات انظر تقرير الدكتور بهنام أبو الصوف في مجلة «سومر» (1970، المجلد 26) القسم الإنجليزي ص 65 فما بعد. وراجع كذلك المجلدات التالية من مجلة «سومر»: المجلد 12 (1956)، 15 (1959)، 16 (1960)، 18 (1962)، 20 (1964).

هذا الموضع الأثرية. وقد استمر استيطانه إلى العصور التأريخية كما تدل على ذلك ألواح الطين المسمارية التي اكتشفت فيه ومن بينها رسائل مهمة تعود إلى العصر الآشوري القديم (في حدود القرن الثامن عشر ق.م)، واستوطنت الطبقات العليا من التل في العصر الإسلامي، في حدود القرن الرابع عشر الميلادي.

يرتفع تل شمشارة معدل (19) متراً عن السهل المحيط به، ويبلغ عرضه زهاء (60) متراً، من (القاعدة)، ويوجد امتداد جنوبي للتل يرتفع نحو (13) متراً، وطول التل الكلي يربو على (330) متراً. وقد نقبت فيه بعثة أثرية دنيمركية في عام 1957 برئاسة الأستاذ «انگهولت» (H. Ingholt) ومساعده الأستاذ «لسُّو» (Laessoe)، وبعد توقف أعمال هذه البعثة في عام 1958 تولت مديرية الآثار العراقية استئناف التحريات فيه (1958-1959)[1].

وكشف الجس الأثري (Sounding) من أعلى التل إلى أعمق الطبقات في الأسفل عن بقايا ست عشرة طبقة أثرية أو دور سكني يمكن توزيعها على الأدوار الحضارية التالية، ابتداء من الأعلى[2]:

---

(1) مولت البعثة الدنيمركية في تل «شمشارة» المؤسسة الدنيمركية المسماة «وقف كارلزبيرج». حول نتائج هذه التحريات انظر التقارير التالية:

H. Ingholt in *SUMER*, XIII, (1957), 214ff.

Laessoe, «An Old Babylonian Archive Discovered at Shemshara» in *SUMER*, XIII, (1957), 216ff.; *IBID*, XVI, (1960), 12ff.

وعن خلاصة الطبقات الأثرية والأدوار الحضارية التي سجلت في شمشارة ومقارنتها بالمواضع الأثرية الأخرى في العراق راجع:

Peder Mortensen in *SUMER*, XVIII, (1962), 78ff.

(2) مولت البعثة الدنيمركية في تل «شمشارة» المؤسسة الدنيمركية المسماة «وقف كارلزبيرج». حول نتائج هذه التحريات انظر التقارير التالية:

H. Ingholt in *SUMER*, XIII, (1957), 214ff.

Laessoe, «An Old Babylonian Archive Discovered at Shemshara» in *SUMER*, XIII, (1957), 216ff.; *IBID*, XVI, (1960), 12ff.

وعن خلاصة الطبقات الأثرية والأدوار الحضارية التي سجلت في شمشارة ومقارنتها بالمواضع الأثرية الأخرى في العراق راجع:

Peder Mortensen in *SUMER*, XVIII, (1962), 78ff.

الطبقات 1ـ3: معالم استيطان إسلامي يرجع في تأريخه إلى ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين.

الطبقات 4ـ8: أدوار حورية وآشورية قديمة، وبضمنها ألواح الطين المسمارية المكتشفة من العهد الآشوري القديم.

الطبقات 9ـ16: أدوار ما قبل التأريخ.

والطبقات الأخيرة السفلى هي التي يعنينا أمرها بالنسبة إلى الموضوع الذي بين أيدينا. فالطبقات من 16 إلى 14 ترجع إلى طور ما قبل الفخار من العصر الحجري الحديث، حيث لم يعثر فيها على بقايا من الفخار، والمرجح أنها تعاصر في زمنها طور «جرمو» مما قبل الفخار. ووجد فيها بدلاً من الفخار أدوات حجرية دقيقة (مايكروليثية). أما الطبقات 13ـ9 فقد ظهر فيها الفخار، ويرجح أنها تعاصر تل حسونة (الطبقات IV-VI) حيث يتشابه النوعان من الفخار في كلا الموضعين.

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن «شمشارة» بالتنويه بألواح الطين المسمارية التي عثر عليها في الطبقات التأريخية من الموضع (الطبقة الخامسة)، ويرجع عهدها كما قلنا إلى العصر الآشوري القديم (في حدود 1800ق.م) ويتألف معظمها من الرسائل الرسمية الإدارية من زمن الملك الآشوري الشهير «شمسي ـ أدد» الأول (1813ـ1781ق.م)، ويستبان من هذه الرسائل أن أمبراطورية هذا الملك الآشوري امتدت إلى هذه الأقاليم الخصبة. وورد اسم حاكم الإقليم التابع، الذي كانت شمشارة مركزه، بهيئة «كواري» (Kuwari) واسم المركز الإداري «شوشرّا»[1]، وهذا بلا شك اسم «شمشارة» القديم الذي ظل في الاستعمال مع بعض التحوير في اللفظ. ويرجح أن يكون الموضع نفسه قد عرف في عهد سلالة «أور» الثالثة (2112 ـ 2004ق.م) بصيغة «ششرُم» (Shashrum) وهي المدينة التي ضمت إلى أمبراطورية «أور» في

---

(1) شوشرا، وبالمقاطع المسمارية: .shu-shar-ra, shu-sha-ra-a, shu-shar-ra-e

عهد الملك «شولگي» مع مراكز أخرى في الشمال منها «أوربيلم» (Urbilum) (أربائيلو أي أربيل) و«سِمرم» (Simurrum) التي يرجح أن يكون موقعها في منطقة «ألتون كوبري» على الزاب الأسفل.

تل الصوان:

ومن المواقع الأثرية التي كشف فيها عن أطوار العصر «الحجري ـ المعدني» والأطوار الأخيرة من العصر الحجري الحديث الموضع المسمى تل الصوان الواقع على ضفة دجلة اليمنى، على بعد نحو 11كم جنوب سامراء. وهو تل صغير يرتفع عن السهل المحيط به زهاء (3 ـ 4) أمتار وذو شكل بيضوي تقريباً، طوله من الشمال إلى الجنوب نحو (230) متراً وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو (110) أمتار. وقد سبق للباحث الآثاري المعروف «هرتسفيلد» (منقب سامراء) أن فحصه في عام 1911[1] واتضحت أهميته من بعد فحصه من جانب مديرية الآثار حيث كان الغالب على الملتقطات السطحية فيه فخار دور حسونة القديم وفخار دور سامراء التالي له. فباشرت بالتحري فيه منذ عام 1963 ولا يزال العمل فيه جارياً. وأسفرت تلك التنقيبات عن نتائج مهمة وتسجيل خمس طبقات أثرية رئيسة، ترجع الطبقات الثلاث السفلى منها إلى أواخر العصر الحجري الحديث ثم طور حسونة القديم وبداية فخار حسونة الأنموذجي الذي يستمر إلى الطبقة الرابعة ثم الخامسة مع فخار طور سامراء[2] وكشف في الطبقة الأولى من هذا التل التي قلنا إنها تعاصر فخار حسونة القديم عن مجموعات من القبور المهمة يربو عددها على مائة قبر، وجدت فيها بالإضافة إلى الهياكل العظمية مجموعات ثمينة من الأواني الحجرية ودمى أو تماثيل صغيرة منحوتة نحتاً دقيقاً من حجر المرمر الجميل، كما وجدت مجموعة من الحلى بعضها من أحجار كريمة وشبه كريمة

(1) Hertzfeld, *Die Ausgrabungen von Samarra*, V, (1930), p. 5.

(2) حول نتائج التنقيبات في التقارير الموسمية الأولية راجع المجلدات الآتية من مجلة «سومر»: 21 (1965)، 20 (1964)، 24 (1968).

مثل العقيق (Cornelian) والزبرجد (Turqoise) أو الفيروز. وقد حفرت هذه القبور في أرضيات بيوت الطبقة الأولى فوق الأرض البكر، ووجد في أحدها هيكل امرأة مطلي بالمغرة دفنت معها قلائد من الخرز المختلفة، من بينها خرز من النحاس الخام. والذي يلفت النظر في آثار هذه القبور كثرة ما وجد فيها من تلك التماثيل الصغيرة المنحوتة من المرمر التي أشرنا إليها، فقد وجد منها من واحد إلى ثلاثة تماثيل في القبر الواحد. وعثر في بعض القبور على أشياء تمثل عضو الذكر من الحجر (Phallic Symbols) ولكن لم يعثر عليها مصاحبة للتماثيل الحجرية الأنثوية، وزين بعض تماثيل النسوة بتطعيم عيونهن بالصدف والمحار المثبت بالقبر.

ووجدت في الطبقة الأولى أيضاً بقايا بيوت مشيدة من اللبن، وهي على جانب كبير من التطور بالنسبة إلى بيوت العصر الحجري الحديث السابقة للعصر الحجري المعدني. واعتمد سكان هذا المستوطن من أهل الطبقة الأولى في قوتهم على زراعة القمح والشعير، كما وجدت بقايا نباتات أخرى أهمها نبات الكبار (Caper) والكتان والقنب. وبما أن مثل هذه النباتات تحتاج إلى الري الاصطناعي فيمكن الاستنتاج أن سكان هذا المستوطن بدؤوا بمشاريع الري الصغيرة.

ومن الأبنية التي تستحق التنويه بناء واسع مشيد باللبن وجدرانه مملطة بالطين، يرجح أن يكون له صفة عامة أو دينية، ولعله كان شكلاً من أشكال بيوت العبادة، يؤيد هذا الاحتمال ما وجد فيه من التماثيل الصغيرة من المرمر من النوع الذي يسمى في الآثار بتماثيل «الإلهة ـ الأم» (Mother goddess).

2 ـ دور «سامراء»:

دور سامراء هو الطور الثاني من أدوار العصر الحجري المعدني القديم، ويرقى زمن ازدهاره إلى النصف الثاني من الألف السادس ق.م. وسمي بدور سامراء لأن الفخار الخاص به وجد لأول مرة في مقبرة من عصور ما قبل التأريخ تقع تحت بقايا دور السكنى من عهد سامراء العباسية، حيث عثر عليه

المنقبون الألمان قبيل الحرب الأولى (1912ـ1914)[1]. ثم وجد الفخار المميز لدور سامراء في جملة مواقع أثرية أخرى محصورة في شمالي العراق وفي الأجزاء الوسطى منه حيث منطقة سامراء (تل الصوان الذي سبق ذكره) تحدد أقصى مدى جنوبي انتشر إليه ذلك الفخار ومعه فخار حسونة. أما أشهر هذه المواقع فهي تل مطارة (القريب من كركوك) وتل حسونة (الطبقات V-VI) وتل شمشارة (الطبقات 13ـ9 ويقع ضمنها دور حسونة أيضاً) وتل الصوان (الطبقات III-V وبضمنها فخار حسونة الخاص) وتل حلف وتل جغاربازار في الجزيرة العليا وتل «بوغاز» على الفرات الأعلى مقابل ألبو كمال وفي تبه گورا والأربجية وغيرها. ووجد ما يضاهي فخار سامراء في بلاد عيلام (سوسة).

ويرى بعض الباحثين أن ما يسمى بدور سامراء ليس في الواقع دوراً حضارياً متميزاً وإنما هو نوع خاص من الفخار الملون المنقوش من فخار العصر الحجري المعدني، والأجدر أن يلحق بدور حسونة باعتباره طوراً من أطواره، وأنه يتداخل في بعض المواضع الأثرية مع فخار دور حلف الذي سيأتي الكلام عليه، حيث يستمر فخار سامراء في الأطوار القديمة من دور حلف.

ومهما كان الأمر فإن فخار سامراء يتميز، بالمقارنة مع فخار دور حلف الذي يليه، بأنه ذو لون واحد (Monochrome) كما يمتاز كذلك بزخارفه الهندسية المرتبة في أنطقة (Bands) أفقية ومتوازية وكذلك أشكال بعض الحيوانات مثل الطيور والأسماك والعقارب والايل وفي حالات قليلة أشكال آدمية مرسومة بصورة تخطيطية تقريبية. وكانت هذه الزخارف تنقش بلون أسود فاتح أو أسمر على سطح الإناء ذي اللون الأصفر الباهت.

وعلى حد ما نعرفه إلى الآن لم يعرف العراقيون القدماء استعمال المعادن والتعدين في طور سامراء فكانت الحجارة المادة المعتمدة في صنع الأدوات، ومنها الحجر البركاني الأسود (الأوبزيدي Obzidian).

---

(1) Hertzfeld, *Die Ausgrabungen von Samarra*, V, (1930), p. 5.

العصر «الحجري ـ المعدني» الوسيط:

1 ـ دور حلف:

عد دور حلف، كما مر بنا، الطور الأول مما أطلقنا عليه اسم «العصر الحجري ـ المعدني» الوسيط (Middle chalcolithic)؛ ويلي دور حلف من حيث التسلسل الطبقي والزمني طور سامراء الذي تكلمنا عليه.

أما اسمه فقد اشتق من اسم التل المسمى «حلف» أو «خلف»، وهو موضع أثري كبير يطل على الخابور، بالقرب من قرية «رأس العين»، على الحدود التركية السورية، وعلى بعد نحو (140) ميلاً شمال غربي نينوى. وقد تحرت فيه بعثة أثرية ألمانية برئاسة الباحث الأثري «فون أوبنهايم» (Von Oppenheim) قبل الحرب العالمية الأولى، وكشفت عن بقايا أثرية مهمة منها ما يعود إلى مملكة آرامية ازدهرت في المنطقة في القرن العاشر ق.م، كانت عاصمتها «كوزان» أو «كوزانا» (Guzan) وهو اسم تل حلف القديم. ومن ناحية الموضوع الذي بين أيدينا عثر المنقبون على طبقات أثرية تقع تحت القصر الملكي وجد فيها نوع من الفخار المصبوغ الجميل، هو الذي أطلق عليه من بعد ذلك اسم فخار حلف. ولأن فخاريات عصور ما قبل التأريخ لم تكن قد نالت آنذاك الاهتمام اللازم من الباحثين ولتأخر النشر عن هذا الفخار إلى عام 1931[1]، فلم يعرف عن تأريخه وتسلسله الحضاري إلا من بعد ذلك العام، إذ إن التحريات الأخرى التي تلت النشر عنه واهتمام الباحثين بآثار ما قبل التأريخ، وضعت دور حلف والفخار الذي يميّزه في موضعه الصحيح بين أدوار ما قبل التأريخ التي اتفق الباحثون على تسميتها وتسلسلها الحضاري في

---

(1) سمي المكتشف «فون أوبنهايم» هذا النوع من الفخار «الفخار المصبوغ» أو «الملون» (Buntkeramik):

Von Oppenheim, *Der Tell Halaf,* (1931).

Von Oppenheim, *Tell Halaf, I, Die Praehistorischen Funde* (1943).

الثلاثينات من هذا القرن. فقد اكتشف فخار حلف في جملة مواقع أثرية منها نينوى[1] وتل الأربجية[2] وتل جغاربازار[3] وتبه كورا[4] وغيرها.

إن أبرز ما تمتاز به آثار دور حلف أواني الفخار الجميلة ذات النقوش الزاهية المصبوغة بعدة ألوان (Polychrome) مثل الأصفر والبرتقالي والأحمر والأسود على أرضية من الطين المفخور. والواقع أن براعة صنع هذا الفخار وجودة تزويقه تضاهي أجمل ما صنع من الفخار الملون في تأريخ الحضارات القديمة. ومما يزيد الإعجاب بها أن الأواني الفخارية قد صنعت باليد حيث لم يستعمل دولاب الخزاف بعد، ولكن رقة هذه الأواني وجودة طينتها وانتظام أشكالها ما زالت كما قلنا مدعاة للدهشة والإعجاب. وصنعت أنواع عديدة من الأواني مثل الأقداح (Pots) ذات الرقاب المفلطحة والجرار المقرفصة (Squat) والأباريق والدوارق (Beakers) والصحون والأطباق وغيرها. أما الزخارف فهي ذات أشكال متناسقة جميلة، وقوامها الأشكال الهندسية كالمثلثات والمربعات والمعينات والخطوط المتصالبة وأشكال المراوح أو أشكال المحار المروحي (Scallop) والدوائر الصغيرة، والأشكال النباتية والحيوانية مثل الأزهار والأطيار الحاطة والغزلان ورؤوس الثيران المرسومة بصورة مختصرة تخطيطية (Bukranium)، ومن الأشكال الخاصة الفأس ذات الرأسين وما يسمى بالمربع المالطي (Maltese square) (وهو مربع في كل من زواياه الأربع مثلث صغير).

---

(1) راجع:

R. C. Thomson and Mallowan, «The British Excavations at Nineveh» In *The Annals of Archaeology and Amthropology*, XX, (1933).

(2) انظر:

Mallowan and Rose in *IRAQ*, II, (1935).

(3) Mallowan in *IRAQ*, III,. (1936). *IBID.*, IV, (1937).

(4) A. J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra*, (1950).

اختلف الباحثون في أصل فخار حلف[1]، ويرد عن الموضوع احتمالان أحدهما الأصل السوري والاحتمال الثاني الذي نرجحه أنه من أصل محلي[2] من شمالي العراق ولا سيما منطقة نينوى، يؤيد ذلك وجود تراث قديم في شمالي العراق في صناعة الفخار الملون، مثل فخار دور حسونة وسامراء. وإذا سلمنا بهذا الأصل فإن انتشاره في العراق لم يصل إلى المنطقة الوسطى منه، إذ لم يعثر عليه في سامراء كما ذكرنا. كما أن الأطوار الأولى منه متصلة بفخار دور سامراء. ولكنه انتشر انتشاراً بعيداً إلى الجهات الغربية بامتداد طرق القوافل التجارية المؤدية عبر الفرات والجزيرة إلى منطقة البحر المتوسط. وقد وجدت في منطقة الخابور عدة مواضع أثرية كشف فيها عن فخار حلف مثل تل «براك» و«جغاربازار» وتل حلف (وهو التل الذي اشتق منه اسم هذا الدور كما بيّنا)، وانتشر كذلك عن طريق نهر الباليخ حيث وجد فخاره في الموضع المسمى «تل أسود» وعن طريق كركميش (جرابلس الآن) إلى بلاد الشام وكيليكية في الأناضول. كما وجد في عدة أماكن على ساحل البحر المتوسط مثل «أوغاريت» القديمة (رأس الشمرا، بالقرب من اللاذقية).

ومن الطريف ذكره بصدد أصل فخار حلف أن بعض الباحثين ذهب، قبل أن يثبت زمن هذا الفخار، إلى أنه من أصل إغريقي[3]، ومع أن هذا الرأي أصبح باطلاً الآن، بيد أن شبه فخار حلف بالفخار اليوناني أمر يسترعي الانتباه. وإلى ذلك فإن الأبنية المستديرة المسماة «ثولوس» (Tholos) التي عثر عليها من دور حلف في شمالي العراق لها ما يضاهيها في جزيرة قبرص وكريت في تأريخ متأخر عن زمن حلف العراقي. وكذلك في بلاد

---

(1) عن الآراء المختلفة حول أصل فخار حلف انظر:

Ann Perkins, *The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia*, (1947), 43ff.

(2) راجع:

R. C. Thomson and Mallowan, «The British Excavations at Nineveh» In *The Annals of Archaeology and Amthropology*, XX, (1933).

(3) R. Dussaud in *SYRIA*, XX, (1931), 92ff.

«مسينية» أو «مكينية» (Mycenae). يضاف إلى ذلك استعمال بعض الدمى والرموز الدينية التي وجدت من دور حلف مثل الدمى التي تمثل «الإلهة ـ الأم» (Mother Goddess) والحمامة والفأس ذات الرأسين أو الحدين ورأس الثور (Bukranium). وقد وجد مثل هذه الرموز في كريت وبلاد الأناضول مما قبل العهد الحثي. وبالنظر إلى قدم فخار حلف وسبقه في الزمن بعشرات القرون فيسوغ للباحث أن يعكس ذلك الرأي القديم عن أصل فخار حلف، وإرجاع تلك التأثيرات الحضارية في هذه المناطق إلى طور حلف في شمالي العراق.

ويتميز دور حلف في تأريخ حضارة وادي الرافدين بأن فيه ظهرت بداية التعدين واستعمال المعادن، ولا سيما النحاس والرصاص، وقد تقدم فن التعدين خطوات أخرى في الأدوار التي أعقبت عصر حلف.

وتشير سعة القرية التي كشفت عن بقاياها في تل الأربجية (القريب من الموصل) إلى تقدم القرى الفلاحية من ناحية الاتساع والتنظيم وأساليب البناء، وأصبح البعض منها، ولا سيما الأربجية السالفة الذكر، أقرب ما تكون إلى مدن صغيرة تقدم فيها بناء بيوت السكنى وترتيبها وتنظيمها في شوارع مبلطة بالحجارة الطبيعية، ومع أن الطين بقي المادة الشائعة في بناء البيوت إلا أنه ظهر كذلك استعمال اللبن وبوجه خاص في قرى منطقة الخابور.

ويتفرد دور حلف عن أطوار العصر الحجري المعدني بنوع غريب من الأبنية هي الأبنية المستديرة التي ذكرناها باسم «ثولوس» (Tholos وجمعها Tholi) والتي قلنا إنها تضاهي أبنية القبور «المسينية» التي يرجع زمنها إلى عصر متأخر عن دور حلف. وقد وجد عشرة أبنية منها في تل الأربجية من طور حلف الوسيط، وقوامها، كما قلنا، أبنية مستديرة تبلغ أقطارها من 5 ونصف إلى 7 أمتار، ثم ازدادت سعتها في الطبقات التالية من الأربجية إلى 5، 16 و19متراً، وهي مشيدة من الطين على هيئة خلايا النحل وأسسها من الحجارة، ويظن أنها كانت تسقف بقباب معقودة، ووجد للبعض منها مدخل أمام البناء

على هيئة حجرة مستطيلة. ولكن لم يعثر في أي منها على بقايا عظمية بخلاف ما يماثلها من الأبنية «المسينية» التي قلنا إنها كانت قبوراً، ولم يهتدِ الباحثون حتى الآن إلى تفسير واضح لوظيفة هذه الأبنية في شمالي العراق، وقد رجح أن يكون الكبير منها الموجود في مركز قرية الأربجية نوعاً من المعابد أو المزارات الدينية. كما فسرها البعض بأنها لم تكن سوى طراز خاص من دور السكنى، وأن الكبير منها كان بمثابة النادي أو «المضيف» للمجتمع الفلاحي، ولعل مما يؤيد ذلك أن الأنواع، الجديدة المكتشفة في تركية (في الموضع المسمى ترلو) ثبت أنها بيوت للسكنى.

وقد أمكن تقسيم دور حلف ولا سيما في الأربجية، كما ذكرنا في أول كلامنا على العصر الحجري ـ المعدني، إلى ثلاثة أطوار يمثل كلاً منها عدداً من طبقات السكنى ونوعاً خاصاً من فخار حلف. وقد أطلق على هذه الأطوار: (1) طور حلف القديم ويشمل الطبقات البنائية في تل الأربجية مما قبل الطبقة العاشرة، (2) طور حلف الوسيط، وتمثله الطبقات (10ـ7)، (3) طور حلف المتأخر وتمثله الطبقة السادسة.

ونختتم كلامنا على دور حلف بذكر أبرز المواد الأثرية بالإضافة إلى الأواني الفخارية التي تكلمنا عنها، فمنها أنواع مهمة من القلائد أو الدلايات (Pendants) المصنوعة من حجر «الاستيتايت» الأخضر (Steatite) والأقراص الحجرية الصغيرة المنقوشة بخطوط مستقيمة أو متقاطعة. والمرجح أنها كانت تستعمل لختم «السدادات» الطينية الخاصة بالجرار فتكون بذلك أقدم نوع من الأختام المنبسطة (Stamp seals) التي سبقت في الظهور والاستعمال الأختام الإسطوانية (Cylinder seals) وهي الأختام التي ظهرت في الأطوار الأخيرة من دور الوركاء الذي سيأتي الكلام عليه. ومن المواد المميزة أيضاً رؤوس الدبابيس الحجرية (Mace heads) والعوذ الحجرية (Amulets) المصنوعة على هيئة رؤوس الثيران، والدمى المصنوعة بشكل الحمامة وكذلك الدمى التي أشرنا إليها باسم «الإلهة ـ الأم» المصنوعة بهيئة امرأة بدينة تضع يديها على

ثدييها المبالغ في كبرهما، وجسمها مزين بخطوط ونقط يظن أنها نوع من الوشم (Tatto).

2 ـ دور العبيد:

تأريخ الاكتشاف والتسمية:

وجدت بعثة التنقيبات البريطانية في «أور» في أثناء تحرياتها في عام 1926ـ1927[1] في الموقع الأثري المسمى «العبيد» (تصغير عبد) القريب من «أور» (على بعد نحو 4 أميال إلى الشمال الغربي) نوعاً من الفخار الملون عد عند اكتشافه أقدم نوع من الفخار ويمثل أول دور للاستيطان البشري في السهل الرسوبي، وأطلق عليه اسم دور «العبيد» نسبة إلى ذلك التل الذي ذكرناه. ثم أعقبت اكتشافات أخرى لفخار دور العبيد في أنحاء كثيرة من العراق، في الشمال والجنوب؛ ففي الأعوام 1946ـ1949 قامت مديرية الآثار بالتنقيبات في الموضع المسمى «أبو شهرين» (أريدو القديمة، على بعد نحو 25كم جنوب غربي أور). ووجدت نوعاً جديداً من الفخار في طبقات أثرية من «أريدو» تحت الطبقات التي وجد فيها فخار العبيد في الموقع نفسه[2]، أي إن فخار «أريدو» الجديد أقدم زمناً من فخار العبيد، وعد هذا الفخار الجديد دوراً جديداً من أدوار ما قبل التأريخ وأقدم عهود الاستيطان في الجنوب. وقد سبق لبعثة التنقيبات الألمانية في الوركاء أن عثرت في عام 1935ـ1937 على نوع آخر من الفخار أسمته فخار «حاج محمد» نسبة إلى الموضع المسمى «حاج محمد» أو «قلعة حاج محمد» الواقع على ضفة الفرات غير بعيد عن موقع الوركاء وبالقرب من قلعة حاج محمد شيخ قبيلة الجوابر[3]. وقد وجد هذا الفخار تحت طبقة من الترسبات الغرينية يبلغ ثخنها زهاء عشرة أقدام، ولكنه

---

(1) Hall and Woolley, *Al-'Ubaid. Ur Excavations*, I, (1927).

(2) عن نتائج التنقيبات في «أريدو» راجع التقارير الأولية المنشورة في مجلة «سومر»، المجلد الثالث (1947) والمجلد الرابع (1948) والمجلد السادس (1950).

(3) G. Ziegler, *Die Keramik von der Qal'at Haggi Muhammad*, (1953).

كان يظهر إلى العيان في جرف شاطئ النهر إبان انحسار ماء الفرات، ومما لا شك فيه أن يكون موضع الاكتشافات هذا بقايا مستوطن من عصور ما قبل التأريخ سبق دور «العبيد»، ولكن ارتفاع مستوى الأرض بفعل الترسبات الغرينية جعله مطموراً تحت سطح الأرض، وقد وجد فخار «حاج محمد» في «أريدو» في طبقة أثرية تقع فوق طبقات فخار «أريدو» وتحت طبقات فخار العبيد، فيكون التسلسل الأثري لهذه الأنواع الثلاثة من الفخار ابتداء من أسفل الطبقات على الوجه الآتي: أريدو ـ حاج محمد ـ العبيد. ثم اكتشف في عام 1960 في الموضع المسمى «رأس العمية» بالقرب من «كيش» نوع رابع من الفخار شبيه بفخار «حاج محمد» ولكن ارتُئي أن يكون أحدث منه ومشتق منه[1]. وبعد دراسات وبحوث عن الموضوع في الستينات من هذا القرن صار معظم الباحثين يميل إلى عد ما كان يسمى دور «أريدو» طوراً قديماً من أطوار دور العبيد في الجنوب، وأصبح هذا الدور يقسم الآن إلى الأطوار الأربعة التالية:

1 ـ العبيد الأول = طور «أريدو».

2 ـ العبيد الثاني = طور فخار حاج محمد ورأس العمية.

3 ـ العبيد الثالث = ما كان يسمى سابقاً دور العبيد القديم.

4 ـ العبيد الرابع = ما كان يسمى سابقاً دور العبيد المتأخر.

ويعاصر العبيد الأول والعبيد الثاني دور حلف في شمالي العراق، وقد سبق أن جعلنا دور حلف والعبيد الأول والثاني تؤلف ما سميناه بالعصر الحجري ـ المعدني الوسيط. أما العبيد الثالث والعبيد الرابع ودور الوركاء القديم (الطبقات 12ـ8 من الوركاء) والوركاء الوسيط (الطبقات 8ـ6 من

---

(1) اكتشف هذا الفخار في «رأس العمية» السيد «ستروناك» انظر:

D. B. Stronach in *IRAQ*, 23, (1961), 95ff.

الوركاء) فقد جعلت كما مرّ بنا سابقاً الدور الأخير من العصر الحجري المعدني[1].

أريدو:

تقع مدينة «أريدو» (أبو شهرين) الآن في شبه صحراء رملية، بيد أنها لم تكن كذلك في العصور القديمة، إذ تشير الأدلة الآثارية إلى أن مجرى نهر الفرات القديم أو فرعاً منه كان يرويها من بعد مروره بمدينة «أور» القريبة منها (نحو 25كم إلى الشمال الشرقي). وأبرز ما يشاهد الآن من بقايا المدينة بضعة مرتفعات تغطيها الرمال وبقايا البرج المدرج (الزقورة) الذي يرجع في أصله البعيد إلى العصر الشبيه بالكتابي، ولكن شيّد بالآجر بشكله التأريخي في عهد

---

(1) نكرر خلاصة أدوار العصر الحجري المعدني:

1 ـ العصر الحجري ـ المعدني القديم:

أ ـ دور حسونة.

ب ـ دور سامراء.

2 ـ الحجري ـ المعدني الوسيط:

أ ـ دور حلف.

ب ـ دور العبيد الأول = دور «أريدو» (أريدو الطبقات 19ـ15).

جـ ـ دور العبيد الثاني = حاج محمد ورأس العمية (أريدو: الطبقات 14ـ12).

3 ـ الحجري المعدني الأخير:

أ ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً. أريدو: الطبقات 9ـ8). في العبيد و«أور» وتبه گورا (الطبقات 19ـ17).

ب ـ العبيد الرابع (العبيد الأخير سابقاً): في أريدو، الطبقات 7ـ6 والوركاء (الطبقات 18ـ15) وتبه گورا (الطبقات 16ـ13).

جـ ـ الوركاء:

1 ـ الوركاء القديم: الوركاء، الطبقات 12ـ8. وأريدو، الطبقات 5ـ4، وتبه گورا (الطبقات 13أـ12).

2 ـ الوركاء الوسيط: الوركاء (الطبقات 8ـ6)، وأريدو (الطبقات 3ـ2)، وتبه گورا (11أـ11).

3 ـ الوركاء الأخير: الوركاء الطبقات 5 و4أ، 4ب، 4جـ.

وقد جعل هذا الدور من الوركاء أول أطوار العصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي.

سلالة «أور» الثالثة (في حدود 2100ق.م)، كما يدل على ذلك الآجر المختوم بأسماء ملوك هذه السلالة. واشتهرت مدينة «أريدو» في تأريخ حضارة وادي الرافدين ومآثرها الدينية بكونها مركز عبادة الإله الشهير «أنكي ـ أيا» إله الحكمة والمعرفة الذي اشتهر في العقائد الدينية وفي الآداب والأساطير.

وأبانت التحريات الآثارية التي قامت بها مديرية الآثار (1946ـ1949) أن أريدو كانت، بحسب معرفتنا الراهنة، أقدم مواضع الاستيطان في السهل الرسوبي الجنوبي، وذكرت المدينة في أثبات الملوك السومرية على أنها أولى المدن الخمس التي حكمت فيها سلالات من الملوك في عصر ما قبل الطوفان[1]. وكشفت التنقيبات التي نوَّهنا بها عن بقايا تسع عشرة طبقة أثرية أو دور سكني. وتنتظم هذه الطبقات ابتداء من الطبقة السفلى 19 (الكائنة فوق الأرض البكر) في الأدوار الحضارية التالية:

1 ـ الطبقات 19ـ15: طور «أريدو»، الذي سبق أن ذكرنا أنه سمي بدور العبيد الأول.

2 ـ الطبقات 14ـ12: طور فخار حاج محمد، وهو الطور الذي أطلق عليه مع فخار رأس العمية «العبيد الثاني».

3 ـ الطبقات 11ـ8: فخار العبيد المألوف الذي كان يسمى العبيد القديم ثم الآن «العبيد الثالث».

4 ـ الطبقات 7ـ6: فخار دور العبيد المتأخر (العبيد الرابع الآن).

5 ـ الطبقات 5ـ1: دور الوركاء والأطوار التالية وبضمنها عصر فجر السلالات.

ويبدو من نتائج التحريات السالفة الذكر أن السكنى العامة في «أريدو» انقطعت تقريباً من بعد دور الوركاء، واقتصرت حياة المدينة على جملة بنايات

---

(1) انظر الفصل التالي (الخامس) الخاص بعصر فجر السلالات.

رسمية ومعبدية للموظفين ورجال الدين التابعين لمعبد «أي ـ آبسو»، معبد الإله «أنكي ـ أيا». وقد وجدت بقايا قصر كبير يرجع في زمنه إلى عصر فجر السلالات الثالث، واستمر المعبد والزقورة وما يتبعهما من أبنية إلى العصور التأريخية التالية، كما يدل على هذا ما ذكرناه من أن زقورة المدينة (برجها المدرج) قد شيّدت في عهد سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004ق.م)، واستمرت الإشارات التأريخية في النصوص المسمارية إلى معبد المدينة في كتابات الملوك من العهود التأريخية التالية، وفي مقدمتها شريعة «حمورابي» (1792ـ1750ق.م).

وإذا استثنينا الطبقة التاسعة عشرة التي لم يعثر فيها على بقايا من الأبنية الأمر الذي يشير إلى سكنى الأكواخ، فقد وجدت في الطبقات التالية بقايا مساكن مشيدة من الطين ثم من اللبن، وكان لأحد هذه الأبنية قوس معقود باللبن من دور الوركاء.

وكشفت التحريات عند زاوية الزقورة عن سلسلة المعابد شيّد بعضها فوق بعض، أي إن المعبد الجديد كان يقام فوق أنقاض المعبد الأقدم منه. ويرجع أربعة من هذه المعابد إلى دور «أريدو» (العبيد الأول) ويرجع البعض الآخر إلى طور حاج محمد (العبيد الثاني)، ثم العبيد الثالث والرابع ودور الوركاء. وكان المعبد السادس عشر (من الطبقة السادسة عشرة) أحسن تلك المعابد حفظاً، ويلاحظ فيه تقدم في البناء، حيث شيّد باللبن، وقوامه حجرة مربعة تقريباً تحتوي على دكة القرابين (Offering table) ومذبح المعبد (Altar). وتمتاز جدران المعبد بما يسمى بالطلعات والدخلات (Buttress. Recess) وهي الخاصية المعمارية التي ظلّت ملازمة لطراز العمارة في معابد حضارة وادي الرافدين إلى آخر عهودها التأريخية. وتزداد إمارات التقدم المعماري في بناء المعابد التالية، فقد ازداد المعبد الخامس عشر سعة وحجماً، وعندما نصل إلى معابد أطوار العبيد التالية (المعابد: 11ـ9) نجدها مما يصح أن يطلق عليها مصطلح المباني «التذكارية» (Monumental buildings)، حيث شيّدت باللبن

المنتظم وأقيمت فوق دكاك أو مصاطب منحدرة الارتفاع، ويرقى إليها بمنحدرات ترابية (Ramp). وفي وسع الباحث أن يعد هذه المعابد المقامة فوق مرتفعات اصطناعية أصل الزقورات (جمع زقورة أي البرج المدرج)، وهي الأبنية الدينية المرتفعة التي تميزت بها حضارة وادي الرافدين منذ مطلع العصور التأريخية. واستمر تشييد المعابد فوق المصاطب المرتفعة في «أريدو» في دور الوركاء التالي لدور العبيد.

ووجدت في معظم المعابد السالفة الذكر كميات كثيرة من عظام السمك، يمكن تفسيرها على أنها القرابين التي كانت تقدم إلى إله المدينة الذي لا شك في أنه كان الإله «أيا ـ أنكي» حيث استمرت عبادته في المدينة إلى العصور التأريخية، وكانت «أريدو» أشهر مراكز عبادته.

انتشار دور العبيد ومجمل خصائصه الحضارية:

وجدت الآثار المختلفة الممثلة لدور العبيد (بأطواره الأربعة التي يقسم إليها الآن) في جميع أنحاء العراق؛ على أن العبيد في شمالي العراق، وهو ما يطلق عليه اسم «العبيد الشمالي»، يختلف من بعض الوجوه عن العبيد الجنوبي. ويمكن القول إنه في الأجزاء الوسطى والجنوبية من العراق قامت المدن التأريخية المشهورة فوق بقايا قرى من دور العبيد كما تشير إلى ذلك التحريات الآثارية التي تمت في مثل هذه المدن، نخص بالذكر منها «أور» و«أريدو» ولجش (لگش) و«نفر» و«الوركاء» وغيرها، بالإضافة إلى المواضع الأثرية الكثيرة التي سجل المسح الأثري فيها وجود فخار دور العبيد[1]، ومثل ذلك يُقال بالنسبة إلى المواقع الأثرية الكثيرة في شمالي العراق مما سبقت

---

(1) نشير بوجه خاص إلى تحريات مديرية الآثار الخاصة بتسجيل المواقع الأثرية في سائر أنحاء القطر. راجع آخر النشرات التي أصدرتها هذه المديرية عام 1970. وننوّه كذلك بالتحريات التي تمت في منطقة مندلي والكشف عن أطوار العبيد. راجع:

Josan Oates in *IRAQ*, XXX, (1968), 1ff. *IBID.*, XXXI, (1969), 115ff.; *SUMER*, 22, (1966), 15ff.

الإشارة إلى بعضها. وسنخصص وصفاً لأحد المواقع الشمالية وهو «تبه كورا» بصفته إحدى قرى العبيد الشمالي. ووجدت آثار طور العبيد المختلفة في عدة جهات من الشرق الأدنى، ومنها بلاد إيران وبلاد الشام. وتم في السنوات القليلة الماضية مسح أثري لآثار العبيد في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولا سيما الأجزاء الساحلية من الخليج. وسجل أكثر من سبعة عشر موضعاً أثرياً في الجهات الداخلية على بعد نحو 40 ميلاً من السواحل، وجد فيها فخار العبيد من أطواره المختلفة. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن آثاراً من دور «جمدة نصر» وعصر فجر السلالات وجدت في واحة «البريمي» (أبو ظبي)، كما عثر على معبد من عصر فجر السلالات في البحرين (البعثة الأثرية الدنيمركية 1954ـ1961)[1].

وبعد هذا الموجز عن مدى انتشار دور العبيد نذكر مجمل صفة آثار هذا الدور ولا سيما أوانيه الفخارية المميّزة. وأول ما نذكر أن فخار العبيد بوجه عام من النوع الملون ولكنه أحادي اللون (Monochrome)، وقوام الزخارف في أوانيه الفخارية خطوط سود مائلة إلى الزرقة أو سمر أو حمر فاتحة، أما سطح الإناء فإنه ذو لون مخضر (مائل إلى الخضرة) أو أصفر فاتح (Buff)، وهي مفخورة (مشوية) بدرجات عالية من الحرارة. هذا ولا يندر وجود أوانٍ مزينة بأشكال بعض النباتات والحيوانات. كما أن طائفة من الأواني قد صنعت بنوع خاص من دولاب الخزاف أو ما يسمى «القرص» (Tournette) إذ لم يستعمل دولاب الخزاف الصحيح. هذا مجمل وصف فخار العبيد بوجه عام، ويمكن للقارئ الذي يريد الاستزادة والوقوف على فخار كل دور من أدواره الرجوع إلى النشرات الخاصة المثبتة في آخر هذا الفصل. أما موجز فخار طور «أريدو» فإنه يشترك مع فخار

---

(1) عن نتائج هذه التحريات راجع البحوث التي ألقيت في المؤتمر الدولي المنعقد في البحرين عام 1970 عن موضوع الآثار الآسيوية، والمنشورة خلاصتها في:

Edith Porada in *Artibus Asiae*, XXXIII, (1971).

ونشرت هذه البحوث في مجلة: *Archaeology*, 23, (1970), 334ff.

وراجع أيضاً: Geofrey Bibby, *Looking for Dilmun*, (1969).

العبيد العام بكونه ملوناً بلون واحد، ولونه في الغالب أسمر غامق (لون الشكولاتة) ومزين بخطوط صغيرة وبأشكال المربعات والمثلثات الصغيرة والخطوط المنكسرة ضمن خطوط أفقية متوازية، وتشبه هذه الأطرزة في شكلها العام أطرزة فخار دور «سامراء»، ويرجح أن يكون النوعان من الفخار متعاصرين تقريباً. ووجدت في الطبقة (19) (أولى طبقات أريدو) والطبقات 17 و15 الأطباق الخاصة بتقشير الحبوب (Husking trays) الشبيهة بأطباق دور حسونة، الأمر الذي يشير إلى قدم دور «أريدو». أما فخار «حاج محمد» (أي دور العبيد الثاني الممثل في «أريدو» بالطبقات 14ـ12) فلونه في الغالب قاتم ضارب إلى الحمرة الأرجوانية، ويظهر على الإناء بريق معدني من جراء ثخن طلائه، ولكن قعر الإناء ذو لون ضارب إلى الصفرة. ووجد نوع من الأواني على هيئة الطاسات (Bowls) العريضة تشبه الصحون التي وجدت من آخر أطوار حلف، وهي كذلك مزينة من الداخل بشبكات من المربعات والمثلثات.

وإذا كان فن التعدين ولا سيما تعدين النحاس قد كان في مراحله الأولى في دور حلف، فتوجد شواهد على تقدمه في دور العبيد ولا سيما الأطوار الأخيرة منه حيث وجدت آلات واضحة مثل الفؤوس كما تشير إلى ذلك الفأس المكتشفة في «تبه كورا» القريبة من الموصل.

وتدل بقايا القرى التي جرى التحري فيها في جنوبي العراق وشماليه مثل «أريدو» والعقير و«تبه كورا» على اتساع القرى في دور العبيد وتقدم بناء المساكن وازدياد استعمال اللبن المنتظم في البناء، كما أن كثرة القبور وعدد دور السكنى تدل هي الأخرى على تكاثر سكان القرى. فقد وجد مثلاً ما لا يقل عن ألف قبر في «أريدو» من دور العبيد. وقد فرز بعض القبور في «أريدو» وجعلت على هيئة مقبرة للقرية خارج حارات السكن، وهي قبور منتظمة مبنية باللبن وقد وضعت الجثث فيها على ظهورها.

ومما توصف به التحريات التي كانت تجري للكشف عن دور العبيد بوجه خاص وأدوار عصور ما قبل التأريخ بوجه عام أن معظمها لم يتم بأسلوب التنقيبات الأفقية المنتظمة أي الكشف عن حارات السكنى طبقة من بعد طبقة،

وإنما أجريت بطريق حفر الجس (Test pits) العميقة أي الحفر العمودي كما تم في «أور» و«الوركاء» ونفر ونينوى وغيرها، يستثنى من ذلك عدد قليل من المواضع التي طبقت فيها طريقة التنقيبات الأفقية وفي مقدمتها «أريدو» وتبه كورا والعقير، وإذ كنا قد تكلمنا على أريدو فيحسن أن نوجز نتائج التحريات في كل من العقير وتبه كورا بصفتهما أمثلة على قرى عصر العبيد، موضوع بحثنا.

العقير:

ففي موقع العقر (الواقع على بعد نحو 50ميلاً جنوب بغداد في جزيرة ما بين النهرين السفلى) كشفت مديرية الآثار العراقية (1940ـ1941)[1] عن قرية أنموذجية من دور العبيد (دور العبيد الثالث والرابع). كما وجد معبد من طور الوركاء الأخير سيأتي وصفه في كلامنا على العصر الشبيه بالكتابي. لقد شيدت بيوت هذه القرية العبيدية من اللبن وبنيت على جانبي دروب أو أزقة، ويحتوي البيت الواحد على عدة حجرات ذات تخطيط منسق نوعاً ما. ووجدت نماذج للتنور الشبيه بالتنور العراقي الحديث. واستعمل فلاحو هذه القرية المناجل والفؤوس المصنوعة من الفخار المشوي شياً جيداً، حيث لم ينتشر استعمال معدن النحاس على مقياس كبير، كما استعملوا الحجارة الطبيعية في صنع أدواتهم الزراعية المحدودة مثل رؤوس المحاريث، ولم يكن المحراث المعدني الكبير قد شاع استعماله. ووجدت كذلك إبر من العظم وأقراص للمغازل الأمر الذي يشير إلى تقدم فن الحياكة والنسيج.

ويجدر أن ننوّه في ختام كلامنا على دور العبيد بالاتصالات التجارية بين وادي الرافدين وبين الأقطار الخارجية منذ عصور ما قبل التأريخ لجلب المواد الضرورية التي استعملها سكان العراق القديم؛ ومع أن تلك الاتصالات كانت تتم

---

(1) عن نتائج تنقيبات مديرية الآثار في العقير راجع:

S. Lloyd and F. Safar in *JNES* (1943).

وعن موجز فخار العبيد من أطواره المختلفة انظر:

Edith Porada in Ehrich, *Chronolgies in Old World Archaeology*, (1965), 133f.; 149ff.

بالدرجة الأولى بالطرق البرية بيد أنه وجدت إمارات آثارية تشير إلى أن بعض تلك الاتصالات كان بطريق البحر، ونذكر بهذه المناسبة نموذج القارب المصنوع من الفخار الذي وجد في «أريدو» من أطوار العبيد الأخيرة. وأن «أريدو» و«أور» القريبة منها لم تكونا بعيدتين عن ساحل الخليج العربي، وقد سبق أن ذكرنا في الفصل الأول المخصص للمقدمة الجغرافية احتمال اتصال هاتين المدينتين بالخليج عن طريق هور كبير كان يمتد في عصور ما قبل التأريخ إلى هذا الجزء من جنوبي العراق. ونعيد إلى الأذهان بهذه المناسبة ما سبق أن ذكرناه من الاكتشافات الآثارية الجديدة في سواحل الجزيرة العربية والعثور على أطوار العبيد المختلفة. ولعل تلك الاتصالات قد بلغت جهات الهند الشرقية (وادي نهر السند)، وهي الاتصالات التي اتضحت أكثر في العصور التأريخية التالية.

قرية «تبه كورا»:

من القرى النموذجية التي تناولتها التنقيبات الأفقية أي الكشف عن حارات دور السكنى بحسب طبقاتها، الموضع الذي سبقت الإشارة إليه باسم «تبه كورا»، الواقع على بعد نحو 15ميلاً شمال شرقي الموصل. وقد أسفرت التحريات التي قامت بها جامعة «بنسلفانية» الأمريكية برئاسة الأستاذ «سپايزر» (Speiser) (1931ـ1938)[1] عن إظهار عشرين طبقة أثرية أو دور سكني، تبدأ أزمانها من دور حلف الذي تكلمنا عنه سابقاً في منتصف الألف الثاني ق.م، حيث الفخار «الحوري» والآشوري من العصر الآشوري الوسيط[2]. أما دور

---

(1) انظر نتائج التنقيبات في تبه گورا في:

A. J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra,* (1956).

(2) ندرج فيما يأتي خلاصات الطبقات في تبه گورا:

دور حلف: الطبقات 20 ـ 19.

دور العبيد: الطبقات 19 ـ 13.

دور الوركاء: الطبقات 13 ـ 9.

دور جمدة نصر: الطبقات 9 ـ 8.

عصر فجر السلالات والعصور التأريخية التالية الطبقات 8 ـ 7.

العبيد، موضوع بحثنا، فإنه ظهر في الطبقة التاسعة عشرة ويستمر إلى الطبقة الثالثة عشرة، حيث عثر فيها على الأواني الفخارية الخاصة بدور العبيد، ولا سيما دور العبيد الثالث والرابع. وشيّدت بيوت هذه القرية، كما في بيوت دور العبيد الجنوبية بآجر اللبن، ولكن إلى ذلك استعملت الحجارة أيضاً. ويمتاز العبيد الشمالي، كما تمثله «تبه كورا»، بكثرة ما يسمى بالأختام المنبسطة (Stamp seals) المصنوعة من أنواع الأحجار المختلفة، في حين أن استعمالها في العبيد الجنوبي كان نادراً تقريباً، وقد نقشت بصور مبسطة من الحيوانات والصور الآدمية التقريبية. كما أن الأدوات المصنوعة من النحاس أوضح وأكثر منها في العبيد الجنوبي، حيث لم يعثر لحد الآن على أدوات نحاسية واضحة لعله بسبب ملوحة التربة في الأجزاء الجنوبية من العراق. وقد سبق أن ذكرنا الفأس النحاسية التي وجدت في «تبه كورا» كما وجدت ثلاث أدوات أخرى هي مخيط (Awl) وحلقة و«زر». وبالإضافة إلى معدن النحاس وجدت خرز من الذهب، وقد وجد خيط أو سلك من الذهب في أور.

ووجدت في تبه كورا ثلاثة معابد (الطبقة 13)، وهي تضاهي بعض معابد «أريدو» من الدور نفسه. وإلى جانب ذلك عثر في الطبقة نفسها على بناءين مستديرين من النوع الذي سميناه «ثولوس» (Tholos) الذي شاع في قرية الأربجية من دور حلف السابق لدور العبيد، الأمر الذي يشير إلى استمرار بعض العناصر الحضارية من دور حلف إلى دور العبيد. ومثل ذلك يُقال في دمى الطين التي تمثل «الإلهة ـ الأم» وهي جالسة على غرار دمى دور حلف فلا تشبه ما شاع في العبيد الجنوبي، حيث تمثل على هيئة امرأة نحيفة (هيفاء) ورأسها أشبه ما يكون برأس الحية، ومثل شعرها بطيات من القير. ويجدر أن نشير بهذا الصدد إلى أن هناك نوعاً آخر من دمى الطين الممثلة على هيئة امرأة تحمل على صدرها طفلاً، مما يشبه «الأم والطفل» في الرموز المسيحية الدينية.

وبخلاف المقبرة التي وجدت في «أريدو» المخصصة خارج دور السكنى والمشيدة باللبن من دور العبيد مما أشرنا إليه في كلامنا على «أريدو»، كانت

القبور في قرية تبه كورا من الدور نفسه عبارة عن (حفر دفن اعتيادية) حفرت خارج المعابد ووضعت الجثث فيها وهي ملمومة (Contracted). أما الأطفال فكانوا يقبرون في جرار أو أوانٍ كبيرة من الفخار. ولعل هذا يشير إلى أن العبيديين الشماليين ظلوا محافظين على طائفة من تراث أسلافهم من دور حلف رغم انتشار جماعات من أهل العبيد الجنوبي إلى الشمال.

ومما لا شك فيه أن الزراعة اتسعت في هذا العصر، وأصبحت بالدرجة الأولى زراعة ري ولا سيما في السهول الرسوبية الوسطى والجنوبية. وبما أن دور العبيد أقدم زمن للاستيطان في هذه الأقسام من العراق فكانت زراعة الري أولى تجارب ومحاولات لمشاريع الري قام بها العبيديون الجنوبيون بوجه خاص، وكانت في مقدمة العوامل التي حفزت الإنسان على تنظيم المجتمع وظهور المعالم الأولى من نظام الحكم، مما سنتطرق إليه مرة أخرى. وكان لظهور المعبد منذ دور العبيد أثر مهم في التنظيمات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، حيث سرعان ما ظهرت في الأدوار التي أعقبت عصر العبيد ملامح نظام المدينة المعبدية والحكومة المعبدية. وعلى هذا فإن ظهور المعابد في عصر العبيد واستمرارها في الوجود والتطور والاتساع في الحجم والتنظيم والنفوذ يسوغ للباحث عد عصر العبيد بداية ما يسمى بالحضارة السومرية التي ازدهرت في مطلع الألف الثالث ق.م مما سنتناوله في الفصل التالي. وهذا يضعف رأي من ذهب من الباحثين إلى جعل بداية حضارة وادي الرافدين منذ دخول السومريين المزعوم إلى العراق في الأطوار الأخيرة من دور الوركاء.

العصر «الحجري ـ المعدني» الأخير:

تكلمنا فيما سبق على العصر الحجري ـ المعدني الأول (القديم) الذي يتضمن دور حسونة وسامراء والعصر الحجري المعدني الثاني (الوسيط) الذي يدخل ضمنه دور حلف والعبيد الأول والثاني، فنخصص الآن موجزاً لآخر أدوار العصر الحجري ـ المعدني (4000ـ3500) الذي أدخلنا فيه دوري العبيد الثالث والرابع ودور الوركاء (الوركاء القديم والوسيط).

1 ـ دور العبيد الثالث والرابع:

بما أننا تكلمنا على دور العبيد بوجه عام فلا حاجة إلى إفراد بحث خاص لدوري العبيد الثالث والرابع اللذين قلنا إنهما كانا يسميان العبيد القديم والعبيد المتأخر، فنقتصر على ذكر أبرز الأمور المميزة، منها أن هذين الدورين ممثلان في جميع أنحاء العراق الشمالية والجنوبية، وفي معظم أجزاء الشرق الأوسط. فالعبيد الثالث مثلاً ممثل في «أريدو» بالطبقات (11ـ8)، وقبل ذلك وجد في «أور» وتل العبيد (الذي سمي باسمه دور العبيد جميعه) وفي «تبه كورا» (الطبقات 19ـ17)، وكان يسمى سابقاً دور العبيد القديم وهو أول ما اكتشف من أطوار هذا الدور قبل أن يعثر على طور «أريدو» وطور «حاج محمد». ولعل أبرز ما يجده المنقبون ولا سيما في المواقع الجنوبية، مسامير الفخار المعوجة (Bent clay nails)، ومناجل الفخار. والفخار الأنموذجي لهذا الطور من العبيد ذو لون واحد وقوام زخارفه خطوط منحنية. ويوجد نوع خاص من الأواني يطلق عليها مصطلح الجرار السلحفاتية (Tortoise jars) وقد بدأ ظهورها في «أريدو» (الطبقة 13) ولكن كثر استعمالها في الطبقات (11ـ8)، ويظن أن استعمالها كان يتعلق بنوع من الشعائر الدينية. وننوّه أيضاً بما ذكرناه من المعابد في «أريدو» ذات الجدران المنتظمة المزينة بما سميناه «الطلعات» و«الدخلات»، وقد أقيمت كما ذكرنا على دكاك أو مصاطب، والوحدة المعمارية البارزة فيها محراب المعبد أو «السيلا» (Cella) والمذبح (Altar) في الجهة المقابلة وخلفه ممشى أو ممر.

أما الدور الأخير من العبيد (العبيد الرابع الذي كان يسمى أيضاً العبيد المتأخر) فتمثله في «أريدو» الطبقتان 7 و6 والطبقات (16ـ13) من «تبه كورا». واستمرت المعابد في تطورها في هذا الدور في الجنوب وفي الشمال. ويوجد تشابه ملحوظ بين النوعين من المعابد كما يظهر من مقارنة المعبدين السابع والسادس في «أريدو» بمعابد الطبقة الثالثة عشرة في تبه كورا، من حيث اتجاهاتها العامة ووجود المحراب فيها (السيلا) ووجود حجرات (أربع حجرات) على جنبي

(السيلا). ولكن حدث تدهور في صناعة الفخار وقد علل بعض الباحثين هذا الإهمال في صناعة الأواني الفخارية بازدياد استعمال المعادن[1].

وجاءتنا عدة نماذج من الأختام المنبسطة من هذا الطور وهي بيضوية أو مستديرة ومزخرفة بخطوط متناظرة متوازية وكذلك بحفر صغيرة. ويلاحظ بعض التطور في دمى الطين والغالب عليها أنها تمثل حيوانات ولا سيما البقر (Bovids) وأشكالاً آدمية ولا سيما صور النسوة.

2 ـ دور الوركاء (الطوران القديم والوسيط):

سمي الدور الحضاري الذي تلا الطور الأخير من دور العبيد بالوركاء نسبة إلى موقع الوركاء المعروف، حيث اكتشف نوع جديد من الفخار معظمه مصنوع بدولاب الحزاف، وقد وجد هذا الفخار في أثناء السبر الأثري في منطقة معبد «أي ـ أنا»[2] في تسع طبقات أثرية (الطبقات 12ـ4)، عثر عليه في أماكن كثيرة من العراق والشرق الأدنى.

ويتجه البحث الحديث في عصور ما قبل التأريخ في حضارة وادي الرافدين إلى تقسيم دور الوركاء هذا والفخار الخاص به إلى ثلاثة أطوار[3]: أ ـ طور الوركاء القديم. ب ـ طور الوركاء الوسيط. جـ ـ طور الوركاء الأخير.

فطور الوركاء القديم تمثله الطبقات (12ـ7) من الوركاء وفي «أريدو» ترجع إليه المعابد المقامة على مصاطب (الطبقات 5ـ2) وفي «تبه كورا»

---

(1) انظر: Joan Oates. «Ur and Eridu» in *IRAQ*, XXII, (1960), 39.

(2) راجع تقارير تنقيبات البعثة الألمانية في الوركاء في النشرة الخاصة المرموز لها بـ (UVB): *UVB*, III, (1932), IV (1933).

(3) انظر:

R. W. *EHRICH*, *Chronologies in Old World Archaeology*, (1965), 153ff.

وبالإضافة إلى دلالة فخار دور الوركاء على استعمال دولاب الخزاف وجدت أجزاء من هذا الدولاب في أور من دور الوركاء، إذ عثر على قرص دائري من الفخار الثخين، وسطه مثقوب ومبطن بالزفت، وتوجد دائرة من الثقوب في أطراف محيطه، حول هذا الموضوع راجع:

Forbes, *A History of Technology*, I, (1955), p. 199.

الطبقات (13أ-12)، وتعود إلى طور الوركاء الوسيط الطبقتان (7-6) من الوركاء، أما طور الوركاء الأخير فتمثله في الوركاء الطبقتان (5-4)، وتنقسم الطبقة الرابعة إلى أ وب وجـ وقد جعل هذا الطور الأخير مع دور «جمدة نصر» وعصر فجر السلالات الأول عصراً حضارياً خاصاً سمي كما ذكرنا سابقاً بالعهد الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي، وسنفرد له وصفاً خاصاً.

ويميز فخار الوركاء القديم بأنه ذو لون فاتح وهو في الغالب مصنوع باليد، وهناك الفخار الأحمر والرمادي وكلاهما من النوع المطلي (Slipped) كما تميزه الأقداح ذات الحافات المائلة أو المعوجة (Bevelled rim). أما الأختام فإنها ظلّت من النوع المنبسط (Stamp seal) ولم تظهر بعد الأختام الإسطوانية.

أما طور الوركاء الوسيط الذي تعود إليه الطبقتان السابعة والسادسة في الوركاء فتمثله أيضاً في «أريدو» الطبقتان الثالثة والثانية، كما ترجع إليه الطبقات (20 - 17) في «نفر»، في منطقة معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) والطبقة الحادية عشرة في «تبه كورا»، كما وجدت آثاره في عدة أماكن أخرى مثل منطقة ديالى. والغالب على الأواني الفخارية من هذا الطور الأباريق ذات الصنابير المعوجة (Drooping spout)، والجرار ذات الصنابير الطويلة، وأوعية من الفخار الأحمر ذات عرى أو آذان أربع (Four lugged).

العصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي:

ارتأى جماعة من الباحثين ولا سيما من جماعة المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو)[1] لأسباب حضارية إطلاق مصطلح العصر أو الدور الشبيه بالكتابي (Proto-literate) أو الشبيه بالتأريخي (Proto-historic) على طور الوركاء الأخير

---

(1) راجع:

P. Delougaz in *OIP*, LVIII, p. 8.

A. Parrot *AM*, II, 272ff.

(الوركاء، الطبقتان 5 و4 أ وب وجـ) وعلى دور جمدة نصر (الطبقتان 3 و2 من الوركاء)، وأضيف حديثاً إلى هذين الدورين عصر فجر السلالات الأول. ويمكن تحديد زمن هذا العصر بموجب أحدث الآراء من 3500 إلى 2800ق.م.

موجز الخصائص الحضارية للعصر الشبيه بالكتابي:

قبل أن نتكلم على أطوار هذا العصر نجمل أولاً أبرز الخصائص الحضارية التي ميّزته. فباستثناء فخار دور الوركاء المختلف عن فخار الأطوار السابقة، نلاحظ استمرارية التقدم الحضاري في كثير من المقومات والعناصر الحضارية من العصور السابقة، وفي مقدمة ذلك استمرار المعابد بشكلها العام المتحدر من دور العبيد وطوري الوركاء القديم والوسيط السابقة لهذا العصر، ولكنها ازدادت سعة وأناقة وزخرفة في هذا العصر الجديد، وإلى هذا ظهرت أوائل المعابد العالية أي الزقورات التي اختصت بها حضارة وادي الرافدين، كما تشير إلى ذلك المعابد المقامة على أكثر من مصطبة واحدة مما اكتشف في الوركاء والعقير. وظهرت جملة عناصر حضارية جديدة مميزة لحضارة وادي الرافدين الأمر الذي يسوغ لنا عد هذا العصر بأنه طور التكوين الحضاري (Formative phase)، فظهرت لأول مرة الأختام الإسطوانية (Cylinder seals) في الطبقة الخامسة من الوركاء، وقد رأينا أن الأختام كانت مما يسمى بالأختام المنبسطة (Stamp seals) في الأدوار السابقة لهذا العصر. والأختام الإسطوانية صارت من العناصر الحضارية الملازمة لحضارة وادي الرافدين في جميع عهودها منذ ظهورها في هذا العصر. وظهر أيضاً لأول مرة استعمال دولاب الخزاف لصنع الأواني الفخارية، واحتمال استعمال عجلة العربة. وتقدم فن التعدين مراحل مهمة وانتشر استعمال المعادن، وتطورت القرى الكبيرة من العهود السابقة فصارت أوائل المدن ونواة لظهور التمدن والحياة الحضرية (Urbanization) ونظام دولة المدينة (City state) وهو النظام الذي سنشاهد ازدهاره وصيرورته النظام السياسي المميز في عصر فجر السلالات التالي للعصر

الشبيه بالكتابي. وظهر كذلك فن النحت بالحجر بكلا نوعيه المجسم والبارز. وحصل تطور محسوس في الزراعة ونظام الري من حيث الانتظام والاتساع.

ومما لا شك فيه أن أعظم اختراع حصل في هذا العصر كان في ابتداع وسيلة للتدوين أي ظهور الكتابة لأول مرة في تأريخ الحضارة، حيث عثر على أولى نماذج من الكتابة الصورية و(Pictographic) من الطبقة (4«أ») في الوركاء (IV-A)، ومع أنها كانت صورية كما ذكرنا بيد أنه يرجح أنها لم تكن البداية البسيطة بل لعله سبقتها أطوار بدائية. واتضحت اللغة المدونة بهذه الكتابة في دور جمدة نصر بأنها اللغة السومرية. وبما أن الكتابة في الطور الشبيه بالكتابي كانت صورية واقتصر استعمالها على تدوين أشياء بسيطة مادية كواردات المعبد وأملاكه من الحيوانات ولم تدوّن بها نصوص تأريخية ولا شؤون الحياة العامة فلم يجعل دور الوركاء الرابع الذي ظهرت فيه بداية العصر التأريخي بل عد كما قلنا ضمن العصر الشبيه بالتأريخي الذي سمي كذلك للسبب الذي نوَّهنا به من أن مصادرنا المدونة عنه مقتصرة على تلك الألواح الصورية الخالية من الأخبار التأريخية.

دور الوركاء الأخير:

بعد أن أوجزنا الخصائص الحضارية العامة المميزة للعصر الشبيه بالكتابي نورد الآن بعض الملاحظات الأساسية عن أدوار هذا العصر. ونبدأ بأول هذه الأدوار وهو الطور الأخير من عصر الوركاء الذي تمثله في الوركاء الطبقتان الخامسة والرابعة (الرابعة أ، ب، جـ) كما ترجع إليه الطبقتان السادسة عشرة والخامسة عشرة في نفر (معبد أنانا) والطبقتان (10أ) و(9) في تبه كورا والمعبد الأخير في «أريدو».

ومن ناحية الفخار اختفى في هذا الدور فخار الوركاء ذو اللون الرمادي باستثناء كميات قليلة وجدت منه في منطقة «أي ـ أنا» في الوركاء، وقل استعمال الفخار الأحمر وظهر نوع من الفخار يعرف بطلائه ذي اللون «الإجاصي» (Plum red slip) وقد بدأ لأول مرة في الطبقة السادسة عشرة من

معبد «أنانا» في «نفر» وفي «أي ـ أنا» في الوركاء، وكثر في الاستعمال في الطبقات التالية، كما ظهرت الجرار المزخرفة بأشكال من المثلثات المتصالبة وذات العرى الأربع.

ولعل أبرز ما يميّز هذا الدور ظهور عدد من المعابد المهمة ولا سيما تلك المعابد المقامة على مصاطب أو دكاك اصطناعية. ففي مدينة الوركاء كشف عن عدد منها في منطقة معبد «أي ـ أنا»، وهو المعبد المخصص للإلهة «أنانا» (عشتار). كما شيدت معابد أخرى للإله «آنو» في الموضع الذي شيدت «زقورته». ففي المنطقة الأولى وجدت بعثة التنقيبات الألمانية ما لا يقل عن ستة معابد موزعة بين الطبقتين الخامسة والرابعة، وقد شيدت على هيئة أزواج (Pairs) أي على هيئة معبدين متجاورين، وقد فسر المنقبون هذا الترتيب[1] بأن المعبدين المزدوجين خصص أحدهما للإلهة «أنانا» (عشتار) والآخر لقرينها أو زوجها الإله «تموز». وقد سمي أحد المعابد من الطبقة الخامسة بالمعبد الكلسي لأنه أقيم على أسس أو مصطبة من حجر الكلس (وسعته 29×75متراً). ويمتاز هذا المعبد والمعابد التالية له بأنها كانت مزينة بزينة من الفسيفساء الجميلة التي تتألف من مخاريط (Cones) من الطين المشوي (تتراوح أطوالها ما بين 3 إلى 4 انجات)، ولونت رؤوسها بأصباغ من اللون الأسود والأحمر والأبيض، وكانت تثبت بالجدران المملطة (Plastered) بالطين. وقد شاع استعمال هذا الطراز من الزخارف المعمارية الجدارية في العصر الشبيه بالكتابي.

وكشف في الطبقة الرابعة (ب) في الوركاء عما لا يقل عن ثلاثة معابد ومعبدين من الطبقة الرابعة أ، أبعاد أحدهما 83×53م وأبعاد المعبد الثاني المسمى معبد «C» (22,20×54,20م). أما معابد الإله «آنو» في الوركاء من هذا العصر فقد سجلت لها ستة أدوار بنائية شيدت متسلسلة الواحد فوق

---

(1) انظر:

H. Lenzen. «Die Tempel Der Schicht «V» in URUK» in *ZA*, 40. (1949), 1ff.

الآخر، وقد تطورت في النهاية إلى زقورة على هيئة دكة أو مصطبة ترتفع خمسين قدماً وفوقها شيّد المعبد الذي أطلق عليه اسم المعبد الأبيض. أما زقورة مدينة الوركاء الكبيرة في منطقة «أي ـ أنا» فيرجع زمن تأسيسها إلى عهد سلالة أور الثالثة، وبوجه خاص مؤسس هذه السلالة «أور ـ نمو» وابنه «شولگي»، وقد وجدت تحتها بقايا زقورة أقدم منها تعود إلى العصر الشبيه بالكتابي.

ومن المعابد المهمة التي كشف عنها في العصر الشبيه بالكتابي معبد العقير الذي سبق أن نوَّهنا به في كلامنا على موضع العقير وتنقيبات مديرية الآثار فيه (1940ـ1941)[1]. ويعد هذا المعبد أيضاً من أولى المعابد العالية أو «الزقورات»، إذ يرجح أنه يعاصر في زمنه طبقة الوركاء الرابعة، كما يدل على ذلك اللبن المشيد به. وهو مقام على دكة أو مصطبة ترتفع زهاء (4) أمتار. وزينت جدران المعبد العالي المشيد فوقها بصور جدارية ملونة جميلة قوامها أشكال آدمية رسمت على هيئة موكب، ولكنها مشوهة مع الأسف، وأشكال بعض الحيوانات من بينها صورتا فهدين (Leopard) رابضين، يحرسان على ما يرجح أن يكون عرش إله لا يعلم من هو. وتعد هذه أقدم صور جدارية اكتشفت لحد الآن[2].

وتختص أبنية هذا العهد باستعمال نوع من اللبن أطلق عليه بالألمانية مصطلح «ريمشن» (Riemchen)، وهو لبن مستطيل الشكل مربع المقطع تقريباً، ويرجح أن أول استعمال له ظهر في الطبقة السادسة من الوركاء واستمر في الاستعمال إلى أطوار الوركاء التالية ثم إلى دور «جمدة نصر». ويجدر أن ننوّه بالعثور على بقايا معبد مشيد على مصطبة من دور الوركاء الرابع في التل المسمى «قالينج آغا» (نحو كيلومتر واحد عن قلعة أربيل).

---

(1) انظر المصدر المذكور في الهامش رقم 23.

(2) انظر المصدر المذكور في الهامش رقم 23.

فن النحت:

لم يعثر على آثار منحوتة من طبقة الوركاء الرابعة ولكن وجدت جملة قطع فنية جميلة في الوركاء من دور «جمدة نصر» يرجح أنها ترجع في أصلها إلى دور الوركاء السالف الذكر (الطبقة الرابعة)، من بينها الإناء الحجري النذري ومسلة صيد الأسود ورأس الامرأة الجميل المنحوت من المرمر، وسنفرد لمثل هذه المنحوتات وصفاً خاصاً في كلامنا على دور «جمدة نصر».

الأختام الإسطوانية:

من العناصر الحضارية المميزة التي سبق أن ذكرنا ظهورها في العصر الشبيه بالكتابي الأختام الإسطوانية (Cylinder seals)، وكانت الأختام في العصور السابقة من النوع المنبسط (Stamp seals). وظهر هذا النوع الجديد من الأختام، كما رأينا، في الطبقة الخامسة من الوركاء ثم كثر استعمالها منذ الطبقة الرابعة التي خصصنا إليها أيضاً ظهور الكتابة لأول مرة. والختم الإسطواني كما يشير إلى ذلك اسمه، عبارة عن خرزة إسطوانية تصنع من الأحجار المختلفة وبعضها من أحجار شبه ثمينة، وتتراوح أطوال هذه الأختام من عقد واحدة (انج) إلى ثلاثة انجات، وتختلف أقطارها أيضاً ما بين زهاء سنتيمتر واحد إلى بضعة مليمترات. وهي مثقوبة طولياً مما يحتمل أنها كانت تعلق من الرقبة، وكانت من المقتنيات الشخصية الملازمة لمعظم الأفراد. ويعد الختم من الناحية الفنية من أجمل ما أنتجه فن النقش والنحت في جميع الحضارات، وكان يحفر وينقش بصور مختلفة المواضيع والطرز بهيئة معكوسة بحيث إذا دحرج على الطين الطري ترك طبعة هذه الصور بهيئة موجبة، وكان ذلك بمثابة التوقيع أو الختم لتوثيق العقود والمعاملات المختلفة، وصار الكثير منها في العصور التأريخية التالية ينقش أيضاً بكتابة جميلة موجزة قد تذكر اسم صاحب الختم وهويته. ويتميز كل دور من أدوار حضارة وادي الرافدين بأنواع خاصة من الأختام الإسطوانية، وعلى هذا تكون هذه الأختام على جانب كبير من الأهمية في تحديد أزمان الطبقات الأثرية في أثناء التنقيبات. وإلى ذلك

فالأختام تعد من المصادر المهمة من مصادر معرفتنا بجوانب مهمة من حضارة وادي الرافدين لأنها، كما بيّنا، كانت تنقش بمواضيع مختلفة من المشاهد المتعلقة (بالعقائد الدينية ومواضيع الأساطير وصور الآلهة ورموزها والأحداث المخلدة بالأدب)[1].

الكتابة:

والكتابة التي ظهرت في العصر الشبيه بالكتابي كما رأينا تعد من أعظم الاختراعات في حضارة وادي الرافدين، فهي على ما هو بديهي من مستلزمات الحضارة بل إن الكتابة والتدوين مرادفة للحضارة. وقد تفردت مدينة الوركاء بذلك الإنجاز الخطير، فقد وجدت، كما مرّ بنا، أولى كتابة من النوع الصوري في الطبقة الرابعة من منطقة معبد «أي ـ أنا»، ومع أن هذه الكتابة كما قلنا، أقدم ما جاء إلينا لحد الآن، بيد أنه يعتقد أن محاولات لإيجاد وسيلة للتدوين قد سبقتها في العصور الأقدم. كما أنه لا يعلم بوجه التأكيد من الذي اخترع الكتابة المسمارية، أهم السومريون أم قوم آخرون سبقوهم في استيطان السهل الرسوبي من غير السومريين ولا الساميين كما نوَّهنا في كلامنا على الأقوام القديمة في وادي الرافدين. وبالإضافة إلى مدينة الوركاء وجد في مدينة «كيش» لوح من الحجر منقوش بكتابة صورية قديمة يرجح أنه يرجع في عهده إلى مطلع العصر الشبيه بالكتابي.

وكانت الكتابة طوال عصر الوركاء الأخير (الطبقة الرابعة من الوركاء) صورية لا تعدو كونها تقييدات بسيطة لواردات المعابد بالدرجة الأولى ولا تعرف اللغة التي دوّنت بها، ولكنها تقدمت أشواطاً أخرى في العصور التالية ابتداء من دور «جمدة نصر» الذي بدأت فيه المحاولات الأولى لكتابة المفردات وبعض الجمل البسيطة، واتضح أن اللغة التي دوّنت بها منذ ذلك

---

(1) راجع:

P. Amiet, *La Glyptique Mèsopotaminne Archaique* (1961), p. 37.

الدور كانت اللغة السومرية؛ وفي عصر فجر السلالات الذي تلا دور «جمدة نصر» تقدمت مراحل أخرى بحيث أصبحت وسيلة لتدوين شؤون الحياة المختلفة والسجلات الرسمية. وجاءتنا نماذج من كتابات عصر فجر السلالات الثاني ولا سيما الألواح «الأركائية» (Archaic) التي وجدت في الموضع المسمى «فاره» (شروباك القديمة)، وقد قدر زمنها ببداية عصر فجر السلالات الثالث، وأقدم منها الألواح المكتشفة في «أور» التي تؤرخ ما بين عصر فجر السلالات الأول والثاني (في حدود 2800 ـ 2700ق.م). وترجع إلى هذا الزمن على ما يرجح الكتابات المكتشفة في منطقة ديالى والنقوش الكتابية القليلة المنسوبة إلى ملك كيش المسمى «أنميبراكيسي» (Enmebaragisi) ومع أن الألواح الصورية التي جاءت إلينا من العصر الشبيه بالكتابي لم تدون بها شؤون ذات بال إلا أننا نستطيع أن نستنتج منها أموراً مهمة عن بعض الجوانب الاقتصادية، بدارسة صور الأشياء المادية التي دوّنت بها ومنها الأغنام والماعز والأصواف والعلامة المسمارية التي تعبّر عن كلمة تاجر وصورة المحراث والعلامة الدالة على البستان وشجرة النخيل، الأمر الذي يشير إلى ظهور البساتين والبستنة (Horticulture) والعلامة المعبرة عن العربة ذات العجلة. وظهرت كذلك علامات مسمارية ذات دلالة مهمة عن صفة التنظيمات الاجتماعية والسياسية مثل العلامة الدالة على «مشيخة المدينة» (شيوخ المدينة) و«مجمع المدينة» (Assembly) والعلامة الدالة على «الحاكم» و«قيم» المعبد: «اين» (En) ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن العلامة الدالة على الملك (لوكال Lugal) لم تظهر في نظام الخط المسماري قبل عصر فجر السلالات.

إن اكتشاف أقدم كتابة في المعبد وليس في المباني الأخرى له مغزاه ودلالته على أن المعبد منذ ظهوره في عصر العبيد السابق كان مركز الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في قُرى ذلك العصر التي تطورت فيما بعد منذ العصر الشبيه بالكتابي إلى المدن التأريخية المشهورة، وسنتناول موضوع المدينة والمعبد في القسم الثاني من كتابنا، كما سنخصص بحثاً عن الكتابة والتدوين.

وننهي هذه الملاحظات الموجزة عن نشوء الكتابة بإيجاز المراحل التطورية التي سار فيها تطور الكتابة: (1) اختزال الأعداد الكثيرة للعلامات الصورية المعبرة عن الشيء المادي نفسه والاقتصار على بضع علامات قليلة لتمثيل هذا الشيء، وتبسيط رسم العلامات. وللمقارنة نذكر أن عدد العلامات المسمارية الذي بلغ زهاء (2000) علامة في الدور الرابع من عصر الوركاء اختصر واختزل إلى نحو 800 علامة في أواخر عصر فجر السلالات الثاني. فمثلاً اختزل عدد العلامات المعبرة عن الغنم أي الكلمة السومرية «أدو» (Udu) من 31 علامة في دور الوركاء السالف الذكر إلى 3 علامات ثم علامتين في الأطوار التالية. (2) ظهور استعمال العلامات الدالة على الكلمات أي التي تقوم مقام الكلمة مما يصطلح عليه بالكتابة الرمزية (Ideogram) أو (Logogram)، ثم استعمال المعاني المشتقة من الأشياء المادية المدونة بالعلامات المسمارية، مثل تأدية صورة القدم (السومرية Du) لجملة كلمات من بينها أفعال مهمة تقترن بعضو القدم والرجل مثل «قام» و«دخل» و«ذهب» و«حمل» و«رفع»، واكتساب مثل هذه العلامة أصواتاً أخرى أو قِيماً صوتية هي أصوات تلك الكلمات المشتقة منها، أي ما يصطلح عليه في الخط المسماري بمبدأ تعدد القِيم الصوتية للعلامة الواحدة (Polyphones). (3) الانتقال من هذه المرحلة الرمزية إلى المرحلة الصوتية (Phonetic) باستخدام أصوات العلامات المسمارية المشتقة من ألفاظ أشياء مادية للتعبير عن قِيم صوتية مجردة عن معاني الكلمات المشتقة منها لكتابة الكلمات والجمل كتابة صوتية على هيئة مقاطع (Syllables). (4) اختيار طائفة من العلامات المسمارية تكتب قبل أسماء الأشياء أو بعدها لبيان الصنف الذي تعود إليه أو المادة المصنوعة منها مثل العلامة الدالة على الخشب (Gish) للدلالة على أسماء الأشجار والأخشاب، وهذا ما يصطلح عليه في طريقة الكتابة المسمارية بالعلامات الدالة (Determinative)؛ كما طرأ تبدل في اتجاه كتابة العلامات المسمارية، فبعد أن كانت تكتب في الأسطر من الأعلى إلى الأسفل صارت تكتب أفقياً من اليسار إلى اليمين، والطريف ذكره بهذا الصدد أنه في أثناء هذه التطورات التي نوَّهنا

بها ظهرت المحاولات الأولى لتأليف أثبات أو جداول بالعلامات المسمارية لشرح أصواتها ومعانيها، أي بعبارة أخرى ظهور فن المعاجم.

دور جمدة نصر:

دور «جمدة نصر» هو الطور الثاني من أطوار العصر الشبيه بالكتابي، فقد قلنا إنه يلي دور الوركاء، أما تسميته فهي مأخوذة من اسم «جمدة نصر» (تل نصر)، وهو موضع أثري صغير على بعد نحو 15 ميلاً شمال شرقي كيش، وقد حفرت فيه البعثة الأثرية التي كانت تنقب في كيش في عام 1925، فاكتشف المنقب «لنگدون» (Langdon)[1] أواني الفخار والمواد الأثرية الأخرى الخاصة بهذا الدور، ثم عثر عليها في مواضع أخرى كثيرة في العراق وأنحاء الشرق الأدنى.

ففي الوركاء، وهو أحسن موضع سجلت فيه الطبقات الأثرية الممثلة لدور «جمدة نصر» في منطقة معبد «أي ـ أنا»، وجدت آثار هذا الدور في الطبقة الثالثة التي قسمت إلى ثلاثة أطوار (أ، ب، جـ) (UṚUK III, a, b, c). وتعود إليه الطبقات (14ـ12) في نفر في معبد «أنانا» وفي منطقة ديالى الأدوار المعمارية الخمسة لمعبد الإله «سين» في خفاجى (المعبد الأول إلى المعبد الخامس)، وعثر في موقع العقير على (معبد صغير) يرجع إلى هذا الدور، وفي «تبه كورا» تبدأ آثار دور جمدة نصر من أواخر الطبقة العاشرة وتستمر إلى الطبقة الثامنة، كما يرجع إليه ما سمي (بمعبد العين) في تل براك على الخابور (Eye temple).

---

(1) يرجح أن يكون اسم تل «جمدة نصر» القديم «كدنن» (Kidnun) عن التحريات في هذا الموضع انظر:

E. Mackay, *Report on The Excavations of Jemdet Nasr* (1931).

H. Field and Martin, «Painted Pottery from Jemdet Nasr» in *American Journal of Archaeology* (1935), 310ff.

Ann Perkins, *The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia* (1947).

واستمر في دور جمدة نصر تطور المقومات والعناصر الحضارية من الأطوار السابقة بالإضافة إلى تفرده بميزات خاصة به. ففي حقل الكتابة حصل ما أشرنا إليه من اختزال في عدد العلامات المسمارية وظهور بداية التطور الصوتي أي استخدام الكلمات المرسومة بالعلامات على هيئة أصوات مقطعية لكتابة الكلمات المختلفة، كما اتضح أن اللغة السومرية كانت أقدم لغة دوّنت بهذه الكتابة.

وعلى قدر معرفتنا الراهنة ظهر في هذا الدور فن النحت المجسم والبارز لأول مرة في حضارة وادي الرافدين. فقد وجدت في مدينة الوركاء في الطبقات الأثرية التي ترجع إلى هذا الدور قطع فنية نفيسة من النحت بكلا نوعيه البارز والمجسم، منها الإناء النذري الشهير الذي وجد في منطقة المعابد (أي ـ أنا) (عام 1933ـ1934) من الطبقة العائدة لدور جمدة نصر، بيد أن بعض الباحثين ارتأى إرجاع زمن نحته إلى دور الوركاء السابق، بناء على اعتبارات فنية وفي مقدمتها مضاهاة أسلوب نحته لأطرزة الأختام الإسطوانية من الطبقة الرابعة في الوركاء. وقد نحت هذا الإناء الجميل من حجر الرخام الجيد وعلوه (3) أقدام، وتتألف منحوتاته البارزة من ثلاثة أنطقة (Register) من المواضيع الغنية. فالنطاق الأعلى يحتوي على مشهد كاهن (لعله الكاهن الأعلى En) وهو يقدم سلة من الفاكهة إلى إلهة هي بلا شك الإلهة السومرية «أنانا» (عشتار البابلية)، وتقف هذه الإلهة أمام عمودين أو حزمتين من القصب ينتهيان بحزمتين معقوفتين هما شعار تلك الإلهة أو رمزها وأصل العلامة المسمارية التي يكتب بها اسمها. ويقف خلف الكاهن أشخاص آخرون من الكهنة أيضاً، كما يشاهد خلف الإلهة طائفة من القرابين والنذور من بينها وعاءآن يشبهان الوعاء النذري الأصلي، ويشاهد في النطاق الثاني أسفل النطاق الأول موكب من كهنة عراة يحملون سلالاً من الفاكهة وجراراً وصحوناً. ونحتت في النطاق الثالث صفوف من الكباش والغنم مع أشجار نخيل وسنابل. والمرجح أن هذا الإناء قدم إلى الإلهة «أنانا» بصفتها إلهة الخصب. وتشير التصليحات الموجودة في الإناء مما تم [illegible] في الأزمان

القديمة إلى أهمية هذا الإناء وإلى تقدم في فن التعدين حيث ربطت الأجزاء المكسورة بأسلاك من النحاس.

ونذكر كذلك رأس الامرأة المنحوت من المرمر الفاخر نحتاً مجسماً. وقد وجد في الوركاء (1939) في طبقة تعود إلى جمدة نصر. وتبلغ هذه القطعة الفنية من الروعة درجة تؤهلها أن تعد من القطع الفنية الفريدة (Objet d'art) في تأريخ الفن العالمي. ومن الآثار الفنية الأخرى التي تستحق الذكر ووجدت في الوركاء أيضاً مسلة صغيرة من حجر «البازلت» نحتت بمشهد صيد الأسود، حيث صور بالنحت البارز رجلان ملتحيان يصطادان الأسود بالسهام والرماح، وهذا أقدم مشهد من نوعه من مشاهد الصيد التي شاعت في فن النحت الآشوري[1].

وبرع فنانو حضارة وادي الرافدين في دور جمدة نصر بتزيين أواني الحجر الجميلة بترصيعها أو تطعيمها بفصوص من الأحجار الجميلة على أطرزة وأشكال بديعة، وقد وجدت نماذج كثيرة منها في الوركاء وفي المواضع الأثرية في منطقة ديالى. ويمكن تمييز الأختام الإسطوانية من هذا العهد من نقوشها الخاصة المؤلفة في الغالب من صفوف (الحيوانات كالأسماك والطيور)، وقد نقشت بطريقة خطية مختصرة، وهي بوجه عام دون مستوى أختام عصر الوركاء السابق في البراعة ودقة التعبير.

وبالإضافة إلى مثل هذه الآثار الخاصة بدور جمدة نصر يستعين الباحثون في تمييز هذا الدور بالأواني الفخارية الخاصة من ناحية أشكالها وزخارفها وألوانها، فكان الفخار من هذا الدور بوجه عام من النوع المتعدد الألوان (Polychrome)، وتغلب على أشكال الأواني الجرار الكبيرة المزينة بزخارف

---

(1) توجد هذه المنحوتات الفنية الثلاث في المتحف العراقي. انظر عنها الدراسات الآتية:

H. Heinrich in UVB, V, (1934), H. Lenzen, *IBID*, XI, (1941).

H. Lenzen in *ZA*, XI, (1939), 85ff.

هندسية أو زخارف طبيعية بلون أسود أو أحمر أو بكلا اللونين على سطح الإناء ذي اللون الأصفر الفاتح (Buff).

ويرجع إلى دور «جمدة نصر» عدد من المعابد والأبنية العامة المهمة كشف عنها في الوركاء وغيرها من المواضع الأثرية مما أشرنا إلى بعضها في أول كلامنا على هذا الدور. وعم في مثل هذه الأبنية استعمال اللبن المستطيل ذي المقطع المربع، وهو نوع اللبن الخاص الذي ذكرناه بالتسمية الألمانية «ريمشن» (Riemchen) والذي كان أول ظهور له في دور الوركاء السابق. فمن هذه المعابد التي سبق أن أشرنا إليها معبد الإله «سين» في خفاجى (منطقة ديالى) وقد سجلت له في هذا الدور خمسة أطوار بنائية سميت بالمعبد الأول والثاني والثالث والرابع والخامس[1].

وعلى زقورة الإله «آنو» في الوركاء (وهي مرتفع اصطناعي ارتفاعه زهاء 40 قدماً ويرقى إليها بثلاثة منحدرات) شيد معبدان أطلق عليهما معبد (D) ومعبد (E)؛ ويرجع إلى هذا الدور أيضاً المعبد الذي أطلق عليه اسم «المعبد الأبيض». واستمر استعمال الزخارف الجدارية المؤلفة عن المسامير الطينية الملونة الرؤوس مما لاحظناه في دور الوركاء السابق، وأضيفت إليها في دور جمدة نصر أشكال حيوانية ورموز الإلهة «أنانا»، واستمرت الأبنية الدينية المهمة في منطقة «أي ـ أنا» في الوركاء، وقد وجد فيها مجموعات مهمة من التعاويذ المصنوعة على هيئة الحيوانات. ومن الأبنية التي سبق أن نوَّهنا بها التي ترجع إلى دور جمدة نصر المعبد الذي عثر عليه في تل «براك» في منطقة الخابور وسمي معبد «العين»[2] (Eye temple) لما وجد فيه من أشكال أو صور حجرية كثيرة نحتت فيها العيون بلا رؤوس.

---

(1) عن معبد الإله «سين» انظر:

Delougaz and S. Lloyd, *Pre-Sargonic Temples in the Diyala Region.*

(2) يقع تل «براك» على بعد نحو 2/1 1 ميل من الضفة الغربية لنهر «الجغجغ» (الهرماس القديم). حول نتائج التنقيبات فيه انظر:

Mallowan in *IRAQ*, IX, (1947).

وكشف في الوركاء عن بناء غريب يرجع إلى دور جمدة نصر أيضاً أطلق عليه المنقبون الألمان اسم «بناء الريمشين» (Riemchen Gebaude) وسمي كذلك لأنه مشيد بنوع اللبن المسمى «ريمشن»، وهو بناء مستطيل (20×18م) ينسبه المنقبون إلى دور الوركاء (الطبقة الرابعة)، ولكن دلالة الفخار والآثار الأخرى التي وجدت فيه تشير إلى أرجحية كونه من دور جمدة نصر. ويتألف هذا البناء الغريب في تخطيطه من (عدة حجرات وممرات)، ولا مدخل له من الخارج. وأغرب ما فيه الحجرة الوسطى (6,50×4م) التي يحيط بها ممر أو ممشى، ووجدت فيها آثار حريق شديد، كما وجدت فيها مجموعات مهمة من الأوعية الحجرية والفخارية والنحاسية ومخاريط الطين وأوراق ذهبية ومسامير مموهة بالذهب. وقد فسّر المنقبون هذا البناء بأنه خصص لحرق الأشياء المقدسة العائدة إلى المعابد القديمة التي تهجر وينقطع استعمالها ويشيد فوق أنقاضها معابد جديدة، وقد أطلقوا عليها التسمية الألمانية (Opferstatte)، أي من نوع مواضع القرابين. والمحتمل أن أبنية مضاهية لهذا البناء قد أقيمت في مواضع أثرية أخرى ولكن المنقبين فيها لم يفطنوا إلى حقيقتها وماهيتها فوصف البعض منها على أنها بقايا أفران مثل الموضع الذي وجد في إحدى الساحات العائدة إلى معبد الإله «سين» (المعبد الرابع) في خفاجي (منطقة ديالى).

وفي موضع «جمدة نصر» الذي سمي باسمه هذا الدور الثاني من العصر الشبيه بالكتابي عثر على بناية كبيرة فسرها المنقبون على أنه قصر[1]، وإذا صح هذا التفسير، فيكون لظهور القصر في دور جمدة نصر دلالته على نشوء الطبقات الاجتماعية المتميزة بالثروة والسلطة، أي الطبقة الحاكمة.

ونختتم هذه الملاحظات عن دور جمدة نصر بالتنويه بانتشار التأثيرات الحضارية خارج مركز حضارة وادي الرافدين إلى عدة أرجاء من الشرق

---

(1) راجع:

Langdon in *Alte Orient*, XXVI (1927).

Moorey in *IRAQ*, 26, (1964), 93ff.

الأدنى، مثل عيلام، كما تدل على ذلك الأختام الإسطوانية والكتابة الشبيهة بكتابة حضارة وادي الرافدين وأختامها الإسطوانية. ووجدت مثل هذه الكتابة في الموضع المسمى «تبه سيالك» (في منطقة قاشان شمال غربي إيران). كما يرجح تفسير أنواع الكتابات الصورية التي وجدت حديثاً في بعض أجزاء أوروبا الوسطى مثل رومانية إلى تلك التأثيرات الحضارية. وانتشرت عناصر حضارية مهمة إلى جهات الفرات الأعلى والخابور كما تدل على ذلك المعابد التي وجدت في تل «براك» و«جغار بازار»، ووجدت آثار دور جمدة نصر أيضاً في الجديدة في سهل إنطاكية. وفي وادي النيل وجدت أختام إسطوانية من النوع الخاص بحضارة وادي الرافدين، من العصر المسمى في تأريخ حضارة وادي النيل بدور «نقاده» الثاني، ونذكر كذلك القبور المشيدة على هيئة مصاطب ذات «الطلعات» و«الدخلات» في جدرانها، وهي الزخارف المعمارية المميزة لعمارة المعابد في حضارة وادي الرافدين، إلى غير ذلك من الآثار والأطرزة الفنية[1].

أما الطور الأول من عصر فجر السلالات الذي جعلناه الطور الأخير من العصر الشبيه بالكتابي فيمكن عده بمثابة مرحلة انتقال إلى عصر فجر السلالات الثاني الذي تلاه. ويمتاز بأطرزة أختامه الإسطوانية التي تشبه زخارفها النسيج (Brocade style)، وبنوع الفخار المسمى «الفخار القرمزي» (Scarlet ware) الذي وجد أول مرة في مواضع منطقة ديالى، وسنذكر أشياء أخرى عنه في الفصل الآتي.

---

(1) حول التأثيرات الحضارية التي انتقلت من حضارة وادي الرافدين إلى حضارة وادي النيل في العصر الشبيه بالكتابي. راجع البحوث الآتية:

CAH, I, (1971), chap. IX. Frankfort in *AJSL*, (1941), 354ff.; Kantor in *JNES*, XI, (1952), 239ff.

Frankfort, *The Birth of Cicilization in the Ancient Near East* (1951).

الفصل الخامس

دول المدن السومرية

أو

عصر السلالات

تعريف العصر:

كنا قد تتبعنا في الفصلين السابقين نشوء حضارة وادي الرافدين ومراحل تطورها منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى مطلع الألف الثالث ق.م، حيث ظهرت المعالم والملامح الأولى لهذه الحضارة في العصر الذي سميناه العصر «الشبيه بالكتابي» أو «الشبيه بالتأريخي» (3500 ـ 2800ق.م) المتضمن الطور الأخير من عصر الوركاء ودور «جمدة نصر» والطور الأول من عصر فجر السلالات، موضوع هذا الفصل. وإذا ألحقنا بعصر فجر السلالات ذلك الطور الأول منه فيكون تحديده الزمني في الفترة الواقعة ما بين نهاية دور «جمدة نصر» وبين بداية حكم سرجون وتأسيسه السلالة الآكدية في حدود 2370 أو 2334ق.م، أي إنه دام ما بين خمسة أو أربعة قرون، من 2900 إلى 2370 أو من 2800 إلى 2370. ويتميّز هذا العهد كما سيتضح مما سنذكره عنه بأنه عصر ازدهار حضارة وادي الرافدين ونضجها، وظهور أبرز أوجهها ومقوماتها التي استمرت بشيء من التطور والتغيير والتحوير إلى العصور التأريخية التالية، وإلى ذلك تفرد هذا العصر بأنه العصر الذي سادت فيه اللغة السومرية والثقافة السومرية، كما أن السلالات التي حكمت فيه كان الغالب عليها أنها سلالات سومرية.

وقبل أن يشيع استعمال مصطلح عصر السلالات أو فجر السلالات (Early dynastic period) الذي وضعه الأستاذ «فرنكفورت» (H.Frankfort)

بالاستناد إلى نتائج التنقيبات في مواقع منطقة ديالى الأثرية[1]، كان يطلق على هذا العصر جملة تسميات أخرى منها التسمية «عصر ما قبل سرجون» (Pre-Sargonic period) التي أطلقها عليه الباحثون القدماء، لأن هذا العصر يسبق زمن الملك الآكدي «سرجون» السالف الذكر، كما كان يسمى عصر اللبن «المستوي ـ المحدب» (Plano-convex bricks) لشيوع استعمال هذا النوع من اللبن في أبنية هذا العصر، وإلى ذلك اعتاد بعض الباحثين الألمان أن يطلقوا عليه اسم عصر «لجش»، نسبة إلى مدينة لجش السومرية الشهيرة التي سيأتي الكلام عليها.

على أن الواقع من الأمر أن هذه التسميات التي أوردناها ليست موفقة كل التوفيق في التعبير عن هذا العصر الحضاري الجديد لأن كلاً منها لا يمثل إلا بعض الجوانب والأوجه الحضارية المميزة له. فتسمية عصر السلالات مثلاً لا تعبّر إلا عن الجانب السياسي لهذا العصر، من قيام دول مدن أو سلالات حاكمة، كانت في أغلب الأحايين متعاصرة في أزمانها، وسيأتي الكلام عنها. ولذلك فيصح تسميته من هذه الناحية «عصر دول المدن» (City states) كما يمكن تسميته بعصر الحضارة السومرية على الرغم من أن ما نسميه بالحضارة السومرية قد أسهم في تكوينها وبنائها أقوام أخرى من غير السومريين وفي مقدمتهم الساميون الذين عايشوا السومريين في استيطان السهل الرسوبي منذ أقدم العصور.

وبالنظر إلى أهمية هذه الحقبة في حضارة وادي الرافدين وطول زمنها وكونها عهد الحضارة الناضجة الذي وضعت فيه أسس تلك الحضارة ومقوماتها فيكون من المفيد لو قسمنا كلامنا عنها إلى بحثين، يتناول القسم

---

(1) نشير إلى التنقيبات الواسعة التي اضطلع بها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في منطقة ديالى (1930ـ1937)، مما مرّ بنا في تأريخ التنقيبات؛ وقد أوجزنا في هذا الفصل جانباً مهماً من نتائج تلك التنقيبات حول تسمية «عصر فجر السلالات» التي اقترحها رئيس تلك البعثات الأثرية، الأستاذ «فرنكفورت» انظر:

H. Frankfort, *Sculptures from the Diyala Region.*

الأول منهما النواحي الأثرية والحضارية، والقسم الثاني الجوانب السياسية من هذا العصر.

أولاً: عصر السلالات من الناحية الآثارية والحضارية:

مع أن المتعارف عليه في وصف عصر تأريخي أن يمهد للجانب الحضاري منه بمقدمة تتناول أحواله السياسية، بيد أن الباحث في عصر فجر السلالات الذي نتكلم عنه، يجد نفسه مضطراً إلى اتباع عكس هذا المنهج المألوف فيبدأ بالقسم الحضاري منه، ذلك لأن مصادرنا الكتابية، أي النصوص المدونة، عن أحوال هذا العصر السياسية من القلة بحيث إنها لا تمكن الباحث من أن يستخلص منها صورة كاملة عن السلالات الحاكمة باستثناء بعض الفترات منه، ولذلك فيستعين الباحث لإكمال هذه الصورة بالاستنتاج من الآثار الفنية والمخلفات المادية الأخرى مما كشفت عنه التنقيبات في المواضع الأثرية المختلفة.

وأول ما نذكر من هذه الاستنتاجات أن الباحثين استطاعوا، بالاستناد إلى دراسة آثار هذا العصر[1]، أن يقسموه إلى ثلاثة أطوار أو أدوار رئيسية، أطلق عليها اسم عصر فجر السلالات الأول والثاني والثالث. وهي أطوار حضارية يتميز كل منها بطائفة من العناصر الحضارية كالأختام الإسطوانية والأواني الفخارية والبقايا المعمارية البنائية وفن النحت مما سنوجز الكلام عليه في المواقع الأثرية المشهورة التي كشف فيها عن الآثار الممثلة لأطوار هذا العصر مثل المواضع الأثرية في منطقة ديالى ومنطقة لجش والوركاء وكيش ونفر وماري (تل الحريري) وآشور ونينوى وتبه گورا وغيرها. ونبدأ أولاً في تلخيص خصائص كل طور من هذه الأطوار الثلاثة:

1 ـ عصر فجر السلالات الأول:

أما الطور الأول من عصر فجر السلالات، الذي سبق أن قلنا إن بعض

---

(1) نخص بالذكر منها الدراسات التي تمت على آثار المواقع الشهيرة في منطقة ديالى من تنقيبات المعهد الشرقي الأمريكي (جامعة شيكاغو) (1930ـ1937) وسيمر بنا تفصيل الكلام عنها.

الباحثين المحدثين يلحقونه بالعصر الشبيه بالكتابي، فليس واضح المعالم ومعرفتنا به مقتصرة على نتائج التنقيبات في منطقة ديالى، وجل ما يُقال عنه إنه كان مرحلة انتقالية من دور «جمدة نصر» السابق له، ويمتاز من الناحية الأثرية بالطرز الخاصة بأختامه الإسطوانية التي تشبه نقوشها ما يسمى بزخرفة النسيج (Brocade style)، وإنها متطورة تقريباً من أطرزة أختام الدور السابق، كما ينسب إلى هذا الطور نوع من الفخار الذي وجد بالدرجة الأولى في منطقة ديالى، ويعرف لدى الباحثين باسم الفخار القرمزي (Scarlet ware) ويحتمل أنه يعاصر الفخار المكتشف في نينوى (الطبقة الخامسة). وبالنسبة إلى بقايا الأبنية العامة التي تنسب إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات فقد خصص إليه المعبدان السادس والسابع من الأدوار المعمارية التي مرت على معبد الإله «سين» في خفاجي (منطقة ديالى)، كما سيأتي شرح ذلك في موضع آخر. ويكفي أن نذكر هنا أن تحديد زمن هذا المعبد في حدود 3000ق.م قد خصص لبداية هذا الطور من عصر فجر السلالات، ولكن الباحثين المحدثين يميلون إلى تخفيض بداية هذا الطور إلى 2900 أو 2800ق.م[1]. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن هذا التقدير المستند إلى الدراسات الأثرية لا يتفق والنتائج المستخلصة من فحص «الكاربون ـ 14»، ولا سيما الفحوص التي أجريت على المواد الأثرية من «نفر»، إذ ظهرت نتائج جد منخفضة عن التقديرات الأثرية بعدة قرون، وظهر مثل هذه التقديرات الواطئة بالنسبة إلى الأدوار الحضارية في وادي النيل التي تعاصر ما يضاهيها في حضارة وادي الرافدين، ولذلك فلا يعول الباحثون عليها[2].

---

(1) انظر خلاصة ذلك في البحوث المنشورة في:

R. W. Ehrich, *Chronologies in Old World Archaeology* (1965).

(2) نورد للمقارنة أحدث النتائج المستخلصة من تطبيق فحص «الكاربون ـ 14» ولا سيما على مواد أثرية من معبد الإلهة «أنانا» في نفر:

2253+ أو -23 لعصر فجر السلالات الأول و2184+ أو -41 لعصر فجر السلالات الثاني و2124+ أو -64 لعصر فجر السلالات الثالث أو لفترة الانتقال من الطور الثاني إلى الطور=

وتمتاز الأطوار الأولى من عصر فجر السلالات من الناحية المعمارية باستعمال نوع من اللبن أطلق عليه اسم اللبن «المستوي ـ المحدب» (Plano-convex) الذي أشرنا إليه سابقاً، ولكن نوع اللبن المسمى «ريمشن» (Riemchen) الذي ظهر استعماله في العصر الشبيه بالكتابي ظل في الاستعمال في بداية الطور الأول من عصر فجر السلالات ولا سيما في منطقة «ديالى» وفي «نفر». وبالإضافة إلى المعبدين السادس والسابع العائدين للإله «سين» في خفاجى اللذين ذكرناهما سابقاً يرجع إلى الطور الأول من عصر فجر السلالات المعبد الرابع من أدوار معبد الإله «آبو» في تل أسمر (منطقة ديالى). وتمثل هذا الطور في نفر في منطقة معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) الطبقات الأثرية التاسعة والعاشرة والحادية عشرة. وفي تل «تبه گورا» الطبقة الثامنة. وبدأ في هذا الطور أيضاً نحت الأواني الحجرية، حيث وجدت نماذج منها من الحجر الأخضر «ستيتايت» من خفاجى وتل أجرب (منطقة ديالى)[1].

ومع أننا سنتناول الجوانب السياسية لعصر فجر السلالات في القسم الثاني من الموضوع، إلا أنه يجدر أن ننهي هذه الملاحظات الموجزة عن الطور الأول من هذا العصر بالتنويه باحتمال أن سلالات «ما قبل الطوفان»، بحسب التعبير الوارد في أثبات الملوك السومرية، يرجع البعض منها إلى هذا الطور وإلى العصر الشبيه بالكتابي، واحتمال أن نوح الطوفان البابلي الوارد في قصص الطوفان السومرية والبابلية بهيئة «زيوسُدرا» (Ziusudra) أو «أتو ـ نبشتم»، كان يعيش في هذا العصر، وأن سلالة كِيش الأولى، وهي أول سلالة حكمت من بعد الطوفان، يرجع عهدها إلى طور عصر فجر السلالات الثاني.

= الثالث منه (انظر المرجع المرموز له بـ *CAH*, I, part 2, (1971), 242).

وهذه تقديرات غير معقولة لأنها تستوجب تخفيضاً أساسياً في جميع الأدوار التأريخية التالية، ولذلك فسرت بأنها ناتجة من انحراف أو تغيير في مجال الشمس المغناطيسي حدث في حدود الألف الثالث ق.م، مما أثر في مصدر «الكاربون ـ 14» فينبغي عدم الاعتماد على هذه الطريقة في تقدير أزمان الأدوار التأريخية في العراق وغير العراق من فترة الألف الثالث ق.م، لأنها، كما ذكرنا، تعطينا زهاء خمسة قرون أقل من التقديرات الأثرية المعتمدة.

(1) ذات المصدر ص 159 فما بعد.

2 ـ عصر فجر السلالات الثاني:

في طور عصر فجر السلالات الثاني يبدأ العهد التأريخي الصحيح، حيث بدأ سكان وادي الرافدين يدونون بالكتابة المسمارية المتطورة شؤون حياتهم، كما بدأت المدونات التأريخية الرسمية بالظهور إلى أن تكاثرت في الطور الثالث من هذا العصر، وسنرى مما سنذكره على الأوجه الحضارية الخاصة بهذا العصر ازدياداً محسوساً في التطور العمراني والمدني (Urbanization) وظهور الحياة السياسية على هيئة دول مدن. ويمكن تخصيص بعض السلالات الحاكمة الواردة في أثبات الملوك السومرية إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات ولا سيما سلالة كيش الأولى والوركاء الأولى ، كما سنفصل ذلك في كلامنا على الأحوال السياسية في هذا العصر بوجه عام. ويمكن تحديد زمن الطور الثاني بالسنين بوجه تقريبي من حدود 2700 إلى 2550ق.م.

ويتميز هذا الطور من الناحية الأثرية والحضارية بطائفة من الآثار المادية والأبنية العامة كالمعابد والقصور مما كشفت عنه التنقيبات الحديثة في مواقع منطقة ديالى وعدة مواقع أثرية سنشير إليها.

وأول ما نذكر من هذه الآثار المادية المميزة الأختام الإسطوانية التي يعتمدها الآثاريون في تحديد تأريخ الطبقات الأثرية العائدة إلى هذا الطور، فهي تتميز بنقوشها التي تعم فيها مشاهد المصارعة بين البشر وبين الحيوانات، ويرجح أنها تصور مواضيع أسطورية (ميثولوجية) كانت متداولة في هذا العصر. ومن المواضيع الشائعة أيضاً مشاهد الاحتفالات والولائم (Banqet scenes) وتجذيف القوارب، وصور فسرت على أنها تمثل ما اصطلح عليه «الزواج المقدس» أو «الزواج الإلهي» (Hieros gamos) أو (Sacred marriage)، أي الزواج بين إله وإلهة من آلهة الخصب. ومما تجدر ملاحظته عن طرز الأختام الإسطوانية هذه أنه مع استمرار بعض موضوعاتها إلى عصر فجر السلالات الثالث التالي، إلا أنه يوجد اختلاف واضح في أسلوب النقش

المتبع في أختام كل من هذين الطورين. ففي حين أن الأسلوب الشائع في الطور الثاني الذي نتكلم عنه كان أسلوباً خطياً (Linear) غدت النقوش في الطور الثالث أقرب ما تكون إلى الزخرفة من النقش البارز (Decorative relief) وأصبحت الأشكال محتشدة وذات حجوم أكبر.

ومن الآثار الخاصة بعصر فجر السلالات الثاني جملة أنواع من الأواني الفخارية نذكر منها قواعد الأواني الفخارية أو حاملات الأواني (Pot stand) والكؤوس والأقداح الكبيرة (Beaker. Goblet) والإناء المعروف بالزمزمية (Piligrim flask)، والجرار الكبيرة ذات الأكتاف المحززة، والأواني ذوات القواعد المستطيلة المسماة حاملة الفاكهة (Fruit stand). وأن فخار هذا الطور والأطوار الأخرى من عصر فجر السلالات بوجه عام غفل من الزخارف والألوان، باستثناء الفخار القرمزي من الطور الأول، مما سبق ذكره. ويشبه فخار عصر فجر السلالات الثالث بوجه عام فخار الطور الثاني، ولم تنشأ فيه أنواع جديدة إلا في النادر، مثل الجرار ذات العرى القائمة (Upright handles)، وهي مزينة بالحزوز وبنوع من الزخرفة تشبه فخار «الباربوتين»، وتمثل هذه في الغالب صورة إلهة، مما وجد في منطقة ديالى وكيش، كما ظهرت أنواع من الجرار والأواني المزينة بما يشبه الأزرار (Studs).

ويقابل هذا التدهور في فن زخرفة الأواني الفخارية بالمقارنة مع أنواع الفخار الجميلة من عصور ما قبل التأريخ تطور كبير في فن التعدين الذي تجلى في صنع أنواع كثيرة من الأدوات والآلات المنزلية. أما المعدن الشائع فكان البرونز والفضة والذهب والاكتروم الذي قلنا إنه كان مزيجاً من الذهب والفضة، وقد سبق أن ذكرنا أن معدن الحديد لم يظهر استعماله في هذا العصر. ويبدو أن طريقة القالب الشمعي (Lost wax process) قد شاعت منذ عصر فجر السلالات الثاني لصنع الأشكال الآدمية والحيوانية وقوائم الأواني أو حاملات الأواني. واستمر فن التعدين في التطور والتحسن حتى بلغ الذروة في عصر فجر السلالات الثالث، إذ استطاع صانعو الأسلحة والمعدنون الآخرون في هذا الطور أن يصنعوا الأنواع العديدة من الأسلحة القوية والكبيرة

نذكر منها الفؤوس والرماح و«البلطات» (Adze) والقدور الكبيرة والمرايا وأدوات الزينة كالدبابيس والمشابك وغير ذلك من الأدوات البيتية والشخصية. وليس أدل على نضج فن التعدين وتقدمه من تلك البراعة المدهشة التي بلغها الصاغة والجوهريون في صنعهم أنواع الحلي الفاخرة والأسلحة الذهبية والفضية وأدوات الزينة المتنوعة مما وجد في المقابر الملكية الشهيرة في «أور» التي ستكرر الإشارة إليها في مواضع أخرى من هذا الفصل. وشاع مع استعمال المعادن، ولا سيما الفضة والذهب، استعمال الجواهر والأحجار الكريمة وشبه الكريمة مما وجد في تل المقابر وغيرها من المواقع الأثرية مثل العقيق بأنواعه المختلفة وحجر اللازورد والأصداف الجميلة (Mother-of-pearls) مما سبق أن نوَّهنا به؛ وقد تفنن الصاغة والجوهريون في استعمال هذه الأحجار مثل تطعيمها أو تكفيتها (Inlay) في الأواني الحجرية أو الألواح الحجرية وفي الخشب والمعادن الأخرى. وقد سبق أن تطرقنا إلى الاتصالات التجارية لجلب مثل هذه الأحجار منذ عصور ما قبل التأريخ من أقطار بعيدة مثل وادي نهر السند وأفغانستان والأجزاء المختلفة الساحلية من الجزيرة العربية. ويبدو أن بلاد بابل احتكرت تجارة هذه الأحجار في عصر فجر السلالات كما تشير إلى ذلك القصص والأساطير السومرية مثل قصة النزاع بين حاكم الوركاء المسمى «أينمر كار» وبين حاكم إقليم «أرانا» (من الأقاليم الجنوبية في إيران وكان على طريق القوافل إلى مصادر الأحجار ولا سيما حجر اللازورد).

فن النحت:

من الخصائص البارزة التي ظهرت في عصر فجر السلالات الثاني ازدهار فن النحت بكلا نوعيه البارز (Relief) والنحت المجسم (In the round) واستمر هذا التقدم إلى الطور الثالث من هذا العصر، ويلحق بهذا الفن نحت دمى الحجر الصغيرة الجميلة التي كانت تستعمل على هيئة تعاويذ أو قلائد (دلايات) (Pendant).

والمرجح أن قطع الحجر المنحوتة بالنحت البارز مما كان يثبت في جدران المعابد كانت أول ما ظهر من المنحوتات في عصر فجر السلالات الثاني، فقد وجدت منها نماذج كثيرة وجميلة في المعابد المكتشفة في مواقع منطقة ديالى وفي معبد الإلهة «أنانا» في نفر. وقد نحتت هذه القطع بمشاهد متنوعة تمثل جوانب من الحياة اليومية والمواضيع الدينية والأسطورية، وجاء في بعضها مشاهد من المصارعة والملاكمة، مما يمكن مشاهدته الآن في المتحف العراقي وفي المتاحف العالمية الأخرى[1].

ويميل بعض الباحثين إلى تقسيم النحت من عصر فجر السلالات الثاني إلى طورين متميزين من ناحية أسلوب النحت الشائع في كل منها. فيتميز أسلوب الطور الأول بأنه أقرب إلى الأسلوب التجريدي (Abstract)، ومنحوتاته البارزة بسيطة غير نافرة البروز، وقد أطلق الباحث الألماني «مورت گات» على هذا الطور اسم عصر «ميسلم»، أحد ملوك عصر فجر السلالات القدامى الذي سنتكلم عنه في القسم الثاني من هذا الفصل. وينسب إلى هذا الطور أيضاً طبعات الأختام الإسطوانية التي وجدت في تل «فاره» (مدينة شروباك القديمة). أما الطور الثاني من أسلوب فن النحت في عصر فجر السلالات الثاني فيمتاز بتنوع الموضوعات، وازدياد الأشكال المنحوتة بأسلوب التمثيل الواقعي أو الطبيعي. وقد استمر هذا الأسلوب إلى عصر فجر السلالات الثالث. ومما يُقال بوجه عام عن المنحوتات المجسمة من عصر فجر السلالات الثاني ازدياد عدد الأشكال المنحوتة التي تمثل آلهة وأشخاصاً مما وجد في معابد منطقة ديالى وغيرها من المواقع الأثرية. ويغلب عليها الأسلوب الذي يسمى الأسلوب الهندسي (Geometric) وقد يطلق عليه الأسلوب التكعيبي (Cubism) وعدم الالتزام بالتمثيل الواقعي الطبيعي. بيد أن فناني ذلك العصر أظهروا براعة مدهشة في التمثيل الطبيعي بالنسبة إلى أشكال الحيوانات التي جاءت

---

(1) انظر:

H. Frankfort, *Sculptures of the third Millennium from Tell Asmar and Khafaje.*

إلينا منها نماذج جميلة تعد من بين القطع الفنية العالمية، وازداد الاتجاه إلى التمثيل الواقعي حتى في نحت الأشكال الآدمية في عصر فجر السلالات الثالث[1].

فن العمارة:

ومن العناصر الفنية التي أحرزت تقدماً بارزاً في عصر فجر السلالات الثاني بوجه خاص فن العمارة في أبنية المعابد والقصور التي وجدت منها نماذج لا بأس بها من التنقيبات التي أجريت في عدة أماكن أثرية، نذكر منها القصرين المكتشف أحدهما في كيش والثاني في «أريدو»، اللذين يرجح أنهما شيدا في الطور الثاني من عصر فجر السلالات واستمر استعمالهما في الطور الثالث منه. ومما لا شك فيه أن لظهور القصور الفخمة في هذا العصر دلالته التأريخية على ظهور السلالات الحاكمة، مما سنتطرق إليه في القسم الثاني من هذا الفصل. أما المعابد فإنها حافظت على أشكالها الأساسية بوجه عام، تلك الأشكال التي ظهرت فيها في الأدوار الحضارية السابقة لعصر فجر السلالات، ولكنها اتسعت في مخططاتها وأحجامها، كما اتضحت أسماء بعض الآلهة التي خصصت لعبادتها، مع ما استتبع ذلك من تبلور الشعائر والطقوس الدينية الخاصة بها، وظهور طبقات الكهنة، والفصل ما بين وظيفة الكهانة وبين وظيفة الحاكم، وهما الوظيفتان اللتان يرجح أنهما كانتا مجتمعتين في شخص واحد هو الكاهن الأعلى والحاكم في الوقت نفسه مما كان يدعى بالسومرية «اين» (En) وسنذكر أسماء بعض المعابد الشهيرة العائدة إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات مثل معبد الإله «سين» في خفاجى (من الدور السادس إلى الدور العاشر من أدوار هذا المعبد البنائية)، ومثل معبد الإلهة

---

(1) حول خصائص فن النحت في عصر فجر السلالات انظر:

R. W. Ehrich, *OP. CIT.*, 159ff.

وعن المنحوتات المكتشفة في معبد الإلهة «أنانا» في «نفر» انظر:

Hansen in *JNES*, XXII, (1963), 145ff.

«أنانا» (عشتار)[1] والمعبد البيضوي في تل العبيد[2]، والمعبد البيضوي أيضاً في خفاجى[3]، ومعبد الإله «آبو» في تل أسمر ومعبد الإلهة عشتار في مدينة ماري (تل الحريري).

ويمكن معرفة أبنية هذا الطور من استعمال اللبن الذي سميناه باللبن «المستوي ـ المحدب» في بنائها، وهو نوع خاص من اللبن اقتصر استعماله على بلاد بابل ويضمن ذلك منطقة ديالى ولم يشع استعماله في بلاد آشور (القسم الشمالي من العراق) ولا في بلاد الشام باستثناء الموضع المسمى «تل براك» (في أعالي الخابور) الذي كان ذا صلة حضارية وثيقة بالقسم الجنوبي من العراق.

عصر فجر السلالات الثالث:

يمكن القول إن حضارة وادي الرافدين بلغت في الطور الثالث من عصر فجر السلالات أوج الازدهار والنضج في مقوماتها الأساسية، كما تدل على ذلك البقايا الأثرية المتنوعة الكثيرة، حيث يفوق هذا الطور الطورين اللذين سبقاه بكثرة ما وصل إلينا من آثار متنوعة، وفي مقدمة ذلك وفرة النصوص الكتابية من حكام السلالات الحاكمة وملوكها بالمقارنة مع قلتها في العصرين السابقين، مما سنفصل القول فيه، واستمر فن النحت في تطوره وتقدمه وكثرت المنحوتات التي تمثل الأشخاص من المناطق المختلفة، ومن بينها المجاميع النفيسة التي وجدت في مواضع منطقة ديالى. كما استمر استعمال المعابد التي ظهرت أو شيدت في الطور السابق مع التجديد والتعمير فيها. وتعود إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات القبور الملكية الشهيرة في «أور» التي سنتناول

---

(1) انظر حول معبد «أنانا» في نفر:

Hansen and Dales, «The Temple of Inanna» in *Archaeology* (1962).

(2) راجع: Delougaz in *IRAQ*, V, (1938), 1ff.

(3) عن المعبد البيضوي في خفاجى انظر:

Delougaz, *The Oval Temple at Khafajah* (1940).

وصفها في موضع آخر من هذا البحث، كما سنورد بعض الأمور الأخرى عن هذا العصر فنكتفي بهذا التعريف الموجز مضيفين إلى ذلك ما ارتئي حديثاً من تقسيم هذا الطور الأخير من عصر فجر السلالات إلى مرحلتين أو دورين، تميز المرحلة الأولى منهما المقبرة الملكية في «أور»، ويرجع إليها زمن سلالة أور الأولى التي أسسها الملك «ميسا نيبدا»، ويعود إلى الفترة الثانية منه عهد حكام «لجش» أي سلالة «أور ـ نانشة» مما سيأتي تفصيل الكلام عليه في القسم الثاني.

أشهر المواقع الأثرية الممثلة لحضارة عصر السلالات:

1 ـ المواقع الأثرية في منطقة ديالى:

مر بنا في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية ذكر المواضع القديمة المهمة التي نقبت فيها البعثات الأثرية من جامعة شيكاغو الأمريكية (المعهد الشرقي) برئاسة الأستاذ «هنري فرنكفورت» (H. Frankfort) وقد استمر العمل فيها طوال عدة سنين (1930ـ1937). وبالنظر إلى أهمية النتائج التي أسفرت عنها تلك التحريات مما يخص معرفتنا بحضارة وادي الرافدين بوجه عام وحضارة عصر فجر السلالات موضوع هذا البحث بوجه خاص فيستحسن أن نذكر خلاصة موجزة عن نتائج التحريات في هذه المواضع.

أ ـ تل أسمر:

تل أسمر هو موضع المدينة القديمة «أشنونا»، عاصمة المملكة التي عرفت بهذا الاسم أيضاً، وقامت في المثلث المكون من الأراضي الخصبة ما بين ديالى شرقاً ودجلة غرباً. وتقع أطلالها على بعد نحو (50) ميلاً شمال شرقي بغداد، واستغرقت التحريات فيها ستة مواسم (1930ـ1936) ونتجت الكشف عن جملة مبانٍ مهمة كالمعابد والقصور من مختلف الأدوار التأريخية، من بينها ما يعود إلى عصر فجر السلالات. وكانت آثار العصر البابلي القديم

(في حدود 2000 ـ 1500ق.م) آخر ما وجد في هذا الموضع. وعثر في أثناء التنقيبات على مجموعات مهمة من النصوص والوثائق المدونة، بعضها يرجع إلى العهد الآكدي (زهاء مائتي لوح من الطين) وأكثر من ألف لوح من زمن سلالة أور الثالثة والعهد البابلي القديم[1].

ب ـ تل خفاجى:

يقع التل المسمى «خفاجى» أو خفاجة على بعد نحو (7) أميال شرق بغداد ونحو (12) ميلاً جنوب شرقي تل أسمر السالف الذكر، وهو موضع المدينة القديمة المسماة «توتب» (Tutub). وقد استمرت التحريات فيه ثمانية مواسم (1930ـ1938) تم الكشف فيها عن جملة معابد منها ما يرجع في عهده إلى عصر فجر السلالات مثل المعبد «البيضوي»، ومعبدين للإله «سين» والإلهة «ننتو»، كما وجدت مجموعات مهمة من ألواح الطين بعضها من العصر الآكدي والبعض الآخر من العصر البابلي القديم. وتل «خفاجى» منطقة أثرية واسعة تتألف من أربع مجموعات من التلول، أطلق عليها المنقبون تل «A» وتل «B» وتل «C» ثم تل «D». فالأول من هذه التلول أوسع موضع استمر الاستيطان فيه من العهد الشبيه بالكتابي، وكشف فيه عن ثلاثة معابد مهمة هي المعبد «البيضوي» (Oval temple)[2] والمعبد المخصص للإله «سين»، والمعبد الثالث للإلهة المسماة «ننتو»[3]. وعثر في التلين «B» و«C» على حصن شيده الملك البابلي «سمسو ايلونا»، ابن الملك «حمورابي»[4]. وكشف في التل

---

(1) حول نتائج التحريات في تل أسمر انظر:
H. Frankfort, *OIP*, 1940.
وعن خلاصة نتائج التحريات في منطقة ديالى راجع البحث الموجز:
Harris in *JCS*, (1955), no. 9.

(2) انظر: Delougaz, *OIP*, (1940).

(3) عن هذين المعبدين انظر: *OIP*, (1942).

(4) حول هذا الحصن راجع:
Speiser in *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 70, p. 7ff.

«D» عن مجموعات من بيوت السكنى يتوسطها معبد آخر للإله «سين»، ووجدت في هذه المنطقة مجموعة مهمة من ألواح الطين[1].

جـ ـ تل اشچالي:

يقع هذا الموضع الثالث من التلول الأثرية في منطقة ديالى على بعد نحو (3) أميال جنوب شرقي خفاجى الذي مرّ ذكره، واستمرت التحريات فيه طوال موسمين من العمل (1934 ـ 1936)؛ ورجح أن يكون موضع المدينة القديمة المسماة «نريبتم» (Neribtum)، كما احتمل أنه «دور ـ رموش» (Dûr-rimush). وكان من بين ما كشفت عنه التحريات فيه معبدان، خصص أحدهما لعبادة الإلهة «عشتار» الملقبة «كتيتم» (Ishtar kititum) والثاني إلى الإله «شمش». وقد سبق أن استخرجت من هذا الموضع مجموعات من ألواح الطين عن طريق الحفريات غير المشروعة[2].

د ـ تل أجرب (أو عقرب):

يقع هذا الموضع الأثري على بعد نحو 15ميلاً شمال شرقي تل «أسمر» ولا يعلم اسمه القديم، كما أن التحريات فيه لم تكن كاملة (1936ـ1937) وأهم ما كشف عنه في الموضع المعبد الذي خصص لعبادة الإله «شارا» (Shara)[3].

وبعد هذه المقدمة الموجزة عن نتائج التحريات الأثرية في منطقة ديالى نوجز فيما يلي وصف المباني والآثار المهمة التي يرجع عهدها إلى عصر فجر السلالات، موضوع بحثنا.

معابد الإله «سين» في خفاجى:

سجل المنقبون في خفاجى عشرة أدوار من البناء مرّ فيها المعبد الذي

---

(1) نشرت هذه الألواح في: Harris in *JCS*, 9, (1955), 39ff.

(2) نشرت هذه الألواح في:

Lutz, *Legal and Economic Documents from Ashjaly*, (1931).

(3) انظر نشرة المعهد الشرقي في المرجع المرموز له: OIP, 1942.

شيد لعبادة الإله القمر الشهير في حضارة وادي الرافدين المعروف باسم «سين» (واسمه السومري ننا أو ننار)، حيث عبد في جملة مراكز أخرى أشهرها مدينة «أور» ومدينة «حران». ويبدأ أقدم دور شيد فيه معبده في خفاجى من دور «جمدة نصر»، وآخر أدواره يرجع إلى نهاية عصر فجر السلالات، قبيل العصر الآكدي الذي تلاه. أما أدوار هذا المعبد التي ترجع إلى عصر فجر السلالات بأطواره الثلاثة التي بيّناها فتبدأ من المعبد السادس إلى المعبد العاشر، حيث يمثل المعبدان السادس والسابع الطور الأول من هذا العصر، ويليهما المعبد الثامن الذي يعود في زمنه إلى الطور الثاني من عصر فجر السلالات السالف الذكر، وقد اتسم المعبد في دوره الثامن بضخامة جدرانه، بيد أنه بني وفق المخطط والتصميم الخاصين بالطور السابق. وتفرد هذا المعبد الثامن بما وجد فيه من المنحوتات، وقد سبق أن رأينا أن ظهور فن النحت وازدهاره مما يميّز هذا الطور عن عصر فجر السلالات. أما المعبد التاسع فقد أرجع إلى ما بين الطورين الثاني والثالث، ويليه دور المعبد العاشر الذي خصص إلى الطور الأخير أي الطور الثالث من عصر فجر السلالات. وقد وجد في المعبد من هذا الطور مجموعات من قطع التماثيل الجميلة. وأصاب المعبد في دوره التاسع حريق بالغ كما تشير إلى ذلك الآثار الواضحة التي سجلت فيه وكسر التماثيل المحطمة. وقد عُزي هذا الحريق إلى تخريب المنطقة على يد حاكم مدينة «لجش» المسمى «إياناتم» الذي اشتهر بحروبه الداخلية والخارجية[1].

معبد الإلهة «ننتو» في خفاجى:

ومن المعابد التي كشفت عنها التحريات الأثرية في خفاجى معبد نسب إلى إحدى الإلهات المسماة «ننتو»، إحدى الإلهات الخاصة بالولادة والإنجاب. وقد سجلت له سبعة أدوار بنائية، كان آخرها المعبد السابع الذي

---

(1) حول وصف هذه المعابد انظر:
CAH, I, part, 2, (1971), 246ff.
وكذلك: *OIP*, LVIII.

وجد فيه لوح من الحجر منقوش باسم هذه الإلهة التي لم يسبق لها ذكر في العصور القديمة قبل سلالة «أور» الأولى، ولذلك حدد زمن الدور السابع من المعبد بأنه يرجع إلى عصر فجر السلالات الثالث. أما المعبدان السادس والخامس اللذان يسبقانه في الزمن فقد أرجع عهدهما إلى الطور الثاني من هذا العصر، وشغلت أدوار المعبد الأول والثاني والثالث والرابع الطور الأول وأوائل الطور الثاني من عصر فجر السلالات.

المعبد البيضوي في خفاجي:

مرّ بنا ذكر هذا المعبد الذي سمي «المعبد البيضوي» (Oval temple) لأن شكله الخارجي بيضوي، وهو يشغل حارة مقدسة واسعة (مساحتها زهاء 8000 متر مربع)، مسورة بجدارين ضخمين يحيطان بمزار المعبد وساحته بهيئة بيضوية. ويقع المزار المقدس (Cella) في أحد طرفي الساحة الكبيرة (مساحتها 58×38م)، ويوجد في الطرف الثاني مرافق المعبد الأخرى وبيوت سكنى الكهنة. وقد كشفت التنقيبات في هذا المعبد عن طريقة غريبة اتبعت في تشييده، فقبل أن تقام أسسه حفر خندق كبير وعميق استلزم حفره رفع ما يقارب (64,000) متر مكعب من التراب ثم وضع بدلاً منه رمل نظيف صافٍ لإقامة أسس المعبد فوقها، وهذه جهود جسيمة ترينا ما كان يوليه سكان وادي الرافدين من العناية في تشييد معابدهم في عصر فجر السلالات، ولعله من المفيد أن نشير بهذا الصدد إلى الأدلة الكتابية التي تؤيد هذه الاستنتاجات[1]. وقد جدد بناء هذا المعبد في ثلاثة أدوار رئيسية، في عصر فجر السلالات الأول والثاني، وجدد مرتين في الطور الثالث من هذا العصر. وعثر فيه من مختلف أدواره على آثار نفيسة، من بينها مجموعة مهمة من المنحوتات، بعضها ألواح من الحجر مربعة ومنحوتة بالنحت البارز بمشاهد مختلفة، منها ما يمثل موضوعات دينية فسرت بأنها تصور موكب ما سميناه بالزواج الإلهي أو الزواج المقدس (Hieros gamos).

---

(1) انظر: Falkenstein in *Orientalia*, (1966).

معبد الإله «آبو» في تل أسمر:

من بين ما كشفت عنه التنقيبات في تل أسمر الذي سبق أن عرفناه، سلسلة من المعابد المهمة، يرجع عدد منها إلى عصر فجر السلالات، منها ما أطلق عليه اسم المعبد القديم (Archaic shrine) الذي شيد في الطور الأول من عصر فجر السلالات، ومعبد آخر سمي «المعبد المربع» يرجع إلى الطور الثاني من هذا العصر. ووجد معبد ثالث أرجع زمن تأسيسه إلى أوائل الطور الثالث من العصر نفسه سمي بالمعبد «ذي المزار الواحد» (Single shrine) وأمكن تعيين الإله الذي خصص لعبادته بأنه الإله المسمى «آبو» أو «أبًا»، بدلالة بعض النقوش الكتابية، كما وجد فيه عدد من المنحوتات.

معبد الإله «شارا» في تل أجرب:

عثر في الموضع الأثري المسمى تل «أجرب» أو «تل عقرب» من منطقة ديالى على معبد مهم من عصر فجر السلالات شيد لعبادة الإله المسمى «شارا»، كما تدل على ذلك الكتابة المنقوشة على إناء من الحجر وجد في المعبد من عصر فجر السلالات الثالث (انظر OIP, LVIII).

ومع أن التحريات في هذا المعبد لم تكن كاملة بيد أن المنقبين استطاعوا أن يتتبعوا مخططه من طور عصر فجر السلالات الثاني والثالث، فوجد أنه يحيط به جدار خارجي ضخم (سمكه 5,50م) وتتخلله الطلعات والدخلات المميزة لجدران المعابد الخارجية منذ أول ظهور المعابد في حضارة وادي الرافدين في عصر العبيد (في حدود 4000ق.م).

2 ـ كيش:

من المراكز الحضارية المهمة التي كشفت التنقيبات فيها عن بقايا عصر فجر السلالات والعصور الأخرى الموقع الأثري المشهور «كيش» الذي يتألف من مجموعة من الأطلال الأثرية الواسعة، تسمى تلول الأحيمر (تصغير أحمر) و«النغرة» وتقع على بعد نحو (10) أميال شرق مدينة بابل. واشتهرت مدينة

«كيش» في تأريخ حضارة وادي الرافدين بأنها كانت مركز أول سلالة حكمت من بعد الطوفان بحسب أثبات الملوك السومرية، كما سيأتي تفصيل ذلك.

ومع أن التنقيبات التي أجريت في أطلال كيش لم تكن على المقياس الذي يتناسب وسعة هذه البقايا الأثرية وأهميتها، بيد أن ما تم الكشف عنه[1] يضيف أشياء مهمة إلى معرفتنا بحضارة وادي الرافدين ولا سيما في عصر فجر السلالات، إذ كشف عن بقايا قصر كبير في منطقة «النغرة». ويشاهد في هذه المنطقة بقايا برجين مدرجين (زقورتين) شيدتا باللبن «المستوي ـ المحدب»، وهو اللبن الذي قلنا إنه يميز أبنية عصر فجر السلالات. وقد شيّد كل منهما فوق مصطبة كبيرة مزينة الأوجه بالطلعات والدخلات (Buttress, Recess)، وإن هاتين الزقورتين اللتين لم تتناولهما أعمال التحري الكافي على قدر عظيم من الأهمية لأنهما أقدم نماذج للزقورات من عصر فجر السلالات من بعد ظهور تلك المعابد العالية التي كانت تقام فوق المصاطب في العصر الشبيه بالكتابي.

وعثر في كيش كذلك على مجموعات من دور السكنى، وهي أيضاً ذات أهمية خاصة لأنها تمثل نظام السكنى في عصر فجر السلالات، موضوع كلامنا. ووجدت في الشوارع أو الأزقة الفاصلة ما بين البيوت آثار ترسبات من فيضان أو طوفان تفصل ما بين الطور الأول من عصر فجر السلالات وبين الطورين التاليين منه؛ ولعل هذه الترسبات الطوفانية من بقايا الطوفان المذكور في أثبات الملوك السومرية وفي ملحمة جلجامش. وعثر في هذه البيوت على مجموعات من الأواني الفخارية من الأطوار الثلاثة لعصر فجر السلالات، كما وجدت بقايا من الأدوات المعدنية من البرونز، ولا سيما من الطور الثاني من

---

(1) نوّهنا في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات بالتحريات الفرنسية القديمة في كيش برئاسة «دي جنواك» (1911ـ1912):

De Genuillac, *Foilles Françaises D'el-Akhymer,* (1924-25).

ثم تنقيبات البعثة «الإنجليزية ـ الأمريكية» (1923ـ1930):

Watelin and S. Langdon, *Excavations at Kish,* (1924-1934).

ذلك العصر، ومجموعات من الأختام الإسطوانية الخاصة بهذا العصر وهي ذات الأطرزة المميزة المكونة من الزخارف النسيجية (Brocade style).

وتم التحري أيضاً في مجموعة من القبور وفي مقدمتها المقبرة التي أطلق عليها المنقبون مقبرة «Y»، وجد فيها أجزاء من عربات ذوات عجلات وأدوات معدنية مهمة، من بينها خنجر دقيق الصنع. ويرجع بعض هذه القبور إلى عصر فجر السلالات الثاني، ويمكن نعتها بالقبور الملكية، وهي أقدم من مقبرة مدينة «أور» الشهيرة ولكنها فقيرة لا تضاهي هذه المقبرة في الكنوز التي وجدت فيها.

أما القصر المكتشف في كيش فإنه بناية واسعة ذات مداخل محصنة بالأبراج. ووجدت في القصر بقايا أعمدة تضاهي ما وجد في منطقة ديالى في أبنية عصر فجر السلالات الثاني، ولكن الإمارات الأخرى تجعل تحديد زمن القصر إلى مطلع عصر فجر السلالات الثالث أقرب إلى الصحة. ومهما كان الأمر فيعد قصر كيش وقصر «أريدو» الذي سيأتي ذكره أقدم نماذج من نوعها من هذا العصر. وقد دمر القصر بالحريق وأقيمت في أنقاضه مقبرة، وهي المقبرة التي أطلق عليها المنقبون مقبرة «A» المعاصرة للمقبرة الملكية في أور[1].

أريدو:

سبق أن تكلمنا على أدوار ما قبل التأريخ في «أريدو» في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ. أما بالنسبة إلى الموضوع الذي بين أيدينا، أي عصر فجر السلالات، فيبدو أن هذه المدينة ظلّت على شيء من الازدهار في بعض أجزائها على الأقل، مثل معابدها والقصر المهم الذي كشفت عنه تنقيبات مديرية الآثار العراقية في «أريدو» (1946ـ1949). وهو قصر كبير شيد

---

(1) حول قصر كيش ومقبرتها انظر:

Mackay, *A Sumerian Palace and the «A» Cemetery at Kish,* (1929).

على غرار أبنية ذلك العصر باللبن «المستوي ـ المحدب» (Plano-convex) ويتألف من بنايتين متكاملتين إحداهما لصق الأخرى (معدل قياس كل منهما 65×45متراً)، وقد سوِّر القصر بجدارين محصنين، تزين واجهاتهما سلسلة من الطلعات والدخلات. ولم يعثر على أشياء مهمة في هذا القصر سوى تمثال صغير (ارتفاعه نحو 16سم) من حجر الرخام الجميل، يمثل رجلاً طعمت عيناه بحجر اللازورد. ويستدل من طراز النحت على أنه يرجع في زمنه إلى عصر فجر السلالات الثالث. ومما يقال عن زمن قصر أريدو إنه كان معاصراً لقصر كيش وإن كليهما من أواخر عصر فجر السلالات الثاني أو أوائل الطور الثالث من هذا العصر.

شروباك (تل فارة):

يسمى موضع المدينة القديمة «شروباك»، موطن بطل الطوفان البابلي «اوتو ـ نبشتم» باسم تل فارة، على بعد نحو 64 كم جنوب شرقي مدينة الديوانية. وقد سبق أن نوَّهنا بالتحريات القصيرة الأمد التي أجراها الألمان في هذا الموضع (1902ـ1903)، ثم تحريات جامعة بنسلفانية الأمريكية (1930). وتدل الإشارات التأريخية الواردة في النصوص المسمارية على أن «شروباك» كانت من المراكز التي ازدهرت في عصر فجر السلالات، وكانت من المدن الخمس التي حكمت فيها سلالة من الملوك في عهد ما قبل الطوفان. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ما عثر في هذا الموضع من آثار ترسبات غرينية تفصل ما بين دور جمدة نصر وبين بداية عصر فجر السلالات. وعثر في أثناء التحريات على مجموعة مهمة من الأختام الإسطوانية يرجع زمنها إلى عصر فجر السلالات الثاني، والغالب على المشاهد الممثلة فيها الصراع ما بين البشر وبين الحيوانات، ومشاهد تجذيف القوارب وفيها الآلهة وهم يعبرون إلى الأماكن المخصصة للاحتفال بالأعياد، كما نقش بعضها بأشكال العقارب والأفاعي.

ومن الاكتشافات المهمة التي يجدر ذكرها مجموعة من ألواح الطين

القديمة (اركائية)، ترجع في عهدها إلى الأطوار الأولى من عصر فجر السلالات الثالث، وأنها على ما يرجح تعاصر زمن المقبرة الملكية في مدينة «أور»، وهي عبارة عن قيود وسجلات بواردات المعبد، وبعضها تمارين مدرسية، من بينها جداول في قِيم العلامات المسمارية وأصواتها، فهي على ذلك أقدم معاجم في التأريخ[1].

نفر:

تقع مدينة «نفر» بنحو 45 ميلاً جنوب شرقي بابل وبالقرب من بلدة عفك. وقد اشتهرت في تأريخ حضارة وادي الرافدين بمكانتها الدينية المقدسة، حيث كانت مركز عبادة كبير الآلهة السومرية «أنليل» وزوجته «ننليل»، واشتهرت في مآثر وادي الرافدين بأن الملوك والحكام لم تكن لتثبت شرعية توليهم السلطة ولا سيما في العصور القديمة، إلا من بعد تسلمهم من إلهها التاج والصولجان وشارات الملوكية الأخرى.

وتتألف المنطقة الأثرية من مساحة واسعة تبلغ زهاء (180) ايكراً (الأيكر الواحد يساوي نحو 4000 متر مربع). وقد سبق أن ذكرنا التنقيبات الأمريكية القديمة في نفر (1888ـ1900) ثم استئناف التنقيبات فيها من جانب جامعتي شيكاغو وبنسلفانية منذ عام 1949 إلى عام 1963، وشملت التحريات الجديدة التنقيب في معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) القريب من زقورة المدينة، وسجلت أدواره التأريخية في عصر فجر السلالات، وقد بلغ في الطور الثاني من هذا العصر سعة كبيرة (275×85قدماً). ويوجد للمعبد مزاران (Shrine) يدخل إليهما بطريق معقد ومتشعب من خلال ساحات صغيرة وسقائف وحجرات أمامية. وعثر في المعبد على أعمدة مشيدة باللبن «المستوي ـ المحدب» ومملطة بالطين، وهي تضاهي ما وجد في معبد الإله «سين» في خفاجى في دوره الثامن، وفي قصر كيش الذي مر

---

(1) حول تحريات تل «فارة» انظر:
E. Schmidt, in *Museum Journal*, (1931).

ذكره بأنه يرجع إلى عصر فجر السلالات الثاني. ووجدت في المعبد مجاميع مهمة من النذور والهدايا، من بينها مجموعة من صفائح الحجر المطعمة بالصدف، يحتمل أن إحداها تمثل الإلهة «أنانا» صاحبة المعبد، وهي تلبس تاجها الإلهي ذا القرون، وتخرج منه خصلات شعرها على هيئة السنابل. ومن الألواح المنحوتة الجميلة التي يجدر ذكرها وهي من عصر فجر السلالات الثاني بعض المشاهد الطريفة التي يمثل بعضها أسداً يهاجم ثوراً، وبطلاً يصارع الأسود والثيران، مما يذكرنا بالبطل الشهير جلجامش، ومشهد احتفالات وولائم حيث الموسيقيون يعزفون على قيثارة ذات ثمانية أوتار، وينتهي صندوقها الصوتي برأس ثور مما يشبه قيثارة أور الذهبية المشهورة، والمشهد المصور على ما يعرف باسم «راية أور» الملكية التي وجدت في أقدم قبر من القبور الملكية فيها.

لقد سجلت الأدوار المعمارية المختلفة التي جدد فيها معبد الإلهة «أنانا»، ويمكن إيجازها على الوجه الآتي: (1) عصر فجر السلالات الأول وتمثله الطبقات (11) إلى (9). (2) عصر فجر السلالات الثاني وتعود إليه الطبقة الثامنة. (3) عصر فجر السلالات الثالث وتعود إليه الطبقات (7) إلى (5). وقد عثر على نماذج من الفخار خاصة بكل من هذه الأدوار. كما وجدت في الطبقة السابعة «B» ألواح مدونة بالخط المسماري القديم تضاهي الألواح المكتشفة في «فارة» التي يرجع عهدها إلى أوائل عصر فجر السلالات الثالث[1].

منطقة لجش:

سيمر بنا في كلامنا على الأحوال السياسية في عصر فجر السلالات كيف أن دولة لجش ازدهرت في عصر فجر السلالات، وكانت أشهر دول المدن التي قامت بدور بارز في تأريخ حضارة وادي الرافدين في ذلك العصر.

---

(1) عن نتائج التحريات في معبد «أنانا» في «نفر»، انظر المرجع المذكور في الهامش رقم 6، وعن المنحوتات المكتشفة فيه انظر:

Hansen in *JNES*, XXII, (1963), 145ff.

وتقع الآن في منطقة أثرية واسعة بالقرب من شط الحي (الغراف)، في منتصف المسافة تقريباً ما بين دجلة والفرات، على بعد نحو (10) أميال إلى الشمال الشرقي من بلدة الشطرة. وتتألف من جملة تلول أثرية، أبرزها المنطقة المسماة «تلو» التي ثبت من الدراسات الحديثة أنها موضع المدينة القديمة «جرسو» أو «گرسو» (Girsu)، ومنطقة تلول «الهباء»، موضع مدينة «لجش» الشهيرة التي سميت باسمها دولة المدينة، ثم التلول المعروفة باسم «سرغل»، وهي المدينة القديمة «نينا» أو «سرارا». وللمثال على سعة هذه المنطقة الأثرية تبلغ مساحة منطقة تلو وحدها زهاء 4×3 كيلومترات.

وبالإضافة إلى هذه المنطقة الأثرية الواسعة سجلت في أثناء المسح الأثري الذي تقوم به مديرية الآثار مجموعات مهمة من التلول الأثرية الأخرى، التي يغلب على ملتقطاتها السطحية أنها تعود إلى أدوار عصر فجر السلالات[1].

ومما يؤسف له أن المنقبين الفرنسيين القدماء في منطقة لجش، وقد اقتصرت تحرياتهم المضطربة على «تلُّو» وهي مدينة «جرسو» القديمة، لم يعنوا العناية اللازمة في تسجيل مخططات الأبنية وتثبيت أدوارها، ولذلك ضاعت معالم مهمة من بقايا عصر فجر السلالات الذي ازدهرت فيه هذه المنطقة كما بينا سابقاً، وتحسن الوضع أكثر عندما تولى الإشراف على التنقيبات الفرنسية التالية الأستاذ «أندريه پارو» (1929ـ1933)[2] بالنيابة عن متحف اللوفر، حيث سجلت بقايا مشيدة باللبن «المستوي ـ المحدب». ووجدت في الموضع أيضاً من عصر فجر السلالات ومن الأدوار السومرية التالية، مثل عهد «گودية» وعهد سلالة «أور» الثالثة، مجموعات كثيرة من ألواح الطين، وقطع كثيرة من

---

(1) راجع التقرير المنشور في:

Th. Jacobsen in *SUMER*, XXV, (1969), 103ff.

(2) انظر عن التنقيبات في تلُّو:

A. Parrot, *Tello*, (1948).

المنحوتات والآثار الفنية الأخرى، بعضها منقوش أيضاً بكتابات سومرية تعود إلى حكام سلالة «لگش» الأولى ، ومنهم مؤسس السلالة «أور ـ نانشه»، نخص بالذكر منها مسلات فنية مدونة تخلد انتصارات المشاهير من حكام هذه السلالة مثل مسلة النسور أو العقبان (Stele of the vultures) العائدة إلى «اياناتُم» الشهير، والإناء الفضي النفيس العائد إلى «أنتمينا»، المنقوش بصورة نسر باسط جناحيه، وكان النسر رمز مدينة لجش أو دولة لجش وسنتناول أخبار هذه الدولة المهمة ومآثر حكامها في القسم الثاني من هذا الفصل.

تل العبيد:

تل العبيد موضع أثري صغير بجوار «أور» (على بعد نحو4 أميال إلى الجهة الشمالية الغربية) وقد اشتهر اسم هذا التل لأنه، كما مرّ بنا في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ، أطلق على أقدم دور من أدوار ما قبل التأريخ في السهل الرسوبي[1]. وعثر في تل العبيد بالإضافة إلى فخار العبيد الخاص على بقايا مهمة من عصر فجر السلالات، موضوع بحثنا، ولا سيما من الطور الثالث منه، نخص بالذكر المعبد الجميل الذي شيده إلى الإلهة «نِن ـ خَرساگ» الملك «آنيدا» ابن «ميسا نيبدآ»، مؤسس سلالة «أور» الأولى. ويرجع زمن هذا المعبد إلى الطور الأخير من عصر فجر السلالات الثالث، من بعد زمن المقبرة الملكية في «أور» بفترة قصيرة. وأصاب المعبد في زمن ما بعد تأسيسه حريق وتدمير فسقطت عمده وواجهاته ولم يبقَ قائماً منه سوى المصطبة أو الدكة التي شيّد فوقها المعبد الذي كان يرقى إليه بسلمين من الحجر. وأجمل ما وجد من بقاياه المتساقطة العمد المزينة بطريقة الغرس أو التطعيم (Inlay) بالصدف، كما أن جدران المعبد كانت مزدانة بتثبيت أزهار جميلة مصنوعة من الحجارة الملونة، ووجدت أيضاً بقايا أشكال حيوانية مصنوعة من النحاس، بعضها بطريقة الطرق وبعضها بطريقة السبك، وكانت هذه الأشكال تزين واجهة

---

(1) حول التنقيبات الأثرية في تل العبيد انظر:
Hall and Woolley, *Al-Ubaid*, 1927.

المعبد، من بينها أشكال أبقار وغزلان وشكل نسر باسط جناحيه. ويجدر أن نذكر القطعة الفنية النفيسة المكونة من افريز مطعم بقطع من الحجارة الجميلة وقطع من الأصداف، وهي تمثل مشهداً طريفاً في حلب الأبقار وخض اللبن وبعض العمليات الخاصة بصناعة الألبان (Dairy).

وننهي هذه الملاحظات الموجزة عن معبد العبيد بالتنويه بأن إعادة فحص الموضع في زمن لاحق من بعد التحريات القديمة فيه أثبتت بأن هذا المعبد كان يحيط به سور بيضوي على غرار المعبد البيضوي في خفاجى الذي سبق ذكره[1].

أور:

أظهرت التنقيبات الأثرية الواسعة التي أجرتها البعثة البريطانية ـ الأمريكية المشتركة في أور (1922ـ1934) نتائج على قدر عظيم من الأهمية، فإنها ألقت أضواء كاشفة على حضارة وادي الرافدين في عهودها المختلفة[2] لا مجال لتفصيل القول فيها إلا إيجاز ما أسفرت عنه بالنسبة إلى بقايا عصر فجر السلالات موضوع هذا الفصل. فمما يقال عن هذا الموضوع بوجه الإجمال إن ما كشف عنه من تلك البقايا لا يعد على قدر كافٍ من الأهمية باستثناء المقبرة الملكية الشهيرة التي يرجع زمنها إلى الطور الثالث من هذا العصر كما سنفصل ذلك بعد قليل. وأول ما نذكر عن بقايا هذا العصر الأخرى أن هناك إمارات قوية تشير إلى زقورة المدينة التي شيدها مؤسس سلالة «أور» الثالثة، «أور ـ نمُّو» قد أقيمت فوق بقايا بنائية من عصور أقدم، كما يدل على ذلك اللبن «المستوي ـ المحدب» الذي شيّدت به هذه البقايا

(1) انظر: Delougaz in *IRAQ*, (1938), 1ff.

(2) راجع النشرات المفصلة في:

Woolley, *Ur Excavations*, vols. I, II.

Woolley, *Ur of the Chaldees*, (1938).

Woolley, *Excavations at Ur*, (1954).

والذي يشير إلى عصر فجر السلالات. وثبت كذلك أن هذه البقايا المشيدة بهذا النوع من اللبن كانت في الواقع زقورة حقيقية وليست مجرد معبد مقام فوق دكة أو مصطبة على غرار معابد المصاطب التي ظهرتْ في العصر الشبيه بالكتابي، كما مرّ بنا في الفصل السابق. ووجدت أيضاً في جانبي السلم العائد إلى زقورة أور الثالثة بقايا بناءين كبيرين مشيدين كذلك باللبن المميز لأبنية عصر فجر السلالات، أي اللبن «المستوي ـ المحدب». ولا تعلم حقيقة هذين البناءين على وجه التأكيد، على أن المنقب «وولي» فسرهما بأنهما بقايا مطابخ المعابد القديمة بالاستناد إلى ما وجد فيهما من آثار الرماد والأحواض المبطنة بالقير ونظام لتصريف المياه. وبالإضافة إلى هذه البقايا وجدت كذلك معالم معبدين غير واضحين أرجع زمنهما إلى عصر فجر السلالات أيضاً، وعثر فيهما على آثار مكسورة من المنحوتات وطبعات أختام إسطوانية من هذا العصر. كما يرجح وجود بقايا أخرى تعود إلى الأطوار الأولى من هذا العصر وإلى دور جمدة نصر السابق بدلالة ما استعمل في بنائها من اللبن المعروف باسم «ريمشن» (Riemchen) المميز لأبنية العصر الشبيه بالكتابي. وخلاصة القول وجدت في أور في حارة المعابد المقدسة (Temenos) بقايا جزئية غير كاملة من أبنية ترجع في أزمانها إلى نهاية العصر الشبيه بالكتابي وإلى عصر فجر السلالات التالي بأطواره الثلاثة، وأن المعابد هذه اكتسبت قدسية خاصة منذ العصر الشبيه بالكتابي واستمرت كذلك إلى آخر العهود التأريخية. ووجدت كذلك بقايا كاملة من عصر فجر السلالات في حارتي معبدين من معابد المدينة، هما المعبد المسمى «اي ـ نُن ـ ماخ» (è-nun-makh) والثاني «اي ـ خُر ـ ساگ» (é-khur-sag).

المقبرة الملكية:

اكتسبت مدينة أور شهرة عالمية واسعة بفضل ما وجد فيها في تنقيبات الأعوام 1927ـ1934 من قبور أثارت الدهشة في العالم الحديث في آثارها العجيبة وكنوزها الذهبية والفنية التي تكاد تكون منقطعة النظير. فما حقيقة هذه

المقبرة وما تأريخها؟. وللإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز نقول إن المنقبين وجدوا في «أور» مجموعات متنوعة من المقابر، منها ما يعود إلى عهد سلالة أور الثالثة، نخص بالذكر منها القبور الملكية العائدة إلى ملوك هذه السلالة، وهي قبور ضخمة مكونة من سراديب ذات عقادات متقنة من الآجر لدفن ملوك هذه السلالة، وشيدت فوق تلك السراديب أو الأقبية معابد لعبادة الملك المقدس أو المولَّه وتقديم القرابين إليه. وهكذا فإن هذه المدافن قبور ملكية بالمعنى الدقيق لهذه التسمية، ولكنها وجدت خالية معبوثاً بها بحيث لم يعثر فيها على رفات أصحابها، وقد عُزي هذا الانتهاك إلى هجمات العيلاميين والأموريين التي قضت على سلالة أور على نحو ما سنفصل ذلك في أحد الفصول الآتية.

ووجد في الجهة الجنوبية الشرقية من السور (Temenos) مجموعات أخرى من المقابر بعضها قديم جداً يرجع في عهده إلى عصر العبيد (مطلع الألف الرابع ق.م)، وبعضها من العصر الشبيه بالكتابي، ولا سيما من دور جمدة نصر (أواخر الألف الرابع ق.م)، وقسم منها يعود إلى العصر الآكدي وإلى زمن سلالة أور الثالثة التالي. ولكن مجموعات كثيرة أخرى من القبور في المنطقة نفسها يرجع عهدها إلى عصر فجر السلالات الثالث، وهي التي يعنينا أمرها، إذ إنها هي التي عثر فيها على الكنوز الذهبية والفنية، واشتهرت باسم «المقبرة الملكية». وقد وجد في القبر الواحد منها عدا الشخص الملحود فيها عدد من الأتباع والحاشية وحتى العربات والحيوانات التي كانت تجرها والحلي والمجوهرات النفيسة. وقد فسرت من بعد اكتشافها بأن الأشخاص الملحودين فيها كانوا حكاماً أو ملوكاً إذا ما مات الواحد منهم دفنت معه حاشيته وأتباعه وأنفس الحلي والأثاث العائدة إليه لحاجته إليها في عالم ما بعد الموت. ومع أن تفسيرات أخرى وضعت بالإضافة إلى هذا التفسير عن حقيقة تلك القبور العجيبة، بيد أن مغزاها وتفسيرها الحقيقي ما زال بين أخذ ورد بين الباحثين، وأبعد ما يكون عن الحل النهائي لهذه القضية التأريخية التي هي أشبه ما تكون باللغز.

يرقى زمن هذه المقبرة، التي سنصف أهم قبورها، إلى عصر فجر السلالات الثالث كما بيّنا، ولكن اختلف في تحديد زمنها بالضبط إلى هذا الطور الثالث من عصر فجر السلالات، هل ترجع إلى النصف الأول منه أو إلى النصف الثاني؟ فعلى ضوء الدلالة الأثرية التي استنتجت مما وجد مصاحباً لهذه القبور يمكن التأكيد بأن زمنها أقدم من عهد مؤسس سلالة أور الأولى المسمى «ميسا نيبدا»، وهي في الوقت نفسه أحدث عهداً من ألواح الطين القديمة (الأركائية) التي وجدت في طبقة أثرية تحت الطبقة المخصصة لتلك القبور وقد أرّخت هذه الألواح إلى الطور الثاني من عصر فجر السلالات[1].

هذا وليس من الجائز، على ما أرى، أن تتفرد مدينة أور بكونها الموقع الأثري الوحيد الذي يحتوي على مقبرة ملكية من هذا النوع، وأن عادة هذا النوع من الدفن في عصر فجر السلالات اقتصرت على هذه المدينة، وعلى هذا فتكون صدفة الاكتشاف الأثري التفسير المعقول لتفرد أور بهذا النوع الغريب من القبور، وأن الاكتشافات المقبلة ستسفر عن إظهار نماذج أخرى في المدن التأريخية المشهورة. يؤيد هذا الاحتمال ما وجد في بعض المدن ما يصح تسميته بالقبور الملكية، وإن لم يعثر فيها على ما يشبه النفائس الأثرية التي تميزت بها مقبرة أور، نخص بالذكر منها ما وجد في كيش من قبور قديمة العهد، بعضها يرجع في زمنه إلى عصر فجر السلالات الثاني، وهي المقبرة المؤشرة بالحرف «Y» في سجلات المنقبين[2]، وعثر في بعض قبورها على أجزاء من عربات وآثار أخرى لا تضاهي آثار مقبرة أور من حيث نفاستها، كما وجدت في كيش نفسها مقبرة أخرى اطلق عليها اسم المقبرة «A» وأرجع زمنها

---

(1) حول تأريخ المقبرة والآراء المختلفة عنها راجع خلاصة ذلك في:

W. Ehrich, *Chronologies in Old World Archaeology* (1965), 162ff.

(2) حول القبور المكتشفة في كيش انظر:

Watolin, *Excavations at Kish*, IV, (1934).

وعن مقبرة سوسة راجع:

De Mecquenem, *Memoire de la Mission Archéologique de Perse ANET*, p. 51.

إلى عصر فجر السلالات الثالث، ولعلها تعاصر مقبرة «أور» في الزمن، ووجدت قبور مماثلة في مدينة «سوسة» (عاصمة بلاد عيلام)[1].

ولنعد الآن إلى مقبرة أور لنصف أهم قبورها وما وجد فيها من بقايا بشرية ونفائس أثرية، فنقول إنه سجل من هذه القبور ما يناهز (2500) قبر، منها ما قوامه بناء معقود على هيئة قبة بسيطة من نوع العقادة الذي يطلق عليه مصطلح (Corbel)، ويحتوي بعضها على أكثر من حجرة، كما أن بعضها الآخر من نوع المدافن الاعتيادية على هيئة حفر بسيطة.

ومع أن عدداً غير قليل من هذه القبور وجدت معبوثاً بها ومسروقة، إلا أن عدداً آخر منها لا يستهان به وجد محفوظاً، من كلا النوعين المعقود بالقباب، ونوع الحفر الاعتيادية. والمرجح أن بعض القبور المعقودة ولا سيما الكبيرة منها كانت قبوراً جماعية، أو بالأصح قبوراً عائلية. ونعدد أبرز القبور التي اشتهرت بما وجد فيها من الآثار النفيسة، وقد أمكن تعيين أسماء أصحاب البعض منها وللكثير منهم صفة الملوكية، إذ أمكن تخصيص ما لا يقل عن ستة عشر قبراً بكونها قبوراً ملكية، نخص بالذكر منها القبر العائد إلى «ميسكلام دگ» (Mes-Kalam-dug) (ويعني اسمه «بطل الإقليم الطيب»)، حيث وجد هذا الاسم منقوشاً على ختم إسطواني من الذهب، ويصحبه لقب الملك أي «لوگال» (Lugal) ووجد أيضاً قبر ابنه المسمى «آ ـ كلام ـ دگ» (A-kalam-dug) (ابن الإقليم الطيب)، وقبر زوجة الملك الأول بهيئة «نن ـ بندا» (Nin-banda)، وقبر ملكة أو أميرة لا يعلم اسم زوجها، وهي الملكة الشهيرة التي كان يقرأ اسمها سابقاً على هيئة «شبعاد» (Shub-ad) ولكن ارتئي للاسم حديثاً قراءة أصح بهيئة «پو ـ آبي» (Pu-abi) والمرجح أن هذه الصيغة اسم سامي. وقد لقبت كلتا هاتين الملكتين بلقب السيدة أو الملكة أي «نن» (Nin)، بيد أن الملكين المذكورين لم يرد اسماهما في أثبات الملوك السومرية.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

وإذا أردنا تخصيص هذه القبور بالأرقام التي سجلها بها المنقبون فنختار منها الأرقام الآتية:

1 ـ القبر المرقم 1054:

وهو معقود من الحجر، وجدت فيه جثة امرأة لعلها أميرة أو ملكة مع جثث أربعة رجال من أتباعها على ما يرجح، ووجد فيه أيضاً ختم الملك «ميسكلام دگ» السالف الذكر، وأربعة خناجر جميلة من الذهب.

2 ـ القبر المرقم 779:

ومساحته 12×8,5م، ويعد من أقدم القبور، كان منهوباً معبوثاً به، ولكن وجد فيه مع ذلك ما أطلق عليه اسم «راية أور» وهي قطعة نفيسة مطعمة بالفيسفساء من الصدف وحجر اللازورد. وتصور الراية بطريقة فنية رائعة مشهداً من مشاهد الحرب، ومشهد احتفال بالنصر أيضاً.

3 ـ القبر المرقم 775:

يقع جوار القبر الثاني (ذي الرقم 779)، ويعود إلى الملك الشهير الذي ذكرناه باسم «ميسكلام دگ»، صاحب الخوذة الذهبية المشهورة وآثار الذهب الأخرى الرائعة التي يمكن مشاهدة بعضها معروضة في المتحف العراقي.

4 ـ القبر المرقم (1050):

يعود إلى الملك «آ ـ كلام ـ دگ» ابن الملك «ميسكلام ـ دك»؛ وجدت معه أربعون جثة من الحاشية ونفائس من الآثار من بينها ختم إسطواني من حجر اللازورد يحمل كتابة باسمه ولقبه على أنه ملك «أور».

5 ـ القبران المرقمان (789 و800 B):

وهما قبران مؤلفان من عقادتين أو قبتين فوق حفرة عميقة. ويمتاز الأول منهما بكثرة عدد الضحايا التي وجدت فيه حيث بلغ عددها زهاء 59جثة من بينها جثث ستة جنود وتسع نساء وبقايا عربتين. والمرجح كثيراً أن هذا القبر

يعود إلى ملك مهم لا يعلم اسمه لأن القبر نهب في العصور القديمة بواسطة ثقب أحدث في سقفه.

ويقع لصق هذا القبر، القبر المرقم (800) الذي أمكن تعيين صاحبه بأنه يعود إلى ما يرجح أن تكون الملكة «شبعاد» أو «پو ـ آبي» السالفة الذكر. وقد وجدت جثتها في حفرة مستطيلة (2,80×4,35م)، مع جثث حاشية من الوصائف والأتباع بلغ عددها (59) جثة، الغالب عليها أنها جثث نساء ورجال من الجند أو الأتباع، كما وجدت بقايا عربتين مع حيواناتهما من الحمر الوحشية (Onager) وسائقيهما. أما الكنوز الأخرى التي وجدت في هذين القبرين فتعد من أروع الآثار النفيسة، منها الحلي الذهبية بمختلف أنواعها وأشكالها وقيثارتين ذهبيتين ينتهي كل منهما برأس ثور من الذهب الخالص، ووجدت بقايا من صندوقيهما الصوتيين وهما من الخشب المطعم بالصدف وحجر اللازورد.

6 ـ القبر المرقم 1237:

لا يضاهي النفائس التي وجدت في القبرين السالفي الذكر إلا آثار القبر المرقم (1237) الذي سمي بحفرة الموت الكبيرة، إذ هو في الواقع حفرة واسعة (8,5×75م)، ومع أن هذا القبر وجد بحالة غير سليمة إلا أن الضحايا التي سجلت فيه بلغ عددها 74جثة، من بينها جثث (68) امرأة مع كامل زينتهن وحلاهن النفيسة من الذهب والفضة وقلائد حجر اللازورد الجميل والأحجار الكريمة الأخرى كالعقيق، كما وجد عدد من القيثارات إلى غير ذلك من الآثار الجميلة التي لا يسع المجال لإسهاب القول فيها، ويستطيع من يرغب في الاستزادة من الوصف الرجوع إلى المصادر التي أثبتناها في آخر هذا الفصل.

تفسير المقبرة:

يتضح مما أوجزناه عن وصف هذه القبور التي سميت بالمقبرة الملكية أن عدداً من الشخصيات الحاكمة، كالملوك والملكات والأمراء، وجدوا

مقبورين مع حاشيتهم وأتباعهم وأنفس متاعهم وآثاثهم، فكان التفسير القديم الذي ارتآه مكتشف هذه المقبرة المرحوم «وولي» (Woolley) وتابعه في رأيه جماعة من الباحثين، أن الحكام السومريين كانوا في فترة قديمة من عصر فجر السلالات الثالث، أي في حدود 2600ق.م أو 2550ق.م، يمارسون عادة تضحية أتباعهم ويدفنونهم معهم عند مماتهم. وأن أولئك الأتباع الملحودين بصحبة أسيادهم كانوا يدخلون إلى هذه القبور وهم أحياء ثم تقتل الحيوانات من جانبهم، ويتناولون من بعد إدخال جثة سيدهم سموماً كانت تهيأ لهذا الغرض، وكان الدفن يجري في احتفال ديني مهيب.

أما إذا أردنا الاستعانة بشيء من النصوص الكتابية المعاصرة فلا نجد ما يسعفنا في حلّ هذا اللغز سوى ما ذكرناه من أن بعض الشخصيات المقبورة كانت تحمل ألقاب ملوك وملكات وهذا ما دعا المنقبين إلى إطلاق تسمية «المقبرة الملكية» على تلك القبور. ولم يترك لنا الكتبة المتأخرون من العصور التالية ما يوضح حقيقة هذه المقبرة باستثناء إشارات قليلة مقتضبة نذكر منها ما جاء في إحدى الأساطير أو القصص الخاصة بجلجامش من الإشارة إلى بطل أو ملك أرفق معه عند موته أتباعه، وسميت هذه الأسطورة بعنوان «موت جلجامش»[1]. وكان جلجامش بصفته شخصية تأريخية قد عاش في الفترة الزمنية التي خصصت لأحد ملوك المقبرة الملكية المسمى «ميسكلام ـ دگ». وإن هذا الملك وغيره من ملوك هذه المقبرة كانوا إلى جانب صفتهم الملكية يتصفون بحسب نظرية «وولي» بالألوهية، فحق لهم أن يضحوا حاشيتهم معهم عند موتهم، حيث يعيشون في عالم آخر هو عالم ما بعد الموت. وفي الأسطورة السابقة التي تدور على موت جلجامش نجد هذا البطل مع أتباعه وحاشيته يقدم الهدايا إلى الشخصيات المهمة في ذلك العالم.

---

(1) حول هذه القصة انظر:

Kramer in *IRAQ*, (1960), 56ff.

والبحث المنشور في *IRAQ*.

وهناك رأي آخر في تفسير تلك العادة الغريبة من الدفن يربطها بما كان يمارس في فترة ما من عصر فجر السلالات من شعائر الزواج المقدس أو الزواج الإلهي (Hieros gamos)، حيث كان يختار بموجبها الملك أو الحاكم أو الكاهن الأعلى ليمثل إله الخصب «تموز»، وتختار الملكة أو الكاهنة العليا لتمثل الإلهة «أنانا» (عشتار) ويقومان بشعائر الزواج الإلهي في بدء السنة الجديدة لإحلال الخصب والخير، ثم كان يُسمَّان مع أتباعهما ويدفنان في احتفال ديني، بموجب عقيدة القوم بأن الإله «تموز» كان يموت ويبقى رهينة في العالم الأسفل طوال نصف العام، ثم يقوم من عالم الأموات في النصف الثاني بعد أن تقوم مقامه أخته المسماة «گشتن ـ أنا» (Geshtin anna) رهينة في ذلك العالم[1]. ويضيف الباحثون إلى هذا أن عادة التضحية هذه لم تستمر ممارستها في حضارة وادي الرافدين في العصور التالية، واستبعدوا أن تكون عادة أدخلها إلى بلاد ما بين النهرين قوم فاتحون غرباء في فترة ما من ذلك العصر، ذلك لأن أسماء الملوك التي كشف عنها في مقبرة «أور» أسماء سومرية مألوفة.

وفي ختام هذه الملاحظات الموجزة عن تفسير المقبرة الملكية في أور يجدر أن ننوّه بأن علائم ضعيفة وجدت في قبور كيش على ممارسة عادة التضحية البشرية في عصر فجر السلالات. وباستثناء ذلك لم يعثر على ما يضاهي هذه القبور من غير مدينة «أور». ولا يستبعد أن يكون تفسير ذلك يعزى إلى صدفة الاكتشافات كما بينا وأن معظم القبور الملكية من هذا النوع المحتمل وجودها في المواقع الأخرى التي جرى التنقيب فيها قد نهب وأزيلت معالمه في العصور التأريخية القديمة. أما من خارج حضارة وادي الرافدين فقد سجلت عادة دفن الأتباع مع الملوك والحكام والأمراء في زمن الأسرة الأولى من ملوك مصر (في حدود 3100 ـ 3000ق.م)، وسجلت أيضاً في العصور

---

(1) راجع إيجاز مثل هذه الآراء في:

Saggs, *The Greatness That was Babylon*, (1962), 378ff.

التأريخية المتأخرة عند قبائل «الأشكوزيين» أو «السكيثيين» وعند مغول «أسام»، والكومان (Comans) في جنوبي روسية في عصر متأخر (القرن الثالث عشر الميلادي)[1].

بقايا عصر السلالات في الأجزاء الشمالية من العراق:

إن معرفتنا بحضارة عصر فجر السلالات، من الناحية السياسية والحضارية، ناقصة قليلة بالنسبة إلى بلاد آشور، ووادي دجلة بوجه عام، وكذلك وادي الفرات الأعلى، ولكنها تزداد وضوحاً في عصر فجر السلالات الثالث.

لقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في مدينة «آشور»، أن هذه المدينة الآشورية، التي كانت أقدم المراكز أو العواصم الآشورية وظلت مدينة مقدسة في جميع أدوار التأريخ الآشوري، قد أسست في عصر فجر السلالات على مرتفع طبيعي يطل على دجلة، وقد كشفت هذه التنقيبات، بالإضافة إلى آثار العصور التأريخية المختلفة، عن بقايا معبد مهم شيد لعبادة الإلهة «عشتار» في عصر فجر السلالات، وقد سجل لهذا المعبد دوران رئيسيان، أقدمهما دور التأسيس (المعبد المسجل بحرف H في التنقيبات) حيث شيد على الأرض الحجرية الطبيعية (الأرض البكر)، ثم شيد فوقه المعبد الثاني وفق المخطط نفسه (معبد G). ويشير الفخار الذي وجد في المعبد إلى أنه استمر في الاستعمال في الطور الثاني وأوائل الطور الثالث من عصر فجر السلالات. ووجدت في المعبد أيضاً قطع من المنحوتات على الطراز السومري، مما يشير إلى ازدهار الحضارة السومرية في آشور في ذلك العصر، سواء كان السكان

---

(1) للاستزادة من الآراء التي قيلت في تفسير مقبرة «أور» الملكية انظر: مجلة (IRAQ)، المجلد 22 (1960) المخصص لذكرى منقب أور المرحوم «وولي»، وفيه عدة بحوث عن هذا الموضوع وعما يتعلق بتحريات «أور» بوجه عام.

من السومريين المهاجرين من الجنوب أم من الآشوريين والسوباريين المقتبسين لتلك الحضارة.

وفي الموضع الأثري المسمى «نوزي» من منطقة كركوك (يورغان تبه على بعد نحو (13) كم غرب كركوك) وجدت بقايا أثرية من دور جمدة نصر. أما بقايا عصر فجر السلالات فلم يعثر عليها في هذه المنطقة، بل نجد المدينة تظهر في العصر الآكدي التالي باسم «گاسُر» (Gasur)، ولكن أظهر المسح الأثري للتلول الكائنة في هذه المنطقة وجود ملتقطات سطحية كثيرة من فخار عصر فجر السلالات، والفخار المسمى «فخار نينوى» الطبقة الخامسة، المعاصر للطورين الأول والثاني من عصر فجر السلالات. كما وجدت آثار سومرية في مدينة «نينوى» التي سمي باسمها هذا النوع من الفخار، ووجدت طبعات أختام إسطوانية من عصر فجر السلالات الثالث. والجدير بالملاحظة بهذا الصدد أن اسم نينوى (Ninua) نفسها اسم سومري وهو الاسم نفسه الذي كانت تسمى به إحدى مدن دولة لجش في بلاد سومر، أي مدينة «نينا» (Nina) التي تعرف بقاياها الآن باسم «سُرغل» في منطقة لجش.

ولعل أبرز ما يميز الطبقات الأثرية من عصر فجر السلالات الأول والثاني في بلاد آشور نوع من الفخار مصنوع بدولاب الخزاف وهو مصبوغ ومزين بالحزوز، وأشهر أوانيه الإناء الذي يسمى إناء الفاكهة أو حامل الفاكهة (Fruit stand).

مدينة ماري (تل الحريري):

ازدهرت المدينة المسماة «ماري» في عصر فجر السلالات وتعتبر من هذه الناحية من المواضع الأثرية المهمة التي وجدت فيها الآثار المميزة لهذا العصر. وتعرف بقاياها الآن باسم تل الحريري على بعد نحو 11كم شمال غربي بلدة البوكمال، عند الحدود العراقية السورية، وعلى بعد 1/2 2كم غربي نهر الفرات. وتشغل هذه الأطلال مساحة تناهز (100) ايكر (أي نحو 400000 متر مربع).

إن أبرز البقايا التي أظهرتها التنقيبات في هذه المدينة من عصر فجر السلالات، الأدوار المعمارية التي سجلت للمعبد الذي شيد لعبادة الإلهة الشهيرة «عشتار». فقد سجلت لهذا المعبد ستة أدوار بنائية قدرت لها مدة ستة قرون تمثل أطوار هذا العصر الثلاثة، وكان آخرها المعبد الذي يرقى في زمنه إلى الطور الأخير من عصر فجر السلالات الثالث، أي زمن سلالة أور الأولى، وسلالة لجش بوجه التقريب[1]. ووجد في المعبد من هذا الدور تمثال يعود إلى أحد ملوك ماري ورد اسمه منقوشاً بهيئة «لمگي ـ ماري» (Lamgi-mari) وقد لقب نفسه حاكم الإله «أنليل»، كما وجد تمثال آخر لأحد كبار الموظفين أو الحكام اسمه «ابخ ـ أيل» (Ebikh-il).

والجدير بالملاحظة عن هذين الاسمين أنهما اسمانساميان مما يدل على أن منطقة ماري كانت منذ أقدم عصور التأريخ قد استوطنها الساميون الذين اقتبسوا الحضارة السومرية، كما يجدر التنويه بأن فن النحت في ماري من عصر فجر السلالات يضاهي طراز منحوتات منطقة ديالى وأور وكيش من العصر نفسه. وقد بلغ هذا المعبد في الطور الأخير من عصر فجر السلالات غاية التطور والازدهار، كما تشير إلى ذلك الآثار الجميلة التي وجدت فيه، من بينها قطع فنية مطعمة بالصدف وفصوص من الأحجار الجميلة، مما يشبه «راية أور» التي وجدت في المقبرة الملكية كما ذكرنا من قبل. ويبدو أن هذه القطع كانت تؤلف مشهداً من عدة أفاريز، يمثل أحد ملوك ماري وجيشه وعرباته وأسرى الحرب ووليمة الاحتفال بالنصر. وانتهى المعبد من جراء ما أصابه من التدمير والحريق التي سجلت آثارها الواضحة فيه، ولا يعلم اسم الفاتح الذي سبب هذا التدمير. على أن الأستاذ «پارو» الذي نقب في ماري يرى أن هذا الغازي كان «اياناتُم»، ملك دولة لجش الذي سنتكلم عنه، ولكن

---

(1) حول خلاصة التحريات في «ماري» انظر:

W. Parrot, *AM*, I, II, (1946-1953).

وكذلك مجلة SYRIA، ولا سيما المجلدات 1962 و1963.

يرجح كذلك أن يكون سرجون الآكدي، وكلا الملكين غزا المناطق العليا من الفرات.

وختاماً لهذه الملاحظات عن مدينة ماري يجدر أن نذكر أن معبدين آخرين كشفت عنهما التنقيبات في هذه المدينة، خصص أحدهما لعبادة الإلهة «نن - خرساگ» التي مر بنا ذكر معبدها في تل العبيد وفي أور. وخصص المعبد الثاني لعبادة آلهة ورد اسمها بهيئة «نني - زازا» (Ninni-zaza)[1] وقد وجد في داخله قائم حجري مخروطي الشكل، مما يضاهي الأنصاب السامية الغربية التي تعرف باسم «بيت - أيل»، ووجد أيضاً معبد خصص لعبادة الإله «شمش». أما قصر المدينة الشهير فهو يعود إلى ملوك المدينة في العصر البابلي القديم، وسترد الإشارة إليه في كلامنا على هذا العهد في أحد الفصول الآتية. وخصصت أثبات الملوك السومرية لمدينة «ماري» سلالة حاكمة من بين السلالات التي حكمت من بعد الطوفان، كما سنشرح ذلك في القسم الثاني من هذا الفصل.

والإضافة إلى ماري أجريت التحريات الأثرية في جملة أماكن أخرى في جهات ما بين النهرين العليا، كشف فيها من بين ما كشف عن آثار عصر فجر السلالات، نذكر منها الموضع الأثري المسمى «جغار بازار» (على بعد نحو 35ميلاً جنوب غربي القامشلي بالقرب من الحدود السورية التركية)، وكان هذا الموضع أحد المستوطنات الكثيرة على طوال وادي دجلة الأعلى وتتصل ببلاد آشور عن طريق القوافل عبر جبل سنجار. وأظهرت التنقيبات فيه[2] خمس عشرة طبقة أثرية، تمثل الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة عصر فجر السلالات، ولا سيما القبور التي وجدت في الطبقتين الخامسة والرابعة حيث

---

(1) حول هذين المعبدين انظر:

A. Parrot, *Les Temples D'Ishtar et de Ninni-Zaza*, (1967).

(2) انظر:

Mallowan, «Excavations at Brak and Chagar Bazar», in *IRAQ*, 3, (1936); *IBID*. 9, (1947).

وجد فخار نينوى المعروف باسم «نينوى الطبقة الخامسة». ووجد من الطور الثالث من هذا العصر خنجر من الحديد ليس من أصل سماوي (من النيازك)، وهو يضاهي ما وجد في تل أسمر من منطقة ديالى. ونذكر أيضاً تل «براك» الذي يقع على بعد نحو 20 ميلاً جنوب شرقي «جغار بازار» السالف الذكر، وأظهرت التنقيبات التي أجريت فيه[1] ازدهار هذا الموضع في عصر فجر السلالات، وفي دور جمدة نصر السابق له، حيث وجدت فيه المعابد الخاصة التي سميناها «معابد العين» (Eye temple). وبالنظر إلى أهمية هذا الموضع في العصور القديمة لوقوعه على طرق القوافل ما بين العراق وبلاد الشام وموانئ البحر المتوسط فقد ظل مزدهراً في العصور التي تلت عصر فجر السلالات، يدل على ذلك القصر أو الحصن الفخم الذي شيده فيه الملك الآكدي الشهير «نرام - سين»، حفيد سرجون.

ثانياً: أحوال العراق السياسية في عصر السلالات:

يتضح من الأمثلة التي أوردناها على أشهر المواضع الأثرية التي كشفت التحريات فيها عن بقايا عصر فجر السلالات ازدهار العمران واتساع مراكز هذا العمران ممثلاً بتعاظم المدن واتساعها وتكاثرها منذ العصر الشبيه بالكتابي وصيرورتها مدناً معظمة في عصر فجر السلالات ومراكز لحكم سلالات مهمة، وأصبح للكثير من هذه المدن أسوار. وازدهرت الزراعة واتسعت التجارة الخارجية وأقيم جهاز منظم وواسع للري. وسنرى مما سنورده عن أخبار هذه المدن كيف أن كلاً منها صار في هذا العصر الذي نتكلم عنه مركزاً سياسياً واقتصادياً ودينياً يضم مدناً أخرى وقرى ومزارع، وهو الذي اصطلح

---

(1) انظر المراجع الأساسية التالية عن أثبات الملوك السومرية:

1. Th. Jacobsen, *The Sumerian King-List*, (1939).

2. Kramer, *The Sumerians*, (1963), 328ff.

3. Rowton, in *JNES*, XIX, (1960), 156ff.

4. *ANET*, (1955).

على تسميته «دولة المدينة» (Citystate). فإن أهم ما كان يميز هذا العصر من الناحية السياسية أن القطر كان مجزءاً إلى عدة دول مدن مستقلة ومنفصلة بعضها عن بعض، وكانت على الغالب في نزاع وحروب للاستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر مياه الري. وإن تضارب مصالح هذه الدويلات وما كان يتطلبه تنظيم شؤون الري والإدارة والتجارة الخارجية التي كانت العماد الثاني لازدهار حضارة وادي الرافدين من بعد الزراعة ـ كل هذه العوامل كانت تعمل على تغلب الاتجاه الثاني المعاكس، ونعني به ضرورة قيام وحدة سياسية أكبر من دولة المدينة، تضم تحت سلطتها السهل الرسوبي كله، أي دولة القطر الموحدة. وقبل أن يحقق «لوگال زاگيزي»، آخر حكام عصر فجر السلالات ومن بعده سرجون الآكدي هذا الاتجاه التأريخي الثاني كان يحدث بين الحين والحين أن ينجح أحد حكام تلك الدويلات فيضم أكثر من دولة مدينة إلى سلطته ودولة مدينته ويبسط سلطانه على جميع بلاد سومر وآكد، كما فعل بعض أوائل الملوك مثل «ميسلم»، و«ميسانيبدا»، مؤسس سلالة أور الأولى، و«ايواناتم»، حاكم دولة لجش. وجرى العرف السياسي أن مثل هذا الحاكم الذي ينجح في مد سلطانه إلى المدن الأخرى كان يتخذ لقباً سياسياً هو ملك «كيش» ولقب «الملك». وتطور مدلول ملك «كيش» في العصور التأريخية التالية إلى معنى «ملك العالم» (وبالآكدية «شار كشتى») والمرجح أن «ميسلم» كان أول من استعمل هذا اللقب.

وسنحاول في الصفحات التالية إيجاز ما نعرفه عن أخبار دول المدن الكثيرة التي قامت في عصر فجر السلالات، بعضها في الأطوار الأولى منه، ولكن أغلبها من الطورين الثاني والثالث. وأول ما نذكر من الحقائق التأريخية الخاصة بالموضوع أن مصادرنا الكتابية أي النصوص المدونة عن حكام هذه الدويلات هي من القلة بحيث لا تتناسب وطول هذه الحقبة التأريخية. فباستثناء الوثيقة التأريخية المهمة التي أشرنا إليها مراراً باسم «أثبات الملوك السومرية» والتي سنورد ترجمة لها بعد قليل، لم يصل إلينا شيء مدون من الطورين الأول والثاني من عصر فجر السلالات. أما الطور الثالث منه فقد

جاءت منه بضعة نصوص قصيرة لا يتعدى البعض منها أسطراً قليلة مثل الكتابات المختومة على الآجر ومخاريط الطين. ولكن يعوض عن هذا النقص في مصادرنا ما وصل إلينا من النصوص المتنوعة العائدة إلى حكام دولة لجش، وهي تعد غزيرة بالمقارنة مع ما جاءنا من دويلات المدن الأخرى، يضاف إلى ذلك نصوص متأخرة العهد استفيد منها في إيضاح بعض الجوانب المهمة عن الحياة السياسية في هذا العصر، نخص بالذكر منها الكتابة المعروفة باسم نص «تُمال» (Tummal inscription) الخاص بتجديد معبد الإلهة «ننليل» في نفر من جانب الملوك السومريين عاش البعض منهم في عصر فجر السلالات، ثم طائفة من النصوص المتأخرة الخاصة بتنبؤات الفأل حيث وردت فيها إشارات إلى بعض أولئك الملوك والحكام.

أثبات الملوك السومرية:

سبق أن عرفنا هذه الوثيقة التأريخية المهمة في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات، فنقتصر هنا على إعادة أهم النقاط المتعلقة بها، وأولاها أن زمن جمعها أو تأليفها يرجع على ما يرجح كثيراً إلى زمن سلالة «أور» الثالثة أو لعله قبيل ذلك ولا سيما الفترة القصيرة التي حكم فيها «أوتو ـ حيگال» الذي اشتهر بطرد الكوتيين كما سيمر بنا في الفصول الآتية. ولكن آخر نسخة منها تعود إلى عهد سلالة «ايسن» (2017 ـ 1794ق.م) التي تلت سلالة أور في الحكم، حيث تنتهي جداول الملوك هذه بآخر ملوك هذه السلالة، وتبدأ في تعداد السلالات الحاكمة من أزمان ما قبل الطوفان، وقد عنونها جامعوها بعنوان «الملوكية» (وبالسومرية) (Nam-lugal). ومن ناحية لزوم تطبيق منهج النقد التأريخي العلمي عليها، شأنها في ذلك شأن أي مصدر تأريخي، يجدر أن ننبه إلى الجوانب التي ينبغي الالتفات إليها مثل المبالغة في أرقام السنين المخصصة لحكم الملوك فيها ولا سيما ملوك السلالات القديمة التي أعقبت «الطوفان»، كما أن الكثير من السلالات التي ذكرت وكأنها متعاقبة في الحكم كانت في الواقع متعاصرة جزئياً أو كلياً، ولأسباب غير معروفة على وجه

التأكيد أغفلت ذكر بعض السلالات والملوك ممن نعرف من مصادر أخرى أنهم حكموا في عصر فجر السلالات، مثل سلالة لجش الشهيرة.

وعلى الرغم من هذه الشوائب وغيرها تعد هذه الأثبات على قدر كبير من الأهمية على أنها مصدر أساسي من مصادر معرفتنا بعصر فجر السلالات. وقبل أن نتكلم عن السلالات الواردة فيها كلاً على جدة يحسن أن نورد ترجمتها[1] لتكون أساساً لمناقشتنا:

ترجمة أثبات الملوك:

هبطت الملوكية من السماء فكانت «أريدو» مركز الملوكية. وحكم في أريدو «ألولم» (Alulim) ملكاً (مدة) 28,000عام. وحكم «ألگار» (Alagar) 36,000عام. المجموع: ملكان حكما 64,000عام.

تركت «أريدو» وانتقلت ملوكيتها إلى «باد ـ تبيرا» (Bad-tibira). في «باد ـ تبيرا» حكم «أينمنلو ـ أنّا» (Enmenlu anna) 43,000 عام، ثم حكم «اينمنگال ـ أنّا» (Enmengal anna) 28,000عام. وحكم «دموزي» (تموز) الراعي 36,000عام. و(المجموع) ثلاثة ملوك حكموا 180,000عام.

تركت «باد ـ تبيرا»، وانتقلت ملوكيتها إلى «لرك» (Larak). في «لرك» حكم «اينسيبازيانّا» (Ensipzianna) 28,000عام. (المجموع) ملك واحد حكم 28,000عام.

تركت «لرك» وانتقلت ملوكيتها إلى سپار. في سپار حكم «أينميدر ـ أنّا» (Enmedur anna) 21,000عام. ملك واحد حكم 21,000عام.

---

(1) انظر المراجع الأساسية التالية عن أثبات الملوك السومرية:

1. Th. Jacobsen, *The Sumerian King-List*, (1939).
2. Kramer, *The Sumerians*, (1963), 328ff.
3. Rowton, in *JNES*, XIX, (1960), 156ff.
4. *ANET*, (1955).

تركت «سپار» وانتقلت ملوكيتها إلى «شروباك» (Shuruppak). في شروپاك حكم «أوبار ـ توتو» (Ubar-tutu) 18,000عام. (المجموع) خمس مدن وثمانية ملوك حكموا 241,000عام.

ثم جاء الطوفان (وجرف البلاد). وبعد الطوفان هبطت الملوكية (مرة ثانية) وحلت في كيش. وصارت كيش مركز الملوكية.

وحكم في كيش:

1 ـ گاور (Gaur) 1200عام.

2 ـ گُلا ـ ندابا ـ أنَّا پاد[1] 960.

3 ـ پالاكماتم (Palakimatiom) 900.

4 ـ منگشلشما (Mangishlishma) . . . .

5 ـ باهينا (Bahina) . . . .

6 ـ پو ـ آنم (Buanum) أو «سريمم» (Sirrimum) 840.

7 ـ كلبم (Kalbum) 960.

8 ـ قلومم (Qalumum) 840.

9 ـ زقاقپم (Zuqaqipum) أو «زقاقب» 900.

10 ـ أتاب (Atab) 600.

11 ـ «مشدا»، بن «أتاب» 840.

---

(1) من المحتمل جداً أن «كلا ـ ندابا ـ أنَّابادا» أو في قراءة أخرى «گلا ـ ندابا ـ سكل» ليس اسم ملك بل عبارة أضافها أحد نُساخ هذه الأثبات وتعني بالسومرية، «مخروم أو مكسور والعلم عند ندابا» و«ندابا» آلهة الكتابة والقلم. أي إن اسم الملك الثاني من ملوك سلالة كيش ساقط من لوح الطين الذي استنسخ منه فأضاف هذه العبارة الطريفة المضاهية لقولنا «واللّٰه أعلم».

12 ـ أرويئم (Arwium) بن «مشدا» 720.

13 ـ ايتانا (Etana) الراعي، الذي عرج إلى السماء، ووطد جميع البلاد 1560.

14 ـ باليخ (Balikh) ابن «ايتانا»، 400.

15 ـ اينمينا (Enmenunna) 660.

16 ـ «ميلام ـ كيش» (Melam-kish) ابن «اينمينا» 900.

17 ـ برسالننا (Barsal nunna)، ابن اينميننا 1200.

18 ـ «ميسى ـ زامگ» (Meszamug) ابن برسالننا 140.

19 ـ تزكار (Tizkar) ابن «ميس زامگ» 305.

20 ـ الكو (Ilku) 900.

21 ـ التسادم (Iltasadum) 1200.

22 ـ اينميبراگيسي (Enmebaragesi)، حطم جيوش عيلام، 900.

23 ـ أگا (Agga) ابن «اينميبراكيسي»، 625.

المجموع 23 ملكاً، حكموا 240510 سنة و3 أشهر و3 أيام ونصف اليوم.

دحرت كيش (في الحرب) ونقلت ملوكيتها إلى «أي ـ أنّا»[1] وحكم في «أي ـ أنّا»:

---

(1) كانت مدينة الوركاء في الأطوار الأولى من عصر فجر السلالات مؤلفة من قسمين، يسمى أحدهما «أي ـ أنّا» نسبة إلى حارة المعابد المقدسة، ولا سيما معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) والإله «آنو» ثم «كلاب» وقد ورد كلا هذين القسمين في ملحمة جلجامش. والترجمة الحرفية لعبارة «دحرت»: ضربت بالسيف أو بحدّ السلاح.

1 ـ ميسكيگاشر (Meskiggasher) ابن «أوتو»[1] بصفته «أين»[2] وبصفته ملكاً، 324 ذهب «مسكيگاشر» إلى البحر وارتقى الجبال.

2 ـ «أينمركار»، ابن «مسكيگاشر»، ملك «أوروك»، الذي شيد «أوروك». حكم 420 عاماً.

3 ـ لوگال بندا، الراعي، 1200 عام.

4 ـ «دموزي» (Dimuzi)، صائد السمك، الذي كان أصله من مدينة «كوآ»، حكم 100 عام.

5 ـ جلجامش، ابن لُلا (Lulla)[3]، 126 عام.

6 ـ «أور ـ ننگال» (Ur-nungal)، ابن جلجامش، 30 عاماً.

7 ـ أودل ـ كلامّا (Udulkalamma)، ابن «أور ـ ننگال»، حكم 15 عاماً.

---

(1) «أوتو»، هو الاسم السومري للإله شمش. ولقب «أين»، كما سيأتي شرحه في موضع آخر، كان في الأطوار القديمة من عصر فجر السلالات والعصر الشبيه بالكتابي ذا صفة مزدوجة، فكان الكاهن الأعلى للمعبد والحاكم في الوقت نفسه قبل أن تتميز هاتان الوظيفتان بعضهما عن بعض في العصور التالية. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أن معظم الحكام أو الملوك اللذين وردت أسماؤهم في أثبات الملوك مسبوقة بالمقطع «أين» (En) يرجح أن ذلك لقباً وليس جزءاً من الاسم.

(2) «أوتو»، هو الاسم السومري للإله شمش. ولقب «أين»، كما سيأتي شرحه في موضع آخر، كان في الأطوار القديمة من عصر فجر السلالات والعصر الشبيه بالكتابي ذا صفة مزدوجة، فكان الكاهن الأعلى للمعبد والحاكم في الوقت نفسه قبل أن تتميز هاتان الوظيفتان بعضهما عن بعض في العصور التالية. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أن معظم الحكام أو الملوك اللذين وردت أسماؤهم في أثبات الملوك مسبوقة بالمقطع «أين» (En) يرجح أن ذلك لقباً وليس جزءاً من الاسم.

(3) في ترجمة الأستاذ كرامر لأثبات الملوك ترد من بعد اسم جلجامش عبارة «أبوه كان بدوياً» مع الاستفهام (Kramer, *The Sumerians*, 1963, 328ff.).

8 ـ لباشر (Labasher) حكم 9 أعوام.

9 ـ اين ـ نندار ـ أنّا (Ennundarnna) حكم 8 أعوام.

10 ـ مشيدي (Meshede) حكم 36 عاماً.

11 ـ ميلام ـ أنّا (Melamanna) حكم 6 أعوام.

12 ـ لوگال ـ كيدو (Lugalkidu) حكم 36 عاماً.

المجموع 12 ملكاً حكموا 2310 أعوام.

دحرت أوروك في الحرب ونقلت ملوكيتها إلى «أور» وفي «أور» حكم:

1 ـ ميسانيبدا (Mesannepadda) 80 عاماً.

2 ـ ميسكياگنّنّا (Mesdkiagnunna)[1] ابن ميسانيبدا 36 عاماً.

3 ـ ايلولو (Elulu) 25 عاماً.

4 ـ بالولو (Balulu) 36 عاماً.

المجموع أربعة ملوك حكموا 177 عاماً. دحرت «أور» ونقلت ملوكيتها إلى «أوان» وفي أوان حكم ثلاثة ملوك 356 عاماً[2]. دحرت «أوان»، ونقلت ملوكيتها إلى كيش، وفي كيش حكم:

1 ـ .... (210) سنة.

2 ـ داداسِگ (Dadasig).......

3 ـ ماماگال (Mamagal) 420.

4 ـ كلبُم ابن «ماماگال»، 132.

---

(1) المعروف من المصادر المدونة الأخرى أن ابن «ميسانيبدا» الذي خلفه في الحكم كان «آنيبدا»، ولعل مسكياگننا كان الابن الأكبر.

(2) أسماء هؤلاء الملوك مشوهة لا يمكن قراءتها.

5 ـ توگي (Tuge) 360.

6 ـ مينُنَّا (Menunna) 180.

7 ـ لوگال مو (Lugalmu) 420.

8 ـ ابي ـ أيا (Ibbi-Ea) 290 (؟).

المجموع 8 ملوك، حكموا 3195 عاماً.

دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى «حمازي» أو (خمازي)، وحكم في حمازي «هدانش» (Hadanish). المجموع، ملك واحد، حكم 360سنة. دحرت حمازي ونقلت ملوكيتها إلى «أوروك». وفي أوروك حكم:

1 ـ .... 60.

2 ـ لوگال أوري (Lugalure) 120.

3 ـ أرگنديا (Argndea) 7.

المجموع ثلاثة ملوك ...... دحرت أوروك ونقلت ملوكيتها إلى «أور»...... ثلاثة ملوك حكموا 116 عاماً[1]. دحرت أور ونقلت ملوكيتها إلى «أدب»، وفيها حكم «لوگال آنيموندو» (Lugalannemundu) 90 عاماً. دحرت أدب ونقلت ملوكيتها إلى ماري وفيها حكم:

1 ـ ايلشو (Ilshu) 30.

2 ـ .... ابن «ايلشو» 17.

3 ـ .... 30.

4 ـ .... 20.

5 ـ .... 30.

---

(1) أسماء هؤلاء الملوك مخرومة. وهذه هي سلالة أور الثانية.

9 ـ . . . . . . 9.

المجموع 6 ملوك حكموا 136 سنة. دحرت ماري، ونقلت ملوكيتها إلى كيش. وفي كيش حكمت «كوباو» (كوبابا) صاحبة الحانة 100 سنة، وقد عملت على توطيد أسس كيش. ملكة واحدة حكمت 100 سنة. دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى «أكشك» (Akshak). وفي أكشك حكم:

1 ـ أونزي (Unzi) 30 سنة.

2 ـ أوندالولو (Undalulu) 12.

3 ـ أورورو[1] (Ururu) 6.

4 ـ بوزر ـ نيراب (Puzur-nirab) 20.

5 ـ ايشو ـ ايل (Ishu-il) 24.

6 ـ شو ـ سين (Shu-sin) ابن «ايشو ـ ايل» 7.

المجموع ستة ملوك حكموا 99 سنة. دحرت «أكشك»، ونقلت ملوكيتها إلى كيش، وفي كيش حكم:

1 ـ بوزر ـ سين (Puzuz-Sin)، ابن «كوباو» (كوبابا)، 25.

2 ـ أور ـ زبابا (Ur-Zababa)، ابن «بوزر ـ سين» 40.

3 ـ سيمو درا (Simudarra) 30.

4 ـ أوسيواتر (Usiwater) ابن «سيموادرا»، 7.

5 ـ عشتار ـ موتى (Ishtar-muti) 11.

6 ـ يشمع ـ شمش (Ishme-Shamash) 11.

7 ـ نانيَّا (Nannia)، ناحت الأحجار 7.

---

(1) لعله القراءة الصحيحة «زوزو».

المجموع سبعة ملوك حكموا 491 سنة. دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى «أوروك»، حكم في «أوروك» «لوگال زاكيزي» (Lugalzagesi) 25 عاماً. دحرت أوروك ونقلت ملوكيتها إلى «آگد» (اگادة Agade) وفيها حكم:

1 ـ سرجون (Sharru-kin). كان أبوه بستانياً. وصار ساقياً للملك «أور ـ زبابا». شيّد «أگاده»، وحكم 56 سنة.

2 ـ رموش (Rimush)، ابن سرجون، 9.

3 ـ مانشتوسو (Manishtusu) أخو رموش الأكبر، وابن سرجون، حكم 15 سنة.

4 ـ نرام ـ سين (Naram-Sin)، ابن مانشتوسو، 56.

5 ـ شار كالي شري (Sharkalisharri)، ابن نرام ـ سين25.

«من كان الملك ومن كان غير الملك؟».

6 ـ ايكيكي (Igigi).

7 ـ نانم (Nanum).

8 ـ ايمي (Imi).

9ـ ايلولو (Elulu). أربعتهم كانوا ملوكاً ولكن حكموا 3 سنوات.

10 ـ دودو (Dudu) 21.

11 ـ شو ـ دورول (Shudurul)، ابن «دودو» 15.

المجموع 11 ملكاً حكموا 197 سنة. دحرت أگاده ونقلت ملوكيتها إلى «أوروك» وفيها حكم:

1 ـ أور ـ نگن (Urnigin) 7.

2 ـ أور ـ گيگر (Urgigir)، ابن أور ـ نگن 6.

3 ـ كُدا (Kudda) 6.

4 ـ بوزر ـ ايلي (Puzur-ili) 5.

5 ـ أور ـ أوتو (Ur-utu) 6.

المجموع خمسة ملوك حكموا 30 سنة. دحرتِ «أوروك»، ونقلت ملوكيتها إلى جموع الكوتيين:

1 ـ امتا 3.

2 ـ انكيشيد 6.

3 ـ سر ـ لگاب 6.

4 ـ شُلمي 6.

5 ـ ايلولومش 6.

6 ـ أينميباكش 5.

7 ـ ايگيشوش 6.

8 ـ . . . . . . 2.

9 ـ ارارم 2.

10 ـ خبلم 2.

11 ـ بوز ـ سين ابن خبلم 7.

12 ـ ايار ـ لگب 7.

المجموع 12 ملكاً، حكموا 91 سنة. دحر الكوتيون ونقلت ملوكيتهم إلى أوروك. وفي أوروك حكم «أوتو ـ حيگال» (Utu-khegal) 7 سنوات و6 أشهر و15 يوماً.

دحرت «أوروك» ونقلت ملوكيتها إلى «أور».

ثم يبدأ حكم سلالة أور الثالثة وملوكها ويعقبها سلالة «ايسن» حيث تنتهي أثبات الملوك بنهاية ملوك هذه السلالة. حول أسماء ملوك هاتين السلالتين انظر الجداول الملحقة بالفصل الخاص بالعصر البابلي القديم.

نص «تمّال»:

سبق أن ذكرنا أن ما يعرف باسم نص تمال (Tummal inscription) يعد من بين المصادر الكتابية المهمة لمعرفتنا بعدد من حكام عصر فجر السلالات وأزمان حكم بعضهم بالنسبة إلى البعض الآخر. وقد دون هذا النص على لوح من الطين وجدت منه نسخة في نفر من العصر البابلي القديم (مطلع الألف الثاني ق.م)، وهو يسجل أسماء الحكام أو الملوك الذين قاموا بتجديد المعبد المسمى «تمال» أو المعبد الواقع في حارة تمال المقدسة في نفر، وقد خصص للإلهة «ننليل»، زوجة الإله «أنليل»[1]:

الأسطر:

1 ـ 3: «اينميراگيسي»، الملك، شيد في مدينة نفر بيت أنليل.

3 ـ 5: «أگا ابن اينميبراكيسي» أعلى شأن «تمال»، وجلب (الإلهة) ننليل إليه.

6 ـ 7: «ثم تخرب تمال لأول مرة، فشيد «ميسانيبدا» «برشوشا» العائد إلى معبد أنليل».

---

(1) يتألف النص المعروف بكتابة «تمال» من نحو 34 سطراً، وكانت الأسطر العشرة الأولى مفقودة ولكنها اكتشفت في عام 1955. أما النص الناقص فقد كان معروفاً وقد نشره الباحث المشهور «بوبل» (Poebel) في كتابه المعنون: نصوص تأريخية (Historical Texts)، وهو المجلد الرابع من نشرات جامعة بنسلفانية الأمريكية. ونشر النص حديثاً، انظر:

Sollberger, «The Tummal Inscription» in *JCS*, (1962).

Kramer, *The Sumerians*, (1963), 46ff.

8 ـ 10: «مسكياگننا، ابن «ميسانيبدا» أعلى شأن «تمال» وجلب ننليل إليه».

11 ـ 12: «تخرب تمال للمرة الثانية، فشيد جلجامش» نومنبرا (Numun-burra) العائد إلى معبد «أنليل».

13 ـ 15: «أور ـ لوگال، ابن جلجامش أعلى شأن تمال وجلب ننليل إليه».

19 ـ 17: «وللمرة الثالثة تخرب «تمال»، فعمر نانًّا (Nanna) البستان المقدسة العائدة إلى معبد أنليل».

18 ـ 20: «مسكياگننا» ابن «نانا» أعلى شأن «تمال» وجلب إليه ننليل.

21 ـ 25: «وللمرة الرابعة تخرب «تمال» فشيد «أور ـ نمو» معبد «أي ـ گور»، وشولگي ابن أور ـ نمو أعلى شأن تمال وجلب ننليل إليه».

26 ـ 34: «وللمرة الخامسة تخرب «تمال» في السنة التي حكم «أمار ـ سين» إلى حكم «ابي ـ سين». اينام گال أنَّا بصفته «أين» En للإلهة أنانا في أوروك، جلب ننليل إلى تمال. وبحسب قول «لو ـ أنانًّا» الكاهن الأعلى (Ashgab-gal) للإله «أنليل»، شيد «اشبي ـ ايرا» مخزن معبد الإله «أنليل» المسمى «أي ـ كورا ـ ايكيكلا» (Ekurraigigalla)».

السلالات الحاكمة في عصر السلالات:

بعد أن أوردنا ترجمة أثبات الملوك السومرية ونص «تُمَّال» نوجز ما نعرفه عن دول المدن وحكامها في عصر فجر السلالات على ضوء هذين النصين والنصوص المعاصرة القليلة التي وصلت إلينا من هذا العصر:

ملوك ما قبل الطوفان وحقيقة هذا الطوفان:

لعل أول ما يلفت النظر في أثبات الملوك السومرية أنها تبدأ بالقول إن «الملوكية هبطت من السماء» وحلت في خمس مدن بصورة متعاقبة وحكم

فيها ثمانية ملوك خصصت لعهود حكمهم أرقام عالية خارجة عن مدى الأعمار البشرية الطبيعية، تناهز ربع مليون عام (أي 241000 عام)، كما خصصت لحكم كل منهم رقماً خيالياً يذكرنا بالأعمار الطويلة المخصصة لآدم وأحفاده والأنبياء القدامى في التوراة. وإن عبارة «هبطت الملوكية من السماء» التي تبدأ بها هذه الأثبات ذات دلالة مهمة على عقيدة القوم بأصل نظام الحكم، مما سبق أن نوَّهنا به في فصل المقدمة الجغرافية وسنفصل القول فيها في كلامنا عن نظام الحكم والديانة في الجزء الثاني من كتابنا، أما الآن فنقتصر على إيجاز خلاصتها في أن الآلهة هي التي تحكم الكون والبشر، وأن نظام الحكم والملوكية وشاراتها كان عند الآلهة في السماء؛ ولكي تحكم الأرض والناس فإنها تنتدب أو تفوض نواباً عنها تصطفيهم من بين البشر ليكونوا نواباً عنها في حكم البشر. وهذه نظرية أساسية عند القوم في أصل نظام الحكم في وادي الرافدين يقف عليها الفاحص لمآثر هذه الحضارة في مختلف أوجهها ومقوماتها. ولعل أوضح تعبير عن هذه النظرية ما نجده في مقدمات الشرائع التي يتجلى فيها تسلسل التفويض الإلهي من كبار الآلهة إلى إله المدينة التي أصدر ملكها الشريعة ثم تفويض هذا الإله بدوره ملك هذه المدينة ليحكم الناس بالنيابة. كما أن جعل «أريدو» أول مركز حلّت فيه الملوكية في عهود قبل الطوفان ذو مغزى حضاري مهم. فقد سبق أن رأينا في تتبعنا لأدوار حضارة وادي الرافدين في عصور ما قبل التأريخ كيف أن أقدم معالم للاستيطان في السهل الرسوبي قد عثر على بقاياها في «أريدو»، في الدور الذي أطلق عليه دور «أريدو»، أو كما سميناه «دور العبيد الأول» في حدود منتصف الألف الخامس ق.م. ولعله يمكن الاستنتاج بهذا الصدد أن القسم الأول من أثبات الملوك قد وضع من جانب كهنة «أريدو» وكتبتها.

ثم تذكر تلك الأثبات أن الملوكية انتقلت من أريدو إلى المدينة المسماة «باد ـ تبيرا» التي أصبح تعيينها بالبقايا الأثرية المسماة «تل المدينة» من الأمور

الأكيدة تقريباً[1]؛ وخصصت أثبات الملوك لهذه المدينة ثلاثة ملوك مجموع سني حكمهم (108000) عام، آخرهم «دموزي» الملقب بالراعي، ولا يعلم هل أن «دموزي» هذا هو الإله الشهير «تموز» أو أنه إنسان كان راعياً.

انتقلت الملوكية من «باد ـ تبيرا» السالفة الذكر إلى المدينة المسماة «لرك» التي يحتمل أن بقاياها ما يسمى الآن تل الولاية[2]، ثم انتقل الحكم منها إلى مدينة «سپار»[3] الشهيرة في تأريخ حضارة وادي الرافدين، وهي من مدن بلاد آكد، ولكن الغريب في الأمر أن هذه المدينة لم يقم لها شأن سياسي بين السلالات التي حكمت من بعد الطوفان، أي في عصر فجر السلالات. وأخيراً انتقلت الملوكية إلى مدينة «شروپاك» (تل فارة الآن) وحكم فيها ملك واحد اسمه «أوبار ـ توتو». والجدير بالملاحظة أن هذا الملك ورد في خبر الطوفان بحسب رواية ملحمة جلجامش بصفته جد بطل الطوفان «أوتو ـ نبشم» أو أباه، وكان موطن هذا البطل في هذه المدينة أيضاً. وننهي هذه الملاحظات

---

(1) يقع تل المدينة بنحو 45كم شمال شرقي الوركاء وزهاء 32كم جنوب غربي بلدة الشطرة. وقد اشتهرت مدينة «باد ـ تبيرا» في عهد سلالة لجش (عصر فجر السلالات الثالث). وقد شيّد فيها معبد للإلهة «أنانا» (عشتار) عرف باسم «اي ـ مش» (è-mush) وعبد فيه قرينها الإله «دموزي» (تموز) الذي لقب لذلك بـ (Lugal è-mush). وقد يرد اسم هذا المعبد بهيئة (è-mush-kalama) حول تعيين «باد تبيرا» بتل المدينة انظر:
Vaughn Crawford in *IRAQ*, XXII (1960), 197ff.

(2) تل الولاية يقع في منطقة ناحية الحسينية (لواء الكوت) في الأراضي المسماة سابقاً أراضي أمير ربيعة. انظر مجلة «سومر»، المجلد 15، (1959)، ص 51 فما بعد.

(3) تعرف بقايا مدينة سپار باسم تل «أبو حبة» (على بعد نحو 20 ميلاً جنوب غربي بغداد) وقد سبق أن ذكرناها في أكثر من موضع واحد ولا سيما في أثناء كلامنا عن تأريخ التنقيبات، حيث كانت من المواضع التي تناولتها التحريات القديمة، مثل تحريات «هرمز رسام» عن المتحف البريطاني (1881ـ1882) والأب «شايل» (Scheil) (1894) و«أندريه» و«يوردان» (1927)، واشتهرت سپار بكونها إحدى مراكز عبادة الإله الشمس «شمش»، حيث معبده فيها المسمى «اي ـ ببار» (è-babbar) وعبدت فيه معه زوجته المسماة «آي». حول التحريات في هذه المدينة انظر: Parrot, *AM*, I, 10ff.

الموجزة عن ملوك ما قبل الطوفان في التنويه بأن تلك المدن الخمس التي خصصت لملوك ذلك العهد البعيد ورد ذكرها أيضاً في إحدى الأساطير السومرية[1] بكونها أولى مدن أسستها الآلهة من بعد خلق الإنسان، وأضيفت إليها في نص آخر متأخر لهذه الأسطورة مدينة «نفر» و«أوروك» (الوركاء) ومدينة بابل.

الطوفان:

إذا رجعنا إلى نص أثبات الملوك الذي أوردنا ترجمته وجدناه يروي أن الطوفان جرف البلاد من بعد حكم مدينة «شروباك». وهذه أول إشارة كتابية يرد فيها ذكر الطوفان، وأنه كان حدثاً بلغ من عظم الأثر والجسامة عند سكان وادي الرافدين بحيث أن جامعي أثبات السلالات ومؤلفي القصص والأساطير جعلوه حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تأريخ البلاد، عهد ما قبل الطوفان وعهد ما بعد الطوفان، أي لعله يضاهي ما تواضع عليه المؤرخون المحدثون من تقسيم التأريخ البشري العام إلى العصور القديمة والعصور الحديثة. وهنا تتوارد إلى الذهن تساؤلات كثيرة: ترى هل كان هذا الطوفان المذكور في أثبات الملوك وفي القصص والأساطير حدثاً تأريخياً واقعياً ومتى وقع؟ وهل كان طوفاناً واحداً أو عدة طوفانات تكرر حدوثها فاختير أشدها وأعنفها ليكون حداً فاصلاً بين عهدين من تأريخ البلاد؟ وهل أن الطوفان المذكور في أثبات الملوك هو نفسه الوارد في ملحمة جلجامش والقصص الأخرى المماثلة؟ ثم هل وجدت في أثناء التحريات التي أجريت في مدن العراق القديمة آثار أو إمارات على طوفان أو طوفانات؟ وهل أن هذا الطوفان الذي اشتهر في حضارة وادي الرافدين هو الطوفان المذكور في الكتب المقدسة ولا سيما التوراة؟

إن مثل هذه التساؤلات وغيرها لا يمكن الإجابة عليها إجابة واحدة

---

(1) انظر ترجمة الأسطورة في:

Kramer, *The Sumerian Mythology* (1944), p. 97.

قاطعة بل هناك عدة احتمالات قد يكون أحدها أقرب إلى الحقيقة. على أننا نستطيع أن نقول بشيء من التأكيد إن الطوفان المذكور في أثبات الملوك السومرية وفي ملحمة جلجامش وغيرها من قصص الطوفان السومرية والبابلية كان طوفاناً واحداً، وإنه كان حدثاً تأريخياً واقعياً حدث في طيات الماضي البعيد، وكان كما قلنا قد بلغ من عظم الأثر بحيث إنه جعل موضوع تلك القصص لما خلفه من آثار بليغة في ذاكرة الأجيال المتعاقبة، وإنه اختير من بين الطوفانات الكثيرة التي تعرض إليها السهل الرسوبي وما زال يتعرض إليها منذ أبعد العصور.

أما زمن هذا الطوفان ولا سيما الطوفان الوارد في أثبات الملوك وفي ملحمة جلجامش والذي رجحنا أن يكون طوفاناً واحداً فلا يمكن تحديده بالنسبة إلى الأدوار التأريخية المعروفة في حضارة وادي الرافدين، ولكننا إذا أخذنا بالافتراض القائل إن سلالة كيش الأولى التي حكمت من بعد الطوفان مباشرة يقع زمنها في عصر فجر السلالات الثاني ولا سيما الأطوار الأولى منه وإن زمن جلجامش في بداية الطور الثالث من هذا العصر فأقرب الاحتمالات أن ذلك الطوفان حدث ما بين دور جمدة نصر وبين عصر فجر السلالات الأول، ولعل من آثار هذا الطوفان ما وجد من ترسبات غرينية في جملة مواضع أثرية جرى التنقيب فيها مثل كيش والوركاء وشروباك (تل فارة) ولجش، وهي تفصل ما بين الطبقات العائدة إلى دور جمدة نصر وبين عصر فجر السلالات الأول[1]. وذهب الباحث المعروف المرحوم «وولي» (Woolley)، الذي نقب في أور، إلى أن الطوفان المأثور وقع في زمن ما من دور العبيد (في حدود 4000ق.م)، أي قبل الزمن الذي افترضناه بأكثر من ألف عام، مستنداً في رأيه هذا إلى ما وجده من آثار ترسبات غرينية في أور من دور العبيد، بلغ ثخنها زهاء (11) قدماً، وقد عثر عليها في موضع قريب

(1) حول هذه الاحتمالات وغيرها راجع أحدث الآراء في المرجع الآتي:
CAH, I, part 2, (1971), 272ff.

من المقبرة الملكية، ولكن لم يعثر على بقايا مماثلة من هذا الدور في المواضع الأخرى مثل «أريدو» القريبة من أور.

ويكاد الإجماع ينعقد بين الباحثين أن خبر الطوفان الوارد في الكتب المقدسة ولا سيما التوراة هو الطوفان الوارد في مآثر حضارة وادي الرافدين نفسه[1].

ويرى بعض الباحثين أننا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن رواية الطوفان في مآثر حضارة وادي الرافدين ولا سيما في ملحمة جلجامش وفي التوراة تجعل المصدر الرئيسي لهذا الطوفان الأمطار الجسيمة، فلعله يمكن الافتراض أن زمن ذلك الطوفان يرجع إلى عصور ما قبل التأريخ البعيدة، وعلى وجه التحديد إلى العصر الحجري القديم أو أواخر هذا العصر، أي إلى العصر الجليدي الرابع حيث كان يقابل هذا العصر، عصر ممطر في أقطار الشرق الأدنى مما أوجزناه في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ[2]. وخلاصة القول إن معرفتنا الراهنة لا تمكننا من الجزم برأي قريب من الواقع، ولعل التحريات المقبلة ستكشف لنا ما يلقي ضوءاً أكثر في سبيل حل هذه القضية.

سلالات ما بعد الطوفان:

1 ـ سلالة كيش الأولى:

بعد تلك الملاحظات التي بيناها عن سلالات ما قبل الطوفان نتابع تحليلنا لأثبات الملوك وربط ما جاء فيها عن السلالات التي حكمت من بعد

---

(1) انظر:

A. Heidel, *Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels,* (1949).

وكذلك طه باقر في مجلة سومر (1951)، والبحث المنشور في مجموعة بحوث المؤتمر السابع للمستشرقين من جماعة «ثورو دانجان» (باريس 1958) 1960 بعنوان:

M. David, *Le Recit du Déluge et L'Epopee de Gilgamesh.*

(2) انظر:

G. Roux, *Ancient Iraq,* (Pelican Book, 1966), p. 110.

الطوفان بما لدينا من المصادر التأريخية الأخرى. ونبدأ بسلالة «كيش» التي كانت أولى السلالات من بعد الطوفان بحسب تلك الأثبات، حيث تخصص لها 23 ملكاً أو 22 ملكاً إذا أسقطنا من حسابنا اسم الملك الثاني من ملوك هذه السلالة باعتبار أن هذا كما قلنا ليس اسم ملك بل عبارة سومرية تعني أن الاسم «مخروم» والعلم عند «الإلهة» ندابا. وإذا غضضنا النظر عن سني هؤلاء الملوك المبالغ في أطوالها مبالغة فوق المعقول، فإن حقائق أخرى مهمة تبدو واضحة من تحليلنا لأسماء هؤلاء الملوك. فأولاً إن مصادر مدونة أخرى سنشير إليها تثبت أن البعض من هؤلاء الملوك كانوا شخصيات تأريخية وأنهم حكموا في الواقع في حدود الطور الثاني من عصر فجر السلالات، وهو العهد الذي خصصه البحث الحديث إلى زمن سلالة كيش الأولى هذه، وأن سلالة الوركاء التي أعقبتها في تلك الأثبات كانت في الواقع معاصرة لها بصورة جزئية.

وهناك أمر ثانٍ ذو أهمية تأريخية خاصة في نسبة جامعي تلك الأثبات السلالة الأولى التي حكمت من بعد الطوفان إلى مدينة تقع في بلاد «آكد» وليس في بلاد «سومر»[1]، وبعبارة أخرى إلى منطقة الساميين. وإلى هذا فإن أسماء ما لا يقل عن اثني عشر ملكاً من ملوك هذه السلالة البالغ عددهم 22 أو 23 ملكاً، أسماء سامية الأصل والاشتقاق أو أنها ألقاب سامية. أما الأسماء الباقية فستة منها أسماء سومرية وأسماء الأربعة الباقين من أصل لا يعلم اشتقاقه اللغوي، ولعلهم من القوم المجهولين غير الساميين ولا السومريين الذين نوَّهنا بهم في القسم الخاص بسكان العراق القدماء (الفصل الأول). ولعل أول ما يستنتج من هذه الحقائق المستقاة من أثبات الملوك ظاهرة الاختلاط العنصري أو القومي بين سكان وادي الرافدين القدماء منذ أقدم عصور التأريخ، الأمر الذي يقدم لنا عكس الصورة التي ارتآها الباحثون القدماء في افتراضهم الصراع والاحتراب الدائمين ما بين الساميين وبين

(1) راجع المقدمة الجغرافية (الفصل الأول) حول تحديد هذين القسمين من السهل الرسوبي.

السومريين[1]. والأمر الآخر الذي تجدر ملاحظته عن هذه السلالة ما سبق أن نوَّهنا به من أن جعل كيش مركز أولى سلالة ملوكية أو سلالة حاكمة من بعد الطوفان قد يفسر لنا الحقيقة التأريخية في أن عدة ملوك قدامى قد اتخذوا لقب «ملك كيش» إشارة إلى اتساع سلطانهم السياسي في البلاد، وتطور مدلول هذا اللقب في العصور المتأخرة ولا سيما لدى الملوك الآشوريين إلى معنى «ملك العالم» (Shar-kishshati).

ونقرأ إزاء اسم الملك الثالث عشر من سلالة كيش الأولى المسمى «إيتانا» ملاحظة طريفة عن هذا الملك هي أنه كان راعياً وأنه عرج إلى السماء ووطد جميع البلاد. ولعل الشق الثاني من هذه العبارة يشير إلى شيء من الحقيقة التأريخية عن اتساع حكم هذا الملك. أما عن عروجه إلى السماء فتوجد أسطورة طريفة وصلت إلينا وهي مدونة باللغة البابلية[2] تروي صعود هذا الملك على ظهر نسر إلى السماء لجلب نبات خاص بحمل النساء لأن امرأته كانت عاقراً. ومع أن اللوح المدونة فيه هذه الأسطورة غير كامل فلا يعلم على وجه التأكيد هل حقق الملك «ايتانا» مطلبه، بيد أن حقيقة ما جاء في أثبات الملوك بجعل الملك الذي خلفه وهو المسمى «باليخ»، ابن ايتانا تشير إلى نجاحه في مسعاه. وغدت هذه الأسطورة من المواضيع المحببة الشائعة عند صانعي الأختام الإسطوانية حيث ينقش فيها مشهد شخص يطير إلى السماء على ظهر نسر. ونجد ما يضاهيها في الأسطورة اليونانية والفن الكلاسيكي في أخذ الإله اليوناني «زيوس» للشاب الجميل «گانيميده» (Ganymede) على ظهر

(1) راجع فصل المقدمة الخاص بسكان العراق القديم، حيث الإشارة إلى أن الأستاذ «ياكبسون» (Jacobsen) كان أول من تصدى لتفنيد هذا الرأي. أما الأسماء السامية في ملوك سلالة كيش الأولى فهم الملوك المرقمة أسماؤهم بالترتيب 3، 4، 6، 7، 9، 12، 13، 14، 19، 20، 21. راجع حول الموضوع:

A. Goetze in *JCS*, XV, (1961), 105ff.

(2) سترد ترجمة هذه الأسطورة في الفصل الخاص بأدب حضارة وادي الرافدين، فيكفي أن ننوّه بأنها جاءتنا في كسرتين من العهد البابلي القديم وكسرة من العهد الآشوري. انظر ترجمتها في: Speiser, in *ANET*.

نسر إلى السماء ليكون ساقياً له. وهناك أسطورة أخرى خاصة بايتانا في لوح موجود الآن في متحف «بوشكين» (في روسية)، وقد ترجم حديثاً وهي تدور على نزول «ايتانا» إلى العالم الأسفل[1].

أما بقية أسماء ملوك هذه السلالة فلا نعرف عنهم شيئاً آخر سوى ذكرهم في أثبات الملوك إلى أن نأتي إلى الملكين الأخيرين فيها، أي الملك الثاني والعشرين والثالث والعشرين المسمى أولهما «اينميبراكيسي» والثاني ابنه «أگا» (Agga) حيث ذكرت تلك الأثبات عن الأول منهما أنه قهر بلاد عيلام. وقد ثبتت حقيقة هذا الملك التأريخية وتحديد زمن حكمه من نص مدون وجد في خفاجي (توتب القديمة في منطقة ديالى) في طبقة أثرية تعود في زمنها إلى الطور الثاني من عصر فجر السلالات الثاني. ورغم قصر هذا النص فإنه على قدر كبير من الأهمية لأنه، كما قلنا، يؤيد حقيقة هذا الملك التأريخية كما يعين الزمن الذي حكم فيه، فهو يذكر اسمه ولقبه بصفته ملك كيش[2]. وإلى جانب هذا النص المهم يعيننا النص الذي ذكرناه بعنوان كتابة «تمال» وأوردنا ترجمته، في إثبات أن الملك «اينميبراكيسي» وابنه «أگا» كانا أول ملكين شيّدا معبد الإلهة «ننليل» في الحارة المقدسة «تمال» في نفر. إن هذه الإشارة التأريخية المهمة تجعل هذين الملكين الأخيرين من سلالة كيش الأولى متعاصرين مع الملوك الأربعة الأوائل من سلالة الوركاء الأولى التي أعقبت سلالة كيش في الحكم بحسب تلك الأثبات، وأشهرهم الملك الخامس «جلجامش» وابنه «أور ـ ننكال» اللذان يذكرهما نص «تمال» السالف الذكر من

---

(1) انظر: Kramer, *The Sumerians*, (1963), p. 44.

(2) وجد هذا النص حديثاً (1959) على كسرة إناء من حجر الرخام في المتحف العراقي (رقم سجلها 30590)، وهو يطابق النص القصير الذي وجد في خفاجى. أما نص المتحف العراقي فيذكر اسم هذا الملك بهيئة .(Me-Barag-si Lugal Kish) بدون أن يذكر المقطع «اين» في أول الاسم، لأنه على ما يرجح لقب وليس جزءاً من الاسم كما نوَّهنا بذلك في ملاحظتنا عن بعض الأسماء الواردة في أثبات الملوك المبتدأة بمقطع (En). راجع ترجمة النص والتعليق عليه في:

Edzard, in ZA, (1959), 9ff. ; *SUMER*, (1959), 2ff.

بين الملوك الذين جددوا بناء ذلك المعبد للمرة الثالثة. وجدد هذا البناء، بحسب ذلك النص، «ميسانيبدا» الذي هو بلا شك مؤسس سلالة أور الأولى. فيستنتج من ذلك أن هذا الملك كان معاصراً أيضاً لجلجامش بعض الزمن. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار القصة الملحمية القصيرة التي تدور على النزاع والحرب ما بين «جلجامش»، خامس ملوك الوركاء وبين «أگا»، آخر ملوك كيش على أن ما جاء فيها له نصيب من الحقيقة التأريخية، فإن هذا يضيف إلى معرفتنا حقيقة أخرى مهمة عن تعاصر أواخر ملوك كيش مع أوائل ملوك سلالة الوركاء الأولى؛ وتصور لنا هذه القصة الطريفة[1]، التي تنتهي على ما يبدو بالمصالحة ما بين «جلجامش» و«أگاد»، جانباً مما كان يسود عصر دول المدن (عصر السلالات) من النزاع والاحتراب بين السلالات الحاكمة.

ميسلم:

قبل أن نورد ما نعرفه من ملاحظات على سلالة الوركاء الأولى التي تلت سلالة كيش بحسب أثبات الملوك، نذكر بعض الأمور الموضحة عن ملك مهم لم يرد ذكره في هذه الأثبات، ولكن جاءت عنه أشياء تأريخية مهمة في مصادر أخرى، ونعني به الملك الشهير «ميسلم» الذي يرجح أنه حكم القطر كله أو في مدينة ما، وأن زمنه يقع في عصر السلالات الثاني. ويقرأ بعض الباحثين اسمه بهيئة «ميسالم»، ويضع الباحثون ولا سيما الألمان منهم زمنه في الطور الثاني من عصر فجر السلالات حتى أنهم يطلقون على هذا الطور اسم «عصر ميسلم»، على أن باحثين آخرين يرجعون عهده إلى الطور الثالث من ذلك العصر، وأنه حكم من بعد «أگا» بقليل، قبيل زمن ألواح «فارة». ومن الباحثين من يطابقه بمؤسس سلالة أور الأولى «ميسانيبدا»، وأنه كان ملكاً على كيش وأور. ولعل تخصيص زمن هذا الملك في فترة ما من عصر السلالات

(1) راجع ترجمة القصة والتعليق عليها في:

Kramer in *American Journal of Archaeology*, vol. LIII.

Kramer, *From the Tablets of Sumer*, (1956).

وترجمة الكتاب الثاني من جانب مؤلف هذا الكتاب بعنوان: «من ألواح سومر» (1958).

الثاني أقرب إلى الحقيقة بدلالة الإشارات القديمة إليه من جانب حكام سلالة «لجش» الأوائل الذين حكموا عصر فجر السلالات الثالث. وأهم إشارة تأريخية إلى «ميسلم» هي التي وردت في نصوص «انتيمينا» حاكم مدينة «لجش» في نصه التأريخي الشهير الذي يدون أخبار النزاع والحرب ما بين مدينته «لجش» وبين المدينة المجاورة «اوما»، حيث كان الحكم في ذلك النزاع «ميسلم» الذي حكم قبل «انتيمينا» بعدة أجيال، وأنه هو الذي حدد الحدود ما بين الدولتين المتحاربتين، ويذكره بلقب ملك كيش[1]، وأن إلهه الحامي كان الإله المسمى «ستران» (Sataran) المعروف أن أحد مراكز عبادته كان في مدينة «دير» (دور ـ أيلو، وهي الأطلال المعروفة الآن بتلول العقر قرب بلدة بدرة). وتشير الكتابات القصيرة التي جاءت إلينا من الملك «ميسلم» إلى امتداد سلطانه السياسي ولا سيما ما وجد في مدينتي لجش و«أدب» اللتين كان حاكماهما تابعين له؛ ومن الباحثين من يرى أن اسم هذا الملك كان اسماً سامياً.

وهناك احتمال طريف عن الملك «ميسلم» هو أن اسمه ورد في الجزء المخروم من أثبات الملوك السومرية في سلالة كيش الأولى، أي إنه كان ثاني ملك من ملوك تلك السلالة. أما الإشارة إليه في نص «انتيمينا» على أنه ملك «كيش» فيمكن تفسيره بأمرين، أولهما أنه كان ملك كيش في الواقع ولكن سقط اسمه في أثبات الملوك كما ذكرنا، أو أن هذا لقب يشير إلى امتداد سلطانه جرياً على العرف السياسي الذي سار عليه حكام عصر السلالات حين يبسطون نفوذهم على مدن أخرى، كما نوَّهنا بذلك من قبل.

2 ـ سلالة الوركاء الأولى:

بينا في كلامنا على سلالة كيش الأولى تعاصر أواخر ملوكها ولا سيما الملك المسمى «اينميبراگيسي» وابنه «أكا» مع أوائل سلالة الوركاء الأولى. وعلى وجه التخصيص مع «جلجامش» وابنه «أور ـ ننكال» بحسب دلالة نص

---

(1) حول نص «انتيمينا» راجع:

Gadd, *Sumerian Reading Book,* (1924).

وكذلك: Thureau - Dangin, *SAK.*

«تمال». أما مؤسس سلالة الوركاء فكان بحسب تلك الأثبات «مسكيگاشر»، الذي وردت بجانب اسمه ملاحظة أنه كان ابن الإله الشمس «أوتو»، وأنه حكم بصفته «أين» (En) ثم بصفته ملكاً، وذهب إلى البحر وارتقى الجبال. وباستثناء هذه الملاحظة لا نعرف شيئاً آخر عن هذا الملك؛ على أن تلك الملاحظة، على اقتضابها، ذات مغزى تأريخي، فهي أولاً تشير إلى أصل هذا الملك المقدس، وأن كونه حكم أولاً بصفة «أين» ثم بصفة ملك يلقي ضوءاً مهماً على أصل نظام الحكم وتطوره. فإن وظيفة الـ «أين»، كما سنعالج ذلك في موضع آخر، كانت تجمع ما بين السلطتين الدينية والزمنية، إذ كان الحاكم والكاهن الأعلى في الوقت نفسه، وأنها سبقت وظيفة الملوكية (لوگال)، ثم ظهرت وظيفة الحاكم المجرد «آنسي» (Ensi) وكذلك وظيفة الملك حيث انفصلت الوظيفتان وأصبح الـ «أين» الكاهن الأعلى فقط.

وخلف «مسكيكاشر» ابنه المسمى «اينمركار» الذي تصفه أثبات الملوك بأنه شيد مدينة الوركاء، حيث ذكر أبوه بأنه حكم في «اي ـ أنّا»، وقد سبق أن بيّنا أن «اي ـ أنا» كان أحد القسمين الرئيسين من مدينة الوركاء والقسم الثاني «كلاب» أو «كلابا». ولعل ملاحظة أثبات الملوك تشير إلى أن «اينمركار» جمع قسمي المدينة وجعل منهما مدينة كبيرة واحدة يضمها سور كبير، وسيمر بنا أن جلجامش هو الذي أقام أسوار الوركاء. وجاءتنا من العهد البابلي القديم قصص أو ملاحم قصيرة باللغة السومرية عن أعمال «أينمركار» البطولية، أشهرها القصة التي تدور على النزاع بين هذا الحاكم وبين حاكم «أراتّا» (Aratta) أحد حكام المنطقة الجبلية في الأجزاء الغربية من إيران[1]، لأن «اينمركار» كان يريد إخضاع هذا الحاكم سلماً أو حرباً لضمان الحصول على بعض المواد الأولية التي كانت تحتاج إليها مدينته الوركاء، ولا سيما بعض الأحجار الكريمة مثل حجر اللازورد، وكان إقليم «أراتا» على طرق القوافل

---

(1) راجع الفصل الخاص بالآداب في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وتجد القصة مترجمة في:

Kramer, *The Sumerians*, (1963).

Kramer, *From the Tablets of Sumer*, (1956).

الشهيرة إلى مصادر تلك الموارد. ولعل هذه أقدم إشارة تأريخية إلى الاتصالات التجارية ما بين وادي الرافدين وبين الجهات الشرقية. ولعل «اينمركار» هو الذي ذكر في الكتابات الإغريقية بهيئة «سوخروس» (Séuechros) وأنه كان جد البطل جلجامش (جلجاموس بحسب تلك الكتابات).

ويأتي من بعد «اينمركار» في أثبات الملوك «لوگال بندا»، وقد نعت بالراعي. وجاء في ملحمة جلجامش أن أُم هذا البطل الإلهة «ننسون» وأباه الملك المؤله «لوكال بندا». وخلف لوگال بندا في حكم الوركاء «دموزي» وقد وصف بأنه كان صياداً (صائد سمك). ولا يعلم هل هذا هو الإله «تموز» الشهير. أما عن «لوگال بندا» السالف الذكر فبالإضافة إلى ذكره في ملحمة جلجامش ورد عنه بعض القصص القصيرة التي تدور على النزاع مع بلاد «أراتّا» مثل قصص الملك «اينمركار».

جلجامش:

سبق أن ذكرنا أن جلجامش كان الملك الخامس في سلالة الوركاء الأولى بحسب أثبات الملوك التي تضيف إزاء اسمه عبارة أن أباه كان «لُلّا»، كاهن «كُلاب» (أحد قسمي مدينة الوركاء). ومما لا شك فيه أن يكون جلجامش هذا بطل الملحمة الشهيرة نفسه، وهي الملحمة التي ترجع في أصولها إلى عدة قصص سومرية، ثم ألف منها باللغة الآكدية في العصر البابلي القديم في حدود القرن (الثامن عشر ق.م)[1] تلك القصة الجميلة التي تعد

---

(1) راجع ترجمة مؤلف هذا الكتاب لملحمة جلجامش، الطبعة الأولى (1962) والطبعة الثانية المنقحة (1971)، وسيأتي تفصيل القول عنها في الفصل الخاص بالآداب، في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ونورد فيما يأتي أشهر الترجمات للملحمة:

1. A. Schott, *Das Gilgamesh-Epos,* (1934, 1958).
2. A. Heidel, *Gilgamesh Epic,* (1949).
3. Speiser, in *ANET,* (1955).
4. C. Thomson, *The Gilgamesh Epic,* (1930).
5. Garelli, *Gilgamesh et Sa Legende* (1960).

حكام عصر فجر السلالات الثاني والثالث

ق.م 2800 كيش

سلالة كيش الأولى: حكم فيها 22 أو 23 ملكاً من بعد الطوفان، منهم: كلبم. قلومم. زقاقب. ايتانا، اينميراگيسي، وآخرهم «اكا» (انظر أثبات الملوك السومرية).

سلالة كيش الثانية: 8 ملوك، منهم: داداسگ و«ماما گال» (انظر أثبات الملوك).

سلالة كيش الثالثة: ملكة واحدة «كوبابا» أو «كوباو».

سلالة كيش الرابعة: 7 ملوك: بوزر ـ سين، أور ـ زبابا، سيمودار (سيمودرا)، أوسي ـ واتر، عشتار ـ موتي، يشمع ـ شمش، نانيا.

الوركاء

سلالة الوركاء الأولى: 12 ملكاً منهم: مسكيگاشر، اينمركار، لوگال بندا، دموزي، جلجامش، أور ـ ننگال، اودل ـ كلاما، ميلام ـ أنا، لوگال ـ كيدو.

سلالة الوركاء الثانية: 3 ملوك: اين ـ شاكش ـ أنا، لوگال ـ كنيشيدودو، لوگال ـ كيسالسى

سلالة الوركاء الثالثة: لوكال ـ زاكيزي، (2400 ـ 2370ق.م).

سلالة الوركاء الرابعة: خمسة ملوك (2260 ـ 2230).

انظر أثبات الملوك.

سلالة الوركاء الخامسة: أوتو ـ حيگال (2120 ـ 2114ق.م).

أور:

المقبرة الملكية: ميس ـ كلام ـ دگ، آ ـ كلام ـ دگ.

سلالة أور الأولى: مسانيبدا، آنيبدا، مسكياگننا، ايلولو، بالولو.

سلالة أور الثانية: لوگال ـ كنيشيدودو، لوگال ـ كيسالسى.

لجش: اين ـ حيگال، لوگال ـ شاك ـ انگر.

سلالة أور ـ نانشة: أور ـ نانشة، آكور ـ گال، ايانانم، اناناتم الأول، انتمينا، اناناتم الثاني، انيتارزي، انليتارزي، لوگال أندا، أورو كاجينا، (2378 ـ 2370 ق.م).

سلالات مدن أخرى:

مدينة «أوما»: أوش، اينكالي، أور ـ لما، لوكال زاكيزي.

مدينة أكشك: اونزى، اوندالولو، بوزر ـ نيراخ، ايشو، شو ـ سين.

سلالة أوان، سلالة حمازى:

سلالة أدب: لوگال ـ آنى ـ موندو.

سلالة ماري: 6 ملوك

(انظر أثبات الملوك).

عموماً. وإلى جانب ما ذكرناه عن جلجامش في كلامنا على سلالة الوركاء الأولى نضيف أن أحد ملوك الوركاء المسمى «أنَّام»، في مطلع الألف الثاني ق.م، ذكر جلجامش بأنه هو الذي شيّد أسوار مدينة الوركاء، وبهذه الصفة أيضاً ذكر في الملحمة وأيدت ذلك التحريات الآثارية الحديثة، إذ وجدت بقايا أسوار المدينة وهي مشيدة باللبن «المستوي ـ المحدب» الذي قلنا إنه يميز أبنية عصر فجر السلالات ولا سيما مباني الطورين الثاني والثالث منه. ولعل أهم إشارة تأريخية إلى جلجامش أن اسمه واسم «لوگال بندا» ذكرا من بين الأسماء المؤلهة في الألواح الصورية القديمة (الاركائية) المكتشفة في تل «فارة» (مدينة شروباك القديمة) والتي قلنا إنها ترجع في زمنها إلى مطلع عصر فجر السلالات الثالث. وجاء ذكر جلجامش أيضاً في أحد الكتابات المنسوبة إلى الملك «أور ـ نمو»، مؤسسة سلالة أور الثالثة أنه صار أحد قضاة العالم الأسفل. وصار جلجامش وصاحبه «أنكيدو» من المواضيع المحببة لدى ناحتي الأختام الإسطوانية من مختلف العهود التأريخية. هذا وقد سبق أن ذكرنا ما جاء عن جلجامش وعن ابنه «أور ـ ننكال» في نص «تمال» حيث جددا بناء معبد الإلهة «ننليل» في نفر للمرة الثانية، كما نوَّهنا بتعاصر جلجامش مع الملك «ميسانيبدا»، مؤسس سلالة أور الأولى، بالاستناد إلى دلالة ذلك النص.

ولعله يمكن تفسير جانب من جوانب الوضع السياسي في بلاد سومر في عصر فجر السلالات الثالث بأن «ميسانيبدا»، في سعيه للسيطرة على البلاد استطاع أن ينتزع السيطرة على المدينة المقدسة «نفر» من «أكا»، آخر ملوك سلالة كيش الأولى، ولعله استطاع أن يحكم مدينة كيش نفسها، ولذلك نجده يلقب نفسه «ملك كيش» في الكتابة المنقوشة على أحد أختامه الإسطوانية، وهذا لقب كان يعني السيطرة على البلاد كما بينا، بيد أن المرجح أنه كان طاعناً في السن لما استولى على مدينة «نفر» فلم يستطع بناء معبد «تمال»، فاضطلع بالأمر من بعده ابنه المسمى «مسكيا گننا»، كما جاء في نص «تمال»، ولكن جلجامش نازعه السيطرة على نفر فانتزعها منه، وكان جلجامش على ما

يبدو متقدماً في السن أيضاً فوقع على ابنه «أور ـ ننكال» أمر تجديد بناء معبد «تمال»[1].

خلف ابن جلجامش في حكم الوركاء ستة ملوك لا نعرف عنهم شيئاً سوى أسمائهم الواردة في أثبات الملوك، ثم يعقب ذلك سلالة أور الأولى التي جاءت عنها مصادر تأريخية مهمة أخرى.

سلالة «أور» الأولى:

عند انتقال الحكم من الوركاء إلى أور تبرز ظاهرة مهمة في أثبات الملوك، في حقيقة أن السنين المخصصة لملوك سلالة أور أرقام ضمن مدى الأعمار البشرية المألوفة. والواقع أن هذه الظاهرة تبدأ قبيل ذلك الزمن، اعتباراً من حكم «أور ـ ننكال»، ابن جلجامش في سلالة الوركاء الأولى.

وبالنسبة إلى هذه السلالة الجديدة لم يكن ملوكها مجرد أسماء اقتصر ذكرها في أثبات الملوك، بل إلى ذلك جاءتنا عن المهمين منهم جملة وثائق تأريخية، وأولهم مؤسس السلالة المسمى «ميسانيبدا»، الذي خصص لحكمه 80عاماً، والمرجح كثيراً أن هذا رقم مبالغ فيه ولعله يدخل ضمنه حكم ابنه المسمى «آنيبَّدا»، الذي لم يرد ذكره في أثبات الملوك، ولكن النص المنقوش على آجرة رخامية وجدت في بقايا معبد الإلهة «ننخرساك» في تل العبيد يذكر اسمه وأنه ابن «ميسانيبدا»[2]. ولعله يصح الافتراض بهذا الصدد أن «آنيبدا» خلف أخاه «مسكياگننا» الوارد في أثبات الملوك، كما يصح العكس.

أما مؤسس السلالة «ميسانيبدا» فقد سبق أن ذكرنا عنه جملة ملاحظات في أثناء كلامنا على المقبرة الملكية في «أور» التي أرجع زمنها إلى قبيل

---

(1) راجع تفسير الحوادث الواردة في نص «تمال» في:
Kramer, *The Sumerians*, (1963), 328ff.

(2) لعله من المفيد أن نورد ترجمة هذا النص القصير: «إلى ننخرساك، آنيبدا، ملك أور، ابن ميسانيبدا، ملك أور، شيّد هذا المعبد». (Gadd, *Ur Excavations*, I, p. 126).

تأسيس تلك السلالة، كما تطرقنا إلى مسألة تعاصره مع «أگا» ومع جلجامش، وأنه استطاع أن يفرض سيطرته على مدينة «نفر» وعلى مدينة «كيش»، ولذلك اتخذ لقب ملك كيش، بدلالة كتابة أحد أختامه الإسطوانية كما ذكرنا. وهناك رأي يذهب إلى أن «ميسانيبدا» و«ميسلم» شخصية تأريخية واحدة. وإذا استثنينا الكتابة القصيرة التي تنسب إلى «ايلولو» ثالث ملوك سلالة أور الأولى، فلا توجد أخبار أخرى عن ملوك السلالة الآخرين ولا عن ملوك السلالات الأخرى التي أعقبتها في الحكم.

السلالات الحاكمة من بعد سلالة «أور» الأولى:

تعدد أثبات الملوك ما بين نهاية سلالة أور الأولى وبين قيام الملك «سرجون»، مؤسس السلالة الآكدية إحدى عشرة سلالة ذكرت بهيئة متعاقبة في الحكم على النحو الذي ذكرت فيه السلالات الأخرى، في حين أن الدلالة التأريخية تشير إلى احتمال أن الكثير منها كانت متعاصرة في الزمن، كلياً أو جزئياً[1]. وإذا أخذنا بدلالة تلك الأثبات من أن السلالة التي خلفت سلالة أور في الحكم كان مركز حكمها في مدينة «أوان»[2] فإن هذا يشير إلى تسلط العيلاميين على بلاد سومر، ولكن أسماء الملوك الثلاثة المخصصة لهذه السلالة مشوهة لا يمكن قراءتها. ثم حكم من بعد سلالة «اوان» سلالة ملوك ثانية حكمت في مدينة «كيش»، وتعدد أثبات الملوك لها ثمانية ملوك ولسني حكمهم رقماً خيالياً هو (3195) سنة، ولا يعرف عنهم شيء آخر سوى ذكرهم في تلك الأثبات. ثم يأتي من بعد ذلك حكم ملك يؤسس سلالة حاكمة في مدينة «حمازي» أو «همازي»، وهي من مدن بلاد عيلام، ثم ينتقل الحكم إلى

---

(1) حول ذلك راجع:
CAH, (1967-71), chap. IV, 200, 220ff.

(2) لم يعين موقع مدينة «اوان» بعد، والمحتمل أنها تقع في موضع ما في منطقة «دزفول»، في الطرف الشمالي الشرقي من بلاد عيلام (الأهواز أو خوزستان). حول الحكام القدماء في بلاد عيلام ، ولا سيما في عصر فجر السلالات الثالث انظر: *CAH*, I, part 2, XXII.

مدينة الوركاء، حيث تقوم فيها سلالتها الثانية وعدد ملوكها ثلاثة لا نعرف عنهم سوى أسمائهم المذكورة في تلك الأثبات، ويعقبهم ملوك سلالة «أور» الثانية الذين انخرمت أسماؤهم، والمرجح أن عددهم أربعة ملوك. ثم تأتي ست سلالات قبل السلالة الآكدية لا يعرف عنها شيء سوى أسماء ملوكها المذكورة في أثبات الملوك؛ بيد أن الملك المخصص لسلالة مدينة «أدب» (تل بسمي الآن) «لوگال آنيموندو» قد وجدت له كتابة متأخرة عن زمنه بألف عام تقريباً تشير إلى فتوح هذا الملك البعيدة التي امتدت إلى جبال «زاجروس»، وتعدد الحكام (أنسي Ensi) التابعين له في بلاد عيلام وفي بلاد الكوتيين (في الجهات الشمالية الشرقية)، وتذكر طرفاً من أعماله العمرانية في حقل البناء منها تشييده معبد إلهة مدينة «أدب» المسماة «ننتو» (Nin-tu) ومعبدها باسم «اي - نام - زو» (é-nam-zu)[1]. وبمناسبة ذكرنا لسلالة أدب يجدر أن ننوّه بأن ملكاً أو حاكماً ورد اسمه بهيئة «لوگال دالو» (Lugaldalu) حكم في هذه المدينة في فترة عصر فجر السلالات الثالث أو قبيل هذا الزمن، ولكن لم يرد ذكره في أثبات الملوك، بيد أنه وجد تمثاله في أثناء التنقيبات التي أجريت في هذه المدينة (1904).

وتذكر أثبات الملوك من بعد سلالة «أدب» ستة ملوك حكموا في مدينة «ماري» (تل الحريري الآن قرب البوكمال)، لم يبق من أسمائهم سوى الملك الأول واسمه «ايل - شو»، وهو اسم سامي. ويجدر أن ننوّه بهذا الصدد أن التنقيبات المهمة التي قام بها الفرنسيون في مدينة «ماري» كشفت عن بقايا وآثار مهمة، من بينها جملة تماثيل لحكام وشخصيات بارزة تدل هيئاتهم وأسلوب نحت تماثيلهم على أنها من عصر فجر السلالات ولا سيما من الطور الثالث منه. والمرجح أن أولئك الحكام يعودون إلى تلك السلالة الواردة في أثبات الملوك، نذكر منهم الملك المسمى «لماگي - ماري» (Lamagi-mari)

(1) حول الثبت الجديد الخاص بحكام لجش انظر:
E. Sollberger in *JCS*, 21, (1967), 279ff.

و«ايكو ـ شمگان» (Iku-shamgan)، ومن بين الشخصيات المهمة «ابخ ـ ايل» (Ibikh-îl) و«ادي ـ نازم» (Idi-narum). وعلى الرغم من أسلوب النحت السومري والزي السومري في هذه التماثيل فإنها تعود إلى شخصيات من الساميين كما تدل على ذلك أسماء أصحابها.

وخلفت سلالة ماري سلالة حكمت في مدينة «كيش»، خصصت لحكمها أثبات الملوك ملكة واحدة اسمها «كوباو» أو «كوبابا» وأنها حكمت مائة عام، وكانت صاحبة حانة ووطدت الحكم في كيش. وجاء ذكر هذه الملكة في النصوص المتأخرة بأنها أزاحت من الحكم ملك مدينة «اكشك» المسمى «بوزر ـ نيراخ» (Puzur-nirakh)، فيبدو أن شهرتها انتقلت إلى العصور المتأخرة، فذكرت في نصوص الفأل والتنبؤ (الخاصة بفحص أعضاء الحيوانات المقربة)، والمرجح أنها أصل الاسم «كمبابوس» (Kombabos)، الكاهن «الخصي» في مدينة «هيرابوليس» (في سورية)، ولاسمها أيضاً صلة باسم الإلهة الحثية «كوبابا» التي عبدت في شمالي ما بين النهرين.

ويأتي من بعد سلالة الملكة «كوبابا» في كيش سلالة حكمت في مدينة اكشك ثم يعقب ذلك سلالة كيش الرابعة التي كان من ملوكها الملك المسمى «أور ـ زبابا» الذي سيأتي ذكره في كلامنا على سرجون الآكدي حيث كان سرجون ساقياً لهذا الملك ثم انتزع منه السلطة.

سلالة لجش وسلالات أخرى غير مذكورة في أثبات الملوك:

في فترة ما من عصر فجر السلالات الثالث ازدهرت في منطقة الغراف، أي منطقة مدينة لجش الخصبة، دولة مدينة حكم فيها عدد من الحكام لم تذكرهم أثبات الملوك السومرية، ولكن التنقيبات المهمة التي أجراها الفرنسيون في «تلو» منذ أواخر القرن الماضي (راجع الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات) ألقت أضواء كاشفة على أخبار هذه الدولة ومآثرها وأسماء ملوكها، ومخلفاتهم الفنية وكتاباتهم التأريخية مما لم يضاهها في كثرتها وتنوعها جميع ما جاء إلينا من عصر فجر السلالات من المواضع الأخرى، فكانت بذلك في

مقدمة مصادرنا عن أحوال هذا العصر في جميع أوجهه ونواحي الحياة فيه. وعلى ضوء هذه الوثائق نلخص تأريخ هذه السلالة المهمة:

وقبل أن نتناول أخبار هذه السلالة نعيد ما سبق أن ذكرناه من أن الدراسات والتحريات الحديثة مضافاً إليها دلالة الوثائق المكتشفة في منطقة لجش أظهرت أن هذه المملكة كانت تضم جملة مدن وقرى وأراضٍ زراعية واسعة في منطقة الشطرة والغراف، وأنها كانت تتألف من جملة مراكز عمرانية أو مدن كبيرة أشهرها: (1) مدينة «جرسو» أو «گرسو» (Girsu) التي تعرف بقاياها الآن باسم «تلو» وهي منطقة أثرية واسعة (نحو 4×3كم) بالقرب من شط الغراف، على بعد نحو (16) كم شمال شرقي مدينة الشطرة وفي هذه المنطقة تركزت أعمال التنقيبات الفرنسية القديمة. (2) مدينة «نينا» (Nina)[1]، مركز عبادة الآلهة «نانشة» (Nanshe) وتعرف بقاياها الآن باسم «سرغل»، على نحو 48كم جنوب شرق تلو. (3) مدينة لجش التي سميت باسمها هذه الدويلة وقد ثبت الآن أنها تقع في التلول الأثرية المسماة «الهباء» أو «الهبة» (شرق بلدة الشطرة بنحو 45كم)، وكان يظن سابقاً أن موقعها في «تلو» (+). ونظرة واحدة إلى خارطة السهل الرسوبي ترينا أن هذه المدن الثلاث تمتد بخط واحد تقريباً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وكانت تقع على مجرى نهر قديم كان يروي أراضيها ويقع ما بين دجلة والفرات وتقع في الامتداد نفسه إلى الشمال الغربي بنحو 50كم بقايا المدينة الشهيرة «اوما» (تل جوخة)، التي قامت فيها كانت في عصر فجر السلالات دولة مدينة كانت في نزاع وحرب دائمين تقريباً مع دولة لجش المجاورة.

وبما أننا سنتطرق في مكان آخر إلى الأمور الحضارية لعصر فجر السلالات فنقتصر الآن على إيجاز الأحوال السياسية لهذه الدولة بالاستناد إلى السجلات والوثائق المهمة التي كشفت عنها التحريات الأثرية. ونبدأ من ذلك

---

(1) وتعرف «نينا» باسم آخر هو «سرارا» على ما يرجح، كما وردت لمدينة لجش صفة أو اسم آخر بهيئة «أورو كوگك» (أي المدينة المقدسة).

بالتساؤل عن سبب إغفال أثبات الملوك السومرية لهذه الدولة في عدم ذكر أسماء حكامها ضمن السلالات التي ذكرتها. فارتأى بعض الباحثين أن مرد ذلك ناشئ من عدم اعتراف كهنة معبد «أنليل» في نفر، وهو أمر يربطه أولئك الباحثون بعرف ساد ذلك العصر من أن سلطة حكامه كانت مستمدة من الإله «أنليل» بطريق التفويض الإلهي، وهذا أساس نظرية أصل الحكم في حضارة وادي الرافدين في جميع أدوار تأريخها، على أن باحثين آخرين ذهبوا في تعليل ذلك إلى أن كتبة «لجش» في مطلع العصر البابلي القديم، وهو زمن سلالة «ايسن» الذي صدرت فيه آخر نسخة من أثبات الملوك، امتنعوا من تزويد الكتبة الذين تولوا أمر جمع تلك الأثبات بالمعلومات الخاصة بأسماء حكام لجش. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد أن وثيقة مهمة نشرت حديثاً تتضمن سجلاً بأسماء الحكام في تلك الدولة، ممن عرفت أسماؤهم وأعمالهم من الوثائق الأخرى المكتشفة في لجش نفسها[1].

قامت في دولة لجش سلالة من الحكام أسسها «أور ـ نانشة» في عصر فجر السلالات الثالث، لعله في حدود الزمن الذي كانت تحكم في أور سلالتها الأولى التي مر الكلام عليها. ولكن قبل أن يؤسس «أور ـ نانشة» السالف الذكر سلالته الحاكمة بفترة ما تشير الوثائق التي وجدت في لجش إلى أن حكاماً آخرين سبقوه في الحكم في لجش أشهرهم الحاكم المسمى «اينحيگال» (Enkhegal) الذي خلف سجلاً إدارياً على لوح من الحجر بالأراضي الزراعية التي اشتراها، وما عدا هذا لا يعلم عن خلفائه الذين خلفوه في الحكم.

وجاء اسم حاكم ذكره الملك «ميسلم» باسم «باگال شاكنكر (Lugal shagengur) يحتمل أنه حكم قبل «أور ـ نانشة» بجيل أو جيلين.

---

(1) حول هذه الوثيقة انظر:

CAH., I, chap. Iv, 19, 40ff., part 2, chap. XIII, 115.

وتبدأ الأخبار عن دولة لجش بالكثرة والتنوع ابتداء من حكم «أور ـ نانشة» وازدادت في عهد خلفائه، وتتضمن السجلات والكتابات التأريخية والآثار الفنية المتنوعة ولا سيما المنحوتات. وكان اللقب الغالب لهؤلاء الحكام لقب الحاكم أو ما كان يترجم سابقاً الأمير، بالسومرية «آنسي» (Ensi) ومنه الكلمة البابلية «اشاكو». ولكن عدداً قليلاً من أولئك الحكام اتخذ لقب الملك (لوگال)، وسترد الإشارة إليهم. ويذكر مؤسس هذه السلالة اسم أبيه «گونيدو» الذي لم يتول الحكم. وتدل المآثر الفنية والمعمارية والكتابية على ازدهار هذه الدولة ورخائها. والغالب على سجلات مؤسس السلالة أنها تدون أعماله البنائية ولا سيما تشييد المعابد وتجديدها وبناء أسوار المدينة ونحت التماثيل وإقامة مشاريع الري التي كانت الشغل الشاغل لملوك ذلك العصر وحكامه وحكام العصور التالية أيضاً. وبالإضافة إلى مثل هذه الأعمال يستدل من سجلاته أيضاً على نشاط ملحوظ في حقل التجارة الخارجية، حيث يذكر السفن المحملة بالبضائع المختلفة، من بينها الأخشاب والأحجار من تلمون أو دلمون (البحرين). ولعله بسط حمايته على مدينة «أور» كما يستدل من المسلة الصغيرة المنحوتة من حجر الغرانيت التي وجدت في أور وفيها صور مشوهة وبقية من كتابة تذكر اسمه[1]. ومن آثاره التي يجدر التنويه بها القطع الفنية المنحوتة بالنحت البارز وقد مثل في بعضها هذا الملك يحيط به أفراد عائلته وحاشيته وموظفو بلاطه مع ذكر أسمائهم وألقابهم. وتظهر على أسلوب النحت والنقوش الكتابية مسحة القدم.

خلف «أور ـ نانشة» ابنه «آكور ـ گال» (Akurgal) الذي لا نعرف عنه شيئاً سوى اسمه وصورته المنقوشين في منحوتات أبيه التي نوَّهنا بها، على أنه جاءنا من عهد ابنه الذي خلفه المسمى «اياناتم» (Eannatum) جملة مآثر فنية وسجلات مدونة، ومنها يمكن الاستنتاج أن دولة لجش بلغت في عهده من الازدهار واتساع السلطة درجة بحيث إنها بسطت نفوذها على جميع بلاد

---

(1) انظر: CAH., I, part 2, (1971), 117.

سومر، أو كما يقول هذا الحاكم في كتاباته حصل على «ملوكية سومر» (Nam-lugal-ki-en-gi). وإلى ذلك اتخذ لقب «ملك كيش»، وهو اللقب الذي سبق أن ذكرنا أنه كان يرمز إلى اتساع السلطة السياسية في عرف ذلك الزمان. وبعد أن وطد «اياناتم» سلطانه في داخل بلاد سومر مد فتوحاته مدى أبعد، حيث استولى على دويلة مدينة «ماري» وعلى بلاد «سوبارتو» (Subar) وهي التسمية التي سبق ذكرها أنها كانت تطلق على بلاد آشور، كما سجل انتصاره في بلاد عيلام[1].

النزاع بين دولتي «لجش» و«أوما»:

من بين دول المدن التي قامت في بلاد سومر في عصر فجر السلالات الدويلة التي كان مركز حكمها في مدينة «اوما» المجاورة لدولة لجش[2] وقد سبق أن ذكرنا أن بقاياها الآن تعرف باسم تل جوخة، بنحو (50) كم إلى الجهة الشمالية الغربية. وقد حكم في هذه الدويلة جملة حكام لم تذكر أسماءهم أثبات الملوك السومرية، إذ إنها، مثل سلالة لجش، لم تخصص لهذه المدينة سلالة حاكمة. ولأنه لم تجر تحريات آثارية في بقايا مدينة «اوما» لم يأتنا من أخبار حكامها أشياء يعتد بها، وأن جل ما نعرفه عنهم مستقى بالدرجة الأولى من الأخبار التي ذكرها حكام لجش، لا سيما أحداث النزاع والحرب بين الدولتين، حيث اتسمت العلاقات ما بين هاتين الدويلتين بالعداء والنزاع على الأراضي الزراعية وعلى مياه الري، من جراء جوارهما المتقارب، فإن «اوما» تقع في أعالي مصادر المياه لكلتا الدولتين. وبدأت

---

(1) حول النصوص الخاصة بالملك «اياناتم» وغيره من حكام لجش، راجع:

Thureau - Dangin, *SAK*. Barton, *RISA*.

Lambert in *RA*, (1926), 23ff.; Kramer, *The Sumerians*.

(2) سبق أن ذكرنا أن بقايا مدينة «اوما» تعرف باسم تل جوخة، على بعد نحو 40ـ50كم شمال غربي تلو، ولم تجر فيه التحريات لحال التأريخ (1973) وإنما استخرجت منه آثار متنوعة عن طريق الحفريات الغير مشروعة. انظر:

L. King, *History of Sumer and Akkad*, (1923).

العلاقات المدونة بوجه خاص من زمن حاكم لجش «اياناتم» السالف الذكر، ولكن النزاع ظهر قبل ذلك بعدة أجيال، كما روى لنا ذلك حاكم لجش «اينتمينا» الذي ستتكلم عنه.

ومع أن النزاع بين دولتي لجش و«أوما» كان نزاعاً نموذجياً لما تميز به عصر فجر السلالات في العلاقات السائدة ما بين دول المدن التي حكمت فيه من أجل توحيد هذه الدول وقد نجح بعض حكامه في ذلك مثل «ميسلم» و«اياناتم» وغيرهما، بيد أن الصراع بين هاتين الدولتين اتسم بالشدة والاستمرارية إلى أن انتهى بغلبة دولة «اوما» وتحطيم لجش على يد آخر ملوك عصر فجر السلالات المسمى «لوگال زاكيزي»، وكان حاكم تلك المدينة. وسنذكر في كلامنا على حاكم لجش المسمى «انتمينا» إيجاز تأريخ ذلك النزاع ابتداء من تحديد الحدود بين الدولتين من جانب الملك «ميسلم»، أما بصفته حكماً دولياً أو بصفته الملك الأعلى الذي كان يتبعه حاكما هاتين الدولتين. وقد عيّن بالانصاب والمسلات خط الحدود ما بين الدولتين المتنازعتين جاعلاً الأراضي الخصبة التي ورد ذكرها في أخبار النزاع بهيئة «گو ادنا» (Gu-Edina) ضمن حدود لجش، الأمر الذي لم ترضخ إليه «اوما» أمداً طويلاً، فكانت تعمد كلما واتتها الفرص على انتهاك تلك الحدود، كما يشير إلى ذلك نص «انتمينا» السالف الذكر. ويضيف إلى ذلك أن «اياناتم» القوي دحر جيش «اوما» وذبح منها خلقاً كثيراً. وقد خلف «اياناتم» انتصاره هذا في مسلة نحتها لهذا الغرض، وعثر على القسم الأكبر منها، وقد سماها الباحثون المحدثون باسم «مسلة النسور» أو «مسلة العقبان» (Stele of the vultures) لأن نسوراً أو عقباناً صورت في المسلة وهي تنهش جثث القتلى من جيش «اوما»، كما مثل الملك «أياناتم» في أحد وجهي المسلة بالنحت البارز وهو في عدته الحربية، مرة واقفاً، ومرة في عربته الحربية؛ قائداً جيشه الذي نظم على هيئة الصف (Phalanx)، وقد تسلح الجنود بالرماح الطويلة وبالدروع، وهو نظام الجيش الذي اشتهر به الإغريق. أما الوجه الثاني من المسلة فقد نحت بمشهد طريف يصور الإله «ننجرسو»، حامي دولة لجش، وقد نشر شبكته العظيمة فاصطاد في

داخلها جيش المدينة المعادية «اوما»، ولم يكتفِ باصطياد المحاربين بل نجده يهشم رؤوسهم الخارجة من الشبكة بدبوسه الحجري. ويوجد تحت هذا المشهد بقايا من منحوتات غير كاملة وغير واضحة، من بينها صورة عربة حربية، لعلها تخلد انتصار «اياناتم» على جيش كيش. ويبدو أن الحرب ما بين الدولتين انتهت بمعاهدة صلح رضخت بموجبها «اوما» إلى شروط المدينة المنتصرة لجش.

خلف اياناتم أخوه المسمى «اناناتم» الأول (Enannatum) وأعقب هذا ابنه المسمى «انتمينا» (Entemena) الذي سبق أن أشرنا إلى نصه الشهير الذي يدون أخبار النزاع ما بين دولتي لجش واوما بوجه مفصل أكثر من رواية عمه «اياناتم». وبالنظر إلى أهمية هذا النص الذي يعد أقدم تدوين تأريخي بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح فيستحسن أن نعيد إيجازه[1]: يروي هذا النص بداية الأحداث قبل زمن «انتمينا» بما لا يقل عن ثلاثة أجيال يوم اتفق إلها المدينتين المتنازعتين «ننجرسو»، إله لجش، و«شارا»، إله «اوما» على تسوية النزاع ما بين مملكتيهما وتثبيت الحدود فيما بينهما. ونفذ هذا الاتفاق الإلهي الملك «ميسلم» بصفته حكماً أو سيد هاتين المملكتين كما نوَّهنا، فثبت الحدود ما بينهما وأقام عند خط الحدود كما قلنا مسلة وأنصاباً. ولكن بعد حين استجد النزاع، وكان البادئ في نقض تسوية التحكيم حاكم «اوما» المسمى «اوش» (Ush) أو «كش» (Gish) فأزال نصب «ميسلم» وغزا حقول دولة لجش؛ وعندئذٍ أمر سيد لجش الأعلى، أي الإله «ننجرسو» قائده الحربي، أي حاكم لجش المسمى «اياناتم» أن يشن الحرب على حاكم «اوما»، ودحره في الحرب ولعله قضى عليه، وفرض على «اوما» شروطاً جديدة للصلح قبل بها حاكم هذه

---

(1) سبق أن ذكرنا أن بقايا مدينة «اوما» تعرف باسم تل جوخة، على بعد نحو 40-50كم شمال غربي تلو. ولم تجر فيه التحريات لحال التأريخ (1973) وإنما استخرجت منه آثار متنوعة عن طريق الحفريات الغير مشروعة. انظر:

L. King, *History of Sumer and Akkad*, (1923).

المدينة الجديد «ايناكالي» (Enakalli)، وتضمنت معاهدة الصلح الجديدة أن يقوم حاكم «اوما» بحفر نهر جديد يأخذ من نهر الفرات (؟)، وأرجعت الحدود السابقة ومعها الأنصاب القديمة ومسلة «ميسلم»، وأقام بجانبها «اياناتم» مسلة جديدة خلد فيها انتصاره. وفي الوقت نفسه شيدت في الأراضي الجديدة التي ضمت إلى دولة لجش معابد صغيرة أو مزارات (بالسومرية Barag) لآلهة لجش، وفرض على أهل «اوما» غرامة حربية كبيرة، أن تدفع كميات كبيرة من الحبوب سنوياً. ولكن ثمرة هذا النصر الذي خلده «اياناتم» في «مسلة النسور» الشهيرة كما ذكرنا لم تدم أبعد من حياة هذا الحاكم. إذ إنه عندما خلفه في الحكم أخوه المسمى «اناناتم» الأول الذي اقتصر على لقب الحاكم «آنسي» (Ensi)، نقض المعاهد حاكم «اوما» الجديد المسمى «أور ـ لما»، ابن «اينكالي» الذي عاصر «اياناتم» كما قلنا؛ فأزال الأنصاب من الحدود وحطمها «ورماها في النار»، بحسب تعبير نص «انتمينا» وخرب المزارات التي كانت قد أقيمت في زمن «اياناتم»، ثم عبر نهر الحدود السالف الذكر وغزا لجش نفسها، فتصدى له «اناناتم»، ولكن يبدو أنه لم يفلح في صد جموع «اوما»، لأن ابنه «انتمينا» الذي روى لنا هذه الأحداث كما قلنا، اقتصر على القول بأنه، أي «انتمينا» انتصر على أوما ولم يشر إلى انتصار لأبيه عليها. وفجأة يختفي «أور ـ لما» من رواية «انتمينا» ويحل محله حاكم جديد في اوما ورد اسمه بهيئة «ال» (Il) الذي كان أحد كهنة «اوما»، ولعل«انتمينا» هو الذي أزاح «أور ـ لما» من الحكم ونصب بدلاً منه ابن أخيه «ال» السالف الذكر، وأبرم معه معاهدة في إعادة حقوق لجش بأراضيها وإعادة تثبيت الحدود القديمة ما بين الدولتين المتخاصمتين.

كان «انتمينا» يعاصر حاكم مدينة الوركاء المسمى «لوگال كينيشيدودو» (Lugal kinishedudu)، وأبرمت بين الحاكمين معاهدة سلم وصداقة. والمرجح كثيراً أن «انتمينا» حفر نهراً كبيراً من دجلة إلى الفرات ليضمن موارد الري لدولة لجش دون الاعتماد على النهر القديم، ولعله أصل شط الحي أو الغراف الحالي. ووجد في مدينة أور تمثال لانتمينا منحوت من حجر الديورايت (Diorite) (هو

الآن في المتحف العراقي)، وقد فسّر وجود هذا التمثال في «أور» على أنه يشير إلى امتداد سلطة «انتمينا» على هذه المدينة، والمعروف أن أكثر من واحد من حكام لجش قد بسط نفوذه على مدينة أور، ولا سيما «اياناتم»[1].

كان «انتمينا» آخر حاكم قوي في سلالة لجش، إذ خلفه في الحكم حكام ضعفاء أولهم ابنه المسمى «أناناتم» الثاني، وأعقبه حاكمان آخران لم يدم حكمهما إلا فترة قصيرة، هما «اينيتارزي» و«لوكالندا»، وكانا من طبقة الكهنة. وقد انقطعت أخبار السلالة الرسمية واقتصرت الوثائق المدونة التي وصلت إلينا على العقود التجارية والاقتصادية والمعاملات الشخصية الأخرى. ولكن مع ذلك تعد هذه الوثائق على قدر عظيم من الأهمية في معرفتنا بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية. فنقرأ فيها من جملة ما نقرأ من الأمور الاجتماعية المكانة البارزة التي حازت عليها زوجة الحاكم «لوگالندا» المسماة «برانامترا» (Baranamtarra)، وكانت تدير شؤون أحد المعابد في مملكة لجش وكذلك المكانة التي تمتعت بها امرأة أخرى اسمها «شاشا»، هي زوجة الحاكم «أورو ـ كاجينا»، آخر حكام دولة لجش الذي سنتكلم عنه بعد قليل.

انتقل الحكم في لجش عن طريق الانقلاب العسكري إلى «أوروكاجينا»، صاحب الإصلاحات المشهورة، وكان على ما يرجح ينتمي إلى طبقة الكهنة، ولكن الحكام الكهنة ومعهم الكهنة أيضاً ممن سبق «أوروكاجينا» دأبوا على ابتزاز الثروات واضطهاد جماهير الناس وسيطروا حتى على أملاك المعابد لصالحهم الشخصي. وإلى هذه المساوئ والمفاسد وجه «أوروكاجينا» إصلاحاته الاجتماعية المشهورة.

لم يحكم «أوروكاجينا» أكثر من ثمانية أعوام، واتخذ في العام الثاني من حكمه لقب «الملك». وكان في مبدأ الأمر مجرد حاكم أي «أنسي» (Ensi) هذا ولا تعلم بوجه التأكيد الحوافز التي دفعت «أوروكاجينا» إلى القيام بإصلاحاته هذه، عدا الأسباب الموجبة التي يعددها هو في نصوص تلك الإصلاحات

---

(1) انظر: Gadd, *Ur Excavations*, vol. I.

ومنها العودة إلى القوانين القديمة العادلة وأنه فعل ذلك بأمر من الإله «ننجرسو»، إله دولة لجش، وبذلك حق لاوروكاجينا أن يقول بثقة إنه «نائب الإله ووكيله حقاً». وضمن أوروكاجينا بإصلاحاته هذه تأييد أهم طبقات المجتمع وإسنادها، وفي مقدمتها طبقة المحاربين وطبقات جماهير الناس ممن رفع عنها اضطهاد الكهنة وجباة الضرائب، وقد أنقص الضرائب التي كانت تجبى منهم سواء كانت ما يذهب منها إلى الحاكم وموظفيه وحاشيته أم الرسوم الباهظة التي فرضها الكهنة في حوادث الأحوال الشخصية وفي مقدمتها الزواج والطلاق ورسوم الدفن. وتناولت إصلاحاته كذلك تخفيض الضرائب حتى على بعض طبقات الكهنة التي كانت معرضة إلى ابتزاز أموالها من جانب جباة الحكام الذين يقول عنهم «أوروكاجينا» إنهم كانوا منتشرين في كل مكان «من أرض ننجرسو إلى تخوم البحر». وعاهد «أوروكاجينا» إلهه «ننجرسو» بأنه لم يسلم «الضعيف والأرملة إلى القوي»[1]. وشملت تلك الإصلاحات أيضاً طبقة الحكام في وضع حد لاستحواذهم على أملاك المعابد. فيتضح من ذلك أن «أوروكاجينا» كان جريئاً ومحايداً في إصلاحاته، فقد تناولت أيضاً تحديد سلطات الطبقة الحاكمة التي كان نفسه على رأسها، وعمل كذلك على معالجة الجرائم وتنظيم العقوبات الخاصة بها، وجوانب مهمة من الأحوال الشخصية مثل تحريم زواج المرأة برجلين في آنٍ واحد في بعض الحالات. ولعل الفقرات الآتية التي وضعت على هيئة مواد أحكام تعطينا فكرة عن هذه التشريعات الإصلاحية التي يمكن عدها أقدم تشريعات في تأريخ البشرية[2]:

«إذا أراد وجيه (متنفذ) شراء حمار أو بيت يعود إلى فقير فباستطاعة الفقير أن يطلب الثمن الذي يريده من الوجيه وعلى هذا أن يدفع الثمن بنقود معتمدة

---

(1) قارن العبارة المطابقة الواردة في شريعة حمورابي (1750ق.م) (خاتمة المقدمة، العمود 40، السطر 59ـ62).

(2) حول إصلاحات «أوروكاجينا» راجع ترجمتها والتعليق عليها في:

Diakanoff in *RA*, (1958), 12ff.; Kramer, *The Sumerians*, 317ff.

(فضة) ولا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يضطهد الفقير إذا رفض البيع». ويذكر «أوروكاجينا» حالة البؤس التي آلت إليها طبقة العمال والصناع بحيث إنهم «صاروا يستجدون الطعام ويأكلون فضلات الطعام من أبواب المدينة، في حين أن مخازن الحكام وأهراءهم وبيوتهم وقصورهم وأملاك حاشيتهم كانت تفيض بالخيرات. وأينما ولى المرء وجهه، من حدود ننجرسو إلى تخوم البحر وجد جباة الضرائب». ثم يعدد أعمال السخرة التي كانت تفرض على الفقراء والضعفاء وحتى العميان منهم من جانب وكلاء الحكام الذين بلغت بهم القسوة أنهم كانوا لا يجهزونهم بما يحتاجون إليه من قوت. ويذكر أيضاً أمره بالعفو العام عن المسجونين والموقوفين بسبب ديونهم السابقة أو بسبب استحقاق الضرائب عليهم إلى القصر (السلطة الحاكمة). وأبطل الضريبة التي فرضها الحكام على الرجل إذا طلق امرأته، وفرض الرجم على السارق. وإن كل هذه المساوئ كانت ترتكب في غابر الأيام، ولكن حين أعطى الإله «ننجرسو» ملوكية لجش إلى «أوروكاجينا»، مصطفياً إياه من بين الجموع الغفيرة، أمره بتنفيذ الإرادة الإلهية فصدع بالأمر، وعزل الموكلين بالملاحين ومنع الاستيلاء على قواربهم، وحرم على رئيس الرعاة الاستحواذ على قطعانهم. . . وجعل سلطان ننجرسو يسمو على سلطة الحكام.

لم يتمتع هذا المشرع المصلح بالحكم زمناً طويلاً فقد قضى عليه حاكم المدينة المعادية «لوگال زاگيزي»، مما سنوجزه في الأسطر التالية.

لوگال زاگيزي ونهاية عصر فجر السلالات:

انتهى حكم المصلح «أوروكاجينا» بالعنف ليس من داخل دولته بل على أثر هجوم مفاجئ قام به «لوكال زاكيزي»، حاكم دولة المدينة المجاورة «اوما»، عدوّة دولة لجش المأثورة. وكان لوكال زاكيزي هذا يتحلى بصفات عالية ولا سيما مقدرته العسكرية التي مكنته من القضاء على «أوروكاجينا» بضربة خاطفة، وبذلك أنهى النزاع الطويل بين هاتين الدويلتين، وهو نزاع استغرق زهاء قرن واحد، منذ قيام سلالة «أور ـ نانشة» في لجش، وكانت

الضربة ماحقة حيث دمرت المدينة وأعمل فيها وفي أهلها النار والسيف. ولعل مما سهل على «لوكال زاكيزي» انتصاره الخاطف، بالإضافة إلى مقدرته الحربية، أحوال دولة لجش الداخلية، فإن الإصلاحات التي فرضها «أوروكاجينا» لم يتح لها الوقت الكافي لتؤتي ثمارها في استتباب الأحوال، بل إنها، شأنها في ذلك شأن أي إصلاحات أخرى، لاقت مقاومة من جانب الطبقات المتنفذة وأحدثت البلبلة وعدم الاستقرار. ومهما كان الأمر فإن التدمير الشامل الذي أحدثه الفاتح في دولة لجش قد بلغ من العظم والشمول بحيث إنه ترك صدى في نفوس الكتاب والأدباء، فخلف لنا أحدهم رثاء مؤثراً يندب فيه ما حل بلجش ومعابدها وأهلها ويستنزل العقاب الإلهي على «لوكال زاكيزي»[1] والجدير بالذكر في هذا الصدد أن رثاء سقوط المدن والسلالات الحاكمة كان من بين المواضيع الأدبية الشائعة لدى أدباء العراق القديم. وقد خلف لنا أحدهم رثاء عن سقوط مدينة «أور» على أيدي العيلاميين والأموريين.

نشأ «لوكال زاكيزي» من عائلة تنتمي إلى طبقة الكهنة، فقد كان أبوه كاهن الإلهة «نصابا» (Nisaba) في مدينة «اوما»، وإنه كان على ما يرجح من أصل سامي (آكدي)، كما يشير إلى ذلك اسمه «بوبو» (Bubu)، وعمل معه ابنه في منصب الكهنوتية، ولكن قابلياته العسكرية مكّنته من تبوأ الحكم في دولة مدينة «اوما».

وبعد القضاء على دولة لجش وتوطيد السلطة في هذه المنطقة وفي «أور» استولى على دولة مدينة الوركاء الشهيرة، فاتخذ لقب «ملك أوروك»، وذكرته أثبات الملوك بصفته مؤسس سلالة في هذه المدينة هي سلالتها الثالثة. واستعمل «لوكال زاكيزي» إلى ذلك لقباً جديداً استحدثه، هو «ملك الإقليم» (أي ملك البلاد) (Lugal kalamma)، وملك «سومر». ولما أن استولى على

---

(1) راجع نص الرثاء في:

Thureau - Dangin, *SAK*, 90ff.; Barton, *RISA*,; Kramer, *The Sumerians*, 323ff.

معظم بلاد سومر وآكد وبضمنها مدينة «كيش» والمدينة المقدسة «نفر» اتخذ لقب «ملك كيش». ولم يقتصر هذا الفاتح على إخضاعه دول المدن في بلاد وادي الرافدين بل إنه، كما جاء في نصوصه المدونة، مد فتوحه من «البحر الأسفل إلى البحر الأعلى»، أي من الخليج العربي إلى البحر المتوسط. ويعد نصه التأريخي الذي وصل إلينا أقدم وأطول كتابة ملكية من نوعها وأكثرها تفصيلاً في سرد أعماله العسكرية والعمرانية في المدن المختلفة[1]. وخصصت له أثبات الملوك حكماً دام 25عاماً، وهو أمد طويل مكنه من التمتع بثمرات فتوحه وتوحيد البلاد، وإقامته دولة القطر الموحدة، وإنشاء أولى أمبراطورية شملت أجزاء من الشرق الأدنى، مثل بلاد الشام، ولعله بلاد عيلام.

وإذا صدقنا بنبوءة ذلك الشاعر الذي رثى تدمير لجش واستنزل عقوبة الآلهة على «لوگال زاگيزي» وجدناها تتحقق، حيث ظهر في حدود ذلك الزمن على مسرح التأريخ شخص آخر استطاع أن يغلب لوگال زاگيزي وينتزع منه السلطة والزعامة، ذلك هو سرجون الآكدي الشهير الذي يصح أن نضعه في مقدمة الفاتحين القدامى في تأريخ العالم، وستكون سيرة هذا الفاتح وأعماله موضوع الفصل الآتي. ولم تقتصر نهاية «لوگال زاگيزي» على أنها كانت نهاية حكم ملك أو حكم سلالة مثل الفترات التي مرت بنا، بل إنها كانت خاتمة عصر تأريخي أو حضاري وفاتحة عصر جديد في تأريخ حضارة وادي الرافدين: انتهاء العصر الذي أطلقنا عليه اسم عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن، وبداية العصر الآكدي وانتقال السلطة السياسية إلى الآكديين الساميين، وظهور دولة القطر الكبيرة التي اتسعت بالفتوح الخارجية إلى أمبراطورية.

ويمكن القول إن فتوح لوگال زاگيزي ومن بعده سرجون الآكدي كانت تمثل اتجاهاً تأريخياً كان قد ظهر أثره في عصر فجر السلالات وتغلب على يد

---

(1) حول نص «لوكال زاكيزي» انظر:

SAK, 218ff.; *RISA*, 9ff.; Kramer, *OP. CIT*, 323ff.

Jacobsen in *ZA*, (1959), 135ff.

هذين الفاتحين على اتجاه آخر معاكس له. ونعني بالاتجاه الأول فرض نظام دولة القطر أو المملكة الواحدة على الاتجاه الثاني المتمثل بنظام دولة المدينة (City state) وهو النظام الذي ساد عصر فجر السلالات الذي أطلقنا عليه بناء على ذلك عصر دول المدن. وإن ما أنجزه لوگال زاگيزي في تحقيق الاتجاه الأول كان من العوامل الرئيسة التي مهدت الطريق أمام سرجون الآكدي في إقامته دولة القطر الموحدة، وسيكون هذا موضوع الفصل الآتي.

إيجاز الأوجه الحضارية في عصر السلالات:

نظام دولة المدينة:

تكررت الإشارات فيما سبق إلى نظام دولة المدينة، وكيف أنه كان النظام السائد في حضارة وادي الرافدين في عصر فجر السلالات. والمرجح كثيراً أن أصول هذا النظام تمتد في جذورها إلى زمن ظهور أولى مراكز للاستيطان البشري في السهل الرسوبي منذ الألف الخامس ق.م وتطور المراكز الزراعية الفلاحية إلى مدن في العصر الذي سميناه بالعصر الشبيه بالتأريخي أو الشبيه بالكتابي في منتصف الألف الرابع ق.م، كما مرّ بنا في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ حيث اقترن ظهور أولى المدن بنشوء التمدن والعمران الحضري (Urbanization). وبالنظر إلى قدم حضارة وادي الرافدين فإن هذه الحضارة خير مرجع للباحثين في أصول هذا النظام وتطوره التأريخي. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا أكدنا القول إن حضارة وادي الرافدين تفردت بأول ظهور لنظام دولة المدينة على أنه أول شكل من أشكال الحكم في التأريخ البشري. وإن ما ظهر في حضارة وادي النيل قبيل قيام المملكة الموحدة في عهد الأسرات الأولى، لا يشبه ذلك النظام، ولعل أقرب شيء يضاهيه نظام دولة المدينة في الحضارة الإغريقية (Polis)، حيث كان ذلك النظام في كلتا الحضارتين النظام النموذجي للوحدة السياسية أو الدولة. ونمت في المدينة وفي دولة المدينة فكرة المواطن والمواطنة (Ctizenship). فكانت المدينة أكثر من كونها تجمعاً سكانياً أو قبلياً، بل إن ما يدهش الباحث في حضارة وادي

الرافدين أن لا يجد آثاراً للنظام القبلي منذ أواخر عصور ما قبل التأريخ، ولعل العامل في ذلك أن الوحدة السكانية في حضارة وادي الرافدين في السهل الرسوبي كانت أولاً القرية الفلاحية ثم المدينة المعتمدة كل منهما على الاقتصاد الزراعي وجهاز الري والتجارة، فنشأت فيها بدلاً من الأنظمة القبلية والولاء القبلي أنظمة سياسية واجتماعية عجيبة منذ أبعد العصور التأريخية، مثل مجلس المدينة «بوخرم» (Pukhrum) باللغة الآكدية، و«اوكن» (Ukin) في اللغة السومرية، ومشيخة المدينة «شيبوت آلم» (Shibût alim) إلى غير ذلك من الأجهزة المدنية والتنظيمات الاجتماعية والسياسية، مما سنفصل القول فيه في الجزء الثاني من كتابنا.

تشير التحريات الآثارية التي أجريت في المدن القديمة في السهل الرسوبي إلى أن القرى الفلاحية التي نشأت فيه في عصور ما قبل التأريخ سرعان ما نمت إلى مدن في العصر الشبيه بالكتابي كما ذكرنا من قبل، وبرزت ملامحها المميزة في عصر فجر السلالات، موضوع بحثنا. ولعل أبرز شيء طرأ على هذه المدن في ذلك العصر اتساع حدودها وتكاثر سكانها وازدياد ازدهارها بتأثير عوامل مهمة تطرقنا إلى بعضها وفي مقدمتها ازدهار الزراعة المعتمدة على جهاز منظم للري وازدهار التجارة الخارجية، وصارت مراكز لتجمعات سياسية، أي وحدات سياسية واقتصادية هي التي ينطبق عليها مصطلح دولة المدينة. فكانت دولة المدينة هذه مكونة من مدينة مركزية، هي العاصمة، يتبعها مدن أخرى وعدد من القرى والأرياف والأراضي الزراعية. ونظرة واحدة إلى الخارطة التأريخية لوادي الرافدين ترينا كيف أن السهل الرسوبي في عصر فجر السلالات يكاد يتفرد بظاهرة عمرانية وسكانية، تلك هي كثافة تلك المراكز العمرانية وقرب المدن الكبيرة والصغيرة بعضها من بعض. وقد يبلغ قرب الجوار بين المدينة والأخرى بضعة كيلو مترات مثل مدينة «أريدو» بالنسبة إلى مدينة أور (زهاء 25كم) وقربها مدن منطقة لجش ولارسة والوركاء وايسن وغيرها. وقد مرّ بنا كيف أن دولتين مشهورتين من دول المدن السومرية لم تتجاوز المسافة ما بين عاصمتيهما الخمسين ميلاً،

ونعني بذلك دولة لجش ودولة «اوما». وخلاصة القول إن هذه الظاهرة أقدم مثال في التأريخ على تركيز العمران وكثافته.

وبما أننا سبق أن عددنا أسماء المدن الرئيسية في الفصل الخاص بالمقدمة الجغرافية، وتكرر الكثير من هذه الأسماء في كلامنا عن أثبات الملوك السومرية فلا حاجة إلى تكرار ذكر هذه المدن، وبدلاً من ذلك نتناول الجوانب الأخرى مما يتعلق بها مما نوَّهنا به من اتساع هذه المدن في مساحاتها بالاستناد إلى سعة أطلالها الباقية، ونذكر على سبيل المثال أن محيط مدينة الوركاء بلغ زهاء تسعة كيلو مترات ومساحتها نحو (6) كيلو مترات مربعة، ومساحة مدينة «أور» زهاء 220أيكراً (الأيكر الواحد يعادل نحو 4000متر مربع أو 4840 ياردة مربعة) ومساحة مدينة «خفاجي» (توتب القديمة) زهاء 100أيكر[1]. أما مساحات دول المدن أي المدينة وما يتبعها من مراكز عمرانية أخرى وقرى وأراضٍ زراعية فلا يمكن تقديرها إلا على وجه التخمين، بالاستناد إلى النصوص المعاصرة. ولنأخذ دولة لجش مثلاً لوفرة المصادر عنها فقد قدرت مساحتها بزهاء (1800) ميل مربع أو نحو (3000) كيلومتر مربع وعلى أقل تقدير (1000) كم مربع. أما سكان مدينة لجش فيرجح أن عددهم كان في حدود (36000)، وسكان دولة المدينة نحو 100,000، وهناك تقدير آخر لسكان المدينة بنحو 19,000، وقدرت نفوس مدينة «اشنونا» (عاصمة مملكة اشنونا) بنحو 9000 وسكان مدينة خفاجى بـ 12,000 وسكان اوما بـ 16,000[2].

---

(1) انظر:

Delougaz, *The Oval Temple at Kkafajah,* (1940).

(2) ندرج فيما يلي المراجع المهمة عن الموضوع:

(1) Frankfort, «Town Plannig in Ancient Mesopotamia», in *Town Plannig Review* (1950), 104ff.

(2) Dikanoff, «The Population of the Sumerian City-State» in *Vtstnik Drevney Istorii,* (Moscow, 1950), 77ff.

(3) Diakanoff, *Ancient Mesopotamia,* (1959).

(4) Deimel, «Die Sumerischen Tempel Wirtschaft», in *Analecta Orientalia* (1931).

وكان لمعظم المدن في عصر فجر السلالات أسوار تحيط بها، وسنرى في كلامنا على العصر الآكدي في الفصل الآتي كيف أن سرجون الآكدي نقض أسوار المدن هادفاً من ذلك على ما يرجح الحيلولة دون ثوراتها والاحتماء داخل الأسوار. وكان المعبد، الذي تتبعنا نشوءه منذ أولى أطوار الاستيطان في السهل الرسوبي، مركز حياة المدينة في النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأخذ يضاهيه في الأهمية ويزاحمه في النفوذ والسلطة قصر الحاكم الذي بلغ هو الآخر اتساعاً كبيراً في المساحة والتنظيم، كما كشفت التنقيبات عن بعض قصور عصر فجر السلالات في بعض المدن المهمة مثل قصر كيش وقصر «أريدو» وقصر «ماري». وسنرى رجحان كفة القصر أي السلطة الزمنية على المعبد والسلطة الدينية منذ أن تولى الآكديون الساميون زمام الحكم في العراق واتضح هذا الاتجاه أكثر في العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م).

والقاعدة في اختيار مواقع المدن في جميع الأدوار التأريخية تقريباً، أن تكون على مجرى ماء رئيسي أو بالقرب منه، وقد سبق أن نوَّهنا بظاهرة هجران مراكز العمران عند تحول اتجاه هذه المجاري، ونتج عن ذلك ظاهرة انتشار الأطلال الأثرية في بقاع جرداء الآن من جراء تبدل مجاري الأنهار القديمة حيث تشاهد تلك التلول على ضفاف هذه الأنهار المندرسة. وحتى في حالة ارتفاع قيعان مثل هذه الأنهار إلى مستوى السهل المجاور وزوال معالمها فإن الخط الواصل ما بين عدة تلول أثرية من عصر واحد يحدد لنا مجرى النهر القديم الذي كانت تقع على ضفافه تلك المدن القديمة المهجورة.

والغالب أن المصطلح السومري «أورو» (Uru) والآكدي «آلو» (Alû) كان يطلق على المستوطن من حجم المدينة، بيد أنه لا توجد مصطلحات خاصة للتمييز ما بين المدن الكبيرة وبين المدن الصغيرة. أما المستوطنات الريفية من قبيل القرى الفلاحية فيوجد لها بعض التسميات الخاصة، مثل المصطلح السومري «أي ـ أورو ـ شي» (é-uru-she) و«اي ـ دورو» (é-duru) وفي الآكدية

السامية «كبرو» أو «كفرو» (Kapru)، و«خصارو» أو«حضارو» (أي الحضر أو الحضيرة) (Khusaru)[1].

وبالقياس إلى ما نعرفه عن خطط المدن في العصور التي تلت عصر فجر السلالات يمكن القول إن المدينة في هذا العصر أيضاً كانت تتألف في الغالب من ثلاثة أقسام رئيسية[2]: (1) مركز المدينة المسمى بالآكدية «قلب المدينة» (Qabalti áli)، وقد يعني هذا المصطلح في بعض الحالات الجزء القديم من المدينة. وكان سور المدينة يتضمن هذا القسم الرئيسي المدينة وفيه المعبد أو المعابد والقصر أو القصور وبيوت السكان الحضريين. وكان الكثير من شؤون المدينة يدار عند بوابتها أو بواباتها، التي تطلق عليها التسمية المضاهية للكلمة العربية «بابتو»، وبالسومرية (Dag-gi4-a)، وكثيراً ما يرد اسم البوابة في مثل هذه الوظيفة في الشرائع (مثل شريعة حمورابي وشريعة اشنونا). (2) ضواحي المدينة، وتسمى بالسومرية المدينة الخارجية أو «البرانية» أي (Uru-bar-ra)، ويوجد فيها في الغالب المعبد المخصص لأعياد رأس السنة في بداية الربيع، المسمى «بيت ـ آكيتو» (Bît-akitu)، وكذلك مساكن الزراع وبساتين المدينة وحظائر الماشية، وتعتمد المدينة في غذائها على هذا الجزء وعلى المزارع المجاورة. (3) قسم الميناء والتجار ومستودع البضائع الذي يطلق عليه بالسومرية «كار» (Kar) وبالآكدية «كارو» (Karu). وكان هذا القسم أكثر من مجرد ميناء على النهر، فقد كان مركز المدينة التجاري ولا سيما التجارة الخارجية، وكان في الغالب يتمتع بشيء كثير من الاستقلال الإداري والقانوني، وفيه يقيم التجار الأجانب حيث الخانات والبيوت المخصصة للمسافرين. وقد وصلت إلينا أخبار طريفة في ألواح الطين من مدينة «أور»،

---

(1) حول الموضوع راجع:

L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia*, (1965), 109ff.

(2) حول الموضوع راجع:

L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia*, (1965), 109ff.

ندرس منها نشاط هذا الجزء المهم من المدينة، وقد سبق أن ذكرنا عثور المنقبين على بقايا ميناء «أور» (الكائن شمال شرقي الزقورة بنحو 3كم في الموضع المسمى الآن دقدقة). وسيمر بنا وصف المستعمرة التجارية المشهورة التي أقامها التجار الآشوريون في شرقي الأناضول، في الموضع المسمى «كول تبة» (كانيش القديمة). ومما تجدر ملاحظته عن أجزاء المدينة التي ذكرناها أنه لم يكن كل المدن تتألف منها، فبعضها مثل مدينة «سبار»، كانت في الأصل مركزاً تجارياً مهماً للمتاجرة بالماشية والصوف من المناطق الرعوية المجاورة.

وبالإضافة إلى المدن العريقة التي نمت من كونها مراكز قديمة للاستيطان في السهل الرسوبي واستمرت بالتطور والاتساع توجد طائفة أخرى من المدن في حضارة وادي الرافدين كانت تُقام من جانب الملوك والحكام لأغراض عسكرية أو سياسية كالسيطرة على طرق القوافل التجارية أو لحماية مواقع استراتيجية، نذكر على سبيل المثال الحصن الذي شيده الملك الآكدي «نرام ـ سين» في تل براك في أعالي الخابور، وبعض المدن الآشورية مثل مدينة «كار ـ توكلتي ـ ننورتا»، و«كار شليمنصر» و«دور ـ شروكين» (خرسباد)، وسيأتي التنويه بهذه المدن في كلامنا على تأريخ الآشوريين. وقد سبق أن ذكرنا قيام مدن ومستوطنات جديدة في العهد الآكدي الذي أعقب عصر فجر السلالات وتبدأ أسماؤها في الغالب بكلمة «دور» (الحصن) أو «مشكن» (Mashkan) المضاهية لمسكن العربية.

الآلهة ومعابدها:

لما كنا سنتكلم على الديانة في حضارة وادي الرافدين في الجزء الثاني من كتابنا المخصص لمقومات هذه الحضارة وأوجهها المختلفة فإننا نقتصر في كلامنا على الآلهة ومعابدها على الملامح الأساسية لديانة مجتمع عصر فجر السلالات موضوع بحثنا الراهن، تلك الملامح التي استمرت بشيء من التحوير والتطور في جميع العهود التأريخية التالية سواء كانت السلالات

الحاكمة سومرية أم بابلية أم آشورية. ومما لا شك فيه أن هذه الاستمرارية في أهم مقومات حضارة وادي الرافدين من الأدلة الكثيرة على ما سبق أن أكدناه من أن أسس هذه الحضارة قد وضعت ونمت وتطورت في وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ. ومن ناحية الموضوع الذي بين أيدينا، أي الديانة، رأينا كيف أن أقدم المباني العامة التي تركزت حولها أولى المستوطنات في السهل الرسوبي كانت المعابد التي استمرت في تطورها سعة وشكلاً وعدداً في الأدوار التأريخية التالية، وكان المعبد مركز القرية الفلاحية ثم المدينة حين تطورت القرى إلى مدن، ثم دولة المدينة حيث أصبح مدار حياتها الدينية والاقتصادية والاجتماعية. والمرجح كثيراً أن قوام المعابد ومديري شؤونها كانوا أقدم حكام في المجتمعات المتحضرة. فكان الكاهن الأعلى «أين» (En) حاكم المجتمع المعبدي في الوقت نفسه، وظل يجمع ما بين السلطتين الدينية والزمنية حتى بدأ الانفصال بين الوظيفتين الدينية والزمنية في فترة ما من عصر فجر السلالات حين ظهر إلى جانب الكاهن الأعلى الحاكم الزمني المفوض من إله المدينة أو أنه كان وكيل هذا الإله في إدارة دولته الأرضية، وأطلق على هذا الحاكم مصطلح «أنسي» (Ensi) (وكان يقرأ باتيسى)، وأعقبه ظهور الملك (لوگال) حين كان يتسنى لحاكم إحدى المدن أن يبسط سلطانه على دول مدن أخرى، وعندئذٍ يصبح حاكم المدينة تابعاً له. والجدير ذكره بهذا الصدد أن العلامة المسمارية الدالة على الكاهن الأعلى (En) ظهرت في نظام الخط المسماري الصوري قبل العلامة الدالة على الملك.

وهكذا كان المعبد مركز الحياة الحضرية في حضارة وادي الرافدين منذ ظهور أولى المستوطنات في السهل الرسوبي في الألف الخامس ق.م. وقد سبق أن رأينا كيف ظهر في كنف المعبد أعظم اختراع حضاري في منتصف الألف الرابع، ونعني بذلك ظهور الكتابة في الأطوار الأخيرة من عصر الوركاء حين دعت الحاجة إلى إيجاد وسيلة لتدوين واردات المعبد وأملاكه. ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يعثر على أقدم كتابة صورية في منطقة معبد «أي - أنا» في مدينة الوركاء الشهيرة.

ومع أنه لا يمكن معرفة أسماء الآلهة التي عبدت في وادي الرافدين في العصور التي سبقت عصر فجر السلالات، بيد أن إمارات قوية ظهرت في الآثار الفنية ولا سيما المنحوتات والأختام الإسطوانية والكتابة في طورها الصوري، وهي تشير إلى أن الكثير من الآلهة التي عرفت أسماؤها واتضحت سماتها في العصور التأريخية منذ عصر فجر السلالات كانت معروفة منذ أزمان قديمة ولا سيما في العهد الشبيه بالكتابي كما تدل على ذلك «رموز الآلهة» والمشاهد الدينية الممثلة في القطع الفنية، وأن استمرار إقامة الكثير من المعابد بعضها فوق بعض منذ عصر العبيد في «أريدو» مثلاً يشير كذلك إلى هذه الحقيقة.

ولعل أبرز ما يلفت إليه نظر الدارس لديانة حضارة وادي الرافدين في جميع عهودها كثرة الآلهة فيها، وبتعبير آخر شيوع مبدأ الشرك (Polytheism) بحيث يؤلف عدد الآلهة معجماً ليس بالصغير. ثم إن الآلهة بوجه عام، ما عدا تميزها عن البشر بالخلود والقدرة، تشبه البشر في صفاتها الروحية والمادية، وهذا هو مبدأ «التشبيه» (Anthropomorphsim) الذي كان أبرز صفة للآلهة في هذه الديانة، وهي مفتاح فهمنا ومعرفتنا لجميع أنواع الشعائر والعبادات الخاصة بالآلهة، كبناء معابدها التي كانت في الواقع بيوت الآلهة ومساكنها (لاحظ أن جميع المعابد تبدأ أسماؤها بالكلمة السومرية «اي» (é) التي تعني البيت)، ومن مظاهر هذه الصفة أن القوم نقلوا إلى الآلهة جميع الأفعال والأعمال التي يمارسها البشر في حياتهم الخاصة والعامة، كالطعام واللباس والزواج وإقامة الولائم وعقد مجالس الشورى والحكومة الإلهية والملوكية؛ والآلهة مثل البشر تفرح وتغضب وتتخاصم فيما بينها، وصار مجتمع الآلهة السماوي بموجب ذلك المبدأ نسخة ثانية للمجتمع البشري في الأرض، إلى غير ذلك من مظاهر هذا المبدأ مما سنفصل فيه القول في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ومما لا ريب فيه أن كثيراً من الآلهة في حضارة وادي الرافدين نشأ في

الأصل من القوى والظواهر الطبيعية البارزة في هذا الكون، ولا سيما القوى التي كانت تؤثر في حياة القوم كالكواكب والظواهر الجوية المختلفة وفي مقدمتها الشمس والقمر والسماء والهواء والأرض والمياه. وإلى هذه الأصول يمكن القول إنهم خصصوا لشؤون الحياة المختلفة المهمة آلهة تتحكم فيها وتسيرها، كالموت والولادة والغلال والخصب والأمراض، إلى غير ما هنالك من مظاهر الحياة الطبيعية والبشرية. ولما كانت ظواهر الكون والحياة تتفاوت في أهميتها وأثرها في حياة البشر، لذلك كانت الآلهة التي عبدت في حضارة وادي الرافدين متفاوتة في أقدارها ودرجاتها ومنزلة عبادتها وتقديسها. فنجد في أسفل درجات السلم طائفة من الآلهة القليلة الشأن لم يخصص لعبادتها سوى مزار صغير قد يقام في أحد الطرقات أو في بيوت السكنى على هيئة معبد صغير في أحد أركان البيت. ويكاد يكون من المؤكد أن القوم كان لهم عبادة وآلهة شعبية جماهيرية لا نعرف عنها أموراً كثيرة، لأن مصادرنا عن ديانة حضارة وادي الرافدين تقتصر بالدرجة الأولى على الديانة الرسمية، كما نظمها ودونها رجال الدين، أما عقائد الجماهير من عامة الناس وعباداتها الخاصة بها فليس لدينا عنها سوى النزر اليسير، مما نستشفه من المصادر المدونة الرسمية والآثار الفنية. ويلي الطبقات الدنيا من الآلهة طبقة يصح أن نسميها بالآلهة المحلية، وهي الآلهة التي اختصت بعبادتها وتقديسها المدن المختلفة بصفتها الآلهة الحامية لهذه المدن. وأن آلهة المدن هذه هي التي كانت تتحارب وتتخاصم فيما بينها وكانت المسؤولة عن الحروب التي كان يشنها حكام دول المدن بعضهم على بعض، كما كانت تتقدم جيوش دول المدينة وتشترك في القتال بأسلحتها الخاصة المفضلة لديها.

وقد رأينا كيف أن الإله «ننجرسو»، إله دولة لجش الرئيسي، هو الذي انتصر على جيش دولة المدينة المعادية «اوما»، واصطاده بشبكته الإلهية. ولا يندر أن يقع بعض الآلهة في الأسر، والويل والدمار للمدينة التي يؤخذ إلهها أسيراً. وهناك أمثلة طريفة على أسر الآلهة، نذكر منها أسر الإله «مردوخ»، إله بابل الشهير، أكثر من مرة واحدة، فجردت الحملات الحربية لاسترجاع تمثال

الإله الأسير، لأن غياب تمثال الإله، الذي هو المستودع أو الوعاء الحجري الذي تحل فيه روح الإله أو جوهر قوته، يعرض مدينته إلى قوى الشر والدمار. ومن قبيل الآلهة المحلية ما جرى عليه سكان العراق القديم، ملوكاً وحكاماً وأفراداً، من اتخاذهم ما يصح أن نصطلح عليه اسم الآلهة الحامية، وقد يكون هذا الإله الحامي بالنسبة إلى الحاكم إله المدينة التي يحكم فيها، وقد يكون إلهاً غيره، فيكون هذا الإله الحامي شفيعاً وحامياً للفرد إزاء الآلهة العظام ومسؤولاً عن أعماله وتصرفاته، كما كان بمثابة الملاك الحارس للفرد. وقد جاء إلينا هذا العرف مدوناً في المواضيع الفنية ولا سيما في نقوش الأختام الإسطوانية، إذ نجد طائفة من الأختام في بعض العهود التأريخية وهي منقوشة بمشهد يمثل فرداً عابداً (هو صاحب الختم)، يقدمه إله أو آلهة إلى بعض الآلهة من مقام ورتبة أعلى. وقد تكون العلاقة بين الأفراد ولا سيما الحكام وبين آلهتهم الحامية علاقة أبوة أو أمومة ولكن بالتبني، كما جاء ذلك واضحاً في نصوص حكام دولة لجش. أما علاقة الزواج بين الآلهة والبشر فهي نادرة جداً بخلاف الآلهة اليونانية على ما هو معروف من الأساطير اليونانية. فباستثناء البطل جلجامش الذي جعل في الملحمة لغرض فني (درامي)، ابن الآلهة ننسون، لا نعرف أمثلة أخرى على التزاوج ما بين الآلهة والبشر.

ويستطيع من يدرس أسماء الأعلام (الأشخاص) في حضارة وادي الرافدين أن يقف على أمور كثيرة عن آلهة القوم ومعتقداتهم الدينية، وفي رأيي أن هذا الحقل من المصادر المهمة لدرس ديانة هذه الحضارة في مختلف أدوارها، فإن الغالب على هذه الأسماء، سواء كانت أسماء حكام وملوك أم أفراد من عامة الناس، أن تدخل أسماء الآلهة المختلفة في تركيبها. وإلى هذا فإن كثرة استعمال اسم إله معين في تركيب أسماء فترة تأريخية خاصة يكشف لنا عن اشتهار ذلك الإله لدى الجماهير وتعلقهم به، كما قد يشير إلى انتماء الشخص من الناحية القومية، إن كان سومرياً أو بابلياً أو آشورياً أو حورياً أو «سوبارياً» إلى غير ذلك من الأصول المختلفة التي دخلت في التركيب التأريخي لسكان العراق القديم.

أما الصنف الثالث من آلهة حضارة وادي الرافدين فيتألف من الآلهة العظام التي عمت عبادتها وتقديسها جميع القطر ولم تقتصر على مدينة أو دولة مدينة، كما أنها استمرت في التقديس في جميع أدوار التأريخ، ويأتي على رأسها الثالوث الإلهي المؤلف من ثلاثة آلهة عظام، هم: «آنو» و«أنليل» و«انكي» (أيا)، وكان هؤلاء يقتسمون حكم الكون ما بينهم، فلآنو السماء، كما يشير إلى ذلك اسمه السومري. وكان لأنليل الجو، يدل على ذلك اسمه أيضاً، ويحكم الإله «أنكي» (ايا) الأرض والمياه الظاهرة والسفلى. وقد أخذ هؤلاء الآلهة حكم الكون من بعد القضاء على آبائهم من جيل الآلهة القديمة، بعد صراع وحرب دامية ما بين جيل الآلهة القديمة وبين الآلهة الحديثة، كما جاء ذلك في أسطورة الخليقة البابلية المشهورة التي دوّنت في حدود 1700ق.م. وجعل بطل المعركة فيها الإله «مردوخ»، إله بابل بعد أن عظم شأن هذه المدينة وأصبحت عاصمة أمبراطورية في عهد ملكها الشهير حمورابي (1792ـ1750ق.م). والمرجح كثيراً أن البطل الأصلي في الأسطورة السومرية الأصلية الإله «أنليل». ولعل هذا الأمر خير ما يوضح الاتجاه العام في ديانة حضارة وادي الرافدين في حالة تعاظم إله محلي أي إله المدينة إلى مركز إله عام ولكن دون أن تنبذ عبادة الآلهة الأخرى، وهذا هو المبدأ المعروف في تأريخ الديانات بمصطلح «التفريد» (Henotheism)، إذ لم تصل ديانة حضارة وادي الرافدين إلى مبدأ التوحيد في جميع عهود تأريخها.

ونظم الكهنة ورجال الدين علاقات الآلهة بعضها ببعض ووضعوا أنسابها وخصصوا لها الزوجات والأبناء والبنات والوزراء والأتباع والمبلغين والمراسلين وسائر أنواع الخدم والحاشية. فينسب إلى أولئك الآلهة العظام بموجب هذه الأنساب جملة أبناء وبنات. فكان للإله «آنو» مثلاً ابنة مفضلة هي «أنانا» (عشتار)، كما جعلت زوجته، وعبد الأب والبنت معاً في المركز الرئيسي لعبادتهما في مدينة الوركاء ويسمى معبدهما «أي ـ أنا»، أي بيت السماء، وصيغ من اسم «آنو» إلهة زوجة له أيضاً هي «آنتم». وكان من أشهر أبناء الإله «أنليل» من زوجته «ننليل»، الإله القمر «نانا» (بالسومرية) أو «سين»

(في البابلية). ومن أبنائه أيضاً «نرجال»، إله العالم الأسفل، و«ننازو»، إله الطب والشفاء و«ننورتا»، إله الحرب (وهو أيضاً ننجرسو، إله لجش). وولد للإله القمر «نانا» (وكان يلفظ سابقاً ننار) من زوجته «ننگال»، إله الشمس الشهير، «أوتو» (بالسومرية) و«شمش» (في البابلية). وعبد الإله «نانا» في أور، كما اشتهرت مراكز أخرى لعبادته مثل مدينة «حران». أما الإله الشمس فقد اشتهر بأنه إله النور والحق والعدل والموحي بالشرائع والكاشف عن الظلم والبغي، واشتهرت مدينتا «سپار» و«لارسة» على أنهما مركزان مهمان لعبادته كما شيّدت له معابد في بعض المدن الأخرى، وكلها دعيت باسم «اي ـ ببار» (é-babbar). أما الإله «أنكي» (ايا) فكان مركز عبادته مدينة «أريدو»، ومعبده فيها باسم «أي ـ أبسو»، منذ أقدم الأزمان، وكان إله الماء والحكمة والمعرفة الذي علم البشر المعارف والفنون، وولد له من زوجته «دام ـ كنا» (Dam-kinna) ابنه البكر «مردوخ» الذي تولى عن الآلهة قتال الآلهة العتيقة وقضى على تيامة، كما جاء في أسطورة الخليقة البابلية. وولد لمردوخ من زوجته «صربنيتم» ابنه الشهير «نابو» أو «نبو»، إله المعرفة والكتابة والقلم، واشتهرت مدينة «بورسبا» القريبة من بابل بكونها مركز عبادته حيث معبده فيها يسمى «اي ـ زيدا» (é-zida)، ومعبد أبيه في بابل باسم «اي ـ ساگلا».

وبما أننا سنفصل القول في أسماء الآلهة ووظائفها ومعابدها في الجزء الثاني فنكتفي بما ذكرناه للمثال على بعض الجوانب المهمة من عقائد القوم في آلهتهم ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الآلهة المشهورة بالتنويه بعبادة إله تعدت شهرته وممارسة عبادته حضارة وادي الرافدين إلى أقوام وحضارات أخرى، ذلك هو الإله الشهير «تموز» أو «دموزي»، الذي كان في أصله من آلهة الخضار والنباتات والماشية، واشتهر باقترانه بآلهة الحب «عشتار» (أنانا)، فنشأت عن ذلك عبادة الخصب التي انتشرت من حضارة وادي الرافدين إلى أقوام كثيرة. فكان خصب الأرض وما تدره من ثمرات وخيرات يتوقف على الاقتران السنوي (في مطلع الربيع على ما يرجح) بين الإله «تموز» والإلهة «عشتار». وأغلب الظن أن أقدم ممارسة لهذه العبادة ظهرت في مدينة الوركاء،

مركز عبادة الإلهة «عشتار» (أنانا)، كما ذكرنا. ولكن لم يقتصر هذا الزواج الإلهي (Hieros gamos)، الضامن لإحلال الخصب والخير، على اقتران تموز بعشتار في الوركاء، بل كان يمكن لزوجين آخرين من الآلهة في المدن الأخرى أن يقوما بالدور نفسه، ثم صار الحاكم والملك بوسعه أن يمارس هذه الشعائر الخاصة بالخصب مع كاهنة عليا خاصة. وقد سبق أن نوَّهنا كيف أن بعض الباحثين فسر المقبرة الملكية في أور على ضوء هذه الشعائر الدينية الخاصة بتموز وعشتار. ونشأت حول تموز وعشتار جملة أساطير أشهرها الأسطورة الجميلة التي جاءت إلينا في أصلها السومري وبالرواية البابلية أيضاً[1]، وخلاصتها أن عشتار غضبت على حبيبها أو زوجها تموز فأنزلته إلى الأرض السفلى، عالم الأموات وحبسته فيه. وكان من سنن هذا العالم أن من دخله لا يستطيع الخروج منه حتى الآلهة، إلا بأن يضع بديلاً عنه في ذلك العالم[2]. ولا تعلم نهاية الأسطورة على وجه التأكيد، فهل بقي تموز رهينة ذلك العالم أو أنه خرج منه، على أن آخر الآراء في الموضوع أنه تم الاتفاق ما بين عشتار وبين أختها، ملكة العالم الأسفل (ايرش ـ كيگال) أن يظل تموز حبيس ذلك العالم طوال نصف العام ويخرج منه في النصف الثاني مقابل الاحتفاظ بأخته المسماة «گشتن ـ أنا» (Geshtin anna) (أي خمرة السماء) بديلاً عنه في العالم الأسفل في النصف الثاني من العام الذي يخرج فيه تموز إلى الحياة، والمرجح أن يكون في مطلع الربيع ليحل الخصب والحياة في الأرض. ومما لا شك فيه عندي أن هذه الأسطورة الطريفة أصل الأسطورة الإغريقية المعروفة الخاصة بأدونيس، الذي هامت بجماله إلهة الحب «أفروديت»، ولكن آلهة

---

(1) حول أسطورة «تموز» ونزول عشتار (أنانا) إلى العالم الأسفل راجع:

(1) *ANET*, 50ff.; 106ff.

(2) Falkenstein in *Compt Rendu de la 2 ém. Rencontre Assyriologique Internationale*, (1954).

(3) Kramer, in *IRAQ*, (1960), 59ff.

(2) يسمى العالم الأسفل أو عالم الأموات بالسومرية «كور ـ نو ـ كي» وبالبابلية «ارصة لاتاري» وكلتا العبارتين تعني «الأرض التي لا رجعة منها».

العالم الأسفل «برسيفونه» نازعتها حب «أدونيس»، وحل النزاع بين هاتين الآلهتين بأن يبقى ذلك الإله الجميل عند آلهة العالم الأسفل طوال نصف عام ويخرج منه في النصف الثاني ليكون حصة «أفروديت».

وعلى ضوء السجلات الكثيرة المكتشفة من دولة لجش في عصر فجر السلالات الثالث نستطيع أن نستنتج أموراً مهمة عن حضارة وادي الرافدين في هذا العصر، وبالنسبة إلى موضوع الآلهة ومعابدها وعبادتها نقف منها على النشاط الاقتصادي الواسع الذي كانت تمارسه هذه المعابد في حياة القوم الاقتصادية والاجتماعية[1]. فكان في دولة لجش ما لا يقل عن عشرين معبداً كبيراً خصصت لعبادة آلهة هذه الدولة، مثل معبد الإله «ننجرسو» والإلهة «يابا» والإلهة «نانشه» أو «نازي»، والإلهة «كاتمدگ» (Gatumdug) والإله «دموزي» والإله «أيگالم» (Igalim) والإلهة «أنانا» والإله «لوگال أورو» (Lugal uru) والإله «ننمار» والإله الشمس «أوتو» والإلهة «ننداز» والإله «أنكي». وكان يتبع الإله «ننجرسو» ما بين 6000 و5000 من العمال والخدم، وخصص لمعبد الإلهة «نانشه» في مدينة «نينا» (سرغل) زهاء ألف تابع، وقدر عدد الخدم والعبيد التابعين لمعابد دولة لجش بنحو (10,000) شخص مضافاً إليهم نحو 20,000 شخص من الأحرار. وقدرت أملاك هذه المعابد من الأراضي الزراعية في حدود (500) إلى (600) كيلومتر مربع، وتكوّن هذه المساحة نسبة تربو على ربع مساحة تلك الدولة.

وما دمنا في ذكر أملاك المعابد من الأراضي الزراعية فيستحسن أن ننوّه بأنواع هذه الأراضي التي يمكن تصنيفها بوجه عام إلى ثلاثة أصناف غير خاضعة للبيع والشراء: (1) حقول تسمى بالسومرية (Nig-en-na) أو (Gana-nig-en-na) ومعناها الحرفي «أرض الرب أو السيد»، وقد خصصت كلها لخدمة المعبد، وكان يقع على سكان دولة المدينة العمل فيها لمنفعة المعبد

---

(1) انظر:

Diakanoff, *Ancient Mesopotamia*, 173ff.

وسد احتياجاته، وتجهز إدارة المعبد المسخرين للعمل بالبذور والأدوات اللازمة، (2) نوع ثانٍ من الحقول يطلق عليه بالسومرية (Gana-kur5) أو (Gana-kur-ra)، وكان هذا النوع من الأراضي يقسم إلى وحدات زراعية تعطى «باللزمة» إلى العمال الذين يشتغلون في أراضي المعبد من الصنف الأول، وتكون غلتها لإعالة هؤلاء العمال وإعاشتهم، ويخصص بعض غلتها كذلك إلى الخدم والتابعين إلى المعبد، (3) حقول تسمى بالسومرية: (Gana-uru4-la) أو (Gana-apin-la)، وكانت تؤجر إلى الفلاحين ولا سيما فلاحي أراضي المعبد من الصنف الثاني، مقابل حصة عينية من الغلة تتراوح ما بين السبع والثمن من الحاصل.

ومع أن حصة المعبد من أراضي دولة المدينة الزراعية كانت حصة جسيمة كما بينا، بيد أن ما كان يظن سابقاً من أن معظم الأراضي يعود إلى المعبد أمر مبالغ فيه، ولعل ما ذكرناه في تقدير هذه الحصة بنحو ربع الأراضي وعلى أكثر تقدير نصف الأراضي أقرب إلى الواقع. أما الأراضي العائدة إلى الأفراد الخاضعة إلى التملك الفردي وشؤونها المختلفة من بيع وشراء وإجارة فقد جاءتنا عنها مجموعات مهمة من الوثائق المدونة ولا سيما سجلات دولة لجش، وسجلات مدينة «شروباك» (تل فارة) وسبار (أبو حبة) و«أدب» (بسمي) وغيرها من المواقع الأثرية[1]. فتشير هذه الوثائق إلى أن عامة الناس في دولة المدينة كان باستطاعتهم امتلاك الحقول الزراعية، وفي الوقت نفسه يستبان من هذه الوثائق سعة الأراضي التي كانت تمتلكها الطبقات الأرستقراطية الحاكمة، مثل الحاكم (الأنسي (Ensi)) والملك وكبار موظفي الدولة والكهنة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة المالكة، ولا تدخل الأراضي المعبدية في حوزتهم. وكان العمل في أراضي هذه الطبقة يتم باستخدام العبيد والتابعين إلى مالك الأرض من نوع رقيق الأرض أو من الأحرار المأجورين. وكانت ملكية الأرض وراثية وقابلة للتعامل مثل البيع والشراء والتأجير والرهان. ولكن يؤخذ

---

(1) المصدر ذاته المذكور في الهامش رقم 65.

من الوثائق التي بين أيدينا أن نقل الملكية ينبغي أن يتم بموافقة مجلس المدينة. ويمكن تقسيم سكان دولة المدينة من ناحية علاقتهم بالأراضي الزراعية إلى الصنفين التاليين: (1) جماعة من السكان يعتمدون في الحصول على الأرض التي يزرعونها على الملاك من الطبقة الحاكمة أو المعبد مقابل العمل في الحقل، (2) ملاك أحرار يملكون أراضيهم الخاصة بهم. كما يمكن تقسيم سكان دولة المدينة بالنسبة إلى طبقاتهم الاجتماعية إلى الأصناف الآتية: (1) الطبقة الحاكمة وهي في رأس المجتمع ومعها الطبقة المالكة الأرستقراطية ومنهم الكهنة وشيوخ المدينة (Shibût âli)، (2) عامة الناس من الأحرار من أهل الطبقة الوسطى والفلاحين الأحرار والصناع والأجراء، ولعل هؤلاء كانوا يؤلفون نصف السكان في دولة المدينة، (3) صنف الأتباع أو ما يضاهي المصطلح العربي «الموالي» (Clients)، ومنهم الصناع التابعون إلى المعبد وعماله المشتغلون في صناعاته المختلفة كالحياكة والنسيج وصنع الجعة والخمور وزراع أراضي المعبد، والتابعون إلى الطبقة الأرستقراطية، ويأتي في أسفل السلم الاجتماعي العبيد الأرقاء سواء كانوا مملوكين من جانب القصر أم المعبد أم الأفراد، ولا يسعنا في هذا المجال أن نتكلم عن مصدر العبيد مثل الأسر والشراء وأيلولة الأشخاص الأحرار إلى العبودية في حالات خاصة مثل عجزهم عن دفع ديونهم، إلى غير ذلك مما سنفرد له فصلاً خاصاً في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

موجز الحياة الاقتصادية:

يعد عصر فجر السلالات من حيث الرخاء والازدهار الاقتصادي من العهود المتميزة في حضارة وادي الرافدين، يدل على ذلك ما سبق أن أوجزناه من بقايا الآثار المادية التي كشفت عنها التنقيبات في المواضع الأثرية التي جرى فيها التحري، علماً بأن هذه المواضع لا تمثل في رأينا سوى نسبة صغيرة مما لا يزال ينتظر التحري والتنقيب. ولا يعسر على المتتبع أن يقف على الأسس التي قام عليها ذلك الرخاء الاقتصادي، وفي مقدمتها الزراعة

وخصب الأرض وجهاز ري منظم، بالإفادة من ميزة جغرافية تفردت بها بيئة وادي الرافدين، هي الثروات المائية الضخمة بالنسبة إلى صغر مساحة هذه البيئة. وقد رأينا مما مرّ بنا كيف بدأ اهتمام القوم بشؤون الري منذ المراحل الأولى للاستيطان في السهل الرسوبي، وازدادت العناية والمهارة في ضبط الري والفيضانات بحفر القنوات وإقامة السدود. وقد طفحت أخبار الحكام والملوك منذ عصر فجر السلالات بشؤون الري وطغت على أوجه النشاط الأخرى، مما سنخصص له فصلاً في الجزء الثاني. ويكفي في هذا الموجز أن ننوِّه بما ذكرناه من آثار شؤون الري والأنهار في النصوص المدونة وحتى في القصص والأساطير. كما أن النزاع ما بين دويلات المدن في هذا العصر، مثل النزاع بين دولتي «لجش» و«اوما»، كان مرده بالدرجة الأولى إلى السيطرة على أنهار الري والتحكم في مصادر الري والاستحواذ على الأراضي الزراعية.

ويجدر أن نشير بهذا الصدد إلى ما سبق أن ذكرناه عن النزاع بين هاتين الدولتين كيف أن من جملة العقوبات التي فرضها «اياناتم»، ملك لجش على «اوما» من بعد انتصاره عليها أن تقوم بحفر نهر على الحدود ما بين الدولتين. ولضمان مياه الري الكافية حفر «اياناتم» أيضاً خزاناً للمياه ووسع فيه خليفته «انتمينا».

وكان الشعير والقمح، بكميّات أقل، في مقدمة الغلات الزراعية في عصر فجر السلالات وفي العصور التي أعقبته، ثم الذرة والسمسم. وتشير الوثائق المكتشفة في لجش إلى ازدهار البساتين من الأشجار المثمرة وفي مقدمتها النخيل وكذلك زراعة الخضراوات، وسيمر بنا تعداد أنواع هذه الأشجار والنباتات في الجزء الثاني من الكتاب. وإلى النشاط الزراعي اهتم القوم بتربية الماشية كالبقر والغنم والماعز والخنزير، وما كان يجنى منها من نتاج وصناعات مشتقة كالصوف والنسيج والألبان، وقد سبق أن ذكرنا المشهد الطريف الذي يصور جانباً من صناعة الألبان في القطعة المطعمة التي كشف عنها في معبد الإلهة «ننخرساگ» في تل العبيد، من عصر فجر السلالات

الثالث. ويجدر أن ننوّه في هذا الصدد بالسجلات الإدارية التي وصلت إلينا من لجش وفيها أسماء العمال والعاملات الملحقين بمعابد هذه الدويلة والمشتغلين في غزل الأصواف وغير ذلك من الصناعات اليدوية التي كانت المعابد تمارسها. وذكرت هذه الوثائق أيضاً مهنة مهمة تتعلق بواردات المعبد والسلطة الحاكمة، هي صيد الأسماك النهرية والبحرية، وهي الصناعة التي استمرت في الازدهار في العصور التأريخية التالية.

ومع أن الزراعة كانت في جميع عهود حضارة وادي الرافدين المورد الأساسي للازدهار الاقتصادي، بيد أنه ينبغي أن نضيف إليها مورداً آخر لا يقل عنها أهمية وشأناً، ونعني بذلك التجارة الخارجية التي كانت مع الزراعة ومشتقاتها عماد الحياة الاقتصادية في حضارة وادي الرافدين. فقد سبق أن قلنا إن البيئة الطبيعية التي نشأت فيها هذه الحضارة، أي السهل الرسوبي، فقيرة فقراً بارزاً في جميع المواد الأولية الضرورية لإنشاء الحضارة، كالمعادن والأحجار والأخشاب الصالحة للبناء، فكانت التجارة الوسيلة التي كان سكان وادي الرافدين يحصلون بها على مثل تلك المواد، مما ذكرناه في فصل المقدمة الجغرافية. وجاءت في النصوص المدونة التي خلفها حكام دولة لجش أمور ومعلومات مهمة عن النشاط التجاري الذي مارسه سكان العراق القديم في هذا العصر. يضاف إلى هذه الأخبار المدونة بقايا الآثار المادية، ومنها الآثار المعدنية والحجرية بمختلف أنواعها. وبالإمكان معرفة المصادر التي كانت تستورد منها، وقد سبق أن نوَّهنا بأشهر الطرق التجارية وذكرنا إنشاء الموانئ النهرية في معظم المدن المهمة وأن الدراسات التي تمت على الأحجار الكريمة وشبه الكريمة وكذلك المعادن مما وجد في أثناء التنقيبات مكنتنا من تعيين مصادر الكثير منها. فالنحاس مثلاً كان من النوع المخلوط بصورة طبيعية بمعدن «النيكل»، وهذا هو البرونز الطبيعي الذي يرجح أن مصدره كان «عمان» (في اليمن). أما الذهب الذي صنعت منه الآثار النفيسة التي كشف عنها من عصر فجر السلالات فكان من النوع المعروف بالغريني (Alluvial) الذي يمكن خلطه أو مزجه بالفضة لينتج المعدن المزيج المسمى

«الكتروم» (Electrum) وهو المعدن الذي صنعت منه قطع نفيسة من الآنية والأدوات الأخرى مما وجد في المقبرة الملكية في أور. وقد اقترح لمصدر الذهب في حضارة وادي الرافدين قطران معروفان، أما من بلاد أرمينية أو من القطر المسمى «ملوخا» الذي يرجح تعيينه بالحبشة أو بلاد النوبة. واستوردت طائفة من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة من بعض الجهات في أفغانستان و«بدخشان»، ولا سيما حجر اللازورد الجميل (Lapis lazulli) الذي استعمل بكثرة في آثار عصر فجر السلالات والعصور السابقة واللاحقة. ونذكر أيضاً العقيق بأنواعه المختلفة والصدف واللؤلؤ من مناطق الخليج ومن الجهات الشمالية الغربية من الهند، أي بلاد السند.

الحرب والأسلحة:

ونهي كلامنا على عصر فجر السلالات بإيجاز القول في نظام الحرب والأسلحة بالنظر إلى أن ذلك العصر كما مر بنا شغل بالحروب والنزاع ما بين دويلات المدن، فظهرت الحروب المنظمة لعله لأول مرة في تأريخ الحضارات.

ولعل خير ما يمثل لنا النزعة الحربية أو العسكرية (Militarism) التي سادت دول المدن هذه، الأخبار التي جاءت إلينا من عصر فجر السلالات، سواء كانت من الوثائق المدونة أم من القطع الفنية التي مثلت فيها مشاهد الحرب، مما أشرنا إلى بعضها مثل «مسلة النسور» العائدة إلى حاكم لجش «اياناتم» وراية أور الشهيرة، التي وجدت في المقبرة الملكية. وإذا رجعنا إلى أثبات الملوك السومرية التي أوردنا ترجمتها في موضع سابق من هذا الفصل وقفنا على تلك النزعة العسكرية. فهي عندما تذكر انتقال الحكم من مدينة إلى أخرى بقيام سلالة فيها تستعمل العبارة الطريفة: «دحرت المدينة الفلانية ونقلت ملوكيتها إلى المدينة الفلانية»، ولكن الترجمة الحرفية لتلك العبارة أقرب إلى تفسير الروح الحربية السائدة وهي: «ضربت المدينة بالسلاح أو ضربت بالسيف ونقلت ملوكيتها إلى المدينة كذا». أما فن النحت ولا سيما من الطور الثالث من عصر فجر السلالات الذي حكمت في أثنائه أشهر دول المدن، فإنه

لا يتفوق عليه في كثرة ما مثل فيه من مشاهد الحرب والقتال إلا الفن الآشوري.

هذا وليس بالإمكان تقدير الجيوش في دول المدن المختلفة. وكانت دولة لجش الدولة الوحيدة التي خلفت لنا وثائق لا بأس بها، ولعله يمكن تقدير جيشها بالنسبة إلى عدد سكانها الذي أوردنا تقديره فيما سبق. ومن هذه الأخبار المدونة أن معبد «لجش» الرئيسي جهز من أتباعه نحو (600) أو (500) رجل ليخدموا في جيش دولة المدينة. ويخبرنا «اياناتم» في أحد نصوصه المدونة أنه قتل من جيش دولة المدينة المعادية «اوما» (3600) رجل.

وإذا ما فحصنا القطع الفنية التي مثلت فيها المشاهد الحربية ولا سيما ما جاء إلينا من دولة لجش و«أور» وجدنا أن الصنوف الغالبة في جيوش عصر فجر السلالات العربات الحربية والجند المشاة، كما مثلت في «مسلة النسور» العائدة إلى «اياناتم». ولكن المشهد الممثل في راية «أور» الجميلة أكثر تفصيلاً في تمثيل الحرب والجيش. فنشاهد في الحقل الأعلى من هذه القطعة الفنية العربة الملكية وبجانبها الملك القائد. ويرينا المشهد الأسفل أربع عربات أخرى وهي مشتبكة في القتال. ويبدو أن عربات القتال هذه كانت تتسع لأكثر من مقاتل، والسلاح الشائع فيها الرمح والسيف المقوس نوعاً ما، ونوع آخر من السيوف على هيئة أوراق الشجر. ويكون مقدمة العربة الحربية محمياً بحاجز، وفيها جعبة للرماح الخاصة التي يرجح أنها كانت ترمى أو تقذف بنوع خاص من المقاليع أو المقاذف. والواقع أن هذا النوع من الرماح وجد في المقبرة الملكية في «أور»، وأنه هو الذي كان شائعاً في الاستعمال في عصر فجر السلالات بدلاً من القوس والسهم اللذين بدأ استعمالهما في الحرب من جانب المشاة من بعد ذلك العصر. أما الحيوانات المستعملة لجر العربات فكانت نوعاً من الحمر الوحشية المعروفة باسم (Onager)[1]. وكان يجر العربة

---

(1) انقرض هذا النوع من الحمير، وكان موجوداً في العالم قبل زهاء القرن الواحد:
CAH., I, part 2, (1971), 122.

الواحدة أربعة حيوانات في صف واحد، وتربطها أعنة تمرر من شق في أعلى مقدمة العربة ثم من عنان مزدوج مثبت بعمود العربة. وكانت هذه العربات ذات أشكال غريبة اختفت من الاستعمال في العصور التالية، فعجلاتها مثلاً كانت من النوع الصلد غير المشبك، وكان هيكلها الخشبي يغلف بجلود ثخينة قوية، وهي ذات جانبين واطئين ولكن مقدماتها عالية. وقد وجد من هذه العربات عدة أجزاء من المقبرة الملكية في «أور» ومن كيش، بالإضافة إلى النماذج المصغرة التي وصلت إلينا من مواضع كثيرة مثل «أور» وتل أجرب وتل أسمر، وفي المتحف العراقي نماذج منها.

أما صنف الفرسان أو الخيالة فلم يظهر في القتال إلا في أزمان متأخرة من بعد عصر فجر السلالات. وكان صنف المشاة كما تمثله القطع الفنية التي أشرنا إليها ينظم في المعركة على هيئة نظام الصف (Phalanx) الإغريقي والمقدوني، فكانت الصفوف تنظم الواحد خلف الآخر، وقد شرع الجند رماحهم بهيئة أفقية ويحمل كل منهم ترساً أو مجناً (Shield)، وتصف التروس الواحد جنب الآخر بحيث إنها تؤلف جداراً صلباً يحمي المحاربين المدججين بالسلاح، ويلبسون في رؤوسهم بيضات أو خوذاً معدنية مرصعة بالمعدن أيضاً. ويتقدم صفوف الجنود في الغالب بعض الجنود المسلحين تسليحاً خفيفاً، وينازلون نزالاً فردياً جنوداً من الأعداء بطريقة المبارزة. وكان الجند يسلحون بالإضافة إلى الرماح والسيوف بالخناجر أو الفؤوس. والمعدن الشائع في صنع مثل هذه الأسلحة البرونز حيث لم يستعمل الحديد بعد.

أما القذائف (Missiles) كالقوس والسهم فإنها لم تستعمل في عصر فجر السلالات، بل بدأ استعمالها في الحرب في العصر الآكدي التالي. كما لم تستعمل الآلات القاذفة الأخرى مما استعمل في العصور التالية. وكان عماد التسلح بوجه عام الأسلحة الثقيلة والنزال الفردي وقتال نظام الصف. ومع أن القوس والسهم كانا معروفين منذ عصور أقدم من عصر فجر السلالات كما تشير إلى ذلك الصور المنقوشة على الأختام الإسطوانية والأواني الفخارية

والمنحوتات مثل مسلة صيد الأسود من الوركاء، إلا أنها كانت مقتصرة في استعمالها على الصيد دون الحرب. وعلى الرغم من أنه لم تأت إلينا مشاهد مصورة عن آلات الحصار والنقض ودك الأسوار، إلا أن المرجح أن نوعاً من مثل هذه الآلات كان معروفاً، ذلك لأن مدن عصر فجر السلالات كانت مسورة في الغالب كما بينا. ولعلهم اتبعوا في نقض أسوار المدن طريقة إقامة مدارج أو منحدرات ترابية (Ramp) على الأسوار ثم تسلقها والرقي بواسطتها إلى أعاليها، وهي الطريقة التي شاعت عند الآشوريين واليونان والرومان بالإضافة إلا آلات الحصار الأخرى.

الفصل السادس

الأمبراطورية الآكدية ودولة (أور) الثالثة

رأينا في الفصل السابق كيف انتهى عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن بتوحيد دويلات المدن الحاكمة على يد آخر حكام ذلك العهد المسمى «لوگال زاكيزي» الذي استطاع أن يخضعها إلى سلطانه فيؤسس بذلك مملكة القطر بعد أن كان النظام السياسي السائد في العراق نظام دولة المدينة على نحو ما مر بنا، ورأينا كذلك كيف وسع ذلك القائد العظيم مملكته فمدَّها بالفتوح إلى خارج القطر وأقام بذلك ما يصح أن نسميه الأمبراطورية. وبعد نحو ربع قرن من قيام «لوگال زاكيزي» برز في أحداث تاريخ وادي الرافدين حاكم آخر برهن على أنه أشد عزيمة وأصلب عوداً من لوكال زاكيزي، وذلك هو الملك «سرجون الآكدي» الذي نازعه السلطة والزعامة وأحرز الغلبة عليه وأسس سلالة حاكمة عرفت بالسلالة الآكدية أو الدولة الآكدية (2334 ـ 2154ق.م أو 2371 ـ 2230ق.م)، أي إنها دامت أكثر من قرن ونصف القرن وشمل حكمها القطر كله واتسع بالفتوحات الخارجية إلى الأقطار المجاورة. أما التسمية «آكدي» و«آكديون» فقد سبق أن تطرقنا إليها في كلامنا على أقوام حضارة وادي الرافدين في فصل المقدمة الجغرافية. وقد رأينا أن هذه التسمية مشتقة من اسم مدينة «آكد» أو آكادة التي أسسها مؤسس السلالة سرجون واتخذها عاصمة له، فهي بذلك تسمية لاحقة لوجود الآكديين في وادي الرافدين، وهم الساميون الذين نزحوا إليه منذ أقدم العصور التأريخية وعاشوا جنباً إلى جنب مع الأقوام الأخرى وفي مقدمتهم السومريون الذين رأيناهم يقومون بالدور البارز في إنشاء حضارة وادي الرافدين ولا سيما في

العصر الذي سميناه عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن حيث ساد السومريون سياسياً وثقافياً ولغوياً.

ومع أن حكم سرجون وعهد السلالة التي أسسها كما قلنا لا يمثلان هجرة سامية جديدة أو أول استيطان للساميين في العراق بل مجرد قيام أول سلالة حاكمة منهم، بيد أن العهد الآكدي الجديد يحدد نهاية عصر وبداية عصر جديد بدأت فيه ملامح حضارة وادي الرافدين تتبدل تبدلاً أساسياً من الناحية القومية واللغوية والسياسية، كما ظهرت عناصر ومقومات حضارية جديدة. فعلى الصعيد اللغوي بدأت اللغة الآكدية (وهي السامية الشرقية من عائلة اللغات السامية) تأخذ المكان البارز بكونها اللغة الرسمية المدونة إلى جانب كونها لغة محكية منذ أقدم الأزمان. واستمرت هذه اللغة في بروزها وتفوقها على اللغة السومرية في العصور التالية إلى أن صارت اللغة السائدة منذ العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) تدويناً وتكلماً، واقتصر الأمر في اللغة السومرية على استمرارها لغة حضارية مدونة جنباً إلى جنب مع اللغة الآكدية. وسنرى من كلامنا على أعمال سرجون وخلفائه طائفة من الأشياء الجديدة التي ظهرت في حضارة وادي الرافدين بوجه عام والنظم السياسية والاجتماعية والحربية بوجه خاص. فإلى جانب اللقب السياسي الذي ابتدعه «لوكال زاكيزي»، أي ملك القطر وملك بلاد سومر، اتخذ سرجون أو حفيده «نرام - سين» لقباً جديداً هو «ملك الجهات الأربع»[1]، وهو لقب بالإضافة إلى كونه مظهراً من مظاهر اتساع السلطة وازدياد رقعة المملكة، ذو مدلول ديني لتثبيت السلطان السياسي، فقد كان لقباً خاصاً ببعض الآلهة العظام مثل «آنو» و«أنليل» و«شمش»، بصفتهم أسياد الخليفة والكون، وباتخاذ الملوك الآكديين هذا اللقب صاروا ممثلين لهؤلاء الآلهة في حكم العالم.

ومن مظاهر سعي الملوك الآكديين لتثبيت سلطانهم وطاعتهم أن سرجون

(1) نص هذا اللقب باللغة الآكدية: «شار كبرات اربعيم أو عربيتم» وبالسومرية Lugal an-ubda limmu-ba.

أدخل اسم الملك في العقود القانونية مع أسماء الآلهة، كما أنه جعل القضاة مجرد موظفين يعينهم الملك بعد أن كانوا في العهود السابقة أشبه ما يكونون بالمحكمين. أما في هذا العهد الجديد فقد صارت أحكامهم وأقضيتهم ملزمة لأنهم يحكمون باسم الملك[1]. ومن الوسائل التي أدخلها سرجون لتوطيد وحدة المملكة توحيد التقويم بعد أن كان لكل دولة مدينة في العصر السابق تقويمها الخاص بها وأسماء أشهرها وأعيادها الخاصة.

وسنرى من كلامنا على حكم سرجون أن هذا الملك لم يثق بولاء دول المدن السومرية التي أخضعها إلى حكمه، بل اعتمد بالدرجة الأولى على أتباعه الذين أقطعهم الأراضي، كما أنه عين من جانبه حكاماً على المدن والولايات التابعة وأبطل نظام تولي مثل هذه المناصب بالوراثة، وإلى ذلك أزال أسوار المدن، وصار حكام المدن في عهد حفيده «نرام ـ سين» يلقبون أنفسهم: «عبد الملك»[2]، وهو العرف الذي استمر إلى العهود التالية. والمرجح كثيراً أن سرجون كان أول من أوجد نظام الجيش القائم الدائم وأحدث تغييرات أساسية في أساليب القتال والسلاح، ومما لا شك فيه أن يكون ذلك من جملة العوامل التي مكنته من غلبة خصمه «لوكال زاكيزي». فقد أبطل استعمال الأسلحة الثقيلة السائدة في عصر فجر السلالات والتي كانت لا تساعد على المرونة في الحركة والمناورة في ميدان القتال، كما يرجح أنه أبطل أيضاً نظام الصف (Phalanx) الثقيل وأكثر من استعمال الأسلحة الخفيفة وفي مقدمتها أسلحة الرماية والقذف مثل القوس والسهم.

وإذا كان الآكديون قد اقتبسوا الشيء الكثير من تراث السومريين الفني فإننا مع ذلك نلاحظ في فن العصر الآكدي روحاً جديدة تتسم بالقوة والحركة والحيوية مما يمكن الوقوف عليه في المنحوتات وفي فن نقش الأختام

---

(1) انظر حول ذلك:

Frankfort, Kingship and the Gods, (1954), 406.

(2) راجع: Frankfort, *The Birth of Civilization*, p. 74.

الإسطوانية التي جاءت إلينا من هذا العصر، ويكفي أن نذكر بهذا الصدد الرأس البرونزي المسبوك الذي وجد في نينوى، وهو يمثل إما سرجون أو حفيده «نيرام - سين» ويعد على قدر عظيم من البراعة الفنية، ونذكر أيضاً المنحوتات الجميلة التي خلفها «نرام - سين» ويشاهد فيها قوة التعبير والحركة الحيوية.

ومن الأمور الحضارية التي يجدر التنويه بها في موضوع انتقال السلطة السياسية إلى الآكديين الساميين انتفاء الصراع القومي الذي كان يفترضه الباحثون القدماء ما بين الساميين وبين السومريين على أن منشأه أسباب قومية. إذ الواقع من الأمر أن الملوك الآكديين إذ كانوا قد اتخذوا القسوة إزاء بعض المدن السومرية فإن سبب ذلك لأنها أعلنت الثورة وليس لأن أهلها من السومريين، وأنهم ساروا على السياسة نفسها تجاه بعض المدن الآكدية إذ أظهرت العصيان. وعلى الرغم من حلول بعض الملاك الآكديين محل أهل بعض المدن السومرية توجد أدلة تأريخية مهمة تشير إلى المعاملة العادلة القانونية التي عومل بها أصحاب الأملاك المنتزعة منهم أملاكهم، ومن الأمثلة على ذلك أن الملك الآكدي «مانشتوسو» لم يغتصب الأملاك التي استحوذ عليها بل عوّض عنها تعويضاً عادلاً كما جاء ذلك في نصوص مسلته التأريخية المشهورة[1]، ومع أن كتابة هذه المسلة لا تذكر الأغراض التي اشتريت من

---

(1) وهي مسلة شبه هرمية من حجر الديوريت الأسود، ارتفاعها نحو (5) أقدام، وهي منقوشة بكتابة آكدية من 69 عموداً أو حقلاً من الكتابة تسجل صفقات شراء أراضٍ من جانب الملك «مانشتوسو» في بعض المدن. ويرى الأستاذ «گلب» (Gelb) أن هذه المسلة نسخة زورت في العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م). وقد عثر عليها في مدينة «سوسة» (عاصمة بلاد عيلام) حيث كانت من بين الغنائم التي أخذها العيلاميون من وادي الرافدين في نهاية العهد الكشي (القرن الثاني عشر ق.م). انظر نص المسلة وترجمتها في المرجع المرموز له بـ:

MDP, I, pl. IX, Tome 2, pl. 1ff.

وعن النصوص الأخرى من هذا العهد انظر:

Gelb, *Sargonic Texts from The Diyala Region.*

أجلها تلك الأراضي، إلا أن أغلب الظن أنها خصصت لأتباع هذا الملك من المحاربين الآكديين، وقد جاء من بين الأسماء اثنان من أبناء حاكم مدينة «اوما» السومري، واسم بهيئة «أوروكاجينا» ابن «اينكلسا» حاكم لجش ولا يعلم بوجه التأكيد هل أن «أوروكاجينا» هذا هو الذي أزاحه «لوكال زاكيزي» من الحكم. وجاءنا من العصر الآكدي عدد غير قليل من الوثائق الخاصة بالمعاملات التجارية والاقتصادية والإدارية من جملة مواقع قديمة مثل المواضع الأثرية في منطقة ديالى ومن «سوسة» ومدينة «نوزي» يورغان تبه الآن بالقرب من كركوك، وكان اسم هذه المدينة في العصر الآكدي «گاسر» (Gasur).

ويستشف من مثل هذه الوثائق بوادر الانتقال من الاقتصاد المعبدي الذي كان سائداً في عصر فجر السلالات السابق إلى النظام العلماني في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. والجدير بالملاحظة عن ألواح الطين الخاصة بالعصر الآكدي أنها ذات أشكال تسهل معرفتها بمجرد النظر إليها، فبالمقابلة مع ألواح عصر فجر السلالات المدورة الأشكال تقريباً أو المدورة الزوايا وذات الكتابة غير المنتظمة، تميزت ألواح العصر الآكدي بجودة طينتها وبأشكالها المستطيلة وانتظام كتابتها وتخطيط أسطرها، حيث العلامات المسمارية منقوشة بعناية ودقة، وتمتاز أيضاً بجمال منظرها بوجه عام، ولم يضاهها من هذه الناحية إلا الألواح الآشورية وبوجه خاص ألواح مكتبة الملك الآشوري «آشور بانيبال». هذا وقد سبق أن أشرنا إلى بعض التغييرات التي أحدثها الآكديون الساميون في نظام الخط المسماري الذي أوجد في الأصل لتدوين لغة غير اللغة الآكدية بل اللغة السومرية، فاقتضى إجراء بعض التحويرات ليلائم تأدية تدوين اللغة الآكدية. كما أن هذه اللغة بدورها تأثرت من جراء تدوينها بهذا الخط المسماري، ولا سيما أصواتها في اختفاء بعضها من الكتابة وبوجه خاص حروف الحلق والأصوات السامية الأخرى مثل الضاد والظاء والعين والحاء لعدم وجود علامات مسمارية خاصة تؤديها. وظهرت منذ العهد الآكدي ظاهرة لغوية في نظام الخط المسماري هي أن العلامات المتخذة رموزاً (أي

العلامات التي تقوم مقام الكلمات) للتعبير عن كلمات سومرية صارت تقرأ في اللغة الآكدية بما يرادفها من كلمات في هذه اللغة، واستتبع عن ذلك الحاجة إلى وضع معاجم ولا سيما في العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) لشرح العلامات المسمارية بما يرادفها من كلمات وقِيم آكدية.

الفتوح الآكدية ونتائجها:

قبل أن نتناول ملوك الدولة الآكدية وأعمالهم نواصل هذه المقدمة العامة عن العصر الآكدي بذكر ما نتج عن الفتوح الآكدية الخارجية التي قام بها سرجون وخلفاؤه وأشهرهم حفيده «نرام ـ سين»، فقد أسفرت تلك الفتوح عن تكوين أمبراطورية واسعة شملت معظم أجزاء الهلال الخصيب وبلاد عيلام والأقسام الشرقية من آسية الصغرى إلى سواحل البحر المتوسط. وقد التقى النفوذ المصري في أواخر ما يسمى بالدولة القديمة أو عصر الأهرام بالنفوذ الآكدي في مدن الساحل الفينيقية مثل جبيل وصور وصيدا، ولكن لم يحدث اصطدام مسلح بين الدولتين في هذا العصر، وسنرى من كلامنا على عهد مؤسس الدولة الآكدية «سرجون» كيف أن الكتابات التأريخية من العهود التي أعقبت العصر الآكدي تروي لنا غزو «سرجون» إقليم «كبدوكية» في شرقي الأناضول لنجدة مستعمرة من التجار الآكديين تأسست هناك للتجارة بالصوف والفضة كما يرجح امتداد النفوذ السياسي والثقافي في كريت وقبرص بدلالة ما وجد في هذه الجهات النائية من آثار حضارة وادي الرافدين وفي مقدمتها الأختام الإسطوانية. وأبانت التحريات الآثارية التي أجريت في منطقة الخابور وجهات الجزيرة العليا وجود مستوطنات من العصر الآكدي ومن العصور السابقة، نخص بالذكر منها الحصن الذي شيّده «نرام ـ سين» في تل «براك» على الخابور، الأمر الذي يشير إلى اتساع السيطرة الآكدية وعناية ملوك الدولة الآكدية في ضمان السيطرة على الطرق التجارية المهمة ما بين العراق وسورية الشمالية وموانئ البحر المتوسط وبلاد الأناضول. وسنشاهد اتساع الأمبراطورية الآكدية في عهد «نرام ـ سين»، حفيد سرجون، حيث مد نفوذه

إلى إيران وسورية الشمالية، كما ازداد النشاط التجاري مع الخارج إلى أقاليم نائية مثل «مجان» أو «مگان» (عمان في بلاد اليمن) ومثل البلاد المسماة «ملوخا» التي عينت في العصور القديمة بأنها في بلاد السند ثم بلاد نوبيا، كما ازدادت الاتصالات مع سواحل الجزيرة وفي مقدمتها بلاد «دلمون» أو «تلمون» التي أصبح تعيينها بالبحرين من الأمور المؤكدة تقريباً، ومما لا شك فيه أن يكون مثل هذه الاتصالات قد تمّ عن طريق البحر، كل ذلك لجلب المواد الخام مثل النحاس والأحجار الكريمة وشبه الكريمة، مما نوَّهنا به أكثر من مرة في كلامنا على عصر فجر السلالات السابق.

كانت الفتوح الآكدية تستهدف بالدرجة الأولى السيطرة على البقاع الغنية بالموارد والمواد الأولية الضرورية لازدهار الحضارة. وكان الحصول على مثل هذه المواد يتم في العصور السابقة ولا سيما في عصر فجر السلالات السابق عن طريق التجارة الخارجية، ولكن هذه الوسيلة لم تكن مضمونة على الدوام ثم إن النزاع ما بين دول المدن في ذلك العصر وتضارب مصالحها الاقتصادية وتنافسها كان من العوامل المعوقة لازدهار التجارة الخارجية. هذا وقد رأينا كيف أن آخر حكام عصر فجر السلالات المسمى «لوكال زاكيزي» قد مد فتوحه إلى مصادر تلك المواد الأولية، ولكن السلالة الآكدية قد حققت السيطرة الفعلية الدائمة تقريباً على أشهر مصادر التجارة الخارجية، فيكون الفتح الآكدي على ذلك أول نظام للأمبراطورية وطلائع الاستعمار الاقتصادي المباشر.

ونرانا في غنى عن القول إن تلك الفتوح كان لها أثر بعيد في تأريخ الحضارات البشرية، والاتصالات المباشرة ما بين شعوب منطقة الشرق الأدنى،ونشر حضارة وادي الرافدين في أقاليمه، فبدأ انتشار استعمال الكتابة المسمارية حيث استعارت الشعوب المجاورة الخط المسماري لتدوين لغاتها المختلفة، وإلى هذا انتشرت عناصر الحضارة ومقوماتها، من بينها الكثير من الأساليب الأدبية والقصص والأساطير والمعتقدات الدينية، وكانت عاملاً مهماً

في تحضر كثير من الشعوب البدائية المتاخمة لوادي الرافدين عن طريق اقتباسها من عناصر هذه الحضارة وأساليبها الحربية وأسلحتها. وقد تمكن بعض الأقوام الجبلية الذين ورد ذكرهم باسم الكوتيين من الجهات الشمالية الشرقية أن تقضي على الدولة الآكدية في نهاية الأمر بعد اقتباسها فنون الحرب والسلاح من الآكديين.

ملوك الدولة الآكدية:

1 ـ سرجون:

بعد أن أوجزنا ما تميز به العهد الآكدي من خصائص حضارية وسياسية نتكلم عن أبرز الأعمال التي اضطلع بها ملوك السلالة الآكدية[1] وسير الأحداث التأريخية في حضارة وادي الرافدين في عهدها. فنبدأ بإيجاز سيرة مؤسس هذه السلالة، سرجون الآكدي الشهير. وأول ما نذكره عنه أننا لا نعرف اسمه الحقيقي. أما التسمية «سرجون»، التي تعني «الملك الصادق» أو «الملك الحق» (بالآكدية شرو ـ كين) فأغلب الظن أنها تسمية اصطنعها هذا

---

(1) حكم من السلالة الآكدية عشرة ملوك، اشتهر منهم الخمسة الأوائل. وقد اختلف في تواريخ حكمهم. ونورد فيما يلي أشهر تأريخيين لعهودهم:

(1) سرجون (2334 ـ 2279) (2371 ـ 2316).

(2) رموش (2278 ـ 2270) (2315 ـ 2307).

(3) مانشتوسو (2269 ـ 255) (2306 ـ 2292).

(4) نرام ـ سين (2254 ـ 2118) (2291 ـ 225)...

(5) شار ـ كالي ـ شري (2217 ـ 2193) (2254 ـ 2230).

(6) ايكيكي. (7) نانيؤم. (8) (2192 ـ 2190).

(9) دودو (2189 ـ 2169). (10) شودورل (2168 ـ 2154) فالأرقام الأولى التي في جهة اليمين اتبعت في المرجع:

L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia* (1964).

والأرقام الثانية التي تليها سار عليها المرجع:

Saggs, *The Greatness That Was Babylon* (1962).

الملك في الفترة الأولى من حكمه، من بعد أن استقل عن تبعيته إلى ملك «كيش». وهي تسمية نالت شهرة واسعة بين ملوك العراق القديم، بحيث اتخذها ملكان من مشاهير الملوك الآشوريين. ويؤخذ من الإشارات الكثيرة التي وردت عن سرجون في النصوص المتأخرة عن عهده أن هذا الملك دون أعماله المختلفة وأخبار فتوحه في عدة نصوص، ولكن لم يأتِ إلينا منها إلا النزر اليسير ولعل الاكتشافات المقبلة ستكمل هذا النقص، أما الآن فإن أغلب النصوص التأريخية التي بين أيدينا عن سرجون كما قلنا نسخ يرجع زمنها إلى العصور المتأخرة، وأقدمها النسخ التي خلفها لنا كتبة مدينة «نفر» التابعون لمعبد إله هذه المدينة «أنليل»، ومعظمها من العصر البابلي القديم، ويليها في الزمن النسخ الآشورية[1]. ومن قبيل هذه المصادر المتأخرة الإشارات التأريخية المهمة الواردة في الكتابات التي تعرف بنصوص الفأل والتنبؤ (Omen Texts). فمن النصوص الطريفة التي ترجع إلى العصر الآشوري الحديث (القرن السابع ق.م) أسطورة تتعلق بأصل سرجون وطفولته، اشتهرت في تأريخ حضارة وادي الرافدين، وهي ذات شبه كبير بأسطورة طفولة النبي «موسى» المشهورة في التوراة. ويلاحظ في أسطورة سرجون أنها جاءت على لسان هذا الملك (أي بضمير المتكلم) إذ يقول: إن أمي كانت كاهنة (؟) ولم أعرف أبي وكان متجولاً، وأصلي من مدينة «آزوفيرانو» (مدينة الزعفران) على الفرات. وحملت بي أمي ووضعتني سراً، فأخفتني في سلة من الحلفاء مقيرة،

---

(1) حول النصوص الخاصة بحكم سرجون وملوك السلالة الآكدية بوجه عام نورد المراجع الأساسية الآتية:

Barton, *RISA*,; Thureau - Dangin, *SAK.*; King, *Chronicles Concerning Early Babylonian Kings*, II (1907).

H. E. Hirsch in *Archiv Für Orientforschung*, XX (1963), 1ff.;

Albright, «The Epic of the Battle» in *JSOR*, 7, (1923), 1ff.;

Albright. «A Babylonian Geographical Treatise on Sargon of Akkas Empire», in *JAOS*, 45, (1925), 193ff.;

Goetze, «HistoricalAllusions in Old Babylonian Omen Texts», in *JCS*. I, (1947).

وغطتها ورمتني في الماء[1] الذي لم يغرقني. وحملني الماء إلى «آكي»، ساقي الماء، فانتشلني «آكي» ورباني واتخذني ولداً وعينني بستانياً عنده. وبينا كنت أعمل بستانياً أحبتني عشتار. وتوليت الملوكية طوال أربع و....سنة. وهنا ينخرم النص، ولكن يمكن إكماله في نص سومري للأسطورة، ومما جاء من ملاحظة عنه في أثبات الملوك السومرية من أنه كان ساقياً عند ملك مدينة «كيش» المسمى «أور ـ زبانا»، وهو ثاني ملك من سلالة هذه المدينة الرابعة، وأن سرجون بالإضافة إلى الرعاية التي أولته إياها الإلهة عشتار نال رضا الإله «مردوخ» الذي غضب على ملك كيش لأنه أهمل شعائر معبده «ايساكلا» (E-sag-ila) في بابل. هذا ولا يعلم بوجه التأكيد هل استقل سرجون عن «أور ـ زبانا»، ملك كيش عن طريق ثورة أطاحت به. على أن دلاله أثبات الملوك السومرية تشير إلى أن سلالة كيش التي حكم فيها هذا الملك قد استمرت في الحكم إذ خلف «أور ـ زبانا» السالف الذكر خمسة ملوك، وكانت السلالة التي أعقبت سلالة كيش في حكم البلاد ليست سلالة «اگاده» (سلالة سرجون) وإنما سلالة الوركاء الثالثة التي أسسها «لوكال زاكيزي» الذي قضى عليه سرجون. وإذا سلمنا بدلالة أثبات الملوك فيكون تفسير الموقف السياسي أن سرجون لم يستطع القضاء على سلالة الملك «أور ـ زبانا» في كيش، بل إنه استقل عن تبعيته لها وأسس حكمه في المدينة الجديدة التي ابتناها، أي عاصمته «أكد» أو «اگاده»، وأن الذي قضى على سلالة كيش كان

---

(1) أغلب الظن أن السبب الذي دفع أمه على أن ترميه في الماء أنها كانت من طبقة عليا من الكاهنات تسمى الواحدة منهن «اينتم» (Entum) حرم عليهن الزواج ما دمن في أثناء خدمتهن الدينية، وحرم عليهن إنجاب الأطفال. قارن هذا بالنظام الذي كانت تسير عليه رومة القديمة بالنسبة إلى صنف الكاهنات العذارى (Vestals). واعتاد الباحثون ترجمة النص بعبارة «أمي وضيعة» ولكن الدراسات الحديثة أثبتت أن المصطلح الوارد في النص بهيئة (Enitum) ليس إلا صيغة أخرى لكلمة (Entum) التي تعني «الكاهنة العليا». انظر معجم شيكاغو تحت مادة (énû). وعلى هذا كان سرجون من الطبقات العليا في المجتمع، إذ جرى العرف أن الكاهنات العليا كن بنات الملوك والحكام.

«لوكال ـ زاكيزي» الذي نازعه سرجون زعامة البلاد وقضى عليه. والمرجح كثيراً أن سرجون شغل نفسه في هذا الفترة الأولى من حكمه بتثبيت استقلاله وتأسيس عاصمة مملكته، وكان هذا مظهراً من مظاهر استقلاله.

سمى سرجون عاصمته الجديدة «أكد» أو «اگاده»، التي قلنا إن النسبة إليها صارت تطلق على الساميين في العراق، أي الآكديين، كما نسب إليها القسم الخاص بهم من السهل الرسوبي وهو القسم الأوسط، أي «بلاد أكد» المرادفة للمصطلح السومري «گي ـ أوري» (Ki-Uri). هذا ولا يعرف اشتقاق اسم هذه المدينة ومعناه. كما لم يحدد بعد موقع بقاياها، وإنما يمكن القول بوجه عام إنها تقع في موضع ما بين منطقة بلدة المحمودية وبين مدينة بابل (بجوار مدينة الحلة)، ولا يستبعد احتمال أنها أسست بالقرب من كيش وبابل أو بالقرب من مدينة «سبار» (أبو حبة الآن قرب اليوسفية)، وكان الرأي عند بعض الباحثين أنها تل الدير الواقع في الطريق الذاهب إلى مركز ناحية اليوسفية، ولكن تحريات مديرية الآثار في هذا الموضع الأثري (1940ـ1941) وتحريات البعثة البلجيكية فيه من بعد ذلك (منذ عام 1970) لم تظهر ما يؤيد هذا الظن. وهناك احتمال آخر في أن مدينة «أگاده» كانت بابل نفسها، حيث يذكر أحد نصوص الفأل من العهود المتأخرة أن سرجون أخذ تراب بابل لتأسيس مدينة تنافسها، الأمر الذي أغضب إلهها مردوخ، وصار هذا الحدث من الأسباب في سقوط سلطان الآكديين.

ومما يقال عن الأحداث في حكم سرجون إن تسلسلها غير معروف على وجه التأكيد لانتفاء النصوص المتعلقة بالموضوع، وإن جل استنادنا في ترتيبها الزمني يعتمد على ما ينبغي أن تكون عليه مجريات الحوادث من الناحية المنطقية التأريخية. وعلى ضوء هذا المنطق يبدو أن الأمر المهم الثاني الذي وجه إليه سرجون نشاطه من بعد تأسيس عاصمته تصفية الحساب مع «لوكال زاكيزي»، الذي رأيناه من بعد قضائه على دول المدن يؤسس مملكة شملت معظم أنحاء البلاد ويمد سلطانه بالفتوح الخارجية.

ومع أننا نجهل تفاصيل المعركة أو المعارك التي نشبت بين هذين

البطلين، بيد أنها كانت على ما ينبغي حرباً عنيفة بالنظر إلى ما عرف به لوكال زاكيزي من البأس والقوة، وأن هجوم سرجون على مدينة الوركاء، عاصمة خصمه، كان كذلك هجوماً مباغتاً دمرت فيه أسوار المدينة واستطاع أن يأسر «لوكال زاكيزي» ويأتي به مصفداً بالأغلال إلى باب الإله «أنليل» في مدينة نفر تذكاراً لنصره العظيم. وبعد تغلب سرجون على خصمه القوي شرع يخضع مدن بلاد سومر الواحدة تلو الأخرى ويدمر أسوارها، مبتدئ بأولى مدينة في الجنوب، هي مدينة «أور» ثم دولة مدينة «لجش» التي يبدو أنها حالفت «أور» في حربهما الدفاعية، فقضى عليها وتمّ إخضاع المدن الأخرى التابعة لها، وتبعها دولة المدينة المجاورة «أوما» (تل جوخة)، واستمر في إخضاع المدن الأخرى، وكلَّل انتصاراته على بلاد سومر بالسيطرة على منطقة الخليج واستطاع أن يضمن منفذاً من أهم المنافذ في طرق التجارة الخارجية، وجاء في نصوصه التأريخية أن سفن ملوخا ومگان (عمان) وتلمون (البحرين) كانت ترسو في ميناء عاصمته أكد.

وبعد أن تمت لسرجون السيطرة على جميع القطر، وبوجه خاص بلاد «سومر وأكد» ووطد حكمه الداخلي ووضع التنظيمات الإدارية مما أشرنا إليه في أول كلامنا على العهد الآكدي، وجه نشاطه إلى حقل الفتوح الخارجية التي أوجزنا نتائجها وآثارها سياسياً وحضارياً واقتصادياً. وقد شرع من سلسلة فتوحاته الخارجية بإخضاع المدن الواقعة على طوال نهر الفرات والاستيلاء على بلاد الشام وسيطر على أشهر الموانئ الفينيقية على البحر المتوسط مثل «ابلا» (جبيل) و«يارموتي» (لعلها جنوب جبيل)، وبلغ غابات الأرز المشهورة ومنها إلى الجبال التي ورد ذكرها في أخباره باسم جبال الفضة أي جبال «طوروس»، والمرجح كثيراً أنه فتح الأجزاء الشرقية من آسية الصغرى، ولا سيما «كبدوكية». ومما له علاقة بتغلغله إلى آسية الصغرى القصة الطريفة التي وردت بعنوان «ملك الحرب» (وبالآكدية شار ـ تمخاري)، وهي ملحمة قصيرة لا يعلم زمن تدوينها ولكن النص الذي جاءنا عنها وجد في لوح من الألواح المسمارية التي عثر عليها في «تل العمارنة» (في مصر الوسطى، وهي

عاصمة الفرعون الشهير أخناتون، القرن الرابع عشر ق.م)[1]، كما وجدت لها نسخة باللغة الحثية في «بوغازكوي» (موضع العاصمة الحثية «حاتوشاش»)، كما أشار إلى فتوح سرجون في آسية الصغرى الملك الحثي المسمى «حاتوشيلش» الأول (1650ق.م). وخلاصة هذه الملحمة أن جماعات من التجار الآكديين كانوا يقيمون في المدينة المسماة «پورشخندا» أرسلوا إلى سرجون يستعطفونه في حمايتهم من الاضطهاد الذي حلّ بهم من جانب حاكم هذه المدينة، فاستجاب سرجون لشكواهم وخف لنجدتهم بحملة حربية وجهها إلى تلك البلاد النائية ولاقى فيها الصعاب، ولما بلغ المدينة استسلم له الحاكم ويبدو أن معاهدة فرضت عليه. وأغلب الظن أن تلك الملحمة القصيرة كانت على شيء كبير من الحقيقة التأريخية فإن تلك المدينة ذكرت أيضاً من بين الأقاليم التي فتحها حفيده «نرام ـ سين». وأكثر من هذا يؤخذ من المصادر الآشورية ولا سيما تلك الوثائق التي نظمت على هيئة أثبات بالأسماء الجغرافية والمسافات ما بينها التي يظهر سرجون في الكثير منها فاتحاً، أن هذا الفاتح العظيم تعدى أقاليم «البحر الأعلى» (البحر المتوسط) المشهورة، فذكرت ضمن الأقاليم البعيدة التي فتحها «كفتارا» (Kaptara) التي هي بلا شك جزيرة «كريت» الواردة في التوراة بالصيغة نفسها تقريباً أي بهيئة «كفتور»، ولعل مما يؤيد حقيقة هذا الفتح ما عثر عليه حديثاً من أختام إسطوانية من العهد الآكدي في جزيرة قبرص[2]. وتذكر تلك الأثبات إلى جانب «كفتارا» السالفة الذكر موضعاً جغرافياً باسم «بلد القصدير» أو الرصاص (أنكو Annaku بالبابلية)[3].

---

(1) عن نص هذه الملحمة القصيرة راجع المصادر الخاصة بحكم سرجون، وراجع تحليل النص في: CAH, I, Part 2, (1971), p. 426.

(2) انظر عن هذا الموضوع:
C. H. Gordon, *Before The Bible*, (1962), 28f.

(3) حول تحديد معنى الكلمة الآكدية «انكوم» (قارن العربية أنك) بالقصدير أو الرصاص راجع البحث الآتي:
Laessoe, «Akkadian *Annaku*, Tinor Lead» in *Acta Oritntalia*, 24 (1959), 83ff.

وبعد استيلاء سرجون على بلاد آشور ومدنها المشهورة مثل نينوى[1] وآشور وغيرها وجه نشاطه العسكري إلى الجهات الشرقية والشمالية الشرقية أي الأقاليم الجبلية المتاخمة لبلاد آشور، وشملت أيضاً أجزاء مهمة من بلاد إيران، ومنها بلاد عيلام، وقد جاءتنا بهذا الصدد قائمة بأسماء الحكام التابعين إلى سرجون. وتحدد فتوح سرجون في بلاد عيلام نهاية الدائرة الكبرى التي شملتها تلك الفتوح.

خلفاء سرجون:

تذكر نصوص الفأل والتواريخ (Chronicles) المتأخرة أن ثورات داخلية وخارجية قامت في أواخر حكم سرجون، ولكن ذلك الأسد رغم شيخوخته لم يزل حادّ الأنياب والمخالب فقضى على الثائرين وقرب أسرارهم إلى الإلهة عشتار، حامية مدينة «أكد»، ومع ذلك لم يسلم من غضب الآلهة الأخرى ولا سيما إله بابل «مردوخ» بسبب بنائه لمدينة «أگاده» بالقرب منها ومزاحمتها لها. ومات سرجون وهو شيخ بعد أن حكم ما يربو على نصف القرن (56سنة) بحسب أثبات الملوك، وخلفه في الحكم ولداه «رموش» و«مانشتوسو» بالتعاقب، ولكن «رموش» كان الابن الأصغر، وشغل عهد الاثنين بالدرجة الأولى في الحملات الحربية الموجهة لإخماد الثورات في أرجاء الأمبراطورية التي أسسها أبوهما.

رموش:

حكم «رموش» تسع سنوات قضى معظمها كما قلنا في إخماد الثورات والحملات الحربية، ويبدو أن باكورة هذه الحملات كانت في سنة حكمه الثالثة على بلاد عيلام، أما السنوات الأولى فالمرجح أنها خصصت لإخماد ثورات المدن السومرية التي انتهزت فرصة موت سرجون فانفصلت وأعلنت

---

(1) حول الرأس البرونزي الذي يمثل نرام ـ سين أو سرجون والذي عثر عليه في معبد الإلهة عشتار في نينوى انظر:

Mallowan, *IRAQ*, 3. (1936), 104ff.

استقلالها وتزعمت حركة التحرر مدينة «أور»، ولذلك دمرت أكثر من غيرها. والطريف ذكره بهذا الصدد أن تدمير هذه المدينة جاء في رثاء يعزى إلى أخت «رموش» المسماة «أنخيدو أنا»، التي عيّنها أبوها كاهنة عليا في معبد الإله القمر «ننا» في أور، وكيف تخلى هذا الإله عن مدينته ولم تستطع هذه الكاهنة أن تخفف من غضب أخيها[1]، ثم أخضع المدن الأخرى من بعد «أور» وعندئذٍ اتجه في نشاطه العسكري إلى الخارج، مبتدئاً بالأقاليم الشرقية وقد جاءتنا أخبار هذه الحملات من النصوص المكتشفة في «نفر»، وأعقب ذلك غزوه بلاد عيلام وتدمير مدنها، وأعاد توطيد أمبراطورية أبيه فحق له أن يتبجح بأنه «فتح للإله أنليل البحر الأسفل (الخليج) والبحر الأعلى (البحر المتوسط) وجميع الجبال».

ومما تجدر ملاحظته بصدد هذه الفتوح أنه يوجد ما يؤيدها في المآثر التي خلفها «رموش» في جملة أقاليم من الشرق الأدنى، ومنها أجزاء من أواني الرخام المنقوشة بكتابته مما وجِد في تل «براك» وفي شمالي ما بين النهرين. ولكن السنوات الأخيرة من حكمه انتهت بمؤامرة دبرت من جانب رجال القصر يرجح كثيراً أن أخاه «مانشتوسو» اشترك فيها. ويروي لنا أحد نصوص الفأل أن حاشية قصره قتلته «بألواح الطين المختومة أو بالأختام الإسطوانية»[2].

مانشتوسو:

خلف «مانشتوسو» أخاه «رموش» على عرش الدولة الآكدية وحكم خمس عشرة سنة، ساد في السنوات الأولى منها السلم واستتباب الأمور في

---

(1) كان تعيين ابنة سرجون كاهنة عليا في معبد الإله «ننا» في أور بداية العرف الذي سار عليه معظم ملوك وادي الرافدين في تعيين بناتهم وإخواتهم في هذا المنصب الديني المهم وقد جاءتنا من ابنة سرجون جملة آثار وجدت في أور وبعض الأختام الإسطوانية العائدة إلى خدمها وحاشيتها. انظر:

Falkenstein, «ı heduanna, die Tochter Sargons von Akkad» in *RA*, 52, (1958), 129ff.

(2) راجع النص في المرجع الآتي:

A. Goetze in *JCS*, I, (1947), P. 256, No. 13.

أرجاء المملكة والأمبراطورية. وقد وجد في مدينة سوسة (عيلام) تمثال من الحجر لهذا الملك وفيه كتابة لحاكم المنطقة المسمى «اشپم» يقدم فيه التمثال لإلهة محلية «من أجل حياة سيده الملك مانشتوسو». ولكن هذا السلم لم يدم فترة طويلة إذ تكررت الثورات الداخلية والخارجية. وقد جاء في أحد النصوص التأريخية[1] وصف لحرب هذا الملك في جبهتين مهمتين: في الجهات الشرقية والجهات الجنوبية الشرقية في منطقة الخليج إزاء بعض الأقاليم الواقعة عليه، حيث جاء فيه أن: «مانشتوسو» ملك كيش (أي ملك العالم) بعد أن أخضع «أنشان» و«شريختم» (في بلاد عيلام) عبر البحر الأسفل (الخليج) في سفن فحارب 32 ملكاً من ملوك المدن الواقعة في الجانب الآخر من ذلك البحر، وأخضعهم واستولى على هذه الأقاليم وبلغ مناجم الفضة، والجبال الواقعة ما وراء البحر الأسفل وجلب الأحجار الجيدة منها، ونحت لنفسه تمثالاً وقدمه إلى الإله «أنليل». وفي نص تأريخي آخر جاء ذكر «ملوخا» بدلاً من «شريختم». فيجدر قبل أن نواصل كلامنا على الدولة الآكدية أن نذكر لمحة عن إقليم «ملوخا» الذي كثر وروده في مآثر حضارة وادي الرافدين من مختلف عهود التأريخ. فمما يُقال عن تعيين موقع «ملوخا» أنها ترد في الغالب مع اسم إقليم ثانٍ هو «مگان» (Magan) التي أصبح تعيينها بعمان من الأمور المؤكدة. أما ملوخا (Melukhkha) فيبدو من النصوص القديمة أنها كانت تقع في جهات نائية شرقية ويقترن اسمها بالبضائع المستوردة منها وعلى رأسها الأخشاب والذهب والأحجار الثمينة والعاج، ورجح تعيينها بالجهات الغربية من بلاد السند، ولا سيما مدن دلتا نهر السند التي اشتهرت منها «موهنجودارو» و«هرابا»، وقد سبق أن نوَّهنا بالصلات الحضارية القوية بين وادي الرافدين وبين بلاد السند. أما النصوص التأريخية المتأخرة، أي النصوص التي جاءتنا

---

(1) هو النص المنقوش على حجر بهيئة الصليب، وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن هذا النص لا يرجع في تأريخه إلى العصر الآكدي وإنما هو نسخة عن الأصل حول ذلك انظر:
CAH. I, Part 2, (1971).

منذ الألف الثاني، فتشير إلى «ملوخا» وهي أقرب ما تكون إلى أحد الأقاليم الإفريقية، إما بلاد النوبة أو «الحبشة»[1].

انتهى حكم «مانشتوسو» بحسب رواية أحد النصوص المتعلقة بنبوءات الفأل أنه مات مقتولاً في أثناء مؤامرة داخلية، وخلفه على العرش ابنه «نرام - سين» الشهير.

نرام - سين:

حكم «نرام - سين» الذي يعني اسمه «محبوب الإله سين»، أمداً طويلاً دام 37 عاماً، وتميز حكمه، باستثناء السنين الأخيرة منه، بالقوة والازدهار. وكان «نرام - سين» أقوى وأشهر ملك آكدي من بعد جده مؤسس السلالة «سرجون». ويتفرد عهد هذا الملك من ناحية مصادرنا التأريخية بوفرة هذه المصادر سواء كان ذلك النصوص الأصلية من عهد الملك نفسه، مثل الحوادث المؤرخ منها والمنحوتات والمسلات أم الكتابات التي جاءت إلينا من العهود المتأخرة وبضمنها نسخ من النصوص الأصلية ونصوص الفأل.

ولعل أول ما يجلب الانتباه في حكم «نرام - سين»، أن هذا الملك أوجد بدعتين في نظام الحكم، أولاهما أنه صدر كتابة اسمه بالعلامة الدالة على الألوهية، وقد سار على هذا العرف عدد من الملوك الذين جاؤوا من بعده. وأكثر من هذا صار يلقب نفسه «إله أگاده»، وهذه بدعة، ولا سيما الشق الثاني منها، كانت أقرب ما تكون إلى الكفر والخروج على العرف الديني، لأن الحكام في وادي الرافدين لم يتجاوزوا، وهم في أقصى تعاظمهم، حد التقديس والتأليه، وكونهم نواباً عن الآلهة في حكم البشر. وعزت بعض القصص والأساطير ونبوءات الفأل المتأخرة سبب سقوط «نرام - سين» إلى ذلك التطاول الديني. أما البدعة الثانية فكانت اتخاذه لقب «ملك الجهات الأربع»[2]، وهو اللقب الذي

---

(1) أحدث البحوث عن «ملوخا» في:

B. Landsberger in *Die Welt Des Orient*, (1966), 261ff.

(2) انظر:

Hallo, *Early Mesopota mian Titles* (1957).

أشرنا إليه في أول كلامنا على العصر الآكدي. والمرجح أن «نرام ـ سين» تفرد في تمثيله بالمنحوتات بارتداء لباس الرأس ذي القرون أو الأصح ذي القرنين، مما يخص لباس الآلهة.

وباستثناء عدد من السنين التي يمكن ترتيب أحداثها الزمني بالاستناد إلى إثبات الحوادث المؤرخ بها من حكم «نرام ـ سين»، فإنه يتعذر ترتيب تسلسل الأحداث الأخرى بصورة مضبوطة. وأول ما يلاحظ عن حكم هذا الملك أنه مثل أسلافه بدأت سنوات حكمه الأولى بإخماد بعض الثورات والاضطرابات التي قامت في بعض المدن في الداخل، ويبدو أن مدينة «كيش» تزعمت إحدى تلك الثورات. أما في الخارج فإن أولى الجهات التي وجه إليها عنايته كانت أقاليم شمالي ما بين النهرين والفرات الأعلى ومنطقة مدينة «ماري»، ثم جهات بلاد الشام الساحلية والداخلية، ومنها منطقة حلب التي ورد ذكرها في أخباره باسم «أرمانم» (Armanum) وجبيل (ابلا)، وقد ذكر اسم حاكم المنطقة بهيئة «ريش ـ أدد»، الذي أسر في الحرب، وصور في المنحوتة التي قدمها الملك في معبد الإله «سين». وسار كذلك إلى جبال الأرز في لبنان وإلى جبال «أمانوس». أما في آسية الصغرى فلا يمكن الجزم بأن «نرام ـ سين» أعاد سلطان الدولة الآكدية فيها، رغم الإشارات التأريخية الواردة في النصوص التأريخية من العهود المتأخرة. ومن الجهات التي مد إليها فتوحه إقليم الحوريين في أعالي الجزيرة مما بين النهرين. وقد سبق أن ذكرنا هؤلاء الحوريين في كلامنا على الأقوام القديمة في العراق. ووطد «نرام ـ سين» السلطان الآكدي في جهات شمالي العراق وفي منطقة الجزيرة (أعالي ما بين النهرين) والفرات الأعلى وفي منطقة الخابور والباليخ، وأقام بعض الحصون في المواضع الاستراتيجية في الطرق الرئيسة إلى بلاد الشام والأناضول مثل الحصن الشهير في تل «براك» الذي سبقت الإشارة إليه في عدة مواضع، ووجدت مسلة منقوشة بكتابة مشوهة وصورة الملك في القرية المسماة «بير حسين»، بالقرب من ديار بكر.

وبذل «نرام ـ سين» جهوداً أكبر في توطيد سلطانه في الجهات الشرقية

والشمالية الشرقية، حيث القبائل الجبلية الشديدة المراس المتاخمة لسهول وادي الرافدين الخصبة. وخلف «نرام ـ سين» جملة آثار مشهورة عن حملاته وانتصاراته العسكرية على أولئك الأقوام في تلك المناطق، ومنهم القوم الذين ورد اسمهم بعدة صيغ منها «لولوبو» و«لولو» و«لولومو». ويستبان من أخبار الحملات الحربية لملوك السلالة الآكدية وحملات الملوك الآشوريين على هؤلاء الأقوام أن مركز تجمعهم كان في سهل «شهروز»، وإلى الجنوب منهم كان الكونيون. وخلد «نرام ـ سين» حملته الحربية على «اللولوبو» في المنحوتات الجبلية في إحدى مجازات جبال «قره داغ» المسمى «دربندى گاوور» (جنوب شرقي مجاز دربندى بازيان الكائن في الطريق إلى السليمانية من كركوك)[1]. وقد نحت وجه الجبل المطل على هذا المجاز الجبلي مشهد يمثل إخضاع تلك الأقوام، حيث الملك «نرام ـ سين» يدوس على جثث قتلاهم، وهو لابس الخوذة الحربية ذات القرنين، سمة الألوهية ورمزها. ويبدو أن موضوع هذه المنحوتات الجبلية يكرر مشاهد مماثلة نحتت في مسلة «نرام ـ سين» الشهيرة المعروفة باسم «مسلة النصر»، وقد عثر عليها في مدينة سوسة (عاصمة بلاد عيلام)، حيث كانت من جملة الغنائم التي نقلها العيلاميون إلى بلادهم في أثناء غزوتهم التي قضت على الكشيين في بلاد بابل (القرن الثاني عشر ق.م)، وهي الآن من أنفس آثار متحف اللوفر في باريس، وتخلد انتصار الملك الآكدي على ملك «اللولوبو» المسمى «ساتوني»[2]،

---

(1) حول منحوتات جبال «قره داغ» انظر:

(1) S. Smith. *history of Assuria* (1928), P. 96.

(2) Edmons, in *The Geographical Journal,* (1925).

(2) انظر:

De Morgan. MDP. I, (1900), 144ff.

Scheil, Ibid, II, 53ff. Parrot,Sumer, P. 15-212-213.

ونشاهد في المسلة صورة «نرام ـ سين» وهي تطغى بكبرها على المشهد وقد تنكب الملك القوس وعلى رأسه تاج الألوهية ذو القرنين ويتسلق جبلاً شاهقاً ويدوس على جثث الأعداء.

وانتشر هؤلاء اللولوبو من مركزهم إلى الجهات الشرقية والغربية ومنها منطقة «زهاب» (زهاو) بالقرب من «سريبول» حيث وجدت منحوتة جبلية فيها صورة ملك «اللولوبو» وكتابة تذكر اسمه بهيئة «آنو - بانيني» بالخط المسماري واللغة الآكدية. وتوطدت سلطة «نرام - سين» في بلاد عيلام، وفرض على أحد الملوك العيلاميين المسمى «خيتا» معاهدة صداقة[1]. ووجدت في سوسة جملة مآثر بنائية تدل على تبعية بلاد عيلام إلى «نرام - سين»، ومنها الآجر المختوم باسمه، وأسماء بعض الحكام الذين عينهم على عيلام مثل «ايپر - موبي» (Epir-Mupi) و«اين - شوشناك» و«بوزر - اين - شوشناك» الذي انفصل عن تبعيته إلى الآكديين في عهد خليفة «نرام - سين»، «شاركالي شري».

مگان ودول الخليج:

لم يقتصر «نرام - سين» على تثبيت سلطانه في أرجاء الأمبراطورية في الشمال والشرق والغرب، بل إنه أراد أن يبرر لقبه الضخم الذي ابتدعه، أي «ملك الجهات الأربع» فسجل انتصارات مهمة في أقاليم الخليج والبحر العربي ولا سيما «مگان» (عمان) التي سبق ذكرها حيث دخلت في نطاق النفوذ الآكدي في عهد أسلاف «نرام - سين»، وجاء توطيد سلطة هذا الملك في «مگان» معززاً بنص كتابي جاء فيه اسم ملكها على هيئة «مانيوم» وذكر أيضاً في الأخبار التأريخية وفي نصوص الفأل من العهود المتأخرة، كما جاءتنا كسر من أواني حجر الرخام وهي منقوشة باسم «نرام - سين» وفيها عبارة «غنائم مگان». ومع أن اسم مگان كان يطلق على منطقة عمان في العصور القديمة، إلا أن الاسم نفسه صار يطلق في العصور المتأخرة من تأريخ العراق القديم على بلاد مصر[2]، الأمر الذي يثير تساؤلاً محيراً هو: هل كان المقصود من قطر «مگان» وملكه «مانيثم» في عهد نرام - سين بلاد مصر؟ ومع

(1) راجع حول هذه المعاهدة:

W. Hinz, «Elams Vertrag mit Naram - Sin» in ZA, 58 (1967), 66ff.

(2) راجع: *CAH.*, I, part 2, (1971), 445.

أننا نستبعد أن يكون المقصود كذلك بيد أنه يجدر أن نذكر بهذا الصدد أن كسر أواني الرخام المشار إليها تضاهي الأواني المصرية المنقوشة بالكتابة من عهد الأسرتين الخامسة والسادسة الذي يقع ضمنه حكم «نرام ـ سين».

نهاية حكم «نرام سين» وآخر ملوك السلالة:

كان «نرام ـ سين» آخر ملك قوي من ملوك السلالة الآكدية بل كان في الواقع، كما ذكرنا، أقوى ملوك هذه السلالة من بعد المؤسس، جده سرجون. وتذكر الأخبار المتأخرة (Chronicles) أن حكم «نرام ـ سين» انتهى بالاضطراب وتجمع الأعداء عليه. ومع أنه لا يمكن الجزم بأن حكم هذا العاهل انتهى بكارثة بيد أنه يمكن القول إن بوارد الأخطار كانت تعم أرجاء الأمبراطورية من بعد موته فأدَّت إلى تحطيمها في عهد خلفائه الضعفاء، وجاءت الضربة القاضية على ما سنذكره من جانب جموع الكوتيين. وننوِّه من بين تلك الأخبار والقصص بالأسطورة المشهورة التي وجدت نسخ منها في مكتبة الملك الآشوري «آشور ـ بانيبال» (القرن السابع ق.م)، وجاءتنا أيضاً أجزاء منها من العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م)، ونسخة أخرى من «سلطان تبه» في آسية الصغرى وبعضها باللغة الحثية[1]. فتروى هذه الأسطورة الطريفة تدفق جموع غفيرة من المحاربين البرابرة الذين كانوا ذوي أجسام وهيئات غريبة على هيئة الطيور الجوارح وقد زحفوا من الجبال الشمالية مكتسحين جميع الأقوام في طريقهم مثل «السوباريين» والكوتيين والعيلاميين وانحدروا إلى بلاد «سومر وآكد»، وواصلوا زحفهم إلى مناطق الخليج مثل تلمون (البحرين) ومگان (عمان) وبلغوا إقليم «ملوخا» ولم تستطع جيوش «نرام ـ سين» صدّ تقدمهم. وإلى هذه الأخطار الماحقة حلّت بالبلاد كوارث أخرى كالجفاف والقحط والطاعون والطوفان. ومن الأخبار المتأخرة نصوص تجعل مجيء

(1) انظر ملخص الأسطورة:

Saggs, *The Greatness That Was Babylon*, (1962), 419ff.

الكوتيين في حكم «نرام ـ سين» وأن الإله مردوخ هو الذي سلطهم لتدمير مملكته.

خلف «نرام ـ سين» في الحكم ابنه المسمى «شار ـ كالي ـ شري» (أي ملك كل الملوك). ويتميز حكم هذا الملك بكثرة ما جاءنا منه من السجلات التأريخية من بينها ثبت بأسماء السنين المؤرخ منها (Date-Formulae)، وهذا يمكننا من ترتيب بعض الأحداث المهمة بحسب تسلسلها التأريخي. فنذكر في مقدمة الأحداث التي بدأ بها انهيار الأمبراطورية انفصال بلاد عيلام واستقلالها، ولم تكتفِ بذلك بل إنها هاجمت بلاد بابل، ومع أن الملك الجديد استطاع أن يطرد العيلاميين إلا أنه لم يفلح في إرجاعهم إلى سلطته. وما كاد ينتهي من دفع خطر الغزو العيلامي حتى وجد نفسه إزاء خطر آخر من الجهات الغربية، من جموع الأموريين فقد جاء اسم سنة حكمه الثانية بأنها السنة التي تغلب فيها على الأموريين في مرتفعات «بسار»[1]. وهذا أقدم ما جاء إلينا من بوادر هجرات هؤلاء الأقوام السامية الغربيْة إلى سهول وادي الرافدين وسنراهم بعد أكثر من قرن يتدفقون على بلاد بابل ويقضون على أمبراطورية «أور». ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة الشبه الواضح ما بين الأحداث التي وقعت في عهد الملك «شار ـ كالي ـ شري» وبين تلك التي سببت القضاء على أمبراطورية أور، على أن «شار ـ كالي ـ شري» استطاع أن يصدّ جموع الأموريين، ولكن الخطر الأكبر جاء من جهة أخرى. ففي حادثة سنة أخرى يذكر هذا الملك أنه جرد حملة على الكوتيين، ويدعي الانتصار عليهم في سنة أخرى وأسر ملكهم المسمى «شارلكاب» (Sharlagab) ومهما كان نصيب هذا الادعاء من الصحة فإن هؤلاء الكوتيين أفلحوا في نهاية حكم «شار ـ كالي ـ شري» في شن هجومهم النهائي الكبير الذي قضى على حكم

---

(1) جبل بسار (Basar) أو «بسرى» الوارد في النصوص المسمارية يعرف الآن باسم جبل «بشرى»، وهي مجموعة المرتفعات الممتدة إلى الضفة اليمنى من الفرات أسفل الرقة وسيأتي الكلام على هذه المنطقة في أثناء كلامنا على الأموريين.

السلالة الآكدية. وفي وسعنا أن نستشف الفوضى السياسية التي أعقبت حكم «شار كالي شري» والذي حكم 25 عاماً بحسب أثبات الملوك، من الأخبار المعاصرة، نخص بالذكر منها العبارة الساخرة التي أضافها جامعو تلك الأثبات من بعد حكم هذا الملك، وهي: «من كان الملك ومن كان غير الملك؟» ثم تعدد تلك الأثبات أسماء أربعة ملوك حكموا جميعهم ثلاث سنوات، كانوا بالظل أشبه منهم بالحقيقة. والمرجح أن هجوم الكوتيين بلغ في عهدهم أوج شدته فاستطاعوا غزو السهل الرسوبي. ثم تذكر أثبات الملوك ملكين آخرين من السلالة الآكدية، خصصت لحكم الأول منهما المسمى «دودو» واحداً وعشرين عاماً والثاني المسمى «شو ـ دورل»، خمسة عشر عاماً، ويبدو أن هذا الملك كان على شيء من القوة بحيث استطاع أن يبسط نفوذه على منطقة اشنونا[1]، وهنا تعترضنا مشكلة تأريخية في التوفيق ما بين الانتعاش الجزئي في حياة السلالة الآكدية وبين تسلط الكوتيين على البلاد، فلا معدى من الافتراض إزاء ذلك أن ذلك التسلط لم يعم البلاد بل إنه كان جزئياً، يؤيد ذلك بعض الحقائق التأريخية الأخرى التي سنشير إليها في كلامنا على العهد الكوتي، على أنه يجوز الافتراض أيضاً أن هذين الملكين الآكديين حكما تحت سيادة الكوتيين الاسمية.

فترة الحكم الكوتي والسلالات التي قامت فيه:

كل ما يمكن قوله عن الكوتيين الذين قضوا على السلالة الآكدية إنهم كانوا من أقوام جبال «زاجروس» المتاخمة لحدود العراق الشرقية مع بلاد إيران. ولا يعلم على وجه التأكيد هل كانوا من الأقوام «الهندية ـ الأوروبية»، فإن أولئك الكوتيين لم يخلفوا وثائق مدونة بلغتهم، فلا يعرف عن لغتهم شيء سوى أسماء ملوكهم الواردة في أثبات الملوك السومرية، أما موطنهم الذي استقروا فيه فإنهم كانوا يجاورون اللولوبيين، الذين سبق ذكرهم، إلى جهة الجنوب، أي جنوب منطقة «شهرزور» التي كانت موطن أولئك اللولوبيين الذي

---

(1) المرجح في اسم هذا الملك أنه يدخل في تركيبه اسم نهر ديالى القديم أي «دورل».

شمل أيضاً المناطق الجبلية جنوب الزاب الأسفل. واستمر ذكر الكوتيين في مآثر حضارة وادي الرافدين المدونة إلى العهود المتأخرة، حيث ذكر أحفادهم باسم «قوتو» في رسائل مدينة «ماري» الشهيرة (الألف الثاني ق.م)، وكثرت الإشارات إليهم في أخبار الحملات الآشورية الحربية. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح الطوفان البابلي «أوتو ـ نبشتم» جاء ذكره في ملحمة جلجامش باسم جبل نصير، ووصف هذا الجبل في المصادر الأخرى بأنه جبل الكوتيين[1].

تخصص أثبات الملوك السومرية للكوتيين عشرين أو واحداً وعشرين ملكاً حكموا (125) عاماً. ولا يعرف اسم أول ملوكهم، ولعله كان «شارلگاب» الذي ذكره الملك الآكدي «شار كالي شري» بأنه أخذه أسيراً. ويرجع ما سبق أن ذكرناه أن الملوك الآكديين الأربعة الذي ذكرت أسماؤهم من بعد عبارة أثبات الملوك الساخرة: «من كان الملك ومن كان غير الملك» حكموا حكماً اسمياً في أثناء الحكم الكوتي، وأن الملكين اللذين جاءا من بعدهم وحكما أمداً طويلاً نوعاً ما، استعادا شيئاً من الحكم الذاتي من بعد الفوضى السياسية التي خلفتها شدة الغزو الكوتي.

ومما يُقال عن هؤلاء الكوتيين بوجه عام إنهم كانوا برابرة، ولم يتركوا آثاراً محسوسة في ثقافة البلاد ومسيرة تأريخها العام، سوى أن عهدهم كان من الفترات المظلمة في تأريخ البلاد السياسي، على أن حكمهم في البلاد لم يكن عاماً شاملاً، فلم يسيطروا على جميع أقسامها، ولعلهم، بعد التدمير الذي استتبع شدة هجومهم، انسحبوا إلى الجهات الشمالية من العراق ولا سيما منطقة كركوك، واختاروا مدينة «آرانجا» (كركوك) مركزاً لهم على ما يرجح.

---

(1) راجع البحوث الآتية عن الكوتيين:

(1) S. Dmith in *Journal of Royal* Asiatic Society, (1932), 296ff.

(2) Speiser in Journal of The American Oriental Society, (1952) 97ff.

(3) GADD in CAH. 1, Part 2, (1971) Chap. 19.

ومن الناحية الحضارية، انصهروا في بودقة حضارة وادي الرافدين، كما انصهر غيرهم من الأقوام ممن كانوا دونها في مستواهم الحضاري، مثل الكشيين في عصر لاحق، ومن أمارات ذلك الاندماج الحضاري أن أسماء ملوكهم باستثناء الأوائل منهم، تظهر عليها الصيغ الآكدية.

السلالات المعاصرة لحكم الكوتيين ـ سلالة جودية (گودية):

تجعل أثبات الملوك السومرية حكم الكوتيين، كطريقتها في السلالات الأخرى، السلطة الحاكمة الوحيدة في البلاد إلى أن تم طردهم منها بالقوة. ولكن هناك أدلة تأريخية مهمة على أن حكم الكوتيين، كما ذكرنا، لم يعم البلاد كلها، وأن سيطرتهم بدأت بالتقلص قبل أن يطردوا من البلاد. كما أن سلالات وطنية حكمت في البلاد في أثناء حكمهم، ذكر بعضها في أثبات الملوك، وبعضها لم يرد ذكرها فيها. فتذكر تلك الأثبات سلالة حكمت في الوركاء من بعد العهد الآكدي وقبيل فترة حكم الكوتيين، وخصصت لها خمسة ملوك حكموا ثلاثين عاماً. والمرجح كثيراً أن هؤلاء الملوك حكموا معاصرين للكوتيين في أواخر السلالة الآكدية، على أننا لا نعرف أشياء يعتد بها عن أولئك الملوك.

وفي منطقة «لجش» التي تتبعنا ازدهار دولتها في عصر فجر السلالات السابق، قامت سلالة من الحكام السومريين ازدهرت في عهدهم هذه الدولة، ويعد عهدها انبعاثاً جديداً في اللغة السومرية والثقافة السومرية. وكان من ملوكها الأوائل الحاكم المسمى «لوگال أو شمگال»، الذي يرجح أنه حكم في أواخر حكم الملك الآكدي «نرام ـ سين» وأوائل عهد الملك «شار كالي شري»، وخلفه عدد آخر من الحكام في لجش عاصروا الملوك الكوتيين[1]، وخلفوا

---

(1) المرجح أن ترتيب هؤلاء الحكام على الوجه الآتي: (1) لوكال أو شمكال، (2) بوزر ـ ماما، (3) «أور ـ أوتو»، (4) أور ـ ماما، (5) لوكال ـ بابا، (6) أو ـ كرلا، (7) كا ـ كوكك، (8) أور ـ بابا، (9) جودية (كودية)، (10) أور ـ ننجرسو، (11) أو گمي، (12) أور ـ كار، (13) نمخني (Nammakhni).

مآثر مدونة، منهم «أور ـ بابا» الذي بلغ درجة من الاستقلال والازدهار بحيث استطاع أن ينجز مشاريع عمرانية مهمة وفي مقدمتها بناء المعابد ومشاريع الري. وظهرت في عهده مدرسة جديدة في فن النحت السومري والأدب السومري بلغت ذروة ازدهارها في عصر «جودية» (گوديه)، وتشير الدلالة التأريخية إلى أن حكم «أور ـ بابا» تعدى حدود دولة المدينة، فامتد إلى المدن المجاورة مثل مدينة «أور»، حيث عين ابنته كاهنة عليا في معبد الإله القمر «ننا» فيها، كما يدل على ذلك الإناء الحجري المكتوب الذي وجد هناك.

وتعترض الباحث من بعد حكم «أور ـ بابا» السالف الذكر مشكلة تأريخية في أي من الحاكمين التاليين حكم قبل الآخر: گودية أو «نمخني»؟ وكان يظن سابقاً أن الثاني حكم قبل الأول، ولكن ورود اسم «نمخني» في مقدمة شريعة «أور ـ نمو»، مؤسس سلالة أور الثالثة، على أنه أخضعه لسلطته تجعل «نمخني» السالف الذكر معاصراً لأور ـ نمو، وتجعل حكم «گودية» على فرض أنه جاء من بعد «نمخني» يقع في عهد «أور ـ نمو»، ويلزم أن يكون تابعاً له، وهو أمر مستبعد لأن كل الدلائل التأريخية التي جاءتنا عن «گودية» تشير بوضوح إلى أنه كان مستقلاً كل الاستقلال في جميع أعماله وتصرفاته ولا توجد أية إشارة في نصوصه إلى أنه كان تابعاً لأور ـ نمو بأي شكل من أشكال التبعية. كل هذا يجعلنا نرجح أن الذي خلف «أور ـ بابا» في حكم دولة لجش كان «گودية»، أي إنه حكم قبل «نمخني» السالف الذكر. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد ما ذهب إليه بعض الباحثين حديثاً إلى أنه يوجد في سلالة لجش في هذه الفترة حاكمان باسم «گودية»[1]، حكم الأول منهما في عهد الكوتيين قبل «أور ـ بابا»، والثاني حكم من بعده قبيل عهد الملك «أور ـ نمو».

---

(1) انظر النشرة التي يصدرها معهد الدراسات الأثرية الألمانية في بغداد:

Baghdader Mitteilungen, Band, I, (1960), Table, No. 18.

ومهما كان الأمر فإن الكتابات المتنوعة التي خلفها گودية[1] تدل على نشاط واسع في حقل البناء والتعمير ولا سيما بناء المعابد وعلى نشاط تجاري كبير امتد إلى الأقطار المجاورة مثل بلاد الشام وبلاد عيلام والأجزاء الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية ومنها إقليم «مگان» (عمان) لجلب النحاس والأخشاب والأحجار وفي مقدمة ذلك حجر «الديورايت» الصلد، وخلف لنا كودية عدداً مهماً من تماثيله المنحوتة من هذا الحجر. ولم تقتصر سجلات گودية على النشاط العمراني والتجاري بل ورد فيها أيضاً خبر إرساله حملة عسكرية إلى إقليم «أنشان»، في بلاد عيلام. وقد طغت على نصوصه التأريخية تسجيل الأعمال التي اضطلع بها في تجديد معبد كبير آلهة لجش «ننجرسو»، الذي سبقت الإشارة إليه في كلامنا على ديانة عصر دول المدن السابق، حيث معبده المسمى «أي ـ ننو» (è-nimu) أي «معبد الخمسين»، ولعل هذه التسمية إشارة إلى الرقم المخصص لهذا الإله، إذ جرى العرف في ديانة حضارة وادي الرافدين على تخصيص أرقام لدرجات كبار الآلهة فيها. ويستطيع الباحث أن يجد في القسم الخاص ببناء هذا المعبد من نصوص گودية أموراً مهمة عن طرق تشييد المعابد وما كان يقام من شعائر ورسوم دينية، والمعتقدات الدينية بوجه عام.

وإلى هذا تعدّ النصوص التي خلفها «گودية» بعثاً للأدب السومري، وهي أطول نصوص أدبية سومرية وصلت إلينا لحد الآن، وخير ما يمثل لنا اللغة

---

(1) عن نصوص «كودية» راجع:

(1) Thureau - Dangin, SAK.

(2) Barton, RISA.

(3) Maurice Price, *The Great* Cylinder Inscriptions of Gudea.

(4) M. Lambert and Tournay in *RB*, 55, (1948), 403ff.

(5) L. Oppenheim in ANET, (1955).

(6) M. Lambert in RA, (1925) 81ff.

السومرية إبان نضجها[1]، وعلى هذا يتضح أن دولة لجش حافظت على المآثر السومرية والتراث السومري التي اشتهرت به في عصر فجر السلالات، رغم تسلط الآكديين الساميين وفترة الكوتيين المظلمة. ولما قامت سلالة «أور» الثالثة في أواخر حكم «گودية» كان الأدب السومري واللغة السومرية قد بلغا أوج نضجهما، وقد واصل ملوك هذه السلالة السومريون إحياء التراث السومري، كما سيأتي ذكر ذلك في كلامنا على هذه السلالة. وقد دوّنت نصوص گودية الشهيرة على إسطوانات من الطين وعلى تماثيله المنحوتة بالإضافة إلى النصوص البنائية القصيرة. ولعله من المفيد أن نذكر ترجمة بعض الفقرات الطريفة في إسطوانة گودية المرقمة «A»، وهي الإسطوانة الخاصة بتجديد معبد الإله «ننجرسو»: «في وسط الحلم كان رجل بلغ طوله ارتفاع السماء، ووزنه وزن الأرض... وكان يربض عن يمينه وعن يساره أسدان. لقد أمرني أن أبني له معبداً ولكنني لم أدرك رغبته ومراده.... ثم ظهرت امرأة حرت في أمرها من تكون. كانت تمسك بيدها قلماً من معدن وهّاج، وباليد الأخرى لوح كتابة السماء المقدسة، وهي مستغرقة في تفكيرها...». ولما استيقظ گودية اضطرب وحار في تفسير الحلم، فالتجأ يلتمس العون من أمه الإلهة «كاتمدگ». ثم ركب القارب وقصد معبد الإلهة «نانشة»، البصيرة بتعبير الرؤيا، ففسرت «نانشة» حلمه بأن الرجل الذي رآه كان «ننجرسو»، والمرأة الإلهة «نصابا»، إلهة القلم والمعرفة، ونصحت نانشة گودية أن يقدم إلى ننجرسو عربة مزينة بالذهب وحجر اللازورد، وأن الإله نفسه سينبئه عن

---

(1) عن نصوص «كودية» راجع:

(1) Thureau - Dangin, SAK.

(2) Barton, RISA.

(3) Maurice Price, *The Great* Cylinder Inscriptions of Gudea.

(4) M. Lambert and Tournay in *RB*, 55, (1948), 403ff.

(5) L. Oppenheim in ANET, (1955).

(6) M. Lambert in RA, (1925) 81ff.

هيئة المعبد الذي أمره ببنائه. فعمل گودية بما أشير عليه. وبعد أن جمع أهل لجش وجعلهم كأنهم «أبناء أم واحدة» وأحل السلام والطمأنينة في كل بيت، نقض المعبد القديم وطهر المدينة: «طهر المدينة القديمة وأحاطها بالنار... وجمع الطين من كل موضع طاهر، وفي مكان مطهر صنع منه الآجر بالقالب. لقد اتبع الشعائر بجميع أمجادها، وطهر أسس المعبد محيطاً إياها بالنار، ومسح الدكة (المصطبة) بالبلسم المعطر». وبعد أن أتم هذه التحضيرات الشعائرية جلب العمال والصناع من كل الأمكنة مثل بلاد عيلام. ومن مكان وملوخا جلب الأخشاب إلى مدينته گرسو.. گودية الكاهن الأعلى للإله ننجرسو فتح الطريق إلى جبال الأرز التي لم يصل إليها أحد من قبل وقطع الأرز بفؤوس ضخمة.. وكالثعابين الهائلة كانت أخشاب الأرز تطفو على الماء... ومن مقالع الأحجار التي لم يبلغها أحد من قبل فتح الطريق «گودية»، وجمع الأحجار بكتل ضخمة... وجمعت للحاكم (گودية) المعادن الثمينة الكثيرة. فجلب النحاس من جبل النحاس «كماش»، وجمع الذهب من الجبال وكأنه التراب، واستخرجت الفضة من الجبال، والحجارة الحمراء من «ملوخا». وهكذا شرع گودية في بناء معبد «ننجرسو» الضخم، ويبدو أنه أتم بناءه في مدى عام واحد.

أمبراطورية سلالة «أور» الثالثة:

1 ـ أوتو ـ حيگال وطرد الكوتيين:

كان أحد الأمراء السومريين المسمى «أوتو ـ حيگال» يحكم في مدينة الوركاء في أواخر العهد الكوتي، ولعله كان معاصراً لگودية السالف الذكر. وقد ذكرته أثبات الملوك السومرية بصفته مؤسس سلالة حاكمة في تلك المدينة، هي سلالتها الخامسة، وكان الملك الوحيد فيها وقد خصص لحكمه سبع سنوات ونصف السنة، حيث انتقلت الملوكية، بموجب تلك الأثبات، إلى مدينة «أور». وخلف لنا أوتو ـ حيگال نص كتابته التأريخية الذي يروي خبر طرده الكوتيين وتحرير البلاد منهم، ولعل النص الأصلي نقش على مسلة من

الحجر[1]. وتعد هذه الكتابة من ناحية أسلوبها من أجود ما وصل إلينا من الأدب السومري في عهد انتعاشه ونضجه منذ زمن «گودية».

يبدأ هذا النص التأريخي بالقول: «إن أوتو ـ حيگال سحق الكوتيين ثعابين الجبال القارصة وأعداء الآلهة الذين نقلوا ملوكية بلاد سومر إلى الجبال وملؤوا البلاد بالشر.... ولما أن قرر الإله «أنليل» أن يمحوهم اختار أوتو ـ حيگال، ملك أوروك لتنفيذ إرادته... فصلى في معبد إلهته «أنانا» التي اختارته بدورها لتلك المهمة». ويستمر أوتو ـ حيگال في روايته الممتعة فيخبرنا كيف جمع محاربي أوروك حوله وسار على رأسهم. وفي الموضع المسمى معبد «أيشور» خطب بالجموع فهتفوا له وفي اليوم السادس من المسيرة وفي المكان المسمى «معبد ايلي ـ تبًّا»، جاء إليه ضابطان من ملك الكوتيين لعله لعرض الخضوع والتسليم، ولكنه أبى ذلك على ما يبدو. وفي اليوم السادس التقى بجيش «تريقان»، ملك الكوتيين، فهزمه، وهرب هذا الملك إلى إحدى المدن، ولكن أهلها قبضوا عليه وسلموه إلى أوتو ـ حيگال، فوضع قدميه على رقبته وأعاد بذلك ملوكية «سومر» إلى أهلها.

وهكذا انتهت فترة تسلط الكوتيين في عهد آخر ملوكهم «تريقان» الذي لم يحكم سوى أربعين يوماً بحسب أثبات الملوك. وقد خلدت حرب التحرير هذه في مآثر الأجيال التالية فذكرتها التنبؤات الخاصة بالفأل، مثل طريقة فحص الكبد، ومنها أن مشاهدة ستة أوعية صغيرة في الكبد «فأل الملك تريقان الذي هرب من وسط جموعه». وسجل فأل آخر خاص بخسوف القمر في الرابع عشر من شهر «تموز» البابلي واقتران ذلك بنشوب ثورة على الكوتيين وسقوطهم[2]. وهذه أولى ثورة تموزية في تأريخ العالم. ويوجد فأل طريف

---

(1) حول نص «أوتو ـ حيگال» انظر:

RISA.; SAK.,

Gadd, *Sumerian Reading Book* (1924); Karmer, *The Sumerians* 325.

(2) انظر: CAH., I, Part 2, (1971), P. 426.

آخر يتعلق بنهاية حياة «أوتو ـ حيگال» نفسه في موته غرقاً وهو يشرف على بناء سد على أحد الأنهار.

2 ـ سلالة «أور» الثالثة:

لم يتمتع البطل المحرر «أوتو ـ حيگال» في الحكم سوى فترة قصيرة من الزمن دامت سبع سنوات ونصف السنة، كما تنص على ذلك أثبات الملوك. والمرجح كثيراً أن هذه الأثبات التي سبقت الإشارة إليها مراراً قد دوّنت لأول مرة في عهد هذا الملك، ثم أضيفت إليها سلالتا «أور» الثالثة و«ايسن» في النسخة الأخيرة التي جاءت إلينا من عهد سلالة «ايسن»، كما ذكرنا ذلك في الفصل الخاص بالتنقيبات والتحريات الآثارية. ولعل الدافع إلى وضعها لأول مرة نشأ من الروح القومية الجديدة التي انبعثت عند السومريين من بعد نجاح حرب التحرير التي شنها «أوتو ـ حيگال» على الكوتيين، فكان من مظاهرها تدوين تراث نظام الحكم المتطاول في البلاد وسلالاتها الحاكمة الكثيرة.

وبالإضافة إلى النص الذي دون خبر طرد الكوتيين وجد عدد من النصوص الكتابية الأخرى في «أور» وفي بعض المدن الأخرى المجاورة تشير إلى اهتمام الملك «أوتو ـ حيگال» بمدينة «أور» وجاء في أحدها اسم «أور ـ نمو» بصفته حاكم هذه المدينة من قبل أوتو ـ حيگال. كما ذكر في نصوص بعض المخاريط الطينية أن أوتو ـ حيگال عين الحدود ما بين «لجش» و«أور» وهذا يشير إلى تبعية هاتين المدينتين إليه. ولعله يصح الافتراض أن تسوية الحدود هذه كانت في صالح لجش، الأمر الذي أغضب «أور ـ نمو» حاكم «أور»، وكان ذلك من بين الأسباب التي دفعته على العصيان والانفصال عن «أوتو ـ حيگال»، على أننا نجهل سير الأحداث التي رافقت استقلال «أور ـ نمو» وتغلبه على أوتو ـ حيگال وتفرده بالحكم وتأسيسه سلالة حاكمة شهيرة فيها، هي سلالتها الثالثة موضوع كلامنا الآن.

أور ـ نمو:

وعلى هذا الوجه قامت سلالة أور الثالثة التي دام حكمها زهاء القرن الواحد (2112 ـ 2004ق.م)، وحكم منها خمسة ملوك[1]، أعيدت في عهدهم وحدة البلاد السياسية من بعد فترة حكم الكوتيين المظلمة، ولم يكتفِ ملوك هذه السلالة بإعادة الوحدة السياسية إلى البلاد بل إنهم وسعوا مملكة القطر بفتوحهم الخارجية، معيدين بذلك الأمبراطورية الآكدية. وقد شملت تلك الفتوحات أجزاء مهمة من أنحاء الشرق الأدنى من بينها بلاد آشور وبلاد عيلام وسورية ووادي الخابور والباليخ والأجزاء الشرقية من آسية الصغرى ومناطق الخليج العربي. ومن الملاحظات العامة التي يجب ذكرها عن سلالة «أور» الثالثة قبل إيجاز الكلام عن ملوكها أنها كانت نهاية حياة السومريين السياسية، إذ لم تنشأ منهم سلالات حاكمة أخرى بصفتهم طبقة حاكمة من بعد هذه السلالة. وسنرى في الفصل الآتي كيف تفرد الساميون في الحكم في العصر الذي تلا سلالة «أور»، أي العصر الذي سميناه بالعصر البابلي القديم حيث تدفقت في مطلعه هجرات جديدة من الساميين إلى وادي الرافدين، هم الساميون الغربيون أو الأموريون. ولكن على الرغم من اختفاء السومريين من المسرح السياسي فقد ظل تراثهم الثقافي واللغوي حياً إلى آخر أدوار حضارة وادي الرافدين تقريباً. والواقع أن التحول إلى السامية لغوياً وقومياً كان قد بدأ منذ قيام الدولة الآكدية، وأن قيام سلالة «أور» الثالثة السومرية لم يصد تيار ذلك التحول، ولعل أقصى ما استطاع أن يفعله ملوك تلك السلالة إعادة استعمال اللغة السومرية لغة للتدوين الرسمي، ولكن اللغة الآكدية (السامية) استمرت بصفتها لغة محكية لقطاع كبير من سكان البلاد والتدوين بها أيضاً في المناطق الآكدية. وإلى هذا ظهرت إمارات قوية من جانب ملوك «أور» على التوفيق والمصالحة مع السكان الآكديين ولعل أوضح مثال على هذه الظاهرة

---

(1) هم بالترتيب: (1) أور ـ نمو (2112 ـ 2095)، (2) شولكي (2094 ـ 2047)، (3) أمار ـ سين أو بور ـ سين (2046 ـ 2038)، (4) شو سين (2037 ـ 2029)، (5) أبي ـ سين (2028 ـ 2004).

أن أولئك الملوك استعملوا اللقب المشهور: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد»، وهو اللقب الذي أوجده الملك «أوتو ـ حيگال»، بالإضافة إلى لقبهم الخاص «ملك أور»، ولقب «ملك الجهات الأربع»، الذي ابتدعه الملك الآكدي نرام ـ سين كما ذكرنا، واتخذ الملوك الثلاثة الأواخر منهم أسماء سامية، إذ إنه إذا استثنينا اسم مؤسس السلالة «أور ـ نمو» واسم خلفه «شولگي» اللذين هما اسمان سومريان، فإن أسماء الملوك الباقين منهم سامية كما بينا وهم: «امار ـ سين» أو «بور ـ سين» و«شو ـ سين» و«ابي ـ سين».

يتميّز عهد ملوك هذه السلالة من ناحية المصادر بوفرة ما وصل إلينا منهم من نصوص وعقود تجارية وقانونية تعد بالألوف، ولكن المصادر الرسمية، أي الكتابات الملكية، قليلة جداً بالمقارنة مع الصنف الأول من المصادر. فلم يأتِ إلينا سوى عدد قليل من النصوص القصيرة الخاصة بملوك هذه السلالة، وأسماء الحوادث التي كانت تتخذ لتأريخ السنين أي ما سميناه (Date Formule)[1].

تخصص أثبات الملوك للملك «أور ـ نمو» حكماً دام ثماني عشرة سنة، ابتداء من إعلان استقلاله عن «أوتو ـ حيگال»، على أننا لا نعرف تسلسل الأحداث الخاصة بالسني الأولى من حكمه. وقد جاء في إحدى التراتيل الدينية أنه طارد فلولاً من الكوتيين كانوا محتمين في إحدى جهات البلاد، كما يذكر نفسه في مقدمة شريعته التي سيأتي الكلام عليها أنه أخضع حاكم لجش المسمى «نمخني» مما سبقت الإشارة إليه في القسم الخاص بالكوتيين. ودوّنت إحدى الحوادث المؤرخ بها أنه مهد الطريق من «الجهات السفلى إلى الجهات العليا»، أي إنه سار من «البحر الأسفل» (الخليج) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط).

---

(1) حول الحوادث المؤرخ بها من عهد سلالة «أور» الثالثة انظر:

Ungnad in, RLA, II, (1938), 136ff.

وعن كتابات ملوك هذه السلالة: *RISA. SAK.*

وكذلك: *Ur Excavations*.

أما عن شريعة «أور ـ نمو» الشهيرة التي وجدت منها نسخ غير كاملة في مدينة «نفر»[1]، فقد أفردنا لها بحثاً خاصاً في الفصل المخصص للشرائع في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ومما لا شك أن عهد هذا الملك كان بداية تعاظم سلطان الدولة وازدهارها الاقتصادي، فقد قام بمشاريع عمرانية ضخمة في عاصمته «أور» وفي مدينة الوركاء ونفر وغيرها من المدن المعظمة، كما تشير إلى ذلك النصوص القصيرة المدونة على مخاريط الطين (Clay Cones) وأحجار الأبواب (Door Sockets). ففي مدينة «نفر» جدد معبد الإله «أنليل»، أما تجديد معبد حارة «تمال» العائد إلى ننليل، زوجة الإله «أنليل» فقد اضطلع به ابنه وخليفته «شولگي». وشيّد في مدينة الوركاء زقورتها العائدة إلى الإلهة «أنانا» (عشتار)، وحرم المعبد فيها، واضطلع ابنه «شولگي» بإكمال جملة مشاريع بدأ بها أبوه.

ووجه «أور ـ نمو» نشاطه بالدرجة الأولى إلى إعمار عاصمته «أور» وأنجز فيها عدة مشاريع عمرانية كبيرة، وفي مقدمتها زقورة المدينة (برجها المدرج)[2]، الذي يعتبر أقدم ما يمثل تلك البنايات العجيبة التي تفردت بها حضارة وادي الرافدين، ونعني بذلك الزقورات (جمع زقورة)[3]، إذ يعتبر الباحثون عهد سلالة «أور» الثالثة الزمن الذي تطورت فيه هذه الأبنية إلى هيئاتها المميزة المعروفة، من

---

(1) عن شريعة «أور ـ نمو» راجع:

(1) Kramer and Falkenstein in *Orientalia*, 23, (1954).

(2) Szlechthre in *RA*, (1955), 169ff.

(3) Kramer, *The Sumerians*.

(4) Finkelstein, in JCS, (1968-69), pp. ff.

(2) عن برج «أور» انظر:

Wooley, *Ur ERcavations*, V, (1939).

وعن الأبراج المدرجة في حضارة وادي الرافدين بوجه عام:

Lenzen. *Die Entwicklung Der Zikkurat*. (1941).

A. Parrot, *Les Ziggurats et Tour de Babel*. (1949).

(3) لفظ الزقورة بابلي مأخوذة من مادة أو جذر يعني «علا، يعلو» (زقر أو سقر أو صقر).

بعد نشوء المعابد العالية التي كانت تقام فوق مصاطب في العصر «الشبيه بالكتابي» (منتصف الألف الرابع ق.م). وتعاصر زقورة أور في الزمن زقورتا الوركاء وأريدو وكذلك زقورة «نفر». وتمتاز هذه الزقورات وبوجه خاص في عهد سلالة «أور» الثالثة بأنها مؤلفة من ثلاث طبقات، وقد ازداد عدد طبقاتها في العصور التالية فبلغ في العصور المتأخرة سبع طبقات، وأشهر مثال على الزقورات من هذه الأدوار المتأخرة برج بابل الشهير الذي أصبح في العصر البابلي الحديث (القرن السادس ق.م) مكوناً من سبع طبقات.

وبالنظر إلى أهمية زقورة «أور» فيحسن أن نورد لها وصفاً موجزاً فنقول إن «أور ـ نمو» شيّد هذه الزقورة على أنقاض زقورة أقدم منها يرجح أن ترجع في زمنها إلى عصر فجر السلالات ولعلها نشأت قبل هذا الزمن. وقد جعل «أور ـ نمو» هيكلها الداخلي من آجر اللبن، وغلفه بغلاف من الآجر المشوى (المفخور)، ثخنه (8) أقدام، وقد بني هذا الغلاف الآجري بملاط (Mortar) من القير[1] وتتألف الزقورة كما قلنا من ثلاث طبقات، قياس السفلى منها في قاعدتها 200×150قدماً (نحو 62,50×43متراً) وعلو ما بقي من طبقتها العليا (60) قدماً (نحو 20متراً)، وكان المعبد العالي فوق هذه الطبقة الثالثة التي لم يبقَ منها الآن سوى معالم واطئة. وقد جدد البرج في عهود الملوك المتأخرين، آخرهم «نبونيدس»، آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة، وقد جعلها هذا الملك على ما يرجح سبع طبقات، ولا تزال تشاهد هذه التغييرات التي أحدثها «نبونيدس». وبقي من البرج في وجهه الشمالي الشرقي السلالم الثلاثة التي كان يرقى بها إلى أعلى البرج، واحد في الوسط واثنان جانبيان يتصلان بالسلم الوسطى في الأعلى. وقد اضطلعت مديرية الآثار العراقية بصيانة البرج من عام 1959 إلى 1963 بتثبيت الجدران المتصدعة المتداعية وإعادة الأجزاء المتساقطة من السلالم.

---

(1) ومن هنا منشأ الاسم المحلي لبقايا «أور» التي تعرف باسم «المقير» أو «أور المقير»، والمحتمل كثيراً أن هذا أصل التسمية العربية للمنطقة «ذي قار».

ومما يلفت النظر في برج «أور» أن من ينظر إليه يشعر بجماله ورشاقته المتأتيين من التناسب في قياسات الجوانب وأوجه القاعدة السفلى. فمثلاً إذا أنعمنا النظر من قريب في سطوح هذه الأوجه بدت لنا وكأنها على شيء يسير من التحدب أو الانتفاخ، وهي الخاصية المعمارية التي تميزت بها الأبنية اليونانية ولا سيما الأعمدة، مما يطلق عليه مصطلح التحدب[1]. وتقوم زقورة «أور» فوق دكة أو مصطبة وسط الساحة المقدسة المخصصة لمعابد المدينة ولا سيما معبد الإله القمر «ننا» (وكان يلفظ سابقاً ننار وهو سين في اللغة الآكدية)، وتحيط هذه الساحة بالمخازن ومساكن الكهنة ومعبد هذا الإله وزوجته «ننگال». واسمه بالسومرية «أي - كش - شر - گال» (E-gish-shir-gal) أما الزقورة فاسمها بالسومرية «اي - تمن - ني - گور» (E-temen-ni-gur). وتشغل هذه المنطقة المقدسة النصف الشمالي من المدينة، وكان مجرى الفرات القديم يمر بمحاذاة الجانب الغربي من البرج.

ومما يُقال عن زقورة «أور» إنها من نوع الزقورات ذوات القواعد المستطيلة، حيث الطبقة الأولى السفلى قياسها 62,50×43 متراً كما قلنا، وارتفاعها 11متراً، وقياس الطبقة الثانية 36×26 متراً، وارتفاعها (6) أمتار وبقايا الطبقة الثالثة 120 متراً، ولكن لم يبقَ سالماً من ارتفاعها الأصلي سوى (3) أمتار، فيكون ارتفاع ما بقي من الزقورة الآن (20) متراً، كما ذكرنا. وقد خلد «أور - نمو» إقامته للزقورة في قطعة منحوتة من الحجر، لم يبقَ سالماً منها إلا مشاهد جزئية أهمها مشهد صور فيه الملك وهو واقف بهيئة صلاة وتعبد أمام الإله الجالس على عرشه (وهو الإله القمر ننا) لتسلم الأوامر منه، ويشاهد في المشهد الأسفل الملك وقد تسلم الأوامر المقدسة في تشييد الزقورة ومعها أدوات البناء مثل الخيط وعصا البناء.

---

(1) أي (Entasis)، وهو كما قلنا تحدب طفيف يجعل في الغالب في أبدان الأعمدة من أجل تصحيح خداع النظر الذي تبدو فيه الأعمدة أو الجدران مقعرة لو أنها شيدت وهي مستوية السطوح.

وبالإضافة إلى هذه القطعة المنحوتة وجد عدد من التماثيل النفيسة بعضها مصنوع من البرونز المسبوك وبعضها من الحجر، وهي تمثل الملك «أور ـ نمو» وخلفاءه من أبنائه وهي منقوشة في الغالب بنصوص سومرية قصير باسم الملك وألقابه وتسجيل بناء أحد المعابد.

ويأتي حفر الأقنية والأنهار وجداول الري من بعد مشاريع البناء من حيث تسجيلها فيما جاء إلينا من كتابات «أور ـ نمو». وقد شغلت إقامة مشاريع الري جانباً مهماً من نشاط هذا الملك بسبب تدهور هذه المشاريع إبان فترة الحكم الكوتي المظلمة، فلزم على مؤسس سلالة «أور» الثالثة وخلفائه بذل الجهود المتواصلة لإعادة الرخاء والازدهار الاقتصادي إلى البلاد . فنقرأ في كتابة أحد المخاريط الطينية الذي وجد في «لجش»[1] خبر حفر الملك «أور ـ نمو» لنهر ري كبير اسمه «ننا ـ كوكال» (Nanna Gugal) في الحدود ما بين منطقة لجش و«أور»، وأنه حفر له خزاناً كبيراً «كأنه البحر». وفي كتابات مخاريط الطين التي وجدت في الموضع المسمى «دقدقة» (شمال شرقي الزقورة بنحو 1/ 2 1ميل) نقرأ جانباً من أعمال الري في هذه المنطقة في إعادة اتصال المدينة بنهر الفرات عند هذا الموضع، وتشييد ميناء وجدت بقاياه، لربط مدينة «أور» بالبحر (الخليج) عن طريق النهر.

شولگي:

خلف «شولگي»[2] أباه «أور ـ نمو» على عرش أور. وقد حكم زمناً طويلاً، في حدود الثمانية والأربعين عاماً، صرف معظم النصف الأول منها في إقامة مشاريع بنائية وعمرانية، وفي مقدمتها إكمال بناء جملة معابد وأبراج مدرجة «زقورات» كان قد بدأ بها أبوه ولكن لم يستطع إتمامها، مثل

---

(1) حول مشاريع الري التي قام بها «أور ـ نمو» وخلفاؤه انظر:
CAH., I, Part 2, (1971). 599ff.

(2) يكتب اسم هذا الملك بالمقطعين Shul-Gi، ومن المحتمل أن يقرأ المقطع الأول أي Shul بهيئة Dun فتكون قراءة الاسم «دونگي»، مثلما كان يقرأ سابقاً.

زقورة «أور»، والوركاء، وتجديد بناء حارة «تمال»، موضع عبادة الإلهة «ننليل» في مدينة نفر. وأصلح التقويم ووحده كما جعل الموازين والمكاييل على قياس واحد مطرد. ويجد الزائر للمتحف العراقي والمتاحف العالمية الأخرى نماذج من هذه الموازين المنقوشة بكتابة قصيرة باسم الملك ومقدار الوزن، وهي مصنوعة من الحجر في الغالب على هيئة البط، رؤوسها ملتفة إلى الوراء.

وحذا «شولگي» حذو الملك الآكدي «نرام سين» في استعمال لقب «ملك الجهات الأربع». وتوجد إمارات قوية على أنه بولغ في تقديسه إلى حد التأله والعبادة في أثناء حياته ومن بعد مماته. فكانت القرابين تقدم إلى تماثيله في أنحاء الأمبراطورية مرتين في الشهر، وسمي أحد شهور السنة في التقويم السومري باسم «شولگي المقدس». ولما مات دفن في قبر فخم شيّد فوقه معبد لتقديم القرابين إليه وعبادته، ولا تزال بقايا هذا القبر والقبور الفخمة الأخرى العائدة لملوك سلالة «أور» من الآثار البارزة في المدينة، ولكن المنقبين وجدوها خالية معبوثاً بها، وقد انتهكت في أثناء الغزوات المدمرة التي قام بها الأموريون والعيلاميون. وقد وصل إلينا نحو ثلاثين ترتيلة دينية خصصت لهذا الملك، وقد خوطب فيها بتمجيد كأنه إله من الآلهة، وأنه تحدر من صلب الآلهة مثل «لوگال نبدا» والإلهة «ننسون» اللذين كانا أيضاً أبوي جلجامش ولذلك دعى «أور ـ نمو» في إحدى تلك التراتيل بأنه أخو جلجامش، وإلى ذلك ادعى «شولگي» بأنه ذو قربى بالإله الشمس «أوتو». وقد شيّد للملك معبد في مدينة «نفر». ومما أثر عن شولگي أنه أتقن فن الكتابة والأدب، ولعل هذا يسوغ الاستنتاج بأن الكثير من تلك المدائح والتراتيل التي وضعت لتقديسه كانت من نظمه؛ وتمتاز هذه التراتيل بأنها ذات أسلوب أدبي رفيع، يدل على ذلك ولع مدارس الكتبة من العهد البابلي القديم الذي أعقب زمن «أور» الثالثة باستنساخ بعض هذه القطع الأدبية، ويدخل ضمن ذلك الرسائل الملكية. وقد جاءت إلينا نماذج من هذه النسخ من كتبة مدينة «نفر»، ولا سيما تراتيل

شولگي وبعض رسائله ورسائل «ابي - سين»، آخر ملوك هذه السلالة[1]، وسيرد ذكر هذه الرسائل في موضع آخر من هذا الفصل.

ومما يقال عن ألواح الطين الخاصة بحكم «شولگي» إنها قليلة العدد من أوائل حكمه، ووجد معظمها في لجش وفي أور، وغالبها غفل من التأريخ قبل عام حكمه الرابع والعشرين. أما نشاطه الحربي والسياسي فتظهر بوادره ابتداء من منتصف حكمه، فنجد الحادثة المؤرخ بها عام حكمه الثامن عشر تسجل زواجاً سياسياً، بزواج ابنته من حاكم أحد الأقاليم العيلامية، المسمى «برخشي» أو «ورخشي»، الذي قام بدور بارز في أحداث الدولة الآكدية. ويظهر من عام حكمه الرابع والعشرين نشاطه العسكري في الفتوحات الخارجية، مبتدئاً بالأقاليم الشمالية والشمالية الشرقية، بالإضافة إلى بلاد آشور، ومنها مدينة «آشور» ومدينة «أوربيلم» (Urbilum) (وهي أربائيلو، أربيل، الواردة في المصادر الآشورية)، ومدينة «سمورم» (Simmurm) التي يرجح أنها تقع في منطقة بلدة «التون كوبري»، على الزاب الأسفل، ومدينة «ششرم» (Shashrum)، المرجح كثيراً تعيينها بالتل الأثري المسمى «شمشارا»، وقد وردت بهيئة شوشرا في الألواح المكتشفة في الموضع من العهد الآشوري القديم (انظر الفصل الرابع). كما وجهت حملات عسكرية على قبائل «اللولوبو». أما في بلاد عيلام فقد توطدت سلطة «أور» في عهده، ومثل ذلك يُقال بالنسبة إلى أقاليم الفرات الأوسط والأعلى.

ويتميّز عهد «شولگي» بوجه خاص وملوك سلالة أور الثالثة بوجه عام

---

(1) حول هذه التراتيل ومظاهر التأليه الأخرى راجع:

(1) Falkenstin und Von Soden, *Sumer. Und. Akkad. Hymnen Und Gebete,* (1953).

(2) Falkenstein in *IRAQ*. (1960) 139ff.

وعن رسائل ملوك «أور»: F. Ali, «Two Collections of Sumerian Letters» in *Archiv Orientalni* 33, (1965), 529ff.

Kramer, in *Orientalia,* (1953). Van Dijk in *Sumer,* 15, (1959), Jacobsen in *JCS,* VII, (1953).

Sollberger, *Tests From Cuneiform Sources,* I, (1966).

من ناحية الوثائق المدونة بكثرة ما جاء إلينا من مختلف العقود القانونية والتجارية والسجلات الأخرى الدقيقة الخاصة بجميع أنواع الواردات والصرف والشؤون الخاصة المختلفة، مما يتعلق بإدارة المعابد والمرافق والمؤسسات العائدة إلى الدولة. وقد أحصيت هذه السجلات الإدارية والاقتصادية بزهاء عشرين ألف لوح، نشر القسم الأعظم منها[1] ولكنها ما زالت بحاجة إلى التحليل والدرس لاستخلاص النتائج منها عن الحياة الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والدينية.

ونختتم كلامنا عن «شولگي» بالتنويه بأن شهرته لم تقتصر على الفتح وتنظيم إدارة الدولة وتقديسه الذي بلغ حد العبادة، بل أضاف الكتبة إلى ذلك أنه كان أول موسيقار في المملكة، فكان يحسن العزف على ما لا يقل عن ثماني آلات موسيقية، من بينها قيثارة وصفت بأنها ذات «ثلاثين وتراً»، وآلة موسيقية سميت باسم أحد ملوك كيش القدامى هو «أور ـ زبابا»[2]، الذي سبق أن رأينا كيف أن سرجون الآكدي كان ساقياً له ثم استقل عنه.

أمار ـ سين:

«أمار ـ سين» أو«بور ـ سين»[3]، الملك الثالث من سلالة «أور» الثالثة، وقد خلف أباه «شولگي»، وحكم تسع سنوات. ومما يقال عن حكمه بوجه عام إنه سار على خطى أبيه في توزيع نشاطه بين البناء والتشييد، وفي مقدمة

---

(1) حول ألواح الطين في عهد سلالة «أور» الثالثة انظر المراجع الآتية:

(1) L. Oppeheim, *Catalogue of The Cuneifrm Texts in The W.Eames Collection*, (1948).

(2) Johnes and Snyder, *Sumerian Econonic Texts from The Third Dynasty of Ur*, (1961).

(3) Fish, in *IRAQ*, (1938).

(2) في نص نشر حديثاً انظر: CAH., I, Part 2, (1971), 606-7.

(3) الصيغة الأولى من الاسم أي (أمار ـ سين) هي الصيغة السومرية، ولكن يرجح كذلك أن يقرأ الاسم بهيئة (بور ـ سين) وهو الشكل الآكدي (السامي) وقد سبق أن ذكرنا أن الملوك الثلاثة الأخيرين من هذه السلالة كانوا ذوي أسماء سامية.

ذلك إقامة المعابد، وبين النشاط العسكري والسياسي، ولا سيما في الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية، وهي الأقاليم التي لم تخضع خضوعاً تاماً لسلطان أمبراطورية «أور» الأمر الذي اضطر «أمار ـ سين» إلى إرسال الحملات العسكرية منذ بداية حكمه، فقد سمي الحدث الذي اتخذ لتأريخ عامه الثاني بأنه (العام الذي دمر فيه أمار ـ سين «أوربيلم»)، مجدداً بذلك ما قام به أبوه قبل نحو خمس سنوات. وأرخت السنتان السادسة والسابعة من حكمه بأحداث حربية في هذه الجهات، وذكرت مواضع ومدن سبق أن ورد ذكرها في عهد أبيه مثل «ششرم». أما في بلاد عيلام فيبدو أن الأحوال فيها استمرت هادئة مستقرة، وكذلك يقال بالنسبة إلى أرجاء الأمبراطورية الأخرى، وكانت الطرق ونظام المواصلات ممهدة ما بين العاصمة وبين الولايات التابعة لها. ولعل أبرز ما كان يتميز به نظام الحكم والإدارة في عهد هذه السلالة بروز السلطة المركزية وتعاظمها، ويتجلى ذلك في طريقة ارتباط الولايات التابعة بالحكومة المركزية ممثلة بالعاصمة «أور» حيث كان يحكم فيها حكام يعينهم ملك «أور»، وقد جاءت إلينا أسماء البعض منهم مثل حاكم آشور المسمى «زريقم» الذي عين والياً على بلاد آشور في عهد «شولگي»، وقد شيد هذا الحاكم في تلك المدينة معبداً «لحياة سيده أمار ـ سين».[1]، لأن هذا الملك قدس كذلك وبلغ درجة الألوهية مثل أبيه. وقد نعت في كتاباته بأنه «الإله الشمس الذي يهب الحياة إلى البلاد وقاضي البلاد». وشيّد له قبر في مدينة «أور»، بجوار قبر أبيه، وأقيم فوق «سرداب» اللحد معبد لعبادته وتقديم القرابين والصلوات إليه.

وعلى الرغم من قصر حكم «أمار ـ سين»، فقد قام بجملة مشاريع بنائية، ولا سيما في حقل تشييد المعابد كما نوّهنا بذلك من قبل. فقد خصص جهوداً كبيرة في إعمار العاصمة «أور»، وتليها في ذلك المدينة المقدسة «نفر»، كما تشير إلى ذلك نتائج التنقيبات والنصوص المكتشفة. وشيد في مدينة «أريدو» زقورتها (برجها المدرج).

---

(1) انظر: .A. Goetze in *JCS*, (1947), 216 (1928), P. 131

ولا يعلم على وجه التأكيد كيف كانت نهاية حياة «أمار ـ سين»، والطريف ذكره بهذا الصدد ما جاء في أحد نصوص الفأل من أنه «مات على إثر عضة حذاء»[1].

شو ـ سين:

«شو ـ سين» (وكان يقرأ سابقاً گمل ـ سين)، الملك الرابع من سلالة «أور» الثالثة؛ وتذكر أثبات الملوك أنه ابن «أمار ـ سين» ولكن أدلة تأريخية أخرى تشير إلى أنه كان أخاه. ودام حكمه تسع سنوات، شغلها مثل أسلافه في مشاريع البناء والتشييد والحملات الحربية، ونال مثلهم أيضاً نصيباً من التقديس والتأليه. ففي حقل البناء ظهر نشاطه، مثل الملوك السابقين، في تجديد بناء المعابد في المدن المشهورة. ودونت أخبار هذا النشاط فيما وصل إلينا من نصوص مدونة، نذكر على سبيل المثال بناءه لمعبد الإله «شارا» في مدينة «أوما» (تل جوخة الآن قرب تلو)، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات، واستعملت فيه (9) ملايين آجرة كبيرة و(17) مليون آجرة صغيرة[2]. وشيّد له الحاكم التابع له المسمى «أتوريا» في «أشنونا» (عاصمة المملكة المسماة بالاسم نفسه) معبداً خاصاً لعبادته، وقد تناولته التحريات الأثرية التي أجرتها بعثات التنقيب من جامعة شيكاغو في منطقة ديالى[3].

وتشير الحوادث المؤرخة بها سنوات حكم «شو ـ سين» إلى توطيد الأمور واستتباب السلم في أرجاء الأمبراطورية، ولكن لم يخل حكمه من نشاط عسكري ولا سيما الحملات الحربية التي وجهها إلى منطقة جبال «زاجروس»، واستطاع فيها دحر اتحاد أو تحالف من الدويلات الإيرانية[4]، كما أرسل الجيوش إلى الجهات الشمالية الشرقية في عام حكمه الثالث

---

(1) انظر: Goetze in JCS, (1947), 261, Nos. 29-31.

(2) Saggs, *The Greatness That Was Babylin,* (1962), P. 57.

(3) حول هذا المعبد انظر: Frankfort, *The Gimil-Sin Temple*.

(4) D. D. Edzard in *Archiv Für Orientforschung,* (1959-60), Iff.

لإخضاع الثائرين في المنطقة المسماة «سمانم»، وفي سنته السابعة إلى الإقليم المسمى «زبشالي»، وقد سجل انتصاره في المنطقة الأولى في منحوتات وضعها في مدينة «نفر»، ولكن لم يعثر عليها وإنما جاءتنا أخبارها المدونة من العهود التالية. وفي بلاد «عيلام» عين «شو ـ سين» حكامه في المدن المهمة. واشتهر في عهده شخصية مهمة هو حاكم لجش المسمى «أر ـ نانا» الذي شيّد لسيده الملك معبداً في لجش، ووجدت له في هذه المدينة جملة أحجار أبواب (Door Sockets) نقشت فيها ألقابه وتبعيته إلى الملك «شو ـ سين» وقد عينه هذا الملك حاكماً عاماً (بالسومرية «سوكال ـ ماخ») في الأقاليم الشرقية.

بدء اندفاع الأموريين إلى وادي الرافدين:

بدأت في حكم «شو ـ سين» بوادر اندفاع هجرات سامية جديدة من أنحاء بوادي الشام، وهم الأموريون أو الكنعانيون الشرقيون الذين قضوا على أمبراطورية «أور» في عهد آخر ملوكها المسمى «أبي ـ سين» وقامت على أنقاضها جملة دويلات من هؤلاء الأموريين، مما سنشرحه بعد قليل. فقد أرخت السنة الرابعة من حكم «شو ـ سين» بأنها السنة التي شيد فيها «سور الأموريين» وسمي هذا السور أو الجدار: «مورق تدنم» أي السور الذي يصد الأموريين[1] لأن كلمة «تدنم» من أسماء هؤلاء الأموريين أو هي صفة من صفاتهم. ومع أن «شو ـ سين» استطاع أن يصد اندفاع الأموريين على طوال نهر الفرات، إلا أن هذا كان صداً مؤقتاً. والمرجح كثيراً أن هذا السور شيد في موضع ما بالقرب من هيت (توتل أو دودل) وقد جاءت تفصيلات في وصف هذا السور في رسالة غير كاملة. واقتضى لإقامة هذا السور بموجب تلك الرسالة، كسر ضفاف النهرين (الفرات ودجلة) لعله لملء الخندق

---

(1) لعله من المفيد أن نورد نص الحادثة المؤرخة بها السنة الرابعة من حكم «شو ـ سين» بلفظها السومري:

Mu d Shu-d Suen Lugal Uri-ma-Ke bad mar-Tu mu-ri-iq ti-id-ni-im Mu-Du (Edzard, ZZB, P. 33).

الملاصق للسور، ويبدأ السد الترابي من الموضع المسمى قنال «ابكلات» وأن طوله 26 «بيرو» (البيرو ساعة مضاعفة) أي في حدود 275كم أو (170) ميلاً، وأن جعل بدايته من الموضع المذكور أي «ابكلات» (وفي صيغة أخرى ابلاكات) يمكننا من تعيين موضعه المحتمل بأنه لم يكن بعيداً من شمالي غربي بغداد، وأن القتال المذكور «ابكلات» يرجح أن يكون النهر الذي ورد ذكره في الأخبار المتأخرة باسم «بلاكوباس» الذي يقال إن الإسكندر الكبير هو الذي حفره، ويقترن عادة باسم المدينة «بلوكات» التي يحتمل أنها بلدة الفلوجة. ولكن طول السد الذي قدر بنحو (170) ميلاً أطول بكثير من المسافة القصيرة ما بين الفرات ودجلة في منطقة الفلوجة، ولذلك فيرجح أن يكون طرفه الغربي عند بلدة الرمادي بالقرب من بحيرة الحبانية، والطرف الشرقي عند التلال الكائنة ما بين الفلوجة وبغداد[1].

«أبي ـ سين» وانهيار أمبراطورية أور:

كان «أبي ـ سين» آخر ملوك سلالة أور الثالثة، وقد خلف أباه «شو ـ سين» السالف الذكر، وحكم أربعة وعشرين عاماً كانت نهاية أمبراطورية أور التي دامت زهاء القرن الواحد (2112 ـ 2004ق.م) وقد عملت على انحلالها وانهيارها عوامل داخلية وخارجية سنوجزها بعد قليل. أما الأحداث الاعتيادية التي سجلتها السنوات المؤرخ بها فتدور على أعمال البناء والتشييد تتخللها بعض الحملات العسكرية إلى الأقاليم الشمالية الشرقية، كما ظهرت بوادر العصيان والانفصال في الأقاليم التابعة من بلاد عيلام، وسنرى هذا الخطر يتطور ويتفاقم في غزو العيلاميين لوادي الرافدين، مضافاً إلى ذلك تجدد اندفاع الأقوام الأمورية بكثرة وشدة من الجهات الشمالية الغربية على طوال وادي الفرات، وقد لاقت هذه الأخطار الخارجية جبهة داخلية يعمها التفكك والانشقاق.

---

(1) حول هذا السور انظر: Gadd in CAH, I, Part 2, (1971), 610ff.

ولعل خير ما يوضح إمارات الانهيار والتفكك هذه في الجبهة الداخلية وفقدان سيطرة الملك المركزية على الأجزاء المختلفة من البلاد أن الكثير من هذه الأجزاء لم يلتزم باستعمال الحوادث الرسمية المؤرخ بها، بل استعمل كل منها حوادث خاصة بها، ويعني هذا في العرف السياسي في حضارة وادي الرافدين أن تلك المراكز والمدن نبذت اعترافها بالسلطة المركزية، أي سلطة الملك وسلطة العاصمة أور. فإذا استثنينا العامين الأولين من حكم الملك «ابي - سين» اللذين سار فيهما أكثر المدن على الالتزام بالتأريخ الرسمي فإن تلك المدن بدأت منذ عام حكمه الثالث تستعمل الواحدة بعد الأخرى حوادث محلية خاصة بها للتأريخ منها، وبالإمكان متابعة هذه الظاهرة على ضوء دلالة ألواح الطين المستخرجة من مدن العراق القديمة. ففي منطقة «اشنونا» انقطع، التأريخ بالحوادث الرسمية منذ عامه الثاني[1]، وفي مدينة «سوسة» (عاصمة بلاد عيلام) منذ عامه الثالث وفي لجش منذ عامه الخامس، وفي مدينة «أوما» (تل جوخة) منذ العام السادس وفي مدينة «نفر» التي كانت مصدر الاعتراف بالسلطة الملكية، منذ عامه السابع. وبالإضافة إلى هذه البوادر الدالة على انفصال المدن عن السلطة المركزية، تشير الأخبار المدونة إلى تهاون حكام الأقاليم في إرسال الحيوانات الخاصة بالقرابين إلى معبد الإله «ننا» في أور منذ العام السادس من حكم الملك. وإذا رجعنا إلى نصوص الفأل والتنبوءات التي دوّنت في العصور التالية وجدناها تشير إلى انحلال السلطة الداخلية وتمرد السكان على طاعة السلطة المركزية، وظهور العصيان والثورات[2]، كما أن المعاصرين والجيل الذي عاش من بعد سقوط «أور» عزوا سبب سقوطها إلى غضب الإله «أنليل» والآلهة العظام الأخرى على مدينة أور وعلى إلهها «ننا» وملكها فسلطوا القحط والمجاعة والأعداء. وأشارت إلى ذلك قصائد الرثاء

---

(1) انظر: Jacobsen, JCS, VII, (1958).

(2) حول نصوص الفأل انظر: Goetze, in JCS, I, (1947).

وعن رثاء سقوط «اور»: Kramer, in ANET.

التي نظمت في رثاء مدينة «أور» ونبوءات الفأل والرسائل، ولا سيما رسائل «اشبي ـ ايرا» التي سنتطرق إليها في موضع آخر.

إن ذلك الانهيار والانحلال الداخليين اللذين رأينا بعض بوادرهما عجل فعل الأخطار الخارجية التي يمكن حصرها في جبهتين: الأخطار التي ظهرت من بلاد عيلام في الجبهة الشرقية وتدفق جموع الساميين الأموريين من الجبهة الشمالية الغربية. أما في بلاد عيلام فلم يستطع الملك «ابي ـ سين» أن يعيد إليه ولاءها أو حيادها في المحاولات الحربية والسلمية التي بذلها، على الرغم من أن تحالفاً تمّ بينه وبين العيلاميين أيضاً، فإن هؤلاء العيلاميين لم يلتزموا بذلك التحالف، بل اغتنموا فرصة تلك الأحداث وشنوا هجوماً على مملكة أور وأسهموا مع الأموريين في تدميرها، والواقع أن تدمير مدينة «أور» تمّ على أيديهم، ويرجح أنهم أسروا الملك نفسه. وظهر خطل سياستهم تجاه «أور» وملكها عندما جاء دورهم بهجوم الأموريين عليهم وطردهم من البلاد ولا سيما بعد أن استقل أحد الحكام التابعين إلى ملك «أور» المسمى اشبي ـ ايرا الذي طرد الحامية العيلامية التي تركها العيلاميون في مدينة «أور» وضم هذه المدينة إلى مملكته «ايسن» كما سنذكر ذلك بعد قليل.

أما الأموريون فقد بدأ اندفاعهم الجديد إلى بلاد وادي الرافدين منذ السنة الخامسة من حكم «ابي ـ سين» واستطاعوا اختراق خط الدفاع أو السور الذي شيده «شو ـ سين» ونزلوا على مدن السهل الرسوبي ينهبونها ويدمرونها. فانتهز معظم المدن الأخرى هذه الفرصة وانفصلت عن السلطة المركزية الضعيفة التي ظهر عجزها في صد هجوم أولئك الأموريين. وكان في مقدمة تلك المدن مدينة «ايسن» وكان حاكمها المدعو «اشبي ـ ايرا»، الذي يرجع في أصله إلى مدينة ماري ثم دخل في خدمة ملك أور «أبي ـ سين»، أبرز الحكام في هذه الفترة التي عمها الاضطراب والفوضى السياسية. وقد حقق طموحه السياسي بتأسيس مملكة مستقلة كانت من أهم الدويلات التي قامت على أنقاض أمبراطورية «أور» في العصر البابلي القديم (مطلع الألف الثاني ق.م) وهو العصر الذي سنفرد له الفصل الآتي.

ولعل أوضح ما يمثل لنا الوضع الداخلي المتدهور وموقف الكثير من الحكام التابعين إلى الملك وتقلبهم في ولائهم وانتهاز الفرص للانسلاخ والاستقلال وفي مقدمتهم «اشبي ـ ايرا» السالف الذكر، ما جاء إلينا من نسخ الرسائل(1) المتبادلة ما بين ملك «أور» وبين اثنين من حكامه هما «اشبي ـ ايرا» وحاكم منطقة «كزالو» في الجهات الشمالية من العاصمة «أور» ففي الرسالة التي أرسلها «اشبي ـ ايرا» إلى الملك حينما كان لا يزال في خدمته ما بين السنة الخامسة والثانية عشرة من حكمه، نقرأ نجاح هذا الحاكم في الحصول على كميات كبيرة من الحبوب أرسله الملك ليشتريها بالفضة بالنظر إلى شح الحبوب في العاصمة «أور» وحلول المجاعة فيها، ولكن «اشبي ـ ايرا» لم يستطع إيصالها إلى أور لأن الأموريين الغزاة دخلوا البلاد وتغلغلوا فيها، فعمد هذا الحاكم على خزن تلك الحبوب في مدينة «ايسن» وطلب من الملك في رسالته السالفة الذكر، أن يرسل سفناً كثيرة ليشحنها. وتنتهي الرسالة بتشجيعه للملك على الصمود إزاء العيلاميين الذين دب الضعف إليهم من جراء قلة مؤونتهم، كما طلب منه أن يمنحه السلطة في حكم مدينة «ايسن» ومدينة «نفر» ويظهر من الرسالة الجوابية التي أرسلها الملك إلى «اشبي ـ ايرا» أنه أقر هذا الحاكم على طلبه. وقد وجدت هذه الرسالة في أثناء تنقيبات جامعة شيكاغو في مدينة «نفر»، ونقف مما جاء فيها على مبلغ الخوف والهلع اللذين حلا بملك أور واستعداده لدفع أسعار الحبوب مضاعفة، ونراه يبدي غضبه على حكام الأقاليم التابعين له لأنهم لم يستطيعوا صد جموع الأموريين. وارتفعت أسعار المعيشة ارتفاعاً فاحشاً في أثناء هذه الأزمات. وبوسعنا الوقوف على نوايا «اشبي ـ ايرا» الحقيقية وأنه كان يعمل لتحقيق مطامحه الشخصية في

---

(1) يرجع عهد هذه الرسائل إلى العصر البابلي القديم. حول أصالة هذه الرسائل وترجمتها والتعليق عليها انظر البحوث الآتية:

(1) Jacobsen in JCS, VII, (953), 36ff.

(2) F. Ali in *Archiv Orientalni* 33, (1965), ff.

الاستقلال من الرسالة التي وجهها إلى ملك «أور» حاكم إقليم «كزالو» المسمى «بوزر ـ نومشدا» أو «يوزر ـ شولگي» وكيف أن «اشبي ـ ايرا» قد استقل في الواقع، وأنه كان يحاول ضم كزالو إلى المدن التي استقل بها. وفي جواب الملك على هذه الرسالة نجده بالغ الارتباك والضعف وأنه اعترف بحقيقة تمرد «اشبي ـ ايرا».

وهكذا نقف من هذه الوثائق وغيرها على الأسباب التي عملت على سقوط أمبراطورية «أور» وفي مقدمتها العوامل الداخلية التي مهدت للأعداء الخارجيين الانقضاض عليها. وسنتابع النتائج السياسية الخطيرة التي استتبعت انهيار هذه الأمبراطورية من عودة القطر إلى وضع «دول المدن»، وهي الدويلات التي قامت على أنقاض أمبراطورية «أور» من جانب رؤساء القبائل الأمورية ومشايخها. وكانت نهاية أور نهاية محزنة، ولم يقم للمدينة من بعدها قائمة فلم تظهر فيها سلالات حاكمة، كما انتهت حياة السومريين السياسية واتخذ سقوط «أور» وتدميرها موضوعاً للرثاء وقد جاءت إلينا جملة قصائد في ذلك[1].

موجز عن التنظيمات الإدارية والاقتصادية:

1ـ الملك وجهازه من الموظفين:

بالمقارنة مع قلّة المصادر المتعلقة بالأوضاع السياسية وقلة السجلات الملكية الرسمية، جاءت إلينا من عهد سلالة «أور» الثالثة كما ذكرنا مصادر وفيرة عن الأحوال الداخلية من الوثائق والعقود التجارية والاقتصادية والإدارية التي بدأت تتكاثر وتتضخم منذ منتصف حكم الملك «شولگي» ومما لا شك فيه أن هذه الوفرة من الوثائق الاقتصادية والإدارية كانت تستلزم جهازاً واسعاً من المسجلين والمحاسبين والمشرفين والمديرين، وبعبارة أخرى إدارة مكتبية

---

(1) حول قصائد الرثاء التي نظمت بمناسبة سقوط أور انظر:
Kramer, in ANET, (1955), 36ff.

(بيروقراطية) ضخمة. والواقع من الأمر أن ولع الكتبة السومريين بالتسجيل والتنظيم وحفظ الوثائق كان تراثاً متأصلاً ورثه كتبة سلالة «أور» الثالثة من العصور الماضية. ويمكن بوجه عام تصنيف جهاز الدولة الوظائفي ابتداء من درجاته السفلى إلى الأصناف الآتية:

أ ـ الكتبة والمسجلون أي ما يسمى بالسومرية «دب ـ سار» (Dub-Sar) وكان هؤلاء على مراتب ودرجات، وبضمنهم المحاسبون والموظفون الصغار[1].

ب ـ ويأتي فوق هؤلاء طبقة من الموظفين أعلى درجة مثل مديري المشاغل والمصانع الخاصة بالقصر والمعبد، وكبار الموظفين الموكلين بإدارة أملاك القصر والمعبد والكهنة والكاهنات وقواد الجيش وحكام المدن والأقاليم. وكان الحكام طبقة عليا من الموظفين، ويسمى الحاكم بالسومرية «أنسي» (Ensi) وبالبابلية «اشاكم» (Ishshakkum) و«شكنا» (Shakkana) الحاكم العسكري أو القائد ثم يأتي في قمة الهرم الملك ومستشاره ووزيره الأعظم «سكال ـ ماخ» (Sukkal-Makh).

واستحدثت في زمن «شولگي» دوائر اقتصادية مهمة مثل دائرة المقاييس والمكاييل المسؤولة عن تنظيم الأوزان والمكاييل الرسمية المضبوطة ومراقبتها وقد ظل هذا النظام معمولاً به في الأدوار التأريخية التالية.

ولما ظهرت المملكة الموحدة الكبيرة واتسعت إلى أمبراطورية في العصر الآكدي واستمرار ذلك في زمن سلالة «أور» الثالثة تعقدت إدارة الدولة واتسعت سلطات الملك فظهر الاتجاه الذي لاحظناه في هذين العهدين في تقديس الملك وتأليهه وأنه كان ممثلاً للألوهية في الواقع، أي القيام بوظيفة الإله نفسه. وتأكدت هذه الصفة الإلهية منذ منتصف حكم شولگي. وكان من

---

(1) حول وظيفة الكتبة انظر:

N. Schneider in *Orientalia*, 15, (1946), 64ff.

بين العوامل التي أدت إلى ذلك التطور في نظام الملوكية، أن الملوك بدؤوا منذ العهد الآكدي يعينون حكاماً على الأقاليم التابعة لهم. ولكن كان مثل هؤلاء الحكام في عصر فجر السلالات السابق لزمن الدولة الآكدية يمثلون آلهة دول المدن التي كانوا يحكمونها ولما ظهر النظام الجديد بتعيين الملك لمثل أولئك الحكام وحين تعدت سلطة الملك مقياس دولة المدينة إلى حكم المملكة الكبيرة والأمبراطورية، استلزم ظهور نظرية أو مبدأ جديد في الحكم هي ألوهية هذا الملك لتنسجم مع اتساع سلطته ومع إمكانه تعيين حكام الدويلات والأقاليم المختلفة بحيث ينوب هؤلاء الحكم عن الملك ويمثلونه في السلطة مثلما كانوا يمثلون الآلهة عصر فجر السلالات. ولعل أشبه نظام تأريخي نسوقه للمقارنة مكانة الأمبراطور الروماني عند ظهور نظام الأمبراطورية في تأريخ رومة وظهور نظام عبادته وإقامة المعابد له. وقد رأينا مما مرّ بنا سابقاً كيف شيدت المعابد لمعظم ملوك سلالة «أور» الثالثة وأقيمت لهم معابد جنائزية لعبادتهم وتقريب القرابين لهم من بعد مماتهم، كما في المقبرة الملكية الخاصة بملوك هذه السلالة في العاصمة «أور». ولكن مع كل ذلك لم يصبح الملك إلهاً حقيقياً على غرار الآلهة المعروفين، لأنه كان ينقصه الكثير من سمات الألوهية المهمة وفي مقدمتها الخلود والقدرة المطلقة، فظل الملك إلى جانب تقديسه وعبادته «راعي الناس» الذين عهدت الآلهة رعايتهم إليه.

ومهما كان الأمر فإن الملك كان على رأس السلطة ومصدر السلطات والشرائع على الرغم من أن الشرائع مردها إلى أوامر الآلهة وإرادتهم من الناحية النظرية، كما جاء في شريعة مؤسس هذه السلالة «أور ـ نمو» حيث انتدبه إله مدينته بناء على تفويض إلهي من الآلهة الأكبر منه، ليقيم العدل في البلاد ويمنع القوي من اضطهاد الضعيف وهي العبارة التي تتكرر في شرائع العراق القديم ابتداء من تشريعات «أوروكاجينا» وإصلاحاته التي تكلمنا عنها في الفصل السابق. ومن قبيل هذه الواجبات التشريعية أن يصدر الملك أوامره وإراداته لتنظيم إدارة الدولة ومحاكمها وتعيين القضاة المنفذين لها. وبالإضافة إلى الشرائع التي تصدر من سلطة الملك العليا المستندة إلى إرادة الآلهة جعلت

القرارات التي تصدرها المحاكم أحكاماً ملزمة، أي سوابق قضائية يسار عليها في معظم الحالات. وقد وصل إلينا من عهد «أور» الثالثة نحو (150) لوحاً معظمها من لجش، وهي عبارة عن سجلات بالقرارات التي أصدرها قضاة المحاكم في شؤون مختلفة مثل الأحوال الشخصية والمداينات والبيوع وبعض الجرائم، وكثيراً ما كانت مثل تلك المرافعات تجري أمام الملك أو بتصديق منه (انظر الفصل الخاص بالشرائع في الجزء الثاني من هذا الكتاب).

ملاحظات على الوثائق الاقتصادية:

مع كثرة الألواح الخاصة بالأمور الاقتصادية والتجارية أو لعله بسبب كثرتها لم تستخلص منها النتائج النهائية فهي ما زالت بحاجة إلى الدرس والتحليل على الرغم من أن معظمها قد تم نشره كما ذكرنا. ولعل الملاحظات الموجزة التالية تكفي للتعريف بطبيعة مثل هذه الوثائق:

وأول ما نذكر عن هذه السجلات الاقتصادية والإدارية اتباع طريقة خاصة في حفظها وتنظيمها. فكانت ألواح الطين توضع في صناديق أو أوعية من الفخار تسمى بالسومرية «پسان ـ دبا» (Pisan-Dub-Ba) أي وعاء أو صندوق الألواح أو «الأرشيف» ويدعى الموكل بها رجل الأرشيف أو حافظ السجلات (بتصدر كلمة «لو» أي الرجل قبل العلامات المسمارية المذكورة) وكان يعلق في مثل هذه الصناديق التي يحتوي كل منها على صنف معين من الوثائق والسجلات بطاقة على هيئة لوح طين صغير يدون عليه نوع الوثائق المحفوظة وتأريخها في بعض الأحايين. وإن قسماً كبيراً من الوثائق التي وجدت من عهد سلالة أور الثالثة يخص اقتصاد المعبد وإدارته وقوائم القرابين التي كانت تقدم إلى معابد الآلهة في أيام ومواسم معلومة، وكذلك سجلات مصروفاته إلى غير ذلك من الشؤون الخاصة بإدارة المعبد. وهناك السجلات الخاصة بالحكام والموظفين أي الطبقة الحاكمة، وعلى رأسها الملك وبلاطه ثم سجلات الطبقة الوسطى وطبقة الفلاحين وعامة الناس.

ويستنتج من هذه الوثائق أمور مهمة عن الملكية الفردية وإمكان التصرف

بها بحرِّية من بيع وشراء وتبادل في العقارات والعبيد، كما ندرس منها معاملات المداينات والقروض بالحبوب والتمر والفضة. ويبلغ الفائض معدل عشرين بالمائة لقروض الحبوب ولا سيما من أهراء القصر والمعابد، أما قروض الفضة فكان فائضها مرتفعاً يبلغ معدله نحو ثلاثة وثلاثين ونصف بالمائة. وتتضمن تلك الوثائق أحكام الإجارات للبيوت والأراضي الزراعية، وجاء نوع من إجارة الأرض أن يدفع المستأجر ثلث حاصل الغلة لمالك الأرض. وندرس في مثل هذه العقود التجارية المختلفة الصيغ القانونية الدقيقة المتبعة في تدوينها وذكر القسم بأسماء الآلهة واسم الملك ثم أسماء الشهود، والمدون أو الموثق (كاتب العدل) والتأريخ الرسمي. وقد سبق أن نوَّهنا كيف أن الملك سرجون الآكدي كان على ما يرجح أول من أدخل اسم الملك في قسم العقود.

والغالب أن عامة الناس كانوا يفضلون الاشتغال أجراء في الأراضي العائدة إلى الملك أو المعبد مقابل إعالتهم ودفع تكاليف معيشتهم تخلصاً من تراكم الديون عليهم بفائضها الفاحش الأمر الذي كان يؤول في الغالب إلى عبوديتهم إذ الواقع التأريخي أن عهد سلالة أور الثالثة يمثل درجة عالية من نظام الدولة الرأسمالية أي رأسمالية الدولة عن طريق احتكار جهاز الحكم لمعظم وسائل الإنتاج الزراعي والنشاط التجاري والصناعي. أما ما يسمى بالقطاع الخاص في عرف الاقتصاد الحديث فكان أصحابه كما نوَّهنا معرضين إلى الأخطار والهلاك، كالإفلاس والأيلولة إلى العبودية.

وبالإضافة إلى الثروات الناتجة عن المحاصيل الزراعية كان اقتصاد الدولة يعتمد كذلك على طائفة من الصناعات اليدوية ولكن بهيئة جماعية، حيث المشاغل أو المصانع العائدة إلى الدولة والمعابد، مثل مصانع طحن الحبوب وكانت هذه من الحرف المختصة بالنساء تقريباً وقد جاءتنا سجلات طريفة عن عدد من هذه المطاحن وعدد عمالها وحساباتها وأجور عاملاتها التي كانت تدفع في الغالب على هيئة مواد عينية غذائية. ونذكر أيضاً صناعة

الصوف والنسيج، وقد اختص بها كذلك النساء في الغالب، ويدخل ضمن هذه الصناعة المهمة صبغ الأنسجة، وكانت صناعة النسيج صناعة ضخمة وذات أساليب ومصطلحات فنية معقدة ويلحق بها صناعة الخياطة. وكانت البضائع المصدرة إلى الخارج من هذه الصناعة تدر أرباحاً طائلة للدولة. ومن الصناعات المهمة التي يمكن الوقوف عليها من هذه السجلات صناعة الجلود والخمور بأنواعها الكثيرة المستخلصة من التمور والكروم، وصناعة بناء السفن والنجارة والبناء وصناعة المعادن، مثل النحاس والبرونز والفضة والذهب ولم يظهر استعمال الحديد بعد. ثم صناعة البواري والحصر من القصب والحلفاء على نحو ما يلاحظ الآن في العراق. وكانت تربية المواشي ومصائد الأسماك من مصادر الثروة المهمة منذ أبعد العهود وازدادت ازدهاراً في زمن سلالة أور الثالثة. وخصص بعض المراكز لأغراض تربية المواشي نذكر من بينها المدينة التي ورد ذكرها باسم «بوزورش ـ دكان» (في الموضع الذي يعرف الآن باسم دريهم جنوب مدينة نفر ببضعة أميال) فقد كانت مركزاً كبيراً لحظائر الماشية العائدة إلى ملوك سلالة أور منذ عهد الملك «شولگي».

الفصل السابع

العصر البابلي القديم

و

السلالات البابلية الأخرى

تعريف وتمهيد:

يطلق اسم العصر البابلي القديم على الفترة الزمنية الواقعة ما بين نهاية سلالة أور الثالثة التي مر الكلام عليها (في حدود 2004ق.م) وبين نهاية سلالة بابل الأولى (في حدود 5/ 1594) وتأسيس الدولة الكشية أو سلالة بابل الثالثة. وسنرى أن أبرز ما يميز هذه الفترة الطويلة من تاريخ العراق القديم (وقد دامت زهاء أربعة قرون) من الناحية السياسية والسكانية تدفق هجرات الآموريين من بوادي الشام والجهات العليا من الفرات وتحطيم الكيان السياسي في وادي الرافدين وقيام عدة دويلات متعاصرة ومتحاربة ظلت حتى قيام الملك البابلي الشهير «حمورابي» (سادس ملوك سلالة بابل الأولى) وفرضه الوحدة السياسية (في حدود 1763ق.م. وهو العام الذي قضى فيه على سلالة لارسة)، وبعبارة أخرى عادت البلاد في هذا العهد إلى نظام دول المدن الذي كان أول نظام سياسي ظهر في حضارة وادي الرافدين في العصر الذي سميناه «عصر فجر السلالات» أو عصر دول المدن، ولذلك فيصح أن نطلق على هذا العهد الجديد اسم «عصر دول المدن الثاني»[1]. وقد يسمى

---

(1) وبهذا المعنى سماه الباحث (أزارد) وبالألمانية «Zwischen Zeit» وهو مصطلح استعمله الباحثون الألمان في تاريخ وادي النيل أو ما يرادف المصطلح الإنجليزي «العصر المتوسط» أو العصر الوسيط (Intermediary Period) وهي الفترة التي تفصل ما بين عهد ما يسمى في تاريخ مصر بالمملكة القديمة (عصر الأهرام) وبين عهد الأسرتين الحادية عشرة=

بأسماء أخرى منها عصر «أيسن ولارسة» وبوجه خاص القسم الأول من هذا العصر الذي دام زهاء القرنين ونصف القرن والذي حكمت فيه جملة دول مدن أشهرها وأقواها سلالتا «أيسن» و«لارسة» المتعاصرتين، ويعقب ذلك قيام حمورابي (1792ـ1750ق.م) وقضاؤه على دول المدن وعودة نظام مملكة القطر، وهو الشطر الثاني من العصر البابلي القديم.

هجرات الآموريين:

وقبل أن نتكلم عن الدويلات المختلفة التي قامت في هذا العهد ينبغي التمهيد لذلك بإيجاز هجرات الأقوام الآمورية إلى وادي الرافدين، لأن تلك الهجرات كما قلنا هي التي أسفرت عن قيام دول المدن في هذا العصر، وكانت إحدى الظواهر المميزة له.

لقد سبق أن تكلمنا بإيجاز عن الآموريين[1] وهجراتهم في الفصل الخاص بمقدمة هذا الكتاب، فالآموريون كانوا من أكبر الأقوام السامية التي استوطنت أجزاء مختلفة من بلاد الشام منذ أبعد عصور التأريخ، ويميل الباحثون حديثاً إلى إطلاق اسم الكنعانيين على تلك الأقوام وتقسيمهم إلى كنعانيين شرقيين وهم الآموريون، وكنعانيين غربيين أو فينيقيين على الأقوام السامية التي توطنت في الأجزاء الساحلية من بلاد الشام.

= والثانية عشرة، وحل فيه محل مملكة القطر الواحدة حكم دويلات النبلاء وأمراء الإقطاع. أما بالنسبة إلى تاريخ العراق القديم فيعتبر الباحث المذكور عصر فجر السلالات (2800 ـ 2370ق.م) العصر المتوسط الأول والعهد البابلي القديم موضوع كلامنا العصر المتوسط الثاني. راجع كتابه المرموز له: ZZB, 1ff.

(1) «أمورو» (Amurru) الصيغة الآكدية (السامية) للتسمية السومرية «مار ـ تو» Mar - Tu وكان هذا المصطلح في استعمال سكان وادي الرافدين بالإضافة إلى إطلاقه على هؤلاء الأقوام ذا مدلول جغرافي عندهم يعني الغرب وبلاد الشام أيضاً. كما استعمل الاسم «مارتو» لإطلاقه على الإله الخاص بالآموريين. حول ورود هذا المصطلح في العصور التاريخية المختلفة انظر: ZZB, 30 ff.

ومع أن سيل هجرات الآموريين إلى وادي الرافدين بدأ على أشده منذ حكم الملك «شو ـ سين» ثالث ملوك سلالة «أور» الثالثة، ونتج عنه تحطيم أمبراطورية هذه السلالة في عهد آخر ملوكها المسمى «ابي ـ سين» كما مر بنا، بيد أن هؤلاء الأقوام لم يكونوا جدداً في اتصال سكان وادي الرافدين بهم والتعرف عليهم، فقد ورد ذكرهم في الأخبار والقصص منذ مطلع الألف الثالث ق.م. بصفتهم بدواً مخربين «لا يعرفون سكنى البيوت ولا الزراعة والحبوب ويعتمدون في قوتهم على استخراج الكما من البادية ويأكلون اللحم نيئاً، ولا يعرفون كيف يدفنون موتاهم»[1]، ونجد الآموريين في الأخبار التاريخية يبدؤون في الواقع تهديدهم لوادي الرافدين في زمن الملك الآكدي «شار كالي ـ شري» الذي هزمهم في إحدى مستوطناتهم المهمة في الهضاب أو المرتفعات المسماة جبل «بسار»، كما تطرقنا إلى ذلك في أخبار الدول الآكدية. والجدير بالتنويه عن الكره والعداء اللذين يسودان الإشارات التاريخية الواردة عنهم في نصوص حضارة وادي الرافدين أنهما لم يكونا وليدين عن نعرة أو بغض قومي، بل إنهما مظهر من مظاهر احتقار الحضارة للبداوة أو العداء المأثور بين الحضر والبدو، سواء كان أهل هذه الحضارة من السومريين أم من الساميين الذين هم والآموريون من أرومة واحدة. على أن مجيء هؤلاء الآموريين إلى وادي الرافدين ما بين عهدي «شار ـ كالي ـ شري» و «شو ـ سين» لم يكن على هيئة موجات كبيرة بل على هيئة تسلل من أفراد وجماعات صغيرة عاشوا في وادي الرافدين جنوداً مرتزقة أو عمالاً وأجراء، ثم كانت هجراتهم الضخمة إبان حكم «ابي ـ سين» آخر ملوك سلالة أور الثالثة كما بينا، فقضت عليها وقامت منها دويلات العهد البابلي القديم. ومع أن بلاد الشام الداخلية كانت بوجه عام مراكز لمستوطنات القبائل الآمورية بيد أن

---

(1) حول الأساطير الخاصة بالآموريين وأسطورة زواج الإله «مارتو» انظر:

Kramer, *The Sumerians* (1963). Sumerian Mythology.

E. Chiera, *Sumerian Epics and Myths,* (1934), Nos. 58-112

الموجات التي انحدرت إلى بلاد وادي الرافدين جاءت بالدرجة الأولى من البوادي الكائنة إلى شمال غربي الفرات: بادية الشام وبادية العراق ومن أعالي الفرات وشمالي ما بين النهرين، وقد سبق أن ذكرنا أن المصادر المسمارية خصت المرتفعات المسماة جبل «بسار» بأنها موطن الآموريين الذين احتك بهم سكان وادي الرافدين، ومنها نزحوا إليه. فيذكر لنا مثلاً الملك الآكدي «شار كالي شري» السالف الذكر أنه غزاهم في تلك المرتفعات التي يمكن تحديدها ما بين تدمر ودير الزور، وتمتد من شمال شرقي تدمر إلى الفرات ووردت تلك المرتفعات في أخبار حضارة وادي الرافدين بهيئة «بسلا» (Basalla) و«بسري» أو «بسير» أي جبل بسرى كما قلنا[1].

والجدير بالذكر عن الهجرات الآمورية أنها لم تنقطع في اندفاع أو موجة واحدة كما أنها لم تنحصر أو تقتصر في استيطانها على السهل الرسوبي من وادي الرافدين، بل يمكن القول إنها تجزأت إلى فترات زمنية منذ نهاية الألف الثالث إلى المنتصف الأول من الألف الثاني ق.م، وإنها انتشرت في جملة مستوطنات من أنحاء وادي الرافدين وأجزاء بلاد الشام الأخرى. فبالنسبة إلى وادي الرافدين يمكن التمييز بين موجتين كبيرتين على الأقل جاءتا في فترتين من الزمن واستوطنت في أجزاء مختلفة من العراق. فالموجة الأولى جاءت في أواخر سلالة «أور» الثالثة أي في عهد الملك «ابي ـ سين» أو قبيل ذلك في زمن الملك السابق المسمى «شو ـ سين»، وهي التي قضت على تلك السلالة ونتج عنها تأسيس جملة سلالات أشهرها سلالتا «أيسن» و «لارسة» ولعله سلالة «اشنونا» أيضاً. وبعد زهاء القرن الواحد على هذه الهجرة الأولى انحدرت من جهات الفرات الأعلى والأوسط جماعات أخرى من الآموريين إلى وادي الرافدين، واستطاع شيوخ قبائلها أن يؤسسوا مشيخات أو سلالات حاكمة أشهرها سلالة بابل الأولى التي أسسها «سوموآبم» كما قامت منهم

---

(1) انظر: Edzard, ZZB, P.35

Gelb in AJSL, Vol, LV P.73ff.

إمارات أخرى في سپار والوركاء و «مرد» وغيرها من المدن، ولكنها لم تظفر من النجاح والاتساع على النحو الذي حصلت عليه سلالة بابل التي تفردت بحكم البلاد على ما سنبين بعد قليل.

أما المناطق التي استوطنتها تلك القبائل الآمورية في بلاد وادي الرافدين فكانت، بالإضافة إلى السهل الرسوبي، أي بلاد سومر وأكد التي أقاموا فيها سلالاتهم الحاكمة، في جهات الفرات الأوسط، ولا سيما منطقة ماري (تل الحريري الآن) ومنطقة عانة (خانة أو خانات القديمة)، ومنطقة شرقي دجلة، ومنها إقليم «اشنونا» وبضمنها البلاد التي ورد ذكرها باسم «يموت ـ بعل»[1]، التي يحدها من جهة الشرق المنطقة الجبلية ويخترقها نهر ديالى. واسم «يموت بعل» أطلق على إحدى القبائل الآمورية، وكثيراً ما جعل في المصادر المسمارية مرادفاً لمصطلح «أمورو»، كما أطلق على الدويلة التي تأسست في هذه المنطقة. ومن الممكن تعليل استيطان الآموريين في هذه المنطقة شبه الجبلية والمتاخمة لبلاد عيلام وإيران بأن جماعات من الآموريين لم تجد مجالاً لانحدارها جنوباً مع الفرات إلى السهل الرسوبي فعبرت البادية شرقاً واستوطنت شرقي دجلة. وكانت الدويلة التي قامت في هذا الإقليم تحت نفوذ العيلاميين السياسي في فترات معينة، ونشأت صلات كثيرة بينها وبين الدويلات الأخرى المعاصرة. وسنرى كيف أن ملكها المسمى «كودر مابك» استطاع أن يحتل دويلة «لارسة» وينصب ولديه «ورد ـ سين» و «ريم ـ سين» ملكين عليها بالتعاقب.

وما دمنا في ذكر هذه القبيلة الآمورية فيحسن أن ننوّه بأسماء القبائل الأخرى ولا سيما المشهورة منها، مثل قبيلة «أمنانم» (Amnanum) التي ورد ذكرها في كتابات ملك الوركاء من هذا العهد، أي «سين ـ كاشد»[2] الذي

---

(1) يعني اسم القبيلة «يموت بعل»: مات الإله «بعل» ويكتب بصورتين: Yamut - Bal أو Emutbal. حول هذا الاسم انظر: A. Goetze in JCS IV 72ff.

(2) عن نصوص «سين ـ كاشد» انظر: RISA; SAK; ZZB 154 - 5

لقب نفسه في بعض نصوصه بأنه ملك «أمنانم»، الأمر الذي يشير إلى أن فرعاً من هذه القبيلة استوطن منطقة الوركاء، واستوطن فرع آخر من هذه القبيلة في منطقة «سبار» (أبو حبة)، بحيث سميت هذه المدينة في بعض النصوص «مدينة الأمانيين»[1].

وذكرت قبيلة «أمنانم» مع قبيلة آمورية أخرى اسمها «يخرورم» أو «يحرورم» في رسائل مدينة ماري الشهيرة[2]، وقد استوطنت منطقة دجلة الوسطى ما بين الزاب الأسفل وديالى، واستوطن فرع منها في منطقة سپار، وباسم هذا الفرع سميت المدينة «سپار يخروم». ومن القبائل الآمورية المشهورة القبيلة التي ورد ذكرها باسم «خانيين» أو «حانيين» التي استوطنت منطقة «خانة» أو «عانة» (عانة أو خانات) المذكورة في رسائل مدينة «ماري» حيث انتشرت هذه القبيلة من عانة إلى منطقة ماري على الفرات الأوسط. وقبيلة أخرى جاء اسمها على هيئة «سوتو» (Sutium) استوطنت غربي الفرات الأوسط.

وهناك ظاهرة غريبة في أمر هؤلاء الآموريين، تلك هي أنهم على الرغم من كثرة قبائلهم التي استوطنت وادي الرافدين وقيام سلالات حاكمة منهم، لم تحل لغتهم أو لهجتهم السامية الغربية محل اللغة الآكدية (السامية الشرقية في العراق) التي رأيناها تعم وادي الرافدين منذ العهد الآكدي وتزيح بالتدريج اللغة السومرية بصفتها لغة التدوين. وبدلاً من أن يدون هؤلاء الآموريون بلغتهم اتخذوا اللغة الآكدية التي يطلق عليها البابلية القديمة في هذا العهد (العهد البابلي القديم)، فلم يصل إلينا من السلالات الآمورية الحاكمة أية نصوص مدونة بلغتهم باستثناء أسماء الأعلام الكثيرة ورجحان أن اللهجات السامية الغربية كانت اللغات المحكية لجماعات كثيرة من السكان الجدد الذين

---

(1) انظر: ZZB, P.106.

(2) حول القبائل الآمورية الواردة في رسائل «ماري» انظر:

Kupper, *Les Nomades en Mesopotamie au Temps Des Rois De Mari* (1957).

اختلطوا بالساميين القدامى، على أنه دخل بالإضافة إلى ذلك عدد من الكلمات السامية الغربية وبعض الآلهة السامية الغربية مثل الإله «مارتو» والإله «دگان» (دجان أو داجون في التوراة) وإله الرعد والزوابع «أدد» أو «حدد»، وبهيئة «يشكر» (Ishkur) أيضاً والإله «سومو» و«حمو» و«عمو» كما يظهر في أسماء عدة ملوك من سلالة بابل الأولى مثل «حمورابي» و«عمى ـ صادوقا» ومثل لفظ «ايل» الداخل في أسماء بعض الملوك والأعلام مثل «سومو ـ لئيل» و«أبو»، أو «ابي» (الاب) مثل «أبي ـ سارة» (من ملوك سلالة بابل الأولى أيضاً).

السلالات الحاكمة في العهد البابلي القديم:

سبق أن تكررت الإشارة إلى قيام عدة سلالات حاكمة من القبائل الآمورية التي استوطنت وادي الرافدين من بعد القضاء على أمبراطورية «أور». وقبل أن نتناول الكلام على أشهر هذه السلالات نعدد فيما يأتي أسماءها:

(1) سلالة «أيسن»، ومؤسسها «اشبي ـ ايرا» (2017 ـ 1794).

(2) سلالة «لارسة»، ومؤسسها «نيلانم» (2025 ـ 1763).

(3) سلالة «اشنونا»، (2000؟ ـ 1761ق.م).

(4) بلاد آشور (2000؟ ـ 1760).

(5) سلالة «ماري» (1850؟ ـ 1761).

(6) سلالة بابل الأولى، ومؤسسها «سومو ـ آبم» (1894 ـ 1595).

(7) سلالة الوركاء، ومؤسسها «سين ـ كاشد» (1860 ـ ؟).

(8) سلالة دير.

(9) سلالة «ملگيثم»، وسلالة «يموت بعل» وسلالة مدينة «سپار» وغيرها.

سلالة «أيسن»:

مر بنا في كلامنا على نهاية سلالة «أور» علاقة آخر ملوك هذه السلالة بمؤسس سلالة «أيسن»، اشبي ـ ايرا، وكيف أن هذا كان في أصله من مدينة «ماري»، أما في خدمة ملك «أور»، ابي ـ سين أو أنه التحق بخدمته من بعد ذلك، وكيف أنه اغتنم فرصة اضطراب الأحوال في أمبراطورية «أور»، من جراء تدفق الهجرات الآمورية، فاستقل عن ملك أور وأسس في مدينة «أيسن»[1] سلالة مستقلة منذ العام الثاني عشر من حكم «ابي ـ سين»، وبدأ يؤرخ بالأحداث الخاصة بحكمه[2]. وقد قام حكمه زهاء ثلاثة وثلاثين عاماً، وضم إلى مملكته بالإضافة إلى مدينة أيسن والأراضي التابعة لها مدناً أخرى أهمها مدينة «أور» وتوابعها، حيث استطاع أن يطرد العيلاميين منها، ومدينة «نفر»، ومنطقة لجش والأجزاء الجنوبية ومن بينها سواحل الخليج. وكانت «أيسن» أهم سلالة في العهد البابلي القديم في سعة رقعتها ونشاط ملوكها ومآثرهم التي خلفوها، وقد تفوقت على السلالة المعاصرة، أي سلالة «لارسة» المجاورة لها والتي سيأتي الكلام عليها، على الرغم من أن نهاية «أيسن» كانت على يدها، من جانب ملكها المسمى «ريم ـ سين» في العام 1794ق.م، فزالت من الوجود، واستمرت سلالة لارسة المنافسة لها في الوجود إلى زمن حمورابي، حيث تلقت الضربة القاضية بدورها على يده (1763ق.م). وحكم في سلالة أيسن سبعة عشر ملكاً أولهم كما قلنا «أشبي ـ ايرا»، وآخرهم «دامق ـ اليشو» (1816 ـ 1794ق.م.).

---

(1) تقع بقايا مدينة «أيسن» في التلول المسماة الآن «ايشان بحريات» على بعد نحو 16 ميلاً جنوب غربي «نفر». وأوفدت في هذا العام (1973) جامعة ميونخ الألمانية بعثة للتنقيبات في المدينة، حيث بدأت موسم عملها الأول.

(2) راجع الحوادث المؤرخ بها الخاصة بحكم الملك «اشبي ـ ايرا» التي نشرها مؤلف هذا الكتاب في مجلة «سومر»، المجلد الرابع (1948)، القسم الإنجليزي، وراجع التعليقات المهمة على أحداث هذه الفترة في:

Jacobseh, in JCS, VII, (1953), 42ff.

استمرت سلالة «أيسن» في الازدهار والتوسع ولا سيما في عهود الملوك الأربعة الذين خلفوا المؤسس «اشبي - ايرا»، وقد عمل الملكان الأولان اللذان خلفاه وهما «شو - اليشو» و «اشمي - دگان» على مد رقعة الملكة إلى الخليج، من بينها «نلمون» أو «دلمون» (البحرين)، كما امتدت شمالاً إلى منطقة «سپار» وبهذا سيطرت على نصف بلاد أكد وسومر تقريباً، بالإضافة إلى ما سجل عن ملوكها الأوائل من نشاط تجاري خارجي بإقامة علاقات تجارية واسعة مع الأقطار المجاورة.

وكان مؤسس السلالة «اشبي - ايرا» يعتبر مملكته وريثة لسلالة «أور» ووريثة السومريين بوجه عام في ملوكية «بلاد سومر وأكد»، ويتجلى ذلك في تعلق ملوك هذه السلالة بالثقافة السومرية، وسار الكثير منهم على حذو ملوك «أور» في ألقابهم وأسلوب الحكم في بلاطهم وألقابهم، وتأله بعضهم على غرار ملوك «أور» ونظمت التراتيل في مديحهم[1]، كما لقبوا أنفسهم ملك أور، وملك سومر وأكد، وكانت اللغة السومرية اللغة الرسمية تقريباً لهم، كما يدل على ذلك الكتابات الملكية التي جاءت إلينا من ملوكهم، والجدير بالذكر أن كثيراً من القطع الأدبية السومرية التي وجدت في مكتبة مدينة «نفر» قد ألفت أو استنسخت في هذا العهد ولعله بطلب من ملوك سلالة «أيسن»، ولهذه الأسباب على ما يرجح يمكن أن نعزو إصدار نسخة جديدة لأثبات الملوك السومريين بحيث تضمنت أسماء ملوك هذه السلالة ولكنها لم تذكر أسماء ملوك السلالات الأخرى المعاصرة. وبعد حين من قيام سلالة «أيسن» شرعت هجرات ثانية من الأقوام الآمورية إلى الأجزاء الوسطى والجنوبية من العراق ونجح زعماء بعض القبائل في تأسيس كيانات سياسية لهم، من بينها سلالة بابل الأولى الشهيرة التي سيأتي ذكرها فاضطر ملوك سلالة أيسن وغيرهم من

---

(1) انظر:

Hallo, «Royal Inscriptions of the Early old Babylonian Period» in *Bibliotheka Orientalis*, 18, (1961). 4 ff.

السلالات الأخرى إلى إقامة الحصون للعمل على صد اندفاع هذه الهجرات الجديدة. ومهما كان الحال فإن سلالة «أيسن» استمرت في الازدهار إلى أن بدأت المتاعب والأخطار مع الدويلة المجاورة أي سلالة «لارسة» التي كانت تنافسها وتنازعها السلطة على البلاد وظهر النزاع الحاد في عهد ملكها الخامس المسمى «لبت ـ عشتار» (1934 ـ 1924ق.م) الذي اشتهر بإصدار شريعته الخاصة التي سبقت شريعة حمورابي الشهيرة بنحو قرنين من الزمان وقد دونها باللغة السومرية الأمر الذي يعزز ما ذكرناه من تعلق ملوك هذه السلالة باللغة والثقافة السومرية. وكان «لبت ـ عشتار» يعاصر ملك «لارسة» المسمى «كنكونم» الذي كان على شيء كبير من المقدرة والدهاء بحيث استطاع أن ينتزع مناطق مهمة تابعة إلى أيسن مثل «أور» و «لجش» وادعى الملوكية على بلاد «سومر وأكد»، وبذلك رجحت الكفة في صالح «لارسة» ولا سيما من بعد سيطرتها على المناطق المتاخمة للخليج وهي المفتاح المهم للتجارة الخارجية، واستمر توازن القوى في صالح الدولة المعادية، بحيث استطاع ملكها المسمى «سوموايل» أن ينتزع المدينة المقدسة «نفر» من ملك «أيسن» المعاصر المسمى «ايرا ـ ايميتي» (الملك التاسع 1868 ـ 1861ق.م). ويجدر أن ننوّه بمناسبة ذكرنا لهذا الملك بالكيفية التي مات بها، مما يتعلق بما يسمى في تاريخ حضارة وادي الرافدين «الملك البديل»[1]، وفحواها أن عرف القوم جرى أنه في حالات توقع حدوث خطر بالمملكة بحسب تنبؤات الفأل ولكي لا يتعرض إليها شخص الملك المقدس كان ينصب ملك بديل لدفع الشر عن الملك الحقيقي، فيتوج ويحكم طوال فترة الأخطار، ثم ينحى عن الحكم عند زوالها. وفي حالة «ايرا ـ ايميتي» السالف الذكر تذكر لنا التواريخ البابلية[2] ما حدث بالعبارة التالية: «لكي لا تنقرض السلالة الحاكمة عين الملك «ايرا ـ

---

(1) عن نظام «الملك البديل» وبالبابلية (Pukh - Sharri) انظر:

Frankfort, *Kingship and The Gods,* (1955), 262 ff.

(2) انظر: *King, Babylonin Chronicles, II, 12ff.*

ايميتي» البستاني المسمى «انليل ـ باني» بدلاً منه على العرش، ووضع التاج الملكي فوق رأسه. ولكن «ايرا ـ ايميتي» مات بدلاً منه على أثر تناوله الحساء. أما «انليل ـ باني» فلم يتخل عن العرش بل صار ملكاً حقيقياً».
وليس من المستبعد أن الملك الحقيقي مات مسموماً لعله على يد ذلك الملك البديل، الذي حصل على عرش المملكة واستمر في الحكم طوال عشرين عاماً. ولكن مملكة «أيسن» استمرت في التدهور في حين أن السلالة المعادية «لارسة» كانت في تعاظم مستمر وصادف في حدود هذا الزمن تبدل في حكمها من بعد موت ملكها المسمى «ضلي ـ أدد» (في عام 1834ق.م) في أثناء حربه مع سلالة بابل التي سيأتي ذكرها فتدخل في شؤون المملكة حاكم إقليم «يموت ـ بعل» المسمى «كودر ـ مابك»، وهو الإقليم المتاخم لبلاد عيلام، ما بين دجلة والمرتفعات التي يمر منها نهر ديالي، كما مر بنا. ويشير الاسم العيلامي لهذا الحاكم إلى أن مملكته كانت تحت نفوذ العيلاميين، وجاء من بين ألقابه أنه «أبو الآموريين». وبعد استيلائه على مملكة «لارسة» نصب على عرشها ابنه المسمى «ورد ـ سين» أما هو فظل يحكم في إقليمه الخاص.
وبتولي «ورد ـ سين» عرش لارسة ازدادت قوة وسلطاناً. وبعد أن حكم زهاء الأحد عشر عاماً (1834 ـ 1823) خلفه على عرش لارسة أخوه المسمى «ريم ـ سين» الذي حكم أمداً طويلاً واستطاع القضاء على سلالة «أيسن» في عام 1794ق.م وبهذا زالت دولة من الدول المهمة المتنافسة في مطلع العهد البابلي القديم، وانحصر النزاع الآن بين «لارسة» وبين سلالة بابل الأولى، في عهد حمورابي الشهير الذي خلف أباه «سين ـ مبلط» بعد عامين من القضاء على سلالة «أيسن»، وظل الخصمان القويان، حمورابي و «ريم ـ سين» يتربص أحدهما بالآخر طوال 30 عاماً، كانت الغلبة في نهاية الأمر لحمورابي الذي قضى على دول المدن الأخرى وتفرد بزعامة البلاد وسيتكرر ذكر هذه الأحداث في كلامنا على سلالة بابل الأولى.

سلالة لارسة:

إن ما ذكرناه من الأحداث الخاصة بسلالة «أيسن» شملت السلالة المنافسة لارسة[1]، ولذلك فسنقتصر في كلامنا عن هذه السلالة على ملاحظات أخرى موجزة، ومنها أن هذه الدويلة المعاصرة لسلالة «أيسن» كانت كما قلنا من دول المدن الكثيرة التي قامت في العهد البابلي القديم على أثر هجرات القبائل الآمورية التي مر ذكرها، وكان مؤسسها المسمى «نپلانم» شيخ إحدى تلك القبائل، وقد استطاع أن يؤسس مملكته ويحكم في لارسة (2025 ـ 2005ق.م) في حدود الزمن الذي أقام فيه «اشبي ـ ايرا» مملكته في أيسن (2017 ـ 1985ق.م) وحكم من سلالة لارسة أربعة عشر ملكاً، وكان إبان حكم الملوك الأربعة الأوائل من سلالة «أيسن» دون هذه السلالة في السلطان والقوة، ولكن بدأت كفتها ترجح منذ قيام ملكها الخامس المسمى «گنگونم» (1932 ـ 1906ق.م) المعاصر للملك الخامس من سلالة «أيسن»، أي «لبت ـ عشتار» (1934 ـ 1924ق.م)، واستمرت «لارسة» في التعاظم واتساع الرقعة على حساب سلالة «أيسن» المنافسة لها، إلى أن قضى عليها آخر ملوك لارسة المسمى «ريم ـ سين» (عام 1794ق.م)، فانحصر النزاع بين هذا الملك وبين حمورابي، سادس ملوك سلالة بابل الأولى حيث تم القضاء على سلالة «لارسة» عام 1763ق.م، كما ذكرنا.

مملكة اشنونا:

ومن الدويلات المهمة التي قامت في العصر البابلي القديم مملكة «اشنونا» في الأراضي الخصبة في المثلث المحصور ما بين دجلة وديالى

---

(1) مر بنا في كلامنا على تاريخ التحريات الأثرية أن بقايا مدينة لارسة تعرف الآن باسم «السنكرة»، على بعد نحو 30 ميلاً شمال غربي الديوانية، وقد تحرى فيها الآثاريون الفرنسيون فترة قصيرة (1933)، ثم استأنفوا التحري في السنوات القليلة الماضية ولا زالت التحريات مستمرة إلى حال التاريخ انظر: Rarrot, RA, (1933), 169ff. AM (1945 - 1953)

وسفوح مرتفعات «زاجروس» شرقاً، وسميت نسبة إلى مركزها أو عاصمتها المسماة «اشنونا» (تل أسمر الآن)، التي سبق أن تكلمنا عنها في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات حيث ازدهرت في هذه المنطقة حضارة وادي الرافدين منذ أواخر العصر الذي أطلقنا عليه «الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic)، فقد رأينا كيف أن التحريات التي قامت بها جامعة «شيكاغو» (المعهد الشرقي) (1930 ـ 1937) قد كشفت عن نتائج مهمة عرفتنا بحضارة وادي الرافدين في عصر فجر السلالات، حتى أن هذه التسمية وتقسيمات هذا العصر إلى الأطوار الثلاثة التي تكلمنا عنها استندت بالدرجة الأولى إلى تلك النتائج. ولما أن قامت الدول الكبيرة في العصر الآكدي وفي عهد سلالة أور الثالثة كانت هذه المنطقة من أغنى الأقاليم التابعة لهما. وبالإضافة إلى المراكز الرئيسة التابعة إلى هذه المنطقة التي عددناها سابقاً، مثل تل أسمر وخفاجي وأشجالي وتل أجرب وغيرها ظهر من تحريات مديرية الآثار أن هناك جملة مراكز أخرى مهمة تمتد إلى مدينة بغداد الحالية ولا سيما ضواحيها الشرقية، مثل تل حرمل في منطقة تل محمد أو ما يسمى الآن بغداد الجديدة، وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في الموضع (1945 ـ 1962) نتائج مهمة في معرفتنا بحضارة وادي الرافدين في العصر الذي نتكلم عنه الآن، أي العصر البابلي القديم[1]، وقد تبين من النصوص المكتشفة فيه أن اسم الموضع القديم «شادبم»، وكان من بين المراكز الإدارية المهمة التابعة إلى مملكة «اشنونا»، من بعد استقلالها في نهاية سلالة «أور» الثالثة. ووجدت في تل حرمل مجموعات كثيرة من ألواح الطين (ما بين 4000 و5000 لوح) المتنوعة في محتوياتها، مثل العقود والوثائق التجارية والقانونية والاقتصادية والمعاملات

---

(1) حول نتائج هذه التنقيبات التي أشرف عليها مؤلف هذا الكتاب انظر مجلة «سومر» المجلد الثاني (1946) والمجلد الرابع (1948). وعن الشريعة المكتشفة في تل حرمل وتعيين الموضع بالاسم القديم «شادبم» انظر:

A. Goetze, *The Laws of Eshnunna* (1956).

وعن الرسائل المكتشفة فيه راجع «سومر»، المجلد 14 (1958) القسم الإنجليزي.

الأخرى والرسائل، وجملة ألواح رياضية مهمة، ونسخة من الشريعة العائدة إلى مملكة «اشنونا»، التي يرقى زمنها إلى أوائل العصر البابلي القديم (في حدود 1900 ـ 1850ق.م)، ونسبت عند اكتشافها إلى أحد ملوك المملكة المسمى «بلالاما»، ولكن ثبت أن هذه النسبة غير مؤكدة أو غير صحيحة. وإلى جانب الأهمية الخاصة بمحتويات الألواح المكتشفة في تل حرمل، فلها أهمية خاصة ناشئة من كونها مؤرخة بحوادث رسمية خاصة بسني حكم الملوك في اشنونا، وقد عثر من بين الألواح المهمة على ثبت بالحوادث المؤرخ بها الخاصة بحكم الملك المسمى «ابالبيل» الثاني[1].

ومن المواضع المهمة التابعة إلى مملكة «اشنونا» التل المسمى تل الضباعي وقد تحرت فيه مديرية الآثار (1960 ـ 1963)، وهو قريب من تل حرمل السالف الذكر، ووجدت فيه أيضاً مجموعة مهمة من ألواح الطين المدونة بمختلف المعاملات والشؤون الحياتية، من بينها بضعة ألواح رياضية مهمة[2]، وتبين من دراسة هذه الألواح أن اسم تل الضباعي القديم كان بهيئة «اوزارز لولو» أو «زارلو» أو «زرا لولو»، ووجد في الموضع معبد صغير شيد لعبادة إله المدينة الذي ورد اسمه في الألواح المكتشفة بهيئة «لا صميم» (ويكتب هذا الاسم في بعض الألواح بالعلامة المسمارية KAS مسبوقة بعلامة التأليه).

إن موقع دولة «اشنونا» الجغرافي الذي حددناه بالنسبة إلى بلاد الرافدين، من مجاورتها لبلاد عيلام وبلاد آشور، وبلاد أكد في الوسط جعلها ذات أهمية خاصة في تاريخ حضارة وادي الرافدين، بالإضافة إلى تأثرها الحضاري والاقتصادي من الجهات الشمالية والشرقية، وببلاد سومر وأكد من الجنوب، حيث تأثيرات حضارة وادي الرافدين تلتقي بالتأثيرات الثقافية الآتية من الجهات الأخرى، ولذلك تميزت حضارة هذه المملكة بخصائص محلية بالإضافة إلى طابع حضارة القطر العامة، فمن هذه الخصائص المحلية أسماء

---

(1) نشرها المؤلف في سومر، المجلد الخامس (1948).

(2) انظر مجلة سومر (1963).

بعض الآلهة، وعلى رأسها كبير الآلهة المسمى «تشپاك»، الذي يطابق بالإله الحوري «تشوب»[1]، وأسماء ملوكها وحكامها، ولا سيما في فترة العهد البابلي القديم، فبعضها أسماء سامية، وبعضها من أصول عيلامية وحورية. وكانت منطقة اشنونا، كما ذكرنا، تابعة إلى ملوك الدولة الآكدية، ثم من بعد فترة الحكم الكوتي إلى ملوك سلالة «أور» الثالثة، حيث شيدت المعابد لعبادة ملوك هذه السلالة ولا سيما الملك «شو ـ سين» (الذي كان يسمى گمل ـ سين سابقاً)، وقد كشف عن المعبد المشيد له في تل أسمر. ويبدو أن منطقة اشنونا كانت أولى الولايات التي انفصلت عن أمبراطورية «أور»، في عهد آخر ملوكها «ابي ـ سين» في حدود 2028ق.م، وكان آخر الحكام التابعين إلى أور الشخص المسمى «اتوريا»، فأخذت اشنونا تستبدل التقويم السومري الخاص بسلالة أور وأسماء الأشهر والحوادث المتخذة للتاريخ بتقويم خاص بها، كما برز شأن إلهها «تشپاك» السالف الذكر، وصار ملوك هذه الدويلة المستقلة يلقبون أنفسهم «عبد تشباك» بدلاً من «عبد ملك أور»، وحول المعبد الذي شيد لعبادة ملك أور «شو ـ سين» إلى بناء ذي وظيفة دنيوية، وشيد بجانبه قصر كبير، كما حلت اللغة الآكدية (السامية) محل اللغة السومرية بصفتها لغة التدوين الرسمية.

ومما يقال عن الأوائل من ملوك اشنونا أن تسلسلهم وأطوال حكمهم غير معروفة، وقد خلفوا لنا طائفة من كتاباتهم الرسمية، ونصوصاً أخرى متنوعة خاصة بالشؤون الإدارية والاقتصادية، والكثير منها مؤرخ بطريقة التاريخ من الحوادث المهمة، وبعد نيلهم الاستقلال على أثر انحلال أمبراطورية أور صاروا يوسعون من رقعة مملكتهم، ودخلوا في العلاقات الدولية المختلفة مع الدويلات المجاورة، وقد استوطن بعض الجماعات الآمورية منطقة اشنونا،

---

(1) بالإضافة إلى المراجع التي أثبتناها عن تل حرمل والضباعي، فإن أحسن خلاصة عن تاريخ مملكة «اشنونا» في المرجع الآتي:

Frankfort and Jacobsen, *The Gimil - Sin Temple and The Palace of The Rulers of Tell Asmar.*

وقد سبق أن ذكرنا الإقليم المسمى «يموت ـ بعل» المتاخم لأشنونا والذي يكون جزءاً من هذه المنطقة الخصبة ما بين دجلة غرباً وديالى شرقاً.

وبلغت مملكة اشنونا في الفترة الأولى من استقلالها مستوى ملحوظاً من الازدهار السياسي والاقتصادي. والمرجح أنه حكم في هذه الفترة الملوك الآتية أسماؤهم: «ايليشو ـ ايليا» و «نور ـ آخم»، و «كيريكيري» وابنه «بلالاما» الذي شيدت في زمنه المدينة الجديدة التي أطلق عليها اسم «توتب» (خفاجى)، وهو الذي قوى تحصينات مدينة «اشنونا» العاصمة، ويرجع إلى عهده تأسيس مدينة جديدة أخرى اسمها «تابي ـ تشباك»، وإقامة معبد لإله المدينة «تشباك» باسم «اي ـ سكل» (E - Sikil)[1]، ويدل اللوح الذي وجد في «اشنونا» على أن «بلالاما» كان معاصراً لملك دويلة «دير» (تلول العقر الآن قرب بلدة بدرة) المسمى «آنو متبل».

وحلت من بعد حكم «بلالاما» في تاريخ مملكة «اشنونا» فترة مظلمة لا يعلم مقدار طولها بوجه التأكيد، صارت فيها مرة تحت نفوذ دويلة «أيسن» ومرة أخرى تحت نفوذ ملك «دير» ثم تحت سلطة «كيش»، إلى أن ظهر فيها سلسلة جديدة من الحكام أولهم «ابق ـ أدد» الثاني (في حدود 1850ق.م) ابن «أبالبيل» الأول فاستعادت هذه المملكة في عهدهم استقلالها وازدهارها. وخلق «ابق ـ أدد» ابنه المسمى «نرام ـ سين» الذي وسع نفوذ المملكة إلى الفرات الأوسط، في المدينة المسماة «رابيقم» (في منطقة الرمادي) وإلى مدينة آشور و «قبارا» في سهل أربيل ومدينة «أشناكم» على الخابور، ولقب نفسه «ملك بلاد آشور». والمرجح كثيراً أن «نرام ـ سين» اشنونا و «نرام ـ سين» المذكور في أثبات الملوك الآشوريين كانا شخصاً واحداً. وجاء إلى حكم «اشنونا» من بعد نرام ـ سين أخوه المسمى «دادوشا» وكان ملكاً قوياً طموحاً في حقل الفتوح الخارجية، فقد شن الحرب على مدينة «ماري» حين كان يحكم فيها «اشمي ـ دگان» نيابة عن أبيه «شمشي ـ أدد» الأول المشهور، وقد

---

(1) انظر: Edzard, ZZB. P.72.

أسهم «دادوشا» في إنهاء الحكم الآشوري في ماري، وخلفه ابنه المسمى «ابالبيل» الثاني، وانتهى حكم هذه السلالة في عهد آخر ملوكها المسمى «ضلى ـ سين» على يد حمورابي في عام 1761ق.م.

مملكة ماري:

مر بنا في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات كيف ازدهرت حضارة وادي الرافدين في منطقة ماري[1] (تل الحريري الآن قرب البو كمال) على ضوء نتائج التنقيبات الفرنسية فيها، أما في عهد الأمبراطورية الآكدية وأمبراطورية سلالة «أور» الثالثة فقد دخلت ماري ضمن الأقاليم التابعة لهما. ومما لا شك فيه أن جماعات من الآموريين استوطنت المنطقة على أثر هجرات القبائل الآمورية في نهاية الألف الثالث ق.م فقامت سلالة حاكمة مستقلة في العهد البابلي القديم، هي إحدى السلالات الكثيرة التي حكمت متعاصرة في هذا العهد في الأجزاء المختلفة من وادي الرافدين، وبدأ ازدهار هذه المملكة في حدود 1900ق.م وامتدت سلطتها على طوال الفرات والخابور وشملت منطقة «عانة» (خانة القديمة)، ولا سيما في عهد ملكها أو حاكمها المسمى «يجد ـ لم» (Iaggid - Lim) أو «يجت ـ لم» (Iagit - Lim) وكان يعاصر أحد ملوك بلاد آشور المسمى «ايلا ـ كبكبو». وأعقب «يجد ـ لم» ابنه المسمى «يخدن ـ لم» الذي اغتالته حاشية البلاط وصادف هذه الأحداث تعاظم الدولة الآشورية في عهد ملكها الشهير «شمسي ـ أدد» الأول الذي كان من أصل آموري[2]، فضم إليه مملكة «ماري» ومناطق مهمة من

---

(1) راجع القسم الخاص بأثبات الملوك السومرية في عصر فجر السلالات حيث خصصت لمدينة ماري سلالة حاكمة في ذلك العصر.

(2) عن أصل «شمسي ـ أدد» انظر:

Landsberger in JCS, VIII, (1954), 34ff.;

Kupper, *Nomades*, (1957), 207ff. *ARAB*. I, 45.

وعن أخبار حملاته ووصوله إلى لبنان وإقامته تمثالاً له هناك انظر: ARAB, I, 45

سورية ولبنان وسواحل البحر المتوسط. وكان له ابنان عين أحدهما المسمى «يسمح ـ أدد» ملكاً على ماري، وعين الثاني المسمى «اشمى ـ دگان» أو «يسمع ـ دگان» على منطقة دجلة إلى الجنوب من مدينة آشور، حيث مركز حكمه في المدينة المسماة «ايكالاتم»، وبذلك سيطر الملك «شمسي ـ أدد» على الأجزاء الوسطى من وادي دجلة والفرات.

وكانت تلك الحقبة من تاريخ «ماري» وبلاد «آشور» من عهود الازدهار كما أنها تتميز بغزارة المصادر والنصوص التاريخية التي جاءتنا منها، مما عثر عليه من الرسائل الرسمية والوثائق الملكية الأخرى في أثناء التنقيبات الفرنسية في مدينة «ماري» في قصرها الملكي الفخم[1]، الأمر الذي مكّن الباحثين من الوقوف على أمور مفصلة عن الحياة الاجتماعية والنظم الإدارية والاقتصادية والعلاقات الدولية في العصر البابلي القديم.

ويستنتج من هذه الوثائق أن «اشمي ـ دگان» كان شجاعاً قوي الشخصية ومدبراً، على النقيض من شخصية أخيه «يسمح ـ أدد» الضعيفة، وكان هذا كما ذكرنا نائباً لأبيه في حكم ماري[2]. وكان على أبيهما «شمسي ـ أدد» أن يحافظ على مملكته التي اتسعت إلى أمبراطورية شملت كذلك مملكة اشنونا التي تكلمنا عنها، وكان ينافسه ويزاحمه سلالتا «لارسة» وبابل، كما كانت مهددة بالأخطار الآتية من البدو الآموريين في منطقة الفرات الأعلى. وقد سبق أن ذكرنا بعض قبائلهم مثل القبيلة المسماة «خانيين» أو «حانيين» (في منطقة

---

(1) نشرت النصوص المهمة المكتشفة في ماري منذ عام 1950 في ثمانية مجلدات من جانب الباحثين الفرنسيين: «دوسا» (Dossin) و «بوتيرو» (Boterro) و «بويه» (Boyer) و «جان» (Jean) و «كوبر» (Kupper) بعنوان: *Archives Royales de Mari* (ARM)
فالمجلدات الأول والرابع والخامس تتعلق بمراسلات الملك «شمسي ـ أدد» وولديه، والمجلدات الأخرى بمراسلات الملك «زمري ـ لم» وموظفيه. وعن نصوص الفترة التي سبقت «شمسي ـ أدد» انظر:
Dossin, in *Syria*, (1955), 1ff.; *Studia Mariana*, (1950), 52ff.

(2) انظر: ARM, I, 124.

عانة). وقد اشتهرت هذه القبيلة بشدة مراسها في الحرب، ودخلت جماعات منها جنوداً في جيش مملكة ماري، ومثل القبيلة المسماة «بنو ـ يمينا» (بنو اليمين، أي الجنوب) التي كانت أشد القبائل الآمورية خطراً على مملكة ماري، ولكن يبدو من الرسائل المكتشفة في ماري أن الملك «يسمح ـ أدد» سالمهم وحالفهم وأقطع جماعات منهم الأراضي فصاروا زراعيين مستقرين.

كان الملك «شمسي ـ أدد» الأول معاصراً لملك بابل المسمى «سين ـ مبلط» (1812 ـ 1793ق.م)، وكانت العلاقات ما بين الدولتين علاقات مهادنة ومجاملة أكثر منها علاقات صداقة، كما تشير إلى ذلك رسائل «ماري»[1]. أما العلاقات ما بين ماري وبين «اشنونا» فكانت أقرب ما تكون إلى العلاقات العدائية، فكانت مملكة اشنونا في عهد ملكها المسمى «دادوشا» تحرض الأقاليم والقبائل المجاورة للثورة على ماري وعلى بلاد آشور التابعة لها، لأن ظهور «شمسي ـ أدد» القوي ضيق الخناق على مملكة «اشنونا». وقد استطاع بعض ملوك هذه المملكة وبوجه خاص «نرام ـ سين» أن يبسط حمايته على بلاد آشور. وظلت الحملات مستمرة ما بين الطرفين، والنصر والاندحار يتناوبان بين الجانبين. ولما توفي الملك «شمسي ـ أدد» في العام السابع من حكم «حمورابي» (1786ق.م) وفي العام الخامس أو السادس من حكم ملك «اشنونا»، «ابالبيل» الثاني الذي خلف أباه دادوشا (في حدود 1790ق.م) أعقبه في الحكم ابنه القوي «اشمي ـ دگان» وظل أخوه «يسمح ـ أدد» يحكم في ماري نائباً عن أخيه، ولكنه لم يستطع المحافظة عليها عندما ظهر أحد الأمراء من أهل ماري المسمى «زمري ـ لم»، ابن «يخدن ـ لم» ونازعه السلطة واستطاع أن يطرده منها بمساعدة مملكة حلب، وبهذا عاد حكم ماري إلى أهلها بعد استيلاء «شمسي ـ أدد» عليها فترة من الزمن ولكن اشمي ـ دگان لم يتقبل ضياع النصف الغربي من مملكته، حيث انحصر حكمه في بلاد آشور، فاستمرت المناوشات والحملات الحربية ما بين الطرفين. أما علاقات ملك

---

(1) انظر المرجع المرموز له بـ: .ARM, I, 93, IV, 514

ماري الجديد «زمري ـ لم» بحمورابي، ملك بابل، فكانت علاقات صداقة وثيقة لفترة قصيرة، فقد جمعت ما بينهما المصلحة المشتركة إزاء المحاولات الخطيرة التي بدرت من مملكة اشنونا بمساعدة حلفائها من العيلاميين، للاستيلاء على منطقة الجزيرة العليا ولا سيما إقليم حران، لأن الاستيلاء على هذه المنطقة معناه قطع الاتصالات التجارية الحيوية لمملكة ماري ومملكة بابل، فتطورت تلك الصداقة إلى تعاون عسكري وثيق دام زمناً ما، إلى أن ظهرت نوايا حمورابي وطموحه على حقيقتها. إذ إنه بعد أن أمن جانب بعض خصومه المجاورين، وبعد أن استطاع أن يحطم حلفاً عسكرياً ضخماً من العيلاميين ومملكة اشنونا والسوباريين في عام حكمه التاسع والعشرين، لاقى في السنة التالية خصمه الشديد «ريم ـ سين» ملك لارسة، فقضى عليه بعد أن حكم أمداً طويلاً دام ستين عاماً، ثم قضى على مملكة اشنونا، وقصد من بعد ذلك بلاد آشور واستولى عليها، وعندئذٍ جاء دور صديقه وحليفه ملك «ماري» «زمري ـ لم» الذي قضى عليه في عام حكمه الواحد والثلاثين، وبذلك تمكن حمورابي من توحيد البلاد في مملكة قوية كبيرة وسعها إلى أمبراطورية. ويبدو من مجريات الأحداث أنه لما دحر «زمري ـ لم» في المعركة أسره واستبقاه حياً وعينه حاكماً تابعاً له، ولكن قامت ثورة في ماري من بعد عامين فجرد حمورابي حملة على المدينة ودمرها وأحرق قصر «زمري ـ لم» الجميل الضخم وأعمل التدمير والقتل في المدينة (1759ق.م)، وستمر بنا الأحداث الأخرى في حكم حمورابي في القسم الخاص بسلالة بابل الأولى من هذا الفصل. كما سنوجز تاريخ بلاد آشور في الفصل المخصص لتاريخ الآشوريين.

سلالات حاكمة أخرى:

إلى جانب السلالات الكبيرة التي عددناها وسلالة بابل الأولى التي سنفرد لها قسماً خاصاً من هذا الفصل، قامت في العهد البابلي القديم مجموعة أخرى من السلالات الحاكمة كان الكثير منها أقرب إلى المشيخات أو الإمارات الصغيرة التي لم يتعد سلطانها منطقة صغيرة أو المدينة التي

اتخذت مركزاً للحكم، كما أنها لم تعمر زمناً طويلاً فلم يقم منها إلا عدد قليل من الحكام لم يتعد في بعض الحالات الملك الواحد أو الملكين. وتفاوتت في أزمان تأسيسها، فبعضها قام في الطور الأول من العصر البابلي القديم من هجرات الآموريين الأولى التي قضت على أمبراطوية «أور»، وظهر البعض الآخر في أثناء الهجرات التالية لهؤلاء الأقوام، كما شملت المواضع التي قامت فيها أنحاء مختلفة متباعدة من بلاد ما بين النهرين. وبما أننا سبق لنا أن عددنا أشهر هذه السلالات في أول كلامنا على العصر البابلي القديم فسنقتصر الآن على ملاحظات موجزة عن الشهيرة منها.

سلالة دير:

تعرف بقايا المدينة القديمة «دير» أو («دور ـ ايلو» (Dur - An) أي حصن أو مدينة الإله آنو) باسم تلول العقر في ضواحي بلدة بدرة الحالية (التي يرجح أن لاسمها صلة باسم المدينة القديمة) على بعد نحو 100 ميل شمال شرقي بابل (شرقي دجلة) وزهاء 65 ميلاً شرق تل أسمر (اشنونا القديمة) وهي تلول واسعة ومرتفعة، ولموقعها أهمية استراتيجية فهي على الحدود العيلامية (الحدود العراقية ـ الإيرانية الآن)، وكانت من المواقع الرئيسية في الطريق التجاري والحربي إلى بلاد عيلام، وكثيراً ما اجتازتها الجيوش الغازية من الطرفين، من بلاد بابل وبلاد عيلام، وجرت عندها عدة معارك حربية في عصور التاريخ المختلفة، وتتألف المنطقة الأثرية من تل واسع مرتفع ما زال ينتظر التنقيب والتحري فيه. ومع أنه لم تجر في بقايا هذه المدينة تنقيبات لحال التاريخ، بيد أن الأخبار التي يمكن استخلاصها من النصوص المسمارية، ولا سيما من العصر البابلي القديم، تشير إلى أنه قامت فيها في ذلك العصر سلالة حاكمة بلغت من القوة والبأس في الفترة من حكمها القصير درجة بحيث إنها هاجمت مملكة «اشنونا» في زمن ملكها المسمى «بلالاما». ومع أنه لا يمكن ضبط ترتيب الحكام الذين وردت أسماؤهم من النصوص المعاصرة على أنهم حكموا في هذه الدويلة، إلا أن المرجح أن أقدمهم

الحاكم المسمى «ندنوشا» (Nidnusha) الذي جاءنا منه نص قصير باللغة البابلية يذكر ألقابه وطرفاً من أعماله. وقد كتب اسمه وهو مسبوق بالعلامة الدالة على التأليه، كما ذكر اسم إله المدينة «ستران»[1]. وقد مر بنا في كلامنا على عصر فجر السلالات اسم هذا الإله بصفته الإله الخاص بالحدود وتسويتها، كما فعل في النزاع ما بين «لجش» و«أوما» في نزاعهما على الحدود[2] وأنه هو الذي أوعز إلى «ميسلم» ملك كيش لتعيين الحدود ما بينهما الأمر الذي يشير بوضوح إلى قدم مدينة «دير» وأهميتها في عصر فجر السلالات السالف الذكر. ويرجح أن «ندنوشا» السالف الذكر خلفه في حاكمية «دير» «آنو ـ متبل»، المعاصر لملك اشنونا بلالاما، بحسب دلالة النص الذي وجد في تل أسمر[3] وجاء منه أيضاً نص يدعي فيه أنه دحر جيوش «انشان» (أحد أقاليم بلاد عيلام)، وأنه غزا مملكة اشنونا. وانتهى استقلال مملكة دير على يد ملك (أيسن) المسمى ادن ـ دكان (1974 ـ 1954 ق.م).

سلالة الوركاء:

قامت في مدينة الوركاء الشهيرة سلالة حاكمة في العهد البابلي القديم وكان أقدم ملوكها، بحسب معرفتنا الراهنة «سين ـ كاشد» الذي لا نعرف بداية حكمه بوجه التأكيد، ولعله حكم قبيل 1860ق.م. وقد خلف في مدينة الوركاء مآثر بنائية مهمة وفي مقدمتها قصره القريب من سور المدينة وقد تناولته أعمال التحريات في المواسم الأخيرة، وجدد الأبنية الدينية في منطقة «اي ـ أنا»، وأقام معبداً لتقديس الإله «لوگال بندا» وزوجته الإلهة «نفسون» والبناء الديني المخصص لكاهنات المعبد المسمى «گي ـ باركو» (Gi - Par - ku) وعين

---

(1) راجع النص الخاص بهذا الحاكم في:
Yale Oriental Series, 1915ff. Vol. IX, no. 62

(2) قارن بذلك الإله الروماني الممثل بأحجار الحدود (Terminus).

(3) انظر: Edzard, ZZB, P.72.

فيه ابنته كاهنة عليا (Nin - Dinger) وتضمن بعض النصوص التي جاءتنا منه أوامره في تحديد أسعار السلع والحاجيات[1].

وخلف «سين ـ كاشد» في حكم الوركاء «سين ـ ايريبام» الذي لا نعرف عنه أشياء ذات بال سوى أنه ذكر في عقد من مدينة «لارسة» مؤرخ بحكم ملكها «ورد ـ سين». ثم خلفه «سين ـ گامل» و(اردا ـ نيني) الذي كان يعاصر (دامق ـ ايليشو)، ملك لارسة ثم «أنام» الذي ذكر في أحد نصوصه التي جاءتنا منه[2] أنه جدد أسوار الوركاء ومعبد «اي ـ أنا» وعزا تأسيس تلك الأسوار إلى جلجامش، وقد سبق أن ذكرنا أن أسوار الوركاء ترجع في تأسيسها إلى عصر فجر السلالات بدلالة بنائها باللبن «المستوي ـ المحدب»، ونسب تأسيسها إلى جلجامش في ملحمة جلجامش[3] وجدد أيضاً البناء المخصص لسكنى الكاهنات المسمى (e-gi-par-en-na) وعثر في الوركاء على الرسالة التي وجهها «أنام» إلى ملك بابل «سين ـ مبلط»، أبى حمورابي يستنجده فيها على القبائل التي كانت تهدد الوركاء. وانتهى استقلال الوركاء عندما ضمها «ريم ـ سين» ملك «لارسة» إلى مملكته في عام حكمه العشرين.

سلالة ملكيئوم (Malgium):

من الحكام أو الملوك الذين ورد ذكرهم في نصوص العهد البابلي القديم ملكان حكما في المدينة المسماة «ملكيئوم» التي لا يعلم موقعها بالضبط سوى احتمال أنها تقع في مكان ما أسفل ملتقى ديالى بدجلة ولعلها قرب الكوت. وجاء نصان مدونان بأخبار البناء والتشييد لأحد حكامها المسمى

---

(1) عن نصوص «سين ـ كاشد» انظر المراجع المذكورة في الهامش رقم 4.

(2) عن نصوص «أنام» انظر:

SAK; ZZB, P.156.

(3) عن نصوص «أنام» انظر:

SAK; ZZB, P.156.

«تاكل ـ ايليشو» وحاكم آخر باسم «ابق ـ عشتار». وذكرت المدينة في الحوادث المؤرخ بها من ملوك لارسة ولا سيما الملك «كنكونم» الذي دمرها في عام حكمه التاسع عشر كما ذكرها حمورابي في عام حكمه الخامس والثلاثين[1].

سلالة كيش:

قامت في مدينة كيش سلالة حاكمة من الآموريين في الزمن الذي تأسست سلالة بابل الأولى تقريباً، وقد جاء بعض النصوص التاريخية من أحد حكامها المسمى «أشدوني ـ آرم» (Ashduniarim) وهي تدون جانباً من أعماله ونشاطه الحربي[2]، ولكن مما يلفت إليها النظر أن فيها كثيراً من المبالغة من قبيل قوله إن جهات العالم الأربع ثارت عليه، وإنه ظل يحارب أعداءه طوال ثمانية أعوام حتى لم يبق من جيشه سوى (300) مقاتل، ولكن آلهة كيش بادرت لعونه ونصرته، فتغلب على أعدائه، وإنه قوى أسوار مدينة كيش.

سلالة سبار:

مر بنا ذكر مدينة «سبار» في عدة مواطن من الفصول السابقة فلا حاجة لإعادة تعريفها، ونقتصر على القول بالنسبة إلى موضوعنا إن جماعات من الآموريين استوطنت منطقة كيش، وعرفت من قبائلهم القبيلة التي ورد ذكرها باسم «يخرورم» أو «يحرورم» ومنها تسمية المدينة باسم (سبار يخرورم) ويستدل من أخبار العصر البابلي القديم أن سلالة حاكمة قامت في هذه المدينة في حدود الزمن الذي أسس «سومو آبم» سلالة بابل الأولى وكان يعاصر ثاني ملوك سلالة بابل المسمى «سومولئيل» ملك سبار الذي يدعى «اميروم». وقد ورد اسما هذين الملكين في القسم المذكور في أحد العقود المكتشفة في تل

---

(1) انظر: ZZB, P.159.

(2) حول سلالة كيش انظر: ZZB, P.130.

الضباعي. ويبدو أن الحكم في سبار انتقل من بعد ذلك إلى الملك المسمى «بونوتختونيلا» (Bunutakhtunila) الذي يرجح أنه كان يعاصر «سومولئيل» ثاني ملوك سلالة بابل الأولى، ثم أعقبه ملكان آخران أحدهما باسم «منابعلتي ايل» والثاني «ايلوما ايلا»[1] الذي ورد اسمه في إحدى الرسائل المكتشفة في تل الدير.

---

(1) انظر: ZZB, P.129.

سلالة بابل الأولى

من السلالات التي قامت في منتصف العصر البابلي القديم سلالة بابل الأولى (1894 ـ 1595ق.م) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي (1792 ـ 1750ق.م) وقد تكررت الإشارة إليه بأنه هو الذي استطاع أن يوحد القطر في مملكة واحدة بعد أن كان يحكم فيها جملة سلالات متعاصرة متنازعة منذ بداية هذا العصر. ففي السنة الأولى التي حكم «سوموايل» سابع ملوك سلالة «لارسة» (في حدود 1894ق.م) استطاع أحد زعماء القبائل الآمورية المسمى «سومو آبم» أن يستقل في مدينة بابل في ظروف غير معروفة، وأسس فيها السلالة التي عرفت في أثبات الملوك البابلية باسم سلالة بابل الأولى، من بعد نحو (130) عاماً على قيام سلالة «لارسة» وزهاء (123) عاماً من بعد قيام سلالة «أيسن» وقد سبق أن ذكرنا أن هذه السلالة الجديدة قامت على أثر الموجة الثانية من هجرات الآموريين إلى وادي الرافدين. وقد ساعدت الأحوال التاريخية التي سادت البلاد من الحروب ما بين الدويلات المتعاصرة وسياسة ملوك هذه السلالة في الإفادة من ذلك النزاع لصالح دولتهم على تمهيد الطريق لأن تكون أطول السلالات الحاكمة عمراً وأشدها بأساً بحيث إنها ورثت زعامة البلاد في النهاية من بعد تصفية السلالات الحاكمة بعضها بعضاً. فقد سبق أن رأينا كيف انتهى النزاع ما بين أقوى سلالتين من هذه السلالات بتغلب آخر ملوك لارسة المسمى «ريم ـ سين» على السلالة المجاورة «أيسن» وبذلك انحصر الصراع بين بابل ولارسة. وسنرى من كلامنا على حمورابي

كيف استطاع هذا العاهل العظيم القضاء على خصمه «ريم ـ سين» (عام 1763ق.م) وتفرد بذلك في زعامة البلاد.

وبالنظر إلى أهمية سلالة بابل الأولى في تاريخ هذه الحقبة في حضارة وادي الرافدين فيستحسن أن نتتبع تدرجها في البأس والقوة بعرض موجز عن أعمال ملوكها وسير الأحداث في عهودهم. وقد حكم فيها أحد عشر ملكاً مجموع حكمهم زهاء الثلاثة قرون (1894 ـ 1595ق.م):

سومو ـ آبم:

وأول ما نذكر عن هذه السلالة وأول ملوكها المسمى «سومو ـ آبم» أن أخبارنا المدونة عنها لم تأت إلينا من مدينة بابل نفسها على الرغم من التنقيبات الواسعة التي أجراها الآثاريون الألمان في المدينة (1899 ـ 1917)، ذلك لأن ارتفاع مناسيب المياه الجوفية الناشئة من ارتفاع مستوى نهر الفرات القريب قد سبب طمس بقايا هذه السلالة ولا سيما من أدوارها القديمة، فلم يستطع المنقبون التعمق في حفرهم إلى طبقات أثرية أقدم من العصر الكشي وأواخر عهد هذه السلالة[1]. ولكن مع ذلك وصلت إلينا وثائق متنوعة وكثيرة عن أخبار هذه السلالة من المدن الأخرى، من بين ذلك الألوف الكثيرة من العقود التجارية والقانونية والمعاملات المختلفة الخاصة بشؤون الحياة العامة، ورسائل ملوك السلالة، ولا سيما رسائل حمورابي إلى ولاته وحكامه، ورسائل هؤلاء إليه، وشريعته المشهورة، وكذلك أثبات ملوك هذه السلالة، وأثبات الحوادث المؤرخ بها، والأخبار الخاصة بالعلاقات التي نشأت ما بين ملوك هذه السلالة وبين ملوك السلالات الأخرى المعاصرة لها، ولا سيما سلالتي «أيسن» و«لارسة» ورسائل مدينة ماري الشهيرة التي سبقت الإشارة إليها في كلامنا على سلالة ماري[2].

---

(1) انظر: O. Reuther, *Die Innenstadt von Bobylon.*

(2) أحدث وأوجز مصدر عن الموضوع البحث الذي رمزنا له بـ ZZB, 4ff.

حكم مؤسس السلالة «سومو ـ آبم» السالف الذكر أربعة عشر عاماً، ولا يعلم أصله ومنشؤه باستثناء ما قلناه من إنه كان أحد مشايخ القبائل الآمورية في هجراتها الثانية إلى العراق، كما لا يمكن البت هل كان في مبدأ أمره تابعاً إلى ملك إحدى الدويلات المعاصرة أو أنه حل رأساً مع أتباعه المحاربين في منطقة بابل وأقام فيها دويلته. ومما لا ريب فيه أن بُعد مدينة بابل عن مركز حكم السلالتين القويتين «أيسن» و«لارسة» كان من بين العوامل المهمة التي ساعدت مؤسس هذه السلالة. أما صلته بملوك بابل الذين خلفوه في الحكم فهي صلة غامضة، والمرجح كثيراً أنه لم يعقبه في الحكم أحد من أبنائه. فإن الملك «حمورابي» مثلاً لا يذكره في مقدمة شريعته ضمن أجداده الذين عددهم بل إنه يقف عند جده الأعلى المسمى «سومولئيل» الذي أعقب «سومو آبم» في الحكم، كذلك لم يذكره تاسع ملوك السلالة المسمى «عمى ـ ديتانا» في معرض تعداد نسبه. ومهما كان الأمر فإن «سومو آبم» شغل معظم سني حكمه البالغة أربعة عشر عاماً في توطيد سلطته في مدينة بابل وتقوية وسائل دفاعها وحصونها. وقد أرخ عام حكمه الأول في حادثة بناء سور المدينة[1]، واستطاع بالتدريج أن يضم إلى دويلته بعض المدن المجاورة مثل «دلبات»[2]، ويرجح أن سلطته امتدت إلى مدينة كيش القريبة من بابل، كما تدل على ذلك الألواح المكتشفة في كيش والمؤرخة بأعوام حكمه الثالث والعاشر والثالث عشر، وكذلك امتد نفوذه إلى مدينة «سبار».

سومولئيل:

خلف «سوموآبم» الملك الثاني من هذه السلالة المسمى «سومولئيل» الذي لا يمت إليه بصلة قربى، كما نوَّهنا، وعلى هذا فتكون سلالة بابل

---

(1) حول أثبات الحوادث المؤرخ بها من عهد سلالة بابل الأولى انظر:
Ungnad in RLA, II,; ANET.

(2) دلبات وتعرف بقاياها الآن باسم تل «دليهم» على بعد نحو 40 كم جنوب بابل. حول أخبار هذه المدينة انظر: Unger in *PLA*, II, 218ff.

الأولى بمعنى الأسرة قد بدأت منذ عهد هذا الملك الذي دام حكمه 36 عاماً، وقد صرف جزءاً كبيراً منه في حروب مع دول المدن المجاورة، وبوجه خاص مع كيش القريبة من بابل، وحارب أيضاً ملك إقليم «كزالو» المسمى «يحزرئيل» أو «يخزرئيل» وكان يعاصر «سين ـ ادنام»، ملك لارسة، كما سجلت له جملة أعمال في داخل مدينة بابل، مثل تقوية تحصيناتها وسورها، ودخلت مدينة «كوثي» (تل إبراهيم)[1] ضمن مملكته كما يشير إلى ذلك الحادث المؤرخ به عام حكمه السابع والعشرون. ومد نفوذه إلى قرب مدينة «نفر» ومدينة «أيسن»، وإلى مدينة «مرد» (ويعرف موقعها الآن باسم ونة والصدوم، في الطريق ما بين الحلة والديوانية). على أن هذه التوسعات لم تكن دائمة بل كان عليه وعلى خلفائه أن يعيدوا فرض سلطتهم على مثل هذه المدن المجاورة. وشغل «سومولئيل» أيضاً بأعمال البناء، في إقامة المعابد كما قام بجملة مشاريع للري، فقد سجلت ثلاثة أعوام من حكمه بحوادث حفر ثلاثة أنهر للري.

سابيئم:

قبل أن يتولى «سابيئم» الحكم في بابل من بعد أبيه «سومولئيل» كان حاكماً على مدينة «سبار» من قبل أبيه. وقد حكم 14 عاماً، وظلت سبار تابعة إلى بابل كما تدل على ذلك الألواح التي اكتشفت فيها وهي مؤرخة بأعوام حكمه، وكذلك يقال بالنسبة إلى كيش و«دلبات». وقد أرخ عام حكمه التاسع بحادثة تشييده المعبد الخاص بإله مدينة «دلبات» المسمى «أوراش»، وأرخ عام حكمه العاشر بأنه شيد معبد بابل الشهير «ايساگلا» المخصص للإله مردوخ.

---

(1) كوثي في المصادر العربيه و «كوتم» بالبابلية وبالسومرية (Gu-du-a) وتعرف أطلالها الواسعة باسم تل إبراهيم أو جبل إبراهيم على بعد نحو 50 كم شمال شرقي بابل، ويمر عندها مجرى النهر القديم المسمى نهر كوثي. واشتهرت كوثي بكونها مركز عبادة الإله «نرجال»، إله العالم الأسفل المذكور في التوراة ومعبده فيها يسمى «اي ـ ميسلام»، وكوثي أيضاً من أسماء العالم الأسفل أو عالم الأموات ولم تجر فيها تحريات لحال التاريخ.

آبل ـ سين:

خلف «آبل سين» أباه «سابيئم» في الحكم، ودام حكمه 18 عاماً، وكان يعاصر ملك «لارسة» «ورد ـ سين»، ثم أخاه «ريم ـ سين». وسجلت له الحوادث المؤرخ بها عدة أعمال عمرانية، ولا سيما في العاصمة بابل وفي المدن التابعة لها، مثل السور الذي أقامه في بابل وسماه «السور الجديد العظيم» (Bad - Makh - Gibil) في عام حكمه الثاني، وأقام معبداً للآلهة عشتار في بابل (في عام حكمه السادس عشر)، وجدد معبد الإله «نرجال» في مدينة «كوثي»، كما شيد سور مدينة «بورسبا»[1]، وقام كذلك بجملة مشاريع للري، ففي عام حكمه الرابع عشر مثلاً حفر النهر الذي دعاه «نهر آبل ـ سين حيكال» أي «نهر آبل ـ سين الجالب للخير»، وأرخ عام حكمه السادس بحفر النهر الذي سمي «نهر ـ الشوندر» (Id- Sumun - Dar). وأقام في عام حكمه الثامن حصناً سماه «قلعة آبل ـ سين» لحماية الطريق من بابل إلى مدينة «سپار»، ومنها إلى مدينة آشور[2].

سين ـ مبلط:

خلف «سين ـ مبلط» أباه «آبل ـ سين» على عرش بابل، وهو الملك الخامس من ملوك سلالة بابل الأولى وأبو حمورابي الشهير. وحكم عشرين عاماً تعاظمت في أثنائها مملكة بابل، وكان يعاصر «ريم ـ سين» ملك «لارسة»، وشغل نفسه في أعمال البناء وتوطيد العاصمة، كما عمل على تقوية سلطانه في المدن التابعة. وبالإمكان الوقوف على تفاصيل أعماله ومشاريعه

---

(1) تقع بقايا بورسبا أو بارسبا على بعد نحو 20 كم جنوب بابل، وذكرت في مقدمة شريعة حمورابي من جملة المدن التي عمرها حمورابي واشتهرت بكونها مركز عبادة الإله «نابو» أو «نبو» ابن الإله مردوخ، ومعبده فيها يسمى «اى ـ زيدا». وورد ذكر المدينة في نصوص سلالة أور الثالثة، كما ذكرها «اشبي ـ ايرا» أول ملوك سلالة «أيسن».

(2) انظر: Goetze in *JCS*, VII, 51

وتسلسها الزمني بالرجوع إلى الحوادث المؤرخة بها أعوام حكمه. ويستنتج من هذه الحوادث انتقال مدينة بابل من موقف التربص والدفاع إلى موقف الهجوم، كما يدل على ذلك الحادث المؤرخ به عام حكمه الرابع عشر، حيث استطاع أن يدحر جيش «لارسة»، كما هاجم مدينة «أور» و«أيسن»، ولكن هذا لم يكن فتحاً دائماً[1]، على أنه مهد الطريق للمشاريع الجسيمة التي اضطلع بها ابنه حمورابي.

(1) حول حكم «سين ـ مبلط» راجع:

B. Landsberger in *JNES*. Vol. XIV, 14ff.

حمورابي وعصره

ورث حمورابي[1] من أبيه «سين ـ مبلط» مملكة صغيرة نوعاً ما لا تتجاوز مساحتها زهاء (128) كم طولاً ونحو (40) كم عرضاً، تمتد من مدينة «سبار» شمالاً إلى مدينة «مرد» جنوباً، أي إلى حدود مدينة الديوانية تقريباً. ولما جاء إلى عرش بابل كان يزاحمه في البقاء ويهدد وجود مملكته ملك لارسة القوي «ريم ـ سين» في عام حكمه الواحد والثلاثين، وقد مر بنا كيف أن «ريم ـ سين» استطاع أن يقضي على مملكة «أيسن» ويضمها إليه قبل أن يتبوأ حمورابي العرش بعامين (1794ق.م). وبالإضافة إلى مملكة «لارسة» التي كانت تهدد مملكة حمورابي بالزوال كانت إلى الشمال منها ثلاث دويلات أخرى تحت سلطان الملك الآشوري «شمسي ـ أدد» الأول الذي تكلمنا عنه في معرض حديثنا عن مملكة ماري، وهي بلاد آشور، وإقليم «ايگالاتم» ومنطقة ماري. وإلى الشرق مملكة اشنونا المستقلة في الإقليم الكائن ما بين نهر دجلة وديالى، وقد مر إيجاز التعريف بها. ولكن حمورابي الذي تميز بقابلية وقدرة متعددتي الجوانب استطاع أن يقضي على هذه الدويلات المزاحمة له، الواحدة بعد الأخرى، فيتفرد في النهاية بزعامة البلاد ويحقق وحدتها السياسية. ولا يسع المتتبع للخطط والخطوات التي سار عليها حمورابي في تحقيق أهدافه، وبراعته في الحرب والإدارة والتنظيم إلا أن

---

(1) اسم حمورابي مركب من كلمتين: «حمو» (وهو اسم إله سامي غربي من الآلهة الشمسية كما يدل على ذلك اسمه الذي يعني الحرارة)، وكلمة «رابي»، معناها عظيم أو كبير. ويجوز قراءتها «رافيء»، بمعنى «مكثر». أما اسم أبيه «سين ـ مبلط» فيعني «الإله سين المحيي».

يسميه بالملك العظيم، ويعد حكمه الطويل الذي دام ثلاثة وأربعين عاماً من العهود المجيدة في تاريخ حضارة وادي الرافدين، والتاريخ البشري العام.

ويبدو من درس الحوادث المؤرخة بها أعوام حكمه[1] أنه أمضى الأعوام الأولى منها في تقوية وضعه في الداخل وإعداد العدة والتمهيد للاضطلاع بالمشاريع الحربية التي اعتزم تنفيذها. وظهر نشاطه الحربي في سنته السادسة بالهجوم على مدينة «أيسن» والوركاء وضمها إلى مملكته. وتلا ذلك هجومه الكاسح في عامي حكمه السابع والتاسع على إقليم «يموت ـ بعل» التابع لخصمه القوي «ريم ـ سين»، ملك لارسة. ونراه يتوقف عن مواصلة نشاطه الحربي من بعد عامه العاشر إلى عامه الثلاثين، بحيث اقتصرت حوادث العشرين عاماً التي تلت سنته العاشرة على الأعمال العمرانية، مثل بناء المعابد وتقوية الحصون والأسوار في عاصمته وفي مدن مملكته الأخرى المهمة، وتنظيم الجيش وشؤون إدارة البلاد، كل ذلك كان تهيؤاً واستعداداً للبدء بأعماله الحربية الجسيمة في أعوام حكمه التالية، أي من العام الثلاثين إلى التاسع والثلاثين فقضى على أقوى وأخطر خصومه في عامه الثلاثين، هو «ريم ـ سين»، ملك لارسة الذي تكررت الإشارة إليه، فكان العام 1763ق.م عاماً حاسماً بعد زوال كيان مملكة لارسة المعادية، وأعقب ذلك اكتساحه لمملكة «اشنونا» في عام حكمه الواحد والثلاثين، ثم بلاد «آشور»، ومنطقة ماري في العام الثاني والثلاثين، ثم اتجه إلى بلاد الشام، فأصبح منذ عام حكمه الثامن

---

(1) الحوادث المؤرخ بها (Date Formulae) تأتي في مقدمة مصادرنا عن سير الأحداث السياسية الحربية والعمرانية مضافاً إليها الإشارات المهمة الواردة في رسائل ماري وشريعة حمورابي المشهورة ورسائله والوثائق القانونية والإدارية. حول مثل هذه المصادر راجع:

(1) Ungnad in *RLA*, II, 178ff.

(2) L. Oppenheim in *ANET*.

(3) L. King, The Letters and Inscriptions of Hammurabi.

(4) Thureau - Dangin in Ra, XXI, 1ff.

(5) Edzard, ZZB, 180ff.

والثلاثين سيد وادي الرافدين بلا منازع من أقصى شمال ما بين النهرين إلى الخليج العربي. وأصدر في الأعوام الأخيرة من حكمه شريعته المشهورة لتسري أحكامها على أرجاء مملكته الواسعة، وحق له أن يتخذ اللقب الفخم «الملك العظيم، ملك بابل، ملك بلاد الآموريين كلها (بلاد الشام)، ملك بلاد سومر وأكد، ملك جهات العالم الأربع». ولعل صورته المنحوتة في أعلى مسلته المكتشفة في مدينة «سوسة» (1901 ـ 1902) والرأس المنحوت الذي يمثله[1]، يعبران بعض الشيء عن شخصية هذا العاهل العظيم الجدير بأن يأخذ مكانة مرموقة بين عظماء التاريخ البشري.

خلفاء حمورابي:

خلف حمورابي خمسة ملوك ورثوا عنه مملكة موحدة قوية تضم العراق وأجزاء مهمة من بلاد الشام وأعالي ما بين النهرين. وقد شغل أوائل هؤلاء الملوك بالمحافظة على هذه المملكة الواسعة، ولم تخل أعوام حكمهم من تجريد الحملات الحربية في الداخل والخارج للقضاء على محاولات الانفصال وصد الطامعين من الأقوام المجاورة، الطامحة بخيرات وادي الرافدين، إلى أن قضى على كيان هذه السلالة الحثيون في حدود 1595ق.م.

أعقب حمورابي في الحكم ابنه المسمى «سمسو ـ ايلونا» (1749ـ 1712ق.م) وكان هذا على شيء من المقدرة العسكرية، كما تدل على ذلك حملاته الحربية التي قام بها في أوائل حكمه إزاء الثائرين للانفصال عن حكمه. وقد كلفته إحدى الثورات جهداً جسيماً، وهي الثورة التي نشبت في أحد الأقاليم المتاخمة لبلاد عيلام وقادها الشخص المسمى «ريم ـ سين»، وهو غير «ريم ـ سين»، ملك لارسة الذي قضى عليه حمورابي. فلم يستطع «سمسو ـ ايلونا» إخمادها إلا بعد عامين. وظهرت من جديد بوادر قيام دول

---

(1) حول هذا الرأس واحتمال كونه يمثل حمورابي راجع:
Frankfort, *AAO*, p1.63; Parrot, *SUMER*, p1.375.

المدن في عهده، حيث استطاع الشخص المسمى «ايلوما ـ ايلو» (الذي ادعى أنه من أحفاد دامق ـ ايليشو، ملك أيسن) أن يثور ويستقل في المناطق الجنوبية من البلاد، مؤسساً بذلك ما يعرف في تاريخ العراق القديم باسم سلالة «القطر البحري»[1]، لمجاورتها لمناطق الخليج والأهوار الجنوبية، وذكرها جامعو أثبات السلالات البابلية باسم سلالة بابل الثانية (1740 ـ 1500ق.م). وخصصت لها تلك الأثبات أحد عشر ملكاً. وتلا قيام هذه السلالة سلسلة من الحروب ما بين ملوكها وبين ملوك سلالة بابل الأولى دمرت في خلالها مدن جنوبية مهمة، وفي مقدمتها مدينة «أور». وظلت هذه السلالة منفصلة عن ملوك بابل رغم ذلك، إلى مطلع الحكم الكشي حيث قضي على استقلالها في حدود 1500ق.م.

وفي حدود زمن سلالة «القطر البحري» اغتنمت الفرصة بلاد آشور فقامت فيها سلسلة من الملوك انفصلوا عن تبعيتهم لأمبراطورية حمورابي، ويرجح أن يكون أول ملك من هؤلاء الملك المسمى «أداسي» الذي ذكرته أثبات الملوك الآشورية، ووصفته أخبار الملوك الذين جاؤوا من بعده بأنه خلص بلاد آشور من العبودية[2].

وإلى هذه الأخطار الداخلية جابه الملك «سمسو ـ ايلونا» أخطاراً خارجية جديدة، وفي مقدمتها تهديد الكشيين الذين كانوا على ما يبدو يحكمون في منطقة الفرات الأوسط، ثم أسسوا سلالة حاكمة في بلاد بابل في نهاية حكم سلالتها الأولى، موضوع كلامنا الآن. وقد أرخ عام حكمه التاسع بأنه العام الذي رصد فيه جموع الكشيين، كما صدّ جيشاً من الآموريين في عام حكمه الخامس والثلاثين. ومع أن مملكة بابل سلمت من مثل هذه الأخطار بيد أنها تقلصت في سعة رقعتها ولا سيما من بعد انفصال بلاد آشور

---

(1) القطر البحري ترجمة للمصطلح الوارد في النصوص المسمارية بهيئة (URU - KU - ki) انظر:
Dougherty, The *Sea - Land of Ancient Arabia*, (1932).

(2) انظر كتابة اسرحدون (680ـ669ق.م) في: *ARAB*, II, 576.

والأجزاء الجنوبية من القطر التي قامت فيها سلالة القطر البحري السالفة الذكر.

وواصل الملوك الأربعة الذين خلفوا «سمسو ـ ايلونا» الدفاع عن كيان المملكة والمحافظة عليها طوال القرن الذي استغرقته مدة حكمهم. فنجد الملك المسمى «أبي ـ ايشوخ» الذي خلف سمسو ـ ايلونا (1711 ـ 1684ق.م) يصد هجوماً آخر قام به الكشيون، ومع نجاح هذا الملك في ذلك فقد تغلغلت جماعات من هؤلاء الكشيين في بلاد بابل على هيئة عمال وزراع. واستطاع القسم الأكبر منهم أن يؤسس كياناً سياسياً في منطقة عانة (خانة) على الفرات الأوسط. وحاول هذا الملك البابلي الجديد القضاء على دويلة «القطر البحري»، ولكنه لم يفلح، فبقيت هذه السلالة في الحكم رغم محاولات الملوك الذين جاؤوا من بعده في إخضاعها والقضاء على كيانها السياسي.

وإلى جانب هذه الأحداث سجلت الأخبار التاريخية التي وصلت إلينا من هؤلاء الملوك أعمالاً عمرانية كثيرة ومهمة، مثل تأسيس المدن والحصون وتجديد بناء المعابد المختلفة وتقديم تماثيلهم لآلهتها، وحفر أنهار الري وتنظيم إدارة الدولة والشؤون القضائية فيها بإصدار الأوامر أو المنشورات الملكية الخاصة بشؤون السكان المختلفة كالضرائب والديون، مثل المنشور (Edict) الذي أصدره الملك «عمي ـ صادوقا»، عاشر ملوك هذه السلالة (1646 ـ 1626ق.م)[1].

ومع أن الكشيين هم الذين خلفوا سلالة بابل الأولى في الحكم إلا أن الضربة القاضية التي أطاحت بها جاءت على أيدي الحثيين. فقد صادف قيام مملكة قوية في بلاد الحثيين (تركية) في حدود القرن السابع عشر ق.م. وقام منها ملوك أقوياء أشهرهم الملك المسمى «حاتوسيليس» (نسبة إلى عاصمة هذه

---

(1) حول هذا المرسوم الملكي انظر:

Kraus, *En Edikt des Konigs Ammi - Saduga*, (1958).

المملكة «حاتوشا» أو خاتوشا، بوغاز كوى الآن) وقد زحف هذا الملك على بلاد الشام واستولى على بعض مدنها المهمة مثل «الالاخ» (تل العطشانة الآن، بالقرب من إنطاكية)، ولكن مدينة حلب (Khalpa)، عاصمة المملكة الآمورية «يمخد» قاومته وصدته، ويبدو أنه قتل في المعركة، وخلفه في الحكم ابنه المسمى «مورسيليس» (1620 ـ 1950ق.م) فاستأنف الهجوم على حلب ففتحها ودمرها. واستولى كذلك على «كركميش» (جرابلس الآن)، واتجه من بعد ذلك جنوباً على طوال نهر الفرات إلى بابل نفسها، فاستولى عليها في عهد آخر ملوكها المسمى «سمسو ـ ديتانا» (1625 ـ 1595ق.م). ومما يقال عن هذا الحدث التاريخي المهم إننا نجهل ملابساته وتفاصيله، فلم تدونه الأخبار البابلية، بل اقتصر الأمر فيه على إشارة عابرة وردت في أحد التواريخ البابلية المتأخرة من أن «جيوش بلاد خاني زحفت على «سمسو ـ ديتانا» وعلى بلاد أكد»[1]. ولكن الرواية الحثية أوضح نوعاً ما إذ إنها تنص على أن «مورسيليس» بعد أن دمر مدينة حلب وأخذ منها الغنائم والأسرى قصد بابل واحتلها وأخذ منها الغنائم إلى خاتوشا[2]. ويروي لنا أحد الملوك الكشيين المسمى «اگوم كاكريمه» (1602 ـ 1585ق.م) طرفاً من حدث سقوط بابل هو أن من بين الغنائم التي أخذها الحثيون من بابل كان تمثال الإله «مردوخ» وتمثال زوجته (صر بنيتم)، ولكن لأسباب غير معلومة لم ينقلهما الحثيون إلى عاصمتهم بل تركوهما في خانة (عانة) فقام هذا الملك الكشي بحملة خاصة من أجل إعادة هذين التمثالين، وقد نجح في ذلك واحتفل بهذه المناسبة احتفالاً دينياً رسمياً. والأمر الغامض عن هذا الغزو الحثي لبابل أن الملك الحثي لم يبق في بلاد بابل، إنه انسحب لأسباب مجهولة فاغتنم هذه الفرصة الكشيون في منطقة الفرات الأوسط وجاؤوا إلى بلاد بابل وأسسوا فيها

---

(1) انظر: L. King, *Babylonian Chronicles*, II, P.22

(2) جاء ذلك في نص من نصوص الملك الحثي «تليبنوس» (حدود 1500ق.م):
Hrozny in *Boghazköy Studien*, III, (1919), 202.

سلالتهم الحاكمة التي سميت بسلالة بابل الثالثة باعتبار أن سلالة القطر البحري التي ذكرناها كانت سلالتها الثانية. وسنوجز أحوال العراق في عهد هذه السلالة في موضع آخر من هذا الفصل.

وهكذا سقطت سلالة حمورابي في حدود العام 4/ 1595ق.م وقد دام حكمها كما قلنا زهاء الثلاثة قرون. ولا يسع المؤرخ أن يحدد الأسباب والعوامل التي أدت إلى انهيارها سوى ما تعارف عليه المؤرخون من تعداد الأسباب المتشابهة في سقوط الدول والأمبراطوريات. على أنه يصح أن نفرد بعض العوامل الخاصة بهذه الحالة، ومنها أن أمبراطورية حمورابي كانت من صنع رجل واحد هو حمورابي نفسه حيث اعتمد وجودها على ميزاته الشخصية، كما يجوز أن نختار من بين العوامل الداخلية التراث الذي تأصل في العراق القديم منذ ظهور أولى أنظمة الحكم فيه في مطلع الألف الثالث ق.م ونعني بذلك نظام دولة المدينة المفضل لدى سكان العراق القديم. وينبغي ألا ننسى بهذا الصدد أن حمورابي ضم إليه بالقوة ممالك ودول مدن كانت مستقلة وجعل منها وحدة سياسية كبرى. ومن العوامل الداخلية أيضاً سياسة حمورابي وخلفائه في حصر اهتمامهم بالعاصمة بابل وتركيز مختلف أوجه النشاط الاقتصادي والثقافي والديني فيها على حساب المدن والأقاليم الأخرى التابعة.

موجز خصائص العهد البابلي القديم من الناحية الحضارية:

يستحسن أن نتوقف قليلاً عن الاستمرار في إيجاز تاريخ العراق في العصور التي تلت العهد البابلي القديم لنعرض أبرز خصائص هذا العهد الحضارية بالنظر إلى التبدلات الأساسية التي ظهرت فيه وطبعت حضارة وادي الرافدين بمقومات حضارية خاصة استمرت فيها في العهود التالية، وبما أننا سنفرد في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصولاً متنوعة عن عناصر حضارة وادي الرافدين وأوجهها المختلفة فنقتصر في عرضنا الآن على تعداد الأمور الجديدة التي ميزت العهد البابلي القديم من الناحية الحضارية.

1 ـ نكفي القارئ مشقة الرجوع إلى ما سبق أن ذكرناه عن أحوال هذا العصر السياسية فنكرر تعريفه من الناحية الزمنية بأنه العصر الذي أعقب سقوط أمبراطورية «أور» (سلالة أور الثالثة) في حدود 2004ق.م وشمل فترة زمنية طويلة إلى نهاية سلالة بابل الأولى (في حدود 1595ق.م) وقيام حكم الكشيين فيكون قد استغرق نيفاً وأربعة قرون، وكان من الناحية السياسية كما مر بنا عصر دول مدن أو دويلات حكمت متعاصرة ومتحاربة وتصفية إحداها للأخرى إلى أن تفردت بزعامة البلاد سلالة بابل الأولى في عهد ملكها السادس حمورابي (1792 ـ 1750ق.م) وتوحيده القطر في مملكة واحدة كبرى.

2 ـ ولعل أبرز ما لاحظه القارئ في كلامنا عن العهد البابلي القديم، هجرات الأقوام السامية، من الساميين الغربيين الذين سميناهم بالآموريين أو الكنعانيين الشرقيين إلى مختلف بلاد الشام ووادي الرافدين، فتغيرت الأبنية العامة لهذه الأقطار من النواحي القومية والسياسية واللغوية. وبإضافة هؤلاء الساميين الغربيين إلى الساميين القدامى الموجودين في وادي الرافدين طغى التحول القومي واللغوي في العراق إلى السامية على الطابع السومري القديم، ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى الطابع السياسي، فقد انتهى السومريون من الناحية السياسية، وتفردت الأقوام السامية بالحكم منذ نهاية سلالة أور الثالثة إلى سقوط الدولة الكلدانية على يد الفرس الأخمينيين (539ق.م).

3 ـ إن هؤلاء الساميين الجدد من الفرع الغربي للساميين أي الساميين أو العرب السوريين، ولغتهم كما رأينا أحد فروع كتلة اللغات أو اللهجات السامية الغربية، أي الكنعانية والفينيقية والعبرانية والآرامية وغيرها. وبالنظر إلى هجراتهم الكبيرة إلى العراق كان من المتوقع أن تعم لهجتهم في وادي الرافدين وتصبح لغة التدوين بدلاً من السامية الشرقية التي سميناها باللغة الآكدية أي لغة سامي العراق قبل مجيء هؤلاء الساميين الجدد، ولكن هذا لم يقع وإنما استمرت اللغة الآكدية بصفتها لغة التدوين الرسمية، إذ لم يخلف الآموريون شيئاً مدوناً بلغتهم في العراق باستثناء ما سبق أن ذكرناه من أنها صارت بلا شك إحدى اللغات المحكية الرئيسية ودخول أسماء أعلام سامية

غربية كثيرة مع أسماء عدد من الآلهة. ومما له صلة بهذه الملاحظة اللغوية أن اللغة الآكدية تفرعت في العصر البابلي القديم إلى فرعين رئيسين هما اللغة البابلية القديمة واللغة الآشورية القديمة، وتطور كل من هذين الفرعين في العصور التالية مما ذكرناه في كلامنا على اللغات السامية.

3 ـ ولعل أبرز النتائج التي استتبعت زوال السومريين سياسياً واتساع التدوين باللغة الآكدية ميزة أخرى اتسمت بها حضارة وادي الرافدين في العهد البابلي القديم، هي ظهور حركة واسعة في التدوين والتأليف والنقل والترجمة، وفي مقدمتها تدوين المعارف والعلوم التي بدأت في طور نضجها. فكأن القوم قد شعروا بزوال الثقافة السومرية فأخذ المتضلعون بمعارف العصر يدونون مآثر السومريين وينقلون النصوص الأدبية واللغوية والدينية، ويثبتون تدوين أصولها إما باللغة السومرية أو بترجمة الكثير منها أو تحويرها لإنشاء قطع أدبية باللغة البابلية على هيئة نتاج فني أدبي جديد سترد نماذج منه في الجزء الثاني من كتابنا، مثل ملحمة جلجامش وأساطير الخليقة والأشياء إلى غير ذلك من القطع التي ألفت باللغة البابلية ولكنها ترجع إلى أصول سومرية. ومن أجل تعريف المصطلحات السومرية ووضع مرادفات لها في اللغة البابلية بدأ الكتبة منذ العهد البابلي القديم يؤلفون نصوصاً لغوية مهمة بعضها على هيئة معاجم لشرح العلامات المسمارية من ناحية قيمها الصوتية ومرادفاتها بالبابلية، كما شرحوا مبادئ مهمة في نحو اللغة السومرية وما يضاهي التراكيب اللغوية السومرية من اللغة البابلية، وقد خلفوا لنا نماذج متنوعة من هذه المعاجم، بعضها شرح للعلامات المسمارية وبعضها معاجم بأسماء النباتات والحيوانات وأسماء الأشياء والمواد المختلفة. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد أن أثبات الملوك السومرية التي أوردنا ترجمتها قد دونت في العصر البابلي القديم، إذ سبق أن قلنا إن آخر نشرة لها قد تمت في عهد سلالة «أيسن» كما جمعت أثبات سلالات أخرى. كل ذلك جعل المآثر المدونة التي جاءت إلينا من ذلك العصر تتميز بالكثرة والتنوع، بحيث يمكن القول إن العصر البابلي القديم يتفرد من بين العصور الأخرى في تاريخ حضارة وادي الرافدين من ناحية التأليف والتدوين. وإلى هذه المدونات جاء من هذا العصر

الألوف الكثيرة من ألواح الطين المدونة بشؤون الحياة المختلفة والمعاملات التجارية المتنوعة مثل معاملات البيع والشراء والإجارات والقروض والرهان والأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والتبني والإرث، وقرارات المحاكم والشرائع المدونة مثل قانون «لبت ـ عشتار»، خامس ملوك سلالة «أيسن» وقانون مملكة «اشنونا» المكتشف في تل حرمل، وما يسمى بالقوانين الآشورية القديمة، مما سنفرد له فصلاً خاصاً في الجزء الثاني. وسيمر بنا في كلامنا عن العلوم والمعارف في حضارة وادي الرافدين كيف انتقلت المعارف الرياضية في العهد البابلي القديم من مراحل الممارسة والمعلومات العملية إلى طور النضج والتدوين ومرحلة العلم الصحيح.

٤ ـ القصر والمعبد:

من التغييرات المهمة التي انتهى إليها التطور السياسي للعراق القديم في هذا العصر تعاظم سلطة الملك وانفصال السلطة الزمنية المتعاظمة الممثلة بالقصر «ايكالم» عن السلطة الدينية الممثلة بالمعبد وطبقة الكهنة. ففي العصور القديمة من حضارة وادي الرافدين، ولا سيما عصر فجر السلالات (2800 ـ 2370ق.م)، كانت الصلة وثيقة بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية، حيث الحاكم كان يتصف بالصفة الدينية والزمنية المزدوجة رغم وجود طبقات الكهنة المختلفة. ومع أن بوادر الانفصال ما بين السلطتين وتعاظم سلطة الحكام قد بدأت في العصر الآكدي الذي أعقب عصر فجر السلالات، إلا أن ذلك الانفصال لم يتضح إلا في العصر البابلي القديم. وإذا كان الملك قد استمر في هذا العصر على صفته الدينية المقدسة لصلته الوثقى بالآلهة بكونه ممثلاً لها في حكم البشر، فإنه صار سيداً مطلقاً على جميع المملكة، وبلغت هذه الظاهرة أوجّها إبان حكم الملك «حمورابي» حيث تم نقل جميع السلطات من المعبد إلى القصر، وأصبح صنف القضاة وشؤون المحاكم علمانية[1].

---

(1) انظر البحث الآتي حول الموضوع:

Harris. «On th Process of Secularization under Hammurabi», in *JCS*, 15, (1961), 117ff.

ولعل أجلى ما يوضح لنا هذه الظاهرة الجديدة في بناء حضارة وادي الرافدين ضخامة القصور الملكية التي طغت على المعابد على الرغم من استمرار العناية بها من جانب ملوك ذلك العهد. ولكن صارت الأبنية الدينية لا تقارن بضخامة القصور واتساعها. ويمكن مقارنة هذين النوعين من الأبنية مما جاء إلينا من النماذج التي كشف عنها في أثناء التنقيبات في المدن المختلفة، مثل معبد الآلهة «عشتار كيتيتوم» (Ishtar - Kititum) في أشجالي (منطقة ديالى)[1]، والمعابد الصغيرة المكتشفة في تل حرمل[2]، ومعبد الآلهة «ننكال» في مدينة «أور» وغيرها من المعابد الصغيرة المؤلفة من مدخل المعبد والحجرة الأمامية التي تفضي إلى الساحة وفيها دكة القرابين ثم حجرة «المابين» (Ante - Cella) والحجرة المقدسة (Cella) وفيها المحراب (Niche) والدكة لإقامة تمثال الإله المخصص إليه المعبد. والمرجح أنه لأول مرة ظهرت عادة بناء معابد صغيرة وبعضها عبارة عن نماذج مصغرة للمعابد في بيوت السكنى لعبادة العائلة الخاصة، كما ظهرت المعابد الصغيرة المشيدة في طرقات المدينة المؤلفة من مجرد ساحة صغيرة ذات مذبح للقرابين ودكة لتمثال الإله. وقد وجدت في «أور» أمثلة طريفة لهذه المعابد المخصصة لبعض الآلهة القليلة الشأن مثل المعبد المسمى «با ـ ساگ» (Pa - Sag) والمعبد المخصص للإله «ننشوبر» (Ninshubur) والآلهة «لاما» (Lama)[3] كما وجد نموذج معبد مصغر في أحد بيوت السكنى في تل حرمل[4].

ويصح أن نستنتج من هذه الظاهرة اتجاهاً جديداً في الديانة يدور على تعلق الفرد بالآلهة لا عن طريق السلطة الرسمية، زمنية أو كهنوتية، وإنما كان

---

(1) *AAO.*

(2) انظر مجلة «سومر»، (1946)، القسم الإنجليزي.

(3) انظر Woolley, in *AJ*, x, (1930), 368ff.

Wiseman, «The Goddess Lama at Ur» in *IRAQ*, XXII, (1960), 166ff.

(4) انظر مجلة «سومر»، (1946)، القسم الإنجليزي.

منبعثاً من العلاقة الشخصية بين الفرد وإلهه، وبعبارة أخرى ما يصح أن نعده مظهراً من مظاهر العبادة الشعبية الجماهيرية، يعزز ذلك ما امتازت به الأختام الإسطوانية من هذا العصر، حيث نقشت فيها مشاهد تمثل تقديم شخص عابد، هو صاحب الختم، من جانب إلهه الحامي إلى إله آخر أعظم شأناً.

وبالمقارنة مع تضاؤل شأن المعبد حجماً وسعة ونفوذاً كشفت التنقيبات التي أجريت في جملة مواضع قديمة عن عدة نماذج من القصور الضخمة نذكر منها قصر الملك «بلالاما»، ملك «اشنونا» في تل أسمر (اشنونا القديمة)، وقصر ملك الوركاء «سين ـ كاشد» في الوركاء[1]، وقصر ملك مدينة ماري «زمري ـ لم»، ذلك القصر الذي يعد في سعته وكثرة حجراته وساحاته ومرافقه الكثيرة مدينة كاملة، إذ تبلغ مساحته زهاء سبعة إيكرات (أي نحو 28,000 متراً مربعاً) (650×450 قدماً). وقد تفرد من بين مآثر العصور القديمة بزخارفه وزينته وجمال تخطيطه[2]، ويبلغ ثخن جدرانه الخارجية (40) قدماً، وقد شيدت على أسس من حجر الكلس وتتخللها أبراج للدفاع، وبلغ عدد حجراته الداخلية أكثر من ثلاثمائة حجرة. ووجد المنقبون في هذا القصر أكثر من (20,000) لوح من ألواح الطين المدونة بالخط المسماري واللغة البابلية القديمة، وهي تسجل مختلف الشؤون الإدارية والاقتصادية، من بينها الرسائل الملكية التي أشرنا إليها مراراً، وهي تعود إلى زمن الملك «شمسي ـ أدد» وولديه «اشمي ـ دگان» و «يسمح ـ أدد»، ثم الوثائق الخاصة بعهد الملك «زمري ـ لم» من بعد استقلال «ماري» عن التبعية الآشورية.

٥ ـ المصادر:

إن ما نوّهنا به من ميزات العصر البابلي القديم من اتساع حركة التدوين جعلت هذا العصر يتفرد أيضاً بميزة أخرى من بين العصور التاريخية الأخرى

---

(1) انظر .Lenzen, *UVB*, XIX, (1963)

(2) انظر .A. Parrot, *Mission Archéologique de Mari, le Palais*, (1958-9)

في حضارة وادي الرافدين، هي وفرة المصادر التي جاءتنا منه المؤلفة من الألوف الكثيرة من ألواح الطين المتنوعة في محتوياتها، مضافاً إلى ذلك البقايا والمخلفات الأثرية المتنوعة، كالبقايا المعمارية الكثيرة والآثار المادية الأخرى، مثل المعابد والقصور ودور السكنى، بحيث يصح القول إن العصر البابلي القديم لا يضارعه عصر آخر في تاريخ العراق القديم من ناحية وفرة مصادر معرفتنا بتاريخه وتنوع هذه المصادر، فيستطيع المؤرخ بفضل هذه المصادر أن يستخرج صورة شاملة عن حياة المجتمع في مختلف مقوماتها ومظاهرها.

وبالنسبة إلى التنقيبات التي أجريت في عدة مواضع أثرية من هذا العصر يمكن القول إنه على الرغم من أن ما تم من تحريات أثرية لحال التاريخ لم يكن بالمقياس الذي ينبغي أن تكون عليه التنقيبات الأثرية إلا أنها بالمقارنة مع العهود التاريخية الأخرى تعد وافية واسعة. هذا مع العلم بأن أكثر من عاصمة من عواصم الدول التي قامت في هذا العصر لم تتناولها التحريات الآثارية بعد، مثل مدينة «أيسن» ولارسة وغيرهما. أما مدينة بابل التي كانت عاصمة سلالة بابل الأولى وعاصمة أمبراطورية حمورابي وظلت عاصمة البلاد إلى آخر عهود التاريخ فإنه لم يكشف فيها عن بقايا العصر البابلي القديم بسبب ما ذكرناه من ارتفاع مستوى المياه الجوفية (ارتفاع مستوى النهر) مما جعل الطبقات الأثرية الممثلة لذلك العصر تحت مستوى الماء. فرغم أن المنقبين الألمان الذين أمضوا أعواماً طويلة في التنقيب في بابل (1899 ـ 1917) وبلغوا أعماقاً تحت السطح تقدر في بعض الأماكن بنحو (40) قدماً فإنهم لم يعثروا إلا على أجزاء قليلة من بقايا جدران وكسر من ألواح طينية يرجح أنها تعود إلى أواخر عهد سلالة بابل الأولى. ومع ذلك فإن التنقيبات الأثرية الأخرى قد تناولت مدناً ومواقع أخرى مهمة، نذكر على سبيل المثال بقايا القصور الفخمة العائدة إلى حكام مملكة «اشنونا» في مواضع ديالى مثل تل أسمر (مدينة اشنونا) حيث قصر الملك

«بلا لاما» الذي نوَّهنا به. ونذكر كذلك تنقيبات مدينة أور التي كشف فيها عن مجموعات كبيرة من دور لسكنى وشوارعها، وقد بلغت مساحة إحدى الحارات السكنية زهاء (10,000) ياردة مربعة[1]. وقد سبق أن ذكرنا التنقيبات التي أجريت في مدينة «ماري» والكشف عن القصر الفخم العائد إلى ملكها «زمري ـ لم» بالإضافة إلى حارات دور السكنى من العصر البابلي القديم. وننوِّه كذلك بالتنقيبات التي أجريت في مدينة «نفر» والوركاء وتل «حرمل» والضباعي وتل الدير وغيرها.

إن التنقيبات التي نوَّهنا بأشهرها لم تقتصر أهميتها على الكشف عن نماذج مهمة من البقايا المعمارية والمواد الأثرية الأخرى من العهد البابلي القديم، بل إنها كذلك كشفت عن مجموعات كثيرة ومهمة من النصوص المسمارية التي تأتي في مقدمة مصادرنا عن أحوال العصر البابلي القديم، مضافاً إليها الألوف الكثيرة من ألواح الطين التي استخرجت عن طريق الحفريات الغير مشروعة، أي حفريات سراق الآثار، فكان حصيلة كل ذلك ما عندنا الآن من مجموعات كثيرة من ألواح الطين لا يمكن تقدير عدد ما هو مخزون منها في مخازن المتاحف العالمية، ولعل الرقم 50,000 ـ 70,000 رقم قريب من الصحة.

ومع أن عهد سلالة أور الثالثة يضاهي العصر البابلي القديم من حيث وفرة المصادر المدونة التي جاءت إلينا، إلا أن هناك فرقاً مهماً بين محتويات الألواح الاقتصادية والإدارية من عهد سلالة أور الثالثة (وهي في حدود 20,000 لوح) وبين وثائق العصر البابلي القديم، ذلك أن أغلب ألواح أور وثائق رسمية خاصة بتسجيل الشؤون الإدارية لأملاك القصر والمعبد وإدارة الدولة بوجه عام، في حين أن قسماً كبيراً من ألواح العهد البابلي القديم وثائق شخصية، أي إنها وثائق تعود إلى أفراد المجتمع من عامة الناس وهي مدونة

---

(1) انظر A. Parrot, *Mission Archéologique de Mari, le Palais,* (1958-9-)

بمختلف شؤون الحياة اليومية، ومثل هذا يقال بالنسبة إلى الرسائل من كل من هذين العهدين.

ونختتم هذه الملاحظات العامة عن مصادر العهد البابلي القديم بتصنيف تلك الوثائق من حيث محتوياتها إلى الأصناف الرئيسة التالية:

١ ـ الكتابات الرسمية:

وما يعرف بالنصوص الملكية (Royal - Inscriptions)، وقد وجدت مجموعات متنوعة من هذه الوثائق[1] التي سجلت لنا نشاط ملوك ذلك العصر في البناء والإنشاء ولا سيما بناء المعابد أو تجديد أبنيتها وحفر أنهار الري والسدود وإقامة الأسوار والحصون. وقد دونت الأخبار المتعلقة بمثل هذه الأعمال في المسلات الحجرية أو في المخاريط الطينية أو ألواح الطين أو التماثيل أو الأساطين الطينية، وكان البعض منها يدفن في أسس المعابد أو القصور وغيرها من الأبنية الرسمية.

٢ ـ إثبات الحوادث المؤرخ بها:

مر بنا في كلامنا عن طرق تدوين الحوادث وتقويمها أسلوب التأريخ بالحوادث المشهورة بحسب سني حكم الملوك أي ما يصطلح عليه بـ (Date Formulae) وقد جاءتنا من هذه الأثبات نماذج كثيرة، منها قوائم الحوادث المؤرخ بها الخاصة بحكم ملك واحد، وبعضها جداول بالسني المؤرخ بها الخاصة بحكم سلالة خاصة من الملوك. وتعد هذه الوثائق على قدر كبير من الأهمية فإنها سجل بتسلسل الأحداث المهمة في حكم الملوك وتسلسل ملوك السلالات، كما أن الحوادث المتخذة للتأريخ منها ذات أهمية خاصة في معرفة تأريخ العصر، فنقرأ فيها حملات الملوك الحربية وفتوحهم

---

(1) تنقيبات «أور» (1930 ـ 1931):

Woolley, *Ur Excavations.; AJ*, XI, (1931).

الخارجية وعلاقاتهم مع غيرهم من الملوك والحكام، وأعمالهم العمرانية مثل بناء المعابد والقصور وإقامة الحصون وشؤون الري المختلفة، ونحت التماثيل للآلهة ولأنفسهم، وتعيين الكهنة والكاهنات وبوجه خاص من الأسرة المالكة في المعابد، وقد يؤرخ بموت حاكم صديق من الدويلات المجاورة، وخير مثال على هذا النمط من التأريخ ما اكتشف حديثاً في تل الضباعي القريب من تل حرمل (وكلاهما في المنطقة المسماة بغداد الجديدة). ومن هذا الصنف من اثبات الحوادث المؤرخ بها القوائم الآشورية الخاصة بعهود الملوك أي ما سميناه «لمو»، من تسمية السنين الخاصة بعهد الملك بأسماء كبار موظفي الدولة ابتداء من الملك.

ومن قبيل هذا النوع من المصادر التي جاءتنا من العهد البابلي القديم إثبات الملوك (King - Lists) التي سبق أن تكلمنا عنها في الفصل الخاص بتأريخ التحريات. ونذكر كذلك الشرائع المدونة والنصوص القانونية الأخرى التي امتاز هذا العهد بوفرة ما وجد منها، والنصوص الأدبية والدينية مثل مجاميع الصلوات والتراتيل والأدعية المخصصة للآلهة المختلفة. والأثبات الخاصة بأسماء الآلهة وأنسابها، ونصوص الأساطير والقصص[1].

٣ ـ النصوص الخاصة بتنبوءات الفأل

النصوص الخاصة بتنبوءات الفأل (Omen Texts) التي وجدت منها نماذج متنوعة منذ العصر البابلي القديم، وهذه عبارة عن سجلات بالمشاهدات الخاصة بالظواهر الطبيعية والطرق المختلفة المستعملة في العرافة والتنبؤ مثل فحص كبد الحيوان المضحى وخلط الزيت بالماء إلى غير ذلك من أنواع العرافة مما سنفصل الكلام عنها في الجزء الثاني من كتابنا. وهذه إلى جانب أهميتها من الناحية العقائدية والأسطورية ذات أهمية تاريخية خاصة لأنها كثيراً

---

(1) حول النصوص الملكية انظر: .RISA. SAK. ZZB
Gadd and Legrain, *Royal Inscriptions From Ur.*

ما تشير إلى حوادث تأريخية مما يتعلق بالسلالات الحاكمة وملوكها وقد سبق أن استشهدنا بأمثلة منها[1].

٤ ـ الأثبات الجغرافية:

من المدونات الطريفة التي بدأت تظهر في حضارة وادي الرافدين منذ العصر البابلي القديم ما يطلق عليه اسم الأثبات أو الجداول الجغرافية (Geographical Lists) وهي عبارة عن معاجم صغيرة بأسماء المدن والمواضع الشهيرة التي كانت ترتب إما بحسب تسلسلها الجغرافي أو بحسب كتابة أسمائها. ولعل أقدم ما وجد من هذه الأثبات اللوح الطيني الذي اكتشف في تل حرمل (مجلة سومر، المجلد الثالث). ومن قبيل هذا النوع من المؤلفات الجغرافية ذكر الطرق والمسالك الشهيرة وأسماء المدن والأمكنة التي تمر منها أي ما يصح أن نسميه «دليل السفر» (Itinerary)[2].

٥ ـ الرسائل:

يمكن تصنيف الرسائل التي جاءت إلينا من العهد البابلي القديم إلى صنفين رئيسين (1) الرسائل الرسمية (2) والرسائل الخاصة بين عامة الناس. ويتضمن الصنف الأول الرسائل المتبادلة بين الملوك، أو المرسلة من الملوك

---

(1) سيأتي تفصيل الكلام على هذه المواضيع الأدبية في القسم الثاني من كتابنا. ونحيل القارئ إلى المصدر الآتي حول ترجمة هذه النصوص: *ANET.*

وعن التراتيل والأدعية والصلوات: Falkenstcin und Von Soden, OP.CIT

راجع أشهر النشرات عن نصوص الفال:

(1) A. Goetze in *JCS*, I, (1947).

(2) —— *Yale Oriental Series, X,*

(3) Falkenstein, in Bibliotheka Orientalis, VI, 181ff.

(2) حول الأثبات الجغرافية انظر:

(1) Chiera, *Sumerian Lexical Texts,* (1929).

(2) Goetze in *JCS*, VII, 51ff. SUMER, III, (1947).

إلى ولاتهم وعمالهم في الأقاليم التابعة لهم أو ما بين الولاة أنفسهم، والمثال على ذلك الرسائل المهمة الخاصة بالملك حمورابي والرسائل المكتشفة في قصر الملك «زمري ـ لم» في مدينة ماري[1]، ونذكر كذلك الرسائل المكتشفة في تل حرمل وهي تتضمن الصنفين من الرسائل (مجلة سومر، المجلد الرابع عشر 1958) ورسائل تل الدير، وغيرها من مجاميع الرسائل الرسمية والخاصة التي وجدت في المدن المختلفة.

6 ـ الوثائق والعقود الخاصة بالمعاملات اليومية المختلفة كالبيع والشراء والمداينات والإجارات ومختلف الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والتبني وقرارات المحاكم وغيرها، وقد وجدت مجموعات كبيرة من هذه الوثائق من المدن المختلفة[2].

٧ ـ النصوص الرياضية:

سبق أن ذكرنا في أول كلامنا على خصائص العصر البابلي القديم

---

(1) حول رسائل حمورابي بوجه خاص ورسائل العهد البابلي القديم بوجه عام انظر:

(1) King, *Letters and Inscriptions of Hammurabi.*

(2) Thureau - Dangin, Letters et Contracts de L'Epoque de la priémier Dynastie.

(3) -----, La correspondance de Hammurabi avec Shamash - Khasir.

(4) Lutz, Early Babylonian Letters from Larsa.

(5) Ungnad, Bab. Letters of the Hammurabi Period.

(6) Lutz, Bab. Letters of the Early Bab., Cassite and Neo - Bab. Periods.

(7) Goetze, «Fifty Old Bab. Letters From Harmal», in SUMER, XIV, (1958).

(2) فيما يأتي المراجع الأساسية عن الشرائع والوثائق القانونية:

(1) Kohler. Ungnad, *Hammurapi's Gesetz* (1909 - 1923).

(2) Schorr, *Altbabylonische Rechtsurkunden,* (1914).

(3) Waterman in *AJSL,* XXIX, 145ff. IBID, 286ff.xxx, 48ff.' XXXIII, 203ff.

(4) Simmons in *JCS,* XIII, XIV, (1959 - 60)' IX, (1955).

(5) Kraus, *JCS,* III.

(6) Lutz, *Legal and Economic Documents from Aschaiyali.*

الحضارية كيف أن المعارف العملية الخاصة بالرياضيات وغيرها من المعارف قد انتقلت من الطور العملي إلى طور التدوين في ذلك العصر. والواقع من الأمر أن القسم الأعظم من الألواح الرياضية التي جاءتنا من حضارة وادي الرافدين ترجع في زمنها إلى هذا العصر ثم العهد السلوقي (القرن الثالث ق.م) ولما كنا سنخصص بحثاً خاصاً للعلوم والمعارف في الجزء الثاني من هذا الكتاب فنكتفي بهذا التنويه مضيفين إليه المراجع الرئيسية عن الموضوع[1].

(1) عن الرياضيات انظر:

(1) Neugebauer, *Mathematische Keilschrifttexte.*

(2) ------ and Sachs, Cuneiform Mathematical Texts (1945).

(3) Thureau - Dangin, *Texts Mathematiques Babyloniens.*

نشر مؤلف هذا الكتاب الألواح الرياضية المكتشفة في تل حرمل والضباعي في مجلة «سومر»: 1949، 1950، 1951، 1953، 1963.

سلالات العهد البابلي القديم

سلالة «أور» الثالثة

(2112 ـ 2004)

أور ـ نمو (2112 ـ 2095)

شولكي (2094 ـ 2047)

أمار ـ سين (2046 ـ 2038)

شو ـ سين (2037 ـ 2029)

ابي ـ سين (2028 ـ 2004)

سلالة «أيسن»

(2017 ـ 1794)

اشبي ـ ايرا (2017 ـ 1985)

شو ـ ايليشو (1984 ـ 1975)

ادن ـ دگان (1974 ـ 1954)

اشمي ـ دگان (1953 ـ 1935)

لبت ـ عشتار (1934 ـ 1924)

أور ـ ننورتا (1923 ـ 1896)

بور ـ سين (1895 ـ 1874)

لبت ـ أنليل (1873 ـ 1869)

ايرا ـ ايميتي (1868 ـ 1861)

أنليل ـ باني (1860 ـ 1837)

زامبيا (1836 ـ 1834)

اتر ـ بيشا (1833 ـ 1831)

أور ـ دكودا (1830 ـ 1828)

سين ـ ماگر (1827 ـ 1817)

دامق ـ اليشو (1816 ـ 1794)

سلالة لارسة

(2025 ـ 1763)

نبلانم (2025 ـ 2005)

اميصم (2004 ـ 1977)

ساميئم (1976 ـ 1942)

زابيا (1941 ـ 1933)

گنگونم (1932 ـ 1906)

أبي ـ سارة (1905 ـ 1895)

سومو ـ ايل (1894 ـ 1866)

نور ـ أدد (1865 ـ 1850)

سين ـ ادنام (1849 ـ 1843)

سين ـ اريبام (1842 ـ 1841)

سين ـ اقيشام (1840 ـ 1836)

ضلى ـ أدد (1835)

ورد ـ سين (1834 ـ 1823)

ريم ـ سين (1822 ـ 1763)

سلالة بابل الأولى

(1894 ـ 1595ق.م)

سومو ـ آبم (1894 ـ 1881)

سومو ـ لئيل (1880 ـ 1845)

سابيئم (1844 ـ 1831)

آيل ـ سين (1830 ـ 1813)

سين ـ مبلط (1812 ـ 1793)

حمورابي (1792 ـ 1750)

سمسو ـ ايلونا (1749 ـ 1712)

ابي ـ ايشوح (1711 ـ 1684)

عمى ـ ديتانا (1683 ـ 1647)

عمى ـ صادوقا (1646 ـ 1626)

سمسو ـ ديتانا (1625 ـ 1595)

حكام دولة «اشنونا»

اتوريا

ايليشو ـ ايليا

نور ـ آخم
كريكيري
بلالاما
عشتار ـ رماشو
أوصر ـ أوسو
ازوزم
أور ـ ننمار
أور ـ ننگشزيدا
ابق ـ أدد الأول
شاريا
بيلاكم
عبد ايراخ(؟)
ورسا
ابالبيل الأول
ابق ـ أدد الثاني
نرام ـ سين
دادوشا
ابالبيل الثاني
(1790؟ ـ 1761)
بلاد آشور
زاريقم
. . . .
. . . .
بوزر ـ آشور الأول
شالم ـ آخم
ايلوشوما
ايريشم الأول
ايكونم
سرجون الأول
بوزر ـ آشور الثاني
نرام ـ سين
ابريشم الثاني
شمسي ـ أدد الأول
(1813 ـ 1781)
اشمي ـ دگان
(1780 ـ 1741)
سلالات مدن أخرى
سلالة مدينة «دير»
ندنوشا
انو ـ متبل
سلالة كيش
اشدوني ـ آرم
سلالة الوركاء
سين ـ كاشد
(1860 ـ 1833؟)
أنام
(1821 ـ 1817؟)
اردانيني
(1816 ـ 1810؟)
سلالة «ماري»
يگديلم (1830؟)
يخدن ـ لم
(1825 ـ 1810)
يسمح ـ أدد
(1799 ـ 1780)
زمري ـ لم
(1778 ـ 1761)

الكشيون (سلالة بابل الثالثة)

رأينا في كلامنا على سلالة بابل الأولى كيف انتهى حكم هذه السلالة على أثر غزو الحثيين بلاد بابل في حدود 5/ 1594ق.م وكيف أن من عرف في تاريخ العراق القديم باسم «الكشيين» قد جاؤوا من منطقة الفرات الأوسط (لعله من منطقة عانة الآن وخانة القديمة) إلى بابل وأقاموا سلالة حاكمة في البلاد عرفت باسم سلالة بابل الثالثة التي دام حكمها زهاء أربعة قرون، (1595 ـ 1162ق.م).

اسم هؤلاء القوم الجدد من الكلمة البابلية «كشو» التي لا يعلم أصل اشتقاقها بالضبط ولعلها تعني في هذه اللغة القوة والبأس، ويحتمل كذلك أنها مأخوذة من اسم الإله القومي للكشيين. كما لا يعرف أصل هؤلاء الكشيين على وجه التأكيد. أما موطنهم الذي نزحوا منه فيرجح أنه كان في مكان ما من الأجزاء الوسطى في جبال «زاجروس» (الفاصلة ما بين العراق وبين إيران). ولعله يمكن تحديده في المنطقة التي تعرف باسم بلاد اللر، أي لورستان في الجهات الجنوبية من إيران. وكان يجاورهم من جهة الشمال أقوام جبلية أخرى منهم الكوتيون و«اللولوبو» الذين سبق أن ذكرنا صلاتهم بسكان وادي الرافدين في العصر الآكدي، والمرجح أن يكونوا هم القبائل الجبلية الذين ورد ذكرهم في المصادر الكلاسيكية باسم «كوساي» (Kossaioi) وبما أنهم لم يخلفوا لنا من بعد حكمهم في العراق شيئاً مدوناً بلغتهم القومية بل إنهم اتخذوا اللغة البابلية، فليس في الوسع معرفة أصلهم القومي من الناحية اللغوية، وكل ما يمكن تخمينه في هذا الشأن أن جماعات محاربة «أرستقراطية» من الآريين أي الأقوام الهندية ـ

الأوروبية قد حكمت أولئك الكشيين ونظمتهم تنظيماً عسكرياً وقادتهم إلى الفتح. ولما برزوا في التاريخ بصفتهم قوة عسكرية في عهد سلالة بابل الأولى اتجهوا في توسعهم، لعله بسبب ضغط أقوام أخرى، إلى وادي الرافدين، ولكن خلفاء حمورابي ولا سيما «سمسو - ايلونا» و «ابي - ايشوخ» استطاعوا أن يصدوهم فاتجهوا عبر نهر ديالى ودجلة إلى الجهات الشمالية الغربية، وبدلاً من أن يتجهوا إلى بلاد آشور، لعله بسبب اعتراض أقوام أخرى في المنطقة، تمركزوا في منطقة الفرات الأوسط أي في منطقة عانة (خانة القديمة) وهي منطقة استراتيجية مهمة بالنسبة إلى بلاد بابل فكانت شرياناً حيوياً للاتصال ببلاد الشام. ولبثوا في هذه المنطقة ردحاً من الزمن لا يعلم مقداره بالضبط وهم يتحينون الفرص للانحدار إلى بلاد بابل وأخيراً حانت الفرصة المواتية على أثر غزو الحثيين لبابل كما بينا.

وهناك مشاكل تاريخية تعترض المؤرخ عن بدء الحكم الكشي في العراق وعلاقتهم بالحثيين الذين غزوا بابل. فأولاً أن بداية حكمهم لا تنطبق مع نهاية سلالة بابل الأولى، ولذلك فينبغي أن يكون الملوك السبعة الأوائل من السلالة الكشية ابتداء من «گنداش» المعاصر لملك بابل «سمسو - ايلونا» قد حكموا خارج بلاد بابل، أي في إقليم «خانة» (عانة) كما ذكرنا، وأن السلالة الكشية بدأ حكمها في بلاد بابل ابتداء من الملك الكشي المسمى «اگوم» الثاني «اكوم كاكريمة» (Agum Kakrime) وأن هذا الملك هو الذي انتهز فرصة الغزو الحثي فزحف على بابل في حدود 1595ق.م. ولكن ماذا كانت علاقة هذا الملك الكشي بالملك الحثي «مورسيليس» الذي غزا بابل ماراً من منطقة الفرات الأوسط؟ هل تحالف مع الملك الحثي فكانت حملة عسكرية مشتركة على بابل؟ ولعل التساؤل الثاني أقرب إلى الواقع التاريخي لأنه يفسر لنا سبب انسحاب الحثيين من بابل، كما أن بعض الغنائم التي أخذها الملك الحثي من بابل ومن بينها تمثال الإله مردوخ وتمثال زوجته قد تركها في بلاد «خانة».

والواقع لا يقتصر الأمر على بداية العهد الكشي في العراق بكونها من الفترات المظلمة من ناحية المصادر التاريخية بل إن هذا العهد كله يعد من هذه الناحية من الأدوار المظلمة بالمقارنة مع العصور التاريخية الأخرى. وهناك

ثغرات في سلالة الملكوك الكشيين وفي تسلسل بعض ملوكها. وتكاد مصادرنا الرئيسية عن هذا العصر تقتصر على بضعة نصوص ملكية (زهاء المائتي نص)[1]، وأن الكثير منها ليست على جانب مهم من الناحية التاريخية. وجاءنا أيضاً عدد من الرسائل والوثائق الاقتصادية والتجارية والقانونية. على أن هناك مصدراً مهماً عن هذا العصر لم يأت إلينا من بلاد بابل بل من وادي النيل، ونعني بذلك الرسائل الشهيرة باسم «رسائل العمارنة»[2]. ومن مصادرنا المهمة عن العصر الكشي ما يعرف باسم التاريخ التعاصري (Synchronistic History) بين ملوك بلاد آشور وملوك بلاد بابل، وقد جمعه أحد الكتبة الآشوريين في القرن السابع ق.م[3].

وإلى هذه المصادر الكتابية نضيف ما أظهرته التنقيبات في المواقع الأثرية المختلفة من آثار وبقايا بنائية في الطبقات الأثرية العائدة إلى العهد الكشي، حيث وجدت في جملة مدن قديمة مثل «أور» والوركاء ونفر وبابل وغيرها مآثر من ملوك السلالة الكشية في الفترة الواقعة ما بين نهاية سلالة بابل

---

(1) حول ذلك انظر:

(1) K. Jaritz, «Quellen zur Geschichte der Kassu - Dynastie» in *Mitteiliungen des Institute für Orientforschung*, VI, (1958), 187ff.

(2) F. el - Wailly in *SUMER*, X, (1954), 43ff.

(2) نسبة إلى موضع العمارنة في مصر الوسطى، حيث عاصمة الفرعون «اخناتون». وقد وجدت فيه عن طريق الصدفة في أواخر القرن الماضي زهاء (350) رسالة رسمية مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية، باستثناء رسالتين باللغة الحثية ورسالة ثالثة باللغة الحورية، وكانت هذه الوثائق الرسائل التي تبودلت بين الفرعونين «أمنوفس» الثالث وابنه «أمنوفس» الرابع (أخناتون) في القرن الرابع عشر ق.م. وبين ملوك الشرق الأدنى وحكام سورية وفلسطين التابعين إلى مصر. حول ترجمة هذه الرسائل المهمة راجع المصدرين الأساسيين التاليين:

Knudtzon, *Die El. Amarna Tafeln* (1915).

Mercer, *The Tell - Amarna Tablets* (1939).

(3) انظر:

Peiser. Winckler, in *Keilschrift Bibliothek*, I, (1889).

الأولى والعصر البابلي المتأخر. وسننوّه بوجه خاص في الموضع الأثري المسمى عقرقوف الذي اقتصرت بقاياه على العهد الكشي.

وبالاستناد إلى المصادر التي عددناها، رغم قلتها، يمكن تأليف صورة لا بأس بها عن هذا العصر من تاريخ العراق القديم. وأول ما نذكر من هذه الصورة أن الملوك الكشيين حكموا القطر في مملكة واحدة من أقصى الجنوب إلى حدود بلاد آشور في الشمال، حيث كان يعاصرهم ملوك ما يسمى بالعصر الآشوري الوسيط (من حدود 1500 إلى القرن العاشر ق.م)، وقد نشأت صلات وعلاقات بين الدولتين الكشية والآشورية، بعضها علاقات حربية كانت الكفة تتأرجح بين الطرفين في الانتصار والاندحار، وبعضها صلات سلمية.

ويمكن القول إن العصر الكشي كان أطول فترة في تاريخ العراق القديم عمها الاستقرار النسبي وحكمت فيها مملكة القطر وليس دول المدن مما مر بنا إبان عصر فجر السلالات والعصر البابلي القديم. وكان الكشيون أقلية حاكمة بالمقارنة مع الغالبية من سكان البلاد، وقد طغت عليهم حضارتها فاندمجوا بها وصهرتهم في بودقتها فاتخذوا لغة البلاد وثقافتها العامة ولم يخلفوا لنا كما قلنا أشياء يعتد بها مدونة بلغتهم باستثناء أسماء أعلام كشية وأسماء ملوكهم وعدد من آلهتهم ومفردات كشية قليلة مترجمة إلى اللغة البابلية، ومنها يستدل ما سبق أن نوَّهنا به من أن أولئك الحكام كانوا من الأقوام الآرية. ومن الأمثلة على أسماء آلهتهم الآرية الأصل (الهندية ـ الأوروبية) والداخلة في تركيب أسماء أعلامهم ولا سيما أسماء ملوكهم الإله «شورياش» (Shuriash) المضاهي للإله الهندي القديم «سوريا» (Surya) و «ماروتاش» (Maruttash) المضاهي للإله الهندي «ماروت» (Marut) والإله «بورياش» (Buriash) المضاهي للإله الخاص بالرياح ولا سيما الريح الشمالية عند الإغريق «بورياس» (Boreas) وهناك آلهة كشية صرفة لا يوجد ما يضارعها من آلهة الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» مثل «كشو»، الذي قلنا إنه يحتمل أن يكون أصل تسمية هؤلاء الأقوام، أي الكشيين، والإله «شباك» (Shipak) وخربي (Kharbe)، وغيرها. ولعل مثل هذه الآلهة الكشية الصرفة

والكلمات الكشية القليلة المترجمة إلى اللغة البابلية مما أشرنا إليها تمثل لغة جماهير الكشيين الذين لم يكونوا من الأقوام الآرية وإنما اقتصر العنصر الآري فيهم على الطبقة الأرستقراطية المحاربة التي تزعمتهم وحكمتهم.

ولعل أوضح ما يعبّر عن اندماج الكشيين وملوكهم بحضارة وادي الرافدين أن أول ملوكهم الذي حكم في بابل وهو «اگوم» الثاني الملقب «اكوم كاكريمة» (1602 ـ 1585ق.م) قام بحملة خاصة لاسترجاع تمثال الإله مردوخ وتمثال زوجته «صربنيتم» من أسرهما في منطقة عانة، واحتفل بهذه المناسبة احتفالاً ضخماً كما نوَّهنا بذلك من قبل، كما قام بإعادة بناء معبد هذا الإله في بابل وخلف لنا نصاً مطولاً مهماً عن هذا الحدث[1]. ومع أنه مما لا شك فيه أن يكون هذا الملك قد استهدف من وراء عمله هذا مداراة البابليين وكسب رضاهم عن الحكم الجديد وضمان استمرار سلطة الإله مردوخ وتفويضه إياه أن يحكم البلاد بالنيابة عنه، ولكن مع كل ذلك يشير عمله ذاك إلى انصهار بحضارة البلاد وأعرافه الدينية.

حكم من بعد «اگوم» السالف الذكر تسعة ملوك لا يعلم ترتيب عهودهم بوجه التأكيد، ثم يأتي من بعد ذلك حكم الملك المسمى «بورنا بورياش» الأول وخلفه في الحكم «أولام بورياش» في حدود 1500ق.م، وقد ميّز هذا الملك حكمه بقضائه على آخر ملوك سلالة القطر البحري المسمى «اياگامل»، أي سلالة بابل الثانية التي سبق أن ذكرنا أنها قامت في زمن الملك البابلي «سمسو ـ ايلونا»، خليفة حمورابي. وبهذا العمل أعاد «أولام ـ بورياش» الوحدة السياسية الكاملة في القطر واستعاد الأجزاء الجنوبية المهمة المتاخمة إلى الخليج فضمن بذلك الاتصال التجاري البحري مع الخارج.

أما علاقات الملوك الكشيين مع ملوك آشور فقد سبق أن نوَّهنا بها، ويمكن إيجازها أنها سارت على مبدأ التعايش السلمي ما دام الطرفان قويين متعادلين في

---

(1) انظر نص «اكوم كاكريمة» في:

P. Jensen in *Keilschrift Bibliothek*, III, (1892), 134ff.

القوة، وكان الوضع يتغير في حالة ضعف أحدهما. وأبرمت ما بين الطرفين معاهدات لإقرار الوضع الراهن وتحديد الحدود ما بين المملكتين، ولم تكن حدوداً طبيعية ثابتة بل كانت تتوقف في اتجاهها شمالاً أو جنوباً على قوة كل من الدولتين. وقد دونت أخبار التاريخ التعاصري (Synchronistic History) التي نوَّهنا بها على أنها من مصادرنا الأساسية عن تاريخ هذه الحقبة، إبرام تلك المعاهدات الخاصة بتسوية الحدود، وأقدمها المعاهدة التي أبرمت ما بين الملك الكشي «بورنا بورياش» الذي خلف «اگوم» الثاني معه الملك الآشوري «بوزر ـ آشور» الثالث لتثبيت الحدود ما بين المملكتين في الخط المار في منطقة سامراء تقريباً، وأبرمت معاهدة أخرى مماثلة من بعد نحو قرن واحد ما بين الملك الكشي «كرانداش» وبين الملك الآشوري «آشور ـ بيل ـ نشيشو» (في حدود 1430ق.م). وهكذا فيبدو أن أهم ما يميز العهد الكشي الطويل الأمد قلة ما وقع في أثنائه من اصطدامات حربية مهمة سواء كان ذلك مع الآشوريين المجاورين أم مع دول الشرق الأدنى المعاصرة مثل دولة «ميتابي» في شمالي ما بين النهرين أم مع الدولة المصرية في تلك الفترة التي تعرف في تاريخ وادي النيل باسم الدولة الحديثة أو الأمبراطورية. وسنتطرق إلى العلاقات الودية ما بين الملوك الكشيين وبين فراعنة مصر في هذا العهد.

ولذلك فبدلاً من النشاط الحربي شغل الملوك الكشيون أنفسهم في المشاريع العمرانية في مختلف المدن البابلية المهمة وفي مقدمة ذلك تجديد معابد الآلهة الكبيرة، حيث وجدت مآثرهم كما نوَّهنا في عدة مدن مثل «نفر» و«أور» و«لارسة» والوركاء. ففي منطقة المعابد في الوركاء المسماة «اي ـ أنا»، وجد من مآثر الملك الكشي «كرانداش»[1] معبد جميل شيدت واجهته من

---

(1) أعيد تركيب هذا الجدار في المتحف العراقي. انظر:
J. Jordan in *U V B*, I, (1930).
وحول هذا الأسلوب من الزخارف الجدارية انظر:
AAO, 36ff. P1.70a.

آجر مثلت فيه في قوالب الآجر قطعة قطعة أشكال وصور من النوع النافر أو البارز إذا جمعت تلك القطع بعضها إلى بعض. وهذا أسلوب من التزيينات الجدارية شبيه بأسلوب الزخارف الجدارية في باب عشتار في مدينة بابل من عهد متأخر، أي من زمن الملك نبوخذ نصر (القرن السادس ق.م)، فيكون الطراز الكشي السابق أصل هذا النوع من الفن المعماري الذي ورثه أيضاً الفرس الأخمينيون كما وجد في أبنية عاصمتهم «برسيبولس» (اصطخر قرب مدينة سوسة). ووجدت نماذج من هذا الآجر في أثناء تنقيبات مديرية الآثار في عقرقوف مما سنتطرق إليه بعد قليل.

اتخذ الملوك الأوائل من السلالة الكشية مدينة بابل عاصمة لحكمهم، ولكنهم أسسوا في منتصف عهدهم تقريباً مدينة جديدة ضخمة أطلق عليها اسم «دور ـ كوريكالزو»، وتعرف بقاياها الآن باسم عقرقوف، على بعد نحو 20 ميلاً غرب مركز بغداد. ويبدو أن هذه المدينة الجديدة أضحت عاصمة المملكة أو العاصمة المفضلة الثانية إلى جانب بابل. ويشير اسم هذه المدينة الذي يعني حصن أو مدينة «كوريكالزو» إلى أن مؤسسها أحد ثلاثة ملوك سموا باسم «كوريكالزو» من السلالة الكشية. وبالاستناد إلى نتائج التنقيبات التي قامت بها مديرية الآثار في الموضع (1943 ـ 1946)[1]، يرجح أن المدينة الأصلية شيدت في زمن قديم من العصر الكشي يرجع إلى ما بين القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م. والمرجح أن كوريگالزو الأول كان المؤسس الأول للمدينة ثم وسع فيها الملوك الذين خلفوه وبوجه خاص الملك «كوريگالزو» الثاني الذي يرجح أن يكون هو الذي شيد برج المدينة (الزقورة) ووسع في معابدها

(1) أشرف على هذه التنقيبات مؤلف هذا الكتاب. راجع التقارير التي نشرت عن نتائج هذه التنقيات في المجلة الإنجليزية (IRAQ)، ملحق الأعوام 1944، 1945، 1946، وكذلك مجلة سومر. والمرجح أن اسم عقرقوف كلمة آرامية تعني موضع قضبان الخشب. وقد أبانت التنقيبات المشار إليها استمرار الاستيطان في الموضع إلى العصور المتأخرة، حيث وجدت في الطبقات العليا منه آثار من العصر البابلي الحديث والعصر الفارسي الأخميني والعصر الفرثي والعصر العربي الإسلامي.

وقصورها. وقد اشتهر هذا الملك بنشاطه في البناء والتعمير في مدن أخرى، منها أعماله العمرانية الواسعة في مدينة «أور»، من بعد ما أصابها من التدمير في عهد الملك «سمسو ـ ايلونا»، خليفة حمورابي في أثناء حربه مع مملكة القطر البحري في الجنوب.

كشفت التنقيبات التي أشرنا إليها عن جملة بقايا مهمة في مدينة «دور ـ كوريكالزو»، وفي مقدمة ذلك أجزاء من قصورها الفخمة ومعابدها الواسعة، وعثر في أثناء هذه التنقيبات على نماذج من الآثار المختلفة التي أسهمت في توضيح بعض الجوانب من حضارة وادي الرافدين في العصر الكشي. وأجريت التحريات في برج المدينة الذي بقي من ارتفاعه الآن زهاء ستة وخمسين متراً. ويعد برج عقرقوف نموذجاً مهماً من الأبراج المدرجة في حضارة وادي الرافدين، ولا سيما قاعدته السفلى وسلالم هذه القاعدة، والفن المعماري التي شيدت بموجبه. وإلى ذلك يعتبر هذا البرج حلقة مهمة في تطور الزقورات ما بين بداية ظهورها في عهد سلالة أور الثالثة حيث كانت مؤلفة من ثلاث طبقات مثل برج أور وبرج الوركاء وبين المرحلة النهائية التي تطورت فيها في العهود المتأخرة ولا سيما في العصر البابلي الحديث (القرن السادس ق.م) حيث أصبحت فيه على الأغلب ذات سبع طبقات مثل برج بابل الشهير. وإلى ذلك فإن أجزاء القصور التي تم التحري فيها أظهرت نواحي مهمة في الفن المعماري وفي مقدمة ذلك ضخامة الجدران، وقد تميزت جدران العهد الكشي بالضخامة المفرطة، فإن جدران قصور عقرقوف وجدران معابدها بلغ معدل سمكها (ثخنها) ثلاثة أمتار وهي مشيدة باللبن الكبير الحجم. ووجدت في بعض هذه الأجزاء من القصور نماذج مهمة من الزخارف الجدارية المصبوغة، وقد زين البعض منها بأشكال آدمية ذات أهمية خاصة من ناحية الأزياء والملابس. أما المعابد فقد أظهرت التنقيبات، على الرغم من عدم إكمالها، أنها كانت تتسم كذلك بالسعة وضخامة الجدران، وقد كشف عن بقايا عدة معابد شيدت للآلهة المختلفة في منطقة برج المدينة تجمعها ساحة مركزية واسعة وهيكل (Cella) مشترك، شيد على مصطبة تواجه زقورة المدينة باتجاه

سلمها المركزي. وقد خصصت المعابد الكبيرة (لعبادة الإله «أنليل» وزوجته «ننليل»)، وابنهما الإله «ننورتا». ويجد الزائر في جدران الممر الرئيسي المركزي لهذه المعابد الآجر المختوم باسم الملك «كوريكالزو» وتدوين إقامته المعابد إلى أولئك الآلهة مع أسمائها وأسماء معابدها. ووجدت في هذه المنطقة كسر كثيرة من تمثال ضخم للملك كوريكالزو نفسه، وهي منقوشة بخط مسماري يتسم بمسحة القدم وباللغة السومرية[1].

بعض العناصر الحضارية الجديدة في العصر الكشي:

1 ـ مع أن الكشيين، كما ذكرنا، ساروا على تراث حضارة وادي الرافدين العام واندمجوا به بيد أنه ظهرت أو أدخلت في عهدهم بعض الأمور أو العناصر الحضارية التي يصح عدها أنها ميزت هذا العهد. وأول ما نذكر من هذه الأشياء الجديدة الاسم الجغرافي الجديد الذي أطلقوه على بلاد بابل، وهو «كار ـ دنياش»، أي بلاد أو قطر «دنياش»، وهو اسم أحد آلهتهم. على أن ملوكهم احتفظوا أيضاً بألقاب الملوك القديمة مثل ملك «سومر وأكد» وملك بابل.

2 ـ يرى جمهور المؤرخين أن الكشيين هم الذين أدخلوا استعمال الخيل إلى بلاد وادي الرافدين على مقياس واسع بحيث أصبحت واسطة شائعة في النقل وفي الحرب وفي جر العربات، الأمر الذي أحدث تبدلات جوهرية في أساليب الحرب والقتال وسرعة المواصلات. ويرجح أن الكشيين اقتبسوا استعمال الخيل من الحثيين في آسيا الصغرى ومن الحوريين أيضاً. أما ما قبل العهد الكشي فلم تكن الخيول شائعة الاستعمال في العراق بل اقتصر ذلك على أمثلة قليلة. فقد جاء ذكرها في النصوص المسمارية ولا سيما من عهد

---

(1) نشر نص هذه الكتابة في «سومر» (1948)، القسم الإنجليزي. انظر أيضاً:
Kramer in *ANET*. 157ff.
وعن الآثار الأخرى التي وجدت في عقرقوف انظر مجلة IRAQ (1944 ـ 1946).

سلالة «أور» الثالثة (2112 ـ 2004ق.م)، وقد دعيت في هذه النصوص بالمصطلح السومري «انشو ـ كرا» (Anshu - Kur - Ra) أي «حمار الجبل» أو «حمار البلد الأجنبي»، ويرادف ذلك في اللغة الآكدية «سيسو» (Sîsû) كما ذكرت الخيول باسمها الآكدي في رسائل مدينة «ماري» الشهيرة (القرنان التاسع عشر والثامن عشر ق.م)[1].

3 ـ سبق أن ذكرنا في الفصل الخاص بتاريخ التحريات كيف أن الكشيين استبدلوا طريقة التاريخ بالحوادث المشهورة المتبعة في العهود السابقة للعصر الكشي بطريقة أسهل في تأريخ الحوادث وتقويمها، هي التأريخ بسني حكم الملوك، فصاروا يؤرخون ابتداء من السنة الأولى التي تعقب تتويج الملك الجديد ويستمرون يؤرخون بسني حكمه المتتابعة إلى الملك الجديد الذي يخلفه.

4 ـ شاع في العهد الكشي استعمال ما يسمى بأحجار الحدود أو أحجار تثبيت حدود الأملاك والعقارات، واسمها باللغة الآكدية «كودرو» (Kudurru) وقد ظهر استعمالها على نطاق ضيق في عصر فجر السلالات ولكن لم يستمر في العهود التالية. ومع أن الكلمة التي تطلق على هذا النوع من الوثائق تعني «الحد» أو «التحديد»، إلا أنها كانت في الواقع بالدرجة الأولى سجلات بقطائع الأراضي الزراعية، تسجل فيها حدودها وأوصافها وتودع عادة في المعابد مع وجود نسخ منها على ألواح الطين تكون في حوزة المالكين، وهي عبارة عن أحجار مخروطية الشكل في الغالب، ويقسم الحجر عادة إلى قسمين فيشاهد في أعلى الوجه صور منحوتة بالنحت البارز تمثل رموز الآلهة فيشاهد من أشهر هذه الرموز قرص الشمس، رمز الإله «شمش»، والهلال رمز الإله

---

(1) حول تاريخ استعمال الخيل في الشرق الأدنى والعراق انظر:

A. Salonen, *Hippologia Akkadia,* (1956).

وعن ذكر الخيل في رسائل ماري (العهد البابلي القديم):

ARM, I, 50; II, 123; IV, 38; 20.

القمر «سين» أو «ننا» والفأس أو المحراث الصغير، رمز الإله «مردوخ»، والكوكب، رمز الآلهة عشتار، مع صور الحيوانات العائدة إلى مثل هذه الآلهة، كل ذلك للتمسك بنصوص الوثيقة. وينقش في ظهر الحجر النص المطول بذكر اسم المالك صاحب القطيعة وتحديد الأرض والامتيازات الأخرى الممنوحة له وأسماء الشهود، وتذكر لعنات الآلهة المختلفة في ختام النص على من يكسر الحجر أو يبدل نصوصه[1].

وإلى الجانب التأريخي في أهمية هذه الأحجار فهي على قدر كبير من الناحية الفنية أيضاً، لما فيها من المنحوتات البارزة. ومن الآثار الأخرى التي تعيننا في فهم التطور الفني في العصر الكشي دمى الطين الكثيرة (Terra Cotta Figurines) التي وجدت في جملة مواقع أثرية، من بينها تنقيبات مديرية الآثار في عقرقوف، ونذكر أيضاً الأختام الإسطوانية الخاصة بهذا العهد، على أنها ليست في مستوى الجودة الفنية التي تمتاز بها أختام العصور السابقة، وأبرز ما يلفت النظر فيها طول النصوص الكتابية التي تنقش فيها. وقد سبق أن ذكرنا الصور الجدارية الملونة (Frescoes) مما وجد في قصور عقرقوف. ويشاهد في الصور الآدمية الممثلة أزياء جديدة في الألبسة ومنها لباس الرأس ويبدو عليها الزي الإيراني في اللباس الرأسي على الأقل[2].

5 ـ نوَّهنا في كلامنا على خصائص العهد البابلي القديم الحضارية بالنشاط الأدبي الذي ازدهر فيه في حقل التدوين والترجمة والنقل وتأليف القطع الأدبية بتحويل الأصول السومرية إلى نتاج أدبي. إلى غير ذلك من أوجه النشاط الأدبي. ولكن يبدو أن فترة طويلة مرت من بعد سقوط سلالة بابل

---

(1) نشرت نماذج كثيرة في: *King, Bab. Boundary stones*

(2) راجع تقارير المؤلف المنشورة في مجلة *IRAQ*، المجلد الثامن (1946) اللوح: 12 ش 5، واللوح 14، ش 7، واللوح 13، ش 6، واللوح 15، ش 9، وعن الأختام الإسطوانية من العصر الكشي انظر:

T. Beran in *Archiv für Orientforschung* XVIII, (1958), 255ff.

الأولى ركدت فيها الحركة الأدبية، ثم انبعثت هذه الحركة مرة أخرى من بعد قيام السلالة الكشية، فبرزت جهود الكتبة والمتضلعين بالشؤون الأدبية في مواصلة تدوين التراث الأدبي واستنساخ القطع الأدبية المشهورة، أي بعبارة أخرى صدرت نشرات جديدة لمثل هذه القطع، نذكر منها نسخة مهمة من ملحمة جلجامش ونسخة من قصة الطوفان المعنونة «اترا ـ حاسس»، والقصة الأدبية الطريفة التي سميت بقصة أيوب البابلي لمضاهاتها لقصة أيوب في التوراة، وقد عنونت بعنوان «لأمجدن رب الحكمة» وفي البابلية «لدلل بيل نميقي» (Ludlul Bel Némêqi). ووصلت إلينا من العهد الكشي أيضاً نصوص طبية مهمة ونصوص فلكية إلى جانب الكتابات الخاصة بالتنجيم ولا سيما خصائص الأيام المختلفة وما يتوقع فيها من سعد ونحس أي ما يسمى (Hemerologies). وقد وجد منها لوح كبير في تنقيبات عقرقوف. وظهر في العصر الكشي أيضاً اهتمام ملحوظ بأساليب نصوص التعاويذ والرقى، كما وصلت إلينا طائفة من الأثبات أو المعاجم بالعلامات المسمارية وقيمها السومرية والآكدية، وبعضها يتضمن شرح بعض المفردات الكشية باللغة البابلية.

6 ـ وانتشرت في العصر الكشي اللغة البابلية بخطها المسماري انتشاراً أوسع من العصور السابقة، بحيث اتخذت هذه اللغة لغة للمراسلات الدولية الدبلوماسية بين ملوك الشرق الأدنى وحكامه، كما تدل على ذلك مراسلات «العمارنة» الشهيرة الخاصة بفراعنة مصر في القرن الرابع عشر ق.م، حيث كان الفراعنة في أوج قوتهم واتساع مملكتهم، فلا يمكن تفسير اتخاذ اللغة البابلية من جانبهم بتسلط أو نفوذ من الملوك الكشيين. وانتشر مع استعمال اللغة البابلية أدب حضارة وادي الرافدين، وترجمت جملة قطع أدبية مشهورة مثل ملحمة جلجامش إلى اللغة الحثية والحورية. ومما لا ريب فيه أن يكون قد ظهرت مدارس للكتبة خارج بلاد ما بين النهرين لتعليم الخط المسماري واللغة البابلية. والجدير بالذكر بهذا الصدد أنه وجدت في موضع العمارنة السالف الذكر بالإضافة إلى المراسلات الملكية الرسمية ونصوص المعاهدات

مع الحثيين والميتانيين المدونة باللغة البابلية، قطع معروفة من أدب حضارة وادي الرافدين وأساطيرها مثل أسطورة «أدابا» وقصة سرجون الآكدي المعنونة «ملك الحرب»، مما أشرنا إليها في كلامنا على السلالة الآكدية.

ومن مظاهر إحياء التراث الأدبي من حضارة وادي الرافدين في العهد الكشي استعمال الأنماط الكتابية القديمة، حتى أن خط بعض النصوص التي وصلت إلينا من هذا العهد تشبه في علاماتها المسمارية خط حضارة وادي الرافدين من عصر فجر السلالات (مطلع الألف الثالث ق.م)، والمثال على ذلك الكتابة السومرية المنقوشة على كسر التمثال العائد إلى الملك «كوريكالزو» المكتشفة في عقرقوف.

العلاقات بين دول الشرق الأدنى في عهد الدولة المصرية الحديثة:

بعد أن أسس الكشيون دولتهم في العراق بزمن قصير قام في تاريخ حضارة وادي النيل ما يسمى بالمملكة الحديثة أو الأمبراطورية (في حدود 1500 ـ 1085ق.م) بعد أن طرد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الهكسوس من البلاد، ثم مطاردتهم إلى بلاد الشام وفتحها في عهد الفرعون «طوطمس» الثالث (1506 ـ 1461ق.م) وشمل هذا العهد في تاريخ مصر القديم حكم الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. وكان يحكم في الشرق آنذاك جملة دول أشهرها وأقواها من بعد الدولة المصرية المملكة الحثية في بلاد الأناضول ثم يأتي من بعدها في القوة والأهمية الدولة الآشورية في شمالي العراق والدولة الكشية في بلاد بابل، ودولة «ميتاني» في الأجزاء العليا من بلاد ما بين النهرين وسرعان ما ظهر النزاع ونشبت الحروب بين هذه الدول ولا سيما بين المصريين والحثيين، ولما كنا سنتطرق مرة أخرى إلى هذه العلاقات الدولية المتشعبة في الفصل المخصص لتاريخ الآشوريين فنكتفي الآن من ناحية موضوعنا بإيجاز موقف الكشيين في العراق من ذلك النزاع الدولي، وكان موقفاً يتلخص في التزامهم سياسة الحياد التي أملتها عليهم حقيقة كونهم

دون الدولتين المصرية والحثية في القوة، وحتمت عليهم أيضاً اتخاذ مبدأ الموازنة بينهم وبين الآشوريين، ولذلك اتسمت علاقاتهم مع مصر بالصداقة والحياد كما تدل على ذلك الرسائل المتبادلة بينهم وبين فراعنة مصر. ولعل خير ما يوضح لنا موقف الكشيين الدولي وعلاقتهم مع الدولة المصرية الرسالة التي أرسلها الملك الكشي «بورنا بورياش» الثاني (1375 ـ 1346ق.م) إلى فرعون مصر «امنوفس» الرابع، أي أخناتون، (1367 ـ 1350ق.م) ونورد ترجمتها:

«إلى نفخوريريا»[1] ملك مصر

هكذا يقول «بورنا بورياش»، ملك بلاد بابل، أخوك

«إنني بخير، فعسى أن تكون أنت وبيتك وأزواجك وأولادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال».

«حين عقد أبي وأبوك الصداقة ما بينهما كانا يتهاديان أثمن الهدايا، ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عز وغلا».

«والآن لقد أهدى إلى أخي «منين»[2] من الذهب. فكم تمنيت لو أنك أرسلت إلي ذهباً بقدر ما كان يرسله أبوك. وإذا كان لا بد من تقليل المقدار، فأرسل إلي نصف ما كان يرسله إلي أبوك. فلم اقتصرت على إرسال «منين» من الذهب فقط؟ إنني الآن باذل جهداً كبيراً في بناء المعبد، وسوف أنجز العمل بدقة، فأرسل إلي قدراً وافياً من الذهب، وإذا رغبت في شيء يوجد في بلادي مهما كان فابعث إلي رسلك ليأتوك به».

«في عهد أبي «كوريكالزو»، أرسل إليه الكنعانيون يقولون: «لنذهب إلى مصر ولنغزها جميعاً، وسوف نعقد معك حلفاً». أما أبي فقد أجاب على

---

(1) اسم «امنوفس» الرابع (أخناتون) الذي ينطق باللسان المصري القديم (نفر ـ خفيرو ـ رع).

(2) يزن «المنا» البابلي (ومنه كلمة المن العربية) نحو نصف كيلو غرام، ويساوي (60) شيقلاً بابلياً.

رسالتهم قائلاً: «ليكن الحلف ما بينكم، ولكن لتحذروا جانبي، إذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدني عن غزوكم»؟

وهكذا من أجل أبيك لم يسمع أبي قولهم. أما ما يخص بعض الآشوريين من أتباعي (كذا!) أفلم أخبرك برسالتي في شأنهم، فلم دخلوا إلى بلادك؟ وبما أنك تحبني فيقيني أنك لن تدخل معهم في شيء (من التحالف) وأنك ستعمل على إحباط سعايتهم وجهودهم. وفي الختام لقد أرسلت إليك هدية: ثلاثة «منات» من حجر اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات».

بالإضافة إلى هذه الرسالة التي أوردنا ترجمتها وجدت رسائل أخرى بعث بها إلى فراعنة مصر بعض الملوك الكشيين قبل «بورنا بورياش» الثاني صاحب هذه الرسالة، مثل «كدشمن - خربي» و «كدشمن - أنليل»، وكذلك نسخ الرسائل المرسلة من البلاط المصري. وإن مواضيع رسائل الملوك الكشيين كلها تؤكد على الصداقة ما بين بلاد بابل وبين مصر وطلب المزيد من إرسال الهدايا من مصر ولا سيما الذهب لتزيين معابدهم وقصورهم ونسائهم ومقابل ذلك كان الملوك الكشيون يقدمون لفراعنة مصر حجر اللازورد والخيول والعربات، كما يتضح ذلك من الرسالة التي أوردناها. ونقرأ في مثل هذه الرسائل أيضاً تبادل الأميرات من الطرفين للزواج. والطريف ذكره بهذا الصدد أنه عثر في «أرشيفات» (دار المحفوظات) في موضع العمارنة على أثبات أو قوائم بالهدايا التي أرسلها فراعنة مصر إلى الملوك الكشيين، والهدايا المرسلة بالمقابلة إلى الفراعنة، ومنها يظهر أن صفقة الملوك الكشيين كانت هي الرابحة، ويظهر فيها إلى جانب ذلك جوانب مهمة عن النشاط التجاري والتبادل التجاري، وإرسال السفراء والرسل وانتظام طرق القوافل المارة من بلاد ما بين النهرين إلى وادي النيل عبر فلسطين.

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن موقف الملوك الكشيين من العلاقات الدولية في عهدهم بالتنويه بما جاء في رسالة الملك «بورنا بورياش» الثاني السالفة الذكر من التنافس ما بين الملوك الآشوريين وبينهم في كسب

صداقة فراعنة الدولة المصرية الحديثة. ولكن مع ذلك كان الملوك الكشيون يسلكون سبيل المداراة حتى مع منافسيهم الآشوريين، والمثال على ذلك اضطرار ذلك الملك الكشي على عقد صفقة زواج سياسي عندما تزوج ابنة الملك الآشوري القوي «آشور ـ اوبالط» (1365 ـ 1330ق.م)، الذي هدف من وراء ذلك التدخل في شؤون البلاد البابلي، وقد واتته الفرصة حينما قتل زوج ابنته في انقلاب عسكري، فنصب على العرش البابلي أحد صنائعه من البابليين.

نهاية العهد الكشي والسلالات البابلية التي أعقبته:

بدأت الدولة الآشورية بالتعاظم والقوة منذ القرن الرابع عشر ق.م، وقد رأينا كيف أن أحد ملوكها الأقوياء المسمى «آشور ـ اوبالط» (1365 ـ 1330ق.م) بلغ من القوة درجة بحيث إنه تدخل في شؤون بلاد بابل وفرض على الملك الكشي «بورنا بورياش» الثاني مصاهرة سياسية، ونصب على البابليين ملكاً اختاره هو من بين مناصريه من بعد مقتل حميه السالف الذكر. ومما زاد في نمو الدولة الآشورية وقوتها في عهد هذا الملك أنه استطاع أن يقضي مع الحثيين على مملكة «ميتاني». وخلفه ملوك أقوياء في القرن الثالث عشر ق.م، مثل «شيلمنصر» الأول (1274 ـ 1245ق.م)، فازداد نفوذ الدولة الآشورية وتدخلها في بلاد بابل التي حل فيها الضعف وساءت أحوالها الداخلية. وزاد في الطين بلة قيام سلالة حاكمة قوية في بلاد عيلام، العدو المأثور لبلاد بابل، فأخذت تتجدد أطماعها وتحرشها في عهد ملكها القوي المسمى «اونتاش ـ كال» (المشهور بأنه شيد الزقورة في الموضع المسمى جوغة زنبيل بالقرب من مدينة سوسة). وهكذا وجد الملك الكشي «كاشتلياش» الرابع (1242 ـ 1235ق.م) نفسه بين عدوين قويين لا قبل له إزاءهما. وتطور تحرش العيلاميين إلى معركة اندحر فيها الملك الكشي، ولم يخلص بلاد بابل من الاحتلال العيلامي إلا هجوم الملك الآشوري القوي «توكلتي ـ ننورتا» الأول (1244 ـ 1208ق.م) عليها والسيطرة عليها، وظلت بلاد بابل تحت

الاحتلال الآشوري طوال سبع سنوات نصب في أثنائها الملك الآشوري ثلاثة ملوك كشيين تابعين له. وقد خلد هذا الملك الآشوري فتحه لبلاد بابل بتشييده مدينة جديدة دعاها باسمه «كار ـ توكلتي ـ ننورتا»[1]، وألفت عن هذه المناسبة قطعة أدبية تعرف باسم ملحمة توكلتي ـ ننورتا[2]. واستعاد البابليون من بعد السيطرة الآشورية استقلالهم السياسي على أثر موت الملك «توكلتي ـ ننورتا» السالف الذكر. ولكن إذا كان البابليون قد سلموا من التسلط الآشوري فإنهم لم يسلموا من عدوهم الآخر. فقد جاءت الضربة القاضية من العيلاميين الذين هجموا على بلاد بابل وقضوا على السلالة الكشية في حدود 1168 أو 1162ق.م، على يد الملك العيلامي المسمى «شوترك ـ نخنتي» (Shutruk - Nakhunte) الذي دمر العاصمة بابل ومدناً أخرى ونهبها ونقل إلى بلاد عيلام جملة غنائم من بينها عدد من الآثار الفنية مثل مسلة الملك الآكدي «مانشتوسو»، ومسلة «نرام ـ سين» المعروفة باسم مسلة النصر، كما أخذ مسلات من شريعة حمورابي الشهيرة[3]. والمرجح أن هذا الملك العيلامي نصب ابنه ملكاً أو حاكماً نائباً عنه على بلاد بابل، ولكن استعاد استقلال البلاد أحد الأمراء الكشيين المسمى «أنليل ـ نادن ـ آخي» غير أنه لم يحكم سوى ثلاث سنوات، إذ انتهى حكمه بغزوة أخرى قام بها الملك العيلامي المسمى «شيلاك ـ انشو شناك» في عام 1162ق.م، فواصل التدمير والنهب،

---

(1) تعرف بقايا هذه المدينة باسم تلول العقر، بالقرب من موضع العاصمة القديمة آشور (قلعة الشرقاط).

(2) راجع:

(1) E. Weidner, *Die Inschriften Tukulti - Ninurta's Iund seiner Nachfolger,* (959).

(2) Lambert in *Archiv für Orientforschung,* 18, (1957 - 8), 38ff.

(3) *ARAB,* I, 145.

(4) King, *The Bab, Chronicles.*

(3) حول وجود أكثر من مسلة واحدة من شريعة حمورابي، راجع الفصل الخاص بالشرائع في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وأضاف إلى الغنائم التي أخذها سلفه إلى العاصمة العيلامية سوسة، تمثال الإله «مردوخ»، وهذا هو الأسر الثاني لكبير آلهة بابل، وكان الأسر الأول كما ذكرنا أخذ الحثيين لتمثاله قبل نحو 433 عاماً. وهكذا سقطت السلالة الكشية أو سلالة بابل الثالثة بعد أن دام حكمها نيفاً وأربعة قرون.

لم يدم احتلال العيلاميين لبلاد بابل في غزوهم الثاني فترة طويلة، فبعد أن انسحب الملك العيلامي السالف الذكر ترك حامية من جنده فيها، فاغتنم الفرصة زعماء مدينة «أيسن» وأعادوا استقلال البلاد وطردوا الحامية العيلامية، وقامت في البلاد سلالة حاكمة في «أيسن»، هي سلالتها الثانية التي دعيت بسلالة بابل الرابعة، وقد حكم منها ستة ملوك دام حكمهم زهاء القرن الواحد (1162 ـ 1041ق.م)، وأولهم الملك المسمى «مردوخ ـ كابت ـ أخيشو». وقد ساعدت أحوال المنطقة، ولا سيما ضعف الدولتين المجاورتين، الآشورية والعيلامية، ملوك هذه السلالة على إعادة شيء من الازدهار والقوة في البلاد، حتى أن بعض ملوكها بلغ من القوة درجة بحيث إنه استطاع أن يتدخل في شؤون بلاد آشور الداخلية. وانتهز ملكها الرابع المسمى «نبوخذ نصر» الأول (1124 ـ 1131ق.م) ضعف بلاد عيلام فجهز حملة حربية لغزوها، ولكنه أخفق في محاولته الأولى كما أخبرنا بذلك نفسه[1]، ثم أحرز النجاح في حملته الثانية، وبرز في المعارك قائد ورد اسمه في أخبار هذا الملك، هو «رتي ـ مردوخ»، ولعله كان أحد القواد العيلاميين المنشقين. وقد خلف «نبوخذ نصر» خبر حملته هذه مدوناً على حجر حدود (كدورو)[2] ضمنه، بالإضافة إلى وصف أحداث المعركة وصفاً أدبياً ممتعاً، القطائع والامتيازات التي منحها إلى ذلك القائد جزاء شجاعته وبطولته. ولعله من المستحسن أن

(1) انظر:

G. Cameron, *History of Early Iran, P.132.*

(2) انظر ترجمة النص في:

L. King, *Bab. Boundary Stones,* (1912), no.IV, P.29ff.

نورد الفقرة التالية من ذلك النص على أنها نموذج للأسلوب الأدبي الشعري الذي يميزه: «من دير مدينة «آنو» المقدسة، قفز مسافة ثلاثين «بيرو» (ساعة مضاعفة)، وسار في الطريق في شهر تموز. احترقت النعال وتوهجت كأنها النار. وتوهجت أحجار الطريق كأنها الأفران الحامية. جفت الآبار، واختفى الماء من الأودية. وهنت وتراخت أقوى الخيول، وترنح حتى الأبطال الشباب. ورغم ذلك سار في الطريق قدماً، الملك المختار المصطفى والمسند من الآلهة. أجل حث الخطى نبوخذ نصر، الذي لا يضارعه أحد. . .». ونشبت المعركة بين البابليين والعيلاميين عند نهر «اولا» (نهر الكرخا الآن)، وحلت الهزيمة بجموع الملك العيلامي.

على أن هذا النصر على بلاد عيلام لم يخلص بلاد بابل من خطر الأعداء الآخرين وفي مقدمتهم الدولة الآشورية، حيث وقع على خلفاء «نبوخذ نصر» مواصلة الدفاع إزاء هذه الدولة، إذ تميزت فترة القرن الثاني عشر ق.م بانتعاش ملحوظ في أحوال الدولة الآشورية ابتداء من حكم الملك «آشور ـ دان» الأول (1179 ـ 1134ق.م) وبلغت أوج قوتها في عهد الملك «ثجلاثبليزر» الأول (1115 ـ 1077ق.م). ولكن حدث في الوقت نفسه اندفاع هجرات القبائل الآرامية على طوال نهر الفرات فاصطدمت بالآشوريين وتوقف اندفاعها بعض الوقت وانحصرت تجولاتها في بوادي الشام. على أن الأحوال تدهورت في الدولة الآشورية من بعد ذلك العاهل القوي. واستأنف الآراميون تدفقهم إلى جميع أنحاء الشرق الأدنى حتى بلغوا مشارف بلاد آشور نفسها، مما سنتناوله مرة أخرى في كلامنا عن تاريخ الآشوريين في الفصل الآتي. أما بالنسبة إلى بلاد بابل فقد استطاعت قبائل من أولئك الآراميين التغلغل فيها وانتزاع الحكم من سلالة بابل الرابعة، حتى أن الملك الثالث من بعد عهد نبوخذ نصر الأول المسمى «أدد ـ أبا ـ ادن» (1067 ـ 1046ق.م) كان من أصل آرامي. واستطاعت جماعات أخرى من الآراميين التوغل إلى المناطق الجنوبية من بلاد بابل وأسست فيها عدة مشيخات وإمارات، وكانت

الدولة الكلدانية (التي اشتهرت بملكها نبوخذ نصر الثاني) من أصل آرامي أيضاً.

لا يعلم كيف انتهى حكم سلالة بابل الرابعة ولعلها انهارت من جراء ضغط جماعات أخرى من الآراميين، وأعقبتها في حكم البلاد جملة سلالات لا نعرف عن الكثير منها سوى رقم تسلسلها أي ترتيبها بالنسبة إلى السلالات الأخرى وأسماء ملوكها بحسب ما جاءت في أثبات الملوك البابلية. وليس أدل على تدهور الأوضاع السياسية في البلاد من أن ثلاث سلالات أخرى تلت سلالة بابل الرابعة وحكمت ما بين عام 1038 و991ق.م وعدد ملوكها سبعة ملوك، هي السلالة الخامسة والسادسة والسابعة وتفاقم خطر المشيخات الآرامية في نهاية السلالة السابعة وحكم السلالة الثامنة التي أسسها «نابو - موكن - أبلي» (990 - 995ق.م) وخلفه سبعة ملوك آخرهم «نابو - شم - أشكن» (762 - 747ق.م)[1] وبلغ ضغط الآراميين في عهد هذا الملك درجة بحيث إنهم بلغوا ضواحي مدينة بابل وضيقوا الخناق عليها. ومن طريف ما جاء في الأخبار البابلية عن ذلك أن «الإله مردوخ وابنه الإله نابو» لم يستطيعا الخروج من معبديهما للاشتراك في أعياد رأس السنة الجديدة في شهر نيسان[2].

وتلا ذلك حكم السلالة التاسعة التي خصص لها ملك واحد اسمه «نابو -

---

(1) من مشاهير سلالة بابل الثامنة الملك المسمى «نابو - ابلا - ادن» (885 - 852) المعاصر للملك الآشوري الشهير «آشور ناصر بال الثاني» (833 - 859ق.م) ويبدو أن الملك الآشوري لم يتدخل في شؤون بلاد بابل، الأمر الذي فسح المجال أمام الملك البابلي للقيام ببعض المشاريع العمرانية لتعمير ما خربته القبائل الآرامية ولا سيما القبيلة المسماة «سوتو» وقد خلف لنا هذا الملك أخبار أعماله البنائية ولا سيما إعادة بناء معبد الإله «شمش» المسمى (اي - ببارا) في سبار. وخلد هذا الحدث في لوح حجري جميل نحت في أعلاه مشهد يصور الإله شمش ورموزه وقدامه الملك. راجع:
King, *Babylonian Boundary Stones* (1912), 120ff.

(2) L. King, *Bab. Chronicles*, II, 81ff.

ناصر» (746 ـ 734ق.م) وأصبحت بلاد بابل في عهده تحت السيطرة الآشورية في عهد الملك الآشوري الشهير «ثجلاثبليزر» الثالث (745 ـ 727ق.م) وبعد موت الملك البابلي ثار بعض القبائل الآرامية بزعامة الشخص المسمى «اوكن ـ زير» الذي جعلته أثبات الملوك البابلية مؤسس سلالة بابل العاشرة (732 ـ 730ق.م) وحكم من بعده «مردوخ ـ أبلا ـ ادنا» (721 ـ 711ق.م) وهو مردوخ بلادان المذكور في التوراة والذي سيرد ذكره مرة أخرى في حروبه مع الملك الآشوري «سرجون». وقد سبق للملك «ثجلاثبليزر» الثالث أن حكم بلاد بابل حكماً مباشراً حيث توج ملكاً عليها وعرف لدى البابليين باسم «پولو» (فول المذكور في التوراة). وبعد فترة من تفرد «مردوخ بلادان» بالحكم أعيدت بلاد بابل إلى السيطرة الآشورية في عهد الأسرة السرجونية، أي سرجون وأولاد سنحاريب وأسرحدون وآشوّر بانيبال.

وبما أننا سنوجز أحوال بلاد بابل في هذه الفترة من السيطرة الآشورية في الفصل التالي الخاص بتاريخ الآشوريين فلا حاجة إلى تكرار هذه الأحداث هنا، كما أننا سنخصص فصلاً لتاريخ بلاد بابل في عهد آخر دولة قامت فيها، هي الدولة الكلدانية أو سلالة بابل الحادية عشرة.

الفصل الثامن

موجز تاريخ الآشوريين

الاسم، الموطن، الأصل

اسم الآشوريين على ما هو واضح من التسمية، مأخوذ من النسبة إلى آشور، هي كلمة أطلقت على أقدم مراكز الآشوريين، أي عاصمتهم المسماة «آشور» وسمي بها أيضاً إلههم القومي «آشور». ولا يعلم بوجه التأكيد أيهما أصل للآخر. على أنه يجوز الوجهان فإن نسبة السكان والأقوام إلى المدن استعمال مألوف مثل الآكديين نسبة إلى مدينة «أكد» والبابليين نسبة إلى مدينة بابل، كما شاع أيضاً تسمية بعض المستوطنات والمدن بأسماء الآلهة. ومهما كان الأمر فإن كلمة آشور كانت تكتب بصيغة قديمة على هيئة «آ ـ اوسار» (A - usar) التي يبدو وكأنها كتابة سومرية رمزية. ولكن الكتابة المألوفة الأخرى كانت بهيئة آشور (A - shur) يتبعها العلامة المسمارية الدالة على الأمكنة «كي» (Ki). وأقدم ما جاءنا من هذه الصيغة من النصوص الآكدية المكتشفة في مدينة «نوزي» (وكان اسمها في العصر الآكدي «كاسر» (Ca - sur). وغلب في الاستعمال في الأدوار الآشورية الحديثة أن يضعف حرف الشين فيقال «آشور» (Ash-shur). وللتعبير عن بلاد آشور أي القطر الآشوري كانت الكلمة تصدر بالعلامة المسمارية الدالة «مات» (Mat)، أي بلاد، فيقال: «مات آشور كي»، وكثيراً ما تضاف ياء النسبة المضاهية لياء النسبة العربية للتعبير عن الشخص الآشوري والآشوريين فيقال «آشوريو». وجاء الاسم في المصادر الآرامية والعربية على هيئة «آثور»، و«آفور». واستعمل المؤرخ

اليوناني هيرودوتس المشهور (القرن الخامس ق.م) مصطلح بلاد آشور (Assyria) استعمالاً خاطئاً إذ أطلقه على بلاد بابل والبابليين، مع أن اسم بابل وبلاد بابل كانا معروفين لدى اليونان بالإضافة إلى الآشوريين.

إن التسمية التي ذكرناها كانت على ما يرجح هي التسمية التي أطلقها الآشوريون على أنفسهم عندما حلوا في مطلع الألف الثالث ق.م في الموطن الذي عرف باسمهم. ويوجد اسم آخر لموطن الآشوريين يرجح أن يكون الاسم الأصلي الأقدم منه، هو «سوبارتو» أو «شوبارتو» أو «سوبر» (Subir)[1] نسبة إلى القوم الذين استوطنوا هذا الجزء من شمالي العراق منذ أبعد العصور التاريخية قبل مجيء الآشوريين الساميين إليه. والمرجح أن الآشوريين قضوا على جماعات من أولئك السوباريين وأزاحوا جماعات أخرى منهم إلى سفوح الجبال والمناطق الجبلية المجاورة، واندمج من بقي منهم مع الآشوريين. وكان موطن السوباريين يشمل كذلك الأجزاء الشرقية والشمالية من دجلة. ومما لا شك فيه أن الآشوريين تأثروا بهؤلاء السوباريين في النواحي القومية واللغوية والدينية، حتى أن بعض الآلهة السوبارية بقي في العبادة الآشورية[2]. ولكن الآشوريين تحاشوا إطلاق تسمية «سوبارتو» على بلادهم وعلى أنفسهم باستثناء استعمالها في نصوص قليلة وبوجه خاص نصوص الفأل والتنجيم (ومعظمها نسخ عن أصول بابلية)[3]، ذلك لأن تلك التسمية كانت تنطوي على مدلول شائن، إذ إنها ترادف مصطلح العبد في اللغة الآكدية (Subrum) كما تشير إلى ذلك النصوص التي جاءتنا من العهد البابلي القديم، ومنشأ هذا المدلول أن موطن السوباريين كان من بين المصادر المهمة لجلب الرق على

---

(1) راجع فصل المقدمة الخاص بأقوام العراق القديمة.

(2) راجع:

Cah, I, Part 2, (1971), P.732.

(3) ذات المصدر النص 733.

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians*, (1944).

هيئة أسرى. على أن البابليين ظلوا يطلقون كلمة «سوبارتو» على الآشوريين وعلى موطنهم، ولا يستبعد أن يكون ذلك من باب الانتقاص. ويكفي أن نذكر مثالاً على ذلك الحادثة المؤرخ بها في حكم «دادوشا»، ملك «اشنونا» التي تذكر جيش الملك الآشوري «يسمح ـ أدد» الأول على أنه «جموع السوبارتو وخانة». ونجد «مردوخ ـ بلادان»، الملك البابلي (721 ـ 711ق.م) لا يسمي خصمه الملك الآشوري «سرجون» الثاني ملك الآشوريين بل ملك السوباريين، وجيشه جموع السوبارتو. ونذكر من نصوص الفأل التي اقتصرت فيها تسمية الآشوريين لبلادهم وأنفسهم على أنهم «سوبارتو» التقرير الذي قدمه أحد المنجمين الآشوريين إلى الملك الآشوري:

«إذا شوهد القمر في اليوم الثلاثين من شهر نيسان فإن بلاد «سوبارتو» سوف تتغلب على الاخلامو (إحدى القبائل الآرامية الكبرى) ويضيف ذلك المنجم موضحاً: «نحن السوباريين»[1].

الموطن:

سبق أن نوَّهنا بالموطن الذي حل فيه الآشوريون، وهو الجزء الشمالي الشرقي من العراق، حيث يخترقه دجلة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، والأراضي الكائنة على جانبيه من خط العرض السابع والثلاثين شمالاً. أما في الجنوب فلا توجد حدود طبيعية واضحة، ولعله يمكن اعتبار نهر العظيم الحد الجنوبي لذلك الموطن. ويحده من الشرق والشمال سفوح الجبال، بالإضافة إلى دجلة يمر في بلاد آشور الزابان، الزاب الأعلى والأسفل. وباستثناء السفوح الجبلية المحاددة لبلاد آشور شرقاً وشمالاً، لا توجد حدود طبيعية من الغرب إلى الخابور والفرات، أي القسم الذي عرف في جغرافية وادي الرافدين باسم ما بين النهرين أو الجزيرة. وكانت الحدود ما

---

(1) ذات المصدر النص 733.

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians*, (1944).

بين بلاد آشور وبين بلاد بابل إلى الجنوب تتغير تبعاً لقوة أو ضعف البلدين. والغالب على أراضي موطن الآشوريين أنها من النوع المتموج (Undulating)، وتتميز بالخصب ووفرة مصادر المياه، ولا سيما مياه الأمطار الكافية لزراعة الغلال الشتوية، وفيه سهول ووديان زراعية كبرى مثل سهلي أربيل وكركوك، بالإضافة إلى السفوح الجبلية الصالحة للزراعة. وبالنظر إلى أسلوب الري المطري (الديمي) وكون الأراضي متموجة فإن بلاد آشور لم تعان من مشاكل الملوحة في تربة أراضيها الزراعية كما عانت بلاد بابل، أي القسم الرسوبي من بلاد ما بين النهرين المعتمد في زراعته على الري.

أصل الآشوريين وهجرتهم إلى موطنهم:

الآشوريون كما ذكرنا مراراً من الأقوام السامية أي المتكلمين بإحدى لغات عائلة اللغات السامية، وهي السامية الشرقية، التي سميناها اللغة الآكدية، وفرعها الثاني اللغة البابلية حيث تفرعت الآكدية «الأم» إلى هذين الفرعين في مطلع الألف الثاني ق.م. ومع أن نظرية كون الجزيرة العربية مهد الساميين لا تزال النظرية المعول عليها، بيد أن الكثير ممن سموا بالساميين، ومنهم الآشوريون والأموريون وغيرهم لم يأتوا رأساً من الجزيرة إلى شمالي العراق، وإنما المرجح أنهم استوطنوا من بعد هجرتهم البعيدة في موطن آخر، في بوادي الشام وبادية العراق وما بين النهرين، كما كان الحال مع الأموريين، ثم حلوا في زمن ما من الألف الرابع أو مطلع الألف الثالث ق.م في موطنهم الذي حددناه. وقد ذهب بعض الباحثين، ولا سيما القدامى منهم، إلى أن الآشوريين نزحوا إلى موطنهم من الجنوب، أي من بلاد بابل في زمن ما لعله إبان الهجرة الأولى للساميين إلى وادي الرافدين، فكان الآكديون في الجنوب، ثم هاجر قسم من هؤلاء الساميين وهم الآشوريون إلى الشمال، وفي التوراة (سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر) ما يشير إلى ذلك. وقد سبق أن ذكرنا في أثناء كلامنا عن اسم الآشوريين أن هذا الفرع من الأقوام السامية وجد في الموطن الذي حل فيه أقواماً أخرى لا يعلم أصلها على وجه

التأكيد وفي مقدمتهم السوباريون والحوريون الذين أوردنا لهم تعريفاً موجزاً في كلامنا على أقوام العراق القديمة في الفصل الأول. وذكرنا كذلك أن بلاد آشور كانت تسمى أيضاً بلاد «سوبارتو»، وهو المصطلح الذي ظل مستعملاً في المصادر البابلية رغم تحاشي الآشوريين إطلاقه على مواطنهم[1].

الأدوار التاريخية في بلاد آشور:

سيكون كلامنا على التاريخ الآشوري بحسب الأدوار الآتية:

1 ـ عصور ما قبل التاريخ:

2 ـ دور سيطرة الدول البابلية إلى نهاية سلالة «أور» الثالثة (2500؟ ـ إلى حدود 2000ق.م).

3 ـ العصر الآشوري القديم (2000 ـ 1500ق.م).

4 ـ العصر الآشوري الوسيط (1500 ـ 911ق.م).

5 ـ العصر الآشوري الحديث (911 ـ 612ق.م).

آ ـ الأمبراطورية الآشورية الأولى (911 ـ 744ق.م).

ب ـ الأمبراطورية الآشورية الثانية (744 ـ 612ق.م).

وبضمنها السلالة السرجونية (721 ـ 612ق.م).

1 ـ عصور ما قبل التاريخ وعصر فجر السلالات:

إن ما ذكرناه في الفصل الخاص بعصور ما قبل التاريخ ينطبق بالدرجة الأولى على شمالي العراق، فقد رأينا كيف أن الأدوار القديمة من تلك العصور اقتصر وجودها على شمالي العراق ولا سيما العصور الحجرية القديمة

---

(1) انظر:

(2) Finkelstein, «Subartu and Subarians in Old Bab, Sources», in *JCS*, (1955), 1 ff.

والحديثة، دون السهل الرسوبي من وادي الرافدين، فنحيل القارئ على ذلك الفصل وكذلك الفصل الخاص بالعصر الحجري المعدني، ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى عصر فجر السلالات الذي تطرقنا فيه إلى أدوار بعض المدن الآشورية مثل مدينة آشور ونينوى في ذلك العصر.

2 ـ بلاد آشور في العهد الآكدي وعهد سلالة «أور» الثالثة:

دخلت بلاد آشور في العصر الآكدي الذي تلا عصر فجر السلالات ضمن النطاق السياسي والثقافي للأمبراطورية الآكدية (2371 ـ 2330ق.م)[1]. وقد وجدت نصوص كتابية في بلاد آشور من هذا العهد. ففي الطبقة السادسة من معبد الآلهة «عشتار» في نينوى وجدت أسطوانات حجرية بعضها منقوش بكتابة من عهد الملك الآكدي «نرام ـ سين»، وهي شبيهة بما وجد في مدينة «نفر» للملك نفسه[2]، وجاء في كتابه للملك الآشوري «شمسي ـ أدد» الأول من العهد الآشوري القديم التالي أن الذي شيد معبد عشتار في نينوى قبله كان الملك الآكدي «مانشتوسو»، بن سرجون، ووجد في مدينة آشور (قلعة الشرقاط) بعض النصوص القصيرة باسم هذا الملك الآكدي وهو ملقب بلقب «ملك العالم» (Shar Kishshati)[3]. وتكرر ورود اسم مدينة آشور بهيئة «آ ـ شور» (A-shur) في النصوص المكتشفة في مدينة «نوزي» (يورغان تبه، قرب كركوك، وكان اسمها في العصر الآكدي «گاسر»، كما ذكرنا)، وقد ذكرت آشور في هذه النصوص بأنها كانت تدار من جانب حكام تابعين إلى الدولة الآكدية. ويبدو من جماع هذه الإشارات أن مدينة آشور كانت مركزاً إدارياً مهماً من مراكز الأمبراطورية الآكدية في بلاد آشور. ووجدت في أثناء التنقيبات التي أجراها الألمان في المدينة (1904 ـ 1914) أبنية ضخمة من العصر الآكدي، من بينها بقايا قصر واسع بجوار «زقورة» الإله أنليل، وهو

---

(1) وبتقدير آخر 2334 ـ 2154ق.م.

(2) راجع .*CAH.*, I, Part 2, (1971), P 733

(3) راجع .*CAH.*, I, Part 2, (1971), P 733

شبيه بالقصر أو الحصن الضخم الذي شيده «نرام ـ سين» في تل براك، في أعالي الخابور. ووجد في أحد البيوت الكبيرة في المدينة نفسها رأس دبوس (Mace head) من حجر «الهمتايت» (حجر الدم)، منقوش بكتابة قصيرة باسم الملك الآكدي «رموش»، وهو ملقب بملك العالم. وعثر في نينوى في معبد الآلهة عشتار على رأس من البرونز المسبوك يعد من القطع الفنية الفريدة، وهو يمثل أما مؤسس السلالة سرجون أو حفيده «نرام ـ سين».

ولعل أوضح تأثير ثقافي خلفه العهد الآكدي في بلاد آشور ما تركته اللهجة الآكدية في اللغة الآشورية القديمة المشتقة منها، بحيث يصح القول إن اللغة الآشورية من العصر الآشوري القديم (الألف الثاني ق.م) كانت أقرب إلى الآكدية القديمة من اللغة البابلية في العصر البابلي القديم المضاهي للعصر الآشوري القديم، وهو العهد الذي يحدد لظهور الآشورية القديمة والبابلية القديمة من الآكدية «الأم». وكذلك يقال بالنسبة إلى احتفاظ أسماء الأعلام الآشورية بالصيغ الآكدية القديمة، الأمر الذي حمل بعض الباحثين على القول بأن الكثير من الآشوريين في العصر الآشوري القديم ينتمون إلى أصل أكدي[1]. وفي الوسع الوقوف على أثر الثقافة الآكدية والوجود الآكدي في بلاد آشور من صيرورة الملوك الآكديين مثلاً أعلى يحتذى بهم من جانب الملوك الآشوريين في العصور التالية. والغريب في الأمر في هذا الباب أن ما تركه العهد الآكدي من ذكرى طيبة لدى الآشوريين المتأخرين كان على العكس مما كان في بلاد بابل نفسها، موطن الآكديين، في الأدوار التي أعقبت العصر الآكدي. فقد نسب البابليون إلى الملوك الآكديين الآثام والمعاصي إزاء الآلهة ومعابدها، وعزوا سبب سقوط السلالة الآكدية إلى غضب الآلهة وانتقامها نتيجة تلك الآثام ولا سيما كبير الآلهة «أنليل» الذي سلط الأعداء على الملوك الآكديين، وحتى كهنة بابل عزوا سقوط الآكديين إلى غضب الإله مردوخ. ولعله يمكن تفسير هذه الظاهرة أنه بالإضافة إلى عمق أثر الثقافة الآكدية في

---

(1) ذات المصدر، ص 735.

الآشوريين، واحتمال أن الكثير من الآشوريين أو الطبقة الحاكمة منهم على الأقل من أصل أكدي، بأن بلاد آشور لم ينشأ فيها نظام دول المدن في عصورها القديمة على غرار ما ظهر في بلاد بابل في عصر فجر السلالات وكان النظام الأنموذجي المحبب لدى سكان السهل الرسوبي في جنوبي العراق، فانصبت النقمة على ملوك السلالة الآكدية لأنهم حطموا نظام دول المدن وأقاموا بدلاً منه نظام مملكة القطر الموحدة، وكانت بلاد آشور وملوكها الذين جاؤوا من بعد الآكديين على العكس من ذلك بحيث إن الملوك الآكديين اعتبرهم الآشوريون وكأنهم ملوكهم القدماء، كما أن فكرة المملكة الموحدة الواسعة والأمبراطورية وما يتعلق بذلك من ألقاب سياسية أكدية قد تمسك بها أكثر من واحد من الملوك الآشوريين. فمن الألقاب الآكدية التي احتفظ بها ملوك بلاد آشور «ملك جميع الأقطار» (Shar Kishat Matati) و «ملك العالم» (Shar Kishshati)، وكان أقدم من استعمله من الملوك الآشوريين الملك «شمسي ـ أدد» الأول، وهي ألقاب لم يستعملها البابليون كثيراً، باستثناء الملوك الكشيين الذين أخذوها من الآشوريين على ما يرجح.

انتهى العهد الآكدي كما مر بنا بهجمات جموع الكوتيين من المناطق الجبلية الشرقية. والمرجح كثيراً أن الكوتيين دمروا بلاد آشور ولم تقل فداحة التخريب عما وقع في بلاد أكد، كما تشير إلى ذلك الأدلة الآثارية. ففي المدن التي جرت فيها التحريات الأثرية في بلاد آشور مثل معبد الآلهة عشتار في آشور ومعبد الآلهة نفسها في نينوى وجدت آثار تدمير واسع في نهاية الطبقات الممثلة للدور الآكدي. والمرجح أن جموع الكوتيين اجتاحت أولاً بلاد آشور في طريق اندفاعها إلى الجنوب، حيث مركز الدولة الآكدية نفسها. على أننا لا نعرف كيف آلت إليه أحوال البلاد الآشورية من بعد ترك الكوتيين لها، هل استقلت وقام فيها حكم محلي وطني أو أنها دخلت تحت سلطة ملوك الكوتيين.

أما في عهد سلالة «أور» الثالثة الذي أعقب فترة حكم الكوتيين فإن

الأدلة المستقاة من كتابات ملوك هذه السلالة تشير إلى دخول بلاد آشور ومعظم المناطق الشرقية والشمالية الشرقية ضمن الأقاليم التابعة إلى أمبراطورية «أور»، وقد جاءتنا أسماء بعض الحكام والولاة التابعين لملوك أور السومريين، مثل الحاكم المسمى «زريقم»، حيث وجدت كتابة في معبد الآلهة «عشتار» في مدينة «آشور» تذكر اسم هذا الحاكم وخبر بنائه معبداً لهذه الآلهة الملقبة «سيدة القصر» (Belat Ekallim) من أجل حياة سيده «أمار - سين»، ملك أور[1].

(1) عن «زاريقم» انظر: Hallo, in *JNES*, (1956), 220

العصر الآشوري القديم

العصر الآشوري القديم، مثل مصطلح العصر البابلي القديم الذي تكلمنا عنه فيما سبق، يطلق على الفترة الزمنية المبتدئة من نهاية سلالة «أور» الثالثة، وينتهي بالنسبة إلى التاريخ الآشوري في حدود منتصف الألف الثاني ق.م، حيث يبتدئ ما يسمى بالعصر الآشوري الوسيط منذ 1500ق.م. وقد رأينا في كلامنا على العصر البابلي القديم أن أهم ما حدث فيه وميزه من الناحية التاريخية تدفق هجرات الأقوام السامية الغربية، أي الأقوام الأمورية إلى بلاد ما بين النهرين، وقد أصاب بلاد آشور نصيب من تلك الهجرات وإن لم يكن بالقدر الذي أصاب بلاد بابل. واستتبع عن تلك الهجرات النتائج نفسها بالنسبة إلى التركيب السكاني في الأجزاء الوسطى والشمالية من وادي الرافدين، من حيث ازدياد نسبة الأقوام السامية فيها بإضافة جماعات جديدة وكثيرة منهم إلى السكان القدامى من الساميين الذين كانوا قد جاؤوا في هجرات أقدم. واستطاع بعض الجماعات من هؤلاء الساميين الجدد في بلاد آشور أن يقيم كياناً سياسياً كما حدث في بلاد بابل. وبعبارة أخرى اغتنمت بلاد آشور فرصة زوال سلطة «أور» على أثر تحطيم أمبراطوريتها من جانب الأموريين والعيلاميين فاستقلت وقام فيها ملوك وحكام، ولكن لا يعلم ترتيب تسلسلهم، وقد حكموا على هيئة مجموعات في فترات زمنية كما جاء ترتيبهم في أثبات الملوك الآشورية.

ولعل أقدم مجموعة من أولئك الحكام الذين استقلوا في بلاد آشور في الشطر الأول من هذا العصر، أي من بعد نهاية سلالة أور الثالثة يتصدرها اسم ورد بهيئة «سوليلي» (Sulili) ابن «أمينو» (Amino)، ثم يأتي من بعده «كيكيا»

(Kikkia) الذي ركز في أثبات الملوك الآشورية وفي كتابات الملكين الآشوريين «آشور - ريم - نشيشو» و «شيلمنصر» الثالث على أنه هو الذي شيد أسوار مدينة آشور. ثم يليه اسم الملك «بوزر - آشور» الأول الذي يرجح أنه أسس سلالة حاكمة مهمة، وقد ذكره شيلمنصر السالف الذكر بأنه كان من بين الملوك القدامى الذين أقاموا أسوار المدينة. ومن ملوك هذه الفترة الذين خلفوا «بوزر - آشور» الملك المسمى «شالم - آخوم»، ويليه على ما يرجح الملك «ايلوشوما» الذي حكم في حدود 1962 - 1942ق.م، وأعقبه في الحكم ابنه المسمى «ايريشم» الأول (الحارث) (1941 - 1902؟) وجاءت إلينا من هذين الملكين أخبار مدونة عن نشاطهما البنائي في مدينة آشور، منها تشييد معابد الآلهة «آشور» و «أدد» وعشتار[1]. وبلغ «ايلوشوما» مبلغاً من القوة استطاع فيه أن يدخل في معمعة النزاع ما بين دول المدن في بلاد بابل، فقد غزاها في عهد ملك سلالة «أيسن» المسمى «اشمي - دگان» (1953 - 1935)[2]. والمرجح أنه في عهد الملكين الآشوريين «ايلوشوما» و «ايريشم» ازدهرت المستعمرة التجارية الآشورية في بلاد الأناضول، وسنفرد وصفاً خاصاً بها بعد قليل. وجاء من بعدهما في حكم بلاد آشور الملك المسمى «ايكونم» ثم سرجون الأول الذي بلغت في عهده الدولة الآشورية اتساعاً ملحوظاً. ويعقب عهد هذا الملك فترة غامضة في تاريخ بلاد آشور في هذا العهد، وعانت الضعف والارتباك حتى أن إحدى الدويلات في بلاد بابل، وهي مملكة اشنونا، فرضت سلطتها عليها. وتذكر أثبات الملوك الآشورية من بين الملوك الذين حكموا في أثنائها الملك «نرام - سين»، الذي يرجح أن يكون «نرام - سين» مملكة اشنونا نفسه. ثم قامت سلالة حاكمة أخرى يرجح كثيراً أن بعض الأمراء من الساميين الغربيين هم الذين أسسوها، وظهر منها الملك الشهير «شمسي - أدد» الأول (1814 - 1782ق.م)، الذي يبدو أنه اغتصب السلطة من أخيه. وقد رأينا من كلامنا على دولة ماري في العهد البابلي القديم كيف استطاع هذا الملك القوي

---

(1) انظر: *ARAB*, I, 25 - 38.

(2) انظر: Edzard, *ZZB*, 90 ff.

أن يقيم له مملكة واسعة من بعد توطيد سلطته في بلاد آشور، حيث اتسعت إلى أمبراطورية شملت منطقة الفرات الأوسط ومركزها مدينة «ماري» الشهيرة، كما ضمت أجزاء مهمة من بلاد الشام، وقسمها، كما مر بنا، بين ولديه «اشمي ـ دگان» و «يسمح أدد». وكان يعاصر حمورابي الشهير. وأعقبه في الحكم ابنه «اشمي ـ دگان» (1780 ـ 1741) الذي حكم فترة طويلة من الزمن. وانتهى استقلال بلاد آشور من بعد حكمه إذ استطاع الملك البابلي «حمورابي» أن يضمها إلى أمبراطوريته الواسعة وظلت تحت السيطرة البابلية إلى أن استقلت في الفترة التي تلت عهد حمورابي، وسنواصل إيجاز تاريخ بلاد آشور في العصر الآشوري الوسيط من بعد إيجاز تاريخ المستوطنات الآشورية في بلاد الأناضول.

المستوطنات الآشورية في بلاد الأناضول:

بدأت الصلات، ولا سيما الصلات التجارية والحضارية، ما بين حضارة وادي الرافدين وبين بلاد الأناضول منذ عصور ما قبل التاريخ وازدادت اتساعاً في عصر دول المدن أو عصر فجر السلالات للمتاجرة بالمواد المهمة مثل الصوف والفضة وغيرها. وقد سبق أن مر بنا في أثناء كلامنا على الدولة الآكدية ذكر الأخبار التي تشير إلى اتصالات أوسع تطورت على ما يرجع إلى إرسال الحملات الحربية من جانب الملك سرجون وخلفائه. وقد نوَّهنا بالقصة الطريفة المتعلقة بالملك سرجون نفسه، المعنونة «ملك الحرب» أو «ملك النزال»، والتي تروي كيف أن هذا الملك أرسل حملة حربية إلى تلك البلاد لنجدة جالية من التجار الآكديين استغاثت به لرفع الاضطهاد الذي كانت تلاقيه من أهل البلاد. وتشير القصص المماثلة والأخبار التاريخية الأخرى إلى تسلط الملك «نرام ـ سين»، حفيد سرجون على بلاد الأناضول. والجدير بالذكر عن هذه القصص أن نسخاً منها اكتشفت في العاصمة الحثية «حاتوشا» أو «حاتوشاش» (بوغاز كوي) من عهد الملك الحثي «حاتوشيليش»[1].

---

(1) Guternock, in *JNES*, (1964), 1 ff. كذلك CAH., I, Part 2, (1971), 707.

واتسعت الصلات ما بين آشور وبين بلاد الأناضول في العصر الآشوري القديم، موضوع كلامنا. فقد قامت فيها جملة مستوطنات أو مستعمرات تجارية من التجار الآشوريين، في الأجزاء الشرقية من تلك البلاد التي دعيت في العصر الهلنستي (القرن الثالث ق.م) باسم «كبدوكية»، ولا يعلم بوجه التأكيد متى أسس الآشوريون تلك الجاليات التجارية، بيد أن أقدم أخبار مدونة وصلت إلينا عنها ترجع في تاريخها إلى زمن الملك الآشوري «ايريشم» الأول (1941 ـ 1902)[1] الذي مر ذكره. وقد اشتهر من هذه المراكز المدينة التي ورد اسمها في النصوص المسمارية المكتشفة في «كول تبة» بهيئة «كانيش»، وقد وجدت في هذا الموضع ألوف عديدة من ألواح الطين المسمارية[2]. كما اكتشفت مراكز أخرى لأولئك التجار الآشوريين مثل الموضع الأثري المسمى «على شار» وفي موضع العاصمة القديمة «حاتوشا» أو «حاتوشاش»، السالفة الذكر. ويؤخذ من الوثائق المكتشفة في هذه الأماكن الأثرية أن تلك المستوطنات الآشورية مرت بطورين في تاريخها: (1) الطور الأول القديم، ولعله بدأ منذ مطلع العصر الآشوري القديم، ويمكن تحديده من زمن الملك الآشوري «ايريشم» إلى حدود 1800ق.م، أي قبيل مجيء الملك «شمسي ـ أدد» الأول إلى العرش الآشوري، ودام زهاء القرن الواحد. (2) أما الطور الثاني فيبدأ من حكم ذلك الملك، أي «شمسي ـ أدد» وحكم

---

(1) وهناك تقدير آخر لحكم هذا الملك في 1906 ـ 1867ق.م.

(2) يقع الموضع الأثري المسمى «كول تبة» كانيش القديمة بالقرب من مدينة قيصرية (عند قرية قرة هيوك). وقد تحرت في الموضع بعثات أثرية مشتركة من الأتراك والجيكيين، وكشفت عن مساكن أولئك الآشوريين، ووجدت مجموعات كثيرة من الوثائق التجارية والرسائل المتبادلة. حول نتائج هذه التنقيبات انظر:

1 - S. Lloyd, *Early Anatolia.*

2 - *A. Goetze, Klein Asien* (1957).

3 - P. Garelli, Les Assyriens en Capadoce, (1963).

4 - *Inscriptions Cueiformes du Kul Tepe:* Hrozny, vol. I, (1952). Matoush, vol. II, (1963).

5 - H. Lewy, in *Orientalia,* 33, (1964). 181 ff.

ولديه «يسمح - أدد» و «اشمي - دگان»، وينتهي باستعادة استقلال مدينة ماري على يد ملكها الوطني «زمري - لم». على أن نشاط هذه المستعمرات على ما يبدو استمر من بعد ذلك، ولكن بأشكال مختلفة، حيث زال النفوذ السياسي الآشوري وحل محله ظهور المملكة الحثية القديمة، فأصبحت تلك المستعمرات تحت سلطة هذه المملكة.

وكانت «كانيش» (كول تبه)، مركز السلطة الآشورية في شرقي الأناضول، على هيئة دولة مدينة تتبعها جملة مراكز أخرى في الأنحاء المختلفة من الأناضول. وكانت بلاد الأناضول نفسها في هذه الفترة مؤلفة من عدة دويلات مدن يحكمها أمراء من أهل البلاد، كانوا على ما يبدو على علاقات سلمية مع المستعمرات الآشورية، ولا سيما عندما لا يعرقل أولئك الأمراء نشاط التجار الآشوريين. وقد جاءتنا نماذج من المعاهدات التي كانت تبرم ما بين السلطات الآشورية وبين تلك الدويلات الوطنية، وفيها أخبار المصاهرات والمساعدات العسكرية ما بين الطرفين. وصادف زمن قيام هذه المستوطنات الآشورية مجيء هجرات من الأقوام «الهندية - الأوروبية» إلى الأناضول، وقد أطلق عليهم اسم الحثيين. أما الأقوام الأصلية قبل مجيء هذه الهجرات والذين يطلق عليهم اسم «خاتيين» أو «حاتيين» فليس من الأصل الهندي - الأوروبي. واستطاع الباحثون أن يقسموا الحثيين، أي الأقوام «الهندية - الأوروبية» في الأناضول بحسب قدم هجراتهم ولغاتهم إلى ثلاث طبقات[1] أقدمها القوم الذين سموا «لوويون» (Luwian) الذين يرجح أنهم كانوا معاصرين

(1) اللوويون، كما ذكرنا، أقدم الأقوام الهندية الأوروبية في آسية الصغرى، وهم الذين حطموا حضارة العصر البرونزي التي كان عليها الأقوام الأصليون، أي «الخاتيون»، ثم جاء من بعدهم «الباليون» (Palaic) وأعقبهم «النيسيون» (Nesite). واستوطن اللوويون في الجهات الغربية من كيليكية، في الأجزاء الساحلية، والباليون أو الفاليون في مرتفعات هذا الإقليم، واستطاع «النيسيون» بعد عدة قرون أن يغزوا أواسط الأناضول، شرقي أنقرة، وهو القطر الذي سماه أهله الأصليون «خاتي»، فاستعملوا هذه التسمية وعرفوا باسم الحثيين.

إلى المستوطنات الآشورية، كما يستدل من أسماء الأعلام الواردة في الألواح المسمارية التي جاءت إلينا من التجار الآشوريين[1].

ويستدل من الوثائق التي نوّهنا بها أن عائلات وأسراً آشورية كثيرة أسست لها مراكز تجارية في الأناضول وكانت من الطبقات المثرية الأرستقراطية، والغالب أن عميد الأسرة كان يقيم في بلاد «آشور» ويدير شؤون أعماله التجارية في كبدوكية وغيرها من الأقاليم وكلاؤهم من أفراد أسرته حيث المراسلات كانت مستمرة ما بينه وبين هؤلاء الوكلاء، وقد خلف لنا أولئك التجار مجموعات مهمة من تلك الرسائل. وكثيراً ما كان يتم التزواج ما بين التجار الآشوريين وبين السكان الوطنيين. وشيد الآشوريون عدة معابد لعبادة آلهتهم القومية على رأسها كبير الآلهة «آشور». أما لغتهم المدونة فتغلب عليها مسحة القدم، بحيث إنها كانت أقرب اللهجات إلى اللغة الآكدية القديمة.

سمى التجار الآشوريون الهيئة التي كانت تحكمهم في آسية الصغرى بالمصطلح الآكدي «كاروم» (Karum) الذي يعني بالدرجة الأولى مركزاً تجارياً أو ميناءً. وظهرت عدة مراكز من هذا النوع. وقد خصص لحكومة «الكاروم» بناء خاص يقع في الغالب بالقرب من قصر الحاكم. وكانت وظائف «الكاروم» متنوعة متعددة، فكان بمثابة مجمع التجار أو ما يصطلح عليه الآن «الغرفة التجارية»، كما كان يقوم بوظيفة المحكمة ومجلس الشورى. وكان يترأسه رئيس يعاد انتخابه كل عام، كما وكان يجمع الضرائب والمكوس والكمارك من القوافل التجارية الداخلة وكان يتبعه موظفون خاصون لمراقبة طرق القوافل ومصادرة أموال التجار المهربين. ولهذا الغرض كان للكاروم مخازن للبضائع التجارية. وبالإضافة إلى هذه الأعمال المختلفة كان «الكاروم» يقوم كذلك بوظيفة المصرف للمداينات والقروض والشؤون المصرفية الأخرى.

ونشطت القوافل التجارية التي كانت تنقل البضائع وكانت الحمير

---

(1) نفس المصدر السابق.

والعربات وسائل النقل الرئيسية، فكانت دائبة التنقل ما بين بلاد آشور وبين تلك المراكز التجارية. وكانت الفضة والذهب والنحاس والأحجار الثمينة في مقدمة قائمة السلع المستوردة من الأناضول إلى بلاد آشور التي كانت تصدر المنسوجات الصوفية والقصدير أو الرصاص. أما القصدير[1] فالمرجح أن الآشوريين كانوا يجلبونه من آذربيجان، وكان الطلب عليه كثيراً في بلاد الأناضول لخلطه بالنحاس في صناعة البرونز.

---

(1) لم يعين بالضبط معنى الكلمة الآكدية «انكم» (Annakum) (المضاهية للكلمة العربية أنك)، فقد عدها جماعة من الباحثين أنها القصدير (Tin) واعتبره البعض الآخر معدن الرصاص. ولعل تعيينه بالرصاص أقرب إلى الصحة بالنظر إلى وجود كميات كبيرة من خامات الرصاص في وادي الزاب الأعلى، في منطقة العاصمة القديمة (آشور). ووجدت أدوات كثيرة ومتنوعة مصنوعة من الرصاص في آشور و «كول تبة» (موضع المستعمرة التجارية الآشورية كانيش)، في حين أنه لم يعثر على بقايا مصنوعة من القصدير. وأن الكميات الكبيرة من الفضة مما استعمله الآشوريون تشير إلى أن أهم استعمال للرصاص عندهم كان لاستخراج الفضة حيث توجد خامات من الرصاص تحتوي على نسب من الفضة يمكن استخلاصها بالطريقة المعروفة باسم (Cuppelation) (وفحواها أكسدة الرصاص الذي يتأكسد أسرع من الفضة). وإلى هذا فإن الرصاص كان يستعمل أيضاً في استخراج الفضة من خامات النحاس. حول هذا الموضوع راجع:

CAH,I,2, (1971), 725.

Laessoe, *The People of Ancient Assyria* (1963).

العصر الآشوري الوسيط

يحدد زمن ما سميناه بالعصر الآشوري الوسيط من نهاية العصر الآشوري القديم الذي أوجزنا الكلام عنه، أي من حدود القرن الخامس عشر ق.م وينتهي في أواخر القرن العاشر ق.م، حيث يبدأ العصر الآشوري الحديث بحكم الملك «أدد ـ نيراري» الثاني (911 ـ 891ق.م)، فيكون العصر الآشوري الوسيط قد دام زهاء أربعة قرون، وكان يعاصر العهد البابلي الوسيط الذي شغل معظمه بحكم السلالة الكشية أو سلالة بابل الثالثة كما بينا.

لقد سبق أن ذكرنا أن بلاد آشور استقلت من بعد سيطرة حمورابي عليها وقام فيها عدة ملوك أو حكام في عهد خلفاء حمورابي الذين لم يستطيعوا على ما يبدو الاحتفاظ بالسيطرة البابلية، وقد وردت أسماؤهم في أثبات الملوك الآشورية ولكن لا يعرف تسلسل حكمهم على وجه التأكيد، كما لم يصل إلينا من أخبارهم أشياء يعتد بها، نذكر منهم الملك المدعو «بوزر ـ سين» و «آشور ـ دكل»، ثم خمسة ملوك آخرين منهم الملك «اداسي» الذي يرجح أنه حكم في حدود القرن السابع عشر ق.م، وأنه كان مؤسس سلالة حاكمة في مطلع هذا العصر. ومنهم أيضاً الملك المسمى «ايريشم» الثالث الذي يرجح أنه حكم في القرن السادس عشر ق.م، وخلفه في الحكم على ما يرجح من الملوك المذكورين في أثبات الملوك الآشورية «شمسي ـ أدد» الثاني، و «اشمي ـ دگان» الثاني و «شمسي ـ أدد» الثالث و «آشور ـ نيراري» الأول أو «بوزر ـ آشور» الثالث الوارد اسمه في التاريخ «التعاصري» (Synchronistic history)[1].

(1) خلف بعض هؤلاء الملوك نصوصاً قليلة متعلقة بالبناء، انظر: *ARAB*, I, 57 - 59.

وقد انتهت هذه الفترة من تاريخ الآشوريين الوسيط بنكبة فادحة حلت في بلاد آشور، إذ استطاعت دولة «ميتاني» (أو خانيكلبات في ما بين النهرين العليا) فرض السيطرة عليها، في القرن الخامس عشر ق.م، وظلت تحت السيطرة الميتانية على الرغم من قيام عدة ملوك أو حكام فيها، فقد كانوا ضعفاء وخاضعين إلى نفوذ تلك الدولة. ويمكن تخصيص الاثني عشر ملكاً ابتداء من الملك «بوزر ـ آشور» الثالث إلى قيام الملك الشهير «آشور ـ اوبالط» الأول بأنهم حكموا في تلك الفترة المظلمة من تاريخ بلاد آشور التي يمكن وضع نهايتها في العام 1365ق.م، وهو العام الذي جاء فيه إلى العرش الآشوري الملك القوي «آشور ـ اوبالط» الأول السالف الذكر.

ولكي نقف على سير الأحداث في بلاد آشور في تلك الفترة فلا معدى لنا من أن نكرر بعض ما ذكرناه عن الدول الكبرى التي قامت في الشرق الأدنى في حدود ذلك الزمن. ففي مصر قامت من بعد طرد الهكسوس منها في حدود 1580ق.م مملكة قوية اتسعت إلى أمبراطورية ضمت إليها بلاد الشام حتى وادي الفرات الأعلى، ودامت زهاء خمسة قرون (1580 ـ 1085ق.م)، وقد سبق أن نوَّهنا بالعلاقات الدولية في زمن هذه الأمبراطورية في أثناء كلامنا على حكم الكشيين في بلاد بابل، وذكرنا تلك الوثائق الشهيرة التي عرفت باسم رسائل «العمارنة» وعصر العمارنة (نسبة إلى الموضع المسمى العمارنة في مصر الوسطى، حيث عاصمة الفرعون المصري امنوفس الرابع المعروف باسم أخناتون أيضاً). وظهرت في حدود هذا الزمن الأمبراطورية الحثية في الأناضول التي نازعت فراعنة مصر على بلاد الشام وجهات الفرات الأعلى. فنشبت من جراء ذلك حروب طويلة ما بين الطرفين دامت زهاء القرن الواحد، ولما لم تحرز إحداهما على الأخرى نصراً حاسماً لجأتا إلى مبدأ التعايش السلمي، وأبرمت معاهدة بين الفرعون «رعمسيس» الثاني (1290 ـ 1224 ق.م) وبين الملك الحثي «حاتوسيليس» الثالث تضمنت إحلال السلام والصداقة ما بين الدولتين. وقد دونت نسخ من هذه المعاهدة باللغة البابلية والفرعونية القديمة واللغة الحثية[1].

(1) انظر ترجمة هذه المعاهدة في: *ANET*, 199 ff.

لقد حالت هاتان الدولتان المعظمتان دون توسع المملكة الآشورية فانكمشت داخل حدودها وهي تترقب الأحداث والفرص المواتية وتدرأ عنها الأخطار الخارجية، وكان ينازعها، كما مر بنا، الدولة الكشية في بلاد بابل، ولم تخل العلاقات ما بين الطرفين من منازعات وحروب ومهادنة وإبرام المعاهدات أيضاً. وتعرض الآشوريون إلى خطر آخر نشأ من قيام دولة «ميتاني» التي سبق ذكرها، وكانت غالبية سكانها من الأقوام الحورية (الحوريين) تتزعمهم طبقات محاربة أرستقراطية من الآريين، وكانت عاصمتها المدينة المسماة «وشوكنى» (Washukkanni)[1]، وعرفت المملكة أيضاً ولا سيما في المصادر الآشورية باسم «خانيگلبات»، وقد بلغت من القوة درجة بحيث إنها بسطت نفوذها على بلاد آشور فترة دامت زهاء قرن ونصف القرن كما ذكرنا ذلك من قبل وكان الملوك الآشوريون الذين حكموا في أثنائها يدفعون الجزية إليها. ونشأت بين دولة «ميتاني» وبين فراعنة مصر في عهد الفرعون «طوطمس» الرابع (1413 ـ 1405ق.م) علاقات تحالف وصداقة استمرت إلى زمن الفرعون «امنوفس» الثالث (1405 ـ 1367ق.م) الذي تزوج من ابنة الملك الميتاني «شوتارنا» (راجع الرسالة رقم 29 من رسائل تل العمارنة). ولكن اضطربت الأوضاع الداخلية في مملكة ميتاني في عهد الفرعون «أمنوفس» الرابع (1367 ـ 1350ق.م)، وهو المعروف أيضاً باسم أخناتون، صاحب ثورة التوحيد الدينية في مصر، حيث نشب الصراع ما بين أفراد العائلة المالكة من الميتانيين، وتدخل الحثيون في شؤونها. وصادف تردي أوضاع الميتانيين أن ظهر في بلاد آشور ملك قوي هو «آشور اوبالط» الأول (1365 ـ 1330ق.م) الذي لم يقتصر دهاؤه على تخليص بلاده من

---

(1) كان يظن أن موقع العاصمة «وشوكني» في التلول المسماة «فخرية» الآن، على الخابور بالقرب من رأس العين. ولكن التحريات الأثرية الحديثة (الألمانية في عام 1940 والأمريكية في 1955 ـ 1956) لم تؤيد هذا التعيين. حول المعاهدة المبرمة ما بين الحثيين والمصريين انظر: **Rowton, «The Boundary Treaty Between Ramses II and Hattushilish III». in *JCS*, X111, 1 ff.**

النفوذ الميتاني بل إنه أسهم في إسقاط تلك الدويلة وإزالتها من الوجود، منتهزاً الأوضاع الدولية وعلاقاته المزدوجة مع المملكتين المتعاديتين، مصر وبلاد الحثيين، يضاف إلى ذلك ضعف الدولة المصرية في عهد الفرعون «أخناتون»، السالف الذكر الذي سببت ثورته الدينية إضعاف المملكة في الداخل والخارج. واستطاع آشور اوبالط أيضاً أن يتدخل في شؤون بلاد بابل عن طريق المصاهرة، على ما بينا ذلك في كلامنا عن الكشيين. ويمكن القول إن هذا الملك الآشوري القوي وضع أسس الدولة الآشورية القوية، وحدد سياستها العامة إزاء الأخطار الخارجية التي ظلت تهددها في جميع عهودها، والتي يمكن حصرها في ثلاث جبهات: (1) الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية حيث الأقوام الجبلية الشديدة المراس مثل الكوتيين واللولوبو وغيرهم. (2) الجبهة الغربية والشمالية الغربية حيث الأقوام السامية القاطنة في بوادي ما بين النهرين، وكانت هذه جبهة حيوية للآشوريين، لأنها كانت واسطة الاتصال البري بموانئ البحر المتوسط. وسنرى كيف تفاقمت الأخطار على الآشوريين من هذه الجبهة إبان اندفاع القبائل الآرامية وتهديدها للوجود الآشوري نفسه. (3) وإلى الجنوب كانت بلاد بابل التي ما انفكت تنازع الآشوريين على توسعهم صوب الجنوب، لما في ذلك من خيرات وموارد واتصال بالخارج عن طريق الخليج، ويجاور بلاد بابل العيلاميون في الأجزاء الجنوبية من إيران (خوزستان) وكانوا مصدر خطر جسيم على البابليين والآشوريين على السواء.

وظل الآشوريون يقظين إزاء تلك الأخطار المهددة لكيانهم، وكانوا يكتسبون الخبرات العسكرية من تعرضهم إلى تلك التحديات الخارجية والداخلية، بحيث إنهم خرجوا من ذلك الامتحان شعباً محارباً قوياً، واستغرقت عملية التحول هذه جميع العصر الآشوري الوسيط، موضوع كلامنا، ولعله يصح مقارنة هذا العصر الآشوري الوسيط بأحوال الدولة الرومانية في عصرها الجمهوري، من حيث انشغال الرومان بأمر المحافظة على كيانهم إزاء الأخطار الناجمة من الأقوام المجاورة، واكتسابهم الحنكة والقوة إزاء مثل تلك التحديات الشديدة.

خلفاء آشور اوبالط:

خلف هذا العاهل القوي عدد من الملوك استمرت الدولة الآشورية في عهود معظمهم في النمو والتعاظم، وكان بعضهم من طراز «آشور ـ اوبالط»، كما أنهم نهجوا على نهجه من حيث توطيد الأسس التي قامت عليها أولى أمبراطورية آشورية، نخص بالذكر منهم الملك الرابع المسمى «شيلمنصر» الأول (1274 ـ 1245ق.م) الذي كان من أعاظم ملوك العصر الآشوري الوسيط، وقد اشتهر بفتوحه الخارجية وتقويته كيان الدولة، وخلف له شهرة واسعة لدى الملوك الذين جاؤوا من بعده، كما وصلت إلينا منه نصوص تاريخية عن حملاته الحربية إلى الجهات الشمالية والشمالية الشرقية، ولا سيما على الكوتيين. ونقرأ في هذه الأخبار إرسال حملة عسكرية إلى بلاد أرمينية (اورارطو) لأول مرة. كما أنه غزا موطن الحوريين، وجهات ما بين النهرين العليا (خانيكلبات) وورد في أخبار حملته هذه ذكر إحدى القبائل الآرامية الكبيرة باسم «احلاموا» أو «اخلامو» (ولعل معناها الأحلاف)(1)، ومن أعمال شيلمنصر المهمة التي ذكرتها أخبار الملوك الذين أعقبوه تأسيسه عاصمة أخرى جديدة للمملكة خصصها لتكون بالدرجة الأولى عاصمة عسكرية. وقد سماها «كالحو» (أو كالخو وهي كالح المذكورة في التوراة)، وتعرف بقاياها الآن باسم «نمرود» على بعد نحو (22) ميلاً جنوب الموصل. وقد أعاد بناءها ووسعها الملك الشهير «اشور ناصربال» الثاني (883 ـ 859ق.م)، وسنتطرق إلى ذلك فيما بعد.

وخلف شيلمنصر السالف الذكر ملك كفوء هو ابنه المسمى «توكلتي ـ ننورتا» الأول (1244 ـ 1208ق.م)، وكان ملكاً قوياً استمر في عهده تعاظم الدولة الآشورية، واشتهر من بين أعماله الحربية في غزوه لبلاد بابل في عهد ملكها الكشي «كاشتلياش» الرابع، وضمها إلى مملكته طوال سبع سنوات حكم

---

(1) انظر المصدر المرموز له بـ ARAB, 1, 116.

في أثنائها ثلاثة ملوك تابعين. وقد خلد «توكلتي ـ ننورتا» هذا الحدث بتأسيسه مدينة جديدة قرب العاصمة آشور سماها باسمه «كار ـ توكلتي ـ ننورتا» أي مدينة أو حصن «توكلتي ـ ننورتا»[1].

انتهى حكم الملك «توكلتي ـ ننورتا» باغتياله وهو محاصر في قصره إثر انقلاب دبره ابنه المسمى «آشور ـ نادن ـ أبلي» مع بعض الأمراء والقواد. وأعقب ذلك فترة ضعف حلت في المملكة الآشورية انكمشت في أثنائها وتقلصت حدودها، وقد دامت زهاء القرن الواحد (من حدود 1208 إلى 1115ق.م) وحكم فيها تسعة ملوك ضعفاء إلى بداية حكم «تجلاثبليزر» الأول (1115 ـ 1077ق.م).

ثجلاثبليزر الأول:

حصل بعض التحسن والانتعاش في أحوال البلاد الآشورية في عهد آخر ملوك الفترة المظلمة التي نوَّهنا بها، وهو الملك «آشور ـ ريش ـ ايشى» أبو «ثجلاثبليزر» الأول، الذي اضطلع حالما تبوأ عرش المملكة بأعمال جسيمة، وفي مقدمتها درء الأخطار المحدقة بها من الجبهات الثلاث التي نوَّهنا بها. فمن الأنحاء الشمالية زحفت من آسية الصغرى جموع قوم الـ «مشكى» (الذين يرجح بأنهم الأفريجيون الوارد ذكرهم في المصادر الكلاسيكية)، ومن الغرب بدأت القبائل الآرامية المتمركزة على طوال الفرات الأعلى في عبور هذا النهر والاتجاه إلى تخوم بلاد آشور نفسها. وفي الجبهة الجنوبية انتهزت بلاد بابل في عهد سلالتها الرابعة أحوال الضعف في بلاد آشور فمدت حدودها شمالاً على حساب الدولة الآشورية إلى قرب الزاب الأسفل. وعلى هذا تتجلى مقدرة الملك الجديد «ثجلاثبليزر» الأول في مواجهته تلك الأخطار الجسيمة

---

(1) تسمى بقاياها الآن تلول (العقر) شمال آشور بنحو ميل واحد، على الضفة اليسرى من دجلة، وقد نقبت فيها البعثة الأثرية الألمانية التي اشتغلت في آشور:

Andrae, *Das Wiedererstandene Assur.*

والتغلب عليها، ولم يكتف بذلك بل إنه عكس الآية فانتقل من موقف الدفاع إلى الهجوم، فدحر جموع الـ «مشكى» وأوقع فيهم المذابح، وهاجمهم في عقر دارهم وعرج من بعد ذلك على أرمينية ونصب له تمثالاً في منطقة بحيرة «وان»، وأوغل أحد جيوشه في جبال «زاجروس» إلى الإقليم الذي ورد ذكره باسم «مصري». كما أن جيوشه استطاعت أن ترد القبائل الآرامية إلى ما وراء الفرات وطاردتهم إلى معاقلهم في بوادي الشام ولا سيما في منطقة تدمر، وقد ورد اسم هذا الموضع في كتاباته[1]. والجدير بالذكر عن معاركه مع الآراميين أن الاسم «أرامو»، أي آراميين، ورد لأول مرة في النصوص المسمارية إلى جانب اسم القبائل الأخرى مثل «احلامو» أو «اخلامو»، وأن ثجلاثبليزر وجه على الآراميين ما لا يقل عن ثمانٍ وعشرين حملة[2]. والمرجح أن هذا الملك غزا أيضاً سورية ووصل إلى الساحل الفينيقي، حيث يخبرنا أنه أخذ الأتاوة من المدن الفينيقية مثل «أرواد» وجبيل وصيدا[3] ووجه ضربة شديدة أيضاً على بلاد بابل في عهد ملك سلالتها الرابعة المسمى «مردخ نادن آخى» الذي خلف نبوخذ نصر الأول[4]. وأغرم هذا الملك الفاتح بصيد الحيوانات الوحشية، وهي الرياضة التي كانت محببة إلى الملوك الآشوريين. فقد جاء في أخباره المدونة أنه قتل أربعة ثيران وحشية في بلاد «ميتاني» (شمالي ما بين النهرين)، وعشرة أفيلة ضخمة في بلاد «حران» ومنطقة الخابور وقتل أيضاً (120) أسداً وهو راجل و (800) أسد وهو في عربته، واصطاد كذلك أفراس البحر في مياه البحر المتوسط بالقرب من «أرواد»[5].

إن تلك الانتصارات والأمجاد التي حققها «ثجلاثبليزر» لبلاد آشور لم

---

(1) انظر: *ANET*, 257 ff. *ARAB*, I, 287.

(2) انظر: *ANET*, 257 ff. *ARAB*, I, 287.

(3) انظر: *ANET*, 257 ff. *ARAB*, I, 287.

(4) انظر: *ARAB*, I, 309.

(5) *ARAB*, I, 73.

تدم من بعده أمداً طويلاً، فإنه بعد أن اغتيل انتهت فترة حكمه المزدهرة، وأعقبتها فترة ضعف أخرى في حياة الدولة الآشورية، وكانت حقبة مظلمة سواء كان ذلك من ناحية قلة مصادرنا عنها أم من ناحية تعرض الآشوريين إلى أشد الأخطار التي جابهتهم في جميع أدوار تاريخهم، ونعني بذلك اشتداد اندفاع القبائل الآرامية وضغطها على الآشوريين، بحيث هددتهم في عقر دارهم. وشملت الأخطار أيضاً بلاد بابل حيث اتجهت إليها جملة قبائل من الآراميين، كما ذكرنا في كلامنا عن السلالات البابلية الأخيرة.

دامت هذه الفترة المظلمة زهاء (166) عاماً، منذ موت تجلاتبليزر الأول (عام 1077) إلى بداية حكم الملك «أدد - نيراري» الثاني (911ق.م)، الذي جعلنا عهده بداية ما سميناه بالعصر الآشوري الحديث. وبما أنه ستتكرر الإشارات إلى الآراميين وإلى الدويلات الآرامية التي أقاموها في بلاد الشام في أثناء تتبعنا لسير الأحداث في بلاد آشور فيستحسن أن نقدم إلمامة عن الآراميين ودويلاتهم قبل أن نواصل إيجازنا للتاريخ الآشوري في العصر الآشوري الحديث.

الآراميون

الآراميون[1] من الأقوام السامية ولا سيما الساميين الغربيين، حيث تؤلف لغتهم مع اللغة الكنعانية (الأمورية) والعبرانية كتلة اللغات السامية الغربية، كما مر بنا في كلامنا على الأقوام القديمة في حضارة وادي الرافدين. ويأتي الآراميون من بعد الأموريين أو ربما ضارعوهم في ضخامة هجراتهم وكثرة قبائلهم وتنقلها في بوادي الشام والأجزاء الشمالية من بلاد ما بين النهرين (الجزيرة). وأثر الآراميون تأثيراً واسعاً في تاريخ الشرق الأدنى، سواء كان ذلك في التركيب السكاني أم اللغوي والحضاري. ونشأت بينهم وبين أقوام حضارة وادي الرافدين صلات كثيرة أثرت في كلا الجانبين تأثيرات قوية، وقد ساد تلك العلاقات الاصطدام والصراع ولا سيما مع الآشوريين، دام حقبة طويلة من الزمن. وقامت منهم جملة مشيخات أو سلالات حاكمة في بلاد بابل منذ مطلع الألف الأول ق.م، حتى أن مؤسسي الدولة الأخيرة التي قامت في بابل، وهي الدولة الكلدانية، كانوا من الآراميين. ولكن لا

---

(1) من المستبعد أن يكون اسم الموضع الوارد بهيئة «آرامي» (Arami) وأسماء بعض الأعلام على هيئة «أرامو» (Aramu) في نصوص العصر الآكدي وسلالة «أور» الثالثة لها صلة بالآراميين بالنظر إلى قدم العهد، ولذلك فيرجح أن يكون ذلك مجرد تشابه لفظي. ولا يعرف بوجه التأكيد معنى الكلمة «أرامي»، على أنه قيل في معنى «أرام» و «ارم» (ولعل للكلمة الواردة في القرآن صلة بالآرامين)، إنها تعني النجد أو الهضبة أو مجرد الأرض، وقد أضيفت إلى عدة مواضع في بلاد الشام مثل «أرام النهرين» و «أرام دمشق» و «أرام صوبا» و «أرام معكة» و «فدان أرام» ومعظمها مذكورة في التوراة، كما ورد مصطلح بلاد الآراميين في الكتابات الآشورية من العصر الآشوري الوسيط. انظر: ARAB, 1, 73, 239, 366.

يعلم بوجه التأكيد متى ظهر ذكرهم في أخبار حضارة وادي الرافدين[1] على أن التاريخ الشائع الذي يحدده المؤرخون لهجراتهم التاريخية الكبرى يقع ما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر ق.م. وكانوا من جملة مجموعات أو قبائل جاءت أسماء البعض منها في الكتابات الملكية الآشورية وفي رسائل العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م)، أشهرها قبيلة الأخلامو أو الأحلامو التي سبق ذكرها[2]، وقبائل الـ «سوخو» والـ «سوتو». وقد سبق أن ذكرنا أن أقدم ما جاءنا عن اسم «آراميين» (الأحلامو الآراميون) في كتابات الملك الآشوري «ثجلاثبليزر» الأول (1115 ـ 1077ق.م)، وهو الملك الذي مر بنا كيف استطاع أن يوقف اندفاع الآراميين إلى بلاد آشور. ولكن اسم قبائل الاخلامو أقدم من ذكر من هؤلاء الآراميين في المصادر الآشورية، حيث يذكر لنا الملك «أدد ـ نيراري» الأول (في حدود 1300ق.م) أن أباه حارب جموع الأخلامو في شمالي ما بين النهرين[3]. ونذكر من القبائل الآرامية التي اشتهرت في التاريخ القبيلة المسماة «كلدو» (وكذلك كشدو، وكاسديم) التي حلت في بلاد بابل. وتكونت منذ القرن الحادي عشر ق.م عدة مشيخات أو دويلات آرامية في الأجزاء الجنوبية من العراق، واشتهر من زعماء الآراميين في أواخر القرن السابع ق.م «نبو بولاسر» الذي كان حاكماً على الأجزاء الجنوبية وتابعاً لآشور بانيبال، الملك الآشوري، وأسس الدولة البابلية (سلالة بابل الحادية عشرة) وابنه الشهير نبوخذ نصر الثاني.

أشهر الدويلات الآرامية في بلاد الشام:

بعد تنقل القبائل الآرامية في بوادي الشام والصراع المتواصل الذي نشب بينها وبين الآشوريين نجحت جماعات منها في الاستيطان في عدة

---

(1) انظر الهامش في ص 491، والمرجح أن «اخلامو» جمع «خلم»، أي حلف فيكون معنى اسم القبيلة «الأحلاف».

(2) المصدر السابق.

(3) *ARAB*, I, 73

جهات من بلاد الشام منذ القرن الحادي عشر ق.م، ولا سيما في الأجزاء الداخلية منها لأن الكنعانيين (الأموريين الغربيين) صدوهم عن بلوغ الجهات الساحلية التي تمركزوا فيها. وقامت من الآراميين في بلاد إلشام جملة دويلات ورد ذكرها كثيراً في أخبار الملوك الآشوريين الذين ضيقوا الخناق عليها من بعد تخلصهم من أخطار هجوم القبائل الآرامية، وحالوا دون قيام دولة كبرى منها، بل إنهم قضوا حتى على الكثير من دويلاتهم في بلاد الشام، ولا سيما في العصر الآشوري الحديث، حيث سيرد ذكر هذه الدويلات ولذلك فيستحسن تعدادها قبل كلامنا على هذا العصر.

1 ـ أرام نهرايم:

ويعني اسم هذه الدويلة أرام ما بين النهرين، أي الفرات والخابور. وورد ذكرها في المصادر المسمارية باسم «نهارينا»، ويبدو أنها اختفت من الوجود في حدود القرن التاسع ق.م عندما قضى الآشوريون على جميع الدويلات الآرامية تقريباً في تلك المنطقة[1].

2 ـ الدويلة المسماة فدان «أرام»، وكان مركزها في حران، وكانت أقل رقعة واتساعاً من دويلة «نهرايم» السالفة الذكر. ولكن حران كانت ذات أهمية كبرى لمرور طرق القوافل منها، وأن اشتقاق اسم المدينة يشير إلى ذلك[2]. وازدهرت اللغة الآرامية والثقافة الآرامية في هذه المنطقة، كما اشتهرت في التوراة بكونها موطن الآباء العبرانيين الأوائل قبل ذهابهم إلى فلسطين، والمرجح كثيراً أن إبراهيم وأحفاده من آرامي هذه المنطقة كما تشير إلى ذلك التوراة نفسها.

---

(1) حول أخبار هذه الدويلة انظر:
O, Callaghan, *Aram Nhraim*, (1948).

(2) قارن الكلمة الآكدية (البابلية) «خرانو» أو «حرانو» التي تعني الطريق ولعله كذلك مدينة على الطريق أي مدينة القوافل. حول أخبار حران في التوراة، انظر: سفر التكوين: 24: 4، 29: 21.

وقامت في الأنحاء الجنوبية من بلاد الشام جملة دويلات آرامية أشهرها:

3 ـ آرام ـ صوبا

والمرجح أن مدينة صوبا هي المذكورة في المصادر الكلاسيكية (اليونانية الرومانية) باسم «خلسيس» أو «كلسيس»، أي النحاس، مثل معنى الكلمة الآرامية «صوبا». ويعرف موقعها الآن باسم عنجر في البقاع، إلى الجنوب من زحلة. وقد حاربها الملك العبراني «شاؤول» كما تغلب الملك «داود» على ملكها المسمى «حدد عزير» (أو هدد عزير).

4 ـ آرام ـ معكة

وقد قامت في سفوح جبل الشيخ (جبل حرمون)، وكذلك «آرام ـ رحوب» في منطقة حوران.

5 ـ مملكة دمشق

من الدويلات الآرامية المهمة المملكة التي قامت في منطقة دمشق، حيث استوطنت جماعات من الآراميين فيها ما بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م. وجاء ذكر مدينة دمشق في حوليات الفرعون المصري «رعمسيس» الثالث (1198 ـ 1167ق.م) بصيغة «ترمسكي» و «ترمسكى» من الصيغة الآرامية «در ـ مشق» أو «دار ـ مشق»، أي حصن «مشق» أو «مشيق». وقبل هذا التاريخ ورد اسم المدينة في رسائل «العمارنة» الشهيرة (القرن الرابع عشر ق.م) بهيئة «دمشقا» و «تمشگى» أو «تمشقي»[1]. ولا يعلم بوجه التأكيد اشتقاق اسم دمشق، والمرجح أنه مركب من كلمتين: «در» أو «دار» أي حصن و «مشق»، ولعل الشق الثاني من الاسم اسم إله من الآلهة غير السامية. كما يحتمل أن «مشق» هو اسم أحد الأقوام المذكورة في المصادر الآشورية بهيئة

---

(1) Knudtzon, *El - Amarna Tafeln*, nos. 107, 197, 53

«مشكي» أو «موشكي» (من سكان شرقي الأناضول الذين عرفوا بعدئذٍ باسم (الفريجيين) وورد ذكر هؤلاء في التوراة (سفر التكوين 10: 23). على أنه يحتمل كذلك أن يكون لفظ «مشكي» أو «مشقي»، اسم إحدى القبائل الآرامية ممن لم يرد لها ذكر إلا بعد أن استوطنت هذه المنطقة من بلاد الشام.

واشتهرت مملكة دمشق في أواخر القرن الحادي عشر ق.م، في الفترة التي ظهرت مملكة العبرانيين، في عهد شاؤول وداود. وقد نمت وتوقفت على الكثير من الدويلات الآرامية الأخرى، وامتدت في سلطانها شرقاً إلى الفرات وإلى اليرموك جنوباً على حساب الدولة العبرانية، كما أنها كانت تتاخم الولايات والأقاليم التابعة إلى الأمبراطورية الآشورية من الجهات الشمالية. وقامت بين هذه المملكة وبين الدولة العبرانية عدة حروب كانت الغلبة في معظمها لها على دولة اليهود، بحيث إنها استطاعت أن تفرض سلطانها عليها ولا سيما من بعد انقسام المملكة العبرانية على أثر موت سليمان. وقضى الآشوريون على دولة دمشق في عام 732ق.م، على يد الملك «ثجلاثبليزر» الثالث.

6 ـ دولة شمال

ونجح الآراميون إبان القرنين العاشر والتاسع في الاستيلاء على إقليم «زنجرلي» (أو سنجرلي)، وهي سمأل أو شمأل القديمة، وأسسوا فيها عدة دويلات أشهرها دويلة «بيت اگوشي» أو «بيت اغوشي»، و «بيت أديني»، في منطقة «بارسب» القديمة (تل الأحمر الآن). وتقع شمأل إلى الغرب من «عيتاب»، في منتصف الطريق ما بين إنطاكية ومرعش. وقد أجرى فيها الألمان بعض الحفائر (1893)، ووجدت فيها أقدم النصوص الآرامية من حدود القرن العاشر أو التاسع ق.م. وقامت في أعالي ما بين النهرين دويلة آرامية أخرى سميت باسم «بيت بهياني»، وعاصمتها «گوزانا» (وهو اسم تل حلف القديم، وقد اشتهر تل حلف بإطلاقه على أحد أدوار العصر الحجري المعدني، كما مر بنا في كلامنا على هذا العصر في الفصل الرابع).

وفي ختام هذه الملاحظات الموجزة عن الدويلات الآرامية التي سيمر بنا ذكر علاقاتها مع الدولة الآشورية نكرر ما سبق أن نوَّهنا به من أن الضغط الآشوري على الآراميين وخنق دويلاتهم ومنعها من التوسع كان له أثر بالغ في مصائر الآراميين السياسية، إذ حال، كما قلنا، دون إقامة دولة كبرى منهم، كما أزيل من الوجود الكثير من دويلاتهم. ولكن مع إخفاق الآراميين السياسي فإن تراثهم اللغوي والثقافي قد فاق في عظم مقداره على تراث كثير من الشعوب القديمة، في أقطار الشرق الأدنى، وتميز الآراميون كذلك بنشاطهم التجاري الواسع، حيث كانت قوافلهم التجارية تجوب أنحاء الشرق الأدنى، ويمكن القول إنهم احتكروا التجارة العالمية طوال عدة قرون. وكان من نتائج ذلك النشاط التجاري الفذ انتشار اللغة الآرامية، وساعدها في ذلك الانتشار أنها دونت بحروف هجائية أخذها الآراميون من الفينيقيين، فانتشرت لغتهم انتشاراً واسعاً عجيباً بدون أن يدعم ذلك سلطان سياسي. وأصبحت الآرامية لغة تدوين ولغة الكلام إلى جانب اللغات القديمة حتى في الأمبراطورية الآشورية، ومن بعد ذلك في أرجاء الأمبراطورية الفارسية الأخمينية من تخوم الهند إلى بلاد الحبشة. وتركت الآرامية تأثيرات محسوسة في اللغتين البابلية والآشورية في أدوارهما الأخيرة، كما صارت لغة النبي عيسى وأتباعه، ودونت بها الأناجيل. ولم يقتصر هذا الانتشار الواسع على اللغة الآرامية بل انتشر معها استعمال الحروف الهجائية بشكلها الآرامي فاقتبسها أقوام شتى في أنحاء الشرق الأدنى وقارة آسية في كتابة لغاتها المختلفة. فمثلاً أخذ اليهود خطهم من الخط الآرامي ما بين القرنين السادس والرابع ق.م، وكانوا قبل هذا التاريخ يستعملون خطاً فينيقياً قديماً. كما أن العرب الشماليين أخذوا خطهم من الأنباط، والخط النبطي شكل من أشكال الخط الآرامي، وهو أصل الخط العربي الشمالي بجميع أطواره. واقتبس الأرمن والفرس والهنود خطوطهم من أصول آرامية. ونقل البوذيون الخط السنسكريتي (المشتق من الخط الآرامي) من الهند إلى الصين وإلى كورية.

العصر الآشوري الحديث

أولاً: الأمبراطورية الآشورية الأولى

«أدد ـ نيراري» الثاني:

رأينا فيما سبق كيف تدهورت أوضاع الدولة الآشورية من بعد موت الملك الآشوري القوي «ثجلاثبليزر» الأول (1077ق.م) حيث حلت في تاريخ الآشوريين فترة مظلمة عصيبة أحاقت بهم فيها عدة أخطار جسيمة، دامت زهاء (166) عاماً.

وكان رجل الساعة الذي خلص بلاد آشور من الأخطار المحدقة بها الملك «أدد ـ نيراري» الثاني (911 ـ 891ق.م). ولذلك يصح اعتبار حكمه بداية عصر جديد في تاريخ الدولة الآشورية، هو العصر الذي أطلقنا عليه اسم العهد الآشوري الحديث الذي دام إلى نهاية كيان الآشوريين السياسي من بعد سقوط نينوى في العام 612ق.م أي إنه دام زهاء ثلاثة قرون. وتسهيلاً لإيجاز الأحداث التاريخية في هذا العصر الجديد نقسمه إلى دورين متميزين، تكون في كل منهما أمبراطورية كبرى، هما الأمبراطورية التي وضع أسسها الملك «أدد ـ نيراري» الثاني وانتهت في حدود العام 745ق.م فتكون قد دامت زهاء القرن ونصف القرن (911 ـ 744ق.م)، وحكم فيها تسعة ملوك، من حكم أدد ـ نيراري إلى حكم «ثجلاثبليزر» الثالث (744 ـ 727)، وشغلت الأمبراطورية الثانية البقية الباقية من التاريخ الآشوري أي

من عام 745 إلى 612ق.م، وأشهر من حكم فيها ملوك السلالة السرجونية (سرجون وخلفاؤه).

ومما يقال عن هذا العصر الجديد بوجه عام إن الآشوريين بلغوا فيه من القوة العسكرية مبلغاً كبيراً مكنهم من أن يسيطروا على حياة الشرق الأدنى طوال معظم القرون الثلاثة التي دامها هذا العصر، وكونوا أمبراطورية كبرى كانت أوسع ما مر بنا من الأمبراطوريات في تاريخ العراق وتاريخ الشرق القديم. وقد شغل أوائل ملوك هذا العهد كما قلنا في القضاء على الخطر الآرامي من جوار بلاد آشور نفسها، ثم انتقلوا بعد فترة من الزمن إلى تسديد الضربات المميتة إلى الدويلات الآرامية التي سبق أن عددنا أشهرها. وصار من مستلزمات السياسة الحربية للآشوريين تكرار غزواتهم وفتوحهم بالاتجاهات الشمالية والشمالية الغربية: إلى بلاد الشام حيث الدويلات الآرامية، وإلى آسية الصغرى وإلى الجهات الشرقية والشمالية الشرقية، على الأقوام الجبلية في جبال «زاجروس»، التي كانت مصدر خطر دائم على الآشوريين. أما من الجهة الجنوبية فإن بلاد بابل أصبحت في هذا العهد الذي نتكلم عنه عاجزة ضعيفة، بحيث أدخلت تحت السيطرة الآشورية المباشرة وغير المباشرة.

ولحسن حظ الآشوريين أن الدول الأخرى في الشرق الأدنى في العصر الآشوري الحديث كانت دولاً ضعيفة عاجزة إزاء قوتهم المتعاظمة. فقد زالت الدولة الحثية من الوجود في القرن الثاني عشر ق.م على أثر هجرات الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» الجديدة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى. أما المملكة المصرية فقد سبق أن حل الضعف فيها قبل العصر الآشوري الحديث فلم تستطع منافستها في توسعها إلى بلاد الشام.

ويمكن القول إنه لم يكد ينتهي القرن التاسع قبل الميلاد، حتى شملت الأمبراطورية الآشورية جميع الشرق الأدنى. وصادف قيام هذه الأمبراطورية انتشار استعمال معدن الحديد في الشرق الأدنى، فاستغله الآشوريون في تكوين أضخم جهاز حربي عرفه العالم القديم، إذ صنعوا منه أسلحتهم الفتاكة

وآلات الحصار الضخمة كالدبابات والعربات مما ستتكرر الإشارة إليها في كلامنا على حروب ملوكهم المشهورين[1].

خلفاء «أدد ـ نيراري»

«توكلتي ـ ننورتا» الثاني (890 ـ 884 ق.م)

خلف «أدد ـ نيراري» على العرش الآشوري ابنه «توكلتي ننورتا» الثاني الذي لم يكن أقل من أبيه نشاطاً وقدرة، ولكن فترة حكمه القصيرة لم تمكنه من مد رقعة المملكة الآشورية أبعد مما كانت عليه في عهد أبيه. وكان من بين أعماله التي وصلت إلينا أخبارها بناؤه أسوار العاصمة «آشور»، وتكرار الحملات الحربية إلى الجهات الشمالية الغربية، على المناطق أو المستوطنات الآرامية. وكانت إحدى حملاته الحربية مجرد مظاهرة عسكرية ضخمة بغية الإرهاب ونشر الرعب بين الشعوب. فبدأ في مسيرته العسكرية من العاصمة واتجه غرباً لإرهاب المستوطنات الآرامية، وتجديد فرض الطاعة عليها، ثم عاد وسار إلى الأجزاء الجنوبية من بلاد بابل معيداً فرض السلطان الآشوري عليها. وقد دونت أخبار هذه الحملة في حولياته تدويناً مفصلاً، وتعد على قدر كبير من الأهمية التاريخية، ولا سيما الجغرافية التاريخية للعراق وبعض أجزاء الشرق الأدنى، لما ورد فيها من ذكر الأماكن التاريخية والمدن المهمة التي مرت بها جيوش هذا الملك.

---

(1) ندرج فيما يأتي المراجع الأساسية عن التاريخ الآشوري:

(1) *CAH.*

(2) Olmstead, History of Assyria, (1923).

(3) S, Smith, Early History of Assuria, (1928).

(4) ARAB.

(5) Wateman, *Royal Correspondence*... (1930 - 6).

(6) *IRAQ,* vols. 1950 ff.

وعن الأخبار الواردة في التوراة راجع بوجه خاص سفر الملوك ولا سيما الثاني وسفر الأيام الثاني أسفار الأنبياء.

لما توفي الملك «توكلتي ـ ننورتا» الثاني في العام 884 كانت تخوم الأمبراطورية الآشورية موطدة مستقرة، من شمالي العراق إلى جميع أطراف ما بين النهرين العليا، وإلى جبال «زاجروس» شرقاً.

آشور ناصر بال الثاني (883 ـ 859 ق.م)

ورث آشور ناصر بال الثاني عن أبيه «توكلتي ـ ننورتا» الثاني مملكة واسعة، وقوية موطدة. وقد جمع هذا الملك الآشوري الصفات الأنموذجية للملك الآشوري العسكري، والفاتح القاسي والإداري المنظم، والبناء الكبير. وتشير ملامحه المعبر عنها في تماثيله التي وجدت في «نمرود» (كالح القديمة التي سيأتي وصفها) إلى شخصية قوية حازمة وقاسية[1]. وكما جرت العادة بالنسبة إلى معظم الملوك الآشوريين الأقوياء، لم تخل أعوام حكمه من تكرار الحملات الحربية إلى الجهات المختلفة من الشرق الأدنى، وقد بلغ في إحدى حملاته إلى إقليم الفريجيين (مشكي) في شرقي الأناضول، وحصل على الغنائم والأسلاب الكثيرة، كما حارب الحثيين الذين أقاموا في شمالي سورية دولة من بعد زوال مملكتهم في آسية الصغرى (القرن الثاني عشر ق.م). وشيد جملة قلاع وحصون عسكرية في تخوم الأمبراطورية الشمالية. ونذكر من بين حملاته الحربية المشهورة تلك التي وجهها على بلاد الشام، وقد مهد لها بضرب بعض المنشقين عن طاعته في منطقة جبال «كاشياري» (طور عابدين ـ ماردين)، كما ضرب القبائل الجبلية في إقليم «زاموآ» أو «ساموآ» (منطقة السليمانية)، ومن بعد ذلك اتجه إلى بلاد الشام في عام حكمه الرابع (877ق.م)، واكتسح بعض الدويلات الآرامية في طريقه، ثم سار من «كركميش» (جرابلس) إلى سهل إنطاكية، وعبر نهر العاصي وسار بمحاذاة جبال لبنان إلى «البحر العظيم، بحر الأموريين» (البحر المتوسط). وهنا يكرر «آشور ناصر بال» ما جرى عليه الملوك الآشوريون الفاتحون في «غسل سلاحه» في هذا البحر وتقديم القرابين إلى الآلهة، وتقبل جزية المدن الساحلية مثل صور وصيدا وجبيل وأرواد وغيرها. وتضمنت الجزية الذهب والفضة

---

(1) حول تماثيل «آشور ناصر بال» انظر: AAO A. Parrot, *Assur*, (1961).

والقصدير والنحاس وأنسجة الكتان ذات الألوان الزاهية، وقردة صغيرة وكبيرة، والعاج والأخشاب النفيسة مثل الأبنوس والبقس والأرز. ورجعت الجيوش الآشورية عن طريق مرتفعات «امانوس»، حيث اقتطعت الأخشاب الجيدة منها وأرسلت إلى العاصمة آشور.

على أن تلك الحملات الحربية لم تشبع تعطش هذا العاهل الآشوري لسفك الدماء والقتل، فأضاف إلى ذلك صيد الحيوانات الوحشية كالأسود والثيران الوحشية. وخلف عن ذلك سجلاً حافلاً في أخباره المدونة وفي صور منحوتاته الكثيرة التي عثر عليها في قصره في مدينة كالح (نمرود). واشتهر أيضاً بولعه في جمع النباتات والحيوانات الغريبة في أثناء حملاته إلى الأقطار البعيدة وجلبها إلى عاصمة مملكته.

تجديد مدينة «كالح»

من الأعمال العمرانية التي اضطلع بها آشور ناصر بال الثاني في السنوات الأولى من حكمه إعادة بناء المدينة القديمة كالح (نمرود) التي أسسها الملك القديم «شيلمنصر» الأول (1274 ـ 1245ق.م)، ولكنها أهملت من بعده فحل فيها الخراب. ولذلك عزم آشور ناصر بال على تجديدها وإعادة بنائها واتخاذها عاصمة، وعلى الأخص عاصمته العسكرية، لتكون فيها ثكنات الجند والمعدات الحربية، ومنها كانت تسير الحملات الحربية. وكان موقع هذه المدينة، مثل العاصمة القديمة آشور، يتميز بأهمية استراتيجية خاصة، فإن دجلة يحميها من جانبها الغربي، ومن جهتها الجنوبية الزاب الأعلى الذي يتصل بدجلة بمسافة قصيرة جنوب نمرود، في الموضع الذي يسمى «المخلط».
وقد بذل هذا الملك جهوداً كبيرة في مشروعه هذا بحيث يصح القول إنه أسس المدينة من جديد، فقد سوى أنقاضها القديمة بالأرض ووسع من رقعة أبنيتها، وشيد حولها سوراً ضخماً مدعماً بالحصون وأبراج الدفاع بلغ محيطه زهاء (8) كيلومترات، والمدينة مستطيلة الشكل تقريباً مساحتها زهاء (3,5) كيلومتر مربع، واختار أحد المرتفعات الطبيعية في إحدى زوايا هذا المستطيل ليكون بمثابة «اكروبوليس»، حيث موضع «زقورة» المدينة (البرج المدرج) ومعابد المدينة وقصره الملكي. وجلب إلى المدينة جدول ماء من الزاب الأعلى لزيادة

حمايتها والإفادة منه في الري أيضاً في السهل الزراعي المجاور. وكانت نمرود من أولى المواقع الأثرية التي جرت فيها تنقيبات أوائل المنقبين، كما ذكرنا في الفصل الخاص بتاريخ التنقيبات، حيث حفر فيها «ليرد» ما بين عام 1852 و1854، ثم أعقبه «هرمز رسام»، ولوفتس (1854 ـ 1855) و «جورج سميث» (1872). واستخرجت من قصور المدينة المنحوتات الضخمة الكثيرة، من بينها الثيران المجنحة الشهيرة والأسود وما يسمى «الملاكات الحارسة»، وأعداد كثيرة من صفائح الحجر المنحوتة، وكثير من النقوش الكتابية، إلى غير ذلك من البقايا الأثرية النفيسة التي هي الآن من الكنوز المهمة في المتحف البريطاني. وبعد مضي ما يربو على القرن الواحد على تحريات «ليرد» استأنفت التنقيبات في المدينة بعثة بريطانية برئاسة الأستاذ «ملوان» (1949 ـ 1961)، فأعادت التحري في قصر آشور ناصر بال وفي حصن شيلمنصر الثالث، ابن آشور ناصر بال، الكائن في الركن الجنوبي الشرقي من المدينة، وهو حصن ضخم (300×200م)، كشف فيه عن مجموعات كثيرة من الآثار العاجية النفيسة. وإلى جانب هذه الآثار وغيرها من البقايا المعمارية الكثيرة، وجدت جملة منحوتات مهمة من بينها مسلة منحوتة للملك آشور ناصر، وهي منقوشة بكتابة تدون أعماله ووصف الولائم الملكية الفخمة التي أقيمت في المدينة احتفالاً بإكمال بنائها (عام 879ق.م). وقد بلغ عدد الضيوف، بحسب ما جاء في تلك المسلة، (69,574) شخصاً، أي سكان المدينة والصناع والعمال والسفراء، ودامت طوال عشرة أيام[1] وتحرى المنقبون أيضاً حصن شيلمنصر

---

(1) عن كتابة مسلة «آشور ناصر بال» انظر:

Wiseman , in *IRAQ*, XIV (1952), 24 ff.

عن التنقيبات القديمة في نمرود انظر:

A- H. Lxyard, *Nineveh and its Remains* (1849).

A- H. Lyard, *Nineveh and Babylon* (1882).

وعن نتائج التنقيبات البريطانية الحديثة راجع مجلة IRAQ منذ مجلد 1950 وأيضاً

D. Oates, «Fort Shalmaneser», *IRAQ*, XXI (1959). *IBID*.. XXIII, (1961), 1 ff.

الثالث، في الأجزاء المهمة منه، من بينها الثكنات العسكرية للتدريب والعرض العسكري، ومخازن الأسلحة ومواضع إقامة الضباط والجند[1].

شيلمنصر الثالث (858 ـ 824 ق.م)

خلف شيلمنصر الثالث أباه «آشور ناصر بال»، وقد ورث عنه أمبراطورية واسعة برهن على أنه كفوء ليس في المحافظة عليها حسب، بل إنه وسعها إلى حدود بعيدة لم تبلغها من قبل. وكان حكمه الذي دام خمسة وثلاثين عاماً سلسلة من حملات حربية جعلته سيد الشرق الأدنى وآسية الغربية من الخليج العربي ومناطقه جنوباً إلى جبال أرمينية شمالاً، ومن تخوم الأراضي الميدية (المادية) شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً، كما دخلت بلاد بابل تحت سيطرته. وفي حقل البناء والتعمير جدد الأبنية في العواصم الآشورية الثلاث، آشور ونينوى وكالح. وقد أضاف في المدينة الأخيرة، أي كالح، إلى أعمال أبيه سواء كان ذلك في قصورها، أم في بنائه القصر أو الحصن الضخم الذي نوَّهنا به في كلامنا على تجديد هذه المدينة في زمن أبيه، واستمرت العناية بهذا الحصن من جانب الملوك الآشوريين الذين جاؤوا من بعده لأنه كان، كما قلنا، مركز الجيوش الآشورية ومخازن أسلحتها وعدتها وذخيرتها، ومستودعاً لغنائم الملوك من حروبهم الخارجية. ونذكر من آثار شيلمنصر الفنية الأبواب البرونزية الجميلة التي اكتشفت في الموضع المسمى «بلاوات»، وهي «امكر بيل» القديمة (على بعد بضعة كيلومترات شمال شرقي نمرود). وقد تحرى في هذا الموضع «هرمز رسام»، مساعد «ليرد» (في عام 1878)، وظهر أنه كان أحد القصور التي شيدها آشور ناصر بال وجدد بناءه ابنه شيلمنصر. وكانت الصفائح البرونزية المكتشفة تغلف أبواب القصر الخشبية، وقد مثلت فيها بأسلوب الطرق (repousë) ومشاهد من حملات شيلمنصر الحربية وكتابات قصيرة في شرحها[2].

---

(1) للمقارنة ما بين مساحة مدينة «كالح» وبين المدن الأخرى القديمة المشهورة، راجع وصف مدينة بابل في الفصل التالي (التاسع).

(2) عن بوابات «بلوات» البرونزية راجع:

King, *Bronze Reliefs from the Gate of Shalmaneser*, Frankfort, *AAO*, Pls. 91 - 2.

وعثر في نمرود في أثناء التنقيبات القديمة التي أجراها «ليرد» على مسلة حجرية مهمة تعود إلى شيلمنصر، وقد سميت باسم المسلة السوداء، لأنها من الحجر المرمر الأسود، وهي الآن من آثار المتحف البريطاني المهمة[1]، ويبلغ ارتفاعها ستة أقدام وقد نحتت على هيئة البرج المدرج. ونقشت بكتابة مطولة عن خلاصة حملات شيلمنصر الحربية منذ اعتلائه العرش إلى عام حكمه الواحد والثلاثين. وزينت بخمسة أنطقة من المنحوتات البارزة في كل جانب من جوانبها تمثل مشاهد تقديم الخضوع والجزية من جانب الملوك والحكام والأمراء من مختلف الأقطار، وقد صور البعض منهم وهو ساجد أمام صورة الملك العظيم، وبضمنهم ملك إسرائيل المسمى «يهو» أو «ياهو». وعثر في أثناء التنقيبات التي أجريت في نمرود حديثاً على تمثال جميل للملك شيلمنصر، وهو في وضعية صلاة وتعبد (هو الآن في المتحف العراقي).

ونستطيع مما خلفه شيلمنصر من أخبار مدونة[2]، وآثار فنية منحوتة، أن نتتبع حملاته الحربية طوال الواحد والثلاثين عاماً من حكمه البالغ (35) عاماً. وقد وسع فيها من رقعة الأمبراطورية، وبلغ في فتوحه أقاليم لم تصل إليها الجيوش الآشورية من قبل: في جهات أرمينية، وجبال زاجروس وكيليكية (في آسية الصغرى)، وإلى قلب جبال طوروس وإلى أبعد الأجزاء الجنوبية في منطقة الخليج. ووجه إلى بلاد الشام عدة حملات حربية، وجرت معارك مع الدويلات المتحالفة أشهرها موقعة «القرقار»، على نهر العاصي في عام 853ق.م. وقد ورد في أخبار هذه المعركة ذكر اسم العرب، لعله لأول مرة

---

(1) عن كتابة المسلة راجع: *ANET,* وعن صورها AAO و Parrot, *Assur, pls. 121 - 8.*

(2) ندرج فيما يلي المراجع الأساسية عن أخبار شيلمنصر:

(1) *ARAB*, I, 553 - 612.

(2) Cameron in *SUMER*, (1950).

(3) F. Safar in *SUMER*, (1951).

(4) Laessoe in *IRAQ*, XXI (1959), 38 ff.

(5) Michell, in *Die Welt des Orient*, (1947), (1952).

في أخبار ملوك العراق القديم، حيث كان من بين الأمراء المتحالفين «جندبو» العربي. ونذكر من أخباره الحربية الطريفة أنه قصد في إحدى حملاته الحربية إلى ينابيع الفرات ودجلة، وأقام عندها نصباً تذكارياً. ووجه شيلمنصر في عام 851ق.م على بلاد بابل حملة حربية في عهد سلالتها الثامنة، لنجدة الملك البابلي «مردوخ زاكر شومي» الذي كانت تهدده الدويلات الآرامية في الأجزاء الجنوبية من بلاد بابل، فدحر شيلمنصر المعتدين ودخل مدينة بابل وقدم القرابين لكبير آلهتها مردوخ في معبده «اي ـ ساگلا»، كما زار المعابد الأخرى وأحسن إليها، وطارد فلول الآراميين من قبائل «الكلدو» (الكلدانيين) إلى سواحل الخليج (النهر المر بحسب تعبيره).

فترة ضعف الدولة الآشورية

انتهى حكم شيلمنصر الثالث بثورة داخلية في بلاد آشور تزعمها أحد أبنائه المسمى «آشور ـ دانن ـ أبلى»، وانحازت إلى جانبه سبع وعشرون مدينة، من بينها مدينة «آشور» ونينوى وأربيل وأرابخا (كركوك). وبالنظر إلى شيخوخة الملك عهد إلى ابنه المسمى «شمسي ـ أدد» مهمة محاربة الثوار وإخماد الثورة. وقد دامت هذه الثورة والحرب الأهلية التي نجمت عنها أربع سنوات مات الملك الشيخ في أثنائها. فاعتلى العرش الآشوري «شمسي ـ أدد» في عام 824ق.م، وقد سببت هذه الحرب الداخلية الضعف والوهن في المملكة الآشورية، وحلت فترة ضعف وانكماش دامت زهاء الثمانين عاماً، أي منذ حكم الملك شمسي ـ أدد إلى حكم تجلاثبليزر الثالث (744 ـ 727ق.م)، وعلى الرغم من إخماد الثورة من جانب «شمسي ـ أدد» فإن الحرب الأهلية الطويلة استنزفت قوى الدولة ففقدت سلطتها في الأقاليم التابعة لها، حيث اغتنم الكثير منها فرصة اضطراب الأحوال في داخل بلاد آشور فنبذت تبعيتها وولاءها للملوك الآشوريين. كما أن الأسباب التي نشبت من جرائها تلك الثورة والحرب الأهلية كانت بالدرجة الأولى متأتية من ظلم كبار الموظفين والنبلاء وحكام الأقاليم واستغلالهم السكان الأحرار ولا سيما الفلاحين والمزارعين.

حكم «شمسي ـ أدد» الخامس اثني عشر عاماً (828 ـ 811ق.م) وقد سعى لإعادة هيبة الحكم والسلطان الآشوري في الأقاليم التابعة ولكن لم يواته النجاح التام. ومع أنه استطاع أن يعيد الاستقرار في داخل البلاد بيد أنه لم يفلح في القضاء على عوامل التذمر والسخط بين الناس، ومما زاد الطين بلة أن الذي خلفه على العرش كان ابنه الصغير المسمى «أدد ـ نيراري» الثالث (810 ـ 783ق.م)، وكان هذا قاصراً فصارت أمه الملكة المسماة «سمو ـ رمات» وصية على العرش وحكمت المملكة بالنيابة عنه طوال خمس سنوات. ولما أن بدأ يحكم من بعد فترة الوصاية أظهر قدراً من الكفاءة وقوة الشخصية، فقد استطاع أن يوجه حملة عسكرية إلى سورية، معيداً بذلك خضوع عدد من الأقاليم التابعة. ويدعي في أخباره المدونة بأنه أخضع عدداً من الأقاليم التابعة إلى الأمبراطورية. وقد حكم من بعده أربعة ملوك هم أبناؤه الذين ازداد ضعف المملكة في عهودهم. وأولهم شيلمنصر الرابع (782 ـ 772ق.م) الذي ازداد في عهده ضعف المملكة، فانتهز الفرصة معظم الأقاليم التابعة والموالية للانسلاخ عن التبعية الآشورية، مثل بلاد بابل، وتجرأت الدويلات الآرامية على التحرش ببلاد آشور نفسها، فلم يبد من هذا الملك سوى اتخاذ موقف الدفاع. وأعقبه في الحكم «آشور دان» الثالث (771 ـ 754ق.م)، واستمر في عهده تدهور أحوال الدولة، وازدادت الأخطار التي أخذت تهدد بلاد آشور، واتسع الاضطراب والضعف بحلول وباء جارف فتك بالسكان، وثارت في عهده جملة مدن آشورية، كما حدث في زمنه كسوف للشمس، ذكرته أثبات «اللمو»، وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الحساب الفلكي الحديث استطاع أن يحدد زمن ذلك الكسوف في شهر حزيران عام 763ق.م، فكان هذا التاريخ من أهم النقاط الزمنية الثابتة لتحديد أدوار التاريخ الآشوري بالنسبة إلى عهد ثابت، هو العهد الميلادي.

جاء إلى العرش الآشوري من بعد «آشور دان» الثالث الملك المسمى «آشور ـ نيراري» الخامس (753 ـ 746ق.م). والمرجح أن ثورة اندلعت عليه في مدينة «كالح» (نمرود)، تولى العرش من بعدها أخوه المسمى «ثجلاثبليزر»

الثالث (744 ـ 727ق.م) وسنوجز أخبار هذا الملك في كلامنا على الأمبراطورية الآشورية الثانية.

سميراميس

يكاد يكون من المؤكد أن الملكة الآشورية «سمو ـ رمات» التي ذكرناها على أنها كانت زوج الملك «شمسي ـ أدد» الخامس وتولت الوصاية على ابنها الصغير «أدد ـ نيراري» الثالث هي الملكة الأسطورية التي ذكرتها المصادر الكلاسيكية باسم الملكة «سميراميس» الشهيرة (وبالصيغة الآرامية شميرام)[1]، ونشأت حولها أساطير طريفة، كما نسبت إليها أعمال عجيبة في الفتوحات والبناء. فإليها نسب بناء بابل وإقامة جنائنها المعلقة، وبناء السدود ومشاريع الري العجيبة وفتح بلاد مصر والهند، واشتهرت كذلك بجمالها المنقطع النظير وحدَّة شهوتها ودعارتها وجبروتها وقسوتها، إلى غير ذلك من الأعمال العجيبة والصفات الممتازة بحيث يصح القول إن أعمال كثير من الملوك السابقين والمتأخرين قد نسبت إليها، وصارت رمزاً وعنواناً لأمجاد حضارة وادي الرافدين. ولعل أشهر أسطورة نسجت حول شخصيتها الأسطورة التي تجعلها ابنة آلهة نصفها سمكة ونصفها الآخر حمامة، كانت تعبد في مدينة «عسقلان» (عسقلون)، وبعد أن وضعت ابنتها سميراميس تخلت عنها فأخذها طير

---

(1) أقدم ما ذكر في الأساطير والحكايات عن سميراميس رواية هيرودوتس (القرن الخامس ق.م) في الكتاب الأول الفقرة 184. وذكرها المؤرخ الجغرافي «سترابو» (64ق.م ـ 19م)، وديودورس الصقلي (منتصف القرن الأول ق.م) وغيرهما. ولم تقتصر شهرة سميراميس على الكتاب اليونان والرومان بل ذكرها عدد كبير من الكتّاب في مختلف العصور، نذكر منهم على سبيل المثال «دانتي» في الكوميدية الإلهية، حيث جعلها من الشخصيات البارزة في جحيمه. ولفولتير مسرحية طريفة عن سميراميس، وكذلك «بول فاليري» وألف من أسطورتها «روسين» أوبرا شهيرة. ونظم عنها من الشعراء العرب عمر أبو رية والشاعران العراقيان محمد الهاشمي وبلند الحيدري. حول سميراميس انظر:

Olmstead, History of Assyria, p. 158.

F. Lenman, Semeramis and Ihr Zeit.

الحمام[1] ورباها ثم عثر عليها كبير رعاة الملك فتولى تربيتها ولما كبرت ورآها حاكم مدينة نينوى المسمى «أونيس» أحبها وتزوجها، غير أن الملك «نينوس» هام بها أيضاً فأكره زوجها أن يتخلى عنها، ففعل ذلك وانتحر حزناً وكمداً، وتزوجها الملك ونالت عنده حظوة ومقاماً رفيعاً وعظم نفوذها وشأنها في المملكة. واستغلت سميراميس مكانتها فاستعطفت زوجها الملك أن يتوجها على عرش المملكة مدة قصيرة، ففعل ذلك، ولكنها سرعان ما سجنت زوجها أو أنها قتلته، وتفردت بالملك وحكمت أكثر من أربعين عاماً وقامت بمثل تلك الأعمال الخارقة الأسطورية التي نوَّهنا بها.

وهنا يرد إلى الذهن تساؤل هو أنه إذا صحت المطابقة ما بين الملكة الآشورية التاريخية «سمو ـ رمات» وبين سميراميس الأسطورية فكيف تجمعت تلك الشهرة الضخمة العجيبة حول تلك الملكة الآشورية التي لم تحكم سوى بضع سنوات بصفتها وصية على ابنها الصغير، كما أنها لم تترك لها أثراً مهماً في سجلات الملوك الآشوريين[2]؟. الواقع من الأمر أن هذا من الألغاز التاريخية المحيرة، وقد ارتأى أحد الباحثين[3] تفسيراً محتملاً في أن هيرودوتس الذي كان أقدم من دوّن أسطورة سميراميس استقى معلوماته عنها من كهنة بابل. وإذا صح أن أصلها أميرة بابلية تزوجها الملك الآشوري «شمسي ـ أدد» فإن اعتزاز كهنة بابل بأميرتهم البابلية حملهم على المبالغة في شهرتها وأعمالها التي رووها لهيرودوتس، وأضاف هيرودوتس بدوره من خياله القصصي الخصب أشياء أخرى، وتراكمت الأعمال العجيبة من بعد هيرودوتس

---

(1) لعل لمنشأ هذا الجزء من الأسطورة صلة باسم الملكة الآشورية «سمو ـ رمات» المركب من كلمتين: سمو (Sammu) وتعني حمامة و «رمات» أي محبوبة فيكون معنى اسمها «محبوبة الحمام».

(2) وجدت لها مسلة مشوهة الكتابة في نمرود:
ARAB, I, 731, 745.

(3) راجع بحث الأستاذ «كوسينس» (Goossens) في المؤتمر السادس لعلماء الآثار المنعقد في باريس عام 1956.

وانتشرت شهرتها إلى أمم وأقطار بعيدة، حتى أن أحد الأنهار في أرمينية بالقرب من وان سمي بنهر «سميراميس».

ويجدر أن نذكر بصدد كلامنا على «سميراميس» أن هيرودوتس يذكر ملكة أخرى حكمت بلاد بابل من بعدها وسماها «نيتوكرس» (Nitocris) ونسب إليها أعمالاً جسيمة في البناء والتشييد ولا سيما أعمال الري والسدود، من بينها حفر خزان واسع في منطقة بابل وتحويل مجرى الفرات عند بابل، وأن حملة الملك كورش الفارسي على بابل وفتحه لها كانت في عهد ابنها الذي سماه «لابينيتوس» Labynetus، وهو بلا شك تحريف اسم الملك البابلي «نبونيدس» (آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة). هذا ولا يعلم أصل اسم هذه الملكة أي «نيتوكرس»، لا سيما وأن اسم أم «نبونيدس» ذكر في نص شاهد قبر لها وجد في حران بهيئة «أدد ـ گپي» (Adad - Guppi) (ANET, 1969 وهيرودوتس، الكتاب الأول: 184 ـ 188)

الأمبراطورية الآشورية الثانية

ثجلاثبليزر الثالث:

تولى الملك «ثجلاثبليزر» الثالث الحكم (744 ـ 727ق.م) على أثر ثورة داخلية كما ذكرنا، فكان الاضطراب والتدهور يعمان البلاد، ولكن الملك الجديد برهن على أنه كفوء في إنقاذ البلاد من محنتها، وإلى ذلك استطاع أن يعيدها إلى سابق قوتها وكيانها باسترجاع سلطتها في كثير من الأقاليم التي كانت خاضعة لها. وقد مهد لذلك بالقيام بإصلاحات واسعة في الجيش ونظام إدارة الدولة. ولهذه الأسباب جعلنا حكم هذا الملك بداية دور جديد من العصر الآشوري الحديث، هو الذي أطلقنا عليه اسم الأمبراطورية الآشورية الثانية (744 ـ 612ق.م). وقد تميزت هذه الأمبراطورية بالقوة واتساع الرقعة، وقد شملت إصلاحات الملك الجديد الإدارية أموراً أساسية في نظام إدارة الدولة، وفي مقدمتها تقوية سلطة الملك والتقليل من نفوذ النبلاء وأمراء الإقطاع والحد من سلطاتهم، وضاعف في عدد الوحدات الإدارية والولايات وقلص من سعتها لتسهل إدارتها. وبالنسبة إلى الأقاليم المفتوحة عزل معظم ملوكها وحكامها وحول الكثير منها إلى ولايات يدير شؤونها حكام أو ولاة يعينهم الملك. وفي حالة الأقاليم التي لم يتم دمجها بالأمبراطورية عين الملك مع حكامها الوطنيين مراقبين آشوريين (اسم الواحد منهم قيفو qēru)، يضاف إلى ذلك وسائل منتظمة للمواصلات والاتصال ما بين البلاط وبين الولايات المختلفة، مثل السعاة أو الرسل الذين كانوا على اتصال دائم بينها وبين

العاصمة يحملون رسائل الحكام وأوامر الملك، وكثيراً ما كان الملك يرسل مبعوثاً خاصاً عنه في الحالات المهمة.

أما الإصلاحات التي أحدثها في نظام الجيش فإنه عدل عن النظام السابق في تجنيد الفلاحين والعبيد الذين كان يجهزهم نبلاء المملكة ومالكو الأراضي إبان الحملات الحربية السنوية، فأدخل بدلاً من ذلك نظاماً أشبه ما يكون بنظام التجنيد الإجباري بحيث أصبح الجيش جيشاً قائماً وبالمصطلح الآشوري (Kisir sharruti) ودخل أهل الأقاليم التابعة في سلك الجيش، فازداد عدد الجيوش القائمة، وأعفى الفلاحون الآشوريون من التجنيد فانصرفوا إلى شؤونهم الزراعية. ومن الأمور الجديدة التي أدخلها هذا الملك السياسة التي انتهجها إزاء الأقاليم المفتوحة التي تتكرر ثوراتها، فصار يهجر سكانها وينقلهم بالجملة إلى أقاليم أخرى، وإسكان أقوام أخرى في بلدانهم. وقد سار على هذه السياسة الملوك الذين خلفوا ثجلاثبليزر. وكانت هذه خطة عجيبة عملت على خلط شعوب الشرق الأدنى وأحلت البؤس والشقاء في ربوعها، وكثيراً ما صورت تلك المشاهد المؤلمة في المنحوتات الآشورية، ولنا أن نتصور مبلغ الشقاء والعذاب اللذين كانت تقاسيهما تلك الجموع البائسة وهي تساق مسافات طويلة مع شيوخها وأطفالها ومرضاها. على أن تلك السياسة القاسية التي بدأ بها هذا الملك لم تحقق الأهداف التي قصدت من ورائها، فإن ثورات الشعوب لم تنقطع، ولم تدفع هذه الأساليب القاسية الظالمة حلول النهاية الحتمية بالظالم.

أما إصلاحات «ثجلاثبليزر» الحربية فإنها تدل على حسن تنظيم وبراعة في القيادة، وكانت أولى أعماله العسكرية الحملة التي سيرها إلى جنوبي العراق لضرب الآراميين، كما جدد الملك البابلي «نبو ناصر»، مؤسس السلالة البابلية التاسعة ولاءه لملك آشور. ووجه حملة حربية كبيرة إلى سورية للقضاء على الدول المتنامية التي قامت فيها. وجدد ملوك هذه البلاد وأمراؤها ولاءهم وخضوعهم وقدموا الجزية والأتاوة. ثم غزا من بعد ذلك النواحي الشرقية من

جبال «زاجروس»، وأوغل في الأراضي الإيرانية وفي بلاد الماديين في منطقة جبال «هماوند» (وهي الجبال التي ورد ذكرها في المصادر الآشورية باسم «بكيني»). وأعاد الكرّة في توجيه حملة إلى بلاد الشام في عام 734ق.م، وكان مسرح عملياتها الحربية الأجزاء الساحلية وبلاد فلسطين وشرقي الأردن. واتصل في أثناء حملاته على بلاد الشام ببعض القبائل العربية، فقد جاء في أخباره أن الملكة العربية «شمسي» أدت له الجزية. وفتح دمشق عنوة وأزال الدويلة الآرامية فيها من الوجود في عام 732ق،م. كما ضم نصف مملكة إسرائيل إلى الدولة الآشورية، وعين «هوشع» ملكاً على السامرة بصفته تابعاً له.

وبعد أن ثارت بلاد بابل على السلطة الآشورية بزعامة أحد شيوخ الآراميين المسمى «اوكن ـ زير»، مؤسس سلالة بابل العاشرة (732 ـ 730ق.م) أرسل ثجلاثبليزر حملة عليها وقضى على حكم هذه السلالة، وقرر أن يحكم بلاد بابل حكماً مباشراً فتوج نفسه ملكاً على بابل في عيد رأس السنة الجديدة (729ق.م) وعرف باسم «بولو» (Pulu). وكان هذا خاتمة أعماله حيث توفي من بعد عامين (727ق.م)، وخلفه على العرش الآشوري ابنه «شيلمنصر» الخامس (726 ـ 722ق.م)، الذي لم يحكم سوى فترة قصيرة دامت خمس سنوات لا نعرف عن أحداثها إلا أشياء قليلة، وأهمها خلع الملك الإسرائيلي «هوشع» الطاعة وثورته على الآشوريين بتحريض الدولة المصرية فحاصر شيلمنصر مدينة السامرة مدة ثلاث سنوات، ولكن لا يعلم بوجه التأكيد هل فتحت في عهد هذا الملك أو في عهد الملك الذي خلفه، وهو سرجون الشهير الذي سيأتي الكلام عنه[1]. وبالنسبة إلى بلاد بابل سار شيلمنصر الخامس على سياسة أبيه حيث توج نفسه ملكاً عليها وعرف لدى البابليين باسم «اولولو».

---

(1) التوراة ـ سفر الملوك الثاني 17: 4ـ6، وعن قضية فتح السامرة راجع البحث المنشور في مجلة: *JCS*, (1958), 22 ff.

السلالة السرجونية

حكم من بعد شيلمنصر الخامس الملك الشهير «سرجون» الذي لا يعرف اسمه الحقيقي ولا أصله، فإنه انتحل الاسم التاريخي المشهور «سرجون» (Sharru - kin) أي «الملك الصادق»، الذي كان، كما مر بنا، أول من تسمى به سرجون الآكدي قبل أكثر من ألف وستمائة عام، ثم تسمى به أحد الملوك الآشوريين من العصر الآشوري القديم (في مطلع الألف الثاني ق.م). وكذلك لا تعرف علاقته بالملك السابق شيلمنصر الخامس، هل كان أحد أبنائه أو من ذوي قرباه أو أنه اغتصب العرش عن طريق الانقلاب. ومهما كان الأمر فإن سرجون أسس سلالة حاكمة من الملوك كان حكمها آخر عهود التاريخ الآشوري، حيث حكم من بعده أبناؤه وأحفاده، هم سنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال. وعلى هذا تسمى هذه السلالة الحاكمة باسم الأسرة أو السلالة السرجونية.

حكم سرجون ثمانية عشر عاماً (721 ـ 705ق.م)، وقضى السنة الأولى من حكمه في إخماد بعض الاضطرابات التي ظهرت في بلاد آشور نفسها، ولا تعلم ماهية تلك القلاقل سوى أن سرجون نفسه يخبرنا بأنه «حرر أهل آشور من التجنيد القسري ومن جباة الضرائب»، وهي العبارة التي وردت في النص التاريخي الذي اصطلح عليه اسم «براءة أو ميثاق آشور»[1]. وتفرغ من بعد

(1) *ARAB*, II, 132 - 5.

ذلك لمعالجة قضايا مهمة في الأقاليم التابعة[1]، نشأ البعض منها من جراء تبدل الحكم، ونتج البعض الآخر، وهو الأهم، عن فتوحات الملك السابق تجلاتبليزر البعيدة في بلاد إيران وتضييق الخناق على الدولة العيلامية. كما أن الاستيلاء على سورية وفينيقية وفلسطين انتزع من الدولة المصرية أهم مصادر مواردها الاقتصادية واتصالاتها البرية والبحرية، مضافاً إلى كل ذلك أن الدولة الأرمينية كانت تتحين الفرص للتخلص من النفوذ الآشوري. كل هذا جعل من هذه الدول الثلاث حلفاء طبيعيين ضد الآشوريين. وبدأت بوادر ذلك في تدخل الدولة العيلامية في شؤون بلاد بابل، وتدخل الدولة المصرية في بلاد سورية الساحلية بتحريض أهلها على الثورة، وقد أثمرت سياسة التدخل والتحريض ثمارها، الأمر الذي جعل من حكم سرجون سلسلة متتابعة من الحملات الحربية لإخماد ثورات الأقاليم التابعة إلى الدولة الآشورية.

ففي بلاد بابل استطاع أحد زعمائها المدعو «مردوخ ـ أبلا ـ ادنا» (مردوخ بلادان المذكور في التوراة) أن يستقل في مملكة بابل بتحريض العيلاميين ومساعدتهم، واعتلى العرش البابلي في العام الذي جاء فيه سرجون إلى الحكم (721ق.م)، فصمم سرجون على ضرب هذا الثائر، وبدأ بغزو بلاد عيلام نفسها في العام 720ق.م، ولكن تشير مجريات الأحداث إلى أن نتيجة المعركة التي نشبت عند مدينة «دير»، (عند الحدود العراقية الإيرانية بالقرب من بلدة بدرة) لم تكن في صالح سرجون رغم ادعاء المصادر الآشورية خلاف ذلك، وكذلك التناقض ما بين الرواية البابلية الواردة في كتابة مردوخ بلادان وبين الرواية الآشورية. وقد عثر على نص مردوخ بلادان في أثناء

---

(1) فيما يلي المصادر الأساسية عن حكم سرجون:

(1) *ARAB*, II, 1 - 230.

(2) Gadd, in *IRAQ*, XVI (1954). 172 ff.

(3) Lie, *The Inscriptions of Sargon... The Annals* (1929).

(4) Tadmor, «The Campaigns of Sargon» in *JNES*, (1958).

(5) Thureau - Dangin, *Une relation de la Huitieme campagne de Sargon*.

التنقيبات الحديثة التي تمت في كالح «نمرود»[1]. والطريف ذكره بهذا الصدد أن سبب وجود نص مردوخ بلادان في نمرود مرده إلى تزوير تاريخي متعمد من جانب الملك الآشوري سرجون نفسه، فإنه نقل ذلك النص الذي وجده في مدينة الوركاء إلى مدينة نمرود ووضع بدلاً منه نصاً آخر يختلف تمام الاختلاف عن النص الذي نقله إلى نمرود. ومما يؤيد ذلك أن مردوخ بلادان استمر في الحكم في بلاد بابل زهاء أحد عشر عاماً (721 ـ 711ق.م). والمرجح كثيراً أن سرجون اضطر إلى الانسحاب من بلاد بابل لمعالجة الموقف الناجم من الثورات التي اندلعت في سورية، إذ بادر بإرسال حملة ضخمة في عام 720ق.م إلى تلك الجبهة، واستطاع أن يسحق حلفاً عسكرياً بزعامة ملك حماة المسمى «ايلو ـ بعدي» واشتراك جيش مصري.

وجرد سرجون في عام 713ق.م حملة أخرى إلى بلاد إيران فاستولى على جملة أقاليم ومدن مهمة في إقليم «كرمنشاه» و«همذان». وفي حدود ذلك الزمن ثارت القبائل الإيرانية بتحريض الدولة الأرمينية ومساعدتها في عهد ملكها المسمى «روساس». فقاد سرجون بنفسه في عام 714ق.م حملة كبيرة على تلك الأقاليم ونال نصراً كبيراً، وهذه هي الحملة التي عرفت باسم حملة سرجون الثامنة (في عام حكمه الثامن). وقد دونت أخبارها المفصلة وجاءت على هيئة رسالة أرسلها الملك إلى الإله آشور والآلهة الأخرى على أنها تقرير حربي من سرجون بصفته القائد الأعلى لجيوش الإله آشور. وتعد هذه الرسالة على قدر كبير من علو الأسلوب الأدبي، كما يتجلى ذلك بوجه خاص في الوصف الشعري الرائع للجبال والأنهار والغابات التي مرت بها جيوش سرجون وما لاقته هذه الجيوش من أهوال ومصاعب[2].

---

(1) انظر:

IRAQ, XV (1953), 123 ff.

(2) حول الترجمة راجع المصدر الخامس في الهامش رقم (30)، والتعليق على الحملة في:

Wright, in *JNES*, (1943), 173 ff.

ومن الحملات العسكرية المهمة تلك التي أرسلها في العام 717ق.م على دولة «كركميش» (جرابلس) وقضى على استقلالها، كما أرسل في خلال الخمس سنوات التالية جيوشاً إلى آسية الصغرى وقضى على استقلال جملة دويلات فيها مثل كيليكية (قوئي (Quê) في المصادر الآشورية) وفريجية (موسكي (Muski) في الأخبار الآشورية) وجاء اسم ملكها على هيئة «ميتا» (وهو ميداس في المصادر الكلاسيكية). والمرجح أن سرجون تسلم، وهو في آسية الصغرى، هدايا من ملوك «ياتنانا» السبعة، أي من أمراء جزيرة قبرص على ما يرى الباحثون، ولعل مما يؤيد ذلك المسلة العائدة لهذا الملك التي وجدت في «لرناكا» (Larnaka) (في قبرص).

وخلاصة القول أصبح سرجون في العام 710ق.م سيد الموقف من بعد انتصاراته في مختلف الميادين، وخضعت له بلاد الشام وأزال دولة إسرائيل من الوجود ونقل الكثير من أهلها أسرى وأسكنهم في بلاد ماذي، وجلب بدلاً منهم جماعات من بلاد بابل ولا سيما من منطقة «كوثى». كما تغلب على «مردوخ بلادان» وأعاد بلاد بابل إلى سلطة الدولة الآشورية.

دور ـ شروكين (خرسباد):

لم يستقر سرجون في عاصمة واحدة من العواصم الآشورية، فقد اتخذ في أول حكمه مدينة آشور القديمة مركز الحكمة ثم انتقل إلى نينوى، بالإضافة إلى العاصمة العسكرية «كالح» (نمرود) حيث جدد فيها بناء القصر الذي شيده «آشور ناصر بال». ثم اتجه أخيراً إلى تأسيس مدينة جديدة فاختار لذلك موضعاً بكراً، عند قرية قديمة اسمها «مگانبا»، على بعد نحو 15 ميلاً شمال شرقي نينوى، بالقرب من القرية المسماة «خرسباد»، فشرع في وضع أسس المدينة الجديدة في عام 717ق.م، وقد سماها باسمه أي «دور ـ شروكين»، وجعل شكلها مربعاً تقريباً، كل ضلع منه زهاء الميل الواحد (ومساحتها بالضبط 1760×1675 متراً مربعاً) وسورها بسور ضخم جعل له سبعة أبواب، كل منها سمي باسم إله آشوري على غرار بوابات نينوى، وتزينها منحوتات من

الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية، وكانت هذه بمثابة الملاك الحارس (Lamassu)، وجعلت شوارع المدينة مستقيمة متعامدة على نظام الـ (Grid) المتبع في المدن الرومانية. وشيد قصره فوق دكة أو مصطبة ارتفاعها (50) قدماً، وهو قصر واسع يحتوي على نحو مائتي حجرة وثلاثين ساحة، كما شيد في المدينة معابد للآلهة وبرجاً مدرجاً ذا سبعة طوابق، كل طابق منها ملون بلون خاص، ويرقى إليه بسلم حلزوني يدور حوله على غرار سلم المئذنة في سامراء التي يرجح اقتباسها من برج «خرسباد». وزين القصر الملكي بأنواع الزخارف مثل القاشاني المزجج الأزرق، والمزخرف بالصور والرموز المقدسة، بالإضافة إلى الثيران المجنحة التي كانت تزين المداخل، وألواح المنحوتات الحجرية الكثيرة المنحوتة بالمشاهد المختلفة والمنقوشة بالكتابات المسمارية. وقد قدر طول هذه المنحوتات، لو صفت الواحدة إلى جنب الأخرى، زهاء الميل ونصف الميل[1].

إن ما اكتشف في مدينة سرجون أضاف أشياء مهمة إلى معرفتنا بما بلغه فن البناء والعمارة وخطط المدن وفن النحت وسبك المعادن وصناعة التزجيج، أي الآجر المزجج. ويكفي أن نورد للتدليل على البذخ في تشييد هذه المدينة أن (26) ثوراً مجنحاً وجدت فيها، يزن كل منها معدل أربعين طناً، وتوجد نماذج جميلة منها في المتاحف العالمية. وقد بلغت المهارة في سبك المعادن وصبها درجة كبيرة، ولاسيما سبك معدن البرونز الذي صنعت منه الأسود والثيران. وعثر في مخازن القصر على آلات وأدوات حربية من الحديد تبلغ زنتها زهاء (200) طن. وقد أكمل بناء المدينة في مدة عشر سنوات، ولكن لم يتمتع بانيها بالسكن فيها أمداً طويلاً، إذ إنه توفي من بعد إتمام بنائها بعام

---

(1) كانت خرسباد كما ذكرنا في تاريخ التنقيبات والتحريات من أولى المواقع التي تحرى فيها أوائل المنقبين (من جانب الفرنسيين) في منتصف القرن التاسع عشر:

Bota, Flandin, *Les Monuments de Ninive* (1949-50).

V. Place, *Ninive et LAssyrie* (1867-70).

Loud, *Khorsabad,* (1936-8).

واحد (705 ق.م)، والمرجح أن سرجون لم يستطع السكنى فيها، كما أنه لم ينتقل إليها أحد من أبنائه الملوك الذين خلفوه، بل هجروها، ولعل بعضهم نقل جزءاً من منحوتاتها إلى قصورهم. أما نهاية سرجون فلا تعلم على وجه التأكيد، والمرجح أنه اغتيل، وحكم من بعده خلفاؤه من أسرته، وقد دامت السلالة التي أسسها زهاء القرن الواحد. ونوجز فيما يأتي أحداث التأريخ الآشوري في عهود خلفاء سرجون.

خلفاء سرجون

١ ـ سنحاريب:

خلف سنحاريب أباه سرجون في عام 704ق.م، وحكم إلى عام 681ق.م. وقد وجه نشاطه الحربي بالدرجة الأولى إلى الجبهة الغربية (بلاد الشام) وبلاد بابل. أما في الجبهتين الشمالية والشرقية اللتين صرف فيهما أبوه جهوداً كبيرة فقد سادهما شيء من الهدوء والاستقرار النسبيين في عهد سنحاريب. فاقتصر الأمر على إرسال حملات حربية ليست كبيرة إلى جبال «زاجروس» وآسية الصغرى ولاسيما إقليم «كيليكية». وجاء ذكر اليونان، وبوجه خاص اليونان الأيونيين، لأول مرة في أخبار الدولة الآشوري في كتابات سنحاريب[1].

وظهرت في زمن سنحاريب أقوام جديدة اندفعت من الأنحاء الجنوبية من روسية، وهم «الكميريون» (Cimmerians) الذين ورد ذكرهم في أخبار هذا الملك بهيئة «گميرايا» (Gimirrai). وقد عبرت هذه القبائل جبال القوقاس في نهاية القرن الثامن ق.م إلى آسية الغربية وبلاد الأناضول. وفي بلاد فينيقية

---

(1) حول أخبار سنحاريب ونصوصه الرسمية راجع:

(1) Luckenbill, *The Annals of Sennacherib,* (1924).

(2) *ARAB,* II, 231-496.

(3) A. Heidel, in *SUMER,* IX (1953), 117 ff.

(4) Waterman, *Royal Correspondence.*

وفلسطين أظهرت جملة دويلات العصيان والثورة على السلطة الآشورية، وقد جاء في هذه المرة جيش مصري لمساعدتها، وكان من بينها مملكة «يهوذا» في عهد ملكها المسمى «حزقيا»، فبادر سنحاريب إلى ضرب هذه الدويلات في عام حكمه الرابع (701ق.م). ولما أن تم له إخضاعها نصب بدلاً من الحكام والأمراء السابقين حكاماً جدداً. وضيق الخناق على مملكة يهوذا وحاصر عاصمتها أورشليم، وترك على حصارها كبير قواده الذي ذكر في التوراة باسم الـ«رابشاقة» (معناه كبير السقاة). وروت التوراة الحوار الطريف[1] الذي جرى بين اليهود المحاصرين وبين قادة الجيش الآشوري. وقد أبى الملك «حزقيا» الخضوع والاستسلام بتحريض النبي «اشعيا». ولا تعلم نتيجة الحصار بوجه اليقين، فتروي التوراة أن الجيش الآشوري حل فيه الوباء وفتك به، ولكن المرجح أن الجيش رفع الحصار عن أورشليم مقابل دفع جزية كبيرة من الفضة والذهب والنساء، من بينهن بنات الملك، كما جاء في حوليات سنحاريب[2].

ويبدو أن سنحاريب وضع الخطط وهو في فلسطين لغزو بلاد مصر، وشرع بالزحف في الطريق البري التأريخي من فلسطين حتى بلغ موضع العريش أو «رفح»، على بعد نحو (30) ميلاً شرقي القناة الآن ولكن هذه الحملة لم تحرز النجاح بسبب العواصف والزوابع الترابية التي حالت دون مواصلتها السير إلى داخل الأراضي المصرية، أما التوراة فتنسب إخفاق الحملة إلى التدخل الإلهي حيث إن «ملاك الرب خرج ليلاً وضرب مائة وثمانين ألف وخمسة آلاف». ويروي هيرودوتس رواية طريفة عن الموضوع إذ يعزو الإخفاق إلى أن حشوداً من الجرذان قضمت الجلود والحبال في سلاح الجيش، على أن المصادر الآشورية لم تذكر شيئاً عن ذلك الحدث.

وفي بلاد بابل أظهر سنحاريب القسوة البالغة إزاءها بسبب ظهور الثائر

---

(1) راجع سفر الملوك الثاني 18: 13، 19: 34، وسفر الأيام الثاني، 32: 1 ـ 2. وسفر اشعيا 36: 1ـ37.

(2) *ARAB*, II, 240.

القديم مردوخ بلادان الذي ثار في عهد أبيه واستقل في بلاد بابل فترة طويلة على نحو ما مر بنا. فعاجله سنحاريب في العام 703ق.م وقضى على جموعه، ولكنه استطاع الإفلات من الأسر. ونصب سنحاريب على بابل أحد أتباعه من البابليين المسمى «بيل ـ ابني» الذي نشأ وتربى في نينوى، على أن مردوخ ـ بلادان ظهر مرة أخرى من بعد ثلاث سنوات، ولكنه أخفق في مسعاه. وبعد ستة أعوام على هذه الأحداث صمم سنحاريب على غزو المدن العيلامية في سواحل الخليج، فجهز لهذا الغرض حملة بحرية وبرية ضخمة في عام 696 ق.م وطهر الأجزاء الجنوبية من الثوار من أنصار الثائر «مردوخ بلادان» والتقى من بعد ذلك الجيش البري بالأسطول الذي سيره الملك من نينوى إلى مدينة «اوبس» وعندها نقله إلى الفرات، وكان موضع الالتقاء المدينة المسماة «باب ساليميتي» القريبة من مصب الفرات بالخليج[1]، حيث كان النهران يصبان في الخليج منفردين. ونجح سنحاريب في غزو المدن العيلامية الساحلية، ورجع يحمل الغنائم وأسلاب الحرب الكثيرة، ولكن هذه الضربة لم تفض على تجدد الأطماع العيلامية ببلاد بابل، إذ إنها استمرت من بعد ذلك في تحريضها على العصيان، فثار البابليون في عام 689ق.م، وعندئذٍ صب سنحاريب جام غضبه على بلاد بابل فدمر المدينة المقدسة ودك حصونها وقصورها وسلط ماء الفرات على أنقاضها وأقسم أن بابل لن تقوم لها قائمة طوال 70 عاماً[2]. ولما ترك بلاد بابل عين ابنه أسرحدون والياً عليها بالنيابة عنه.

---

(1) حول «باب ساليميتي» وموضعي مصب النهرين قبل اتصالهما بالقرنة في الأزمان المتأخرة، راجع الفصل الخاص بالمقدمة.

(2) ومن الطريف ذكره بصدد هذا القسم أن «أسرحدون» لما خلف أباه في الحكم وعزم على إعادة بناء بابل، ولكي لا يحنث بقسم أبيه، فسر الرقم (70) بأنه رقم (11)، وكلا الرقمين يكتب بطريقة العدد الستينية بعلامتين مسماريتين متطابقتين مع تغيير مرتبتهما العددية.

طرف من أعمال سنحاريب العمرانية:

حكم سنحاريب ثلاثة وعشرين عاماً (704ـ681ق.م)، وقد مر بنا موجز بأبرز أعماله الحربية ولكنه إلى جانب ذلك اشتهر بنشاط كبير في حقل البناء والتعمير ومشاريع الري الزراعية في بلاد آشور. وأول ما نذكر من أعماله العمرانية أنه جعل نينوى العاصمة الرئيسية للأمبراطورية، ومن أجل ذلك وجه الشطر الأكبر من نشاطه العمراني إلى تجديد أبنيتها وتجميلها وتوسيعها وتحصينها. فقد زينها بإقامة المعابد والقصور الجديدة وعرس الحدائق الباسقة، وجعلها عاصمة تليق بالأمبراطورية الواسعة التي تطورت إليها المملكة الآشورية. فمن ناحية سعتها حولها من مدينة ذات محيط لا يتجاوز الميلين إلى مدينة بلغ محيطها زهاء ثمانية أميال، وضمت قسمين جديدين خصصهما الملك سنحاريب للقصور والمعابد، وهما الموضعان المعروفان الآن باسم تل «قوينجق» وهو القسم الشمالي من المدينة، وتل النبي يونس، في الجانب الثاني من المدينة على يمين الطريق الحديث من الموصل إلى بغداد.

وقد اقتصرت التنقيبات القديمة على الموضع الأول، أي تل قوينجق. أما منطقة تل النبي يونس فلم تمسه معاول المنقبين بعد.

وقد جعل في سور المدينة الداخلي خمس عشرة بوابة تحرسها الثيران المجنحة، وكل منها سمي باسم خاص منسوب على الأكثر إلى اسم أحد الآلهة المشهورة. وكان سنحاريب مولعاً بغرس الحدائق والبساتين فجلب لتجميل عاصمته الأشجار النادرة من أقطار مختلفة إلى حدائق نينوى. والمرجح أنه كان أول من أدخل زراعة القطن إلى العراق، وقد سماه الشجرة التي تحمل الصوف. وجلب إلى العاصمة ماءً عذباً من المنابع الخاصة بنهر الگومل بطريق قناة شيدها بأحجار الكلس، وهي تعبر المرتفعات والوديان فشيد لها القناطر في بعض الوديان مما لا تزال آثارها باقية. وتبدأ تلك القناة من الموضع المسمى «جروانة»، مسافة خمسين ميلاً

عن نينوى[1]. ونحتت عند صدر القناة (عند القرية المسماة خنس) على وجه حجرة شاهقة منحوتات تمثل الآلهة المختلفة مع كتابة موجزة عن هذا المشروع. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن سنحاريب خلف جملة منحوتات جبلية أخرى، مثل منحوتات «معلثاي»، في مدخل وادي دهوك، وفي جبل «جو دي داغ» عند الحدود العراقية ـ التركية[2].

أسرحدون:

تروي التوراة (سفر الملوك الثاني 19: 36 ـ 37) أن سنحاريب اغتاله أحد أبنائه. والمرجح أن نزاعاً أو حرباً أهلية نشبت على أثر ذلك، إلى أن استطاع ولي العهد «أسرحدون» وهو أصغر أبناء سنحاريب، إخمادها. ولعل مما يؤيد ذلك ما جاء في فاتحة حوليات أسرحدون نفسه[3] إذ يقول إن اتهامات إخوته ووشايتهم به أوغرت صدر أبيه عليه، بحيث إنه اضطر إلى الهرب والاختفاء. ومع أنه لم يذكر حادثة قتل أبيه إلا أن المحتمل، كما جاء في التوراة، أن أحد إخوته اغتاله، ويروي أسرحدون بهذا الصدد عنهم أنهم

---

(1) حول قناة سنحاريب التي تحراها جماعة من الآثاريين من جامعة شيكاغو انظر:
Jacobsen and Lloyd, *Sennacerib Aqueduct at Jerwan* (1935).
وعن المنحوتات الجبلية من عهد سنحاريب وغيره من الملوك الأشوريين:
W. Bachmann, *Felsreliefs in Assyrien*, (1927).

(2) حول قناة سنحاريب التي تحراها جماعة من الآثاريين من جامعة شيكاغو انظر:
Jacobsen and Lloyd, *Sennacerib Aqueduct at Jerwan* (1935).
وعن المنحوتات الجبلية من عهد سنحاريب وغيره من الملوك الآشوريين:
W. Bachmann, *Felsreliefs in Assyrien*, (1927).

(3) عن النصوص الخاصة بحكم أسرحدون بالإضافة إلى المرجع الأساسي المرموز له بـ ARAB, I انظر المراجع الآتية:
(1) C. Thompson, *The Annals of Esarhaddon and Ashur-banipal* (1931).
(2) A. Heidel, in *SUMER*, XII (1956), g ff.
(3) R. Borgar, *Die Inschriften Asarhaddons* (1956).
(4) S. Smith, *Bab. Historical Texts*, (1924).
(5) King. *Bab. Chronicles*, IV, 34-37.

صاروا من بعد ذلك «يناطح أحدهم الآخر كالتيوس لأخذ الملوكية». ومهما كان الأمر فإنه تغلب عليهم، واعتلى العرش الأشوري في عام 681 ق.م. وبعد أن استقامت له الأمور واستتبت أحوال المملكة كانت فاتحة أعماله إعادة بناء مدينة بابل من بعد تدمير أبيه لها كما مر بنا ولعله كان مدفوعاً باعتقاده أن ما أصاب أباه كان بسبب غضب آلهة بلاد بابل لانتهاك حرماتها. وقد استخدم أسرحدون أهل بابل في تجديد أبنيتها. وقد عثر في المدينة على نصوص مدونة وبقايا بنائية من عهد أسرحدون. بيد أن أعمال التجديد الجسيمة استغرقت وقتاً طويلاً استمر إلى بداية حكم ابنه وخليفته آشور بانيبال. وقد ضمن أسرحدون بأعماله المحسنة تجاه بابل رضا البابليين وتقبلهم لحكمه، فاستقامت له الأمور في بلاد بابل وعمها الاستقرار باستثناء ثورة جهيضة قام بها في عام 680ق.م ابن الثائر القديم «مردوخ بلادان» للاستيلاء على منطقة «أور».

ونشبت في الجبهة الغربية (بلاد الشام) ثورات لطرح النير الأشوري، ولكن أسرحدون استطاع أن يخمدها، نخص بالذكر منها الثورة التي قام بها ملك «صيدا» المسمى عبد ملكوتي في عام 677ق.م فكان مصيره الأسر والقتل ودمرت مدينته و«ألقيت في البحر» على حد تعبير حوليات هذا الملك، وأجلى سكانها إلى بلاد آشور؛ وأعطيت أراضيهم إلى أهل مدينة «صور»[1].

وبالنظر إلى هدوء الأحوال في بلاد بابل وفي بلاد الشام وجه «أسرحدون» نشاطه إلى الجبهتين الشمالية والشرقية. فإن الكميريين الذين رأيناهم يندفعون في عهد أبيه من جنوبي روسية ويعبرون القوقاز إلى آسية الصغرى وأرمينية وإيران قد التحقت بهم جماعات أخرى من أقربائهم جاءت من المهد نفسه في السنوات الأولى من حكم «أسرحدون»، وقد ذكر هؤلاء الأقوام الجدد في الأخبار الآشورية باسم اشكوزيين (Ishkuzai) وسكيثين (Scythians) في المصادر الكلاسيكية، وإن التقاء هؤلاء الاشكوزيين مع

(1) حول المعاهدة التي أبرمت مع ملك صور المسمى «بعلو» انظر:
R. Borgar, *Ibid., 107 ff.*

الكميريين جعل منهم قوة عظمى أخذت تهدد الولايات الآشورية وحامياتها في إقليم كيليكية وغيره (آسية الصغرى) في عام 679ق.م، وقد سبق لسرجون أن طرد الكميريين إلى ما وراء نهر «قزل ارمق» بيد أن أولئك الأقوام انقضوا على إقليم «فريجية» وقضوا على المملكة الحاكمة فيه بمساعدة الدولة الأرمينية. أما أسرحدون فقد اتبع سياسة المصالحة والتحالف مع تلك الأقوام، وقد أبرم معهم معاهدة سلم تزوج بموجبها أحد زعمائهم المسمى «بارتاتوا» من أميرة آشورية.

واستطاعت القبائل المادية المتمركزة في الهضبة الإيرانية، جنوب شرقي بحيرة أورمية، أن تستقل في عهد أسرحدون بزعامة أحد قوادها المسمى فرهارطس (Phraortes) في عام 680ق.م، وكانت سابقاً تابعة إلى الأمبراطورية الآشورية، فوجه أسرحدون عدة حملات حربية ولكنها لم تحرز النجاح التام.

فتح مصر:

نجح أسرحدون مرة بالحرب ومرة بالدبلوماسية أن يوطد الأمور في أرجاء أمبراطوريته الواسعة ـ في بلاد بابل وبلاد الشام، وفينيقية، وفي تخومها الشمالية والشمالية الشرقية المترامية، البالغة زهاء 1200 ميل. ولما استقامت له الأمور أخذ يعد العدة للبدء بمشروع حربي جسيم، سبق أن شرع فيه أبوه سنحاريب ولكنه لم يفلح، ونعني بذلك غزو مصر وضمها إلى الأمبراطورية الآشورية. ومهد لذلك بضمان ولاء القبائل العربية في بوادي الشام لسلامة مرور جيوشه الضخمة إلى سوريا ومنها إلى مصر، فعقد العهود مع بعض أمراء بادية الشام ومشايخها، مثل «دومة الجندل» (أدومو أو أدومتو في الأخبار الآشورية). وسار بجيوشه الجرارة في عام 679ق.م واستولى على المدينة التي ورد ذكرها باسم ارزاني في وادي العريش، وبلغ رفح (Rapihu) جنوب غزة، عبر صحراء سيناء. ويخبرنا في حولياته أنه لاقى الأهوال والعجائب في هذه الصحراء المخيفة، من أفاعٍ «ذوات رأسين» وحيوانات غريبة خضراء تفتك بضربات أجنحتها. وبعد مسيرة خمسة عشر يوماً بلغ حدود «مصر الخضراء»، وكان يحكمها تهارقا أو

«طهراقا» الحبشي (688-663ق.م) الذي لم يستطع صد الغزو الآشوري فهرب إلى جنوبي البلاد. ولعله من الطريف أن نورد جزءاً من نص أسرحدون عن غزو مصر: «من مدينة اشحفري (Ishupri) إلى العاصمة منفس (Mempi) وهي مسافة 15 يوماً قاتلت قتالاً متواصلاً جيش «طرقو» ملك مصر والحبشة، الملعون من جميع الآلهة. لقد أصبته خمس مرات بسهامي محدثاً به جراحاً لم يشف منها، ثم حاصرت ممفي، عاصمته وفتحتها في نصف يوم.. وغنمت الملكة وحرم قصره، وولي عهده وأولاده الآخرين، وجميع أمواله وخيوله وماشيته، وأخذت غنائم كثيرة إلى بلاد آشور، وأجليت جميع الأحباش عن أرض مصر، وعينت ملوكاً على أقاليم مصر، وحكاماً وموظفين ومراقبين للموانىء.. وفرضت عليهم الجزية السنوية تدفع إليّ بصفتي سيدهم»[1].

وعلى الرغم من تبجح أسرحدون لم يكن فتحه لمصر فتحاً دائماً، إذ عاد طهراقا من موضع اختبائه بعد عامين، واستعاد العاصمة «منفس» وشن الحرب على الحاميات الآشورية في الدلتا فأسرع أسرحدون يعد العدة للقضاء على طهراقا وسار بنفسه على رأس الجيش عبر سورية، ولكن عاجلته المنية وهو في حران في عام 669ق.م، فترك أمر مصر إلى خليفته في الحكم «آشور بانيبال»، الذي أعاد فتحها في 667ق.م مما سنذكره في كلامنا على حكمه.

قضية ولاية العهد:

قبل أن يتوفى أسرحدون بثلاثة أعوام رتب أمر ولاية العهد بين أبنائه،

---

(1) وجدت مديرية الآثار العراقية في نينوى عام 1955 في تل النبي يونس حيث بقايا قصر الملك أسرحدون، كسراً كثيرة من تمثال أو تماثيل الفرعون طهراقا، كما تدل على ذلك الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على بعض تلك الأجزاء، ووجدت كذلك كسراً من تمثال الآلهة المصرية أنوقت (Anuqet). ومما لا شك فيه أن تكون هذه البقايا وغيرها من بين الغنائم الحربية التي جلبها أسرحدون من مصر (انظر مجلة سومر، المجلد 11، 1955 والمجلد 12؛ 1956 وعن النصوص المتعلقة بفتح مصر، ولاسيما نصوص مسلة زنجرلي، انظر: (ANET, 293 ff.).

ولاسيما بين ولديه «شمش ـ شم ـ أوكن»، وهو الابن الأكبر، وابنه الأصغر «آشور بانيبال» الذي اختاره لتولي العرش. وعين الأول ملكاً على عرش بلاد بابل. وقد تمت هذه التسوية في اجتماع رسمي حضره الأمراء وقواد الجيش والسفراء وممثلون عن الأقاليم التابعة للأمبراطورية، وأخذ البيعة منهم في ولائهم لولي العهد آشور بانيبال، وأبرمت بهذا الشأن مع رؤساء الأقاليم التابعة معاهدة وجدت نسخة منها في نمرود في أثناء الموسم السادس من تنقيبات البعثة البريطانية 1955[1]. ويبدو أن ولي العهد المختار آشور بانيبال كان محبوباً مفضلاً من جانب جدته لأبيه الآرامية الأصل واسمها «نقية ـ زكوتو»، فحصلت من البابليين ومن حفيدها الثاني «شمش ـ شم ـ أوكن» على الولاء لآشور بانيبال.

ومع أن أسرحدون لم يقصد من وراء عمله ذاك تقسيم الأمبراطورية الآشورية بين ولديه، إلا أنه ضمن ولاء البابليين بتنصيب ملك عليهم ومنحه الثاني ـ آشور بانيبال ـ بجعله ملكاً على بلاد آشور وسائر الأقاليم والولايات التابعة لها.

آشور بانيبال:

وهكذا تبوأ آشور بانيبال عرش المملكة الآشورية (668ـ627ق.م) وتولى في الوقت نفسه أخوه «شمش ـ شم ـ أوكن» السالف الذكر عرش بلاد بابل، واستقامت الأمور ما بين الأخوين طوال سبعة عشر عاماً. وسنرى كيف آل الأمر ما بين الأخوين من بعد ذلك.

كانت أولى الأعمال التي اضطلع بإنجازها آشور بانيبال إعادة فتح مصر التي سبق أن رأينا كيف أنها ثارت من بعد عامين على فتحها من جانب أبيه الذي قلنا إنه جهز حملة لفتحها مرة أخرى ولكنه توفي في مدينة حران عام

(1) راجع نص المعاهدة في:
Wiseman, in *IRAQ*, XX (1958), g ff.

669ق.م. وكان أول ما شرع به آشور بانيبال في سبيل إنجاز هذه المهمة الحربية أن أرسل قائد الجيش الأعلى إلى سورية لاستنفار الجيوش وتعبئتها، فجمع جيشاً كبيراً أمدَّه به الملوك والأمراء التابعون، وسار من بعد ذلك إلى حدود مصر وأوقع الهزيمة بجيش الفرعون «طهراقا» فهرب من العاصمة «منفس» إلى طيبة، فلاحقه الجيش الآشوري وفتح هذه المدينة. وهكذا حقق الآشوريون في عهد آشور بانيبال عملاً عسكرياً يعد فريداً من نوعه بالنسبة إلى ذلك العصر، إذ إنهم فتحوا بلاداً نائياً تبعد أكثر من 1300 ميل عن موطنهم، تختلف عنهم في عاداتها وأوضاعها ويجهلون لغتها، الأمر الذي تعذر فيه حكمها حكماً مباشراً، ولذلك حذا آشور بانيبال حذو أبيه في تعيين ملوك وولاة من أهل البلاد من المناوئين لحكم الملك الحبشي «طهراقا» وإلى ذلك وضعت حاميات آشورية قوية في طيبة وفي منطقة الدلتا. بيد أن كل هذا لم يحقق الغرض، إذ ظهرت بوادر الثورة بعد فترة غير طويلة من جانب الكثير من أولئك الأمراء والملوك بالاتفاق مع طهراقا على اقتسام السلطة في البلاد. فأسرع القواد الآشوريون بمهاجمة المنشقين وأسروا الكثير منهم وأرسلوهم مكبلين إلى نينوى فقتلوا فيها. وأبقى الملك الآشوري على «نيخو» أحد ملوك الدلتا، إذ عفا عنه وأعاده إلى عاصمته في الدلتا، «سايس» (صا الحجر)، فاستعاد عرشه. ومع ذلك فقد تجددت الثورة في عام 655 بقيادة أحد أقرباء الملك الحبشي طهراقا الذي مات في أثناء هذه الحوادث. فجردت حملة آشورية أخرى ودخل الجيش الآشوري إلى طيبة للمرة الثانية ودمرت المدينة، وأخذت منها غنائم كثيرة من بينها مسلتان مغلفتان بالبرونز وانتهى الاحتلال الآشوري لمصر بظهور الملك الجديد المسمى «بسماتيك» الأول، الذي يرجح أنه كان ابن الملك نيخو، فأعلن هذا الاستقلال وطرد الحاميات الآشورية من الدلتا بمساعدة جند من مرتزقة الإغريق الآيونيين، وأسس الأسرة السادسة والعشرين (663ـ525ق.م). على أن المصادر الآشورية لا تذكر هذه الأحداث، بل مصدرنا عنها رواية هيرودوتس. أما آشور بانيبال فإنه لم يفعل شيئاً إزاء ذلك لأنه كان مشغولاً بحرب طاحنة في بلاد عيلام، وهكذا فإن

الاحتلال الآشوري لمصر لم يدم سوى فترة قصيرة لم تتجاوز الخمسة عشر عاماً (670ـ655ق.م).

الجبهات الأخرى:

كان للحملات العسكرية التي أرسلها آشور بانيبال إلى مصر ردود فعل من عدة جهات من الأمبراطورية الآشورية. فإن انشغال جزء غير قليل من الجيوش الآشورية في ميدان يبعد كما قلنا زهاء 1300 ميل سبَّب الضعف والوهن في القوات الآشورية وسرعان ما ظهرت بوادر العصيان والثورة في عدة ولايات مثل فينيقية وغيرها. ومع أن تسلسل الأحداث في السنوات الأخيرة من حكم آشور بانيبال غير مضبوط تماماً غير أنه يمكن تخمين ما وقع ما بين عام 665 وعام 655ق.م ومن ذلك تحالف هذا الملك مع الأشكوزيين (السكيتين)، والحرب في بلاد عيلام، واندحار الملك العيلامي المسمى «تيومان» الذي قتل في المعركة وقطع رأسه وأخذ إلى نينوى وعلق فوق شجرة في الحدائق الملكية، وقد جاء ذلك ممثلاً في إحدى المنحوتات من عهد الملك آشور بانيبال[1].

ونشبت في بلاد بابل ثورة عارمة قام بها أخو الملك نفسه، أي «شمش ـ شم ـ أوكن» الذي كان قد عين ملكاً على بلاد بابل من جانب أبيه، على ما ذكرنا. ولعل انشغال أخيه الملك في عدة جبهات أثارت أطماعه الكامنة بعد أن ظل موالياً له في الظاهر زهاء 17 عاماً. ولكي يضمن النجاح لثورته سعى بالمفاوضات السرية إلى الحصول على تحالف لمساعدته دخلت فيه بلاد فينيقية ومملكة يهوذا وبعض القبائل العربية في بادية الشام والكلدانيين الآراميين في الأجزاء الجنوبية من العراق والعيلاميين وحتى مصر وليديو (إحدى الولايات الشرقية في آسية الصغرى) وكان من المؤكد أن يوقع هؤلاء المتحالفون الضربة القاضية بالدول الآشورية لو أنهم بدؤوا العمل في وقت واحد، ولكن عيون

(1) Frankfort, *AAO*, pl. 114.

الملك اكتشفت المؤامرة. وبعد أن أنذر البابليين لردهم إلى الطاعة[1]، ولما لم يأبه بإنذاره البابليون نشبت الحرب الطاحنة بين الأخوين. وظلت المعارك تدور زهاء ثلاثة أعوام. ولما أدرك أخوه شمش ـ شم أوكن الموقف الميؤوس منه أضرم النار في قصره في بابل وقضى نحبه محترقاً وسط النيران، عام 648ق.م وحاول آشور بانيبال تهدئة بلاد بابل فعين أحد الزعماء الكلدانيين المسمى «قندلانو» نائباً للملك على عرش بابل (647ـ627ق.م).

وبعد الانتهاء من حرب بابل وتسوية قضية الحكم فيها على الوجه السابق جرد آشور بانيبال حملات على بعض القبائل العربية التي ساعدت أخاه في الحرب. ومما لا شك فيه أن جيوش الملك لم تستطع تحقيق النجاح التام في هذه الحملات، على أن الأخبار الآشورية تعدد جملة انتصارات مثل دحر رئيس القبيلة التي ورد ذكرها باسم «بني قيدار» ورئيسها أبي عاطي، وأنها غنمت أعداداً كبيرة من الجمال وجاءت بها إلى بلاد آشور وصار الجمل يباع بأقل من شيقل واحد من الفضة. وحصل حتى العمال والصناع والعبيد على هدايا من الجمال[2].

ووجهت حملة على ملك بلاد عيلام الذي وقف إلى جانب أخيه ودامت الحرب في عيلام زمناً طويلاً، انتهت بانتصار الجيش الآشوري في عام 639ق.م، ودمرت البلاد ونهبت العاصمة «سوسة»، وانتهكت حرمة معابدها وحطمت تماثيل آلهتها، ورميت بالنار، كما نبشت قبور ملوكها ونقلت عظامهم إلى بلاد آشور، لكي يحرم أشباح الموتى من الاستقرار فتنكل بالأحياء من أهل عيلام، ونثر الملح على أنقاض المدن المخربة. وبحسب تعبير الأخبار الرسمية «أحل الدمار في بلاد عيلام مسافة شهر و25 يوماً» وأخذت غنائم كثيرة من الذهب والفضة. وكانت هذه في الواقع ضربة ماحقة لم تقم من بعدها لبلاد عيلام قائمة.

---

(1) انظر الرسالة رقم 301 المنشورة في: Waterman, *op. cit,*

(2) *ANET*, 299.

سقوط الأمبراطورية الآشورية:

لم يكد يمضي زمن طويل على تدمير بلاد عيلام حتى أخذت ظواهر الأحوال تشير إلى أن الملك آشور بانيبال نجح في توطيد أركان أمبراطوريته الواسعة الممتدة من جبال طوروس وجنوبي الأناضول وأرمينية وبحر قزوين إلى جبال زاجروس وإلى الخليج العربي.

ولكن رغم الظواهر سرعان ما انهار ذلك البناء الشامخ الضخم. فكيف وقع ذلك؟ ومع أن سقوط الدولة الآشورية يشترك في علله وأسبابه العامة مع الكثير من الأسباب التي درج المؤرخون على تعدادها عن سقوط الدول والأمبراطوريات، بيد أن سقوط الأمبراطورية الآشورية يتفرد في بعض العلل الخاصة، منها ما كان خافياً ومنها ما كان ظاهراً للعيان. فمن الأسباب الظاهرة أن المتتبع للتأريخ الآشوري لا بد وأن تلفت نظره حقيقة بارزة فيه، تلك هي تطرف الملوك في سياسة الفتح والغزو والإغراق في النواحي العسكرية والروح الحربية. وتكاد تكون أعوام حكم ملوكها حروباً متواصلة، بحيث إنهم حملوا مواردهم فوق طاقاتها، ومدوا فتوحهم إلى جهات نائية يتعذر الاحتفاظ بها، ولعل أوضح مثال على ذلك فتح مصر الذي أنهك ماكنة الحرب الآشورية عدة سنوات. وإلى ذلك فإن سياسة القسوة والتدمير والقتل الجماعي والتمثيل بالأسرى التي سار عليها الملوك الآشوريون جرت على الآشوريين، رغم الإرهاب الذي كانت توقعه بالشعوب المفتوحة، نقمة الشعوب وسخطها، أما ولاؤها وتبعيتها لهم فلم يكن ليحصل إلا باستمرار الإرهاب والبطش إلى حد الإسراف. وابتدع ملوك الدولة الآشورية وسائل جهنمية في هذا الشأن، ومنها سياسة تهجير الشعوب والأقوام برمتها ومحو البعض منها، بحيث يصح القول إن مثل تلك المظالم قد برهنت على صحة الحكمة التأريخية القائلة «الظلم إذا دام دمر». وإلى هذا فإن التطرف والإغراق في العناية بفنون الحرب والفتك والدمار على حساب فنون السلم والبناء سبب إهمال تطوير موارد البلاد وتحميلها فوق طاقاتها.

ومهما كانت حقيقة الأسباب الخفية والظاهرة في سقوط الأمبراطورية

الآشورية فيجدر أن نوجز الأحداث المباشرة، فنقول إن السنوات الأخيرة من حكم آشور بانيبال (639ـ630) يكتنفها الغموض، فقد انقطعت حولياته منذ عام 639ق.م ولعل السبب في ذلك الاضطرابات الداخلية والنكسات العسكرية، ولذلك فيكون المؤرخ الشهير هيرودوتس مصدرنا الوحيد في ما رواه عن هجمات الماديين[1]، إذ يقول إن افراهاط ملك الماديين هاجم الآشوريين ولكنه قتل في المعركة (653ق.م) وخلفه ابنه كي‌اخسار (Cyaxares) الذي لم يواصل الحرب مع الآشوريين ولكن الاشكوزيين فرضوا سيادتهم على الماديين، وعبروا جبال زاجروس وغزوا بلاد آشور وسورية وفلسطين وكادوا أن يدخلوا إلى مصر لولا أن الفرعون «بسماتيك» دفع لهم الجزية، وبعد نحو 28 عاماً تمكن «كي‌اخسار» السالف الذكر من طرح نير الاشكوزيين عن قومه بقتله زعمائهم وهم ثملون في وليمة شرب، واستطاع هذا الملك المادي أن يكون من القبائل المادية جيشاً قوياً ضخماً، واتخذ «اكتبانا» (همذان) عاصمة له، ووسع حدود مملكته من بحيرة أورمية إلى منطقة طهران وبلاد فارس. وصادف في حدود ذلك الزمن أن البابليين استأنفوا محاولتهم لنيل الاستقلال عن التبعية الآشورية. وتزعمهم في هذه المرة حاكم «القطر البحري» (الأجزاء الجنوبية من بلاد بابل) المسمى نبو بولاصر وهو كلداني أي آرامي الأصل، فهجم على الحامية الآشورية في مدينة نفر 626ق.م ثم قصد بابل واستقل بعرشها وأخذ يصفي الحاميات الآشورية الأخرى في بلاد بابل، كما سبق له أن تحالف مع الملك المادي «كي ـ اخسار»، السالف الذكر، الذي توجه في حدود ذلك الزمن بجموعه إلى بلاد آشور. أما الملك آشور بانيبال فإنه توفي في العام 627 أو 626ق.م وخلفه على العرش ابنه المسمى آشور اطل ايلانسي الذي لم يدم حكمه زمناً طويلاً وتلاه في الحكم أخوه المسمى «سين شار ـ اشكن» الذي لم يستطع إنقاذ الوضع المتدهور سوى اتخاذه موقف الدفاع إزاء هجمات الملك البابلي «نبو بولاصر» فالتجأ إلى

(1) Herodotus, I, 102 ff.

طلب العون من ملك مصر، بسماتيك الأول، ولكن العون المصري جاء متأخراً في الوقت الذي كانت فيه العاصمة الآشورية «نينوى» مهددة بالسقوط من جانب «نبو بولاصر»، كما أن الجيوش المادية بلغت في زحفها في نهاية عام 615ق.م إلى منطقة كركوك، ثم مدينة «آشور» التي سقطت بأيديهم في عام 614ق.م. والتقى الملك البابلي بالملك المادي «كي ـ اخسار» عند أسوار هذه المدينة. وعقدت ما بين الملكين معاهدة تحالف وصداقة كان من نتائجها زواج ولي العهد البابلي نبوخذ نصر الشهير من ابنة الملك المادي المسماة «أميتس»[1] وزحف الجيش من بعد ذلك على العاصمة نينوى القريبة وكان الهجوم الأخير في عام 612ق.م قد قرر مصير الدولة الآشورية حيث سقطت العاصمة العظيمة، رغم ما أبداه المدافعون عنها من بسالة واستماتة في حصار دام طوال ثلاثة أشهر. وهكذا سقط ذلك «المارد الآشوري» بعد أن دوخ العالم القديم عدة قرون[2]. وانسحبت فلول الجيش الآشوري إلى مدينة حران، بقيادة أحد قواد الملك الآشوري «سين شار ـ اشكن» المسمى آشور أوبالط الثاني. وجاء عام 610ق.م جيش من مصر لمساعدة الآشوريين فأسرعت الجيوش البابلية والمادية إلى حران. وبعد حرب قصيرة استولت عليها، فكان هذا نهاية الفصل الأخير من تلك الدراما التأريخية.

موجز الخصائص الحضارية:

لما كنا سنخصص الجزء الثاني من هذا الكتاب للأوجه والمقومات المختلفة لحضارة وادي الرافدين وبضمنها الحضارة الآشورية، فإننا نكتفي في هذا الموجز بذكر أبرز الخصائص المميزة لهذه الحضارة، مثل نظام الحكم والحرب والفنون وغير ذلك من الأمور التي تفردت بها الثقافة الآشورية.

---

(1) حول هذه الأحداث انظر: Gadd, *The Fall of Nineveh*.

(2) حول صدى سقوط بلاد آشور عند اليهود راجع التوراة ولا سيما أسفار الأنبياء مثل سفر «ناحوم» 2 ـ 3 فما بعد، وسفر «زفانيا»، 2: 13 فما بعد، وسفر حزقيال 31: 3، 32: فما بعد.

وأول ما نذكر أن ننبه إلى ما يكون قد انطبع في ذهن القارىء مما أوجزناه عن التأريخ السياسي والحربي للآشوريين من أن ذلك التأريخ لم يكن سوى سلسلة من الحملات والحروب الدموية المدمرة، من جانب شعب طغى عليه هوس العظمة الحربية. ومع أننا لا ننكر أن الآشوريين كانوا في الواقع أمة حربية في جميع عهودهم، وتميزوا عن أقربائهم البابليين في هذه الناحية، وسجلوا بأنفسهم الفظائع والمظالم التي ارتكبها ملوكهم وقواد حربهم، إلا أنه يصح القول مع ذلك، وأرجو ألا يحمل مني ذلك على أني أدافع عن الحرب والتدمير، إن الآشوريين لم ينفردوا في هذه الأمور عن الأمم الحربية الأخرى، قديمها وحديثها، بل إن من الأمم الحديثة ولا سيما الأوروبية من فاقت الآشوريين في إحلال الدمار والهلاك بالشعوب المغلوبة. ونأخذ من الأمم القديمة على سبيل المثال الدولة الرومانية، سواء كانت في عهدها الجمهوري القديم المضاهي للعصر الآشوري الوسيط أم في العهد الأمبراطوري، المضاهي أيضاً لعصر الأمبراطورية الآشورية، فلم يكن الرومان أقل براعة من الآشوريين بل فاقوهم في أفانين التدمير والتعذيب، واللهو بقتل الأسرى، أو أنهم يدعون الأسرى بقتل بعضهم بعضاً أو تفترسهم الوحوش الضارية في ملاعبهم المشهورة (امفيثياتر) حيث النساء والشيوخ والأطفال يتسلون بمشاهد العذاب والدماء. ومع ذلك فالغريب في الأمر أن ينفرد الآشوريون دون سائر الأمبراطوريات القديمة بشهرة الظلم والقسوة، مما جعل اسمهم مرادفاً للصفات والنعوت البغيضة ولا سيما بين الشعوب الأوروبية. وعندي أن مرد ذلك إلى الدعاية والتشهير اللذين نالهما الآشوريون على أيدي مدوني التوراة، من جراء العلاقات العدائية بينهم وبين العبرانيين، والضربات الماحقة التي وجهها إليهم الآشوريون. ولا يخفى أن التوراة تأتي في مقدمة وسائل الدعاية في العالم الحديث، حيث يقرأها المسيحيون صغارهم وكبارهم ليل نهار، في حين نسيت مظالم الدول العسكرية الأخرى إلا لدى من يقرأ تأريخها.

وثمة ميزة تفردت بها الحضارة الآشورية استتبعت اتساع الفتوح الآشورية. فإن الثقافة الآشورية إلى جانب صلتها بالحضارة «الأم» (السورية

والبابلية) أثرت وتأثرت بدورها بثقافات شعوب أخرى كثيرة اتصل بها الآشوريون عن طريق الحرب والسلم، بحيث يصح أن يطلق على الآشوريين «ورثاء العصور». وكانت اتصالات الآشوريين الواسعة عاملاً مهماً في التقاء الثقافات والحضارات المختلفة واختلاطها. وإذا تذكرنا ما تميز به الملوك الآشوريون من الولع بتدوين أخبارهم الحربية والسلمية تدويناً مفصلاً في حولياتهم ورسائلهم ووثائقهم الرسمية المختلفة أدركنا أهمية أخبار الدولة الآشورية على أنها من أهم المصادر التأريخية، ونذكر على سبيل المثال الأخبار المهمة عن الأرمن وملوكهم وعن قبائل الاشكوزيين (السكيثيين) والكميريين والأقوام الإيرانية مثل الماذيين والأقوام الجبلية المختلفة في شمال العراق وشماله الشرقي وبعض القبائل العربية البدوية في بوادي الشام. ومثل هذا يقال حتى بالنسبة إلى الأمم الأخرى ذات التأريخ المدون، كالعبرانيين والمصريين والعيلاميين والحثيين والبابليين، وشعوب آسية الصغرى من بعد الحثيين. فإن ما وصل إلينا في المدونات الآشورية الرسمية يضيف إلى مصادر معرفتنا بتأريخ مثل هذه الشعوب أموراً على غاية من الأهمية.

والآشوريون حتى من بعد سقوطهم السياسي وزوال دولتهم تفرقوا واختلطوا بالشعوب المجاورة، فاستخدم الفرس الاخينيون الكثير من أصحاب الحرف والمهن والفنانين الآشوريين في تشييد مدنهم وتجميل قصورهم، فاستمر الكثير من تراث الحضارة الآشورية، وأخذت عنهم الأقوام الأخرى عناصر مهمة من النظم العسكرية والإدارية والسياسية. ولعل أبرز من أخذ عنهم الدولة البابلية الأخيرة، أي سلالة نبو بولاصر وابنه نبوخذ نصر. واقتبست الأمبراطورية الفارسية الاخمينية الشيء الكثير من التنظيمات الإدارية والعسكرية. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد اتصال الآشوريين في عهد أمبراطوريتهم الأخيرة بالإغريق ولاسيما الأيونيين منهم منذ زمن سنحاريب[1].

---

(1) انظر:

King, «Sennacherib and the Ionians» in *Journal of the Hellenic Studies*, XXX, 327 ff.

الدولة والنظم السياسية والمجتمع:

كان الملك يقوم على رأس ماكنة الدولة الآشورية، وكان يجمع في شخصه كل السلطات الزمنية والدينية. فكان في قمة الهرم من سلطات الدولة، بل إنه كان الدولة نفسها. وأما جهاز الدولة من كبار الموظفين وصغارهم، مدنيين وعسكريين، فكانوا كلهم «خدم الملك العظيم، القدير، ملك بلاد آشور، ملك الكون»، بحسب التعبير المستعمل في ألقاب الملوك الرسمية. على أن الملك الآشوري، مثل الحاكم أي الأنسي السومري القديم والملك السومري والبابلي، كان يستمد سلطته من كبير الآلهة الآشورية «آشور» والآلهة العظام الأخرى، بطريقة التفويض الإلهي، فكان يحكم الناس بالنيابة عنه ويمثله على الأرض. وكان أول من اتخذ لقب الملك «شرام» Sharrum الملك الآشوري شمسي ـ أدد الأول (1813ـ1781ق.م) في حين أن الملوك والحكام القدامى قبله كانوا يلقبون أنفسهم باللقب السومري القديم «آنسي» المرادف للمصطلح الآكدي ـ الآشوري. . «اشاكم».

وأول ما يمتاز به النظام الملكي الآشوري أنه كان وراثياً، مثل النظام البابلي بوجه عام. فكان الملك يختار ولي عهده في أثناء حياته من بين أبنائه. ويفرض البيعة والولاء له على الأمراء من العائلة المالكة وعلى جميع وجهاء المملكة وكبار قواد الجيش، وأمراء الأقاليم التابعة. وكان يفترض في ذلك التعيين أنه تنفيذ لإرادة الإله «آشور» وبعد استشارة كبار الآلهة، مثل الإله «شمش» وسين عن طريق الفأل والكهانة. وحالما يتم اختيار أحد أبناء الملك ولياً للعهد فإنه يترك قصر أبيه الملك ويعيش في قصر خاص يطلق عليه اسم، بيت الخلافة أو بيت ولاية العهد، وبالآشورية «بيت ريدوتي» وقد عثر على بقايا مثل هذه القصور في الموضع المسمى «تربيصو» (تل شريف خان الآن شمال نينوى ببضعة أميال). وكان يتم في هذا القصر إعداد ولي العهد للحكم، فكان يعلم وظائف «الملوكية» وواجباتها وأساليب الحكم، وتعهد إليه مهمات عسكرية وإدارية مهمة، من بينها النيابة عن أبيه الملك عند غيابه. هذا بالإضافة

إلى تلقينه بمختلف فنون الحرب والقتال وفنون السلم. وقد نال بعض ولاة العهد تربية وتدريباً عاليين، نخص بالذكر منهم «آشور بانيبال» الذي يذكر في نصوصه أموراً مفصلة عن إعداده وتربيته ونورد منها قوله ـ «حصلت على الفنون الخاصة بالآلهة «ندابا»، واستقيت المعارف الخاصة بالكتبة، وحذقت آيات السماء والأرض (نبوءات الفأل)... ودرست ظواهر السماء. واستطعت أن أحل قضايا عويصة في القسمة والضرب وأتقنت فن الكتابة السومرية، والكتابة الآكدية البالغة الصعوبة.. وكان يطيب لي أن أقرأ الأحجار والأنصاب المكتوبة من أزمان ما قبل الطوفان. وكنت طيلة يومي أمتطي فرسي بفرح وحبور، وأقصد موضع الصيد وأمسك قوسي فأرمي منه السهام الجديدة، وأقذف بالرماح الثقيلة، وأمسك بعنان خيل العربات، وأسرع فيها، وتعلمت استعمال التروس الثقيلة.. وفي الوقت نفسه كنت أجهد في تعلم الآداب والسلوك الملكية. فكنت أمثل بحضرة الملك، أبي، وأصدر الأوامر إلى النبلاء والأمراء، ولم يكن يعين حاكم بدون موافقتي ولا والٍ بدون حضوري»[1].

وجرت العادة أن الملك إذا مات أعلن الحداد في المملكة، وكان الملك المتوفى يدفن في العاصمة القديمة آشور فكانت هذه المدينة بمثابة المدينة المقدسة لدفن الملوك وتتويجهم فيها كما سنبين بعد قليل. وقد وجدت في أثناء التنقيبات التي أجراها الألمان فيها (1904ـ1914) جملة توابيت ثقيلة من الحجر المنحوت تحت القصر القديم[2]، وكان كل منها يحتوي على رفات مشاهير الملوك الآشوريين، وقد عين بعض هذه التوابيت بأنها تعود إلى الملك «آشور ـ بيل كالا»، وآشور ناصربال وشمسي ـ ادد الخامس، ولكنها وجدت فارغة، إذ عبث بها في الأزمنة القديمة. وبعد أن يدفن الملك بفترة كانت تقام مراسيم تتويج الملك الجديد التي كانت تجري في العاصمة القديمة «آشور»

(1) *ARAB*, II, 986.

(2) Haller, *Die Gräber und Grüfte von Assur*, (1954).

أيضاً. ولما كنا سنذكر تفاصيل الاحتفال بالتتويج في الجزء الثاني من هذا الكتاب فيكفي أن ننوّه هنا بأهم جزء فيها وهو أن الملك الجديد كان يحمل على عرشه ويتقدمه الكاهن الأعلى وهو ينادي ـ «آشور هو الملك.. آشور هو الملك» ثم يتوجه الموكب إلى معبد الإله آشور المسمى «اي ـ كور» فيدخل الملك إلى الحجرة المقدسة ويقدم كأساً من الذهب مملوءاً بالزيت و«منا» من الفضة وحلة موشاة فاخرة، ويسجد إزاء تمثال الإله وعندئذٍ يمسحه الكاهن الأعلى بالزيت ويسلمه شارات الملوكية، «تاج آشور وصولجان ننليل»[1]، ثم يتلو العبارة: التاج على رأسك فعسى آشور وننليل سيدا التاج وصاحباه، أن يجعلاه يدوم فوق رأسك مائة عام، وعساك أن تنال الرضا والقبول وأنت في معبد «اي ـ كور» ويداك مرفوعتان مبسوطتان تدعوان إلى إلٰهك آشور. فعليك أن توسع بلادك بصولجانك المستقيم، وعسى آشور أن يمنحك الرضا والطمأنينة والحكم العادل[2].

ويقصد الملك الجديد من بعد ذلك إلى القصر حيث يجتمع الأمراء وكبار رجال الدولة فيحيون الملك الجديد ويتخلون عن مناصبهم ورتبهم ويطرحون شارات وظائفهم وأوسمتهم، فيعيدهم الملك الجديد إلى مناصبهم إذا أراد.

واشتهر الملوك الآشوريون بسهرهم ويقظتهم في إدارة شؤون الدولة ويأتي في مقدمة الوسائل المحققة لذلك أنهم كانوا على اتصال دائم بولاتهم وحكام الأقاليم التابعة يومياً تقريباً عن طريق الرسائل المتبادلة ولنا أن نتصور كثرة عدد الكتبة والسكرتاريين الذين يكونون في صحبة الملك لإملاء الأوامر عليهم. وإلى هذا الواجب المرهق كان الملك يستقبل السفراء والمبعوثين

---

(1) الآلهة «ننليل» بالأصل زوجة الإله السومري الشهير «انليل» ولكن جعلت في بلاد «آشور» زوجة الإله (آشور).

(2) حول مراسيم التتويج راجع:
Frankfort, *Kingship and The Gods.*

الأجانب. وبصفته قائد الجيش الأعلى كان يضع خطط الحملات الحربية. أما في الأوقات الأخرى فإن رياضة الملوك المحببة كانت صيد الحيوانات الوحشية في الأراضي والغابات الملحقة في العادة بقصورهم أو في المواضع التي تتردد إليها تلك الحيوانات المفترسة كالأسود والثيران الوحشية والفيلة والحمر والخيول البرية. ولعل خير ما يمثل لنا ولع أولئك الملوك برياضة الصيد المنحوتات الشهيرة وما صور فيها بإبداع وبراعة فائقتين من مشاهد صيد الأسود، ويعد بعض تلك المنحوتات من قطع الفن الرفيع على المقياس العالمي، مثل مشهد اللبوة والأسد الجريحين ومشهد مطاردة الخيول الوحشية.

وكان الملك الآشوري يتفرد عن الملك البابلي بأنه كان علاوة على وظيفته الملكية المرهقة، الكاهن الأعلى للإله آشور ورئيس الكهنة الأعلى، فكان عليه أن يقوم بإجراء الشعائر والطقوس الدينية والسحرية المقدسة. فإلى جانب سهره على العناية بمعابد الآلهة وتجديد بنائها وضمان القيام بأداء أدوار رئيسية في بعض الأعياد الكبرى مثل عيد رأس السنة الجديدة. فبصفته ملكاً وكبير كهنة الآلهة كان يضطلع بالشعائر الخاصة بتقديم الطعام والشراب يومياً إلى الإله آشور وكبار الآلهة، وهو المصطلح المسمى بالآشورية «تاكلتو»، ثم تناول هذا الطعام المقدس بعد أن يأكل منه الإله بوجه رمزي، وعليه أن يقوم بالتطهير المقدس (بيت رمكى).

والملك مسؤول إزاء الآلهة عن صالح الناس وخيرهم. وكان عليه أن يصوم صوماً خاصاً إذا كانت نبوءات الفأل تنذر بشر يقع في البلاد. ولما كان وجود الملك بين البشر تتوقف عليه سلامتهم فقد حرص القوم على ألا يصيبه أي مكروه في حالات قرب وقوع الشر بطريقة إقامة الملك البديل pukh sharri وهو شخص يختار بموجب إرشادات الفأل ويتوج وينصب ملكاً فعلياً فترة من الزمن ما دامت نذر الشر قائمة لكي تقع عليه الأخطار فيدرأها بذلك عن شخص الملك الحقيقي، وقد سبق أن نوَّهنا بتلك الحادثة الطريفة في تأريخ

سلالة ايسن البابلية حينما اغتصب الملك البديل العرش وقضى على الملك الحقيقي.

ومع أن الملك الآشوري كان مطلق السلطة وغير مسؤول لأحد سوى الآلهة، بيد أن الواقع العملي أنه لم يكن ليستطيع أن يمارس سلطته هذه إلا بإسناد الطبقة الأرستقراطية أو بالمصطلح الآشوري «ماري بنوتي»، وقد مرت بنا حالات في التأريخ الآشوري نشبت فيها ثورات داخلية على الملك من جانب الطبقة الحاكمة وكثيراً ما تزعمها أحد أبناء الملك أو أحد من ذوي قرباه. كما أن الولاة وقواد الجيش وكبار موظفي الدولة كان يختارهم الملك من تلك الطبقة الأرستقراطية، وعلى ولائهم للملك كانت تقوم سلطته وحكمه.

ولم يكن للملك الآشوري ولا للملك البابلي أيضاً وزير أو وزراء بالمعنى الحديث لهذا المصطلح، بل كان يعتمد على مستشارين مقربين من كبار موظفي الدولة وقادة الجيش وعلى رأسهم ما يسمى بالآشورية «تورتانو» ـ القائد العام ـ والـ«ناگر ايكالي» nagir ekalli وغيرهم. والعادة أن مثل أولئك الموظفين الكبار يعينون في مناصبهم زمناً طويلاً (قد يدوم ثلاثين عاماً)، وكانوا يقطعون القطائع الكبيرة. وقد ورد الكثير من رتب كبار الموظفين في أثبات «اللمو» التي سبق أن تطرقنا إليها.

ويأتي في السلم الاجتماعي من بعد طبقة النبلاء، وهم الطبقة العليا في المجتمع، طبقة الناس الأحرار، وفي مقدمتهم ذوو المهن والحرف الأحرار Ummane كأصحاب المصارف والتجار والأطباء والكتبة والصناع، وبوجه الاختصار ما يسمى بالطبقة البرجوازية وكانوا منظمين في جمعيات أو نقابات على غرار نقابات القرون الوسطى في أوروبا، والغالب أن محلات معينة كانت تخصص لكل حرفة أو مهنة. أما الطبقة الاجتماعية التي كانت في العهد البابلي القديم والتي ورد ذكرها في شريعة حمورابي بمصطلح «مشكينو»، فإنها اختفت من الوجود تقريباً بصفتها الطبقة الوسطى من الأحرار، وصار المصطلح يستعمل بمعنى لغوي للفقير، مثل الكلمة العربية «مسكين» ويأتي من بعد الطبقة

الوسطى التي نوَّهنا بها عامة الناس من الفلاحين والأجراء ثم طبقة العبيد الكثيرة العدد في المجتمع الآشوري ومصدرها بالدرجة الأولى أسرى الحروب وكان الكثير من العبيد يعلمون الحرف والصناعات اليدوية لتنمية موارد أسيادهم.

الجيش:

سبق أن نوَّهنا مراراً كيف أن نظام الحرب والجيش[1] كان محور المجتمع الآشوري، ومثل أحسن الجيوش المشهورة في التأريخ كان الجيش الآشوري يقوم على نوعية جنده وإعدادهم وعدتهم ونظام التدريب والضبط الصارم وكان الجيش الآشوري في مبدأ أمره مكوناً بالدرجة الأولى من طبقة الفلاحين الأشداء من بلاد آشور نفسها. ولكن أصبح هذا المصدر للجيش الآشوري بمرور الزمان وباتساع رقعة العمليات الحربية لا يكفي لتزويد ماكنة الحرب الآشورية بالمادة الضرورية لها، فبدأ الملوك ولا سيما منذ مطلع عهد الأمبراطورية الثانية يؤلفون جيوشاً قائمة من أهل الولايات التابعة، إذ كان على كل والٍ أن يجهز الملك بالجند من إقليمه، واختصت الولايات المختلفة بإمداد جيش الملك بصنف خاص من المحاربين، مثل الخيالة من إيران وبلاد ماذي والقبائل الآرامية، والجمالة من القبائل العربية، والمشاة من بلاد الأناضول وبلاد الشام. أما الآشوريون من طبقة الأحرار فقد ظلوا يدعون إلى الخدمة العسكرية، ولكنهم كان باستطاعتهم أن يجهزوا الملك بعبيدهم وتجهيزهم بما يلزم لهم من سلاح وعدة وإلى ذلك كان الكثير من سكان الولايات التابعة يتطوعون في الجيش الآشوري بصفتهم جنداً مرتزقة.

ومع غزارة الأخبار الآشورية الخاصة بحملات الجيوش فإنها لا تمدنا بحقائق مهمة عن الجيش مثل حجمه وتنظيمه، وخططه العسكرية. فإن تلك

---

(1) فيما يأتي أهم البحوث عن الجيش الآشوري:

(1) Yadin, *The Art of the Warfare in Biblicad Lands,* (1963).

(2) Von Soden et, al, in *IRAQ,* XXV (1963).

الأخبار يندر أن تذكر عدد الجند في الحملات الحربية المشهورة، وهي إذ تبالغ في خسائر جيوش الأعداء لا تذكر خسائر الجيوش الآشورية. ونجهل أيضاً رتب قادة الجيش، ما عدا القائد العام مثل الترتانو والرابشاقة اللذين مر ذكرهما، وضباط من ذوي الرتب الصغيرة مثل رئيس السبعين ورئيس الخمسين.

أما أساليب القتال في الميدان فلا يمكن الوقوف عليها من أخبار الحروب الآشورية إلا في حالات قليلة، وبوجه عام أيضاً، مثل قتال نصب الكمائن وهجوم المباغتة[1]. وإزاء سكوت الأخبار المدونة عن هذه الأمور يستطيع الباحث أن يستنتج أموراً مهمة عن الجيش الآشوري من المنحوتات البارزة التي لا تحصى تقريباً مما عثر عليه في قصور الملوك الآشوريين، ولاسيما ما وجد منها في نمرود ونينوى وخرسباد. فإذا درسنا موضوع المشاهد الحربية في مثل هذه المنحوتات استطعنا أن نميز صنفين رئيسين من المشاة[2] مشاة مسلحين بأسلحة خفيفة مثل رماة السهام والمقاليع[3] ومشاة مسلحين بأسلحة ثقيلة مثل الرماحة. وكان الغالب على لباس الصنف الأول ما يصح أن نسميه الجلباب القصير، في حين أن الرماحة كانوا محميين بلباس الزرد ويحملون تروساً مستطيلة قد تكون أطول من الجندي في بعض الحالات. ويلبس رماة السهام والرماحة برؤوسهم بيضات مخروطية الشكل، وتكون البيضة في بعض الأحيان ذات عرف أو ريشة على غرار خوذ الحرب الإغريقية[4]. ويحمل القسم الأكبر من المشاة سيوفاً قصيرة أو فؤوساً أو

---

(1) انظر الرسالة المرقمة 1237 في:
Waterman, *op. cit.*

(2) راجع: *CAH.*, I, Part 2, (1971), P. 732

(3) ذات المصدر ص (733).
(1) Gelb, *Hurrians and Subarians, (1944).*

(4) عثر في نمرود (1957) على أنواع مختلفة من الأسلحة في قلعة شيلمنصر:
D. Stronach, in *IRAQ*, XX, (1958), 169 ff.

دبابيس mace وينتعلون ـ جزمة ـ نصفية. أما صنف الخيالة فكان جنده موحدي اللباس تقريباً، وسلاحهم الرماح الطويلة أو الحراب والفؤوس. وكانوا يمتطون الخيل عارية ـ أي بدون سرج ـ، ولكن الخيول صارت في عهد السلالة السرجونية تحمى بالزرد. ويوجد صنف ثالث من الجيش هم راكبو العربات الخفيفة ذوات العجلتين وكان يجرها فرسان أو ثلاثة، وتحمل كل عربة ثلاثة أو أربعة محاربين. والغالب أن الجيش كان يجهز بالمؤن والذخائر المحملة بالعربات مع الأتباع والخدم في مؤخرة الجيش.

آلات الحصار والهدم:

يعزى الكثير من نجاح الجيوش الآشورية في فتح المدن والحصون إلى ما كانت تزود به من آلات الحصار ودبابات النقض. وقد سبق أن نوَّهنا كيف أن الآشوريين استغلوا معدن الحديد في عصرهم الحديث إلى أبعد حدود الاستغلال في صنع آلاتهم ومكائنهم الحربية الرهيبة بالنسبة لذلك الزمان. وكان يدير شؤون هذه الآلات، صنف خاص من الجيش هم المهندسون والفنيون، الذين يعهد إليهم أيضاً مهام ردم خنادق المياه المحيطة بالمدن لحمايتها وحفر الأنفاق تحت الأرض للدخول إلى المدن المحاصرة في الوقت الذي يمطر الجند المهاجمون المحاصرين بوابل من القذائف وهم في أبراج ثابتة أو متحركة لحمايتهم، وتقوم الآلات الضخمة كالدبابات أو الكبأش Battering Ram بدك الأسوار، ويحاول الجيش المحاصر أن يدافع عن الحصن أو المدينة المحاصرة برمي المهاجمين بالقذائف النارية أو المشاعل ويتم الهجوم الأخير بتسلق أسوار المدينة بالسلالم أو من خلال الثغرات التي تحدثها آلات النقض في الجدران، فيدخل الجيش ويعمل في جندها وأهلها القتل والحرق والدمار. وقد مثلت مشاهد حصار المدن وفتحها في المنحوتات الآشورية بكثير من التفصيل والدقة.

وتعد هذه المنحوتات على قدر عظيم من الأهمية ليس في درس فن

الحرب بل إنها إلى ذلك مصادر أساسية لتفهم الحضارة الآشورية في أوجهها ومقوماتها المختلفة.

الفن:

اشتهر الفن الآشوري لدى العالم الحديث قبل غيره من العناصر الأخرى في حضارة وادي الرافدين لأنه كان أول ما عرف من هذه الحضارة قبل أكثر من مائة عام يوم كشفت عنه أولى التنقيبات في العراق في منتصف القرن الماضي، حيث رأينا في الفصل الخاص بتأريخ التحريات الأثرية كيف بدأت التنقيبات عن بقايا حضارة وادي الرافدين في العواصم الآشورية مثل نمرود ونينوى وانصراف جهود المنقبين الأوائل إلى الكشف عن المنحوتات الآشورية ولا سيما الضخمة منها لشحنها إلى أوروبا وعرضها في متاحفها المشهورة.

ومما يقال عن تأريخ الفن الآشوري إنه يمكننا تحديد زمن ولادته في القرن الرابع عشر ق.م، أي في العصر الآشوري الوسيط، أما ما قبل ذلك أي في العصور القديمة فإن ما ظهر من فن في بلاد آشور كان مقتبساً كله تقريباً من الفن البابلي في الجنوب بيد أن شخصيته أخذت تستقل وتتميز منذ العصر الآشوري الوسيط في طرزه وأساليبه وفي مواضيعه ولا سيما الشؤون الدنيوية الخاصة بالدولة وأعمال الملوك، أما في المواضيع الدينية فقد حافظ على المآثر القديمة. وفي وسعنا الوقوف على الخصائص المميزة للفن الآشوري من زمن الملك «توكاتي ـ نينورتا» الأول (1244ـ1208ق.م)، وفي مقدمة ذلك المشاهد العسكرية مثل الملك مع جنوده وعرباته الحربية، ومثل استعمال الآجر المزجج واستعمال رمز «الشجرة المقدسة»، وأخذ الفن الآشوري طابعه الخاص أخيراً في العهد الآشوري الحديث حيث طغى عليه تمثيل مشاهد الحروب والصيد والشؤون الملكية الأخرى مما كان يزين قصور الملوك، كحصار المدن ودك الحصون وتهجير السكان وسوق الأسرى والتمثيل بهم، إلى غير ذلك مما يمكننا أن نقرأ فيه تطور أساليب القتال وآلات الحرب والأسلحة. ومن الممكن تقسيم الفن الآشوري إلى ثلاث فترات أو أطوار،

فالطور الأول يمثل عهد الملك آشور ناصر بال الثاني (883ـ859ق.م) وعهد ابنه شيلمنصر الثالث (858ـ824ق.م) حيث جاءتنا من عهدهما قطع فنية ممثلة مما لم يكن معروفاً في السابق، أما الطور الثاني فيبدأ من القرن الثامن ق.م، من عهد الملك ثجلاثبليزر الثالث (744ـ727ق.م) وشيلمنصر الخامس (726ـ722ق.م) وسرجون (721ـ705ق.م) ويمثل الطور الثالث عهود خلفاء سرجون، وهم سنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال.

وعلى ضوء هذه اللمحة التأريخية نورد الملاحظات الموجزة التالية عن خصائص الفن الآشوري:

1 ـ حلّق الفن الآشوري في النحت البارز Reliefs أكثر منه في النحت المجسم. فبالإضافة إلى قلة الأمثلة من النحت المجسم، مثل تماثيل الملوك القليلة والثيران المجنحة، فإن هذه الأمثلة لا تضاهي روعة الفن البارز وقوة التعبير اللتين تميزانه.

2 ـ إن أسلوب النحت البارز أصيل وعريق في حضارة وادي الرافدين فقد ظهر منذ العهد الشبيه بالكتابي منتصف الألف الرابع ق.م، واستمر في تقدمه وتطوره في العصور التالية، فسار الآشوريون على هذا التراث القديم، ولكنهم لم يعنوا بتمثيل المواضيع الدينية عناية كبيرة، بل اتجهوا إلى تمثيل المواضيع الملكية الرسمية التي نوَّهنا بها، وبعبارة أخرى استخدم الفن الآشوري لأغراض الدعاية الملكية لإحداث الخوف والرعب والطاعة في قلوب من يشاهدونه عن عظمة الملك وقدرته وجبروته وبطشه وفتوحه، فأصبح بذلك فناً رسمياً أمبراطورياً، موضوعه الأساسي التعبير عن فكرة الملك الفاتح المنتصر.

3 ـ من الأشياء التي أضافها الآشوريون إلى فن النحت البارز مما استتبع الغرض الذي استخدم من أجله، استعماله بكثرة في تجميل جدران القصور الملكية، والمحتمل أن الآشوريين اقتبسوا هذا النمط من التزيينات

الجدارية من الحثيين في الأناضول، حيث كانوا يزينون قصورهم في الألف الثاني ق.م بتغطية أسافل الجدران بالمنحوتات البارزة.

4 ـ وجد الآشوريون المادة الضرورية لمنحوتاتهم الكثيرة في الأحجار المتيسرة في بلادهم، مثل حجر الحلان المشهور بنوعيه، أحدهما الضارب إلى الحمرة والنوع الضارب إلى الصفرة، وكلاهما من حجر الكلس.

5 ـ بلغ من النحت البارز أوج إبداعه في تمثيل المشاهد الحية، وقد وجدت منه قطع يحق لها أن تأخذ مكانها اللائق بها بين روائع الفن العالمي مثل مشاهد الصيد الذي ولع فيه الملوك الآشوريون وكان رياضتهم المحببة، ويكفي أن نذكر من مشاهد الصيد المنحوتة الأسد واللبوة الجريحين. ومطاردة الخيول الوحشية وغيرها من القطع الفنية المشهورة بين نقاد الفن بحيث يصح القول إن فن النحت الآشوري لم يتفوق عليه من فنون الحضارات القديمة سوى الفن اليوناني[1].

العاجيات:

كان فن نحت العاج أو قطعه معروفاً في حضارة وادي الرافدين من عصر فجر السلالات (مطلع الألف الثالث ق.م) كما تدل على ذلك النماذج التي وجدت في معبد الآلهة «عشتار» في مدينة ماري (تل الحريري عند الحدود العراقية السورية الآن، ولكن لم يشع استعماله في العصور التالية، ثم عاد إلى

(1) يوجد في معظم المتاحف العالمية نماذج من المنحوتات الآشورية، ولكن المتحف البريطاني ومتحف اللوفر (في باريس) ينفردان بكبر مجاميعهما. وندرج فيما يأتي المصادر الأساسية عن الموضوع:

(1) Frankfort, *AAO.*

(2) Parrot, *Assur,* (1961).

(3) Barnet and Ferman, *Assyrian palace Reliefs,* (1960).

(4) Gadd, *The Assyrian Sculptures,* (1934).

(5) S. Smith, *Assyrian Sculptures in the British Museum.*

الظهور مرة أخرى في منتصف الألف الثاني ق.م في بلاد الشام ولاسيما في الأجزاء التي كانت ضمن التأثيرات الحضارية من وادي النيل مثل فينيقية. وانتشر هذا الفن إلى بلاد أرمينية وإيران منذ الألف الأول ق.م ومع أن الكثير من الآثار العاجية التي وجدت في المدن الآشورية المشهورة مثل آشور وخرسباد ونمرود كان قد جلب على أنه غنائم حرب أو أنه استورد من بلاد الشام، إلا أنه وجدت قطع كثيرة يدل طرازها ومواضيعها وأسلوبها على أنها كانت مصنوعة صنعاً محلياً في بلاد آشور. وقد تضمنت العاجيات الآشورية قطعاً نفيسة كانت أجزاء من الأثاث الملكية مثل الكراسي والعروش والأسرة والأبواب. وبعضها عبارة عن صناديق صغيرة أو أوعية وملاعق ودبابيس للشعر والملابس والأمشاط. كما صنعت من العاج تماثيل وأشكال مجسمة أو المنحوتة نحتاً كثير البروز، وكان البعض منها مطعماً بالأحجار الكريمة وملبساً بالذهب، وقد مثلت في فن العاج مواضيع ومشاهد مختلفة، منها الدينية ومنها الدنيوية. وكشفت التنقيبات الحديثة في نمرود عن مجموعات كبيرة ومتنوعة من آثار العاج النفيسة، معظمها من حصن شيلمنصر، كما وجدت في أثناء التنقيبات القديمة مجموعات أخرى مهمة[1].

(1) حول عاجيات نمرود انظر:
Barnet, *A Catalogue of the Nimrud Ivories*, (1957).

الفصل التاسع

العهود الأخيرة من تأريخ العراق القديم

١ ـ الدولة الكلدانية، والعصر البابلي الحديث

قام في بلاد بابل في أواخر حكم الملك الآشوري «آشور بانيبال» (668 ـ 6/ 627 ق.م) آخر دولة بابلية، هي الدولة الكلدانية أو سلالة بابل الحادية عشرة، ويسمى عهدها أيضاً بالعصر البابلي الحديث الذي دام زهاء القرن الواحد (626ـ539ق.م). وكان آخر عهود بلاد بابل وهي دولة مستقلة، حيث تلته أدوار صار فيها العراق ولاية تابعة، أولاً إلى الفرس الأخمينيين (539 ـ 331ق.م) ثم إلى السلوقيين المقدونيين، خلفاء الإسكندر الكبير (331 ـ 126 أو 138ق.م). ثم الفرس الفرثيين أو الأرشاقيين (126 أو 138ق.م ـ227ب.م). وأخيراً الفرس الساسانيين (227 ـ 637م).

ومع قصر هذه الفترة في تأريخ بلاد بابل وهي دولة مستقلة إلا أنها خليقة بأن تعد من العهود المجيدة في تاريخ حضارة وادي الرافدين، وأنها آخر دور في حياة هذه الحضارة حصل فيه إحياء وانبعاث جديدان وخلف آثاراً وبقايا مهمة في معظم مدن العراق القديمة، بالإضافة إلى ما وصل إلينا من نصوص مدونة، سواء كانت سجلات ملكية رسمية أم وثائق خاصة كالعقود التجارية والاقتصادية إلى غير ذلك من السجلات الخاصة بشؤون الحياة والمعاملات اليومية، مما يضع بين أيدي الباحثين مادة قيمة لدرس الأوجه الحضارية المتنوعة.

نبو بولاصر:

رأينا مما مر بنا في كلامنا عن حكم الملك الآشوري «آشور بانيبال» كيف انتهى حكم هذا الملك وكيف قضى على الدولة الآشورية بتحالف قوى كثيرة من الولايات التابعة لهذه الدولة، وفي مقدمتها «الماذيون» في جهات إيران الشمالية الغربية والبابليون الذين تزعم ثورتهم على السلطة الآشورية أحد حكام الأجزاء الجنوبية (القطر البحري)، هو «نبو بولاصر» الذي يرجع في أصله إلى إحدى القبائل الآرامية في العراق، هي القبيلة المسماة «كلدو» (كشدو أو كسدو). فثار هذا الزعيم الكلداني في عام 627ق.م وأعلن ملوكيته عام 626ق.م، وكان حاكماً تابعاً للدولة الآشورية، وبعد أن قضى على الحاميات الآشورية في بلاد بابل وجه هجماته على بلاد آشور نفسها، فاستطاع مع حلفائه الماذيين، في عهد ملكهم المسمى «كي ـ اخسار» القضاء على الدولة الآشورية، وقد سقطت العاصمة نينوى في العام 612ق.م، ثم طوردت فلول الآشوريين إلى منطقة حران، وتم القضاء على البقية الباقية من الجيوش الآشورية في عام 610 أو 609ق.م.

ويبدو من مجريات الأحداث التي أعقبت القضاء على آخر مقاومة للآشوريين أن الماذيين لم يضموا بلاد آشور إلى بلادهم بل إنهم اكتفوا بالأسلاب والغنائم فانسحبوا إلى بلادهم تاركين حليفهم «نبو بولاصر» وشأنه ليقتطع ما يستطيع اقتطاعه من أقاليم الأمبراطورية الآشورية، فوجه اهتمامه الأول إلى الاستيلاء على سورية وفلسطين بالنظر إلى أهمية هذه المنطقة الحيوية لبلاد بابل، وليحول دون تغلغل الجيش المصري فيها، فقد سبق للفرعون المصري «نيخو» الثاني (610ـ595ق.م) أن جاء على رأس جيش إلى سورية لمساعدة حلفائه الآشوريين فاستولى عليها وبضمن ذلك دولة «يهوذا» في عهد ملكها «يوشيع»، ثم استولى على كركميش (جرابلس)، مسيطراً بذلك على نقطة استراتيجية، هي طريق نهر الفرات، الأمر الذي هدد الدولة البابلية تهديداً خطيراً. فأسرع الملك البابلي «نبو بولاصر» إلى إرسال حملة عسكرية كبيرة وعهد بقيادتها إلى ابنه وولي عهده «نبوخذ نصر»، لطرد الجيش المصري.

فباغته في عام 605ق.م في كركميش السالفة الذكر وأوقع فيه الهزيمة[1]، وهكذا انفتحت أبواب بلاد الشام وفلسطين أمام «نبوخذ نصر».

نبوخذ نصر (٦٠٤ ـ ٥٦٢ق.م):

وبينما كان ولي العهد نبوخذ نصر يعد العدة لمطاردة فلول الجيش المصري إلى داخل البلاد المصرية من بعد معركة «كركميش» وتقدم إلى حدود العريش بلغته الأنباء بموت أبيه فأسرع بالعودة إلى بابل ليتبوأ عرش المملكة، فتوج ملكاً عليها في 23 أيلول عام 604ق.م، ودام حكمه فترة طويلة (604ـ562ق.م) كانت من العهود المجيدة في تأريخ العراق القديم.

لم يمكث نبوخذ نصر في عاصمته بابل فترة طويلة بل إنه قصد بلاد الشام مرة أخرى من بعد عام من تتويجه، وفرض سلطته على الدويلات السورية، وأخذ الأتاوة والجزية من جملة مدن مثل دمشق وصور وصيدا وأورشليم، ولكنه دمر مدينة «عسقلون» (عسقلان) بسبب ثورة ملكها. ولا يعلم على وجه التأكيد متى عاد إلى بابل. وتروي التواريخ البابلية أن معركة كبيرة نشبت بعد ثلاث سنوات بينه وبين ملك مصر، ولكن لا يعرف أين وقعت، ولعله عند الحدود المصرية، كما يبدو أنها لم تكن حاسمة.

مملكة يهوذا والسبي البابلي:

لما رأى «يهوياكيم»، ملك مملكة يهوذا الموالي للفرعون المصري «نيخو» الثاني انتصارات نبوخذ نصر في بلاد الشام أظهر له الطاعة وقدم الجزية، ولكنه نكث العهد بعد فترة بتحريض ملك مصر (7/ 598ق.م)، على الرغم من نصائح النبي «أرميا» وانقطع عن دفع الجزية فأسرع نبوخذ نصر بإرسال جيش حاصر «أورشليم» فاستسلمت له في عام 597ق.م، وهلك ملكها «يهوياكيم» في أثناء

---

(1) عن أخبار هذه الحوادث في المصادر البابلية انظر:
Wiseman, *Baoylonian Chronicles*.
وراجع أيضاً التوراة ولا سيما سفر الملوك الثاني، 22:29، وسفر أرميا، وأسفار الأيام والأخبار وهيرودوتس الكتاب الثاني، 159 فما بعد.

الحصار، وأسر من اليهود (3000) أسير، ونصب «نبوخذ نصر» على مملكة يهوذا «صدقيا»، وكان هذا هو السبي الأول لليهود، وكان من بين الأسرى الذين أخذوا إلى بابل «يهوياكين» أو «يهوياقين» ابن الملك السابق.

إن هذه الأحداث وتوطيد السلطة البابلية في بلاد الشام جعلت ملك مصر المسمى «حوفرا» (ابريز Apris) (589 ـ 570ق.م) يدرك الأخطار التي أحاقت بمصالح مصر التجارية المعتمدة على الموانىء الفينيقية، قاعدة العدو لغزو فلسطين، وقد نجح بادىء ذي بدء إذ استطاع أن يستولي على غزة كما أنه ضيق الخناق على صور وصيدا. فأسرع نبوخذ نصر بالتوجه على رأس جيشه إلى بلاد الشام، وجعل مقر قيادته في مدينة «ربلا» قرب حمص، ومنها كان يوجه العمليات الحربية. وكان ملك يهوذا «صدقيا» الذي نصبه نبوخذ نصر ملكاً عليها قد خلع ولاءه لملك بابل وانحاز إلى جانب الفرعون المصري. فضيق الحصار على أورشليم، فاستسلمت له من بعد (18) شهراً (عام 586ق.م)، وتشبث صدقيا بالهرب والنجاة ولكنه قبض عليه في مدينة «أريحا»، فأخذ هو وأولاده إلى معسكر الملك البابلي في «ربلاء»، وكان غضب الملك شديداً فأمر بذبح أولاده أمام عينيه، ثم فُقِئت عيناه وأخذ مكبلاً مع الأسرى اليهود الذين قدر عددهم بنحو (40,000) أسير، إلى بابل، ودمرت أورشليم ودكت معالم هيكل سليمان (سفر الملوك الثاني 25: 6ـ7، وسفر الأيام الثاني 36، 13 ـ 20). وهذا هو السبي البابلي الثاني لليهود الذين مكثوا في بلاد بابل إلى زمن الدولة الفارسية الأخمينية حيث رجع بعضهم إلى فلسطين. ومما يقال عن بقاء اليهود في بلاد بابل ما تركه من تأثيرات كبيرة في الديانة العبرانية، في تطور معتقداتها الأساسية بحيث يصح القول إن هذه الديانة بصفتها ديانة موحدة ونضج فكرة الوحدانية فيها إنما تمت في أثناء بقاء اليهود في بلاد بابل، كما بدأ فيها جمع أسفار التوراة وتدوينها ما بين القرنين السادس والخامس ق.م، ودون التلمود البابلي الشهير في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، هذا بالإضافة إلى ما أخذه اليهود من آداب حضارة وادي الرافدين ومعارفها وأساطيرها وقصصها.

بعد أن قضى نبوخذ نصر على الدولة اليهودية أخذ يعاقب المدن الفلسطينية والسورية الأخرى التي تمردت عليه ونبذت الطاعة، فأعاد عليها السلطة البابلية بسرعة، إلا مدينة صور التي قاومت حصاراً طويلاً روي أنه دام طوال ثلاثة عشر عاماً، إذ سقطت بيد الجيش البابلي في عام 571ق.م. أما مصر فإنها لم تتخل عن تحريض الدويلات السورية للثورة على السلطة البابلية، ولعل نبوخذ نصر صمم على غزو مصر في عهد الفرعون «أماسيس» (568ق.م) كما يشير إلى ذلك نص غير كامل في المتحف البريطاني[1]، ولكن لا يعلم مدى نجاح الحملة العسكرية التي أرسلها لذلك الغرض.

وسير نبوخذ نصر عدة حملات عسكرية لإخضاع بعض القبائل العربية في بادية الشام، ضماناً لسلامة الطرق التجارية التي تربط العراق ببلاد الشام ثم بموانىء البحر المتوسط، ويبدو أنه حقق خضوع بلاد الشام واستقامت له الأمور فيها طوال البقية الباقية من حكمه، أي زهاء عشر سنوات. وخلف نبوخذ نصر جملة بقايا تذكارية في جبال لبنان كما تشير إلى ذلك منحوتات نهر الكلب[2] ووادي «بريسا»[3].

---

(1) Wiseman, *op. cit.* 30, 94-5.

(2) منحوتات نهر الكلب والنقوش الكتابية المشهورة التي يمكن مشاهدتها الآن، بحسب تسلسلها التاريخي: (1) كتابة الفرعون «رعمسيس» الثاني القرن الثالث عشر ق.م (2) ستة نقوش آشورية أوضحها نقش الملك الآشوري «أسرحدون» (671ق.م) (3) نقش نبوخذ نصر (4) نقوش إغريقية مطموسة غير واضحة (5) نقش الأمبراطور الروماني «كراكلا» (Caracalla) (مطلع القرن الثالث الميلادي) (6) نقش عربي غير واضح (7) أزال الفرنسيون أحد النقوش المصرية ونقشوا بدلاً منه كتابة تسجل احتلالهم لبنان (1860ـ1862) (8) كتابة الجنرال الفرنسي «غورو» وبجانبه نقش الجنرال الإنجليزي «اللنبي» (9) تذكار جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (1942) (10) وأخيراً نقش لبناني في ذكرى جلاء الفرنسيين من لبنان (1946).

(3) انظر:

King, *Die Neubabylonischen Königinschriften* (1912).

وإلى جانب الحروب الموفقة التي خاضها نبوخذ نصر فإنه كان من أعاظم الملوك في حقل البناء والتعمير، ولعله كان أعظم ملوك العراق القديم في هذه الناحية، بالنظر إلى همته وطول عهده (43 عاماً). وخصصت كتاباته الرسمية بالدرجة الأولى لتسجيل نشاطه العمراني في بابل وفي جميع مدن العراق المهمة، ويرينا الآجر المختوم باسمه والذي يجده المرء منتشراً في كل مكان من بلاد بابل أنه جدد بناء المعابد والقصور في كل مدينة ذات شأن في البلاد، على أنه خصص جهوده لإعادة بناء العاصمة بابل بعد أن تردت أوضاعها من جراء الإهمال وأعمال التدمير والتخريب إبان الحروب التي عانتها المدينة مما مر بنا، مثل تدمير سنحاريب والتدمير الذي رافق الحرب الأهلية ما بين الملك الآشوري «آشور بانيبال» وأخيه ملك بابل «شمش ـ شم ـ أوكن» ولذلك يصح القول إن نبوخذ نصر قد بناها من جديد، فإن ما كشفت عنه التنقيبات الألمانية (1899ـ1917) وما يشاهده الزائر الآن من بقايا إنما هي من أعمال نبوخذ نصر بالدرجة الأولى، أما بقايا المدينة القديمة فقد سبق أن نوَّهنا بأنها تقع الآن تحت مستوى المياه الجوفية، وسنفرد وصفاً موجزاً لمدينة بابل.

خلفاء نبوخذ نصر:

بعد أن حكم نبوخذ نصر ثلاثة وأربعين عاماً (604ـ562ق.م) خلفه على عرش بابل بضعة ملوك لم يكونوا بالخلفاء الجديرين باسمه وبإدارة الدولة أو الأمبراطورية التي أقامها، وكان حكمهم في الواقع فترة ضعف سبقت انهيارها. وكانت السنوات الأخيرة من حكم نبوخذ نصر يكتنفها الغموض ولعله حدث في أثنائها بعض الاضطرابات الداخلية. وخلفه في الحكم ابنه المسمى «إميل ـ مردوخ» (أويل ـ مردوخ) المذكور في التوراة (سفر الملوك الثاني 25: 27، وسفر أرميا 42: 31) ولم يحكم هذا الملك سوى عامين (562 ـ 560ق.م)، ولا نعرف عنه سوى بعض الأمور الطفيفة وما جاء عنه في التوراة من أنه أظهر عطفاً على الملك اليهودي «يهوياقين» الذي كان قد

جيء به أسيراً إلى بابل[1]، كما يرجح أن إميل مردوخ قتل من جراء انقلاب داخلي دبره كهنة بابل. وتولى العرش من بعده قائد الجيش المسمى «نرجال ـ شار اوصر» (560 ـ 556ق.م) (وهو نرجلسار الوارد في سفر أرميا 34: 3) وكان زوج ابنة الملك «الملك نبوخذ نصر»، ولا يعرف عن هذا الملك سوى بعض أعماله البنائية، ولكن أحد التواريخ البابلية تذكر أنه أرسل حملة عسكرية عبر جبال طوروس إلى كيليكية. وخلفه في الحكم ابنه المسمى «لباشي ـ مردوخ» الذي لم يستطع الاحتفاظ بالعرش سوى بضعة أشهر، حيث لاقى حتفه في عام 556ق.م في أثناء انقلاب داخلي، ونصب الثوار ملكاً على بلاد بابل اسمه «نبونيدس» (نبونهيد) الذي كان على ما يبدو من كبار رجال الدولة في عهد «نبوخذ نصر» حيث كان قد بعث به في عام 585ق.م لتسوية النزاع ما بين الماذيين وبين مملكة «ليدية» (في آسية الصغرى). وكان أبوه المسمى «نبو ـ بلاصواقبي» أحد النبلاء والوجهاء في مدينة حران، وأمه الكاهنة العليا[2] في معبد الإله «سين» (الإله القمر) في تلك المدينة، ويرجح أنها كانت من أسرة آشورية أرستقراطية.

وكان المؤرخون المحدثون من الجيل القديم يهملون الكثير من جوانب شخصية الملك «نبونيدس» وأعماله ومآثره المهمة ويقتصرون على ناحية ولعه بالبحث عن أخبار الماضي واستخراج النصوص القديمة المطمورة في المدن القديمة مما جعلهم ينعتونه بأول أثري، وأنه إلى ذلك أهمل شؤون الدولة

---

(1) من الطريف ذكره بهذا الصدد أن ألواحاً من الطين وجدت في بابل من عهد «نبوخذ نصر» مدونة بسجلات الجرايات الخاصة بأسرى اليهود، ذكر من بينهم اسم «يائو ـ كينا» الذي يرجح أنه «يهوياقين»:

Saggs, *The Greatness That was Babylon*, p. 144.

(2) في نص شاهد قبر وجد في منطقة حران ذكر اسم أم هذا الملك بهيئة «أدد ـ كبي». وقد سبق أن ذكر في الفصل السابق في كلامنا على الملكة «سميراميس» أن هيرودوتس (الكتاب الأول: 184-188) يذكر ملكة بابلية أخرى خلفت سميراميس اسمها (نيتوكرس) وأنها أم الملك «لابينيتوس» (تحريف نبونيدس).

وقصر اهتمامه على شؤون الكهنة وعبادة الإله القمر في مدينة «حران»، ولكن الواقع من الأمر أن ما نشر من نصوص مسمارية جديدة أظهرت أنه إلى جانب ذلك كان إدارياً ورجل دولة من الطراز الأول، وأن قضايا خطيرة شغلته ووجه نشاطه لحلها، وكانت ذات طبيعة دينية واقتصادية. فعلى الصعيد الديني، ينبغي أن ينظر إلى اهتمام «نبونيدس» بعبادة الإله القمر (سين) على ضوء التيارات الدينية الجديدة التي تعرضت إليها المعتقدات الدينية في وادي الرافدين من جراء الاتصالات والتأثيرات من العبرانيين والماذيين، وبوجه خاص انتشار آراء التوحيد ومزاحمتها لمعتقدات الشرك وتعدد الآلهة وعبادة الأصنام وهي الصفة الطاغية على ديانة حضارة وادي الرافدين، فحملت هذه التيارات الجديدة «نبونيدس» على إحداث تغييرات في المعتقدات الدينية والشعائر الخاصة بها والتخفيف من حدة الشرك بجعل العبادة تتركز حول الإله القمر «سين»، ولكن دون نبذ عبادة الآلهة الأخرى، أما وقوع اختياره على هذا الإله فناشىء من أسباب عائلية وقومية. فإن جدته لأبيه وكذلك أباه وأمه كانوا من كهنة هذا الإله في حران. ثم إن عبادة الإله القمر كانت العبادة المفضلة عند الأقوام السامية البدوية من آرامية وعربية بخلاف عبادة إله بابل «مردوخ» الذي يرجع إلى أصول سومرية بعيدة عن أمزجتهم. ولذلك وجه عنايته إلى معابد الإله «سين»، وصرف الجهود الكبيرة على معبده في مدينة «أور»، كما أبانت التنقيبات الأثرية في هذه المدينة. وإلى هذا فإن اهتمام «نبونيدس» بمدينة حران وإقليم حران له وجه مهم آخر، هو أهميتها التجارية الكبرى بكونها ملتقى طرق تجارية مهمة وأحد مفاتيح التجارة العالمية إلى موانىء البحر المتوسط وآسية الصغرى. ولكن مدينة حران كانت تحت سيطرة الماذيين منذ عام 610ق.م، فعقد نبونيدس حلفاً مع الملك الفارسي الجديد «كورش» الثاني الذي أزال دولة الماذيين في بلاد فارس. وحصل بموجب ذلك الاتفاق على حران في عام 553ق.م، وشرع بأعماله البنائية فيها ولاسيما في معبد الإله «سين» ولكن تحالف نبونيدس مع كورش لم يدم زمناً طويلاً، لأن كورش وسع مملكته بالفتوحات البعيدة إلى أمبراطورية واسعة في مدى عشر سنوات، دخل فيها من

بين الأقاليم الكثيرة إقليم «كيليكية» الذي كان تابعاً إلى بلاد بابل فأدى ذلك إلى إنهاء الحلف ما بينهما، وانحاز نبونيدس إلى مملكة ليدية وحلفائها من المصريين وغيرهم، بيد أن هؤلاء الحلفاء لم يستطيعوا نجدة «كروسس» (قارون المشهور) ملك ليدية، إذ قضى كورش على مملكته (547ق.م)[1] ثم التفت من بعد ذلك إلى بلاد بابل التي آلت إلى حال من الضعف لم تستطع أن تقف إزاء قوته المتعاظمة، فوقعت بيده (539ق.م) على ما سنرى من كلامنا على سقوط بابل.

وقد ولد اهتمام «نبونيدس» في حران وغيابه الطويل عن المملكة في شمالي الجزيرة العربية تذمراً وتمرداً عامين في أرجاء مملكته، وفي مقدمتها سكان المدن الكبرى مثل بابل وبورسبا ونفر وأور والوركاء ولارسة وغيرها، كما يخبرنا «نبونيدس» نفسه[2] وتدهورت الأوضاع الاقتصادية والأحوال المعاشية ورافق ذلك انتشار القحط وارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً بلغ نسبة 50% ما بين عام 560 وعام 550ق.م، وازدادت النسبة إلى 200% ما بين عام 560 وعام 485. ويستطيع الفاحص لوثائق تلك الفترة الوقوف على تلك الأزمة الاقتصادية الخانقة.

نبونيدس في واحة تيماء:

حاول «نبونيدس» حل تلك الأزمة الاقتصادية بطرق شتى منها محاولته الحصول على موارد جديدة من الطرق التجارية في شمالي الجزيرة العربية الآتية من جنوبها، بعد أن سدت بوجهه الطرق التجارية عبر بلاد الشام وموانىء البحر المتوسط. فاستولى لذلك الغرض على ملتقى الطرق التجارية في شمالي الجزيرة، إذ إنه قاد جيشاً وسار به عبر بادية الشام وأخذ واحة

(1) حول قصة «كروسس» وعلاقته مع كورش انظر تاريخ هيرودوتس (الكتاب الأول).

(2) انظر أخباره في:
S. Smith, *Bab. Historical Texts,* (1924), I, 22, II, 2.

«تيماء» الشهيرة (الواردة في نصوصه على هيئة Temâ) حيث قتل أميرها واتخذها مركزاً له طوال عشر سنوات، وخلف على مملكة بابل ابنه المسمى «بيلشاصر» (BEL- SHAR- USSUR)[1]. وكان قد استولى قبل تيماء على الواحة الأخرى التي ورد ذكرها باسم «أدومو» (وهي دومة الجندل) الواقعة على بعد نحو (280) ميلاً شرق العقبة، وكانت بيد حامية آشورية. ويؤخذ من النصوص الجديدة المكتشفة في حران[2] أن «نبونيدس» وضع يده على واحات أخرى في شمالي الجزيرة إلى الجنوب من تيماء منها واحة «يتريبو» YATRIBU أي يثرب (المدينة)، وأنه أقام في تلك الواحات حاميات عسكرية، وأسس فيها مستوطنات أسكن فيها جماعات من بلاد الشام ومن بلاذ بابل، ولعل من بينهم يهوذا من الأسر البابلي.

والمرجح أن يكون غياب «نبونيدس» الطويل عن بابل مصدر الأسطورة التي نشأت عن نهاية الملك نبوخذ نصر بحسب الدعاية اليهودية (سفر دانيال، 4: 28 ـ 33) من أنه جن في السنوات الأخيرة من حكمه، بطريقة نقل التهم والدعايات التي وصم بها «نبونيدس» خصومه الكهنة ولا سيما الموالون منهم للفرس إلى شخص «نبوخذ نصر» للتشهير به بالنظر إلى العداء والحقد اللذين ظل يحملهما اليهود من أسرى بابل إزاء ذلك الملك الذي قضى على كيان مملكتهم.

واشتهر نبونيدس كما نوَّهنا بولعه في تقصي أخبار الملوك الماضين، إذ

---

(1) المرجح أن يكون الملك بيلشاصر هو الذي رأى «الكتابة على الحائط» كما جاء في سفر دانيال (105ـ9): «لما كان الملك بيلشاصر في وليمة خمر في قصره إذ ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت إزاء النبراس في مكلس قصر الملك والملك ينظر إلى طرف اليد الكاتبة، فخاف ولم يستطع أحد من كهنته ومنجميه أن يفسر تلك الكتابة التي نصها: «منا، منا ثقيل وفرسين» فأحضر إليه دانيال الذي فسرها على الوجه الآتي: منا: أحصى الله ملكوتك وأنهاه. وثقيل: وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً. وفرسين: قسمت مملكتك وأعطيت لماذي وفارس».

(2) انظر:

Gadd, in *Anatolian Studies*, (1958), 57 ff.

إنه قام في الواقع بالحفر في أسس بعض المعابد والزقورات في جملة مدن مشهورة في بلاد بابل مثل سبار وأور. ولعل هذا مظهر من مظاهر اتجاه العهد البابلي الأخير إلى استنساخ النصوص القديمة وتقصي أخبار الماضي وجمع البقايا القديمة في القصور الملكية التي خصصت أجزاء منها لتكون بمثابة المتاحف، وأبرز مثال على ذلك قصر «نبوخذ نصر» الشمالي وقصر ابنة نبونيدس المسماة «بيل ـ شلتي ـ ننا» التي كانت الكاهنة العليا في معبد الإله القمر «سين» في مدينة أور. ففي القصر الأول وجد المنقبون الألمان في بابل بقايا أثرية من عهود قديمة ومن بلاد أجنبية، وقد فسر أسد بابل الشهير نفسه على أنه من بين تلك الآثار الأجنبية التي نقلها الملك نبوخذ نصر من أحد الأقطار الأجنبية. كما وجدت في قصر ابنة «نبونيدس» في أور آثار من أدوار قديمة مختلفة من بينها أحجار حدود من العهد الكشي وكسر من تمثال الملك «شولكي» ومخاريط من ملوك سلالة لارسة.

سقوط بابل:

بعد أن أمضى نبونيدس زهاء عشر سنوات في تيماء عاد إلى بابل (في حدود 546ق.م)، وكانت بوادر الخطر ماثلة في الأحداث الدولية المعاصرة. ولاسيما الأحداث التي استجدت في بلاد إيران، بقيام الملك الفارسي المسمى «كورش» الثاني وأخذه السلطة من الماذيين في عهد الملك الماذي «أستياجس» جده لأمه. واستطاع هذا الملك الجديد أن يكوِّن بسرعة عجيبة أمبراطورية واسعة شملت آسية الصغرى وبلغت إلى تخوم الهند، وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن (نبونيدس) عقد اتفاقاً مع هذا الملك الفارسي ولكن بطل ذلك الاتفاق لما استولى كورش على كيليكية التابعة لنبونيدس. وبعد أن قضى كورش على «كروسس» (قارون) ملك ليدية (في آسية الصغرى) صار يضم الأقاليم التابعة إلى الدولة البابلية ومنها بلاد آشور التي استولى عليها في عام 547ق.م، ثم جاء دور مدينة بابل نفسها في العام 539ق.م. وقد عهد الملك نبونيدس إلى ابنه قائد الجيش أي «بليشاصر» بأن يتصدى لجيوش كورش عند

«أوبس» (سلوقية) فقتل في المعركة، ثم قصد الجيش الفارسي في العام نفسه مدينة «سبار» (أبو حبة قرب بلدة المحمودية). وكان يقود الجيش الحاكم البابلي «كوبرياس» الذي انحاز إلى كورش (واسمه في المصادر البابلية كوبارو) فسار هذا من بعد «سبار» إلى مدينة بابل ودخلها في 13 تشرين الثاني (539ق. م) بدون مقاومة تقريباً[1] وأخذ «نبونيدس» أسيراً ويحتمل أنه قتل وفي رواية أخرى أن كورش عينه حاكماً في أواسط إيران، ودخل كورش إلى مدينة بابل بعد أيام قلائل، وبدأ التاريخ الرسمي باسم الملك الجديد.

ومما لا شك فيه أن مرد السهولة التي تم بها فتح مدينة بابل إلى الأوضاع الاقتصادية المتردية التي نوَّهنا بها وإهمال الملك نبونيدس شؤون المملكة وغيبته الطويلة عنها يضاف إلى ذلك حرب الدعاية الناجحة التي شنها الملك الفارسي من التشهير بالملك البابلي في انتهاك حرمات معابد الآلهة، وساعده في ذلك اليهود الأسرى في بابل، يدل على ذلك أن اليهود اعتبروا كورش أنه المسيح الموعودون به في توراتهم، الذي سيعيد مملكة داود (سفر اشعيا: 44)، وسنذكر في كلامنا على العهد الفارسي الأخميني كيف عامل كورش يهود بابل وسمح للكثير منهم أن يعودوا إلى أورشليم (سفر عزرا، 6: 3ـ5)، كل هذه العوامل وغيرها جعلت سكان بابل يرحبون بالفاتح الجديد. ومثل غيره من الفاتحين في التاريخ سرعان ما نشر بيانه إلى الأهالي بأنه إنما جاء ليحررهم بأمر الإله مردوخ والإله «نبو» اللذين رحبا بحكمه، واتخذ الألقاب الرسمية لملوك بلاد بابل مثل، الملك العظيم، ملك العالم، الملك القوي، ملك بابل، ملك بلاد سومر واكد، ملك الجهات الأربع.. نسل

---

(1) يروي هيرودوتس رواية طريفة عن كيفية دخول الجيش الفارسي إلى بابل، فحواها أن الملك كورش جعل جيشه يجفف قاع نهر الفرات بتحويل مياهه إلى بحيرة أو منخفض ينسبه إلى أعمال الملكة «سميراميس» الأسطورية، فسار الجيش في قاع النهر الجاف وباغت أهل المدينة التي بلغت سعتها درجة بحيث إن الجيش لما دخلها لم يعرف ذلك أهلها الساكنون في وسطها (هيرودوتس، الكتاب الأول، 191) حول أخبار سقوط بابل انظر:
Olmstead, History of the Persian Empire (1944).

الملوكية منذ القدم، الذي يحبه الإله بيل (مردوخ) ويبارك في حكمه، كما جاء في بيانه المنقوش باللغة البابلية والخط المسماري على أسطوانة من الطين[1].

بعض الأوجه الحضارية المميزة للعهد البابلي الأخير:

١ ـ خصائص عامة:

على الرغم من قصر فترة العهد البابلي الأخير في حياة حضارة وادي الرافدين المديدة، ورغم أنها كانت آخر عهودها السياسية ـ حيث استمرت هذه الحضارة في الأدوار التي أعقبت العهد البابلي الحديث ـ إلا أنها تركت آثاراً مهمة في سير التأريخ العام. فإلى جانب البقايا المعمارية المهمة وفي مقدمتها بقايا مدينة بابل التي سنتكلم عنها في فقرة أخرى جاءتنا من هذا العهد مصادر مدونة تعد على جانب كبير من الأهمية والوفرة بالنسبة إلى قصر مدته، مما خلفه ملوكه من أخبار مدونة وما تركه عامة الناس من وثائق المعاملات المختلفة الخاصة بشؤون الحياة اليومية.

وقد سبق أن نوَّهنا بأن هذا العصر امتاز بالاتجاه إلى إحياء تراث الماضي، وشمل هذا الاتجاه الأساليب والاستعمالات اللغوية التي يمكن ملاحظتها في النصوص التأريخية والدينية، ونشطت الحياة الدينية التي اقترنت بنشاط كبير في تجديد المعابد وبروز نظام المعبد بصفته مركزاً للنشاط الاقتصادي والاجتماعي. ومع استمرار اللغة الآكدية في طورها المسمى «البابلية الحديثة» لغة التدوين الرسمية إلا أنه ظهرت فيها تأثيرات واضحة من اللغة الآرامية منذ الألف الأول ق.م، وقد سبق أن ذكرنا مراراً تغلغل القبائل الآرامية إلى وادي الرافدين في حدود ذلك الزمن وظهور جملة مستوطنات ومشيخات منهم في الأجزاء الجنوبية من القطر، وكان «نبو بولاصر» نفسه من أصل آرامي (كلداني) كما ذكرنا. ومع ضعف الملوك الذين خلفوا «نبوخذ

---

(1) انظر:

Weisbach, *Die Keilinschriften der Achaemeniden*, (1911), 2 ff.

نصر» على العرش البابلي إلا أن الفترة الطويلة التي دامها حكمه (زهاء النصف قرن) كانت من أزهى عصور حضارة وادي الرافدين، ويمثل عهده ذروة النشاط الحضاري والاقتصادي لهذا العصر.

٢ ـ الحياة الاقتصادية:

أ ـ المعبد: لم تقتصر عودة تعاظم أهمية المعبد في العهد البابلي الأخير على الحياة الدينية بل شملت كذلك الحياة الاقتصادية للمجتمع البابلي بدرجة تضاهي ما شاهدناه من أهمية المعبد الاقتصادية في عصر فجر السلالات قبل نحظو ألفي عام، وعلى عكس ما رأيناه من اتجاه العصر البابلي القديم ولا سيما عهد حمورابي (1792ـ1750ق.م) في تقليص سلطات المعبد وتعاظم سلطة القصر والفصل ما بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية. وإذا أعدنا إلى الأذهان ما ذكرناه عن عصر فجر السلالات بأنه دور ظهور حضارة وادي الرافدين الناضجة وأن فترة العهد البابلي الأخير آخر عهودها جاز لنا القول إنها لصدفة تاريخية عجيبة أن تكون هذه الحضارة قد ولدت وماتت في كنف الآلهة والمعبد.

وتشير الوثائق الاقتصادية الكثيرة التي وجدت في معابد هذا العصر مثل منطقة المعابد في الوركاء (أي ـ انّا) إلى ازدياد أملاك المعبد واتساع نشاطه التجاري في داخل البلاد وخارجها، بحيث إنه كان مركزاً اقتصادياً واجتماعياً مستقلاً عن الحكومة تقريباً[1]. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن الإدارة في هذا

---

(1) حول النصوص الاقتصادية من العهد البابلي الحديث من الوركاء بوجه خاص انظر المراجع الآتية:

(1) Kaiser, *Letters and contracts from Erech*, (1918).

(2) Lutz, *Neo-Bab. Administrative Documents from Erech,...* (1927).

(3) Dougherty, *Archives from Erech*, (1923, 1933).

(4) Saggs, in *SUMER*, XV, (1959), 29 ff.

(5) *The Greatness that was Babylon*, (1962), 261 ff.

(6) Krückmann, *New Bagylonisches Rechts und Verwaltungs Texte*, (1933).

العهد تتميز بتقلص سلطة الحكومة المركزية وعلى رأسها الملك بخلاف ما مر بنا في عهد الأمبراطورية الآشورية، حيث استطاع المعبد في العصر البابلي الأخير أن ينافس سلطات الحكومة والملك ويستقل عنها، وألحقت به أصناف عديدة من الموظفين مثل مدير الشؤون الاقتصادية (Shatammu) والناظر (Qipu) والمسجلين والكتبة، إذ اتسعت أعمال المعبد الاقتصادية فشملت استئجار العمال والعبيد وحرث الحقول وحصدها وكري أنهار الري وحفرها في الأراضي الزراعية العائدة إليه، إلى غير ذلك من أوجه النشاط الاقتصادي الواسعة وبضمن ذلك الأعمال المصرفية الكثيرة. وكان للمعبد بالإضافة إلى الأجراء والعبيد المملوكين جماعات خاصة من بين الأفراد كانوا ينذرون لخدمته منذ صغرهم فيقومون بالخدمة بدون أجور باستثناء إيوائهم وإطعامهم وإكسائهم، وكانوا من الذكور والإناث[1]. وقد يكون للملك ممثل في إدارة مثل هذه الأعمال، ويكتفي من أرباح المعبد الطائلة بتخصيص حصة له من وارداته لعلها لا تزيد نسبة الـ20%. ولكن الملك «نبونيدس» عزم على وضع حد لاستقلال المعبد ووضعه تحت نظارة الحكومة أكثر مما كان عليه. فعين مثلاً في معبد «أي ـ أنَّا» (في الوركاء) في عام 553ق.م موظفين ملكيين من رتبة عالية ليهيمنوا على شؤون المعبد الاقتصادية، ولكن تدخله هذا أثار سخط الكهنة عليه فشنوا عليه حرب التشهير والمعارضة التي وجدت أرضاً خصبة حيث البلاد كانت مهددة بالأطماع الإيرانية، ويعد هذا التدخل في شؤون المعبد من العوامل المهمة في سقوط الملك «نبونيدس».

ب ـ تدهور الحياة الاقتصادية وارتفاع الأسعار:

واستتبع الاحتكارات المعبدية التي نوَّهنا بها تضاؤل واردات الملك وحكومته إلى درجة لا تتماشى مع متطلبات الدولة إلى الإنفاق على المشاريع، وعلى رأسها نفقات الجيش الذي أصبح منذ عهد نبوخذ نصر جيشاً نظامياً

---

(1) يسمى الواحد من هؤلاء «شركو». انظر:
Doucherty, *The «Shirkutu» of the Babylonian Deities,* (1923).

قائماً يتطلب الإنفاق لإعالته وتجهيزه، فلم تسد الثروة الزراعية تلك الحاجة بالنظر إلى مزاحمة المعبد في امتلاك الأراضي الزراعية الواسعة، يضاف إلى ذلك تناقص الموارد التجارية التي كانت من أهم مصادر الرخاء في حضارة وادي الرافدين، فقد حرمت بلاد بابل من موارد تجارية مهمة من الأقاليم الشمالية والشرقية على أثر ظهور الدولة الماذية وأكثر من ذلك قيام الدولة الفارسية الأخمينية التي خلفتها والتي احتكرت الطرق التجارية في تلك الأصقاع، كما أن الثورات المتكررة في بلاد الشام حرمت الدولة من تجارتها البحرية، وإلى ذلك كله بدأ ينافس نشاط المدن الفينيقية المشهورة اتساع نشاط بلاد الإغريق التجارية وبداية سيطرتها على تجارة البحر المتوسط، ونقل مراكز الثقل التجارية من السواحل الشرقية لهذا البحر إلى الأجزاء الغربية منه، أي إلى بلاد اليونان ومنها المستوطنات الآيونية في غربي سواحل آسية الصغرى. وقد رأينا سابقاً كيف حاول الملك «نبونيدس» التعويض عن ذلك بإيجاد موارد تجارية أخرى بطريق السيطرة على تجارة الجزيرة العربية من جنوبيها إلى شماليها، واستولى لتحقيق هذه الأهداف على واحات شمالي الجزيرة مثل تيماء وأدومو (دومة الجندل) و«يتريبو» (يثرب) وغيرها.

جـ ـ **ارتفاع الأسعار**: وعلى ضوء هذه الحقائق يمكن تفسير الازدياد في ارتفاع الأسعار ما بين بداية هذا العهد ونهايته ارتفاعاً فاحشاً يمكن تتبعه من فحص الوثائق الاقتصادية الكثيرة التي جاءتنا من هذا العهد مثل سجلات البيع والشراء والأجور والقروض[1].

كما ارتفعت أسعار المواد الغذائية والحاجات اليومية الأخرى، ويصعب التأكد هل واكبت زيادة الأجور ارتفاع الأسعار، على أن الانطباع العام أنها لم تماشها في الارتفاع، بحيث التجأ عامة الناس إلى القروض من المعابد وغيرها من البيوت المالية، وكانت أسعار الأرباح عالية (من 20 إلى 33 بالمائة)،

---

(1) راجع عن موضوع الأسعار:
Dubberstein, «Comparative Prices in Later Babylonia» in *AJSL*, (1930), 20 ff.

وكثرت المصارف والبيوتات المالية الخاصة مستغلة حاجة الناس إلى النقد، وزاد من ازدهار العمليات المصرفية استعمال أوزان قياسية من الفضة أساساً للتعامل التجاري إذ لم يعم استعمال النقود الرسمية المسكوكة في العراق والشرق الأدنى إلا منذ عهد الملك الفارسي دارا الأول (521 ـ 486ق.م) بعد أن ظهرت في ليدية (آسية الصغرى) في القرن السابع ق.م، كما سنذكر ذلك في كلامنا على العهد الفارسي في العراق وسننوّه ببعض البيوتات المالية التي اشتهرت في هذا العهد. ومع أن استعمال المعادن وفي مقدمتها الفضة بأوزان معينة وأشكال خاصة كان شائعاً في العراق في مطلع الألف الثاني ق.م إلا أن العهد البابلي الحديث تميز باطراد استعمال الفضة وحدة للأسعار الأخرى، وتحديدها بالنسبة إلى الذهب بمقدار 14 و10 إلى واحد.

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الأوضاع الاقتصادية في العصر البابلي الحديث بذكر ظهور اتجاه جديد في معاملة العبيد استمر إلى العهد الفارسي الأخميني التالي، بسماح ملاك العبيد لعبيدهم في امتلاك الأموال المنقولة وغير المنقولة والتصرف بها بشتى المعاملات التجارية شريطة دفع ضريبة أو نسبة معينة من أرباحهم إلى أسيادهم، على أن العبيد كانوا يظلون هم وأموالهم ملك أسيادهم من الناحية القانونية النظرية. وهذا يضاهي ما سار عليه الأسياد الرومان في معاملة بعض عبيدهم، مما يعرف في القانون الروماني بمصطلح حيازة المال (Peculium) ولا يخفى أن البواعث في كلتا الحالتين ليست البواعث الإنسانية وإنما المنافع الاقتصادية التي كان يحصل عليها ملاك العبيد[1].

---

(1) انظر أحدث الدراسات حول الموضوع:

H. Dandamayev, «The Economic and Legal Character of the Slaves, Peculium in the Neo-Babylonian and Achaemenian Periods», in XVIII Recontre Assyrio logique Internationale (1970), P. 35 ff.

وكذلك المرجع:

J. Mendelsohn, Slevery in the Ancient Near East (1949).

مدينة بابل:

نتهي كلامنا عن العهد البابلي الأخير بذكر لمحة في وصف بابل لأنها خير ما يمثل لنا هذا العصر وبقاياه الأثرية، ولأنها غدت في عهد ملكها الشهير «نبوخذ نصر» الثاني (604ـ562ق.م) أكبر مدن الدنيا القديمة، وبهرت العالم القديم بحيث عدها المؤرخون والكتاب القدماء لا تضاهيها في عظمتها وسعتها مدينة أخرى كما وصفها المؤرخ الشهير «هيرودوتس»[1]، وبلغت هذه المدينة من الشهرة درجة بحيث صارت عنوان حضارة وادي الرافدين ونسب إليها القطر جميعه فقيل بلاد بابل (بابلونيا) وأهله «البابليون»، وعدت أسوارها وجنائنها المعلقة من عجائب الدنيا السبع المشهورة[2] وانبهر بها حتى أعداؤها من أنبياء بني إسرائيل حين قال عنها النبي «أرميا»: «كأس ذهب بيد الرب جعل الأرض سكرى» (سفر أرميا 41 : 7). واعتبر أرسطو المدينة أعجوبة في سعتها (Politics III 3). فلا عجب والحالة هذه إذا ما تبجح نبوخذ نصر ببابله فقال عنها كما جاء عن لسان حاله في التوراة: «أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك باقتداري ولجلال مجدي!». فهل أسفرت التنقيبات الواسعة التي أجراها المنقبون الألمان فيها (1899ـ1917) عما يبرر تلك الشهرة العريضة التي جعلت اسم بابل رمزاً لحضارة وادي الرافدين وعلماً معروفاً لدى العالم القديم والحديث؟ وموجز

---

(1) راجع تأريخ هيرودوتس، الكتاب الأول 178 فما بعد. وحول احتمال زيارة هذا المؤرخ لبابل (في حدود 460 ق.م) ووصفه لها انظر:

(1) Ravn, *Herodotus Description of Babylon*, (1924).

(2) W. Baumgartner, in *Archiv Orientalni*, XVIII, (1950), 69 ff.

(2) عجائب الدنيا السبع (The Seven Wonders of the World) تسمية أطلقها بعض الكتاب والسياح القدماء على مجموعة من المآثر والبقايا الفنية أشهرها وأقدمها ما ذكره الشاعر الصيداوي «انتيباتر» (القرن الثاني ق.م). وندرج فيما يلي هذه العجائب المتعارف عليها:
(1) أهرام مصر (2) منارة الإسكندرية (3) أسوار بابل وجنائنها المعلقة (4) معبد الآلهة «أرطميس» (ديانا) في أفسس بآسية الصغرى (5) تمثال الإله «زيوس» الضخم للنحات اليوناني الشهير «فيدياس» (6) الناووس الضخم «موزوليوم» العائد للملك «موزوليوس»، ملك كاريا بآسية الصغرى (7) تمثال جزيرة رودس الضخم.

الإجابة عن هذا التساؤل أن نتائج تلك التنقيبات مشفوعة بما ورد عن المدينة في النصوص المسمارية تبرر تلك الشهرة، وتجعل في إمكان الباحث أن يعيد إلى الوجود شكل المدينة الأصلي بشوارعها ومعابدها وقصورها وأسوارها وماذا كان يسمى به كل منها ومحلات السكن فيها، ولاسيما من عصر نبوخذ نصر. أما أدوار المدينة الأقدم فقد سبق أن نوَّهنا بأن ارتفاع مناسيب المياه الجوفية طمس تلك الأدوار القديمة الممتدة أبعد من العصر البابلي الوسيط أو العهد الكشي في منتصف الألف الثاني ق.م.

أما اسم المدينة «بابل» الذي لا نبالغ إذا قلنا إنه أضحى أشهر اسم في العالم القديم والحديث فكان أعم التسميات التي أطلقت في العصر القديم على مدينة «حمورابي» و«نبوخذ نصر». وقد ورد في النصوص المسمارية بهيئة «باب ايلى» و«بابيلم»، وبالسومرية بالصيغة «كاـ دنكرـ را» (Ká- Dinger- Ra) ومعنى كلتا الصيغتين البابلية والسومرية «باب الإله» أو «باب الآلهة»، ولكن أخذ الشك يحوم حديثاً حول معنى اسم المدينة «بابيلم» وأنه ليس سومرياً ولا بابلياً بل إنه من تراث أولئك القوم المجهولين الذين لم يكونوا سومريين ولا ساميين واستوطنوا السهل الرسوبي منذ أقدم عهود هذا الاستيطان وخلفوا في حضارة وادي الرافدين بعض الآثار اللغوية في مقدمتها أسماء المدن والأمكنة وأسماء طائفة من الحرف والمهن كما ذكرنا في فصل المقدمة. وبالإضافة إلى هذه التسمية المشهورة عرفت مدينة بابل بأسماء أخرى أقل استعمالاً وشهرة نذكر منها: (1) «تن ـ تر ـ كي» (Tin- Tir- Ki) الذي قيل في معناه بالسومرية إنه يعني «موطن الحياة»، وقد جاء له مرداف بالبابلية يشير إلى هذا المعنى أي «شبات بلاطي» (Shubat Balâti) (2) شو ـ أنا ـ كي (Shu- Anna- ki) الذي يعني «كف السماء» أو «يد السماء» وهو اسم إحدى محلات بابل أيضاً. (3) نن ـ كي (Nun-ki) وهو من أسماء مدينة «أريدو» أيضاً (4) «كشكلا» (Gishgalla) الذي يعني البوابة أو المدخل. وذكرتها التوراة بالإضافة إلى اسمها المألوف «بابل» باسم «شيشك» (سفر أرميا: 25، 26)، أما الإغريق فقد ذكروها باسمها الغالب في الاستعمال بهيئة «بابيلون» (Babylon) ومنها بلاد بابل (بابليونيا Babylonia).

ومما لا شك فيه أن بابل كانت إحدى القرى الكثيرة المنتشرة في عصر فجر السلالات في بلاد أكد (القسم الأوسط من السهل الرسوبي)، والمرجح أنها كانت من القرى التابعة إلى دولة مدينة كيش التي مر بنا أنها كانت أولى مدينة قامت فيها سلالة حاكمة من بعد الطوفان. وأقدم ذكر لبابل بصفتها مدينة أو بلدة يرجع إلى زمن سرجون، مؤسس السلالة الآكدية التي أعقبت عصر فجر السلالات كما مر بنا. وقد سبق أن ذكرنا في الفصل الخاص بالعصر الآكدي ما روته الأخبار البابلية المتأخرة كيف أن سرجون نقل تراب بابل أو أخذ من ترابها عندما شيد عاصمته الجديدة أكد التي ينبغي أن تكون غير بعيدة عن بابل. وجاء ذكر بابل أيضاً في الأحداث التي اتخذت لتأريخ أعوام حكم الملك الآكدي «شارل كالي شري» ويبدو أن المدينة أصابها شيء من التدمير في زمن سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004ق.م) حيث فتحها ثاني ملوك هذه السلالة «شولكي». ثم انقطعت أخبارها إلى قيام سلالة بابل الأولى (1894ـ1595ق.م) حيث اتخذها مؤسس تلك السلالة المسمى «سومو آبم» عاصمة له. وأخذت تتسع وتزدهر بالتدريج في عهود الملوك الذين خلفوه إلى أن غدت في زمن الملك السادس حمورابي (1792ـ1750ق.م) عاصمة أمبراطورية واسعة وظلت عاصمة البلاد إلى آخر عهود العراق التاريخية. ولما فتح الإسكندر الكبير العراق (331ق.م) حاول إعادة تعميرها وتجديد أبنيتها وبضمن ذلك إعادة بناء برجها المدرج الشهير، لتكون لائقة بأن تصبح العاصمة الثانية لدولته العالمية التي كان يحلم بإقامتها، كما سنذكر ذلك في كلامنا على عهد الإسكندر. ولما شيدت مدينة سلوقية دجلة (مطلع القرن الثالث ق.م) أخذ الاضمحلال والخراب يدبان فيها لانتقال مركز الدولة وأرباب التجارة والحرف إلى العاصمة الجديدة.

طبوغرافية المدينة:

صارت مدينة بابل في العصر البابلي الحديث، ولا سيما في زمن الملك الشهير «نبوخذ نصر» أكبر مدينة في العالم القديم، إذ بلغ محيطها زهاء ثمانية

عشر كيلو متراً ومساحتها نحو (2500) ايكر (أي نحو عشرة ملايين متر مربع). وقد بالغ هيرودوتس في تقدير محيطها بأربع مراتب تقريباً إذ جعله (480) فرلونك Furlong ويساوي الفرلونك 8/ 1 الميل تقريباً. وكانت مستطيلة الشكل تقريباً ويخترقها نهر الفرات من الشمال إلى الجنوب، ولا يمكن تقدير عدد سكانها في أزهى عهودها، بيد أن مساحتها تتسع لما لا يقل عن ربع المليون نسمة. ويتضح كبر المدينة وكونها أوسع مدينة عرفها العالم القديم من المقارنة الآتية بين مساحتها ومساحات المدن المشهورة:

1 ـ بابل: 2500 ايكر ومحيطها زهاء 18 كيلو متراً (الايكر يساوي نحو 4000 متر مربع).

2 ـ نينوى: 1850 ايكر ومحيطها 9 كيلو مترات.

3 ـ الوركاء: 1110 ايكر ومحيطها 9 كيلو مترات.

4 ـ آشور: 150 ايكر.

5 ـ كالح (نمرود): 800 ايكر.

6 ـ دور ـ شروكين (خرسباد): 600 ايكر.

7 ـ حاتوشا (حاتوشاش، عاصمة الحنين): 450 ايكر[1].

8 ـ أثينة: 550 ايكر (في زمن ثيمو ستقلس حيث بلغت أوج اتساعها).

فيبدو من هذه المقارنة أن بابل كانت أكبر مدينة في العالم القديم، فهي مثلاً أكبر من مدينة أثينة بنحو خمس مرات. وكان يحيط بها سوران ضخمان عدا كما قلنا من بين عجائب الدنيا السبع، ويتألف كل منهما من أكثر من جدار واحد. ويمكن مشاهدة بقايا السور الخارجي ابتداء من محاذاة ما يسمى بالقصر الصيفي (وهو تل بابل الآن على يمين الطريق الآتي من بغداد إلى

---

(1) L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia*, (1964), p. 140.

الحلة، حيث يقطع هذا الطريق السور الخارجي). ويمتد السور الخارجي بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية من هذا القصر باتجاه جنوبي شرقي مسافة نحو أربعة كيلو مترات ثم ينعطف إلى الغرب بزاوية قائمة تقريباً حتى الفرات. وكان هذا السور الخارجي من التوسعات الجديدة التي أضافها نبوخذ نصر إلى المدينة لزيادة مناعتها بالإضافة إلى سورها الداخلي الذي قواه وحصنه أيضاً. ويبلغ معدل المسافة ما بين السورين زهاء كيلو مترين، وقد خصصت المساحات التي بين السورين إلى ضواحي المدينة حيث البيوت القروية الريفية المشيدة من اللبن أو الطين وبساتين النخيل والأشجار المثمرة الأخرى. ولم يشيد فيها من المباني الضخمة الرسمية سوى بنايتين، أولاهما قصر نبوخذ نصر الصيفي الذي قلنا إن السور الخارجي يحاذيه من جهة الشمال والبناية الثانية على ما يرجح المعبد المخصص لأعياد رأس السنة المسمى بالبابلية «بيت أكيتو» (Bit Akitu).

يتألف السور الخارجي، ومحيطه زهاء 16ـ18كم، من ثلاثة جدران الواحد بعد الآخر، فكان الجدار الأول ابتداء من الداخل مشيداً باللبن وسمكه (7) أمتار ثم الجدار الثاني المشيد بالآجر وثخنه (سمكه) زهاء (7) أمتار أيضاً، وقدامه الجدار الثالث المشيد بالآجر وثخنه (3) أمتار وأمامه خندق الماء، وقد شيدت أبراج للدفاع في هذا السور. أما السور الداخلي فقوامه جداران ضخمان من الآجر تتخللهما أبراج للدفاع. وقد أطلق على الجدار الأول وهو الداخلي (وسمكه 6,5 متراً) اسم «امكر ـ أنليل» أو «امكر ـ بيل» والجدار الثاني، وثخنه (3,70 متراً) اسمه «نمتى ـ أنليل» أو «نمتى ـ بيل». ويقسم السور الداخلي مجموعة قصور المدينة إلى قسمين، القصر الجنوبي الذي يلي باب ـ عشتار الشهيرة إلى الجنوب أو الأصح إلى جنوبها الغربي، والقصر الشمالي، ويسمى القصر الرئيسي، ويقع شمال السور من بعد باب عشتار مباشرة، ويقع في هذا القصر أسد بابل الشهير.

لقد خططت المدينة الداخلية تخطيطاً منتظماً، يتميز بالشوارع الواسعة

المتعامدة التي تنتهي ببوابات المدينة الرئيسية. وقد وردت في النصوص المسمارية[1] أسماء ثمانية شوارع كبرى ولها ثماني بوابات كبيرة. وقد سميت كل بوابة وكل شارع باسم الإله الذي يقع معبده بالقرب منها. وإلى هذه الشوارع الرئيسية ذكرت النصوص المسمارية أسماء شوارع أخرى، حيث عدد للمدينة أربعة وعشرون شارعاً، وشارعان خاصان بمسيرة الجند (Girri) كما ذكرت ثلاثة جسور على نهر الفرات يعبر منها إلى القسم الثاني من المدينة على الضفة الغربية من نهر الفرات حيث المدينة الجديدة (Alû Eshshu). ونورد فيما يأتي أسماء بعض البوابات والشوارع الشهيرة:

1 ـ بوابة الإله «أدد» واسمها «أدد نفشتي أوماني أوصر» (Adad Napishti Ummane Usur) ومعناه «أدد يحمي نفوس الجند» وأطلق الاسم نفسه على الشارع المار من هذه البوابة، والمتجه من الغرب إلى الشرق.

2 ـ بوابة الإله «أنليل» واسمها «أنليل موكن شروتيشو» (Enlil Mukin Sharrutishu) ومعناه «أنليل مثبت ملوكيتها» (والضمير يعود إلى المدينة) وهكذا سمي الشارع المار منها. ويرجح أن يكون موقع هذه البوابة في الجهة الشرقية أو الجنوبية الشرقية من السور الداخلي، ويتجه الشارع من هذه الجهة إلى الشمال الغربي من المدينة.

3 ـ بوابة الإله مردوخ واسمها «شي آشو إريمو» (She Ashu Irimu) وكان يمر منها شارع مردوخ المسمى «مردوخ ريعو ماتيشو» أي «مردوخ راعي أرضها أو بلادها» (أي بلاد بابل)، ويبتدىء الشارع من هذه البوابة بالاتجاه الجنوبي الغربي حتى باب سور البرج المدرج ومعبد «أي ـ ساكلا». أما البوابات

---

(1) عن خلاصة نتائج التنقيبات والبحوث الخاصة بمدينة بابل راجع:

(1) E. *Unger, Babylon, Die Heilige Stadt,* (1931).

(2) , *RLA,* I, 330 ff.

(3) Koldewey, *Babylon,* (1914).

(4) Speiser in *Orientalia,* 25, (1956), 323 ff.

الخمس الأخرى فقد خصصت للآلهة «شمش» و«سين» و«أوراش» و«نبو» و«زبابا»، وأخيراً بوابة الآلهة عشتار الشهيرة التي جرى التنقيب فيها فيجدر أن نفرد لها بعض الملاحظات الخاصة.

بوابة عشتار وشارع الموكب والقصور الملكية:

ذكرت بوابة عشتار في النصوص المسمارية الخاصة بخطط مدينة بابل باسم «عشتار قاهرة أعدائها» (وبالبابلية Ishtar Shakipat Tebisha) واسم شارعها، الذي يسمى الآن شارع الموكب «عشتار حامية جيوشها» (أي جيوش المدينة) (وبالبابلية Ishtar Lamassu Ummâishu) والمرجح أن هذا الشارع الكبير يقسم إلى شطرين، شطر جنوبي وهو المسمى بهذا الاسم، وقسم شمالي أطلق عليه اسم Aibur shabu ومعناه «لن يعبر العدو».

وبوابة عشتار التي يمر منها هذا الشارع مدخل المدينة الشمالي أو الشمالي الغربي، وقد سبق أن نوَّهنا بأن التنقيبات تناولت هذا الباب وشارع الموكب، وكشفت عن أدوارهما البنائية، وأعادت قطع الآجر المزججة الجميلة التي كانت تزين جدرانهما وركبت منها الباب كما ينبغي أن يكون عليه في الأصل وبحجمه الأصلي، وهي الآن تزين متحف برلين، وأجمل ما فيها صور الحيوانات الزاهية الحمراء والبيضاء ذات الأرضية من الآجر الأزرق، منها الثيران، رمز الإله «أدد» والتنين الخرافي، رمز الإله مردوخ (واسمه بالبابلية Mushkhushshu أو Mushrushshu) وباب عشتار الضخم مكون من مدخلين أي إنه مدخل مزدوج، حيث مواكب أعياد رأس السنة (الأيام الاثني عشر الأولى من شهر نيسان) كانت تسير من منطقة معبد مردوخ (اي ـ ساكلا) وتجتاز باب عشتار شمالاً إلى حيث المعبد المخصص لهذه الاحتفالات أي «بيت ـ آكيتو». ويكون عرض الشارع في الجهة الشمالية من باب عشتار معدل (63) قدماً وقد بلط بصفاح من الحجر بعضه من حجر الكلس الأبيض وبعضه من حجر البريجا Breccia الأحمر، ويكتنف الشارع من الجانبين جداران ضخمان لا تقل روعتهما عن باب عشتار نفسها، وكان يزين كلاً منهما 60

أسداً (رمز الآلهة عشتار) وهي ذات لبد حمراء أو صفراء على أرضية من الآجر المزجج الأزرق.

وتقع خلف جداري الشارع قصور المدينة الضخمة وهي المسماة القصر الشمالي أو الحصن الشمالي. ووجد في هذا القصر الواسع عدد من المنحوتات تتراوح عهودها من الألف الثاني إلى القرن الخامس ق.م، من بينها أسد بابل الشهير المنحوت من قطعة واحدة من حجر البازلت، وهو على هيئة أسد رابض على إنسان، ولا يعلم تاريخه على وجه التأكيد ولعله إحدى الغنائم الحربية التي جلبها «نبوخذ نصر» من حروبه الخارجية، وبالنظر إلى وجود قطع أخرى مختلفة العهود والمصادر فقد فسر هذا الجزء من القصر على أنه كان بمثابة متحف ملكي لحفظ الأشياء الغريبة والغنائم الحربية.

ويستمر شارع الموكب من بعد باب عشتار باتجاه الجنوب، ويأخذ عرضه بالضيق قليلاً، ويمر من الحافة الشرقية للقصر الجنوبي، ويعبر القناة أو النهر المسمى (جالب الخير) Libil Khegalla ويستمر جنوباً بمحاذاة سور الزقورة (البرج) ومعبد «اي ـ ساكلا» ثم ينعطف غرباً حتى يصل إلى الفرات، وقد شيد على النهر جسر حجري أقيم على دعائم من الحجر (Piers) وجد بعض بقاياها.

أما القصر الجنوبي الذي ذكرناه فكان من أضخم القصور التي شيدها «نبوخذ نصر» بجانب قصر أبيه الأصغر منه والمحاذي لحافته الشرقية، وتبلغ مساحة القصر 310×200م (ما عدا قصر «نابو بولاصر» والبناية الغربية التي تسمى البناية الفارسية). ويدخل إلى القصر من شارع الموكب من مدخل كبير معقود، ويحتوي على مئات من الحجرات والمرافق الأخرى وأبرز ما فيه خمس ساحات كبرى، وقد خصص القصر ليكون المقر الرسمي للملك، وقد عينت الساحة الثالثة (ومساحتها 60×55م) بأنها قاعة العرش حيث يوجد في الجدار الجنوبي منها محراب (Cella) كان موضع عرش الملك.

ما يسمى بالجنائن المعلقة:

في الركن الشمالي الشرقي من القصر الجنوبي وجد المنقبون بناية غريبة التخطيط على هيئة مستطيل غير منتظم (42×30م) ينخفض في مستواه عن أرضية القصر الذي تكون هذه البناية جزءاً منه، وتتألف من حجرات صغيرة (معدل سعة الواحدة منها 2,2×3م)، مؤلفة من صفين على جانبي ممر ضيق (Corridor) كما توجد ممرات أخرى، وعثر في إحدى الحجرات الوسطى على بئر ذات ثلاث حفر الواحدة بجنب الأخرى، فسرت بأن الماء كان يرفع منها بواسطة دولاب. وقد فسر المنقبون هذه البناية الغريبة باحتمال كونها موضع الجنائن المعلقة التي اشتهرت بها مدينة بابل وعدت إحدى عجائب الدنيا السبع كما ذكرنا، وأن نبوخذ نصر شيدها لزوجته الفارسية (الماذية) «اميتس»، وأنها كانت عبارة عن سطوح مقامة فوق عقادات تلك الحجرات التي وجدت في أثناء التنقيبات حيث كانت الأشجار والأوراد تغرس فوق تلك السطوح المغطاة بالتربة.

والواقع أننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عن تلك الجنائن من المصادر المسمارية ولا من نتائج التنقيبات باستثناء تلك الحجرات التي يمكن تفسيرها أيضاً على أنها نوع من «السراديب» لخزن خمور القصر. وجاء ذكر الجنائن في أخبار الكتاب اليونان والرومان، ولكن هيرودوتس لا يذكرها. وأقدم من ذكرها الكاهن البابلي «بيروسس» الذي ألف كتاباً بالإغريقية في تأريخ بلاد بابل في مطلع القرن الثالث ق.م ضاع أصله ولكن اقتبس منه عدد من المؤلفين الكلاسيكيين. فمثلاً ذكرها «سترابو» (64ق.م 19م) بالمصطلح اليوناني (Krematos kepos) أي ما يمكن ترجمته بالجنائن المعلقة، وسماها الكاتب اللاتيني «كورتيوس روفس» (القرن الأول الميلادي) بالمصطلح اللاتيني Pensiles horti ومن هذه التسمية على ما يرجح منشأ ترجمتها إلى الإنكليزية The Hanging Gardens ودعاها المؤرخ اليهودي «جوزيفس» باسم Pensile Paradise المضاهي للتسمية الأولى. وينسب بناءها بعض المؤرخين إلى الملك

الفارسي «كورش» (ديودورس الصقلي، القرن الأول ق.م)، كما ينسبها البعض الآخر إلى «سميراميس».

معابد المدينة:

تعدد النصوص المسمارية لمدينة بابل نحو 1179 معبداً، منها الصغير ومنها الكبير، وبلغ عدد المعابد الكبيرة المخصصة لمشاهير الآلهة (153) معبداً، بالإضافة إلى المزارات الصغيرة وأماكن القرابين. وقد تم الكشف في أثناء التنقيبات عن خمسة معابد كبيرة هي: (1) المعبد الرئيسي الضخم المخصص لعبادة الإله مردوخ، واسمه «اي ـ ساگلا» (é-sag-ila) (2) معبد الإلهة ننماخ المسمى «اي ـ ماخ» (é-makh) وموقعه بجوار باب عشتار في الجهة الجنوبية الشرقية منها (3) معبد الإلهة «عشتار» وموضعه في الحارة المسماة «المركز»، حيث حارات السكن (4) معبد الإله «ننورتا» (5) معبد الإلهة «گولا»، ويقع هذان المعبدان في الجزء الشمالي من المدينة، في المحلة المسماة «كلّاب».

وكانت المدينة مؤلفة من قسمين يفصل ما بينهما نهر الفرات، فالقسم الأكبر، وهو الجزء الشرقي، كان المدينة القديمة الرئيسية، ويقع الجزء الثاني على الضفة الغربية من النهر، وقد سمي باسم المدينة الجديدة أو الحديثة alû eshshu ويقع فيها سبعة معابد من بينها معبد الإله «شمش»[1].

برج بابل ومعبد «اي ــ ساگلا»:

إلى الجنوب من منطقة القصر الجنوبي الذي مر ذكره تقع الحارة المخصصة لبرج بابل الشهير، وإلى جنوب البرج بقليل موضع المعبد الكبير الخاص بعبادة كبير آلهة بابل مردوخ، أي المعبد المسمى «اي ـ ساگلا» كما

(1) جاء ذكر اسم هذا المعبد بهيئة é-di-tar kalamma ويمكن قراءته بهيئة é-sa-kud-kalamma ومعناه «بيت قاضي البلاد». راجع RLA. II.

قلنا. وسمي برج بابل بالعبارة السومرية «اي ـ تمن ـ آن ـ كي» é-temen-an-ki التي تعني «بيت أسس السماء والأرض» ولا يعلم متى شيد هذا البرج المدرج (الزقورة) الذي اشتهرت به مدينة بابل، فإنه لم يرد ذكره في شريعة حمورابي الشهيرة التي عددت في مقدمتها أسماء معظم معابد القطر ومنها معبد «اي ـ ساگلا»، ولكن هذا لا يعني مطلقاً على أن البرج لم يكن موجوداً في زمن حمورابي. واشتهر برج بابل في العالم باقترانه بأسطورة «بلبلة الألسن» المذكورة في التوراة (سفر التكوين 11: 1ـ9)، وقد نوَّهنا سابقاً كيف حاول الإسكندر الكبير (القرن الرابع ق.م) إعادة هذا البناء الشامخ ولكن الموت المفاجيء حال دون تحقيق عزمه، وازداد الخراب والعبث فيه في العصور التالية من جراء نقض آجره وهي عملية استمرت إلى العصور الحديثة بحيث إن المنقبين لم يجدوا من بقاياه سوى أسس قاعدته السفلى العميقة، ولا يجد الزائر لأطلال بابل الآن من هذه البقايا سوى قلب تلك القاعدة يحيط بها خندق مربع، كان بالأصل أسس جدران القاعدة. وإذا جمعنا القياسات والمعلومات الأخرى التي سجلها المنقبون عن قاعدة البرج ومخطط سلمه ووصف هيرودوتس له والأخبار الواردة عنه في النص المسماري الذي جاءنا من العهد السلوقي (القرن الثالث ق.م)، نقول إذا جمعنا كل ذلك وما نعرفه عن الأبراج المدرجة من الأمثلة التي بقيت منها أمكننا أن نكوِّن الخطوط العامة عن هذا البرج الشهير. فهو من نوع الأبراج المربعة القاعدة (91,55×91,55م)، وبني هيكله الداخلي باللبن وغلف بالآجر بغلاف لا يقل ثخنه عن (15م). والقاعدة في الأبراج المربعة أن يكون ارتفاعها بقدر ضلع قاعدتها، وكان يتألف في الأطوار الأخيرة ولا سيما زمن نبوخذ نصر من سبع طبقات كل طبقة أصغر من سابقتها، ويرقى إلى هذه الطبقات بسلمين: وسطي طوله نحو 62 متراً وعرضه (9) أمتار وسلمين جانبيين يتصلان به في الأعلى عند الطبقة الثانية أو الثالثة حيث شيد في القمة معبد أو مزار.

أما المعبد الرئيسي (اي ـ ساگلا) الذي يعني البيت الشامخ أو الرفيع،

فكان في الواقع مجموعة كبيرة من الأبنية، قوامها الساحات والحجرات الكثيرة. ويستطيع الزائر أن يشاهد موضعه تحت الأنقاض المتراكمة في المنطقة المسماة «عمران بن علي». وتتبع المنقبون مخططاته ومرافقه المختلفة تحت طبقات من الأنقاض ثخنها زهاء (21) متراً من أدوار السكن المتأخرة.

وصف هيرودوتس للبرج والمعبد:

جاء في تاريخ هيرودوتس (الكتاب الأول، 181ـ183) ما يأتي:

الفقرة 181: يؤلف السور الخارجي وسائل الدفاع الرئيسية للمدينة. ولكن يوجد بالإضافة إلى ذلك سور آخر داخلي، أقل من الأول ثخناً، ودونه في القوة والمناعة. ويشغل مركز كل قسم من المدينة حصن، يقوم عند أحدها قصر الملك الذي يحيط به سور عظيم القوة والسعة. وعند الحصن الثاني تقع حارة الإله «جوبتر ـ بعل» المقدسة وهي فناء مربع طول كل ضلع من أضلاعه 2/ 1 الميل، وذو أبواب من البرونز الصلد، وكانت ما تزال باقية في زمني، ويقع وسط ذلك الفناء أو الساحة برج ذو بناء صلد طوله 8/ 1 الميل وعرضه 8/ 1 الميل أيضاً، أقيم فوقه برج ثانٍ وعلى هذا برج ثالث وهكذا إلى البرج الثامن الأعلى. وكان الصعود إلى القمة من الخارج بواسطة سلم يدور حول جميع الأبراج. وعندما يبلغ المرء منتصف المسافة (في صعوده) فإنه يجد موضعاً للاستراحة حيث اعتاد الناس الجلوس بعض الوقت وهم في طريق ارتقائهم إلى القمة. ويوجد فوق الطبقة العليا معبد فسيح وضع في داخله سرير ذو حجم غير اعتيادي ومزين بزينة فاخرة، وبجانبه منضدة من الذهب. ولا يوجد أي تمثال في هذا المعبد، كما لا يشغل الحجرة في أثناء الليل أحد سوى امرأة يقول عنها كهنة هذا الإله إن الإله اصطفاها لنفسه من بين نسوة البلاد.

الفقرة 182: «ويقولون أيضاً ـ ولكنني لا أصدق ذلك ـ إن الإله ينزل بشخصه إلى تلك الحجرة وينام في ذلك السرير. وهذه تشبه الحكاية التي

يرويها المصريون لما يحدث في مدينتهم طيبة، حيث تمضي امرأة الليل في معبد «جوبتر» الطيبي، وفي كل حالة قيل إن تلك المرأة محظور عليها الاتصال بالرجال. وشبيه بهذا العادة التي يمارسها «البتارا» في ليقية (Lycia) حيث يحجز في داخل المعبد على المرأة التي تعلن النبوءات في أثناء قيامها بعملها. . . ».

الفقرة 183: «وأسفل من ذلك في الحارة نفسها يوجد معبد ثانٍ وضع فيه تمثال قاعد من الذهب الخالص للإله «جوبتر»، وتقوم قدام التمثال منضدة كبيرة من الذهب أيضاً، وكذلك العرش الذي يجلس فوقه والقاعدة التي يقوم فوقها، كلها من الذهب. وقد حدثني الكلدانيون أن وزن الذهب هذا يبلغ ثلاثمائة وزنة[1]. ويقوم خارج المعبد مذبحان، أحدهما من الذهب الصلد والآخر مذبح اعتيادي، ولكنه كبير الحجم، وعليه كانت تضحى الحيوانات وتحرق البخور، وكان يقدم منها كل عام ما زنته ألف وزنة في أعياد الإله. وفي زمن (الملك) كورش كان يوجد في المعبد أيضاً تمثال إنسان ارتفاعه اثنا عشر ذراعاً كله من الذهب الصلد. ولكنني لم أشاهد هذا التمثال، بيد أنني أروي ما يتحدث عنه الكلدانيون. وقد أراد «دارا»ابن «هستاسبس» أن يأخذ التمثال، ولكنه لم يجرؤ، على أن «احشويرش» ابن «دارا» قتل الكاهن الذي أنذره ألا يأخذ التمثال ولكنه أخذه. . ».

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن برج بابل بإيراد القياسات التي سجلها اللوح السلوقي الذي نوَّهنا به[2] عن قياساته (الأبعاد بالأقدام):

---

(1) زهاء 3 أطنان. والمقصود بجوبتر في رواية هيرودوتس الإله البابلي «مردوخ».

(2) يعرف هذا اللوح باسم لوح «اي ـ ساگلا»، ويؤرخ من عهد سلوقس الثاني في حدود 229ق.م وهو موجود الآن في متحف اللوفر بباريس.
انظر: Unger, Babylon, (1931), 239.
ويوجد في المتحف البريطاني نص مماثل هو الآن في طريقه إلى النشر من جانب الأستاذ «وايزمان».

	الطول	العرض	الارتفاع
الطبقة الأولى	295	295	108
الطبقة الثانية	256	256	59
الطبقة الثالثة	197	197	19 3/4
الطبقة الرابعة	167 1/2	167 1/2	19 3/4
الطبقة الخامسة	138	138	19 3/4
الطبقة السادسة	108 1/2	108 1/2	19 3/4
الطبقة السابعة	79	79	49

العراق في العصر الفارسي الأخميني

١ ـ موجز الأحوال السياسية والإدارية:

يبتدىء العهد الفارسي الأخميني في العراق منذ فتح الملك الفارسي كورش الثاني لبابل عام 539ق.م وينتهي بفتح الإسكندر عام 331ق.م، فيكون قد دام زهاء القرنين من الزمان، صار فيه العراق ولاية تابعة إلى الأمبراطورية الأخمينية.

والفرس الأخمينيون من الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» التي استوطنت بلاد إيران في مطلع الألف الأول ق.م في الجزء الذي دعي باسم بلاد فارس، وهو الجزء الجنوبي الغربي من إيران، فكان هؤلاء الفرس يجاورون العيلاميين الذين لم يكونوا من الأقوام «الهندية الأوروبية» واستوطنوا في إيران إقليم «خوزستان» (الأهواز أو الأحواز ومنها منطقة عبادان أو عربستان الآن) منذ أبعد العصور التاريخية وكونوا حضارة مشتقة في أسسها وأصولها من حضارة وادي الرافدين. وعاش في حدود ذلك الزمن أيضاً أي الألف الأول ق.م، قبيلة إيرانية أخرى، هي قبيلة الماذيين (الماداي) في الأجزاء الشمالية الغربية من إيران وعاصمتهم فيها «اكبتانا» (همذان الآن)[1]، وبالنظر إلى ضعف الدولة

---

(1) أول إشارة تاريخية إلى القبيلتين «الماذية» والفارسية جاءتنا في أخبار الملك الآشوري «شيلمنصر الثالث» في عام حكمه السادس عشر والرابع والعشرين (843 و8350ق.م)، حيث اتصلت الجيوش الآشورية بجملة قبائل إيرانية منها القبيلتان «مادا» أو (مادى) وبرسوا أو برسا (فارس) (انظر ARAB).

العيلامية لم يقم في وجه الفرس عائق في إنشاء كيانهم السياسي، ولكن المزاحمة كانت شديدة من جانب الماذيين الذين كانت لهم السيادة والسلطة في مبدأ الأمر. وظهر بين الفرس في منتصف القرن السابع ق.م أسرة مالكة أسسها «هاخمانيش» ومنه تحدرت السلالة الأخمينية الحاكمة، وقد استطاع ابنه المسمى «كورش» الأول (Kurash) (640ـ600ق.م) أن يستقل بعض الوقت عن التبعية الماذية، ولكنه عاد فاعترف بسيادة الملك الماذي القوي «كي ـ اخسار» الذي رأيناه يحالف الزعيم الكلداني والملك البابلي «نابو بولاصر» ويهاجم معه بلاد آشور (614 ـ 610ق.م) ويقضيان على الدولة الآشورية. وجاء من بعد كورش الأول ابنه «قمبيز» الأول الذي تزوج ابنة الملك الماذي «أستياجز» خليفة «كي ـ اخسار» وجاء من هذا الزواج «كورش» الثاني الذي لقب فيما بعد بلقب «كورش» الأكبر (558 ـ 530ق.م)، وقد تمرد على جده لأمه الملك الماذي[1]، وحاربه واستطاع في النهاية أن يستولي على عاصمته «اكبتانا»، وبذلك تفرد الفرس الأخمينيون بحكم بلاد إيران، وسرعان ما استطاع هذا الملك الفارسي القوي أن يؤسس أمبراطورية واسعة شملت معظم العالم القديم، تمتد من تخوم الهند إلى بحر إيجه وآسية الصغرى ودخلت (بلاد بابل وبلاد آشور) ضمن أمبراطوريته منذ فتح بابل في عام 539ق.م، كما مر بنا.

بلاد بابل ولاية أخمينية:

اشتهر مؤسس الدولة الأخمينية «كورش» بسياسة التسامح والتساهل إزاء الأقاليم المفتوحة، وتحاشى التدمير والبطش ما دامت موالية خاضعة، ويصدق ذلك بالنسبة إلى بلاد بابل، حيث المعاملة الحسنة لأهلها وتركها وشأنها في ممارسة شعائرها الدينية وعاداتها الخاصة بها. ومع أنه لا يشك في أنه كانت

---

(1) اقرأ رواية هيرودوتس الطريفة عن قصة كورش مع جده لأمه الملك الماذي «أستياجز»، (الكتاب الأول 107 فما بعد).

جماعات من أهل بابل تنظر إلى فتح كورش على أنه حكم أجنبي ولاسيما الطبقة الحاكمة وأتباعها، بيد أن عامة الناس لم تنظر إلى الحكم الأخميني سوى أنه تبدل في السلالة الحاكمة والإدارة وأسلوب الحكم. وظهرت بوادر هذا التبدل في تاريخ الحوادث، حيث صارت العقود والمعاملات المدونة تؤرخ بسني حكم الملك الجديد وسني خلفائه. وعهد كورش في السنة الأولى من حكمه بإدارة بلاد بابل إلى «كوبرياس»، أحد قواد الملك البابلي «نبونيدس»، وقد مر بنا كيف أن هذا القائد انحاز إلى الملك الفارسي في الهجوم على بابل. ثم عين كورش في السنة التالية (538ق.م) ابنه وولي عهده «قمبيز» حاكماً نائباً عنه في حكم بلاد بابل.

توفي كورش في عام 530ق.م في أثناء إحدى غزواته البعيدة فيما وراء النهر (منطقة سيحون وجيحون)، فخلفه في الحكم ابنه قمبيز الثاني (قمبوزيا) (530 ـ 522ق.م)[1] الذي كان عهده في بلاد بابل فترة هدوء واستقرار، وكان لقمبيز أخ اسمه «بارديا» (Bardia) (وفي المصادر اليونانية سميردس) كان قد عينه أبوه حاكماً على الولايات الشرقية، ولما تولى قمبيز العرش نشب النزاع بين الأخوين، فدبر قمبيز اغتيال أخيه هذا وتم القضاء عليه على ما يرجح.

دارا الأول:

توفي الملك «قمبيز» (522ق.م) وهو في طريق عودته من مصر ولا يعلم الموضع الذي توفي فيه ولا كيفية موته، وأعقب ذلك فترة اضطرابات عمت أرجاء الأمبراطورية وشملت بلاد بابل أيضاً، وقد نشبت ثورة قام بها مدع بالعرش اسمه «غوماتا» (المجوسي)، وكان يشبه «بارديا» أخا قمبيز الذي قلنا عنه إنه اغتاله، فادعى هذا بأنه «بارديا» وانحاز إلى جانبه كثير من الولايات

---

(1) اشتهر الملك قمبيز بفتحه لبلاد مصر (522ـ521ق.م)، وبقيت مصر تابعة إلى الأمبراطورية الأخمينية إلى فتح الإسكندر لها (332ق.م).

وتقبلت دعوته، وبرز إبان هذه الاضطرابات أمير من الأسرة المالكة الأخمينية اسمه «دارا» فجمع حوله الأتباع ونازل ذلك الدعي وتغلب عليه كما حارب الحكام المنشقين بحيث إنه اضطر إلى إعادة فتح معظم ولايات الأمبراطورية ومن بينها بلاد بابل، حيث اغتنم بعض الوطنيين من أهلها ظروف تلك الاضطرابات فأعلنوا استقلال البلاد بزعامة الثائر المسمى «ندنتو ـ بيل» وادعى أنه من نسل «نبونيدس» وسمى نفسه نبوخذ نصر الثالث[1]، وحكم من تشرين الأول عام 522ق.م إلى كانون الثاني من العام (521)، وقد جاءتنا ألواح من الطين مؤرخة بهذه الفترة القصيرة من حكمه، وتطلبت ثورة بابل أن يتوجه دارا بنفسه لإخمادها ويروي هيرودوتس أن المدينة صمدت طوال عامين، ولكن ألواح الطين المؤرخ بها تشير إلى أن الملك البابلي استسلم في عام 521ق.م. وبعد فترة وجيزة من إخماد هذه الثورة وبينما كان دارا يحارب في بلاد ماذي لتصفية فلول الثوار، ثارت بابل مرة أخرى في شهر آب (عام 521ق.م) وادعى الثائر بأنه «نبوخذ نصر» ابن «نبونيدس»، ولكن الواقع أنه كان أرمني الأصل اسمه «أراخا» ابن «خلديتا» كما جاء في كتابة بهستون الشهيرة، ومهما كان الحال قضى على نبوخذ نصر الرابع في تشرين الثاني من العام نفسه، وقد نكل به وبالثائرين الآخرين.

ووجدت بقايا من عهد دارا في جملة مدن شهيرة، مثل تجديد منطقة المعابد (اي ـ أنا) في الوركاء، وشيد في مدينة بابل التي اتخذها مقره الشتوي في بعض الأحيان، دارا للصناعة وقصراً لولي العهد وآخر لسكناه (البناية التي يطلق عليها اسم) «أبادنا» Apadanna وكلاهما يقع بمحاذاة قصور «نبوخذ نصر» إلى الغرب.

---

(1) حول هذه الأحداث في بلاد بابل انظر:

(1) Olmstead, ***History of the Persian Empire.***

(2) A. Poebel, in ***AJSL,*** 56, (1939), 121 ff.

(3) Parker and Dubberstein, ***Babylonian Chronology,*** 626 ***B.C*** -75 ***A.D.*** (1956).

(4) G. Cameron, in ***AJSL,*** (1941), 314 ff.

تنظيمات الملك «دارا» الإدارية وولاية «بلاد بابل»:

استقامت الأمور لدارا في مطلع عام 520ق.م بعد أن قضى على جميع الثوار في أرجاء الأمبراطورية المختلفة[1]، وقد علمته تلك الثورات دروساً مهمة في أسلوب الحكم والإدارة، حيث التزم السياسة الحازمة الحكيمة في ضبط الأقاليم التابعة، كما قام بسلسلة من التنظيمات والإصلاحات الإدارية وفي مقدمة ذلك إعادة تنظيم الولايات التابعة مقتفياً في ذلك التراث المهم الذي خلفه الآشوريون في هذا الباب بعد إدخال التحسينات الملائمة للظروف السائدة، وزاد في عدد الولايات وجعلها عشرين ولاية يحكم كل منها والٍ يعينه الملك اسمه «ستراب»[2] كان يختار في الغالب من طبقة النبلاء. وبعضهم من العائلة المالكة، وكان الولاة مسؤولين مباشرة إلى الملك. وقسمت سلطات الولايات بتعيين قواد عسكريين لجيش الولاية مستقلين عن الوالي، وعين فيها أيضاً جباة للضرائب ونظاراً أو مفتشين يرسلهم الملك سنوياً تقريباً لفحص شؤون الولاية. وأنشأ جهازاً منتظماً للاتصال والمواصلات والبريد الذي اشتهر بسرعته العجيبة وشبكات من الطرق ما بين أرجاء الأمبراطورية والعاصمة «برسيبوليس» (اصطخر)، وفرض نظاماً قانونياً موحداً على الولايات. ووطد النظام المالي بإدخال استعمال النقود المسكوكة التي اطرد استعمالها على أساس الذهب، وصارت واسطة للتعامل التجاري والمصرفي، وعم استعمال الدينار الذهبي «الداري» (Daric) نسبة إلى «دارا» وجعل سعره مساوياً لعشرين «شيقلاً» من الفضة.

---

(1) لا مجال لذكر الأحداث الأخرى في حكم دارا الأول، ويجد القارىء المهتم ذلك في كتب التاريخ القديم الأخرى ومنها المجلد الثاني من كتابي «مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة» (1955)، فمن هذه الأحداث اصطدام الفرس في عهده باليونان على أثر ثورة الأيونيين التابعين إلى الأمبراطورية الفارسية، وإرسال الحملة العسكرية الشهيرة على «أثينة»، وإحراز اليونان ذلك النصر العجيب في موقعة «مراثون» (490ق.م)، ولم يستطع دارا استئناف الحرب لانشغاله في إخماد ثورة قامت في مصر، ثم موته في عام 486ق.م.

(2) «ستراب» باليونانية وتعني الوالي أو المحافظ من الفارسية القديمة «خشاثربان» Khshashtharapvan أي «المرزبان» المذكور في المصادر العربية.

أما بلاد بابل فقد عمها الهدوء والاستقرار من بعد إخماد الثورات التي قامت في بداية حكم «دارا» وأصبحت الولاية الحادية عشرة في ترتيب الولايات العشرين التي قسمت إليها الأمبراطورية وهي: (1) مصر (2) فلسطين (3) سورية (4) فينيقية (5) ليدية (6) فريجية (7) آيونية «المدن والمستوطنات اليونانية في سواحل الأناضول الغربية» (8) كبدوكية (9) كيليكية «الجهات الشرقية من الأناضول» (10) أرمينية (11) بلاد بابل وآشور[1] (12) بلاد ماذي (13) بلاد فارس (14) بلاد القوقاس (15) أفغانستان وبلوجستان (16) الهند (17) بلاد الصغد (18) بلاد البخت (19) مساغيتا (20) ولاية أواسط آسية التركمانية.

وكانت ولاية الهند في مقدمة الولايات في مقدار جبايتها وخراجها السنوي إذ كانت تدفع إلى خزانة «ملك الملوك» (4680) وزنة (Talent) من الفضة، وتأتي من بعدها ولاية بابل وآشور ومقدار جبايتها (1000) وزنة ثم مصر وجبايتها 700 وكيليكية 360 وزنة، وولايات بلاد الأناضول الأربع 1760 وزنة. وبالإضافة إلى هذه الجبايات السنوية كان على كل ولاية أن تزود الملك بالمؤن والطعام. فكان على بلاد بابل مثلاً أن تجهز جيوش الملك بالمؤن طوال أربعة أشهر من السنة. وعين «احشويرش» (Xerexes) حاكماً نائباً عن أبيه الملك (دارا) الأول في بلاد بابل وظل في هذا المنصب طوال 12 عاماً.

خلف دارا الأول على عرش فارس ابنه «احشويرش» الأول (486-465ق.م) بتعيين أبيه له وهو في حياته. وبدأ أولى أعماله بإخماد الثورة التي نشبت في مصر في عهد أبيه. وحدثت في بلاد بابل في عام حكمه الرابع (482ق.م) ثورة قادها أحد الزعماء البابليين المسمى «بيل ـ شماني» فاستقل

(1) يؤخذ من أخبار «زينفون» الذي سيأتي ذكره أن الولاية المتضمنة بلاد بابل وبلاد آشور جزأت في عام 478ق.م إلى ولايتين ولاية بابل وولاية آشور التي ألحقت بالولاية التي سميت «عبر النهر» (عبر نهارا) (وتشمل سورية وفلسطين وقبرص).

فترة قصيرة لم تتجاوز الشهر الواحد (شهر آب)، وقد جاءتنا جملة عقود مؤرخة في هذا الشهر الذي دام حكمه من بعض المدن البابلية مثل «دلبات» و«بورسبا» و«بابل». ويبدو أن شخصاً آخر استقل في الحكم أيضاً اسمه «شمس ـ ايريبا»، دام حكمه شهر (أيلول) فقط من العام نفسه، ويؤخذ من المصادر الخاصة أن الثورة كانت عنيفة حتى أن الوالي الفارسي المسمى «زوفيروس» قتل في أثنائها، ولذلك كان غضب الملك شديداً إذ أرسل القائد المسمى «ميكابيسوس» Megabysus فسحق الثورة بعنف وقسوة بالغين، ونكّل بالثوار تعذيباً وقتلاً.

ولكنه لا يعلم بوجه التأكيد مبلغ التخريب الذي حل بمدينة بابل والمدن الأخرى في أثناء هذه الثورات. على أن روايات المؤرخين الكلاسيكيين تكاد تجمع أن بابل دمرت ودكت حصونها[1]. وأن «احشويرش»، كما يروي «هيرودوتس»[2]، أخذ تمثال الذهب الضخم الذي يمثل الإله مردوخ (زيوس بحسب تعبير هيرودوتس). ويجدر أن ننوّه بمناسبة ذكر هيرودوتس أن وصفه لبابل بعد عشرين عاماً تقريباً من ذلك الحدث لا يشير إلى آثار تدمير واضحة ويقتصر على قصة أخذ احشويرش لتمثال الإله وقتله كاهن المعبد الذي حذره مغبة عمله.

أما بالنسبة إلى الأمبراطورية بوجه عام فإن بوادر التدهور بدأت تظهر منذ عهد «احشويرش» الذي حصر اهتمامه وهمه في بلاد فارس وأصبحت الولايات مجرد رعايا تابعة لها، وشمل ذلك بلاد بابل، ومما زاد الطين بلة إنهاك موارد الدولة في الحرب التي استأنفها «احشويرش» على بلاد اليونان إذ

---

(1) انظر:

(1) Parker and Dubberstein, *op. cit*, p. 17.

(2) Strabo, XVI, I, 5.

(3) Arrian, *Anabasis*, VII, 8, 2.

(4) Diodorus, II, 19, 4 ff.

(2) انظر: هيرودوتس، الكتاب الأول، 183.

جرد حملة ضخمة، وبعد عبوره البسفور انحدر على بلاد اليونان الشمالية وقضى على تلك المقاومة البطولية التي أبداها المدافعون الإسبارطيون القلائل عن مجاز «ثرموبيلي» الشهير، ثم أخذ مدينة أثينة، بيد أن هذه الانتصارات البرية لم تجده نفعاً ولم تقض على مقاومة اليونان، إذ حطم أسطولهم الأسطول الفارسي في معركة سلاميس الشهيرة (480ق.م) فانهارت معنويات الملك وانسحب بجيوشه البرية تاركاً بلاد اليونان تتمتع بحريتها من بعد نصرها العجيب على أضخم أمبراطورية عرفها العالم القديم. وأعقب هذه الأحداث الخطيرة تزايد الانحلال في جسم الدولة وحكامها ملوكاً وأتباعاً واغتيل «أحشويرش» على يد حجاب قصره (465ق.م) وأصبحت مؤامرات القصر من الوسائل المألوفة في تولي الحكم. وخلف أحشويرش جملة ملوك كانوا ضعفاء فازداد في عهودهم تدهور المملكة، وأولهم «أرتحششتا» الأول Artaxrexer (465ـ424ق.م) الذي قتل جميع إخوته لأن أحدهم ثار عليه في ولاية بلاد «البخت»، أما بالنسبة إلى بلاد بابل فلم يأتنا من أخبارها ما يستحق الذكر سوى ازدياد ظاهرة استيطان بعض الجماعات الفارسية فيها من بينهم كهنة من المجوس، كما أقطعت القطائع إليهم وفرضت الضرائب الثقيلة على السكان، واقتصرت إدارة الولاية على الموظفين الفرس. وعادت في عهد هذا الملك جماعات أخرى من اليهود من بقايا الأسر البابلي إلى فلسطين بزعامة الكاتب «عزرا» حيث أعيد بناء الهيكل في أورشليم (445ق.م).

وساءت أحوال المملكة في عهد خلف «أرتحششتا» المسمى «أحشويرش» الثاني (424ق.م)، وقد اغتاله أخوه بعد فترة قصيرة من اعتلائه العرش، وجاء إلى الحكم «دارا» الثاني (424ـ404ق.م) الذي شغل عهده بالمؤامرات والثورات وعم الفساد، وبذرت الأموال والجهود على التدخل في الحرب ما بين اسبارطة وأثينة المعروفة بالحروب «البيلوبونيزية». وخلف دارا الثاني ابنه المسمى «أرتحششتا» الثاني (404ـ359ق.م)، وقد حكم فترة طويلة دامت زهاء نصف قرن، ولكن ازدادت في أواخر حكمه الثورات

والاضطرابات في جميع أرجاء الأمبراطورية، وخلفه في الحكم «أرتحششتا» الثالث الذي اشتهر بالقسوة والشدة، وكان أول عمل قام به القضاء على جميع إخوته وأخواته، واستطاع أن يعيد إلى الطاعة بعض الولايات مثل مصر، ولكن المؤامرات لم تنته فقد مات مسموماً وكذلك ابنه الذي خلفه وتولى العرش «دارا» الثالث الملقب «كودومانوس» وهو آخر ملوك السلالة الأخمينية حيث قضى عليه الإسكندر الكبير على ما سنوجز ذلك بعد قليل.

لم يكن للملوك الأوائل من هذه السلالة عاصمة ثابتة واحدة. فقد اتخذ كورش الثاني أولاً مدينة «سوسة»، العاصمة العيلامية الشهيرة، لتكون مركز إدارته حينما كان والياً على إقليم «أنشان» في عهد تبعيته للملك الماذي. وبعد أن قضى على الدولة الماذية اتخذ عاصمتها «اكبتانا» (همذان) كما جعل مدينة بابل من بعد فتحها مركزاً له ولاسيما إبان فصل الشتاء. وقد اعتاد كورش أن يمكث في كل هذه العواصم فترة من الزمن وأخيراً شيد ما بين عام (559 ـ 550ق.م) عاصمة جديدة هي «بزرگاده» أو «بسرگاده» (Pasargade) الواقعة على بعد نحو 50 ميلاً شمال برسيبوليس (اصطخر)، وتعرف بقاياها الآن باسم «مشهدي مزغاب».

وقد مر بنا كيف أن دارا الأول اتخذ بابل مركزاً له بعض الوقت وعاش فترة من الزمن في قصر الملك «نبوخذ نصر» وقد وجدت له في بقايا هذا القصر مسلة منقوشة باللغة البابلية[1]. ولكنه شيد من بعد ذلك في بابل قصراً خاصاً به يقع بمحاذاة الجبهة الغربية من قصر نبوخذ نصر الجنوبي. وكان هذا القصر الفارسي الجديد ذا أعمدة وأطلق عليه «ابادانا» (Appadanna) وقد وجدت بقاياه وبعض آثاره في أثناء التنقيبات التي أجريت في المدينة. وأخيراً شيد دارا عاصمة جيدة شهيرة ضخمة، هي التي سماها اليونان «برسيبوليس» (أي مدينة الفرس) وهي اصطخر (اصطخرا (Stakhra) أي الحصن)، وشرع

---

(1) Koldewey, *Babylon*, (1914), p. 166.

ببنائها في عام 520ق.م، ولكن لم يكمل بناؤها إلا في عهد «أرتحششتا» الأول في حدود 460ق.م[1].

زينفون وحملة العشرة آلاف إغريقي:

كان يحكم في ولايات آسية الصغرى الأمير الفارسي «كورش» الملقب بكورش الأصغر (Cyrus The Yonger) بالنيابة عن أخيه الملك «أرتحششتا» الثاني (404ـ359ق.م)، وقد سبق لكورش هذا أن حاول قتل أخيه الملك، ولكن هذا عفا عنه وعينه حاكماً في آسية الصغرى كما قلنا، بيد أن ذلك التسامح من جانب أخيه لم يردعه عن التخلي عن أطماعه بالعرش، فجدد محاولته لأخذ الملك وهو في آسية الصغرى، فألف جيشاً لهذا الغرض معظمه من الجند المرتزقة، ولاسيما مرتزقة من الإغريق اشتهروا في التاريخ باسم حملة العشرة آلاف إغريقي، تلك الحملة التي اقترنت باسم «زينفون» (Xenophon)، وهو القائد الذي اختاره جند الحملة في أثناء تقهقرهم من بلاد بابل بعد فشل حملة كورش الأصغر ومقتله.

وقد دون «زينفون» وقائع رجوع اليونان إلى بلادهم (401ق.م) في كتاب[2] وردت فيه أمور مهمة عن الأمكنة والمواقع التي مر بها وجوانب مهمة من أحوال البلاد في أواخر العهد الفارسي الأخميني، وتعد من مصادرنا المهمة عن هذه الفترة من تأريخ العراق بوجه خاص وبعض أجزاء الأمبراطورية الفارسية الأخرى. ويؤخذ من ذكره لبعض المدن القديمة في بلاد آشور التي مر بها أن الكثير منها كان أنقاضاً وخرائب، فيذكر مثلاً أن مدينة «لرسَّا» (Larissa)

---

(1) حول تنقيبات جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) راجع:
E. Schimidt, *The Treasury of Persepolis,* (1939).
G. Ghirshman, *IRAN,* (1954)& 165 ff.

(2) انظر:
(1) Xenophon, *Anabasis The Expedition of Cyrus The Younger.*
(2) D. Oates, *Studies in the Ancient History of North Iraq, (1968).*

التي يرجح أنها «كالح» (نمرود) كانت خرائب مهجورة. أما نينوى العظيمة فإنه لم يذكرها باسمها بل مجرد كونها بقايا حصون وأسوار ضخمة بالقرب من بلدة ذكرها باسم «مسيلا» (Mescila)[1] التي يرجح كثيراً أنها الموصل.

موجز عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

أ ـ المصادر:

بالإضافة إلى المصادر الكلاسيكية التي نوَّهنا بها مراراً عن أحوال الدولة الفارسية بوجه عام وأحوال العراق في عهدها بوجه خاص جاءتنا من مدن العراق القديمة مثل بابل وبورسبا وكيش ونفر والوركاء وأور وغيرها مجموعات كبيرة من الوثائق التجارية والاقتصادية والقانونية. فيعد هذا العهد في هذه الناحية من أغزر العهود التاريخية في الوثائق وقد قدر ما جاء منها ما بين عام 625ق.م (بداية العهد البابلي الأخير) وبين الشطر الأول من العهد الفارسي الأخميني زهاء عشرة آلاف وثيقة، درس ونشر معظمها، يضاف إليها نحو (600) رسالة. على أن هذه الفترة كانت فقيرة من ناحية النصوص الملكية الرسمية، باستثناء بضعة نصوص وفي مقدمتها الإسطوانة التأريخية المدونة بأخبار كورش التي أشرنا إليها سابقاً[2].

ب ـ طرف من الحياة الاقتصادية:

رغم الثورات التي قامت بها بابل فإن أوائل الملوك الأخمينيين اهتموا بشؤونها واضطلعوا بالواجبات التي اعتاد أن يضطلع بها ملوك بابل، في

---

(1) انظر كتابه «الحملة» (Anabasis, III, 4).

(2) نذكر فيما يأتي المراجع الأساسية عن هذه الوثائق:

(1) A. T. Clay, *Legal and Commercial Transactions Dated in the Assyrian, Neo-Bab. and Persian Periods*, (1908).

(2) Tremayne, *Records from Erech, Time of Cyrus and Cambyses*, (1925).

(3) Dubberstein, in *AJSL*, (1939), 20 ff.

(4) , in *JNES*, (1944), 38 ff.

التعمير والإنشاء ومشاريع الري والحياة العامة. ولكن لما دبَّ الانحلال في نظام الحكم المركزي وساءت الأحوال الاقتصادية في الأمبراطورية شمل ذلك أيضاً بلاد بابل، وقد رأينا الجباية الباهظة التي فرضت على ولاية بلاد بابل البالغة (1000) وزنة من الفضة سنوياً عدا تزويد الحكومة المركزية بالمؤن طوال أربعة أشهر من العام، هذا بالإضافة إلى عبء إشباع الحاكم المحلي وإدارته. وقد روى هيرودوتس أن والي بلاد بابل كان يقبض من الولاية يومياً ما لا يقل عن الإردب الواحد من الفضة[1] وأن يزود العلف لما لا يقل عن (800) حصان و(16,000) فرس في حين أن كلابه الهندية كان إطعامها يتطلب واردات أربع قرى (الكتاب الأول، الفقرة 192) يضاف إلى هذا ما ذكرناه من فقر موارد البلاد الاقتصادية من التجارة الخارجية من جراء تبدل الطرق التجارية العالمية، إذ حرمت بلاد بابل من موارد الأقاليم القديمة مثل بلاد الشام والأقاليم الشرقية، وحتى الطريق «الملكي الشهير» الآتي من «ساردیس» (في الأناضول) إلى سوسة (بلاد عيلام) صار يمر من سفوح الجبال الشرقية متجاوزاً مدينة بابل إلا نادراً.

ولعل أبرز ظاهرة اقتصادية ميزت العهد الفارسي الأخميني ما أشرنا إليه من استعمال النقود المسكوكة، وجعل دينار الذهب «الداري» المعادل لعشرين شيقلاً من الفضة أساس التعامل التجاري، واستتبع ذلك نشاط الحركة المصرفية والائتمان (Credit) وظهرت المصارف الخاصة بالإضافة إلى مصارف المعابد التي كانت عامة في حضارة وادي الرافدين في العصور التأريخية السابقة ونشطت نشاطاً ملحوظاً في العصر البابلي الأخير واستمرت إلى العهد الفارسي. وقد استغل أصحاب الأموال تدهور الأوضاع الاقتصادية وارتفاع

---

(1) حول هذه السجلات راجع:

(1) Gardacia, *Les Archives des «Murashû»* (1951).

(2) *The Bab. Exped. of the University of Pennsylvania*, XI.

(3) Helprecht and Clay, *Business Documents of «Murashû» Sons of Nippur*, (1898).

الأسعار فصاروا يقرضون المحتاجين بأرباح فاحشة حيث بلغت الفوائد على الأموال المقرضة من 40% إلى 70% وكان معظم طبقات الشعب بحاجة مستمرة إلى الاستقراض ولاسيما أصحاب الأراضي لاضطرارهم إلى دفع الجبايات الباهظة إلى الملك وموظفيه. وجاءتنا أسماء بعض المصارف المشهورة من هذا العصر مثل مصرف «أولاد مراشو» في نفر (460ـ400ق.م) وكان أصحابه على الأرجح عائلة يهودية ازدهرت أعمالها المصرفية في نفر والمدن المجاورة الأخرى، وقد عثر على سجلات معاملاتها المختلفة في مدينة «نفر» ووجد لها فرع في مدينة «الوركاء» في أثناء موسم التنقيبات لعام 1960، وكانت تمتلك المزارع الواسعة ومصائد الأسماك والمواشي ورهونات العقار والأراضي. وكانت الظاهرة التي لاحظناها من ارتفاع الأسعار في العهد البابلي الأخير (627ـ539ق.م) قد استمرت وتفاقمت، بحيث يمكن القول إن أسعار المعيشة قد تضاعفت في خلال القرن الذي أعقب موت دارا الأول بدون أن يواكب ذلك زيادة في الأجور.

واشتهرت عائلة مصرفية أخرى باسم «بيت ايگيبي» Egibi ومركزها في مدينة بابل، والمرجح أن تكون عائلة يهودية أيضاً اسمها محرف من «يعقوب»[1]. ويؤخذ من وثائق هذا العهد أن الطبقات الأرستقراطية الفارسية كانت تمارس الأعمال التجارية ومعاملات القروض والارتهان في بلاد بابل، ومن بينها أفراد العائلة المالكة عن طريق وكلاء من البابليين والآراميين واليهود والمصريين، وقد جاءتنا وثيقة تشير إلى أن «قمبيز» بن كورش كان يتعامل بالقروض والرهان وهو ولي للعهد، وتشير وثائق هذا العهد أيضاً إلى تملك القطائع والقرى من جانب هذه الطبقات الأرستقراطية، وكان مثل هذه القطائع معفاة من الضرائب، ولكن كان على أصحابها أن يؤدوا الخدمة العسكرية إلى الملك، واستعمل في هذا الشأن المصطلح البابلي القديم «الكو» (ilku)

---

(1) حول هذه العائلة وعائلة «أولاد موراشو» انظر:
Olmstead, *History of the Persian Empire*, (1948), 83 ff.

والمصطلح الآرامي المضاهي له «هالاك». وخصص بعض الأراضي الزراعية إلى الملك نفسه وكان يقوم بخدمتها عبيد الملك أو أنها تعطى بالإجارة[1]، وبالإضافة إلى الأراضي الزراعية كان الملك أيضاً يملك الأنهار وجداول الري فيؤجرها إلى المزارعين وكثيراً ما كانت البيوت المصرفية مثل «أولاد مراشو» يستأجرونها من الملك ويؤجرونها بدورهم إلى المزارعين.

وبالإضافة إلى الضرائب بالفضة والمؤن التي تجبى من الولايات المختلفة، كان على هذه الولايات أن ترسل جماعات من أولادها للخدمة في قصر الملك، فكان على ولاية بابل وآشور (هيرودوتس، الكتاب الثالث، 92) أن تجهزا (500) ولد سنوياً (ويسميهم هيرودوتس خصيان). ونقرأ في سفر «استير» أن على رعايا الملك أيضاً أن يجهزوه بالسريات. وتغيرت وضعية المعبد البابلي في العهد الأخميني حيث صار على المعابد أن تؤدي الضرائب إلى الملك من المواد الغذائية والخمور والزيوت والعبيد والعمال.

ويجدر أن نذكر في ختام هذه الملاحظات عن الأوضاع الاقتصادية في بلاد بابل في هذا العهد أن كميات النقود الهائلة التي كانت تدفع ضرائب إلى الدولة على هيئة مرتبات إلى موظفي الدولة من جانب الولايات كانت تخزن بالدرجة الأولى ولا يصرف منها إلا الشيء القليل، فكان هذا من معوقات نمو التعامل النقدي وقلة النقود المتداولة مما اضطر عامة الناس إلى الاستقراض على الدوام. والطريف ذكره بهذا الصدد أن الإسكندر الكبير لما فتح بلاد فارس وجد أكداس الأموال مخزونة في قصور الملوك، وأن إعادة توزيعها من جانب الإسكندر سبب أزمة عالمية في النقد، إذ تضخمت كميات النقد المتداولة وانخفضت أسعاره انخفاضاً كبيراً.

---

(1) عن أحوال العراق الاقتصادية في هذا العهد انظر:
Muhammad Dandamayen in Diakonoff, *Ancient Mesopopotamia*.

جـ ـ التغيرات اللغوية والسكانية:

صارت بلاد بابل منذ الألف الأول ق.م خليطة السكان، فقد رأينا القبائل الآرامية الكثيرة تستوطن الأجزاء الجنوبية من العراق وتقوم منها سلالات حاكمة، بيد أن أولئك الآراميين رغم اختلاف لهجاتهم عن اللغة البابلية لم يكونوا في الواقع عناصر أجنبية عن أهل البلاد الساميين الأصليين، وازداد اختلاط السكان أكثر في القرن السادس ق.م، في عهد الدولة البابلية الأخيرة، فبالإضافة إلى الآراميين والعرب، أقرباء البابليين من السكان الأصليين، دخلت إلى البلاد عناصر جديدة مثل العبرانيين والمصريين والسوريين وحتى جماعات قليلة من اليونان، واستمر اختلاط السكان في الازدياد منذ العهد الفارسي الأخميني بالنظر إلى طبيعة تركيب الأمبراطورية الفارسية وجيوشها، فتشير الوثائق التي جاءتنا من هذا العهد إلى وجود عدد ليس بالقليل من الأسماء الإيرانية. على أنه ليس من السهل معرفة هل كان مثل هذه الأسماء من أصل إيراني صرف أو أن بعض البابليين بدؤوا يسمون أولادهم بأسماء إيرانية. وقد يصح القول كما رأى أحد الباحثين[1] إن أسماء الأعلام الإيرانية في الوثائق العائدة إلى زمن «كورش» و«قمبيز» ولعله «دارا» الأول كان أصحابها إيرانيين، في حين أن الأسماء الأخرى من العهود التالية لا يمكن تعيين أصل أصحابها، فقد يكونون بابليين اتخذوا الأسماء الإيرانية أو إيرانيين في الواقع. ومع أن عبادة الآلهة المحلية استمرت تمارس في بلاد بابل على الرغم من فرض الملك «احشويرش» عبادة الإله الفارسي «اهورامزدا»[2]، إلا أن تسمية بعض البابليين أبناءهم بأسماء إيرانية تدخل في تركيبها الآلهة الإيرانية لها دلالتها على تساهل القوم في التمسك بآلهتهم.

وقد حقق انتشار اللغة الآرامية في أرجاء الأمبراطورية الفارسية حاجة شعوب هذه الأمبراطورية الواسعة إلى وسيلة مشتركة للتفاهم، فازدهرت

---

(1) ذات المصدر (رقم 24) ص298.

(2) راجع نص المرسوم في: *ANET*, p. 457.

الآرامية، واتخذها ملوك هذه الأمبراطورية لغة رسمية إلى جانب اللغة الفارسية القديمة واللغة البابلية ولاسيما في بلاد بابل، حيث استمرت البابلية لغة تدوين، على أن معرفتها واتقانها اقتصرت تقريباً على الكتبة البابليين ورجال الدين، وانحصر استعمالها بالدرجة الأولى في تدوين النصوص الأدبية والدينية والتأريخية ووثائق المعاملات التجارية والاقتصادية.

ونختتم هذه الملاحظات عن أحوال العراق في العهد الفارسي الأخميني بذكر حقيقة تأريخية مهمة في حياة حضارة وادي الرافدين، تلك هي أنه على الرغم من خضوع بلاد بابل إلى الأمبراطورية الفارسية فقد استمرت هذه الحضارة على شيء من الازدهار في جوانب مهمة من المعارف العلمية، ولا سيما الفلك والرياضيات، كما يستدل على ذلك من النصوص الفلكية المهمة التي وصلت إلينا من هذا العهد. واشتهر بوجه خاص فلكيان بابليان لدى الإغريق هما «نابوريانوس» (Nabu-rimani) والثاني الفلكي «كيدنو» (Kidinu) (أو كيديناس (Cidenas) في المصادر اليونانية)، وكلاهما عاش في القرن الرابع ق.م. وقد جاء من الأول منهما أزياج أو تقاويم فلكية مهمة Ephemerides تتعلق بالحسابات الخاصة بالقمر والشمس، وكانت حساباته عن الخسوف والكسوف مضبوطة. أما «كيدينو» (الذي عاش في حدود 357ق.م)، فقد خلف أيضاً أثباتاً فلكية مهمة، ومنها حسابه مقدار السنة الشمسية بدرجة مضبوطة بحيث لا ينقص عن المقدار الفلكي الحقيقي إلا بأربع دقائق ونصف الثانية. وكان حسابه لمقدار حركة الشمس مما يسمى الـ«نودان»[1] أقل من الخطأ الفلكي الحديث المسمى «أوبولزر» (Oppolzer)[2]. واتخذ تقويم فلكي مضبوط ما بين عام 388 و365ق.م في حساب إضافة سبعة أشهر قمرية في دورة زمنية مقدارها (19) سنة قمرية. إن هذا التقويم الفلكي المضبوط تم

---

(1) النودان (Node) في علم الفلك نقطة تقاطع مدار كوكب معين مع دائرة سمت الشمس أو منطقة البروج.

(2) Olmstead, *op. cit.* p. 457.

التوصل إليه بطريق الحسابات الرياضية الفلكية من جانب الفلكيين البابليين من أهل القرن الثامن ق.م إذ يرجح كثيراً أنه يرجع في زمنه إلى زمن الملك «نابوناصر» في حدود 747ق.م[1] وهو من جملة الأمثلة الكثيرة على استعمال الحسابات الرياضية في الفلك.

(1) نورد هذا التقويم الطريف مع العلم بأن أرقام السنين التي إلى جهة اليمين هي السنين التي يضاف إلى أشهرها القمرية شهر ثالث عشر، حيث يضاف إلى آخر السنة ما عدا السنة الأولى التي يضاف الشهر الكبيسي في أولها:

1 2

3 4 5

6 7 8

9 10

11 12 13

14 15 16

17 18 19

العراق في عهد الإسكندر وخلفائه من السلوقيين

انتهى العهد الفارسي الأخميني بفترة فتح الإسكندر الكبير للشرق والعراق، ثم تلاها العهد السلوقي نسبة إلى «سلوقس» أحد كبار قواد الإسكندر الذين اقتسموا أمبراطوريته من بعد موته في بابل عام 323ق.م، حيث صارت سورية والعراق وإيران من حصة ذلك القائد. ويبدأ العهد السلوقي بالنسبة إلى العراق القديم في 3 نيسان 311ق.م، حيث اتخذ هذا التأريخ عهداً ثابتاً يؤرخ منه لأول مرة في تأريخ العراق القديم. ودام هذا العهد زهاء القرنين من الزمان، إلى حدود 139ق.م أو 126ق.م حيث انتزع الفرس الفرثيون العراق من السلوقيين على ما سنبين ذلك في الصفحات الآتية:

موجز فتح الإسكندر للشرق والعراق:

لما كان ليس من موضوعنا إسهاب القول في تأريخ المقدونيين الذين ينتمي إليهم الإسكندر الكبير ولا تأريخ هذا الفاتح العظيم فنكتفي بإيجاز الأحداث التي استتبع عنها دخول العراق أولاً في حوزة الإسكندر ثم تحت سلطة أحد قواده الذي ذكرناه أي «سلوقس» الأول «نيقاطور» (305 ـ 281ق.م ولكن حكمه في العراق بدأ كما قلنا في 311ق.م).

ولد الإسكندر بن فيليب المقدوني في عام 356ق.م وقد سبق لأبيه أن أعد قومه إعداداً عسكرياً وكوَّن منهم مملكة قوية في مقدونية واستطاع في مدى خمس عشرة سنة أن يخضع معظم الدويلات اليونانية، ورضي الإغريق في النهاية بأن يختاروه قائداً عاماً لجميع بلاد اليونان ليقود الحملة العسكرية على

آسية وبلاد فارس. فقد تشجع اليونان بعد أن استطاعوا قبل زمن فيليب أن يصدوا غزو الفرس لبلادهم ووقفوا على مواطن الضعف عندهم، فتحول الاتحاد الجديد بين المقدونيين وبين اليونان وهم تحت قيادة فيليب الحازمة من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم إزاء الأمبراطورية الفارسية. وقبيل أن يشرع فيليب بحملته الجريئة اغتيل فخلفه ابنه الشاب الإسكندر في عام 336ق.م، وكان عمره (23) عاماً. ووافق المقدونيون واليونان على أن يتولى الملك الجديد قيادة الحملة، فشرع الإسكندر بزحفه على الشرق في عام 334ق.م. واستطاع في مدى ثلاثة أعوام أن يحطم جحافل الأمبراطورية الفارسية الضخمة ويضم أقاليمها إليه، ويغير مجرى التأريخ البشري، ويكون واسطة الاتصال المباشر بين حضارات الشرق القديم وبين الحضارة اليونانية فتفاعلت معها وتمخض عن ذلك ظهور ثقافة عالمية جديدة عاش في كنفها العالم قروناً طويلة، هي الحضارة التي أطلق عليها اسم الحضارة الهلنستية، أي الشبيهة بالهلينية (اليونانية الصرفة).

ومما لا مراء فيه أن هناك عوامل مهمة هيأت للإسكندر تحقيق فتوحه الخاطفة التي لم تضاهها في سرعتها وقصر زمنها فتوح أخرى في التأريخ العالمي في عصوره القديمة. وتأتي في مقدمة تلك العوامل المساعدة صفات الإسكندر الشخصية وقابلياته وتربيته العسكرية الخاصة، وما ناله من ثقافة وهو في حداثته (بسن 13)، وقد تولى جانباً منها الفيلسوف اليوناني «أرسطو» وكان محباً لأعمال البطولة والأبطال، حيث كان يقرأ على الدوام إلياذة هوميروس في النسخة التي هيأها له معلمه الكبير «أرسطو». وإلى ذلك كان مطلعاً على أحداث التاريخ الخاصة بالحروب «اليونانية ـ الفارسية» كما عرضها هيرودوتس المعروف، وكانت موضوع تأريخه الأساسي، وما أودعه في كتابه عن أحوال الدولة الفارسية والدعاية والتحريض على اتحاد اليونان وإمكان أخذ الثأر من بلاد فارس بغزوها، بالإضافة إلى الغنائم والثروات التي سيجنونها. كما وردت في حملة «زينفون» المشهورة (401ق.م) إلى بلاد بابل مما نوَّهنا به سابقاً معلومات مهمة عن أحوال الفرس ومواطن ضعفهم وقوتهم. ثم إن «فيليب» أبا

الإسكندر قد مهد للنجاح العسكري بما أحدثه من تحسين وتجديد في نظام الجيش وأساليب القتال والمناورة، فبالإضافة إلى تحسين نظام الصف (Phalanx) القديم جعل صنف الخيالة أي الفرسان منظماً تنظيماً بارعاً، وجعله عنصراً مهماً في القتال، كما تجلى ذلك في معركة «أربيل» الشهيرة ما بين دارا وبين الإسكندر (331ق.م) وكانت فيها النهاية الحاسمة في حياة الأمبراطورية الفارسية. وإلى كل هذه العوامل وغيرها يضاف عامل الانحلال والتفسخ في الدولة الفارسية وعلى رأسها الملوك والطبقة الحاكمة[1].

نقل الإسكندر جيشه عبر الدردنيل ولاقى أول جيش فارسي في معركة نهر «الغرانيق» Granicus في عام 334ق.م، ثم التقى بالملك دارا الثالث نفسه في المعركة الثانية التي وقعت في «ايسوس» وتحطم فيها الجيش الفارسي. ولكن الإسكندر لم يلاحق دارا في تقهقره بل قصد مصر وسوريا وفتحهما (332 ـ 331ق.م). وأسس في مصر أولى المدن الكثيرة التي سميت باسمه، ونعني بذلك اسكندرية مصر الشهيرة (322ق.م) حيث يقال إنه خططها بنفسه ما بين بحيرة مريوط والساحل. وفي أثناء وجوده في مصر زار واحة «سيوا» الشهيرة وقرب إلى معبد الإله «أمون» فيها، وأخبره هذا الإله على لسان عرافه بأنه سيحكم العالم وأنه نفسه «ابن أمون».

فتح العراق:

ثم اتجه الإسكندر في عام 331ق.م إلى العراق لغزو قلب الأمبراطورية الفارسية، وكان «دارا» قد جمع في سهل أربيل جيشاً لجباً قيل إنه بلغ المليون. وكانت خيالته وحدها تربو على جيش الإسكندر الذي بلغ زهاء

---

(1) نكتفي من المراجع الكثيرة التي كتبت عن الإسكندر بالمصدرين الأساسيين:
Tarn, *Alexander the Great*, (1947).
ومن المؤرخين الكلاسيكيين:
Arrian, *Anabasis of Alexander the Great*.

(40,000) من المشاة ونحو (7000) فارس. وعبر الإسكندر الفرات عند الموضع المسمى «ثبساكوس» (Thapsacus) قرب دير الزور، فسار شرقاً في جزيرة ما بين النهرين إلى دجلة وعبره بمسافة قليلة شمال الموصل، في الموضع المسمى «بيزبدا»، ووصل إلى سهل أربيل، وكان دارا وجحافله في الموضع المسمى «گوگميلة» بالقرب من أربيل[1]، فنشبت المعركة الكبرى عند «گوگميلة» (331ق.م) ولكنها عرفت بمعركة «أربيلا» (أربيل القريبة من كوكميلة) وهنا حلت الهزيمة بجيوش دارا وتقرر مصير آسية والعالم القديم.

وبعد أن تمهل الإسكندر قليلاً في أربيل اتجه إلى بابل وفتحها في العام نفسه (331ق.م). وقبل أن نذكر بعض الملاحظات عن الإسكندر في بابل نواصل إيجازنا عن مصير الملك الفارسي دارا من بعد هزيمته في معركة أربيل. فقد هرب إلى العاصمة البعيدة «أكبتانا» (همذان) ولاحقه الإسكندر إلى بلاد فارس فدخل إلى سوسة ثم العاصمة العظيمة «برسيبوليس» ومكث فيها أربعة أشهر، ويروى أنه وضع يده على الكنوز الضخمة التي كدسها ملوك فارس، وجرت حادثة طيش مؤسفة هي أن الإسكندر، وهو ثمل في حفل شرب ورقص، أمر بإحراق عاصمة الأمبراطورية الفارسية بإشارة من الراقصة «تاييس» إلى القوم الثملين إذ حرضتهم على أخذ الثأر من القصر الذي طالما دبرت فيه خطط تدمير اليونان. فبدأ الإسكندر بالشعلة الأولى وتوهج البناء الشامخ بالنار التي التهمت أخشاب الأرز النفيسة. ثم واصل الإسكندر في ربيع عام 330ق.م ملاحقته لدارا إلى مدينة (أكبتانا) ولما أن شارف جيش الإسكندر على المدينة قبض على دارا أتباعه وقتلوه. واستمر الإسكندر من بعد ذلك في حملات بعيدة موغلاً في بلاد البخت والصغد وغيرهما من أقاليم ما وراء النهر وأواسط آسية. وعند عودته مر ببلاد السند، وأسس في هذه الأنحاء

---

(1) يرى بعض الباحثين أن موقع «گوگميلة» قرب بلدة «كرمليس» الآن:
A. Stein, «Notes on Alexander's Crossing of the Tigris and the Battle of Arbela» in *Geographical Journal*, (1942).

اسكندريات أخرى منها اسكندرية «قندهار» (المرجح أنها محرفة عن اسم اسكندرية)، وكان من مغامراته الجريئة أنه عبر جبال «هندوكوش»، وكانت هذه مجازفة تضاهي عبور «هانيبال» القرطاجني جبال الألب، ثم غزا الهند (ما بين 327 ـ 325ق.م) ولما أن بلغ نهر «الكنج» ظن أن ذلك نهاية العالم. وعندئذٍ ظهر تذمر قواده وجيشه من هذه المجازفات البعيدة عن أوطانهم. فرضخ الإسكندر وعاد أدراجه، وعبر جيوشه بأساطيل في دلتا نهر السند (325ق.م) ثم واصل رجوعه براً، تاركاً قائده المشهور «نيرخس» Nearchus ليستكشف طريق البحر إلى الخليج العربي. ولما وصل الإسكندر سوسة (325 ـ 324ق.م) شرع في تنفيذ خططه ومشاريعه في إنشاء أمبراطورية أو دولة عالمية تضم جميع القوميات والشعوب وتتآخى فيها. ودشن خططه هذه بأن تزوج من ابنة دارا المسماة «ستاتيرا»، كما تزوج الكثير من قواده وجنده نساء فارسيات. ووضع الخطط لإنشاء مواصلات بحرية بين نهر السند ودجلة والفرات وخليج السويس.

الإسكندر في بابل وموته فيها:

لم يلق الإسكندر مقاومة من الحاكم الفارسي في بابل «مازيوس» بل سلمه مفاتيح المدينة (331ق.م) ورحب به السكان على أنه محررهم، ولكنه لم يبق في بابل سوى شهر واحد حيث ذهب إلى سوسة كما ذكرنا، ولما عاد إلى بابل، من بعد تسع سنوات من حملاته البعيدة في الشرق والهند كان مشبعاً بأفكار وأحلام في جعل العالم دولة واحدة كما نوَّهنا وأن تكون بابل والإسكندرية عاصمتي تلك الدولة العالمية والاتصال ما بينهما عن طريق البحر حول الجزيرة العربية، وتطهير نهر الفرات لجعله صالحاً للملاحة إلى الخليج، ولذلك نراه يعهد إلى قائد أسطوله «نيرخس» السالف الذكر باستكشاف المحيط الهندي لربط الأجزاء الشرقية من دولته العالمية. ووضع الخطط لإنشاء ميناء ضخم في مدينة بابل وميناء آخر في أسافل نهر الفرات عند انصبابه في البحر. ولكي تكون بابل لائقة لأن تصبح عاصمة دولته الثانية صمم على إعادة بناء

قصورها ومعابدها وحتى برجها الشهير. وقد فسر التل المعروف الآن باسم «الحميرة» على أنه من بقايا الأنقاض التي رفعت بأمر الإسكندر من حوالي برج بابل تهيئة لإعادة بنائه. ويوجد بالقرب من هذا التل موضعان مرتفعان من التراب فسرا بأنهما موضعا النار التي أضرمت لحرق جثث بعض قواد الإسكندر ممن توفي في بابل.

وبينما كان الإسكندر متهيئاً للشروع بحملة حربية إلى الجزيرة العربية وفي أثناء الولائم والحفلات التي أقيمت في تلك المناسبة مرض بالحمى وتوفي في 13 حزيران من عام 323ق.م، وهو في سن (32) عاماً. وقد مات في قصر نبوخذ نصر ولم يجد عرضه، وهو مسجى على فراش المرض، على مزار الإله «ايا» في معبد «اي ـ ساگلا» الكبير لشفائه من مرضه. وهكذا انتهت حياة هذا الشاب العجيب الذي «جمع في عمر اثنين وثلاثين عاماً همم أعمار كثيرة وتجاربها وإنجازاتها، ولم يكن موته نزوة من نزوات القدر بقدر ما كان نتيجة للشدة التي احترقت فيها طاقته الحيوية». وقد عرفت القرون القليلة التي أعقبت موته باسم العصر «الهلنستي» حيث عمت فيها كما نوَّهنا حضارة خليطة من حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان.

ولعله كان من حسن حظ تلك الشخصية الفريدة في التأريخ البشري أن يموت وهو في عنفوان شبابه وأوج مجده، إذ لم يكن من المتوقع أن يضيف إلى شهرته وأمجاده، بل الواقع أن بوادر الغرور البشري والعجب بالنفس والثمل بالنصر وحب العظمة، التي قاربت تأليهه لنفسه، أخذت تظهر واضحة في سلوكه. ولو أنه عاش أكثر مما عاش لارتكب حماقات تحط من شهرته الفذة، ومن هذه البوادر ما كان يظهر على سلوكه من نزق وطيش وحب تملق، وقد قتل بعضاً من خيرة قواده وأصحابه، كما قتل الفيلسوف المشائي (من أتباع مدرسة أرسطو) المسمى «كليسيثنيز» الأمر الذي أوغر صدور أتباع «أرسطو» عليه فراحوا يغمزونه ويشنعون عليه.

وغدت شخصية الإسكندر موضوعاً شائعاً للحكايات والأساطير عند كثير

من الشعوب في مختلف عهود التاريخ، شأنه في ذلك شأن الأبطال الآخرين، ومن بين ذلك الآداب والقصص العربية حتى أن بعض المفسرين يطابقون الإسكندر المقدوني بذي القرنين المذكور في القرآن، وأنه صاحب سد «جوج وماجوج»[1].

السلوقيون:

لما توفي الإسكندر (في عام 323ق.م) لم يكن من يخلفه على العرش سوى أخ له مضطرب العقل، وقد صار ملكاً فترة قصيرة على بلاد مقدونية، وابنه الذي لم يكن قد ولد إبان وفاته، ولما ولد ضاع حقه في الملك في خضم المنازعات التي نشبت ما بين مشاهير قواد الإسكندر. وبعد فترة طويلة من الحروب ما بين أولئك القواد دامت زهاء (42) عاماً، اقتسم ثلاثة منهم أمبراطوريته الواسعة، وهم «سلوقس» (Seleucus) و«بطليموس» (Ptolemy) الذي أسس مملكة البطالسة أو البطالمة في مصر و«انتيكونس» حاكم آسية الصغرى (إقليم فريجية)، وصارت بلاد بابل وآشور وسورية من حصة سلوقس كما دخلت فيها إيران والأجزاء الشرقية من آسية الصغرى. ولكن لم تتوطد سلطة سلوقس في بلاد بابل إلا في عام 312ق.م واعتبر عام 311ق.م التأريخ الرسمي للعهد السلوقي في العراق كما بينا سابقاً.

كانت المملكة السلوقية في واقع الأمر أمبراطورية كبيرة تمتد من تخوم الهند إلى حدود مصر، ومن البحر الأسود إلى الخليج العربي، فكان ينقصها التماسك، حتى أنها تجزأت منذ بداية نشأتها إلى قسمين كبيرين: القسم الشرقي وكان يتضمن العراق والأقاليم الشرقية، وقد أسست له عاصمة جديدة هي «سلوقية دجلة»، والقسم الغربي ويتضمن بلاد الشام وتوابعها وجعل مركز

---

(1) عن الإسكندر في الأخبار العربية انظر:

M. Lidzbarski in *ZA,* (1893), 263 ff.

Andersen, *Alexander's Gate, Gog and Magog and the Enclosed Nations,* (1932).

إدارته في عاصمة جديدة هي مدينة «إنطاكية» الشهيرة التي أسسها سلوقس في عام 300ق.م على العاصي وسماها باسم أبيه «أنطيوخس». وأشرك سلوقس الأول ابنه المسمى «أنطيوخس» في الحكم حيث صار ملكاً نائباً عنه في القسم الشرقي من الأمبراطورية، وعاصمته سلوقية كما ذكرنا.

وبينما كان سلوقس عائداً من إحدى حروبه في آسية الصغرى اغتاله أحد أبناء «بطليموس» ملك مصر في عام 281ق.م، وخلفه في الحكم ابنه «أنطيوخس» الأول (281 ـ 261ق.م). واستمرت في عهده الحروب والنزاع ما بين السلوقيين وبطالسة مصر للاستيلاء على بلاد فينيقية وفلسطين، حيث استطاع من بعده الملك السلوقي «أنطيوخس» الثالث الكبير (223 ـ 187ق.م) أن يضمها إلى مملكته في عام 200ق.م. وكان هذا أشهر الملوك السلوقيين وأعظمهم وقد خاض حروباً كثيرة في النواحي الشرقية لإخماد الثورات التي نشبت فيها، وانتصر على الملك الفرثي «ارشاق» مؤسس السلالة الفرثية أو الارشاقية التي سنتكلم عنها. وبلغ في حروبه إلى تخوم الهند، كما دخل في نزاع مع رومة بسبب غزواته في آسية الصغرى وتهديده مصالح الرومان في عهدهم الجمهوري. ولما أراد فتح بلاد اليونان تصدوا له ودحروه (عام 199ق.م) بقيادة القائد الروماني «سكبيو» (Scipio). ولما توفي أنطيوخس الثالث في عام 187ق.م دب في جسم المملكة السلوقية التدهور والانحلال، وانفصلت الولايات الشرقية عنها تحت حكم السلالة الفرثية التي قامت في حدود 250ق.م واستطاعت أن تنتزع العراق من السلوقيين ما بين عام 139ق.م و126ق.م. وأخيراً فتح القائد الروماني الشهير «بومبي» بلاد الشام وضمها إلى رومة (65ـ63ق.م)، فانتهى الحكم السلوقي في سورية أيضاً.

لمحة عن أحوال العراق في العهد السلوقي:

لم تنقطع مصادرنا المسمارية عن تأريخ العراق في العهد السلوقي، فقد وصلت إلينا مجموعات من الوثائق التجارية والاقتصادية من المدن المشهورة مثل الوركاء ونفر وغيرهما، كما جاءت نسخ من بعض النصوص الأدبية

القديمة ونصوص خاصة بتنبوءات الفأل (Cmens) وبعض النصوص الثنائية اللغة أو المزدوجة اللغة (أي سومرية وبابلية)، وجملة كتابات تأريخية من بينها جدولان أو ثبتان بأسماء الملوك، ونصوص رياضية وفلكية مهمة. وبالنسبة إلى العلوم الرياضية والنصوص الرياضية يعد العصر السلوقي العهد الثاني من بعد العصر البابلي (الألف الثاني ق.م) في ازدهار هذه العلوم، كما تقدمت الدراسات الفلكية واستخدمت فيها الحسابات الرياضية، والمرجح كثيراً أن استعمال علامة أو رمز للصفر قد ظهر في هذا العهد أو قبله بقليل.

ووصل إلينا من زمن الملك «أنطيوخس» الملقب «سوطير» نص تأريخي مهم يدون طائفة من الأحداث المهمة المعاصرة في بعض المدن مثل بابل و«كوثى» و«بورسبا». وألف في مطلع العهد السلوقي الكاهن البابلي «بيروسس»، كاهن الإله مردوخ في بابل، كتاباً باليونانية عن تأريخ العراق وكرسه إلى الملك «أنطيوخس» الأول. وقد فقد هذا الكتاب ولكن مقتبسات كثيرة منه وردت في المؤلفات الكلاسيكية[1].

وتميز العهد السلوقي في العراق وفي أقطار الشرق الأدنى الأخرى في نشوء المدن الجديدة يقابل ذلك تضاؤل شأن الكثير من المدن القديمة وموت البعض الآخر منها، باستثناء تلك المدن القديمة التي ظلت محافظة على كيانها لأسباب خاصة مثل وقوعها على الطرق التجارية المهمة كما كان الحال في مدينة «كالح» الآشورية (نمرود) إذ حصل فيها بعض الازدهار لوقوعها على طريق دجلة[2]، وماري وإرسلان طاش[3]، ولكن مدناً قديمة أخرى مثل «أور» دب فيها الاضمحلال من جراء تبدل مجرى الفرات ومزاحمة المدينة الجديدة

---

(1) سمّى «بيروسس» كتابه (Babylonica) انظر:
Schnabel, *Beroses und Babylonisch- Hellenistische Literratur,* (1923).

(2) حول نمرود في العصر الهلنستي انظر:
D. Oates in *IRAQ,* (1958), 114 ff.

(3) عن بقايا المعبد اليوناني في «إرسلان طاش» انظر:
Thureau- Dangin, *Arsalan Tash,* (1931).

لها المسماة «الإسكندرية ـ الكرخ» (Alexandria- Charax) أما مدينة بابل فقد حلت بها الضربة القاضية من بعد تأسيس العاصمة الجديدة سلوقية، وانتقال الدوائر الحكومية والمصالح التجارية إليها، ولاسيما في عهد «أنطيوخس» الأول الذي فرض على الكثير من سكانها الانتقال إلى العاصمة الجديدة، بيد أن بعض ملوك السلالة السلوقية حاول إعادة الحياة إليها، فنجد حتى أنطيوخس الأول السالف الذكر يلقب نفسه، مثل ملوك بابل في عهدها الأخير: «حامي أو مزين اي ـ ساگلا» و«اي ـ زيدا» (Zanin Esagila ü Ezida) وأنه جلب بيديه الآجرات الأولى من بلاد الحثين لهذين المعبدين[1] أي معبد الإله مردوخ في بابل ومعبد الإله «نابو» في مدينة «بورسبا». ويؤخذ مما ورد في لوح من عهد الملك «سلوقس الثالث» (226 ـ 220ق.م) أن القرابين كانت تقدم إلى عدد من الآلهة البابلية في معابدها الخاصة، كما عثر على بقايا من البناء من العهد الهلنستي فوق التل المسمى «تل بابل» (وهو موضع قصر نبوخذ نصر الصيفي). وفي زمن الملك أنطيوخس الرابع الملقب «أبيفانس» (175ـ164ق.م)، الذي اشتهر بحماسه في نشر الثقافة الهلنستية، شُيِّد في بابل ملهى وملعب على الطراز اليوناني، وقد جُدِّد ووسع في العصر الفرثي التالي[2].

أما المدن البابلية الأخرى فلا يعرف عن أحوالها أشياء مهمة يستثنى من ذلك مدينة الوركاء التي سماها الإغريق «أورخوي» (Orchoi) فإنها نالت شيئاً من الانتعاش والازدهار كما يستدل على ذلك من المباني التي شيدت فيها في هذا العصر. ومن ذلك بقايا مصطبة ضخمة أقيمت حول منطقة الزقورة في منطقة المعابد «اي ـ أنَّا»، وشيد معبدان كبيران، هما المعبد المسمى «ايريگال» (Irigal) أو «ايش ـ گال» (Esh-gal) إلى الإلهة عشتار، والمعبد المسمى «بيت ـ ريش» (Bit-Resh) للإله «أنليل»، وقد شيد هذان المعبدان على

---

(1) انظر: *ANET*, p. 317.

(2) Koldewey, *Babylon*, (1914).

الطراز البابلي المأثور. ووجدت على الآجر المزجج في حجرة العبادة المقدسة (Cella) الخاصة بمعبد «ايريگال» كتابة بالخط الآرامي واللغة الآرامية. وتشير الوثائق التجارية والعلامات (Bullae) الطينية، التي كانت تربط بالوثائق لتعيين مضامينها وعلى بعضها كتابات إغريقية وآرامية إلى أن جماعات من الإغريق كانت تعيش في مدينة الوركاء التي يبدو أنها كانت تتمتع بشيء كبير من الاستقلال الإداري والاقتصادي[1].

أشهر المدن السلوقية الجديدة:

أشرنا فيما سبق إلى اشتهار العهد السلوقي بظهور المدن الجديدة في مختلف أنحاء الشرق الأدنى، وقد بدأ هذا النشاط منذ زمن الإسكندر وسار على خطاه خلفاؤه من السلوقيين. وقد أسست هذه المدن على غرار المدن اليونانية، وكان سكانها خليطاً من الشرقيين ومن الإغريق والمقدونيين، وكان الاختلاط السكاني والحضاري سمة هذا العصر. وقامت هذه المدن بأدوار مهمة في ازدهار الحضارة الهلنستية بجميع أوجهها ومقوماتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية، وهكذا برز دور نظام المدينة مرة أخرى على غرار ما شاهدناه في حضارة وادي الرافدين في عصر فجر السلالات (الألف الثالث ق.م) ونظام دول المدن اليونانية[2]. وقد استمر الكثير من هذه المدن الكبيرة بمساحتها وعدد سكانها إلى العهود التالية وهي في تعاظم وازدهار متزايدين، هذا بالإضافة إلى إعادة تسمية بعض المدن القديمة بأسماء يونانية وتجديد أبنيتها وستأتي الأمثلة على ذلك. وغلب على أسماء المدن

---

(1) حول الألواح التي وجدت في الوركاء من العهد السلوقي راجع:
M. Ruthen, *Contracts de L'Epoque Séleucide*... (1935).

(2) حول أهمية المدن التي ظهرت منذ فتح الإسكندر للشرق واعتبار مدة الألف عام، من ذلك الفتح إلى العهد العربي الإسلامي (القرن السابع الميلادي) حقبة ثقافية مهمة، متميزة انظر البحوث المنشورة في «ندوة» المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو:
Kraeling et al, Invincible City... (1958), 190 ff.

الجديدة التسميتان «سلوقية» و«انطاكية»، حيث أطلقت هاتان التسميتان على عدة مدن في الشرق والغرب بالإضافة إلى سلوقية دجلة وإنطاكية العاصي، واشتهر من الملوك السلوقيين في هذا المضمار ثلاثة ملوك هم: سلوقس الأول (311 ـ 281ق.م) وأنطيوخس الأول (281 ـ 260ق.م) وأنطيوخس الرابع (175 ـ 164ق.م).

سلوقية دجلة:

أسست في وادي الرافدين في العهد السلوقي عدة مدن جديدة ابتداء من أعالي ما بين النهرين حيث المدينة المهمة «أديسا» (الرها) و«دورا ـ يوروبس» (الصالحية على الفرات) وإنطاكية على العاصي، إلى أقصى الجنوب حيث مدينة «كراكس» أو «الكرخ ـ الإسكندرية» على الخليج العربي. وأشهر تلك المدن في العراق «سلوقية» التي دعيت باسم مؤسسها سلوقس الأول أي (Seleucia) وتوطدت في عهد ابنه وخليفته أنطيوخس الأول في حدود 247ق.م. ويرجح كثيراً أنها شيدت فوق أنقاض المدينة البابلية القديمة «أوبس» (Upi) أو بالقرب منها، وتعرف بقاياها الآن باسم «تل عمر» على ضفة دجلة الغربية مقابل طيسفون (طاق كسرى) على الضفة الشرقية. وكانت سلوقية أكبر مدينة ليس في العراق فحسب بل في جميع أنحاء الشرق الأدنى، فقد قدر عدد سكانها في حدود (600,000)، وأظهرت الصور الجوية التي أخذت لبقاياها أنها صممت على هيئة شبكة المربعات (Grid Plan) حيث بيوتها وحارات السكن فيها على شوارع وطرقات مستقيمة متعامدة على غرار الكثير من المدن الرومانية. وقد عثر في أثناء التحريات القصيرة الأمد[1] على مجموعات من التماثيل الصغيرة ودمى الطين Terra Cotta figurines والنقود، كما كشف عن بقايا أبنية مهمة ولاسيما من العصر الفرثي الذي تلا العهد

(1) حول تحريات جامعة «مشيغان» الأمريكية في سلوقية (1927ـ1932، 1936ـ1937) انظر:
Waterman, *Preliminary Report on the Excavations at Tell Umar,* (1931, 1933).
G. Hopkins, in *Antiquity,* (1939), 440 ff.

السلوقي، حيث ازدهرت المدينة ازدهاراً محسوساً في العصر الفرثي شأنها في ذلك شأن المدن السلوقية الأخرى. وشرعت في السنوات الحديثة الماضية بعثة تنقيبات إيطالية من جامعة «تورينو» تتحرى في سلوقية برئاسة الأستاذ «گوليني» (Gullini) وكان موسم عملها الثامن في عام 1971 ـ 1972.

وأسست جملة مراكز ومدن مهمة على الطريق المهم ما بين سلوقية وبلاد إيران، وهو الطريق التجاري القديم الذي كان يمر من كرمنشاه وهمذان (اكبتانا القديمة). ولكي يوصل هذا الطريق بالبحر بواسطة الخليج العربي أقيمت ما لا يقل عن تسع مدن في سواحل هذا الخليج، من أشهرها المدينة التي دعيت «إنطاكية» (مدينة بوشير) ومدينة «الكرخ» (كراكس) في منطقة المحمرة أو أن المحمرة قامت على أنقاضها. واستوطن بعض الجزر في ساحل الكويت مثل جزيرة «فيلكا» التي دعيت على ما يرجح «ايكاروس». كما أعيد تأسيس مدينة «اكبتانا» القديمة (همذان)، وأسست إلى الجنوب منها مدينة جديدة سميت باسم اللاذقية المنسوبة، مثل لاذقية سورية، إلى «لوديقية» (Laodicea) أم سلوقس الأول، وأعيدت تسمية مدينة الري القديمة باسم «يورويس».

وقامت في العهد السلوقي في القسم الجنوبي من العراق، عند ساحل الخليج، دويلة اسمها «كراكينة» أو «كرخينة» (Carakene) أو (Caracene)، وهي التي ورد اسمها في المصادر الآرامية (السريانية) والعبرانية بهيئة «ميسان» والعربية «ميسان» وفي الفارسية «ميشون»، وفي المصادر الكلاسيكية (Mesene)، وقد نالت استقلالها وانفصلت عن تبعيتها إلى الدولة السلوقية في عهد أنطيوخس الثالث (223 ـ 187ق.م) على أثر اندحاره على أيدي الرومان، وتدرجت في النمو والازدهار حتى غدت في العهد الفرثي التالي من الدويلات المهمة، وكان جل سكانها من الآراميين[1].

---

(1) حول هذه الدويلة الآرامية انظر:

S. A. Nodelman, *A Preliminary History of Characene,* (1960).

Weisbach, "Mesen" in *Pawly Wissowa Encycl.*

وتأريخ الطبري.

ومن الدويلات المهمة التي قامت في العصر السلوقي دويلة «البتراء» العربية، وأهلها من الأنباط (من العرب المتكلمين باللغة الآرامية أو الذين استعملوا الآرامية في الكتابة). وقد اغتنم أهلها الظروف الناشئة من النزاع ما بين بطالة مصر وبين السلوقين، فأقاموا لهم مملكة مركزها في البتراء (سلع القديمة). وازدهرت هذه الدويلة طوال ثلاثة قرون، من القرن الثاني ق.م (في حدود 164ق.م) إلى أن ضمها الأمبراطور الروماني «تراجان» إلى الأمبراطورية الرومانية (القرن الثاني الميلادي). وكان أهل البتراء يسيطرون على طرق البادية المهمة الموصلة إلى موانىء البحر المتوسط وموانىء جنوبي الجزيرة العربية، ونافسوا التجار الإغريق من أهل الإسكندرية في تجارتهم إلى الهند وأجزاء الأمبراطورية الرومانية.

وأسس سلوقس الأول المدينة الشهيرة «دورا ـ يوربس» (Dura- Europus) القريبة من بلدة الصالحية في سورية، وقد أقيمت على بقايا حصن أو قلعة آشورية، ومن هنا منشأ اسمها المركب من كلمتين: «دورا» التي تعني الحصن في اللغة الآشورية و«يوروبس»، اسم الموضع الذي ولد فيه سلوقس في مقدونية. وأظهرت التنقيبات التي أجريت في بقايا المدينة نتائج مهمة ولاسيما بقاياها من العهد الفرثي الذي أعقب العهد السلوقي حيث ازدهرت فيه ازدهاراً كبيراً، واستمرت المدينة إلى العصور التالية الأخرى وانتزعها الرومان من الفرثيين إلى أن دمرها الملك الفارسي الساساني شابور الأول (241 ـ 272م) في عام 256م.

العراق في العهد الفرثي (الارشاقي)

أعقب الملوك السلوقيين المقدونيين في حكم العراق الملوك الفرثيون الإيرانيون في منتصف القرن الثاني ق.م (138ق.م، 126ق.م) ودام حكمهم إلى العام 227ق.م، فيكون العهد الفرثي قد دام في العراق زهاء الثلاثة قرون ونصف القرن، حيث حل محلهم الفرس الساسانيون (227 ـ 637م) إلى زمن الفتح العربي الإسلامي. والفرثيون يرجعون في أصلهم إلى القبائل «الهندية ـ الأوروبية» في آسية، ويمتون بصلة إلى «الاشكوزيين» أو «السكيثيين» (Scythians) الذين ورد ذكرهم في كلامنا على الدولة الآشورية. وكان موطن الفرثيين في السهوب الممتدة ما بين بحر قزوين وبحر «أرال» واشتهروا بالفروسية والحرب. أما اسمهم أي الفرثيون أو البارثيون فمشتق من اسم الإقليم الذي استولوا عليه بعدئذٍ في إيران المسمى «پارتوا» (إقليم خراسان تقريباً)، حيث ظهروا في التأريخ في حدود 250ق.م[1] وقد ورد ذكر هذا الإقليم في عهود أقدم قبل أن يستوطنه هؤلاء الأقوام في أخبار الفرس الأخمينيين وفي الأخبار الآشورية مثل حوليات الملك الآشوري أسرحدون (القرن السابع ق.م). وذكر اسم بلاد «برتوكا» أو «بارتوا» في أخبار كورش. ولا تعرف لغتهم الأصلية قبل استيطانهم البلاد التي سموا بها. ومهما كان الحال فإنهم تكلموا بإحدى اللهجات الإيرانية القديمة المسماة «بهلويك»

---

(1) وعرف الفرثيون أيضاً باسم الاشغانيين، أو الاشكانيين، ولغتهم البهلوية «الاشكانية» وقد عثر على بعض نصوص منها في منطقة جبال هورمان في شمالي العراق.

(البهلوي الفرثي) وهي قريبة الصلة باللغة الفارسية الساسانية (پارسيك) وكلتا اللهجتين من الفارسية القديمة. واتخذ الفرثيون الخط الآرامي لكتابة لغتهم على الرقوق بالدرجة الأولى مما كان سبباً في تلف معظم مآثرهم المدونة، ويجدر أن نذكر بهذا الصدد أن نصوصاً فرثية وجدت في منطقة جبال «هورمان» في جهات حلبجة كما ذكرنا.

ظهر الفرثيون في المسرح السياسي في حدود 250ق.م، حينما ظهر من بينهم زعيم مقتدر اسمه «أرشاق» (Arsaces)، فقاد جموع قومه مع أخيه المسمى «تيريداتس» واستولى على إقليم خراسان من الحاكم السلوقي حيث كانت إيران تابعة إلى الأمبراطورية السلوقية كما مر بنا. وعد العام 247ق.م بداية العهد الفرثي الرسمي في بلاد إيران. على أن الحروب استمرت بين الفرثيين والسلوقيين للاستيلاء على الولايات الشرقية وعلى العراق وشغلت حكم «تيريداتس» الأول (248ـ211ق.م) الذي تلا أخاه أرشاق في الحكم (250ـ 248) وحكم «أرطبان» الأول (211 ـ 191ق.م) و«فريافاطوس» (191ـ 176ق.م) وافراهاط الأول (176 ـ 171ق.م) ومثراداتس الأول (171ـ 138ق.م)[1]، وكانت هذه الحروب سجالاً بين الجانبيين ولكن باستمرار رجحان الكفة بجانب الفرثيين بسبب الضعف المتزايد الذي حل بالسلوقيين من جراء نزاعهم المستمر مع بطالسة مصر ومع رومة. وأخيراً استطاع مثراداتس الأول فتح العراق في حدود 141ق.م، ولكن السلوقيين حاولوا استعادته منهم ولاسيما في عهد الملك السلوقي أنطيوخس السابع «سديتس» (138ـ129ق.م) الذي أحرز نجاحاً موقتاً. على أن الملك الفرثي افراهاط الثاني (128ـ124ق.م) استطاع أن يتغلب على الجيوش السلوقية في إيران وأن يقضي على الملك السلوقي واستتب حكم الفرثيين في العراق في

---

(1) حول تسلسل الملوك الفرثيين وأخبارهم انظر:
(1) Debevoise, *A Political History of Prathia,* (1938).
(2) E. Bickerman, in *Berytus,* (1943-4), 73 ff.
(3) J. Wolski, in *Ibid.,* (1956-8), 35 ff.

عهد أرطبان الثاني (128ـ124ق.م) بحيث اعتبر بعض الباحثين حكم الفرثيين المتواصل في العراق من عهد هذا الملك، في حدود 126ق.م.

ولما لم يكن من موضوعنا الدخول في سرد تأريخ الفرثيين فنختار أبرز النقاط التي تخص تأريخ العراق في هذا العهد. وفي مقدمة ذلك أن العهد الفرثي في العراق تميز بكثرة الحروب أولاً مع السلوقيين كما قلنا ثم مع الرومان. وكان شمالي العراق ميدان الكثير من المعارك التي نشبت ما بين الفرثيين والرومان، فبرزت في أخبار هذه الحروب جملة مدن مهمة على الحدود في شمالي ما بين النهرين مثل إنطاكية وحران ونصيبين وغيرها.

وبدأت العلاقات الحربية ما بين هاتين الدولتين منذ عام 92ق.م في عهد القائد الروماني «سولا» (Sulla). وكانت أولى المعارك الكبرى في عهد الملك الفرثي «أورود» الثاني (57 ـ 37ق.م) وكان الحاكم الروماني في سورية «كراسوس»، فنشبت معركة حران الشهيرة (53ق.م) التي اندحر فيها الرومان وفني معظم جيوشهم وقتل القائد «كراسوس» نفسه. وانتهز الفرثيون اضطراب الأحوال الذي عم رومة بعد مقتل قيصر فوسعوا فتوحهم إلى الغرب، واستولوا على سورية وفينيقية، فأرسل القائد الروماني «مارك أنطوني» الذي كان في مصر حملة كبيرة لوقف الزحف الفرثي، أحرزت النصر على جيش الملك الفرثي «أفراهاط» الرابع (37 ـ 2ق.م). وتوقف النزاع من بعد ذلك فترة ما، عقدت فيها معاهدات سلم ما بين الطرفين، وكانت هذه الفترة التي بدأت من العهد الميلادي فترة مظلمة في تأريخ الفرثيين بوجه عام وتأريخ العراق بوجه خاص، وضعفت الدولة الفرثية بسبب المؤامرات الكثيرة في البلاط، وظل الضعف ملازماً لها إلى أن تولى العرش الملك أرطبان الثالث (11ـ38م) الذي حصل في عهده شيء من الانتعاش في حياة المملكة الفرثية الأمر الذي جعل الرومان يترددون في تدخلهم بشؤون الولايات الغربية التابعة للمملكة الفرثية. ولعل الثورة التي اندلعت في العراق من جانب مدينة سلوقية في عهد أرطبان الثالث وقد دامت زهاء سبع سنوات كانت بتحريض الرومان.

انتهى السلم ما بين الفرثيين والرومان في زمن الأمبراطور الروماني

تراجان (98 ـ 117م) المعاصر للملك الفرثي خسرو (Osroes) (109ـ128م).
فبدأت الحملات الرومانية تسير إلى الفرات وكثيراً ما هاجمت الفرثيين في أراضي العراق، كما نهبت العاصمة «طيسون» مراراً. وبدأ تراجان حملته من إنطاكية، قاعدة الجيوش الرومانية في بلاد الشام، وعبر الجيش الروماني دجلة بعد تغلبه على مقاومة ضعيفة، بيد أن «تراجان» لم يزحف على العاصمة «طيسفون» رأساً بل إنه رجع فعبر دجلة واتجه غرباً قاطعاً بادية ما بين النهرين ومر بمدينة الحضر (116) فلم يستطع فتحها لمقاومتها الشديدة ومناعة أسوارها فتركها إلى الفرات واتصل بأحد الأسطولين الآتي أحدهما في الفرات والثاني في دجلة فسار بالأسطول إلى بابل، وكان الملك الفرثي يرقب الأمور عن كثب ولم يلتحم بالجيش الروماني بل ترك تراجان يهاجم طيسفون ويغنم كنوزها.
وسار تراجان من بعد ذلك في النهر إلى أسفل دجلة والخليج، وبينما كان في هذه الرحلة النهرية غارقاً في أحلامه بمحاكاة الإسكندر الكبير في فتح الهند بلغته أنباء مروعة عن أن الملك الفرثي أخذ يستعيد جميع المدن التي أخذها الجيش الروماني، فأسرع الأمبراطور بالعودة في حر الصيف وقد أحاط به الأعداء في كل مكان، فحلت الكارثة به ومات في المعارك واضطر خلفه الأمبراطور هادريان (117 ـ 138م) إلى التنازل عن جميع الأقاليم المفتوحة إلى الفرثيين وعاد بالجيش عبر الفرات إلى سورية. ولكن الرومان أعادوا غزو العراق في عهد الأمبراطور الروماني «مرقس أوريليوس» (161 ـ 169م) المعاصر إلى الملك الفرثي «أولغاش» الثالث (Vologases) كما قاد الأمبراطور الروماني «سبتيموس سويروس» (193 ـ 211م) حملة حربية أخرى وحاصر مدينة الحضر في عهد «أولغاش» الرابع (191 ـ 207م) فعز عليه فتحها.
وعاود الحرب الأمبراطور «كراكلا» (211 ـ 217) ابن الأمبراطور «سبتيموس سويروس»، وحاصر طيسفون، وكان هذا فاتحاً قاسياً استدرج سكان المدينة إلى الخروج من أسوار مدينتهم بحجة إبرام الصلح والاحتفال بزواجه من ابنة الملك الفرثي «أولغاش» الخامس (207 ـ 222) ولما خرج الناس أوقع المهاجمون فيهم القتل وكانت آخر حرب بين الطرفين هي التي نشبت قرب

نصيبين بين آخر الملوك الفرثيين المسمى أرطبان الخامس (208 ـ 226) وبين الأمبراطور الروماني «مكرينيوس» (Macrinus) (217 ـ 218م) وقد انتهت بإبرام الصلح. وهكذا فشلت محاولات الرومان في الاستيلاء على العراق وإيران من الفرثيين. ولكن حياة الفرثيين السياسية انتهت بعد تلك المعركة حيث دخلت بلاد إيران والعراق تحت حكم السلالة الفارسية الجديدة، هي السلالة الساسانية (227 ـ 637م) التي استمرت في عهدها الحروب مع الرومان.

موجز التنظيمات الإدارية وأحوال العراق في العهد الفرثي:

كان اعتماد الملوك الفرثيين في حكم الأقاليم التابعة إلى أمبراطوريتهم على الأسر الأرستقراطية، وكان الفرثيون في مبدأ أمرهم، كما نوَّهنا سابقاً أقرب ما يكونون إلى البدو منهم إلى الحضر، حتى ليمكننا أن ننظر إلى انتقال السلطة إليهم على بلاد إيران على أنه كان انتصار الإيرانيين البدو الشماليين على الإيرانيين الحضر في الجنوب. وكان أساس الحكم عندهم النظام الإقطاعي، حيث تقوم فوق هرم السلطة أسر أرستقراطية قليلة (زهاء سبع أسر) وعلى رأسها الأسرة الأرشاقية المالكة، ويأتي الملك في قمة الهرم. وكان يتبع تلك الأسر سلسلة طويلة من الأمراء والرؤساء والفرسان، إلى أن نصل إلى أسفل قاعدة الهرم حيث الطبقات الدنيا من المحاربين الأتباع والفلاحين. ولم يسر الفرثيون على نظام ثابت معين في تولي العرش، على أن الطبقات العليا النبيلة كانت عاملاً حاسماً في اختيار الملك الجديد، وكان هذا الاختيار يتم في مجلس خاص بهم أشبه ما يكون بمجلس الشيوخ الروماني (السنات) حيث كان يمنح السلطات أو يحددها، كما كانت طبقة النبلاء هذه من العوامل الحاسمة في إسقاط الملك، وإلى جانب ذلك كان يوجد مجلس آخر للدولة ذو مهمة استشارية للملك، ويتألف بالدرجة الأولى من الكهنة المجوس والحكماء والمقربين إلى الملك[1]. وكان لكل أمير إقطاعي جيشه الخاص به من أتباعه

---

(1) انظر: Ghirshman, *IRAN*, (1954)

المحاربين، ويقدم إلى الملك في حالة الحرب خدماته مع أتباعه. وعلى هؤلاء النبلاء كان يقع واجب تجهيز الجيش بالفرسان المسلحين بالرماح والسيوف والمحميين بدروع الزرد (Cataphract). أمّا صغار النبلاء فكانوا يجهزون جيش الملك بالفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة (Sagitarra) مثل السهام والقسي، وجرت العادة أن هؤلاء كانوا هم الذين يبدؤون المناورة بالرمي. أو يوجد صنف ثالث من الجند في الجيش الفرثي، وهو صنف المشاة الذي كان مصدره بالدرجة الأولى من الفلاحين والعبيد.

أما عن ديانة الفرثيين فلا تسعفنا المصادر التي بين أيدينا لمعرفة كثير من الأمور عنها ولاسيما ما أدخلوه إلى إيران من معتقدات جديدة. على أنه الأخمينيين، لم تنتشر واسعاً بين الفرثيين، غير أن عبادة بعض الآلهة الأخمينية المشهورة استمرت تمارس عندهم، وفي مقدمة ذلك عبادة الإله «مثرا» والآلهة يمكن القول بوجه عام إن ديانتهم كانت تدور على عبادة القوى الطبيعية كالشمس والقمر. وأظهرت الدراسات الحديثة أن «الزرادشتية»، ديانة الفرس «أناهيتا» و«أهورا مزدا». وقد شيدت لعبادة «أناهيتا» جملة معابد، أحدها في مدينة «سوسة» (عيلام) وعبدت تحت اسم «نانيا» (وهو الاسم البابلي، لأناهيتا أي عشتار)، وانتشرت عبادتها إلى آسية الصغرى وأقاليم البحر الأسود. ومن ناحية الشعائر الدينية الخاصة بدفن الموتى لم يتبع الفرثيون العادة الفارسية المجوسية في تعريض الجثث فوق المرتفعات لتنهشها الجوارح، وإنما اتبعوا طريقة الدفن المألوفة كما تشير إلى ذلك القبور التي وجدت من هذا العهد ولاسيما التوابيت (Sarcophagus) الفرثية المزججة عادة والتي تشبه في أشكالها الحذاء وكثيراً ما تزخرف ببعض الصور في خارجها. واشتهر الملوك الفرثيون بتساهلهم الديني إزاء الأقاليم التابعة إليهم، بالمقارنة مع اضطهاد السلوقيين والرومان لليهود وغيرهم. ومن قبيل هذا التساهل اقتباسهم أشياء كثيرة من المقومات الحضارية من السلوقيين، كالنظم الإدارية والاجتماعية، كما اشتهروا في تعلقهم بالثقافة الهلنستية.

وازدهرت الحياة الاقتصادية وتجمعت الثروات الطائلة لدى الفرثيين والأقاليم التابعة لهم ومن بينها بلاد ما بين النهرين، وكان العامل الرئيسي في ذلك اتساع التجارة الخارجية والسيطرة على معظم طرق القوافل التجارية العالمية المشهورة مما كان يربط بين قارة آسية وبين العالم الغربي، وكانت إيران والعراق مركزين ضخمين للتجارة الدولية ما بين الشرق والغرب، واحتكر الفرثيون تجارة الهند والصين وأواسط آسية. ومما ساعد على ازدهار التجارة التحسن البارز في وسائل النقل والعناية بالطرق وسلامتها، فكانت طرق القوافل في البادية تجهز بالآبار والمنازل. وشيدت في المدن التجارية المهمة مثل سلوقية وتدمر و«دورا يوربس» والبتراء البيوت والخانات (المنازل) الخاصة بإيواء التجار. وتشير الوثائق التي وجدت في «دورا يوربس» إلى أن شرطة خاصة أنشئت للمحافظة على أمن الطرق التجارية. كما استفاد الفرثيون من جهاز البريد المنتظم الذي أنشأه قبلهم الفرس الأخمينيون، ولاسيما إقامة محطات الطرق لتبديل خيول العربات لضمان السرعة. فيقال مثلاً إن الملك (Vardanes) وقد شيد على قطع مسافة 350 ميلاً في يومين لما جاء لخلع أخيه «جوتارز». واستعمل نعل الخيول لأول مرة في هذا العهد.

موجز أحوال العراق:

كان من نتائج هذا النشاط التجاري والازدهار الاقتصادي اللذين نوَّهنا بهما ظهور آثارهما في العراق ولاسيما إبان القرن الثاني والأول ق.م، واتساع الحركة العمرانية. فإن المدن التي أسست في العصر السلوقي السابق استمر معظمها في الازدهار والاتساع وتضاعف العمران فيها كما أبانت التنقيبات الأثرية. وإلى هذا فإن كثيراً من المدن القديمة مما قبل العهد السلوقي التي هجرت واضمحلت قد أعيدت إليها الحياة وتجدد الاستيطان والعمران فيها. ففي الأجزاء الجنوبية من العراق وجدت آثار العهد الفرثي في معظم المدن القديمة التي جرى التنقيب فيها مثل بابل وكيش ونفر والوركاء، وفي مدن

مهجورة قديمة مثل منطقة لجش[1]. ففي الوركاء نشط الاستيطان ووجدت فيها بقايا معبد شيد للإله الإيراني «كاروس» (Gareus) الفرثي «وردان» طراز روماني تقريباً، كما وجدت بناية أخرى يرجح أنها معبد للإله «مثرا»[2] وعثر في مدينة «نفر» على معبد ضخم للإلهة «أنانا» (عشتار) من العهد الفرثي بالإضافة إلى أبنية أخرى. ومما تجدر ملاحظته في تمييز الأبنية من الدور الفرثي ما تتصف به من ضخامة الجدران وحجم اللبن الكبير المستعمل فيها.

أما في الأجزاء الشمالية من العراق فقد أعيد الاستيطان والازدهار في عدة مدن قديمة، مثل نوزي (يورغان تبه قرب كركوك) وكاكزو (تركلان قرب كركوك أيضاً) وتبه كورا (شبانبا القديمة). ويمكن القول إن مدينة آشور القديمة قد شيدت من جديد تقريباً فأصبحت في هذا العهد مدينة كبيرة، ولكن الواقع أن إعادة بناء آشور وغيرها من المدن القديمة لم تسر على الخطط القديمة بل إن مدناً جديدة أقيمت فوق أنقاضها القديمة أو بالقرب منها. ويتجلى ذلك في مدينة آشور التي قلنا إنها أصبحت مدينة جديدة ذات شوارع مستقيمة واستعملت في أبنيتها الأعمدة وشيدت فيها الأغورات (Agora) أو الأسواق على غرار «الأغورا» اليونانية، واستعملت في أبنيتها الحجارة المهندمة (Ashlar) بدلاً من اللبن والآجر كما ظهر استعمال الأواوين المفتوحة من الأمام، والساحات المحاطة بالعمد (Peristyle)[3].

وشمل هذا النشاط العمراني تجديد معابد الآلهة القديمة مثل معبد الإله آشور في مدينة آشور والإله «نابو» في بورسيا. أما معبد الإله «مردوخ» في بابل (اي ـ ساگلا) فيبدو أنه لم ينل العناية الكافية في تجديده، كما أن المدينة نفسها استمر فيها الإهمال والتدهور باستثناء دور السكن من هذا العهد. ولعل هذا

---

(1) وجدت في تلول بقايا قصر يرجع في تأريخه إلى العهدين السلوقي والفرثي (القرن الثالث ق.م) وقد نقش بعض أجره باليونانية باسم ملك آرامي اسمه «أدد ـ نادن ـ آخي» انظر:
Parrot, Tello, (1948), 309.

(2) انظر تقارير تنقيبات الوركاء لعام 1935 و1940 و1956 و1958 و1960.

(3) انظر: Lenzen, *Die Parther Stadt Assur*, (1933)

الإهمال يعزى إلى الثورة التي قامت بها بابل من جانب شخص اسمه «هيميروس» (Hymeros) في عام 127ق.م. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن الأمبراطور الروماني تراجان لما زارها في عام 115م لم يجد فيها ما يستحق الذكر سوى أنه «قدم القرابين لروح الإسكندر» وعندما مر بها الأمبراطور الروماني «سبتيموس سويروس» (عام 199م) وجد مدينة نبوخذ نصر مهجورة يعمها الخراب[1].

ومن ناحية التركيب السكاني لمثل هذه المدن أضيف إلى السكان الأصليين والمستوطنين الإغريق من العصر السلوقي السابق عناصر جديدة من السكان من إيران وبعض الأقطار الشرقية. ومع الاختلاط بين هذه العناصر فيبدو أن كل جماعة حافظت على مآثرها وعباداتها يشجعها في ذلك ما سبق أن ذكرناه من روح التساهل الديني الذي امتاز به الحكام الفرثيون. ففي بعض المدن مثل «دورا يوروبس» وجدت معابد إغريقية ومعابد آرامية وكنيسة مسيحية وكنيس يهودي ومعبد لعبادة الإله الإيراني مثرا. ونجد مثل هذه الصورة الطريفة في مدينة الحضر حيث عبادة الإله البابلي ـ الآشوري القديم «نرجال» جنباً إلى جنب مع عبادة الإله اليوناني «هرمز» والإلهة الآرامية «عتار غاتس» والإلهة العربية «اللات» (المضاهية للآلهة اليونانية أثينا).

أما الوثائق المسمارية التي جاءتنا من هذا العهد فلم تكن بأعداد كبيرة بحيث إنها لا تتجاوز بضعة عقود تجارية وزهاء المأتي نص من النصوص الفلكية والتنجيمية، وأجزاء غير كاملة مما يسمى «التواريخ» (Chronicles) وثبت صغير بالمفردات الإغريقية والبابلية[2]. وهكذا فيبدو أن الخط المسماري واللغات التي دونت به في مدى ثلاثة آلاف عام كان في آخر أطواره إلى

---

(1) انظر: Dio Cassius, LXXI, 2.
Ammianus Marcellinus, XIII, 4, 34.

(2) حول النصوص المسمارية القليلة التي جاءتنا من العهد الفرثي انظر:
(1) Strassmair, «Arsakiden inschriften.», in *ZA*, (1888).
(2) Kohler und Ungnad, *100 Ausgewälte Rechtsurkunder der Spätzeit*... (1909).
(3) Sachs and Schaumberger, *Late Bab. Astronomical and Related Texts* (1955).

الاحتضار والموت، وكان آخر ما وصل إلينا قد دون ما بين العامين 74 و75 للميلاد على هيئة تقويم فلكي[1].

المدن الجديدة ومدينة الحضر:

لم يشيد الفرثيون، على ما جاءنا لحد الآن مدناً جديدة كثيرة. فمن المدن التي أسست في عهدهم خارج إيران نذكر طيسفون (طاق كسرى) التي اتسعت كثيراً في العهد الساساني الذي أعقب العصر الفرثي والحضر وأولغاشية (Vologesia) نسبة إلى الملك الفرثي «أولغاش الأول» (51 ـ 78م)[2] وأسسوا في إيران المدينة المسماة «درب جرد» (Derbagard) و«جور فيروز آباد»، جنوب شيراز، التي شيدها أول الملوك الساسانيين يوم كان حاكماً تابعاً لآخر الملوك الفرثيين. والغالب على مثل هذه المدن الجديدة أنها كانت مدورة أو شبه مدورة وأنها كانت بالأصل معسكرات للجيوش.

ونختتم كلامنا على العراق في العصر الفرثي بذكر نبذة عن مدينة الحضر التي شيدت في هذا العصر في حدود القرن الثاني أو الثالث ق.م على ما يرجح، وظلت مزدهرة إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، حيث دمرها الملك الساساني «سابور» الأول في عام 239 أو 250م. وتقع بقايا الحضر في البادية الواسعة ما بين النهرين، على بعد نحو 3كم عن الضفة الغربية من وادي الثرثار، وعلى بعد نحو 125كم شمال غربي بلدة بيجي و58كم شمال غربي بلدة الشرقاط، موضع مدينة آشور القديمة. ولا يعرف بالضبط مؤسس هذه المدينة، على أن مما لا شك فيه أنها كانت بالأصل مستوطناً لعرب البادية، ولعلها كانت مركزاً مقدساً للقبائل المنتشرة في المنطقة شيد فيه موضع لعبادة بعض الآلهة حول مجموعة من آبار المياه، ولاسيما عبادة الإله الشمس، ثم

---

(1) انظر:
Sachs and Schaumberger, *Ibid.* No. 1201.

(2) وصفت «أولغاشية» بأنها بالقرب من بابل. ومن الباحثين من يعينها بمدينة الكوفة انظر:
Pawly- *Wissowa Encyct.*, 17, (1961), 707.

ازدهرت وحكمت فيها سلالة عربية أصل ملوكها على ما يرجح من الكهنة، وشيدت فيها المعابد الضخمة والمباني والقصور، ودامت في الحكم زهاء أربعة قرون. ولعل أول ملوكها المشهورين الملك المسمى «سنطروق» الذي يلقب نفسه في الكتابة المكتشفة في المدينة في عام 1961 «ملك العرب»، وجاء اسم أبيه «نصر» الكاهن الأعلى، ويرجح أن هذا الملك هو الذي شيد معابد الحضر الكبيرة. وازدهرت المدينة كثيراً بسبب وقوعها على طرق البادية المهمة الموصلة ما بين وادي الرافدين وأعالي ما بين النهرين إلى سورية والبحر المتوسط. واشتهرت المدينة بمناعة أسوارها وشجاعة أهلها، وقد مر بنا كيف فشل الأمبراطوران الرومانيان تراجان وسبتيموس سويروس في فتحها. واشتهرت كذلك في أخبار المؤرخين والبلدانيين العرب الذين نسبوا أبنيتها إلى ملك اسمه الساطرون الذي يرجح أنه محرف عن سنطروق السالف الذكر.

ومدينة الحضر شبه مدورة ومحاطة بسورين أحدهما خارجي واطىء من التراب أو الطين يبلغ قطره نحو 3كم، وسور داخلي مشيد من الحجارة المحلية على مسافة (500) من السور الخارجي. وللسور الداخلي أربعة أبواب في الاتجاهات الأربعة على وجه التقريب. وتمتاز هذه الأبواب بمناعتها وطريقة بنائها، فقد صممت لجعل اقتحامها والدخول منها يعرض المهاجمين إلى الهلاك. ويقوم في وسط المدينة المعبد الكبير الذي خصص لعبادة الإله الشمس، كما شيدت عدة معابد أخرى للآلهة التي عبدها أهل الحضر، وتكثر فيها القبور البرجية. وكانت أولى تحريات أثرية فيها ما أجرته بعثة التنقيبات الألمانية التي كانت في مدينة آشور في عام 1912. ثم شرعت مديرية الآثار العراقية تنقب فيها منذ عام 1951 واستمرت إلى حال التأريخ، وقامت بأعمال صيانة مهمة. وأسفرت هذه التنقيبات الكشف عن بقايا مهمة من معابد المدينة ومعرفة أبوابها كما وجدت مجموعات نفيسة من التماثيل الكبيرة والصغيرة مما يزين المتاحف العراقية[1] وسجلت فيها مجاميع مهمة من النصوص الآرامية.

---

(1) نحيل القارىء إلى مجلة سومر منذ عام 1952 حول نتائج هذه التنقيبات.

نهاية الحكم الفرثي وخلاصة العصر الساساني:

انتهى الحكم الفرثي في عام 227م أو 226م بظهور سلالة فارسية حاكمة جديدة في إيران هي السلالة الساسانية (227 ـ 637م) نسبة إلى جدها المسمى «ساسان» الذي كان الكاهن الأعلى في معبد الإلهة «أناهيتا» في اصطخر في زمن الحكم الفرثي، واستطاع حفيده المسمى «أردشير» الاستيلاء على جميع بلاد إيران في حدود 226، حيث كان آخر ملك فرثي «ارطبان» الخامس، ودام الحكم الساساني نيفاً وأربعة قرون، ودخل العراق تحت حكم هذه السلالة إلى الفتح العربي في موقعة القادسية (637م) وقام منها ملوك عظام من مشاهيرهم سابور أو شابور الأول الذي خلف «أردشير»، ودام حكمه نصف قرن تقريباً (241 ـ 272م)، وسابور الثاني (309 ـ 379م) الذي سماه العرب «سابور ذا الأكتاف»، ومن أواخر ملوكهم المشهورين كسرى الأول (531 ـ 579) الذي لقب «أنوشروان»، والذي اشتهر بعدله وصلاحه، وفي عهده ولد النبي محمد (ص) في أواخر سني حكمه (570م)، وآخرهم الملك يزدجرد الثالث (632ـ651م) الذي انتهت في عهده الدولة الفارسية على أيدي العرب المسلمين.

وإذا كان يتعذر ذكر أحوال هذه الدولة لأنها خارج موضوع كتابنا فنقتصر على بعض النقاط الأخرى البارزة وأهمها ما تميزت به الدولة الساسانية من إحياء وبعث للتراث الفارسي القديم من مآثر الفرس الأخمينيين في حقل اللغة والديانة حيث انتعشت الديانة الزرادشتية ودونت في زمنها الافستا (الاستاق المشهورة)، وظهرت حركات دينية جديدة نخص بالذكر منها «المانوية» التي ظهرت في عهد شابور الأول (منتصف القرن الثاني الميلادي) لمؤسسها «ماني» الذي يرجح أن أصله من جنوبي العراق (من دويلة ميسان)، وهي ديانة خليطة من العبادات البابلية القديمة ومن الزرادشتية والمسيحية وحتى البوذية، وتقوم على مبدأ «الثنوية» والصراع ما بين مبدأين، النور والظلام، والخير والشر، وظهرت أيضاً الحركة المزدكية في عهد قباذ الأول (488ـ531م)، وتعزى إلى

مؤسسها «مزدك» وقد تبعها جماهير الناس وأبدى الملك حيالها تساهلاً في مبدأ الأمر بل ساندها ولكنه اضطهدها من بعد ذلك وقضى على مؤسسها وكانت في جوهرها مشاعية وفيها بعض الجوانب من الشيوعية.

واستمرت الحروب الكثيرة ما بين الرومان والساسانيين، وكان شمالي ما بين النهرين وبلاد بابل مسرحاً لها، وقاست الأجزاء الشمالية من العراق التدمير من جراء تلك الحروب المتواصلة، فبالإضافة إلى تدمير مدينة الحضر من جانب سابور الأول كما ذكرنا دمرت مدينة آشور أيضاً في عام 256م. وازدهرت في العهد الساساني مدينة طيسفون التي بدأ تأسيسها في العهد الفرثي السابق، وصارت مقر الأكاسرة، كما عثر على بقايا قصر ملكي في مدينة كيش[1]، وعثر في الوركاء في عام 1956ـ1957 بالقرب من أسوار المدينة على تاج من أوراق الذهب لعله يعود إلى أحد الحكام من العصر الساساني[2].

ومما يجدر ذكره في ختام هذه الملاحظات الموجزة عن العراق في العصر الساساني أن التلمود البابلي دون في بلاد بابل في هذا العصر وفيه معلومات مهمة عن أحوال العراق، وأخبار الجاليات اليهودية مثل بابل ونفر، كما توجد في كتب المؤرخين والبلدانيين العرب معلومات مهمة ومفيدة عن أحوال الدولة الساسانية بوجه عام وأحوال العراق في العصر الساساني بوجه خاص، وكيف تدهورت الأحوال في أواخره وأهملت شؤون الري والسدود فانبثقت الأنهار وتكونت ما يسمى بالبطائح (عام 628 و629م أي عام 6 و7 للهجرة).

وقامت في بداية القرن الثالث الميلادي في البادية المحاددة للفرات في

---

(1) انظر:
Langdon, «Excavations at Kish», *IRAQ*, I, (1934), 113 ff.

(2) انظر:
Lenzen, in *SUMER*, XIII, (1957), 205 ff.

منطقة الكوفة دويلة عربية مهمة هي مملكة الحيرة، وأصل أهلها وملوكها من عرب اليمن، عرفوا بالمناذرة واللخميين، وتقع الحيرة، عاصمتها على بعد نحو 3 أميال جنوب الكوفة، وكان أهلها نصارى على المذهب النسطوري، وكان ملوكها موالين أو محالفين لملوك الدولة الساسانية، ومن ملوكها الأوائل امرؤ القيس الأول (القرن الرابع الميلادي) والنعمان الأول ابن امرؤ القيس والمنذر الأول (418 ـ 462) ابن النعمان، وقد عظم في زمنه شأن الحيرة، والمنذر الثاني (505 ـ 554) وهو الذي سماه العرب «ابن ماء السماء»، وأعقبه ابنه المسمى عمرو بن هند (554 ـ 569م) الذي خلده شعراء العرب من الجاهلية مثل طرفة بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم. وانتهى حكم السلالة في حكم النعمان الثالث الذي يكنى «أبو قابوس» (580 ـ 602)، صاحب النابغة الذبياني، حيث صار الملوك الساسانيون يتدخلون في شؤونها، وأخيراً انحاز عرب الحيرة إلى خالد بن الوليد في فتحه العراق (عام 633م).

السلالات الحاكمة من بعد العصر البابلي القديم

1 ـ الكشيون:

(سلالة بابل الثالثة 1700؟ـ 1168، 1157ق.م. وفي بابل من 1595ق.م. إلى 1157).

1 ـ كنداش.

2 ـ آكوم الأول.

3 ـ كاشتلياش الأول.

4 ـ أوشي.

5 ـ أبي ـ رتاش.

6 ـ كاشتلياش الثاني.

7 ـ أورزي كرماش.

8 ـ حربي ـ شباك.

9 ـ تبتاكزي.

الكشيون في بلاد بابل:

10 ـ آكوم الثاني كاكريمة (1595ـ1585ق.م.).

11 ـ بورنابورياش الأول.

12 ـ كاشتلياش الثالث.

13 ـ أولام بورياش.

14 ـ آكوم الثالث.

15 ـ كدشمن حربي الأول.

16 ـ كره انداش.

17 ـ كوريكالزو الأول.

18 ـ كدشمن أنليل الأول.

19 ـ بورنابورياش الثاني (1375ـ1347).

20 ـ كره خرداش.

21 ـ نازي بوكاش[1].

22 ـ كوريكالزو الثاني (1345ـ1324).

---

(1) ترتيب الملوك الواحد والعشرين الأوائل غير مؤكد حول ذلك راجع:
Rowton, CAH, I, (1962). chap. 6.
Weidner, in AFO (1959-60). p.318.
لم يطبع.

23 ـ نــازيــمــارتــاش (1298ـ1323).

24 ـ كــدشــمــن ـ تــركــو (1280ـ1297).

25 ـ كدشمن أنليل الثاني (1265ـ1279).

26 ـ كــودر أنــلــيــل (1256ـ1264).

27 ـ شـكـار كـتـيـشـرياش (1243ـ1255).

28 ـ كاشتلياش الرابع (1235ـ1242).

سيطرة الملك الآشوري «توكلتي ننورتا الأول» (1228ـ1234).

29 ـ أنـلـيـل نـادن شـومـي (1225ـ1227).

30 ـ كدشمن حربي الثاني (1225ـ1227).

31 ـ أدد ـ شــم ـ أدنــا (1219ـ1224).

32 ـ أدد ـ شــم ـ أوصــر (1189ـ1218).

33 ـ مـيـلـي ـ شـبـاك (1174ـ1188).

34 ـ مــردخ بــلادان الأول (1161ـ1173).

35 ـ زبــابــا ـ شــم ـ ادن (1160).

36 ـ أنـلـيـل ـ نـادن ـ آخـي (1157ـ1159).

2 ـ سلالة «القطر البحري» (سلالة بابل الثانية):

1 ـ ايلوما ايلو.

2 ـ اني ـ ايلي ـ نيبي.

3 ـ دامق اليشو.

4 ـ اشكيبال.

5 ـ شوشي.

6 ـ كل ـ كيشار.

7 ـ بشكال درماش.

8 ـ ادارا ـ كلاملا.

9 ـ اكور ـ اورلما.

10 ـ ميلام كركرا.

11 ـ ايا ـ كامل.

3 ـ سلالة ايسن الثانية (= سلالة بابل الرابعة 1156ـ1025):

1 ـ مردوخ ـ كابت ـ أخيشيو (1139ـ1156).

2 ـ أتـي ـ مـردوخ ـ بـلاطـو (1131ـ1138).

3 ـ نـنـورتـا نـادن شـومـي (1125ـ1130).

4 ـ نبوخذ نصر الأول (1103ـ1124).

5 ـ أنليل نادن أبلي (1099ـ1102).

6 ـ مردوخ ـ نادن آخي (1081ـ1098).

7 ـ مردوخ ـ شابك ـ زيري (1068ـ1080).

8 ـ أدد ـ أبلا ـ أدنا (1046ـ1067).

9 ـ مردوخ ـ آخي ـ أريبا (1045).

10 ـ مردوخ ـ زير. . . (1033ـ1044).

11 ـ نابو ـ شومو ـ ليبور (1025ـ1032).

4 ـ سلالة القطر البحري الثانية (= سلالة بابل الخامسة):

1 ـ سمبار ـ شباك (1007ـ1024).

2 ـ أيا ـ موكن ـ زيري (1007).

3 ـ كشو ـ نادن ـ آخي (1004ـ1006).

5 ـ سلالة «بازي» (= سلالة بابل السادسة):

1 ـ آي ـ أولماش شاكن شومي (987ـ1003).

2 ـ ننورتا كدوري أوصر الأول (984ـ986).

3 ـ شركتي ـ شوقامونا (984).

6 ـ سلالة بابل السابعة:

1 ـ ماربيتي ـ أيلا ـ أوصر (978ـ983).

7 ـ سلالة بابل الثامنة:

1 ـ نابو ـ موكن ـ ايلي (943ـ977).

2 ـ ننورتا ـ كدوري أوصر الثاني (942).

3 ـ مربيتي ـ آخي ـ أدنا (941ـ؟).

4 ـ شمش ـ مدمق.

5 ـ نابو ـ شم ـ أوكن الأول.

6 ـ نابو ـ أبلا ـ أدنا.

7 ـ مردوخ ـ زاكر ـ شومي.

8 ـ مردوخ ـ بلاصو ـ أقبي.

9 ـ بابا ـ أخا ـ أدنا.

10 ـ 14 ـ أسماؤهم مخرومة.

15 ـ ننورتا ـ أبلا. . .

16 ـ مردوخ ـ بيل ـ زيري.

17 ـ مردوخ ـ أبلا ـ أوصر.

18 ـ أريبا ـ مردوخ.

19 ـ نابو ـ شم ـ اشكن.

8 ـ سلالة بابل التاسعة:

1 ـ نابو ناصر (734ـ747).

2 ـ نابو نادن زيري (732ـ733).

3 ـ نابو شم أوكن الثاني (732).

9 ـ سلالة بابل العاشرة:

1 ـ نابو موكن زيري (729ـ731).

2 ـ فول (پولو) (ثجلا ثبليزر الآشوري) (727ـ728).

3 ـ أولولو (شيلمنصر الآشوري) (722ـ726).

4 ـ مردوخ بلادان الثاني (710ـ721).

5 ـ سرجون (الآشوري) (705ـ709).

6 ـ سنحاريب (الآشوري) (703ـ704).

7 ـ مردوخ زاكر شومي الثاني (703).

8 ـ مردوخ بلادان (703).

9 ـ بيل ـ ابني (700ـ702).

10 ـ آشور ـ نادن ـ شومي (694ـ699).

11 ـ نرجال ـ أوشزب (693).

12 ـ موشزب ـ مردوخ (689ـ692).

13 ـ سنحاريب (681ـ688).

14 ـ أسرحدون (669ـ680).

15 ـ شمش ـ شم ـ أوكن (648ـ668).

16 ـ قندلانو (627ـ647).

10 ـ سلالة بابل الحادية عشرة (السلالة الكلدانية):

1 ـ نابو بولاصر (605ـ626).

2 ـ نبوخذ نصر الثاني (562ـ604).

3 ـ اويل ـ مردوخ (560ـ561).

4 ـ نرجال شار اوصر (556ـ559).

5 ـ لباشي ـ مردوخ (556).

6 ـ نبو نيدس (539ـ555).

استيلاء كورش على بلاد بابل (539).

11 ـ الملوك الأخمينيون:

1 ـ كورش الأول (600ـ640).

2 ـ قمبيز الأول (559ـ600).

3 ـ كورش الثاني (530ـ559).

4 ـ قمبيز الثاني (522ـ529).

5 ـ بارديا (522).

6 ـ دارا الأول (521ـ486).

7 ـ احشويرش الأول (485ـ465).

8 ـ أرتحششتا الأول (464ـ424).

9 ـ دارا الثاني (423ـ405).

10 ـ أرتحششتا الثاني (404ـ359).

11 ـ أرتحششتا الثالث (358ـ338).

12 ـ أرسيس (337ـ336).

13 ـ دارا الثالث (335ـ331).

12 ـ المقدونيون:

1 ـ الإسكندر الكبير (336ـ323).

2 ـ فيليب أرهيديوس (323ـ316).

3 ـ الإسكندر الرابع (316ـ307).

13 ـ الملوك السلوقيون:

1 ـ سلوقس الأول نيفاطور (311ـ281).

2 ـ أنطيوخس الثاني (281ـ260).

3 ـ أنطيوخس الثالث (260ـ246).

4 ـ سلوقس الثاني (245ـ226).

5 ـ سلوقس الثالث (225ـ223).

6 ـ أنطيوخس الثالث الكبير (222ـ187).

7 ـ سلوقس الرابع «فيلوباطر» (187ـ175).

8 ـ أنطيوخس الرابع «أبيفانس» (175ـ164).

9 ـ أنطيوخس الخامس (164ـ162).

10 ـ ديمتريوس الأول (162ـ150).

11 ـ الإسكندر بالس (150ـ145).

12 ـ ديمتريوس الثاني (145ـ140).

13 ـ أنطيوخس السادس (145ـ143).

14 ـ أنطيوخس السابع (138ـ129).

15 ـ سلوقس الخامس (129ـ126).

16 ـ أنطيوخس الثامن (126ـ96).

17 ـ سلوقس السابع (96ـ95).

18 ـ أنطيوخس الحادي عشر فيلادلفس.

19 ـ فيليب الأول (95ـ83؟).

20 ـ ديمتريوس الثالث (95ـ88).

21 ـ أنطيوخس الثاني عشر (86؟ـ85؟).

22 ـ أنطيوخس العاشر (95ـ83).

23 ـ أنطيوخس الثالث عشر (69ـ65).

14 ـ الملوك الفرثيون (الارشاقيون):

1 ـ ارشاق (250ـ248).

2 ـ تيريداتس الأول (248ـ211).

3 ـ ارطبان الأول (211ـ191).

4 ـ فريا فاطوس (191ـ176).

5 ـ افراهاط الأول (176ـ171).

6 ـ مثراداتس الأول (171ـ138).

7 ـ افراهاط الثاني (138ـ128).

8 ـ ارطبان الثاني (128ـ124).

9 ـ مثراداتس الثاني (123ـ88).

10 ـ جوتارز الأول (91ـ81).

11 ـ أورود الأول (80ـ76).

12 ـ سنا طرق (76ـ70).

13 ـ افراهاط الثالث (70ـ57).

14 ـ مثراداتس الثالث (57ـ54).

15 ـ أورود الثاني (57ـ37).

16 ـ افراهاط الرابع (37ـ2ق.م).

17 ـ تيراداتس الثاني (30ـ25).

18 ـ افراهاطاق (2ق.م ـ4م).

19 ـ أورود الثالث (4ـ6م).

20 ـ أونون الأول (8ـ22م).

21 ـ ارطبان الثالث (11ـ38م).

22 ـ تيريداتس الثالث (36م).

23 ـ كيناموس (37م).

24 ـ جوتارز الثاني (38ـ51).

25 ـ وردان (39ـ47).

26 ـ أونون الثاني (51).

27 ـ ولغاش الأول (51ـ78).

28 ـ فاقور (78ـ115).

29 ـ أرطبان الرابع (80ـ81).

30 ـ خسرو (109ـ128).

31 ـ فرثامسباتس (117).

32 ـ ولغاش الثاني (106ـ147).

33 ـ مثراداتس الرابع (147ـ128).

34 ـ ولغاش الثالث (162ـ148).

35 ـ ولغاش الرابع (107ـ191).

36 ـ ولغاش الخامس (222ـ207).

37 ـ أرطبان الخامس (226ـ208).

15 ـ الملوك الساسانيون:

1 ـ أردشير الأول (241ـ226م).

2 ـ شابور الأول (241ـ272).

3 ـ هرمزد الأول (272ـ273).

4 ـ بهرام الأول (273ـ276).

5 ـ بهرام الثاني (276ـ293).

6 ـ بهرام الثالث (293).

7 ـ نرسي (نرسيس) (302ـ293).

8 ـ هرمزد الثاني (302ـ309).

9 ـ شابور الثاني (309ـ379).

10 ـ أردشير الثاني (383ـ379).

11 ـ شابور الثالث (388ـ383).

12 ـ بهرام الرابع (388ـ399).

13 ـ يزدجرد الأول (399ـ420).

14 ـ بهرام الخامس (420ـ438).

15 ـ يزدجرد الثاني (438ـ457).

16 ـ هرمزد الثالث (457ـ459).

17 ـ فيروز (457ـ484).

18 ـ بالاش (484ـ488).

19 ـ قباذ الأول (488ـ497).

20 ـ مدع بالعرش (496ـ499).

21 ـ قباذ الأول (499ـ531).

22 ـ كسرى الأول (531ـ579).

23 ـ هرمزد الرابع (579ـ590).

24 ـ كسرى الثاني (590ـ628).

25 ـ بهرام السادس (590ـ591).

26 ـ بسطام (591ـ595).

27 ـ قباذ الثاني (627ـ628).

28 ـ أردشير الثالث (628ـ630).

29 ـ بوران (629ـ631).

30 ـ هرمزد الخامس (632ـ631).

31 ـ كسرى الثالث (633ـ632).

32 ـ يزدجرد الثالث (651ـ633).

16 ـ ملوك بلاد آشور:

1 ـ توديا.

2 ـ أدامو.

3 ـ يانكي.

4 ـ كتلامو.

5 ـ خرخارو.

6 ـ مندارو.

7 ـ امصو.

8 ـ خرصو.

9 ـ ددانو.

10 ـ خانو.

11 ـ زوآبو.

12 ـ نوآبو.

13 ـ أبازو.

14 ـ بيلو.

15 ـ أزارح.

16 ـ أوشبيا.

17 ـ ابياشل.

18 ـ هاله.

19 ـ سمانو.

20 ـ حيانو.

21 ـ ايلو ـ مير.

22 ـ يكميسي.

23 ـ يكيمني.

24 ـ يذكر ـ ايلو.

25 ـ ايلا ـ كبكبي.

26 ـ أمينو.

27 ـ سوليلي.

28 ـ كيكيا.

29 ـ أكيا.

30 ـ بوزر آشور الأول.

31 ـ شالم ـ أخم.

32 ـ ايلو شوما.

33 ـ ايريشم الأول (الحارث).

34 ـ ايكونم.

35 ـ سرجون الأول.

36 ـ بوزر آشور الثاني.

37 ـ نرام ـ سين.

38 ـ ايريشم الثاني.

39 ـ شمسي أدد الأول (1781ـ1813).

40 ـ اشمي ـ دكان الأول (1741ـ1780).

41 ـ آشور ـ دوكل.

42 ـ آشور ـ أيلا ايدي.

43 ـ ناصر ـ سين.

44 ـ سين ـ نامر.
45 ـ ابقي ـ عشتار.
46 ـ أدد ـ صلالو.
47 ـ أداسي.
48 ـ بيلو ـ باني.
49 ـ لبايا.
50 ـ شرما ـ أدد الأول.
51 ـ بازيا.
52 ـ ابطار ـ سين.
53 ـ للايا.
54 ـ كدن ـ نينوآ.
55 ـ شرما ـ أدد الثاني.
56 ـ ابريشم الثالث.
57 ـ شمسي ـ أدد الثاني.
58 ـ اشمي ـ دكان الثاني.
59 ـ شمسي ـ أدد الثالث.
60 ـ آشور ـ نيراري الأول.
61 ـ بوزر ـ آشور الثالث.
62 ـ أنليل ـ ناصر.
63 ـ نور ـ ايلي.
64 ـ آشور ـ شدوني.
65 ـ آشور ـ رابي.
66 ـ آشور نادن آخي الأول.
67 ـ أنليل ناصر الثاني (1427ـ1432).
68 ـ آشور ـ نيراري الثاني (1420ـ1426).
69 ـ آشور بيل ـ نشيشو (1411ـ1419).
70 ـ آشور ريم ـ نشيشو (1403ـ1410).
71 ـ آشور نادن آخي الثاني (1393ـ1402).
72 ـ أريبا ـ أدد الأول (1366ـ1392).
73 ـ آشور أوبالط الأول (1330ـ1365).
74 ـ أنليل ـ نيراري (1320ـ1329).
75 ـ ارك ـ دين ـ ايلي (1308ـ1319).
76 ـ أدد ـ نيراري الأول (1275ـ1307).
77 ـ شيلمنصر الأول (1245ـ1274).
78 ـ توكلتي ـ ننورتا الأول (1208ـ1244).
79 ـ آشور نادن أپلي (1204ـ1207).
80 ـ آشور نيراري الثالث (1198ـ1203).

81 ـ أنليل كودوري أوصر (1193ـ1197).

82 ـ ننورتا آبل ايكور (1180ـ1192).

83 ـ آشور دان الأول (1134ـ1179).

84 ـ ننورتا توكلتي آشور.

85 ـ متكل ـ نسكو.

86 ـ آشور ـ ريش ـ ايشي (1116ـ1133).

87 ـ تجلا ثبليزر الأول (1077ـ1115).

88 ـ أشارد آبل ايكور (1075ـ1076).

89 ـ آشور بيل كالا (1057ـ1074).

90 ـ أريبا ـ أدد الثاني (1055ـ1056).

91 ـ شمسي ـ أدد الرابع (1051ـ1054).

92 ـ آشور ناصر بال الأول (1032ـ1050).

93 ـ شيلمنصر الثاني (1020ـ1031).

94 ـ آشور ـ نيراري الرابع (1014ـ1019).

95 ـ آشور رابي الثاني (973ـ1013).

96 ـ آشور ريش ايشي الثاني (968ـ972).

97 ـ تجلا ثبليزر الثاني (935ـ967).

98 ـ آشور دان الثاني (912ـ934).

99 ـ أدد نيراري الثاني (891ـ911).

100 ـ توكلتي ـ ننورتا الثاني (884ـ890).

101 ـ آشور ناصربال الثاني (859ـ883).

102 ـ شيلمنصر الثالث (824ـ858).

103 ـ شمسي ـ أدد الخامس (811ـ823).

104 ـ أدد ـ نيراري الثالث (783ـ810).

105 ـ شيلمنصر الرابع (773ـ782).

106 ـ آشور دان الثالث (755ـ772).

107 ـ آشور ـ نيراري الخامس (745ـ754).

108 ـ تجلا ثبليزر الثالث (727ـ744).

109 ـ شيلمنصر الخامس (722ـ726).

110 ـ سرجون الثاني (705ـ721).

111 ـ سنحاريب (681ـ704).

112 ـ أسرحدون (669ـ680).

113 ـ آشور بانيبال (668ـ6/627).

114 ـ آشور ـ أطل ـ ايلاني (624ـ626؟).

115 ـ سين شومو ليشر.

116 ـ سين ـ شار ـ اشكن (؟ـ612).

117 ـ آشور ـ أوبالط الثاني (609ـ611).

فهرست الأماكن

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـــ ر ـــ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ك، گ ـ

— ل —

— ن —

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرست الأعلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

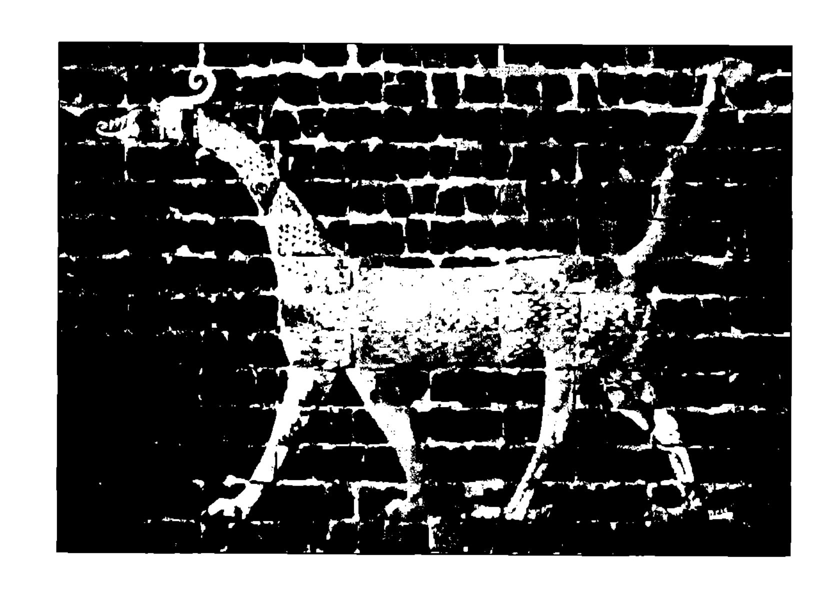
ـ ر ـ

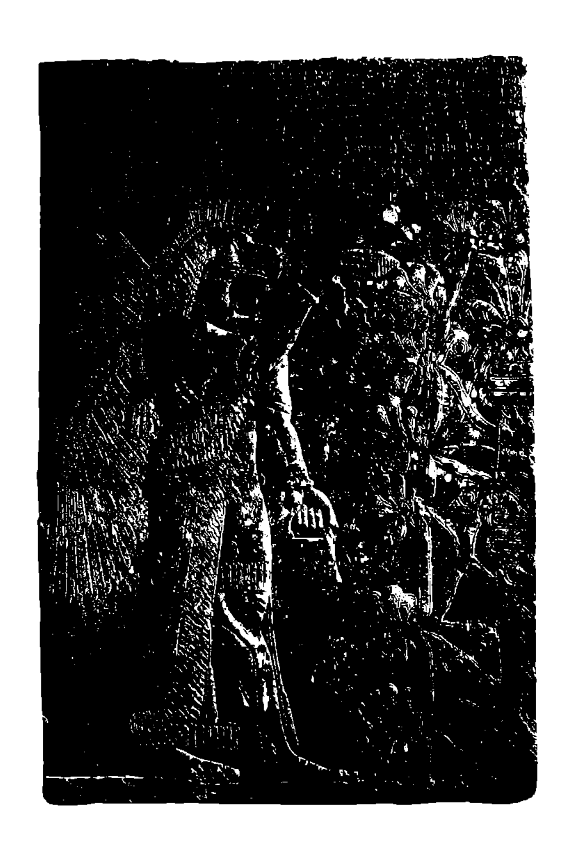
ـ ش ـ

ـ ل ـ

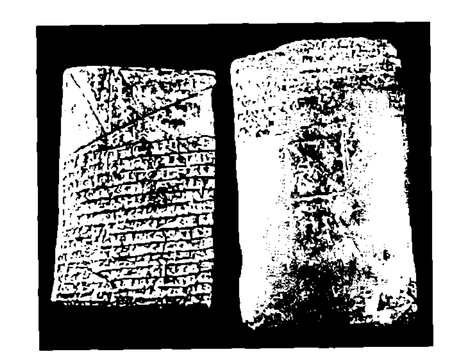
ـ م ـ

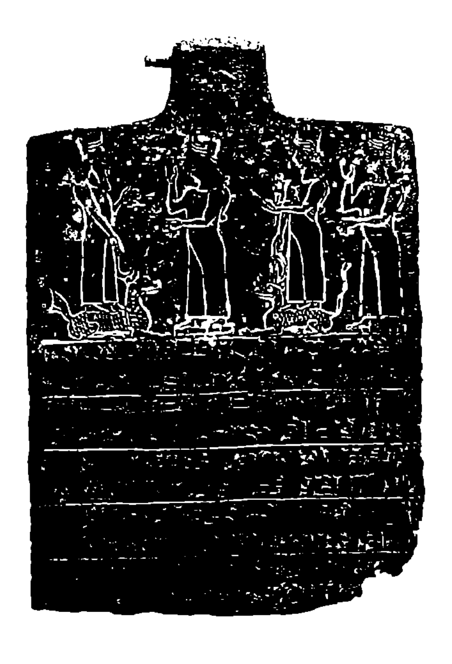
ـ ن ـ

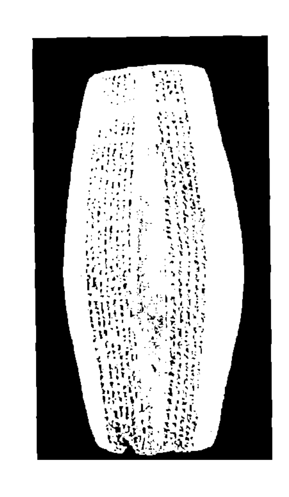




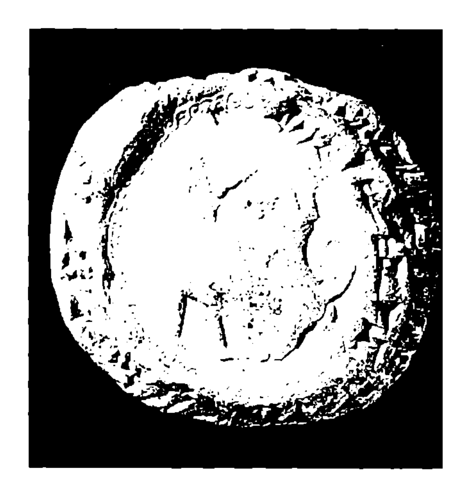


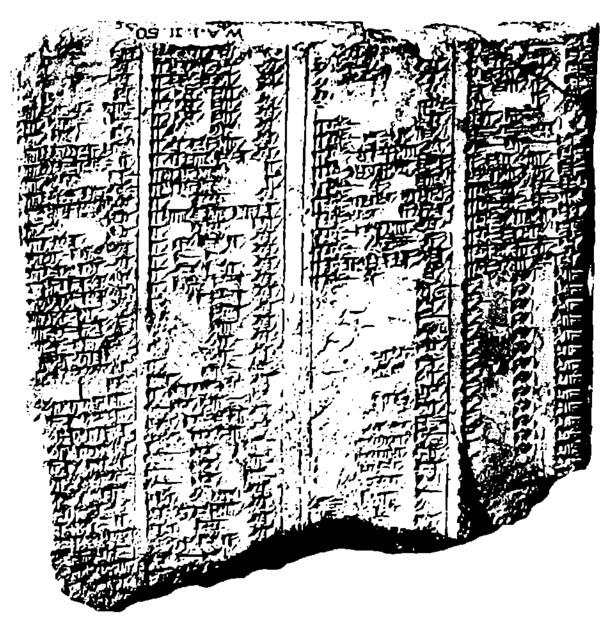


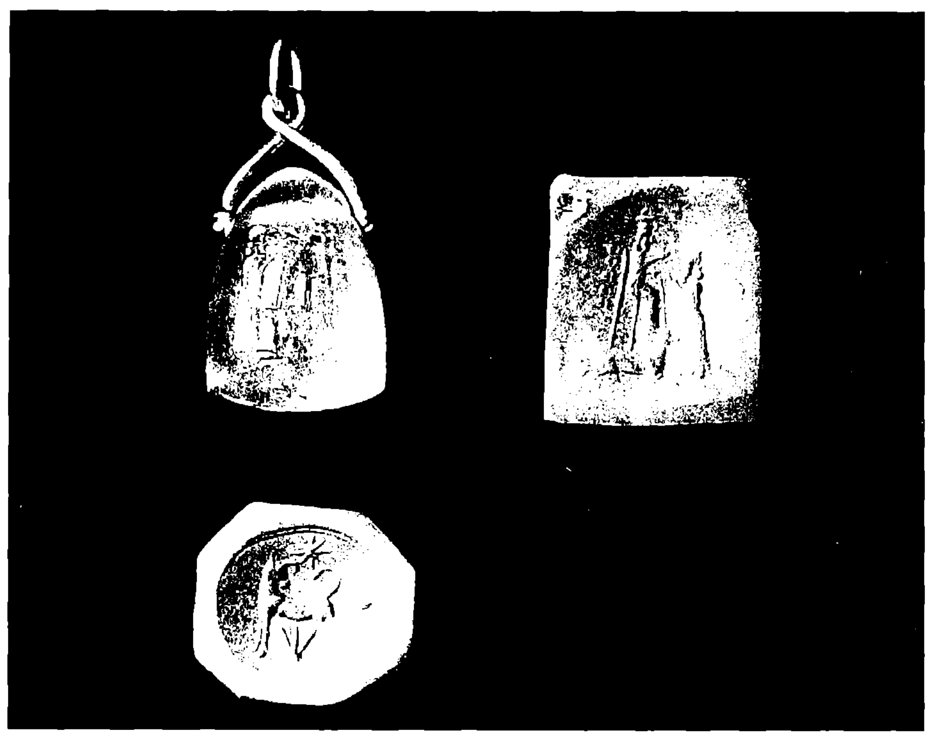




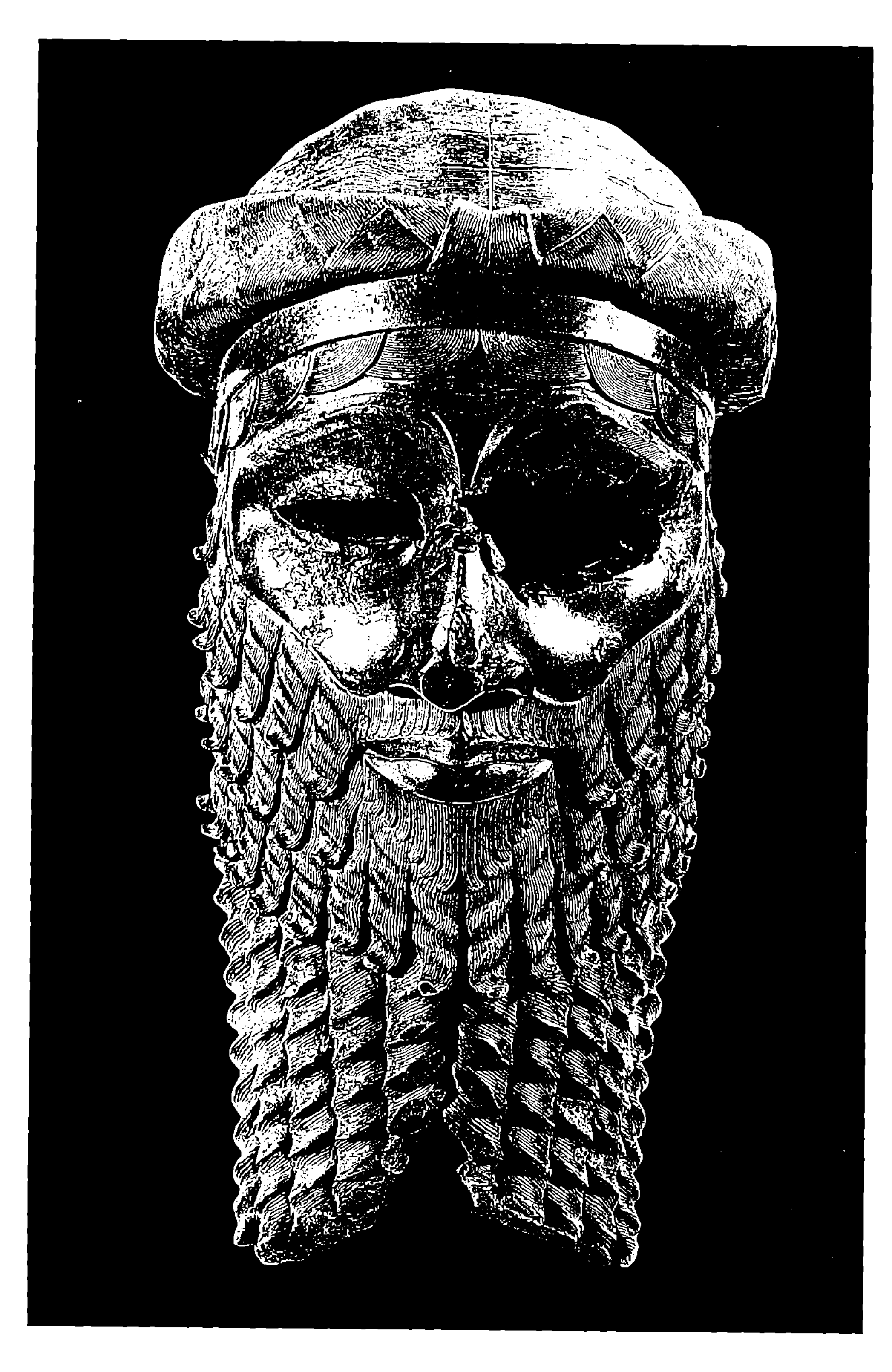


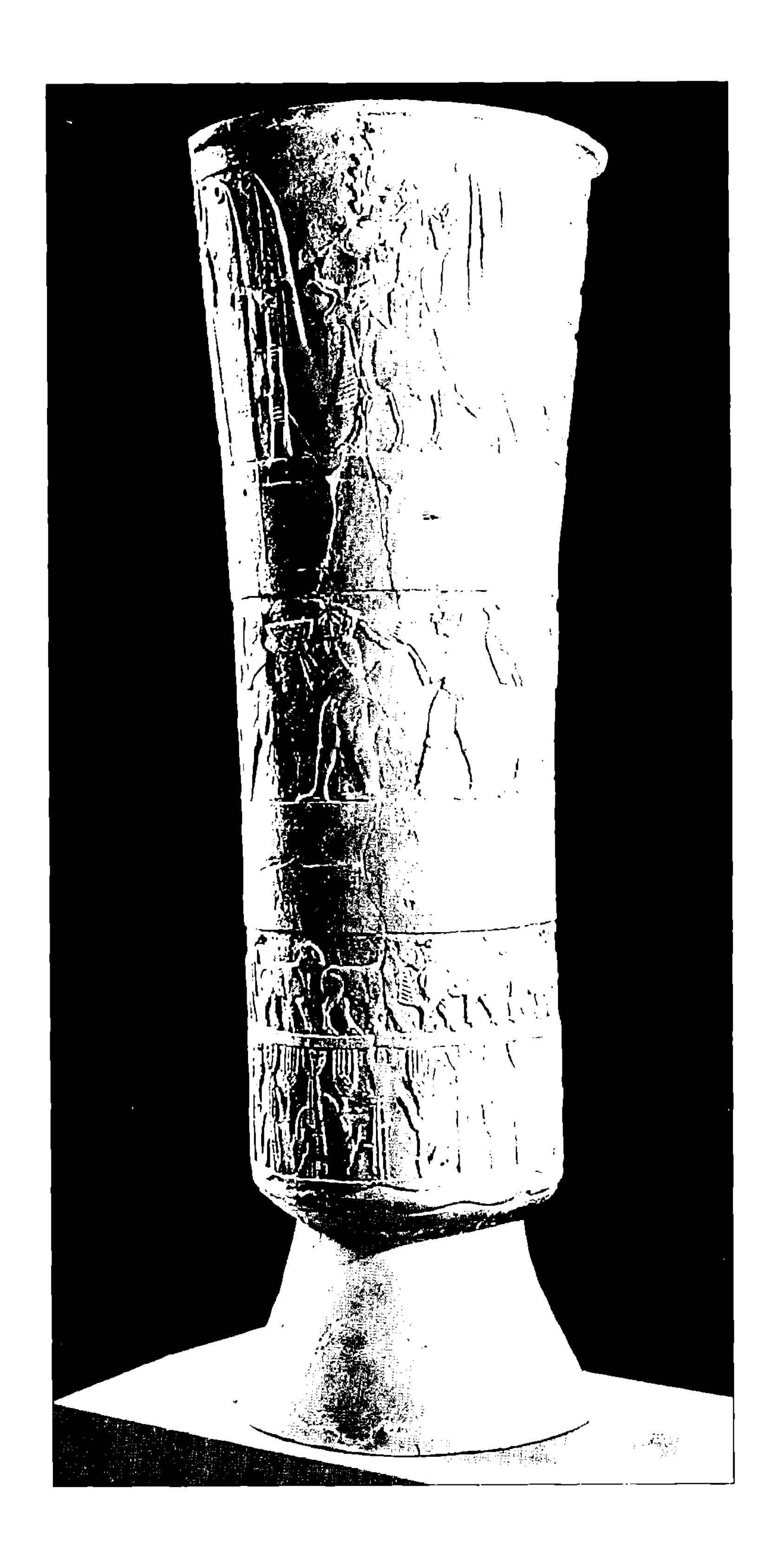


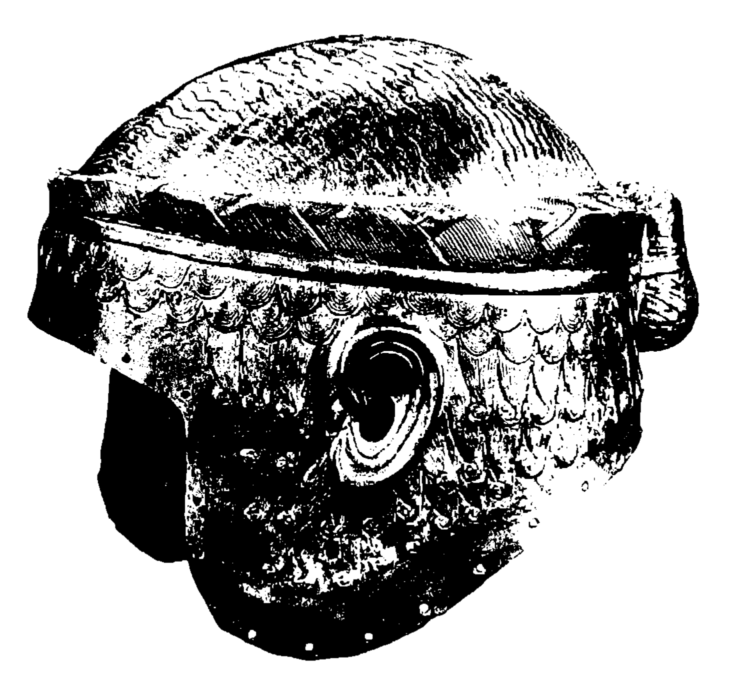














هذا الكتاب

إن سعة المادة التي تجمعت لدي عن حضارة وادي الرافدين استلزمت توزيع هذه المادة في جزأين، خصصت الجزء الأول منهما، وهو الذي أقدمه للقُراء الآن، لتأريخ العراق القديم منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى نهاية العصر الساساني أي بداية الفتح العربي الإسلامي، موجزاً فيه عهود هذا التأريخ المتطاول في القدم، وخلاصة الأحداث السياسية والحضارية والسلالات والدول التي حكمت فيها وما صاحب ذلك من تغييرات اقتصادية واجتماعية وفنية، بإيجاز الخصائص الحضارية والثقافية لكل دور من أدواره التأريخية. أما القسم الثاني، فقد خصصته للأوجه والمقومات الحضارية المختلفة من ديانة ومعتقدات، وشرائع وآداب، ومعارف وعلوم، ونظم ومؤسسات اجتماعية وسياسية واقتصادية. وثانياً استتبع عن هذا التقسيم أني غيّرت طريقة عرض المادة التي اتبعتها في كتابي القديم، الذي كنت قسمت الجزء الأول منه الخاص بحضارة وادي الرافدين أما الجزء الثاني فقد تناول حضارات الشرق القديم. إلى قسمين، تناول القسم الأول منهما إيجاز الأدوار التأريخية من الناحية السياسية، وخصص القسم الثاني للأوجه الحضارية المختلفة. ومع أن هذا التقسيم لا يزال متبعاً في كتابي الجديد، بيد أن ما ذكرته من ازدياد مادة الكتاب وحجمه من جهة، ومتطلبات المنهج التأريخي الجديد الذي اتبعته في طريقة العرض، كل ذلك جعلني أوجز في الجزء الأول من كتابي الجديد المخصص للأدوار السياسية الخصائص والميزات الحضارية العامة في نهاية كل عصر من العصور التأريخية، مرجئاً التفصيل والإسهاب إلى الجزء الثاني الذي سيتناول المواضيع الحضارية كلاً على انفراد، ويتتبع كل موضوع حضاري منها وتطوره عبر الأدوار التأريخية المختلفة في تأريخ حضارة وادي الرافدين. ولعله لا يخفى على القارئ ما لهذا الأسلوب الجديد في العرض من فوائد وميزات، في جعله يلم بمقومات حضارة وادي الرافدين في كل عصر من عصورها المعروفة، ويتابع تبدلاتها وتطورها عبر تلك العصور، بحيث يستطيع قارئ الجزء الأول ممن لا يريد التبسط والتوسع أن يؤجل إلى حين قراءة القسم الثاني المخصص لتلك المقومات والأوجه الحضارية كما ذكرنا.

وإذا كان كتابي هذا قد وضع بالدرجة الأولى ليفي بحاجة طلاب التأريخ القديم وفرع الآثار والحضارات القديمة في كليات الجامعات العراقية، وبحاجة غير المختصين في الموضوع أيضاً، فإنني لعلى يقين من أنه سيحقق إلى ذلك حاجة المختصين وعامة المثقفين ويغنيهم عن مراجعة المئات من البحوث والنشرات المختلفة المتفرقة في عشرات المجلات الآثارية في اللغات الأوروبية.

ورغم ما قد يحمل مني محمل التبجح لا معدى لي من القول إنني وفيت الكثير من تلك الدراسات والبحوث حقها من الدرس والمتابعة، آخذاً منها أهم المطالب والآراء الجديدة، كما تشير إلى ذلك المراجع والمظان الكثيرة التي استشهدت بها في كل صفحة تقريباً، وإن كتابي هذا ثمرة اشتغالي في حقل الآثار والتأريخ، تنقيباً وبحثاً وتدريساً ونشراً طوال أكثر من ربع قرن من الزمان. وإلى المادة الجديدة التي نوهت بها أضفت إلى الجزء الأول أثباتاً تأريخية مفصلة بالأدوار التأريخية والسلالات الحاكمة وأسماء ملوكها مما يحتاج إلى الرجوع إليها المختصون وغير المختصين.

ISBN 978-1-900700-45-0

9 781900 700450

دار الوراق للنشر

Alwarrak Publishing Ltd.